التيسير في التفسير

الجزء الثاني

تفريغ الحلقات (51 - 90) من تفسير القرآن الكريم
والمتضمنة تفسير:
(54 - 127) من سورة البقرة

لفضيلة الشيخ الوالد

أبي قتادة الفلسطيني

-حفظه الله ورعاه-

محرم 1443هـ - أغسطس 2022م

التيسير في التفسير

الجزء الثاني

تفريغ الحلقات (٥١ - ٩٠) من تفسير القرآن الكريم

والمتضمنة تفسير الآيات (٥٤ - ١٢٧) من سورة البقرة

لفضيلة الشيخ الوالد:

أبي قتادة الفلسطيني

(عمر بن محمود أبو عمر)

- حفظه الله ورعاه -

محرم ١٤٤٤هـ - أغسطس ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله، وأصلي وأسلم على رسول الله، وعلى صحبه ومن والاه واتبع هداه، أما بعد.

فنضع بين أيديكم -معشر القراء الكرام - الجزء الثاني والأخير من تفريغ السلسلة النافعة المباركة في (تفسير القرآن الكريم)، والذي سجله شيخنا الوالد شيخنا الوالد «أبو قتادة الفلسطيني؛ عمر محمود أبو عمر» -حفظه الله-، خلال السنوات الماضية وقد نُشر من حلقات هذا التفسير (٩٠) حلقة فقط، وصل فيها الشيخ إلى تفسير الآية (١٢٧) من سورة البقرة، ثم توقف التفسير -للأسف-.

وقد كنا نشرنا -بفضل الله وقوته- قبل عدة أشهرٍ الجزءَ الأول من تفريغ هذه السلسلة، ثم استمرَّ العملُ على إكمال السلسلة لما فيها من خيرٍ ونفع، وهو ما تراه بين يديك الساعة، فنحمد الله على التمام والنعمة أن يسَّر لنا وأعاننا على هذا الخير، الذي كنا نرجو أن يستمرَّ حتى آخر كتاب الله العظيم، ولكن: ليس كل ما يتمنى المرء يدركه؛ فنرجو الله أن ييسرَ لشيخنا الإكمال، وأن يعيننا على سماعها وتفريغِها حينئذ.

وقد حرصنا في هذا التفريغِ على اتباع المنهجية المعتادة التي نسلكها في تفريغ محاضرات الشيخ، وهي:

- إعادة صياغة الكلام ليكون صالحًا للقراءة، فقدمنا وأخرنا بعض الجمل، وحذفنا المكرر، واستعملنا بعض أدوات الربط -كحروف الجر والعطف- ليكتمل السياقُ والمعنى.
- وقمنا بتشكيل الآيات وضبطها، مع عزو كل آية لموضعها من كتاب الله تعالى بين [معكوفين].
- وكذلك فعلنا في الأحاديث النبوية والآثار التي وضعناها في أقواس خاصة، مع مراعاةِ أن نذكر لفظ الحديث النبوي إن كان الشيخ ذكره بالمعنى، اللهم إلا إذا كان المعنى مؤثرًا في الشرح فنثبت المعنى حينها؛ لأنه مقصد الشيخ، وهو قليل أو نادر.

وزيادةً في الخير فقد كانت ترد بعض الأسئلة على الشيخِ بعد المحاضرات، منها ما هو متعلق بالدرس ومنها ما هو خارج موضوعه؛ فكل ذلك أثبتناه في التفريغ، فحرصنا على تفريغ كل الكلام الذي قاله الشيخ في هذه الصفحات الماثلة بين يديك؛ سواء أجوبته على السؤالات، أو تفسيره للآيات.

نسأل الله عز وجل أن ينفعنا بهذا التفسير، وأن يجزل لشيخنا من عطاياه، والله ولي التوفيق

وكتب/ **أبو عبد الرحمن**

الدرس الواحد والخمسون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أيها الإخوة الأحبة هذا هو الدرس الواحد والخمسون من دروس التفسير أهلاً وسهلاً بكم وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾ [البقرة: ٥٤-٥٦].

هنا نرى أيها الإخوة الأحبة خلافاً يسيراً بين أهل العلم فبعض أهل العلم عد هذا الكلام متصلاً بما قبله، وقال: إن هذا هو العد الخامس من نِعم الله عز وجل على بني إسرائيل، فمجموع ما تقدم من النِعم التي ذكرها الله عز وجل على بني إسرائيل في هذه السورة، منذ أن بدأ الحديث عنهم وعن عد النِعم وتفصيلها فهذا هو العدد الخامس من النِعم، فهنا لابد إذا أخذنا بهذا المعنى وهو أن الكلام متصل فلابد أن نرى ما هو وجه ذكر العفو مرةً ثانية، فقد تقدم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)﴾ [البقرة: ٥١-٥٢]، فتقدم ذكر العفو.

ثم هنا يأتي ذكر أمرٍ آخر هو أن العفو لم يقع بلا تكليف أو بلا عمل، بل هنا ذكر أمرٌ عظيم وهو أمر الله عز وجل لهم بأن يقتلوا أنفسهم، فما هو وجه ذكر الأمر على هذين الوجهين؟ فالأول قد ذكر فيه العفو وكأنه إزالة للذنب وانتهى الأمر، ثم هنا يقول لهم: إنكم إذا أردتم أن يتوب الله عز وجل عليكم فعليكم أن

تقتلوا أنفسكم، هذا إذا قلنا بهذا القول هو الأقرب، وهناك من أهل العلم من قال: هذا الكلام مستأنف؛ بمعنى أنه كلامٌ جديد لا علاقة له بما تقدم في تعداد النِعم.

والقول الأول أصوب وذكرهما أي ذكر هذين القولين صاحب «البحر المحيط» أبو حيان الأندلسي، فإذن القول الأول فيما ينبغي النظر إليه هو الأقوى بمعنى أن الكلام متصل، وقطعه بلا سببٍ موجب خطأ، وإنما دعاهم أي الذين قالوا بهذا القطع والاستئناف أنهم ربما عجزوا عن الجمع بين العفو الذي رفع الإثم كلياً وهنا العفو الذي فيه أمر ليقع العفو الكلي، فما هو وجه ذكر العفوين، تقدم ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١]، وهنا يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

وأقوى ما قيل في هذه المسألة هو أن العفو الأول هو شريعة العفو، أي تشريع العفو، يعني الله سبحانه وتعالى حين يشرع العفو لعبيده فيكون قد عفا عنهم فهو تشريع العفو، وتشريع العفو هو عفوٌ من الله سبحانه وتعالى، لأن الله سبحانه وتعالى من حقه على العبيد أنهم لو عصوا أن لا يغفر لهم، لأن الله عز وجل أمرهم فيجب الطاعة، ولكن أن يأمرهم سبحانه وتعالى أن يطلب منهم أن يتوبوا ويفتح لهم باب التوبة هذا من باب العفو، أي أمرٌ زائدٌ في الفضل، فالله سبحانه في الآية الأولى لما ذكر قوله: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا﴾ [البقرة: ٥١-٥٢]، أي شرعنا لكم أن تستغفروا فيعفى عنكم، هذا واحد.

الثانية: فيها بيان كيفية أن يتوبوا، يعني الله سبحانه وتعالى من رحمته أن عفا على البشر بأن قبل منهم التوبة، وهذا ضد ما عليه مذهب النصارى ودين النصارى، فالنصارى يرون الخطيئة، أن آدم عليه السلام قد أخطأ وأنه نزل إلى الأرض فتلبس أبناؤه جميعهم هذه المعصية، وتلبست الخطيئة بهم؛ ولذلك بنوا على هذا التلبس -تلبس الأبناء بخطيئة الآباء- بنوا عليه اعتقادًا كبيراً فكل دين النصارى مبنيٌ على هذا بأن وقع الفداء فوقع الصلب ووقع العفو بعد ذلك والمسرة كما يقولون، فإذن هذا الوجه هو أقوى ما قيل في هذه المسألة، بأن الله سبحانه وتعالى عفا عنهم في الآية الأولى بأن شرع لهم العفو وهنا بيّن لهم كيفية حصول المغفرة لو أرادوا الدخول في العفو.

هنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾ [البقرة: ٥٤]، القوم هنا إخواني أخذت من قيام الشيء الذي يقوم بالأمر ولذلك قالوا: بأن القوم لا تصلح إلا للرجال، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، فميز النساء عن القوم، فإذن النساء لسن من القوم؛ لأن الأمور لا تقوم بهن، وإنما يقام بالرجال، فقوم الرجل من يقومون بشأنه وهم الرجال وهذا هو الأقوى.

وهناك يمكن ويجوز من باب التبع أن تطلق النساء من القوم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، فهنا يدخل فيها الرجال والنساء، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١]، فهو مرسل إلى الرجال والنساء، ولكن النساء هنا تبع للرجال، وعامة من حارب وقاتل هم الرجال، فدون النساء يكون تبع لهؤلاء الرجال، فإذن القوم تطلق على الرجال أصالةً ثم يدخل فيها التابع كما يدخل العبد والأجير، الأسيف يدخل تابعاً للأمر الموجه إلى سيده.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٥٤]، موسى عليه السلام قومه هم بنو إسرائيل، لأن موسى عليه السلام من بني إسرائيل، وبنو إسرائيل من إسرائيل وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام وينتهي نسب موسى بن عمران عليه السلام ينتهي نسبه إلى نبي الله عز وجل يعقوب عليه السلام، فهم قومه، وكل نبيٍ أرسل إلى قومه خاصة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾ [البقرة: ٥٤]، فلماذا يخاطبهم يا قوم، لماذا لم يقل لهم يا مسلمون؟ يا مؤمنون؟ وخاطبهم يا قوم؟ ذلك لأنهم قومه، ولم يرسل إلا إليهم، فلم يرسل إلى غيرهم.

لكن جاء الخطاب عندما كان في مصر توجه إلى آل فرعون بطلب الإيمان، أمرهم أن يؤمنوا بالله، وذلك لأن طلب التوحيد لا علاقة له بهذه القضية، وهي قضية الدخول في الشرائع، ويمكن هنا إذا جاز لنا أن نؤول ما في الكتاب عندهم فإن عيسى عليه السلام قال: «إنما بعثت لخراف بني إسرائيل الضالة»، هذا ما يقوله الإنجيل عندهم، فلما جاءت إليه امرأةٌ من غير بني إسرائيل طلبت منه الهداية فلم يحتملها وقال: «أرسلت إلى خراف بني اسرائيل الضالة»، ثم في نصٍ آخر يأمرهم بأن يذهبوا بهذا البشارة ويكرزوا فيها بين

الأمم، فيمكن الجمع بين هذا وهذا أي بأن التشريع خاص بقوم، ولكن التوحيد من أجل النجاة، كل من عرض له الأمان يدعوه.

كما أن يوسف عليه السلام داخل في قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من نبيٍ إلا أرسل إلى قومه خاصة)، وبعد ذلك دعا من معه في السجن وليسوا من قومه، فدل على أن خطاب التوحيد عامٌ لكل البشر، وأما الشرائع فخاصة بالقوم الذين أرسل إليهم، ويمكن القول بأن المقصود الأول هو أن يرسل إلى قومه خاصة وإذا حضر غيرهم فلا يطرد من رحمة الله ولا يطرد من الدعوة إذا جاؤوا في طريقه، فهو يدعوهم إلى الله عز وجل كما حصل مع موسى عليه السلام فإنه دعا فرعون وآل فرعون إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وإخراج بني إسرائيل من ظلمهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٥٤]، تقدم الكلام في ﴿وَإِذْ﴾ بأنها اسم لظرف زمان وتتحدث عن أمرٍ فائت وفرقنا بينها وبين إذا، قلنا كلاهما «إذ» و«إذا» ظرف زمان، ولكن «إذ» تتحدث عن أمر ماضٍ، و«إذا» تتحدث عن أمرٍ آتٍ مستقبلي، ولعدم نسيانهما، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤)﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤]، فالليل إذ أدبر هذا أولاً يكون الأول هو أدباره فإقبال الصبح يكون أتياً.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾ [البقرة: ٥٤]، نحن نرى أن الله عز وجل ذكر عن موسى عليه السلام أنه يستخدم هذا الخطاب الرقيق في مواطن ولا يستخدمه في مواطن أخرى، فهنا نرى أن الله عز وجل أخبرنا أن موسى عليه السلام قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ﴾، ولكن عند الأمر بذبح البقرة قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، ولم يقل يا قوم، ونراه في سورة «المائدة» يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، ذكر يا ﴿قَوْمِ﴾، وكذلك في سورة «الصف» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]، فمتى يكون ذكر هذا الخطاب كقول: ﴿يَا قَوْمِ﴾، ومتى لا يذكر؟

بلا شك أن قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾، هو في وقتٍ يحتاج إليه إلى عِظم ما يكلف به ويخاطب به، فهو يتقرب إليهم ويتحبب إليهم، يعني عندما أنت تقدم هذا اللفظ يا قومي فكإنك تتألفهم، لماذا؟ لأن الأمر الذي سيأتي عظيم، فإذا خلى من هذا الخطاب وخلى من هذا النوع من الأسلوب في الحديث فدل على أن ما أمرهم سهل وميسور وهذا ما نراه، فهنا لما كان الأمر عظيماً قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، الأمر فيه قتل النفس، فاحتاج المتحدث لهذا النوع من الخطاب لتقرب والتحبب والقرب، ولكن لما كان الأمر يتعلق بذبح البقرة، فلا يحتاج الأمر لمثل هذا الخطاب، أن يذبح بنو إسرائيل بقرة فهذا الأمر يسير لا يحتاج، لكن لما كان الأمر لدخول الأرض المقدسة والقتال قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠]، فاحتاج إلى التقرب واحتاج إلى التحبب لهم، ولما كان الأمر كذلك فيه تذكير بأنهم يؤذونه، فأراد أن يقرب الأمر لم تفعلون هذا، وهذا من باب التحبب فلذلك ذكر ﴿يَا قَوْمِ﴾.

فإذن هذا يعلمنا الأدب، ويعلمنا القرآن أسلوب الخطاب، فليس في كل مرةٍ تستخدم نفس الأسلوب، يجب عليك أن تنوع الأساليب بحسب الحال وحسب الحاجة، فالأب عندما يريد من ابنه شيء يسير يمكن أن يقول له: قم، ولكن إذا أراد منه فعليه أن يذكره بكلمات يا ابني يبني يا كذا...، فاختلاف الأسلوب إنما هو مربوطٌ باختلاف الحال، ولو كان الناس يتخاطبون في كل حال بنفس الأسلوب، لما علم الناس الشيء الخطير من الشيء اليسير، فعندما يكون الشيء عظيم يحتاج إلى أسلوب غير الأسلوب الآخر، من ذلك مثلاً: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عينه وعلا صوته حتى كأنه مُنذرُ الجيش، لماذا؟ لأنه يتحدث في أمور عظيمة تتعلق بالغيب ومصير الإنسان، وبخلاف ما لو تحدث مع أهله في أمرٍ آخر.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤]، ﴿إِنَّكُمْ﴾، هنا كما ترون هذا التأكيد، والظلم هنا هو معنى الشرك، لقوله تعالى في خطاب لقمان لابنه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣]، وأعظم أنواع الظلم هو الشرك، ماذا؟ وهو أن يظلم الإنسان نفسه بأن يتخذ إلهًا غير ربه غير الذي خلقه وسوى وعدله ورزقه ومنَّ عليه بالإيجاد والنِعم، فالظلم إذن هنا ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، أي أشركتم بالله عز وجل، وهذا أعظم أنواع الظلم.

لماذا يظلم المرء نفسه بالشرك؟ لأن هذا خلاف العدل، العدل هو أن تشكر المنعم، والشرك شكرت غير المنعم، والعدل هو أن تخاف ممن بيده كل شيء، والظلم هو أن تخاف من ليس بيده شيء، وقيام العبادة على الخوف والشكر، فالشكر هو النظر إلى من أنعم عليك أوجدك سواك عدلك وأنعم عليك بالنعم الكثيرة، وأما الظلم وهذا يقابله الشرك يقابله الظلم في عدم الشكر، بأن تشكر غيره، وأما الثاني الخوف هو النظر إلى العاقبة العقوبة، انظر هنا نِعمة تتعلق بالشكر، وهنا عقوبة نعمة عقوبة، وهما ضدان، فالله عز وجل يشكر من شكره، ويعاقب من كفره، فهذان هما أصل العبادة، فيجب صفرهما لله عز وجل لا لغيره.

فإذن الظلم هو منع الحق أو أداؤه لغير صاحب الحق، وكلاهما في الشرك، أنك لم تؤدي الحق لله عز وجل، ومن لم يؤدي الحق لله فلزومًا عليه أن يجعله لغيره أن يعطيه لغيره ولذلك الشرك ظلم، وقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣]، وقال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وفسر النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح فسر النبي صلى الله عليه وسلم هنا في هذه الآية الظلم بالشرك، الصحابة جاءوا إليه رضي الله تعالى عنهم وقالوا يا رسول الله: «أينا لم يظلم نفسه» خافوا، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]»، هم ظنوا الظلم هو مطلق المعصية، فقالوا: «أينا لم يظلم نفسه» إذن فإذا تحقق نوع الظلم اليسير، فإذا امتنع الأمن أي وقع العذاب، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام: ٨٢]، فامتنعت الهداية وامتنع الأمن لوجود الظلم، فهم ظنوا أن مطلق الظلم يمنع الأمن ويحقق العقوبة ويمنع الهداية، فالنبي صلى الله عليه وسلم فسر لهم الظلم بما فسره القرآن، فقال صلى الله عليه وسلم: «ألم تسمعوا قول العبد الصالح ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣]» فسر الظلم في سورة «الأنعام» بالظلم الذي فسر في سورة «لقمان»، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الأمر الأخر الذي يعلمنا إياه هو أن السياق في سورة «الأنعام» يدل أن الحديث لا يتعلق بأي معصية، ولا يدور الحديث عن قومٍ مسلمين ومؤمنين فعصوا، الحديث كله في سياق حديث إبراهيم عليه

السلام هذه الآية، بعد أن تحدث الله عز وجل عن خبر إبراهيم عليه السلام مع أبيه أزر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥)﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٥]، ثم وصل إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام: ٨٢]، في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام مع قومه، فدل أن الحديث هو حديثٌ عن الإيمان يقابله الشرك، عن التوحيد يقابله الشرك وليس عن مطلق المعصية أي عن قومٍ مسلمين قد عصوا.

لذلك أعظم الظلم هو الشرك، ولذلك الذين يجعلون ثمة معارضة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)﴾ [المائدة: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾ [المائدة: ٤٥]، الذي يجعل أن ثمة معارضة بين هذه الآيات هذا لم يفقه الكتاب، كلها تدل على معنى واحد، وهو أن من لم يحكم بما أنزل الله فيه هذه الصفات الثلاث ولا تتوزع، وإنما هو كافر وإنما هو ظالم وهو فاسق.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، هنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، هو المرء لا يستطيع أن يظلم الله عز وجل، وإنما يظلم نفسه، الظلم لا يقع على الله عز وجل نعم هو أنت تسلب بفعلك هذا حق الله عز وجل في العبادة، لكنك أنت تظلم نفسك، فكيف العبد يظلم نفسه؟

أولاً: في الدنيا في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، الشرك والكفر يمنع من العطاء الإلهي، فكيف إذا قيل: أنتم ترون أن المشرك يتنعم؟ هذا كله عذاب، لأنه من أعطي كالدابة أعطي الطعام ليسمن من أجل أن يذبح بعد ذلك، فلا يقال: قد أنعم عليه، ولو أخذت رجلاً إلى نزهة في صورتها الظاهرة نزهة، إذا صعدت به الجبل إلى رأس الجبل من أجل أن تردیه، فلا يقال: قد أنعمت عليه، فهذه النِعم أعطيت إليه من أجل أن يعاقب، ومن أجل أن يعذب عليها ويزداد عليه العذاب، وهذه ليست من النِعم، هذه من النقم الإلهية.

وأما أعظم ظلم فإنه يرديه، يظلم نفسه يرديه، في جهنم إلى أبد الآباد، ليس لها من نهاية، وهذا من أعظم الظلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤]، تقدم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾، يعني ماذا اتخذوه؟ هل اتخذوه مثلاً للحراثة؟! هل اتخذوه من أجل التسمين ثم الأكل؟! لا، إذن هنا مفعول به ثاني مقدر وجوباً لازمًا أن نوجب هذا المعنى واتخذوه إلهًا يُعبد من دون الله عز وجل.

وتقدم الكلام عن العجل بما هو كافٍ بأنه عجلٌ تعاونت معه الجن من الشياطين، وليس مجرد أنه صنع عجلاً من حليهم التي أخذوها من الأقباط ورحلوا بها، ويقول بعضهم: أنه وضع في مهب الريح، فصار يخرج ويدخل فيه الريح من جوفه ويخرج من دبره، فيكون له صفير وهو الخوار وهذا غير صحيح في ظني، الصواب: أنه حدث ثمة سحر، عما تقدم الحديث عنه في الدرس الفائت، أنه سحرٌ حقيقي وأن له أثر وفي التعامل مع عالم الغيب من الجن، من الغول وغيرهم من سحرة الجن، وقدرتهم بما أعطاهم الله عز وجل من بعض أثارهم على عالم الوجود كالوسوسة، الوسوسة من تأثر الإنسان في عالم الشهادة بما يجري في عالم الغيب وهكذا.

وهناك أحاديث كثيرة تدل على تدخل ما، لا نريد أن نجعله كلياً، قوله تعالى عن الملائكة: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢]، هذا ضرب حقيقي، ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)﴾ [الأنفال: ١٢] هذا ضرب حقيقي وليس مجازي، كانت الملائكة تضرب فهذا جزء من تدخل عالم الغيب في عالم الشهادة، تدخل حقيقي، البركة هذا تدخل عالم الغيب بعالم الشهادة وهكذا، فتدخل الجن بعالم الشهادة مشهود، ومن ذلك أنهم يروننا ولا نراهم، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الشَّيطانَ يَجري مِن ابنِ آدمَ مَجرى الدَّمِ)، هذا كيف؟ هذا كله من عالم الغيب.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥٤]، هنا بعض أهل العلم قالوا: «سمي العجل عجلاً لأنهم عجلوا به قبل مجيء موسى عليه السلام فسمي عجلاً»، وقال بعضهم كأبي العالية فيما ذكره أهل التفسير قال: «سمي العجل لسرعة انقضائه»، كأن الكلمة التي يجمع فيها هذه الحروف العين والجيم واللام، كأنها تدل على السرعة، مثل العجلة أي السرعة، فقالوا:

«فسمي العجل عجلاً لسرعة انقضائه»، يعني لا يعيش ليكبر حتى يصبح بقرة أو ثور، لا، يُعجل به فيبقى عجلاً فينتهي أمره وينقضي زمنه وحياته، هذا مما قالوه والله تعالى أعلم في الصواب في هذا وهذا كله من الفنون العربية التي يعني يكاد المرء لا ينتهي من إدراك معانيها كما قال الإمام الشافعي رحمه الله.

قال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، قالوا هنا: الفاء تفسيرية، الآن يريد أن يبيّن لهم الله عز وجل لهم كيف يتوبوا فيما تقدم من قوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٢]، هنا قال تعالى:﴿فَتُوبُوا﴾، أي طبقوا ما شرعته لكم من العفو، قال: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾، التوبة هي من الإنابة، تاب يعني أنه استغفر من ذنبه الذي عصا الله عز وجل به.

هنا قال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾، البارئ أيها الإخوة الأحبة هو من أسماء الله الحسنى، ولذلك لقوله تعالى: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، فالله عز وجل من أسمائه البارئ، ما معنى كلمة البارئ؟ تجدون كلمة البارئ إذا فسرت فيقال: الخالق، ولا شك أن وجودها في سياق كلمة البارئ يدل على وجود افتراق في المعنى، فلو كانت كلمة البارئ هي نفس كلمة الخالق تماماً بلا زيادة لامتنع التكرار، لكن أن تذكر في السياق دل على وجود معنى منفصل آخر، قد يكون زائداً وقد يكون مميزاً.

وقال بعض أهل العلم: الخالق هنا بمعنى المقدر، ولأن خلق بمعنى قدر أي قدر في الأزل هذا الخلق، وتأتي معنى البارئ هنا الذي أوجد ما قدره، هذا المعنى مما ذكر أن ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، الآن نحن نرى أن في الوجود الذي بين أيدينا لو مثلاً: لو نظرنا إلى الإنسان فالله عز وجل قدر هذا هو الخالق، ثم يخلقوا ولا يبري، البعض يمكن أن يقدر في الذهن شيئاً يقدر عليه لأنه حتى التقدير الذهني يحتاج إلى مَلَكة ويحتاج إلى قدرة، أي ليس كل واحد يستطيع أن يقدر في ذهنه صناعة ما، يعني لو جئت إلى الرسام فطلبت منه صورة ما، فهو يستطيع أن يقدر في ذهنه صورة أنت لا تجدها عندك ولا تكون عندك، لا تستطيع أن توجدها، ولو جئت إلى النجار وطلبت منه أن يقدر في ذهنه قبل أن يوجدها على الأرض قبل أن ينحت بها الشجر وطلبت منه أن يقدر صورة ما فيستطيع أن يقدر صورةً لا تقدر أنت عليها، فليس كل واحد يستطيع أن يتصور أشياء أن يقدرها تقديراً كاملاً جيداً ... إلخ.

والله سبحانه وتعالى قدر الأشياء تقديراً عظيماً، وما نراه من حكمة مرده إلى هذا التقدير، وما نراه من خلق مرده إلى هذا التقدير، وما نراه من تكوين مرده إلى هذا التقدير، فقال بعض أهل العلم: في قوله تعالى: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] أولاً قدر، البارئ يعني يخلق ولا يبري يعني أوجد، وأحدهم يستطيع أن يقدر في ذهنه تقديراً ما ولكنه لا يستطيع أن يوجده على الواقع، في مثل عند الجزائريين يقول لك: الموال في الرأس لكن الرجلين مختلفات -هكذا المعنى أذكر اللفظ- يعني هو الموال الغناء في الرأس نغمة جميلة من أجمل ما تكون ولكن إذا قام ليرقص على النغمة رجليه تختلفان فيسقط لا يستطيع، وهذا يجده المرء يستطيع أن يغني في ذهنه غناءً جميلاً فإذا أخرجه من صوته كان قبيحاً ما يستطيع.

والتصور هو مراتب والله سبحانه وتعالى جل في علاه قدر الأشياء تقديراً عظيماً دال على علمه المطلق ودل على حكمته المطلقة، ثم سبحانه وتعالى هو القوي القادر على أن يبري أن يخلق أن يوجد ما قدره، ثم أوجده فجعل له صورة، الله خلق الطين خلق الإنسان فصوره، قدر وجوده ثم خلقه فصوره، هذا من وجوه ما ذكروه، والذي عنده أن الأمر يختلف قليلاً، الذي عندي أن خلقه على معناها الأول لأن الذهاب بمعنى التقدير صحيح في اللغة ولكنه ليس المراد منها، من الخالق؟ الذي أوجد الشيء من عدمه، ولكن البارئ، البري يطلق على الحدة والقوة، ويطلق على الإتقان، ومن هنا سمي ببريء السهم، السهم إذا أتي به فبوري يعني أعد من أجل أن يخترق جسم المضروب عليه اختراقاً تاماً كاملاً يحقق فيه المراد.

فالبارئ إذن هي إتقان الصنعة كما قال الله عز وجل: ﴿خَلَقَ فَسَوَّى (٢)﴾ [الأعلى: ٢]، ما معنى سوى؟ أي خلقه مستوياً في الكمال، خلق فجعل خلقه مستوياً في الكمال من الخِلقة، فقوله سبحانه وتعالى: البارئ معناه أنه خلقه فأوجده على أحسن خِلقةٍ بالنسبة لهذا المخلوق، وأما التصوير هو تكوينه على هيئةٍ ما، وهذا أليق، خلق أي أوجد الشيء من العدم، الله خلق الشيء من العدم، التراب خلقه من العدم، لم يكن هناك ثمة تراب مادة تكونت، وإن كان الخلق يطلق على التصوير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون: ١٤].

فلا يوجد أحد في الوجود يخلق من العدم إلا الله عز وجل، الإنسان لا يستطيع أن يخلق من العدم، فلماذا الإنسان يسمى خالق؟ إنما يقصد بها أن يصور، يعني الإنسان يستطيع أن يأتي إلى الطين فيشكل

منه مادة، فإذا شكل منه قال: خلقه، الإنسان يأتي إلى الشجرة فيقص هذه الشجرة ثم يبريها وهكذا فيكون منها شكلاً ما، يشكل الباب، يشكل النافذة ... إلخ، فهذا خلق لكنه هل أوجد من العدم، أم تصرف في المخلوق على وجهٍ من وجوه الصور؟ هذا معنى خلق، ولذلك قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون: ١٤]، على هذا المعنى.

إذن رأيتم كلمة خالق يمكن أن تطلق على البارئ ويمكن أن تطلق على المصور، فهي أشمل، ولكنها حين حضورها مع هذين الاسمين ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، دل على أن لها في نفسها معنى خاص ولكل اسمٍ من هذه المذكورة معنى خاص وهو البارئ، فإذن ما معنى البارئ؟ صاحب الخلقة القوي الحسنة التامة.

ومما لا شك فيه أن البارئ هو اسمٌ من أسماء الله مذكورٌ في كتاب ربنا سبحانه وتعالى كما تقدم ذكره، لكن هنا السؤال لماذا ذكر سبحانه وتعالى بارئ، قال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، ولم يقل إلى خالقكم، لماذا؟ الجواب: رأينا أن البارئ تكون بعد الخالق البارئ أي أوجدكم ومعكم في خلقكم القوة، الآن السؤال نحن نعلم أيها الإخوة الأحبة أن الله عز وجل خلقنا وأعطانا من الخلق ما يحقق العبودية لله عز وجل، أن يكون قد خلق خلقاً جيد ولكن أن يكون هذا الخلق مهيئ على معنى براء السهم، أي هيأ السهم لمقصده فهذا الباري وتسمى المبراة، والناس إلى اليوم إلى يسموا المبراة التي يدببون فيها القلم ليكتب.

إذن هو من أجل أن يهيئه لأمر هو موجود القلم ولكن يبرى من أجل أن يهيئ لمقصوده ولما خلق له، ما هي علة خلق الإنسان؟ هو أن يعبُد الله عز وجل، فالله عز وجل خلقكم –انتبه لكلمة يظلمون– الله خلقكم خلقةً لتحقق العبودية لله عز وجل، ما الذي يتلاءم مع هذا الخلق المتلائمة لعبودية الله؟ أن يقال: الخالق أم يقال: البارئ؟ أن يقال: البارئ، ولذلك هذا يتلاءم مع قوله: ﴿ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، أي جعلتم ما صُنع لأمر وما برء لأمر لغير أمره وهو عبادة العجل.

فلذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، أي الذي خلقكم خِلقةً من أجل أن تعبدوه، فذهبتم إلى غير ما خُلقتم من أجله.

قال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، بلا شك أنها على المعنى الحقيقي، هناك من حاول كما تقدم الكلام عما يسمى بالتفسير الإشاري، هناك من أراد أن ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي اقتلوا شهواتكم، اقتلوا ظلمكم لأنفسكم، وهذا غير صحيح، والصواب أن الذي عليه السلف بلا مثنوية أن الله أمرهم أن يقتلوا أنفسهم.

الآن الحكمة أن يقتلوا أنفسهم، لكن كيفية وقوع قتل اختلفوا، ولم أجد أحداً قال: أن يقتل المرء نفسه، وإنما المذكور هو أن يقتل بعضهم، من الذي يقتل، فوقع بعض الكلام لأهل التفسير في هذا المعنى بعضهم قال: يقتل الصالح منهم ممن لم يعبد العجل من عبد العجل، ولو وقع هذا المعنى لما كان في ذلك ابتلاء للتوبة، الذين قالوا هذا الكلام، طبعًا وبلا شك هذه أقوال وأخبار لكن أنا أضعف هذا القول مع انتشاره وغلبة المتكلمين عليه في التفسير، لماذا؟

لأنه لو أمر الطائعون بقتل العصاة لما كان في ذلك توبة للعصاة، يعني عندما أمر الله عز وجل المؤمنين بقتل الكافرين، هل في قتلهم توبة، هل يكون في قتل العاصي والكافر لو أمر المسلم الطائع بقتل الزاني كما هو في الشرع، فهل يكون في ذلك في قبوله توبة له في أن يتوب، وبلا شك هو إذا عوقب في الدنيا ارتفع عنه الذنب، ولكن الله يريد منهم أن يتوبوا وطريقة توبتهم هو أن يقتلوا أنفسهم، فدل هذا على أنه قد أمر العصاة بأن يقتل بعضهم بعضاً.

ولا شك أنه ليس كل بني إسرائيل ممن قام بعبادة العجل وإن لم يذكر في القرآن، لكن لا يتصور أن يكون هناك إطباق، وإنما الكثرة الكافرة والقلة القليلة، ولذلك لما هارون ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾ [طه: ٩٤]، ففرقت دلالة ماذا؟ على وجود الافتراق، على وجود هناك من عبده وهناك من لم يعبده، ولكن الكثرة كانت مع العابدين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١)﴾ [طه: ٩٠-٩١]، لكن في سورة «الأعراف» في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ (١٥٠)﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فدل على وجود الافتراق، لكن من الذي سيقوم بهذه الحالة؟ الذين هم عصوا.

إذن المطلوب هو أن يقتل بعضهم بعضاً، وهناك اختلاف كذلك بين أهل العلم، هل وقع هذا جهرةً، أم ألقيت عليهم الظلمة أم الغمام؟ هذه أقوال موجودة لأهل التفسير، بمعنى أنهم لما نظروا كيف يقتل الأب ابنه، والابن أباه والأخ أخاه، كيف يقع هذا؟ فالله عز وجل ألقى عليهم الظلمة، وفي قول: ألقى عليهم الغمام، نزل عليهم الضباب، فالضباب أعماهم فجعلوا يقتل بعضهم بعضاً دون أن يرى بعضهم بعض، وفي الحقيقة القرآن جلي في هذا أن يقتلوا أنفسهم وربما يقع هذا ولكن ليس في القرآن مما يدل عليه ولو إشارة من بعيد.

فإذن أمرهم الله عز وجل أن يقتلوا أنفسهم –وهنا موقف لابد منه– السؤال لماذا أمرهم الله أن يقتلوا أنفسهم؟ ولا شك أنه كما تقدم، أن الحكمة من ذلك وهو بيان الذي برأكم، أي سواكم خلقةً فيها التهيؤ وفيها إتقان الصنع لأمرٍ واحد وهو أن تعبدوا ربكم فعبدتم غيره فأنا الذي أعطيتكم هذه الخِلقة فردوها إلي، هذا المعنى موجود في الحياة ولكن ليس بهذا.

مثلاً: مما هو معروف أن الفيء، لماذا يسمى أخذ المال من الكفار فيئًا؟ قال: لأنه يعود إلى أصحابه، حيث أن الله عز وجل اشترط للناس أن يأكلوا من رزقه مع عبادته، فحيث كفروا به فلا يستحقون الأكل من طعامه ونعمه، فيجب أن ترد إلى أصحابها، من أصحابها؟ الذين عبدوا الله، فهنا هذا المعنى موجود، وهو أن الله عز وجل قال: أنا خلقتكم خِلقةً هيأتكم فيها من أجل أن تعبدوني فعبدتم غيري، أرجعوا إليّ هذه النعمة التي أعطيتكم إياها ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فهذا المعنى لا يُعترض عليه.

ولذلك هذا يجيب على السؤال هل يمكن أن يأمر ربنا سبحانه وتعالى بشيءٍ على خلاف الحكمة؟ الجواب: لا، لكن هناك من الأمور ما هي معلومٌ لدينا وجه حكمتها، وهناك أمور نعجز عن حكمتها، يعني الله عز وجل لما أمر إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه، وهذا صدور الأمر، هذا حق، أن يذبح المرء ابنه هذا حق من حقوق الله عز وجل، هو الذي أعطاك هذه النعمة، وهي له فعليك أن تتصرف فيها ليس بأمرك ولكن بأمره هو، لكن كانت العاقبة والمآل هو المطلوب وهو أن الله عز وجل ابتلاه، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ

الَّذِي وَفَّى (٣٧)﴾ [النجم: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، هذا مما أتمه عليه السلام.

فالأمر قد يطلب على وجهٍ من وجوه الابتلاء، ويطلب على وجهٍ من وجوه النظر في العاقبة والمآل، والناس يعني هناك من الأمور ما نراها ربما فيها الهلكة في ظاهرها، يعني الآن الزكاة صحيح أنها ليست فيها الهلكة، لكن كيف يعطي المرء المال لغيره وهو لم يتعب فيه؟ الجواب: لأن العاقبة خير، المرء لماذا يترك عمله ويذهب إلى الصلاة؟ يترك عمله ويذهب إلى الحج وينفق ماله، لماذا؟ لأن العاقبة، فالعبرة في الأمر هو النظر إلى العاقبة.

وهنا لا نريد أن ندخل كثيراً في النظر إلى هل التحسين والتقبيح عقلي؟ فهناك بعض أهل العلم قال: الحُسن والقبح يعلمه العقل قبل ورود الشرع، لأنه مما يدرك ببداهة العقول، وهناك من العلماء قال: لا، الحُسن والقبح لا يدرك بالعقل لأنه يمكن أن يُكلف بما لا يرضاه العقل، الأوائل المعتزلة ومن معهم، والقسم الثاني الذي قال: يمكن للرب أن يأمر بما لا يرتضيه العقل، وزعموا أنه يمكن أن يُعذب الله عز وجل الطائع وأن يكرم العاصي، وهذا في الحقيقة انحرافٌ عن منهج القرآن في ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦]، وأن الله عز لا يقول: إلا الحق، قوله الحق جل في علاه.

وهناك القول الثالث: أن الحُسن والقبح يدرك في العقل، الله عز وجل أمر بالصدق والعقول متفقة عليه، الله أمر بالعدل والعقول متفقة عليه، الله سبحانه وتعالى أمر بالإحسان والعقول متفقة وهكذا، ما من أمر إلا وتدرك العقول حسنه وما من نهيٍ إلا وتدرك العقول قبحه، لكن قد يخفى بعض الأمور ويمكن للرب أن يأمر بأمورٍ لا يدرك الناس حسنها إلا بمآلاتها كأمره لإبراهيم عبيه السلام أن يذبح ابنه، فهذا هو القول الجامع.

وأما أن يقال بأن الله عز وجل يأمر بالظلم، فهذا جهلٌ في حق الله عز وجل، وجهلٌ بالقرآن، ومن ذلك لهم أقوال في هذا شنيعة لا نعرج عليها.

كيف يقول: ﴿اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، كيف أمر؟ لأنها له، من رحمة الله عز وجل على هذه الأمة أنه يكفي منهم أن تندم قلوبهم، فالندم توبة، وأن يقلعوا عن هذه المعصية، بل جل في علاه يبدل

السيئات إلى حسنات، إذا حسنت التوبة وقويت وأصلح المرء بعدها وهجرها هُجراناً مخلصًا لله وقويت توبته فالله يبدل السيئات إلى حسنات، وأحسن بعد ذلك، فإذن الله سبحانه وتعالى رحم هذه الأمة بأن لم يعاقبها بما عاقب به الأمم السابقة، فهذه أمة مرحومة، لكن السؤال هل مرحومة بلا موجب أي بلا سبب؟

الجواب: لا، هذه أمة مرحومة ذلك لأنها أتت من الأفعال أي أتى أسيادها وأئمتها وهم الصحابة رضي الله عنهم، وأتى أمامهم وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم بما لم يأتي به إمامٌ آخر ولم يأتي من أسياد الأمم السابقة ما أتى به أسياد هذه الأمة، وذلك كيف تتأثر الأمة باختيار سيدها أي إمامها وقائدها ونبيها، في قوله صلى الله عليه وسلم وفي قول جبريل وقد اختار النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرب اللبن بدل الخمر، فقال: (لو أخذت الخمر غوت أمته)، لما وصل في ليلة الإسراء والمعراج، وصل إلى البيت المقدس فعرض عليه في رواية أنه عرض عليه الخمر واللبن وفي رواية والماء فاختار النبي صلى الله عليه وسلم أن يشرب اللبن وهو الفطرة، فقال: (لو أخذت الخمر غوت أمتك)، فاختيار الأنبياء يؤثر على اختيار أمتهم من بعدهم.

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يطلب كما طلب موسى عليه السلام، فلو أردنا أن ننظر إلى غير ما حدثنا به النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيد ولد أدم، وأنه يوم القيامة هو صاحب المقام المحمود الشفاعة العظمى ولا يقدم عليها غيره صلى الله عليه وسلم، لكن لو رأينا في أخبار الأنبياء لرأينا أن النبي صلى الله عليه وسلم في اختياراته في عبوديته لربه كان أرقى من غيره من الأنبياء، وهذه مقامات لا يقال فيها خير ليكون ما يقابلها شر، لا هذه مقامات عظمى، كلها عظيمة.

فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يطلب كما طلب موسى عليه السلام، لما طلب من الله عز وجل أن يراه، لم يطلب، آمن به ولم يره ولم يطلب هذا الطلب، ولم يطلب النبي صلى الله عليه وسلم أن يُهلك أمته بل صبر عليها، لما جاءه ملك الجبال قال له: «اؤمرني فأطبق عليهم الأخشبين»، قال: (بل اصبروا، عسى الله أن يخرج من ذريتهم من يُعبد الله عز وجل)، فهذه مقاماتٌ لم يصل إليها الأنبياء السابقون، ولذلك قال نوح عليه السلام: كانت لي دعوة مستجابة فدعوت بها على قومي، والنبي صلى الله عليه وسلم خبأ دعاءه إلى يوم القيامة ليشفع للخلق أجمعين.

فإذن هذا النبي صلى الله عليه وسلم عنده من المقامات ما ليس عند الأنبياء، وكذلك هذه الأمة، يعني مثلاً بنو إسرائيل كما سيأتي قالوا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، هذه الأمة لم تطلب من ذلك قط، ما سألت النبي صلى الله عليه وسلم دليلاً على صدقه سوى ما رأوا من صدقه، فلما آمنوا به صدقوه، ومنذ أول لحظة الأنصار قالوا: ما لنا؟ قال: (لكم الجنة٩، منذ أول لحظة ولم يسألوا شيئًا، فدل على أن أسياد هذه الأمة من الصحابة رضي الله عنهم خير من أسياد بقية الأمم.

وبالتالي لوجود الفضل فيهم أعُطوا هذه الكرامة، والأمر بقتل النفس لعظم الجرم الذي اقترفوه، وتكون العقوبة بمقدار الجرم أنهم عبدوا غير الله فاتخذوا العجل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)﴾ [الأعراف: ١٤٨]، والله بيّن أنهم اكتشفوا بعد ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾ [الأعراف: ١٤٩]، فهم انساقوا وراء ذلك فاستحقوا هذه العقوبة.

إذن قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، هو مناسبٌ للعقوبة التي اقترفوها فيما تقدم ذكره، وأن الجرم عظيم، وذلك لأنهم الآن رأوا الآيات، من أعظم الأمم رؤيا للآيات؟ قال صلى الله عليه وسلم: (كان في بني إسرائيل الأعاجيب)، يعني الآن لم تكد أرجلهم تخرج من البحر ورأوا هذه الآية، كيف؟! قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)﴾ [الأعراف: ١٣٨]، نهاهم عن ذلك، فما إن غاب عنهم حتى عبدوا العجل، فإذن يستحقون هذا.

قال سبحانه وتعالى وهذا من خطاب موسى عليه السلام لقومه، قال: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] أي اقتلوا بعضكم بعضًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، ماذا يعني؟ يعني أن الوفاة بالطاعة خيرٌ من البقاء على المعصية، انتبه إلى ميزان الأنبياء وليس إلى ميزان أصحاب الشهوات، أصحاب الشهوات اليوم يقول لك: الحياة مع المعصية خيرٌ من الموت مع الطاعة، ولذلك يفعلون ويقومون

بكل ما يبعدهم عن الموت، وكل ما يبعدهم عن الطاعة من أجل الحصول على الشهوة ومن أجل الحصول على المغنم السريع، وموسى عليه السلام يقول لهم: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾.

فإذا خير المرء بين الموت وبين المعصية فليكن خياره ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾، ليتذكر المرء دائماً هذه الآية، ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾، أي في أن تقتلوا أنفسكم بدل بقائكم عُصاة متلبسين بهذه المعصية دون توبة، وانظر في الحقيقة كيف رحم الله عز وجل هذه الأمة كما قال صلى الله عليه وسلم لما شكوا إليه كما في حديث خباب لما شكوا إليه نصب ما يجدون والعذاب من قريش، فقال صلى الله عليه وسلم: (كان في من كان قبلكم يؤتى بالرجل فيوضع فتحفر له الحفرة ويوضع فيها ثم يؤتى بأمشاط الحديد، يؤخذ ما بين عصبه ولحمه أو عظمه ما يرده ذلك عن دينه، ويؤتى بالرجل يوضع في الحفرة فينشر فيوضع المنشار في رأسه حتى يقسم إلى قسمين لا يرده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذه الأمر –إلى قوله صلى الله عليه وسلم– ... ولكنكم تستعجلون).

وهذا الحديث (ولكنكم تستعجلون)، هو في كل فترة حتى في أيامنا هذه، نحن نستعجل، انتظروا (شَكَوْنَا إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا له: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قالَ: كانَ الرَّجُلُ فِيمَن قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فِيهِ، فيُجَاءُ بالمِنْشَارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُشَقُّ باثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، ويُمْشَطُ بأَمْشَاطِ الحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ مِن عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمْرَ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)[1].

وهذا يقال، هذا حديث الاستعجال، هذا حديث نحن بحاجة كذلك لاستحضاره.

القصد: أن قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾، معيار الحق هو ما في نفس الرب، ما قال: ذلكم خير لكم، لما قال: ﴿ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، الآن يرفع الظلم عن نفسه، فالله عز وجل قال: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فالمناسب أن يقول: ذلكم خير لكم، لكنه قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾

(١) الراوي : خباب بن الأرت | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٣٦١٢ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح].

[البقرة: ٥٤]، معيار الخير فيما تصيب أنت ليس فيما تشتهي، وليس فيما تحب؛ لأنك لو ترك الأمر إلى خيارك لاخترت العاجلة، واخترت الأمر السريع واخترت السم مع الجمال السريع، على الصبر والعاقبة الحسنة والبقاء على الخير، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ولم يسكت، بل قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾.

فالذي يعلم الخير لك هو الله عز وجل، واختيار الله عز وجل لك خيرٌ من اختيارك لنفسك، يعني إلى الآن نحن لم نفهم هذا في نظرنا إلى التشريع، نحن ظننا أن التشريع هو تكليف على معنى الكلفة والمشقة، ولم نعلم أن التشريع هو رحمة لنا، يعني الصوتية التي ربما سمعها كثير من الناس لما تحدث أحد الأطباء عن قضية فضيلة صلاة الفجر على القلب، ربما سمعتموها أنهم درسوا فوجدوا أن عامة المصابين بالجلطة، السكتة القلبية، إنما يصابون بها الساعة الثامنة صباحاً، وقال: والعلاج هو أن لا تنام إلى الساعة الثامنة، العلاج أن تقوم قبل الثامنة وتتحرك فتعالج.

وأنا لا أريد أن أتحدث عن الغيب والآخرة والآثار القلبية والنِعم بالعطاء الإلهي كل هذا أعظم، يعني أعظم ما يعطى المرء هو أن يعرف المرء ربه وأن يتنعم بهذه المعرفة وأن يعبد المرء ربه وأن يتنعم بهذه الطاعة لأنها بصائر وهدى ورحمة -انظر إلى الجمع بصائر وهدى ورحمة- نتحدث فقط عن الجانب الذي نحتاجه ويحتاجه الناس ويتحدثون عنه بعيداً عن الأديان، يعني عندما يتحدث الطبيب الصحي لا يتحدث للمسلمين ولا للكافرين، يتحدث عن الإنسان بما يحتاجه الإنسان، فعندما يقول لك: حتى لا تصاب بالجلطة أفعل كذا فتجد أن الحل هو أن تقوم فتصلي، ويقال للكافر فهو لا يصلي يقول: أمشي خمس دقائق في الطريق فيتحقق هذا المهم أنه يقوم الفجر، ويتحقق قول المؤذن: في أن الصلاة خير من النوم.

القصد: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، علينا أن ننتبه أن الحق والخير هو ما فرضه الله عز وجل علينا، وما شرعه لنا، ليس ما نريد حتى لو كان هذا الأمر فيه قتلٌ لأنفسنا، وقارنوا القتل هذا ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، قارنوه بالجهاد اليوم، مع أن الجهاد ليس قتلٌ للنفس هو أحياءٌ لها، فإن الشهداء أحياء عند ربهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فيه الحياة في الدنيا؛ لأن الحياة بغير جهاد ذلة ومهانة.

قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، أي قتلكم لأنفسكم خيرٌ لكم، قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

قال تعالى: ﴿عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، تقدم الكلام عليه.

قال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، ما الذي حدث؟ هذه كلمة ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، دلت على أنه وقع منهم هذا الفعل، استجابوا، وهذا في سياق المدح الإلهي ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، لأنه لا يتوب عليهم حتى يقع منهم هذا الأمر، فقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، أولاً دل على أن الله عز وجل رحمهم بأن استجابوا لهذا الأمر فصاروا يقتلوا بعضهم بعضًا.

وفي بعض كتب التفسير مما لا أقبله وأرده تماماً أنهم قتلوا في يومٍ واحد سبعين ألفًا، والحق أن بني إسرائيل لا يصلوا لهذا العدد، الأرقام الفلكية الموجودة في داخل التوراة عن أعداد بني إسرائيل في سفر الخروج هي أعداد فلكية كاذبة، يتحدثون عن مئات الألاف، لو كانوا بهذا العدد لتنتصروا وقاتلوا فرعون وقتلوه وخرجوا، وكيف يخرج هذا العدد ليلاً دون أن يحس بهم أحد؟ فدل على أنهم ليسوا بهذا العدد، فأن يقتل سبعون ألف، أن يقتل بعضهم بعضًا في الحقيقة هذه أعداد تضرب بها الأمثال للأغلاط وربما أكاذيب التوراة، ولا ينبغي لسني أن يعتقدها.

المهم أنهم قاموا فقتل بعضهم بعضًا، فلجأ موسى وهارون عليهما السلام إلى الله عز وجل بأن يرفع عنهم البلاء والعذاب فاستغاثوا بالله عز وجل فرفع هذا الأمر، فطبقوه وأتوا به على وجه فمن قُتل، قُتل شهيداً ومن بقي، بقي إلى سعيدًا في أنه طبق أمر الله عز وجل، فقال: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

الله عز وجل يتوب على العباد بأمرين: إما أن يرفع عنهم الذنب قبل وجوده فلا يحصل منهم إثم، وإما أن يرفع عنهم الإثم بعد وجود الذنب وهذا مجموعٌ في سورة «التوبة» في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)﴾ [التوبة: ١١٧]، لم يقل: ليتوبوا، لأنه لم يقع منهم هؤلاء الإثم، ﴿لَقَدْ تَابَ﴾، أي منعهم من الوقوع في الإثم، ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ﴾، أي لم يقع منهم إثم، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ﴾،

عليهم لم يقل: ليتوبوا، لماذا يتوبوا؟ لم يقع منهم الإثم، لكن تاب الله عليه بأن منعهم من الوقوع في الإثم، وهذا أعظم درجات التوبة وأجلاها.

وهذا الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه لما سأله علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال له: قل: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً وأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك إنك أنت الغفور الرحيم)، أعظم ما يعطى المرء أن يتوب وذلك أن تستغفر فيرحمك الله عز وجل بأن يمنعك من الوقوع في الإثم، هذا أعظم درجات التوبة، ولذلك تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار هذه التوبة العظيمة بأن منعهم من الوقوع في الإثم بأن يتخلفوا ولا يستجيبوا، فقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)﴾ [التوبة: ١١٧].

وتصور أن يخرجوا لهذه المسافات الطويلة شهر كامل في الحر والجوع والنصب وساعة عسرة، سميت ساعة، ﴿سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، ما قال: غزوة عسرة، ساعة، ذلك لأن العسرة هي ساعة وهي لحظة القرار، لحظة القرار هي الصعبة، فإذا اتخذته كان الأمر سهلاً بعد ذلك، فهي ساعة عسرة أي عند اتخاذ القرار، هذه كان فيها المشقة والباقي سهل، وهذا يدل على قيمة الإرادة ومنشأها وأهمية البدايات، أنها المهمة، فالبدايات مهمة جداً، وأن تنشأ النفوس على البدايات العظيمة (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)، هذه تربية قرآنية عظيمة نحتاجها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)﴾ [التوبة: ١١٧]، ذلك لأنهم لم يقعوا في المعصية.

ثم قال تعالى: وهذا التوبة الأخرى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة: ١١٨]، قال: ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، أي قَبِل منهم أن يتوبوا، قَبِل منهم، وإلا لو شاء سبحانه وتعالى لم يقبل منه، كما لم يقبل سبحانه وتعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ [التوبة: ٩٤].

قال: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، إذن هنا ارتفع، فدعا موسى وهارون، ويعجبني قول من قال من أهل العلم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا

لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس: ٨٨]، المقطع: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ [البقرة: ٦٧]، موسى عليه السلام الذي دعا، لكن ماذا جاء الجواب؟ قد أجيبت دعوتكما، ذلك لأن موسى يدعو وهارون يؤمّن، فكان الأمر من قِبلهما معا، فهما اللذان سألا موسى وهارون عليهما السلام، سألا الله عز وجل أن يتوب عليه ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، أي فرفع عنكم هذا التكليف في أن تقتلوا أنفسكم وبقي أمر الاستغفار والإنابة، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾ [البقرة: ٥٤]، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً وإلى لقاء قادم إن شاء الله تعالى في درس قادم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الثاني والخمسون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الثاني والخمسون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة»، وتقدم القول في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾ [البقرة: ٥٤]، تقدم القول ... ولكن بقيت إشارة يسيرة ذكرها بعض أهل العلم وهو اختصاص ذكر الباري هنا جل في علاه دون بقية الصفات..، أي لماذا الله سبحانه وتعالى اختص ذكرى الباري دون بقية أسمائه الحسنى جل في علاه؟ لماذا لم يقل فتوبوا إلى خالقكم؟ أو ذلكم خيرٌ لكم عند خالقكم عند رازقكم؟

تقدم القول أيها الإخوة الأحبة بأن الباري هو الذي يتقن صنعته، فتكون الصنعة بريئة من التفاوت والفساد، فإذا كانت الصنعة بريئة من الفساد كان الفاعل لها باريًا، وهذا ما قلناه؛ فإنه أقام الخلق على صورةٍ متينة لا تفاوت فيها ولا عوجًا، فهذه المقارنة حقيقة في هذا الباب وذلك بأن العجل مُتهمٌ ومعروفٌ أي يضرب به المثل أو بعدم الإتقان حتى يقال للرجل إذا كان شرسًا بلا عقل يقال له: «كالعجل»، ولا يعرف عنه الحكمة ولا يعرف عنه التدبير ولا يعرف عنه ما يعرف حتى عن بقية الحيوانات التي تعرف بالذكاء وما شابه ذلك.

فهذا الغبي وهو السامري جعل لهم عجلاً، وقال: هذا إلهكم، وهذا من مكر الله عز وجل بأعدائه بأنه يضلهم إضلالاً شديدًا حتى يكون فعلهم بينًا ظاهرًا على الفساد، إن أرادوا القدح في الشرائع أو القدح في أسماء الله وصفاته فإنه تظهر منهم القبائح، التي لو تفكر فيها المتفكر ببداهة العقل فقط وبأوله لاكتشف

فسادها، فأن يكون العجل هو الإله فهذا قمة الغباء، ولذلك لا يقيم الباطل شيئًا إلا وفي عمقه الفساد وفي ظاهره الفساد، ما يكتشفه كل أحد.

فالله عز وجل قال هنا على لسان نبيه موسى عليه السلام: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، وذلك لأنكم إذا نظرتم إلى خلقكم وإلى الوجود رأيتموه مُحكمًا؛ فهو الذي برأ، ولا يمكن أن يكون العجل هو الذي يُبرئ هذا الخلق من كل نقص ومن كل فساد؛ وذلك اختص هنا ذكر الباري ليدلهم على فساد أمرهم في أن يجعلوا هذا العجل هو الذي أوجد الكون، وليس فقط أوجده ولكن أوجده بلا تفاوت وبلا نقص وبلا تناقض بل أقامه على حكمةٍ وتمام، فقط هذه نزيدها عما تقدم وهذه من فوائد ما ذكره الزمخشري في الكشاف بعبارةٍ قليلة شرحناها ما استطعنا، ونقلها وتعجب منها وبل فرح بها أبو حيان الأندلسي في تفسيره، وأبو حيان هنا ينقل كثيرًا عن الزمخشري ويعتبره إمامًا، ولكن يرد عليه في بعض المواطن وهناك كذلك بعض التجنيات عليه في بعض الاختيارات اللغوية، لكن لا بأس، إنما أذكر هذا من قبيل نسبة العِلم لأهله.

ثم نأتي إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾، هنا يبدأ الحديث عن محاورة بين موسى عليه السلام وبين بني إسرائيل، بين قومه، وقلنا في درسٍ فائت: بأن القرآن يكشف موضوع الأدب خفيًا في داخل الآيات، يستره، وهنا نرى أن بني إسرائيل قد خلوا من هذه الخِصلة في خطابهم مع نبيهم، فإننا لا نرى أبدًا في القرآن الكريم خطابًا أديبًا راقيًا في خطاب بني إسرائيل مع نبيهم عليه السلام مع كليم الله، فإنهم لا يقولون له: يا نبي الله، لا ينادونه بخصالٍ مكرمة مشرفة، لا يقولوا له: يا كليم الله، لا ينادونه بخِصلة الكلام التي اختصه بها من بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعًا وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، ولكن ينادونه دائمًا كما سنرى يا موسى وهذا من عدم الأدب.

والله عز وجل أدب الصحابة رضي الله عنهم بأن لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا، أي لا يجوز لكم أن تنادوا رسولنا صلى الله عليه وسلم باسمه كما ينادي بعضكم بعضًا، مثلاً: أن يقال له:

يا محمد، لا يجوز، كما تنادون تقول: يا سعد، يا خالد يا عمر وهكذا، فلا يجوز أن تنادونه بما ينادي بعضكم بعضًا؛ لأن مقامه أشرف من هذا المقام الذي يتعامل به بعضكم بعضًا بلا تكليف، وإنما ينبغي الآدب معه.

وهنا ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾، انظروا لمناداتهم، فهذا حوار يدل على مقام هؤلاء، مع أن موسى عليه السلام في بني إسرائيل له هيبة، ورأينا هذا فيما تقدم لما ذهب أربعين يومًا لميقات ربه كيف غيروا وبدلوا بوجود هارون عليه السلام الذي تذكر عنه كتب التاريخ بأنه كان محبوب لبني إسرائيل للينه، وأما موسى عليه السلام فإنه له هيبة عظيمة في نفوسهم ومع ذلك ينادونه بمثل هذا الكلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، هنا الحديث القرآني عن بني إسرائيل على ما تقدم من ذكر النِعم، وبعض أهل العلم عد هذه الآية من النِعم فعدها النِعمة السادسة، كما ذكر ذلك أبو حيان في تفسيره ووجهوها على هذا المعنى، والأغلب من أهل العلم يعدون هذا الحوار من قبيل تعنت اليهودي مع نبيهم، من قبيل التعنت.

وأما الذي أعده من قبيل النِعمة كيف أن الله عز وجل أماتهم ثم أحياهم فقال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾ [البقرة: ٥٦]، فهي نِعمة، والآخرون نظروا إلى بيان تعنت هؤلاء القوم وكيف هم يسألون سؤال التعنت، ومع ما رأوا من الآيات من نصر الله عز وجل لهم من خروجهم من مصر من سلطة فرعون وكيف أهلك الله فرعون؟ وكيف نجاهم؟ ثم كيف أقام لهم الطريق في البحر يبسًا ومشوا وإلى غير ذلك، ثم بعد ذلك يقولوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، ودل هذا على أنهم يصدقون أنه رسول الله ولكن اشترطوا متابعته بهذا الشرط.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فهم لم يقول: لن نؤمن بك، فدل على أنهم أمنوا أن موس عليه السلام هو رسول الله، ولكن ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾، أي لن نتبعك فيما تقول، وليس على معنى أنهم يصدقونه ويكذبونه، ولكن لا نتبعك في ظاهر الأمر مع إيماننا بأنك نبي وهذا اعترافٌ منهم بأنهم يعترفون بأنه نبي الله وأن ما يأتي به الحق، وأن ما يبلغ به عن الله عز وجل

هو الصدق، ومع ذلك فإنهم وضعوا هذا الشرط وهذا دليل على أن شرطهم على قبيل التعنت والزيادة، وعلى قبيل أمر الشهوة، اتباع الشهوة،

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾، وهنا نحن نأتي إلى موضوع فقط سيأتي بعض الحديث عنه، وذلك أن الحديث لم يكن بين كل بني إسرائيل لأن هذا له فائدة، حتى سنرى هذه الفائدة في المقارنة بين التي تليها والآيات التي تلي هذا الموضوع، ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾ [البقرة: ٥٧]، ثم قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨].

وسنرى بالمقارنة بين الخطاب في سورة «البقرة» وبين الخطاب في سورة «الأعراف» أن من الأسباب أن الله عز وجل قال في سورة «الأعراف»: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾ [الأعراف: ١٥٩]، فدل هذا على أنه ليس كل بني إسرائيل من قالوا هذا القول، وإنما قاله بعضهم، والله عز وجل نسبه لجميعهم لماذا؟ إما أن البعض قد سكتوا وضعفوا، وإما أن هذا على قبيل أن الذين يخاطبون بهذا الخطاب على سنن هؤلاء الذين قالوا هذا القول.

فالله عز وجل يخاطبهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ [البقرة: ٥٥]، أي أنتم على سنن من قال هذا القول، فنسبه إليهم، أنتم مشيتم على طريقتهم، وإلا فسنرى لماذا قال الله عز وجل: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: ٥٩]، هنا لم يقل منهم، في سورة «البقرة» لم يقل منهم، قالها في سورة الأعراف، لماذا قالها في سورة الأعراف؟ لأنه بين أن هناك من بني إسرائيل من هو كما قال في سورة «الأعراف»: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، فليتلاءم الحديث في أوله مع آخره، فلو قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، وقد تقدم قوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، فهذا هو التفريق.

وثم ترون أن هذا الخطاب في سورة «البقرة» كله تابع لأمرهم بأن يتبعوا هذا النبي، ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١]، فإذن هو خطاب لهؤلاء وما المقصود دعوتهم للإيمان، بخلاف الخطاب في سورة «الأعراف» فإنه خطاب من أجل كشف حقائقهم.

هنا الخطاب وإن كان من بيان كشف حقائقهم ولكن من أجل موضوع الإيمان، ولذلك جاء خطاب بالكل، كأن الجميع قد قالوه، مع أننا نعلم أنه ليس كلهم قد قالوه، أو على معنى أن بعضهم قد قالوه وكان الأضعف هو السكوت، الجانب الآخر هو الضعيف وهو الساكت. فنسب إلى الجميع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾، قلنا: بأنه لن نتبعك، لن نصدقك ظاهرًا، ولم يقلوا لن نؤمن بك، فإنهم يؤمنون أنه رسول الله، ولكن وضعوا هذا الشرط كمن يتزيد في الخطاب مع علمه بصدق المخاطب.

قوله تعالى عنهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، و ﴿حَتَّى﴾ هنا كما هو معروف في معاني الحروف للغاية، أي حتى يقع هذا وتقع هذه الغاية التي ما بعدها أي نرى الله جهرة، وقوله تعالى: ﴿نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، العلماء على ثلاثة أقوال:

القول الأول: هو إما أن تكون ﴿جَهْرَةً﴾ إلى الرؤية، ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، أي أن تكون الرؤيا جهرة، بمعنى ألا تقع في المنام، ألا تقع في النفس وأن يقع في القلب رؤية قلبية بصائرية أو رؤية بصيرة، وإنما تقع برؤية حقيقية فنسبت إلى الجهر، والجهر هو ضد السر، ومنه يؤخذ صوت جهوري؛ لأنه يظهره ويعلنه ويكون بينًا ظاهرًا قاطعًا للظنون وقاطعًا للاحتمالات، فالجهر هو ضد السر، وحتى هذه الكلمة قال بعض أهل اللغة: بأنها من الأضداد.

وفي اللغة هناك من أثبت الأضداد من أهل في اللغة وليس هذا بابنا، وهناك من نفى الأضداد، وقال بعضهم ممن ينفي الأضداد: هو وجود هذه ﴿جَهْرَةً﴾؛ فإن العرب تقول: عن الأعمى أجهر، وهذا ربما يأخذ على الأضداد، ويؤخذ على معنى تسمية الصحراء المهلكة مفازا، من قبيل الرجاء، وهنا أجهر وكما يسمون –وهذا من أدب العربية العظيم– الناس يقولون في بلادنا عن صاحب العين الواحدة: له عين «عين كريمة»، أي الله أكرمها بأن جعلها عنده واستبقت له في الخير من أجل الصبر ومن أجل الشكر ومن أجل الابتلاء، قالوا: أجهر، كي لا يقال: أعمى؛ فيكون في ذلك إيذاء له، وإنما يقال: أجهر ؛ كي لا يؤذى ومع بقائها على معنها الأصلي، ويقال: لا، هذا من الأضداد وهذا خلاف موجود عند أهل اللغة، هل هناك أضداد في اللغة أم لا يوجد في هذا الباب؟

القول الثاني: وإما أن تكون ﴿جَهْرَةً﴾ للرائي، وصفًا للرائي، وذلك بأن يكون الأمر بينًا واضحًا.

القول الثالث: وبعض أهل العلم قال وهو منسوبٌ لابن عباس رضي الله عنهما: أن ﴿جَهْرَةً﴾ هي نسبةٌ للقول، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، أي يكون هذا القول الذي قلناه يكون جهرًا، يكون بينًا، فهو وصفٌ للقول، وهذا القول الثالث لأهل العلم وكلها تدل على تنوع الخطاب وربما تدل على جميعها كما نرى.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]، انظر قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ﴾، والأخذ هو الذي يكون فيه تمام الاستلام، ولم يقل غيرها، فدل على أن الأخذ كان شديدًا وعلى أن الأخذ كان عامًا وتامًا، فلم يقل: فقبضتكم، لم يقل: فغمتكم الصاعقة، لم يقل: شملتكم الصاعقة، بل قال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، فدل على أن الأمر كان عظيمًا وأنه تامًا شاملاً حتى وقعت الصاعقة فحتى حصل الموت، ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]، أي أخذًا تامًا كاملاً كمن يأخذ الآخر فتنتهي قوته، وينتهي شأنه.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]، والصاعقة إما أنها النار، وإما أنها سبب الموت، وإما أنها الموت نفسه، وهذا الفصل في المعاني بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، ثم قوله ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، يتضح لنا مراده إذا علمنا وصفها الشامل والتام في القرآن، وذلك أنه في سورة «الأعراف» قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ففي الأعراف وقعت الرجفة، وفي البقرة كنت الصاعقة.

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ [البقرة: ٥٥]، لما ذهبوا مع موسى عليه السلام بعد أن اختار منهم سبعين رجلاً من بعد الأربعين يوم التي وقعت؛ فحصل ما حصل ثم تابوا، فأرادوا أن يذهبوا معه ليشهدوا كلام الله عز وجل لموسى عليه السلام، فإنهم طلبوا أن يشهدوا هذا المقام: كيف يكلم الله عز وجل موسى؟ فلما حصل لهم أن سمعوا هذا الاختيار؛ طمعت نفوسهم لمقام أكبر وهو أن يروا الله جهرة.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ولم يقل واختار موسى من قومه وفي ذلك إن شاء الله أمرٌ بلاغي نتكلم إذا جئنا إليه. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾

دل على أنه قد حصلت لهم الصاعقة، وإما أن يكون الذي حصل بأن هناك جند لله عز وجل قد صرخوا فحصلت لهم الصعقة، والصعق هو الموت، أو مقدمات الموت، وهذا بيّن.

فقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥)﴾ [البقرة: ٥٥]، إما أنه ينظر بعضكم إلى بعض، وإما أنكم تنظرون إلى الصعقة أنها قد قدمت عليكم فحصلت لكم الرؤية والمشاهدة في ذلك، وأبو حيان الأندلسي رحمه الله يقول: وربما ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، وقال: لا أجسر عليها؛ لأنه لم يرَ عالماً قد سبقه فيها، قال: على قاعدة وأنا أنظر الرجل أي أنتظره، أي حصلت لكم الصاعقة وأنتم تنتظرون رؤية الله عز وجل، وقال: أنا أقول واللغة تحتملها ولكن لا أجرؤ عليها لأنه لم يُسبق فيها، وهذا من أدب العلماء في هذا الباب، من أدبهم أنه لم يجرؤ عليها لعدم قول عالمٍ قد سبقه فيها.

قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وهنا قلنا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾، من القائل؟ السبعون رجلًا، وقد لا يكون كلهم، وتقدم الكلام فيه، وقوله: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]، أي حصل لكم الموت بصاعقة، وفي سورة «الأعراف» برجفة؛ فدل على أنها جاءت عليهم من أسفلهم وجاءت عليهم من آذانهم من فوقهم، فحصل هذا الأمر الإلهي لهم، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥)﴾ [البقرة: ٥٥].

ثم بعد ذلك انظر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]، فدل على أن ما بين أخذ الصعقة وبين الإعادة والإحياء كان هناك ثمة مدة، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ﴾ فأتى بحرف العطف الدال على التراخي، واختلف أهل العلم على ما تعرفون في مثل هذه الروايات كم المدة؟ فقال أغلب أهل العلم: أخذتهم الصاعقة يومًا وليلة، حتى زعم بعضهم أنها قول جميع المفسرين، والبعث هو النشر، وبعثه أي أقامه من مكانه، والبعث يدل على النشاط والقوة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾، أي أقمناكم مما حصل لكم من أثر الصعقة من الموت.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]، وكلمة الموت هنا هل هي على الحقيقة؟ أم على قاعدة أنه يمكن أن يكون قد حصل لهم من الموتة الصغرى أي من النوم والغاشية وغير ذلك؟ والأصل

حمل الكلام على الحقيقة ما لم تتعذر هذه الحقيقة، فهذا دليل على أنهم قد ماتوا وحصل لهم الموت، قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

وهنا أنبه فقط على قضية أن **كلمة الوفاة ليست أصيلة في معنى الموت**، فالموت هو افتراق الروح عن الجسد، وقد يكون افتراقًا جزئيًا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (النوم أخو الموت)، أي فيه بعض المعنى والروح تخرج من الجسد خروجًا جزئيًا في النوم، وقال الله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فدل على أنه يستوفيها، إذًا الوفاة من أين جاءت؟ ذلك لأن فيها نوع استيفاء، ومعنى الاستيفاء، أوفيته أي أخذته، وأوفيته حقه أي أعطيته الحق فأخذه، فإذن الوفاة ليست أصيلة في معنى الموت، والوفاة أصلها هو الاستيفاء، فقوله سبحانه وتعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فلا ينبغي حملها على الموت، أي أنه لم يمته الله عز وجل، كيف يعيش في عالم الغيب والبرزخ؟ هذا أمرٌ لا نعرفه حتى نعرف كيفية سنن عالم الغيب والبرزخ، ونحن لا نعرف سنن عالم البرزخ والغيب إلا بما جاءت به الأحاديث كقضية كلية، ولكن كيف ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾؟ أي مستوفيك من الأرض، فلا ينبغي حملها على الموت، وإنما هي على الوفاة أي مستوفيك.

لكن أخذت الوفاة وشاعت على معنى الموت لهذا المعنى؛ أن الموت فيه استيفاء الروح من الجسد، وأخذ الروح من الجسد؛ فسميت بها ولكنها ليست أصيلةً لهذا المعنى، وإنما نُقلت إليها لما في الموت من الوفاة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾ [البقرة: ٥٦]، هنا بعض أهل العلم وهذا في «تفسير الماوردي» رحمه الله، وهذا من عجائب المفسرين كيف تخطر لهم هذه الخاطرات! وهو أنه: هل كلف هؤلاء الذين أخذتهم الصاعقة فماتوا ثم أحياهم الله، هل ما زال التكليف عليهم؟ أم لأنهم ماتوا قد سقط عنهم التكليف؟ تصور كيف يبحثون هذه المسألة! والصواب: أنهم ما زالوا تحت التكليف؛ لأن هذا الموت ليس هو الموت الذي فيه الاستيفاء الكلي الذي هو عاقبته لا يقومون إلا آخر الحياة.

وهنا نقطة: تعدد الموت عذاب، ودليل ذلك قول أبي بكر رضي الله عنه: «ما كان الله ليكتب عليك الموت مرات»، لما جاء فاختلفوا في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وقام عمر وقال: «من قال: أن محمدًا قد

مات لأضربن عنقه»، فقال: «ما كتب الله عليك ميتتين»؛ فدل على أن تعدد الموت عذاب، وأن المرءَ مبرأ منه في أساسه، ولكن هذا الموت الذي وقع عليهم من عذاب الله عز وجل عليهم، هذه مسألة.

والمسألة الثانية التي ذكرت: هم لم يروا الله عز وجل، والله لم يخاطبهم وسألوا أمرًا وأنتم تقولون يا أهل السنة: سألوا أمرًا سيقع، وذلك أن العبيد سيرون ربهم يوم القيامة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، فهم سألوا أمرًا مقدورًا عليه، وأمرًا سيقع، وليس ممنوعًا؟ وهنا ليست المشكلة في سؤالهم رؤية الله عز وجل، ولكن سؤالهم الرؤية على معنى باطل، وهو قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وحين يرون الله جهرة فحينئذٍ ينتهي أمر التكليف لأن من أعظم أنواع التكليف الإيمان بالغيب، وأعظم الغيب هو الله سبحانه وتعالى رب العالمين، فلذلك أنت مطالب بأن تؤمن بالغيب، وأول الغيب أن تؤمن بالله عز وجل وأنت لم تره، لكن أنت ترى دلائله والفطرة في نفسك فتوقن بهذا الإيمان وتعترف به، والله عز وجل أشهد على ذلك البشر جميعًا وهم في عالم الذر.

فإذن المستنكَر من بني إسرائيل هو المعنى الذي طلبوا من أجله الرؤية، وهو التعنت، بخلاف طلب موسى علي السلام فإنه طلبه لمعنى الكرامة، فموسى عليه السلام لما سأل الله عز وجل الرؤية، فإنما سألها لتحصل بها الكرامة؛ فالله عز وجل قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فدل على أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا لن يرى ربه، وفي الحديث (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)، واختلفوا في رؤية الله عز وجل في المنام، وأثبتها أهل العلم، أي أنهم كثيرًا ما اثبتوها، وذلك لأنها ثابتة للنبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (رأيت ربي الليلة في أحسن صورة)، والحديث في مسند أحمد بسندٍ كما قال ابن تيمية رحمه الله: أنظف من بعض أسانيد ما في الصحيحين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾ [البقرة: ٥٦]، ولعل كلمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، هي إجابة لسؤال الماوردي: هل بقوا على التكليف أم بسبب موتهم انتهى التكليف؟ فإنه قال

تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فدل على أن التكليف ما زال قائمًا، وحصلت نِعمةٌ جديدة تجب شكر الله عز وجل منهم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾ [البقرة: ٥٦]، الآن بيّن أن هذا من النِعم العظيمة التي أنعم الله عز وجل بها على بني إسرائيل وبيّن نفوسهم وما هم عليه.

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾ [البقرة: ٥٧]، وهذه كذلك نِعمة عظيمة، وهي من بيان تعداد النِعم التي توجب الطاعة وتوجب الشكر وتوجب اتباع الحق.

وانظروا أنَّ الله عز وجل يعدد عليهم النِعم التي حصلت معهم، وأول النِعم أن الله عز وجل ذكر: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٥٠]، فلما خرجوا إلى الصحراء، والصحراء ما الذي يريده المرء فيها؟ يريد أن يستظل؛ لأن الصحراء مكشوفة ولا ساتر فيها وخاصةً إذا كانت رمالًا كثيرة، فهذا ما طلبوه أولاً، فطلبوا أن يظللهم الله، وهذا كلام السدي الكبير رحمه الله، قال: طلبوا أن يظلهم الله عز وجل من الشمس في الصحراء فأظلهم الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾.

وثم سألوه أن يأكلوا ويتمتعوا بطعامهم –كما سيأتي– فأنزل الله عز وجل عليهم المن والسلوى، ثم بعد ذلك طلبوا أن يشربوا فضرب لهم الحجر، فانبجست منه أو انفجرت منه؛ كما في سورة «البقرة» ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]، وفي سورة «الأعراف»: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، والانبجاس أول الانفجار، والانفجار نهايته فبينت أول ما حصل ثم بينت ما بعده، أي في الأول حصل أن انبجست فظهر أول الماء ولكن لو بقي على هذا ربما يتقاتلون فحصل الانفجار؛ حتى يكفيهم جميعًا، ثم كان هذا موزعًا بعددهم، اثنا عشر عينًا بعدد أسباطهم، فهم تظللوا وأكلوا وتمتعوا وشربوا، وزاد السدي وقال: أنهم قالوا: وماذا نصنع في الألبسة؟ فالله عز وجل ألبسهم لباسًا لا يبلى، وإن كان هذا غير موجودٍ في القرآن وربما أخذه من كتب أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، هنا هذا الأمر يحتمل معنيين:

– إما أنه وظللنا عليكم بالغمام، أي الغمام صنعت ظِلًا، والظل في اللغة أصله المنفعة، ولذلك يقال: أنا تحت ظِلك؛ أي تحت منفعتك، فالأصل هو المنفعة، فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، أي جعلنا لكم سبيلاً بدرء الشر عنكم، وهو الحر الشديد على رؤوسكم بأن ظلل عليهم؛ فكان الغمام منفعة حصلت لهم، وليس هو السحاب.

– وإما أن يقال: ظلل الله بالغمام، أي جعل الغمام ظله، ومعنى الغمام هو السحاب، وقال بعض أهل العلم: هنا ليس مطلق السحاب، ولكنه سحابٌ خاصٌ أبيض إنما هو من الجنة، والمزيد من النِعمة التي حصلت لهم.

فالمهم أن الله عز وجل ظلل عليهم بالغمام، والغمام هو السحاب؛ فصنع لهم من السحاب ظلةً فوقهم، وإما أنه بالسحاب جُعلت لهم ظلة، أي بالسحاب جُعلت لهم ما يظللون به فيتقون به حر الشمس.

فالقصد: أن الغمام هو نِعمة عظيمة من الله عز وجل، ودائمًا تدل على الخير، ولذلك فالله عز وجل لما مَنَّ على الصحابة في بدر، إنما مَنَّ عليهم بالظلة، أي جعل الغمامة عليهم جل في علاه.

والغمام من الغم، وغم شيء هو الستر، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، أي جعل السحاب كأنه يغمي عليهم حر الشمس أو الشمس فيصنع لهم الظلة، فارتاحوا وذهب عنهم ما يجدون في الصحراء.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، والمن: السلوى، والعلماء لهم طويلُ كلامٍ فيه، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، كما في الصحيحين: (الْكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ)، وهنا في الحقيقة وقفة في معنى الحديث، هل هي مما بقي في الأرض مما أنعم الله عز وجل عليه من بني إسرائيل؟ أم أنها من نوعه؟ فنقول: هذا من نوع ما أنزل الله عز وجل.

والآن لما نسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (أن الإبل خلقت من الجن)، فما معنى هذا؟ هل معنى أنها مولدة أصلاً من الجن؟ أم أن معنى ذلك أن فيها نَفَس جني؟ ولذلك إذا أكلها المرء تجد فيه شيئًا من هذا كما هو معروف، فللإبل نفرة الجن كما قال الشافعي رحمه الله: «فيها نفرة الجن»، ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في معاطن الإبل، واختلفوا في تفسير هذا الحديث، فبعضهم قال

لأن معاطن الإبل مأوى للشياطين وذلك لاقترانها، أي الإبل من الجن، وقال بعضهم وهو عن الشافعي رحمه الله: لأن الإبل فيها نفرة الجن، وإذا نفرت فربما تقتل من كان عندها، هذا من معانيهم.

ولما يقول النبي صلى الله عليه وسلم عن النيل والفرات، سيحون وجيحون هو أنها من الجنة، ما معنى أنها من الجنة؟ أي هل معنى ذلك أن أصولها قد نزلت من الجنة كما نزل الحجر الأسود؟ فنحن نعرف أن الحجر الأسود قد نزل من الجنة وسودته ذنوب بني آدم، ولكن أصله من الجنة فهو جاء من الجنة ونزل إلى الأرض، فهل معنى ذلك أن هذه المياه نزلت من الجنة؟ وأنَّ أصولها نزلت من الجنة؟ هل معنى ذلك أن فيها المعاني التي في أنهار الجنة؟ أي أنها دائمة لا تنتهي، فهي بشرى أن هذه الأنهار لا تنتهي، بينما هناك أنهار ستنتهي، وهناك أنهار انتهت وبادت فعلا، ولكن هذه الأنهار لا تنتهي فهذا فيها معنى أنهار الجنة، وهذه مما اختلف فيها أهل العلم في هذا الباب، وإذا حملناها على الحقائق أولى.

ولكن يبقى السؤال: كيف؟! حينئذٍ يتعطل الجواب، يعني كيف هي جاءت من الجنة؟ وهنا لما نقول في هذا الباب نقول: هي من الجنة كما أوتي بنو إسرائيل من المنّ.

والكمأة معروفة: نبتة تخرج في المياه.. الخ، وهي طعام وماؤها شفاء العين، ولكنها طعام مما يستلذ به الناس، فما معنى أنها من المنّ؟ هل هي مما أنزل من السماء فبقيت، فبقي هذا الجزء منها؟ أم أنها على معنى المنَّ أي العطاء الإلهي، هذا مما يتوقف فيه، ولو حُمل على الأصل لكان أقرب.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، دل هذا على أن المنَّ والسلوى ليستا من نبت الأرض، أي لا ينبتا من الأرض، وإنما هو إنزال، وهذا الإنزال من السماء، والسماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، ولكنها إن أمطرت ذلك كان هذا على سبيل الإكرام والعطاء الإلهي، فهل أمطرت السماء ذهبًا؟ الجواب: نعم، كما في الصحيحين قال صلى الله عليه وسلم: (بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، فَخَرَّ عليه جَرَادٌ مِن ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي في ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قالَ: بَلَى وعِزَّتِكَ، ولَكِنْ لا غِنَى بي عن بَرَكَتِكَ)، فزيادة الخير خير، وهذا من أدب الأنبياء مع الله عز وجل.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، دل هذا على أن المنَّ والسلوى ليستا من نبت الأرض وليس مما جرت به العادة، إذًا ما هو المنّ والسلوى؟ أغلب أهل العلم على أن المنّ إنما هو

الطير وهو طير سمين، ولذلك يقال: السُمان، أي طيرٌ فيه سُمنة ومما ينتفع به الناس، وقال بعضهم وهو عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المنّ هو طعامٌ كان ينزل في الليل على الشجر وهو أبيض من الثلج وأحلى من العسل، إذن هو إما حيوان يأخذونه فيذبحونه ويشوونه ويأكلونه، وإما هو طعامٌ من السماء كما هو ينزل على الشجر في الليل على ما تقدم.

وابن كثير رحمه الله جعل الأقوال متعددة وقال: يمكن أن يكون طعامًا يؤكل منفردًا ويمكن أن يخلط بالماء فيكون حلوًا على أساس أن بعض أهل العلم قال: المنّ هو العسل، وقال بعضهم: المنّ إنما هو صمغٌ يخرج من الشجر، حلوٌ، فحاول أن يجمع هذه الأقوال بأنه إما إذا عسل أنه أذيب هذا الصمغ أو أذيب هذا العسل فشربه المرء. والذي عندي أن المن هو طعام، والسلوى مما يتسلى، وإنما المنّ هو من قبيل المنّ أي العطاء الإلهي، فهو شاملٌ لكل ما أعطاهم الله عز وجل مما يتزودون به، فقد يكون شاملاً لهذا، أي أخذوا ماذا أعطي لهم، فأعطي لهم لحم، وقوله صلى الله عليه وسلم: (الكمأة من المنّ)، أقرب ما يكون المنّ أنه شيءٌ أقرب إلى النبات وليس إلى اللحم.

ولكن الكثير يقولون حتى قال ابن عطية رحمه الله في تفسيره «المحرر الوجيز»، قال: الإجماع أنه الطير، والمسألة ليست فيها إجماع، وعاب على الهذلي في أنه جعل المنّ عسل وقال هذا خلاف الإجماع، ورد القرطبي رحمه الله في تفسيره وقال: ليس هناك إجماع، هذا غير صحيح، والطعن بهذا الكلام أنه خلاف الإجماع غير صحيح، ونقل هذا موجودٌ في التفاسير وكلها مطبوعة ونقل هذا كله ابن كثير رحمه الله في تفسيره.

ورأيت ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآية عند ﴿الْمَنَّ﴾، قد أطال النفس حديثيًا، على الرغم أن الحديث في الصحيحين: (الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ، وماؤُها شِفاءٌ لِلْعَيْنِ)، ولكنه أطال الحديث في تخريج هذا الحديث مع بعض الزيادات مثل قوله: (العجوة شفاءٌ من السم)، وفي بعض الروايات هذا الحديث موجود، لكن في السنن وليس في الصحيحين، ولكنه أطال النفس في تخريج هذا الحديث، فيرجع إليه، ولم أدرِ مقصده في هذا الباب؛ لماذا أطال مع وضوح الحديث في الصحيحين؟!

إذًا؛ المن هو طعامٌ يأكلونه ليسد جوعهم، وما هو؟ مما من الله عز وجل عليهم، أي شيءٍ منّ الله عز وجل عليهم به، والسلوى مما تسلوا به من الحلوى، وهذا أقرب أن السلوى من الحلوى.

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]، فسمى هذه النِعم من الطيبات جل في علاه؛ فهي طيبات، ودل هذا على أن أكل الطيبات مباح، ولذلك قال الإمام ابن كثير رحمه الله هنا: «فهذا أمرٌ على سبيل الإرشاد»، ليس أمر واجب؛ لأنه يقوم المرء به على الفطرة، ويقوم المرء به على أساس الجِبلة، فهو ليس مما يؤمر به المرء ما دام أنه على أساس الجِبلة، وإنما قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾، فهو أمرٌ للإرشاد، وكذلك أمرٌ من الله عز وجل لبيان النِعمة، ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، كأنه يقول لهم: هذا ما أنعمت به عليكم، وسمى جل في علاه ما يعطيهم من الطيبات.

ثم بيّن الله عز وجل أن العاقبة لهذا لم تكن كما ينبغي، فهناك أمرهم بالشكر وهنا أمرهم بأكل الطيبات، وأكل الطيبات فيه معنى الشكر، أي لما يقول لهم: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، يعني عليكم أن تشكروا على أكلكم هذه الطيبات فكانت النتيجة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾ [البقرة: ٥٧]، بمعنى أنهم بعد كل هذه النعم، لم يؤدوا شكر الله عز وجل عليها ولم يعرفوا إلا أن يأخذوها، فكيف الظلم؟ وهنا ما هو الظلم الذي وقع منهم؟

الظلم أنهم لم يشكروا الله عز عليها ولم يحافظوا عليها، والدليل ما جاء بعد ذلك في الآيات التي تليها قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، فطلبوا بعد ذلك الأدنى، وأرادوا ما سيأتي ذكره فحصل منهم الظلم بعدم أداء شكرها وعدم المحافظة عليها، بل طلبوا غيرها، وهذا كله يدل على نفسية هؤلاء القوم مما سنتحدث عنه إن شاء الله في الدرس القادم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث والخمسون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

ما زلنا مع سورة «البقرة» في الدرس الثالث والخمسون من دروس التفسير وفي قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾ [البقرة: ٥٧]، فتكلمنا عن هذه الآية بما قدِرنا وفتح الله عز وجل وهنا مسائل فقط يسيرة نعود عليها ما هو الأعم والأفضل الظل أم الفيء، بالرغم أن كلاهما يمنع الشمس والحر؟

فيقولون: الظل أبلغ ونحن تقدم في التفسير في الدرس الفائت بأن الظل معناه أصلاً المنفعة وقد يعم على غيره معناه الذي يطلق عليه، فيقال: أعيش في ظلك أو نعيش في ظل فلان أو قد أنعم علينا من ظلك أي من منفعتك ونعيمك وعطائك، فالظل إذن: المنفعة.

والفيء: المقصود به الشيء الذي تعرفونه، يقولون: كلمة الظل قريبة من كلمة ظَلَة فإنها تلتقي في جذرها الظاء واللام، ونحن نعرف قاعدة العربية أن الكلمات إذا التقت جذورها تكون قريبة المعنى أو لها معنى واحد أو يجمعها قاسمٌ واحد، وإذن الظل معناه الدوام، ولذلك لما وصفت الجنة قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠)﴾ [الواقعة: ٣٠]، لدوامه؛ فإذن الظل أبلغ من الفيء، إما لدوامه وإما لعمومه وشموله بخلاف الفيء، فإنهم لا يطلقون كلمة الفيء إلا على ما قد سبقه حر، إذا كان هناك الشمس كاشفة ثم دخل على الشمس المنع فصار فيئاً ولا يطلقون الفيء على ما يدوم، نحن نرى في داخل المغارة والبيوت دوام الظل، الشمس لا تدخل عليها وأعم وأبلغ، ولذلك الله عز وجل قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، هذا لدلالة النعمة، لكثرتها وعطائها.

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقلنا بأن الغمام يطلق على السحاب الذي فيه الخير، وليس فيه العذاب، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، فالله عز وجل جمع لهم بين راحة البدن في ظاهره، وقضى على عوارض الألم في باطن أبدانهم، فالظل هو راحة لأبدانهم في الظاهر، وإطعامهم هو إزالة لما في ألم بطونهم وألمهم الباطني، فاجتمع لهم الخير بأن زال عنهم الألم الظاهر من شدة الحر وزال عنهم الجوع من بواطنهم وهذا تمام النعمة.

وثم قال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]، لم يذكر شيئاً سبحانه وتعالى هنا بعد أن قال ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، ما قال: تمتعوا؛ ذلك لأنه ليس لهم اختيار في هذا، وجود المرء في الظل ليس اختياراً، أن تكون الظُلة بما وصفناها شاملة وعميمة ودائمة ليس للإنسان اختيار فيها، فهو فيها من غير اختيارٍ منه، لكن الطعام فيه اختيار، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

وهنا دلالة على أنهم ما رزقوا من المن والسلوى –وهنا لا بأس من قضية مهمة– أن ما رزقهم الله عز وجل من المن والسلوى وكذلك الظِل هو على خلاف العادة، فقد يذكر الله عز وجل النِعم على العبيد بما جرت عليه العادة، كقوله تعالى: ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش: ٤]، ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢)﴾ [قريش: ١-٢]، هذه جرت بها عادتهم، يعني ليس أمراً خارقاً لما جرت عليه العادة في الناس.

لكن هنا أن يكونوا في الصحراء في أوقات متقلبة يكون فيها الشمس ويكون فيها البرد ويكون فيها الظلال فأن تأتي الظلال في غير وقتها، هذا خلاف العادة، فهذا يدل على أبلغ النِعمة وليس على النِعمة التي جرت بها العادة، يعني الله عز وجل قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١]، يكنُ فيها أي يحتمي فيها، فهذه جرت بها العادة وهي نِعمة عظيمة، ولكنها ليست على خلاف العادة والسنة التي تجري في الخلق، لكن هنا قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، فأن يأتي الغمام في وقت الصيف الشديد والحر هذا خلاف العادة فهذه نعمة، كذلك المن والسلوى ليس من رزق تلك البلاد وهو نازلٌ من السماء ولا ينبت على جريان العادة، من النِعم كما أنعم الله عز وجل على سبأ بأن صار لهم النعيم هذا

جرت به العادة بلاد فيها ماء وطقس فأن ينبت فيها النعيم وهو من نِعم الله ولو شاء لقلبها كما فعل بها بأن قام السيل العرِم فدمرهم، ولكن هنا النِعمة أبلغ أن تكون على خلاف العادة، أبلغ في العطاء الإلهي.

فإذن قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، هذا على خلاف العادة، فدل على أنها أبلغ في النِعمة وفي العطاء الإلهي.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]، إذن هنا نقطة مهمة، لماذا قلنا على خلاف العادة؟ حتى نفهم أن ما ذكر من العطاء على خلاف العادة كان كرامة، فقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ففي الأرض من الطيبات وغير الطيبات، وتنبت الأرض مما ينفع الإنسان ولا ينفع الإنسان، الحنظل تنبته الأرض ولو أكله المرء يقتله ويؤذيه، والحشيش -القنب الهندي- تنبته الأرض ولو أخذه الإنسان يفسد، وهكذا، فهناك في الأرض ما تنبته مما فيه خيرٌ للإنسان وفيه عداء للإنسان وهكذا أجرى الله عز وجل الخلق لكمال حكمته فيه.

لكن إن يكون هناك شيء على خلاف العادة من العطاء لا يكون إلا طيباً، لا يكون شيء على خلاف العادة إلا وهو طيب، فأن يعطيهم الله عز وجل هذا الأمر فهو من الطيبات، والطيب هو خلاف الخبيث، وهو علت الحل في المطعومات والمشروبات، علة الحل في المطعومات والمشروبات هو أن يكون طيباً، فإن كان غير طيب لا يجوز للمرء أن يأتيه، قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

قول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾ [البقرة: ٥٧]، ما هذا؟ في الحديث (لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن امرأةٌ زوجها)، والحديث في صحيح مسلم، فقط حتى لا يظن الشر في أمنا عليها السلام إنما المقصود أنها كانت كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الولدَ مَبخلةٌ مَجبنةٌ)، والمرأة كذلك مما يسعى المرء إلى إسعادها إلى إطعامها وقد يكون مجرد وجودها في الحياة سبباً لإتيان ما لا ينبغي له.

لكن حواء في الحديث في صحيح مسلم لها دور في قضية إغواء آدم عليه السلام وأكله من الشجرة لها دور، قال: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١]، ولذلك عوقبا جميعاً آدم وحواء، فهذا فقط يعني الخيانة المقصود بها هنا، كقوله عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا

صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، المقصود الخيانة هنا أي مخالفة ما جاء به من الحق وليس المقصود به الفاحشة، فكما يقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «ما بغت امرأة نبيٍ قط»، لأن هذا يقدح في كرامة النبي، فجور المرأة يقدح في زوجها، يقدح فيه لأنه حق من حقوقه فيقدح فيه، فالله عز وجل برّأ الأنبياء من هذا الأمر أن تقع نسائهم في هذا.

والملاعين الرافضة يتهمون آمنا عائشة صراحةً، يعني المرء لو خلا لنفسه دون أن يسمع لهم وأن يقرأ لهم ما في كتبهم لا يتصور أن أمةً ما انتسبوا لنبي أو انتسبوا لزعيم ثم يقدحون في زوجته، لا يوجد في تاريخ البشرية قط أن أحداً ينتسب لزعيم يفتخر به، ويلوذ إلى اسمه ويفتخر بانتسابه إليه ثم يقدح في عرضه لا يوجد إلا هؤلاء الملاعين، ويزعمون الكثير على أمنا عائشة رضي الله تعالى عنها، يقولون عنها الكثير.

وعدو الله الخوئي في تفسيره، يقول: إن الله برأ عائشة براءة الحكم القضائي ولم يبرئها البراءة ... وهذا سبحان الله هذا هو الكفر بعينه، وسمعت لأحدهم خبيث ومجرم يعني يتهمها صراحةً ويعرض ويأتي بأحاديث ويفهمها على منواله وعلى مزاجه لعنة الله عليهم، هؤلاء من أخبث خلق الله ولم يمر في التاريخ أن قوماً انتسبوا لنبي ثم يسبون عرضه، الأصل أن يموتون من أجل ألا يقال في عرضه كلمة، لكن هذا هو شأن الزندقة.

فقوله صلى الله عليه وسلم: (لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم)، هذا حديث يحتاج إلى وقفة، لأن بعض أهل العلم كالشيخ محمد الغزالي نفى هذا الحديث، مع إنه في صحيح مسلم، وللأسف اليوم التلاعب في وقتنا من قبل المشايخ في الصحيحين، هناك من رد جهلاً وافتراءً حديثاً في الصحيحين، وهو حديث: (إلا أن تروا كفرا بواحًا)، فهذا حديثٌ في الصحيحين ورده بتلاعب ولما تقرأ كلامه ترى الجهل المطبق فيه، فالجرأة على الصحيحين للأسف يزعمون أنهم أتوا بما لم يأتي به الأوائل، ويزعمون أنهم يسيرون على سير الأوائل، وما أخذوا منهم شيئاً لا أخذوا تقواهم ولا علمهم ولا أحاطتهم ولا أخذوا تورعهم، ولا أخذوا مناهجهم، زعموا أنهم على منهج الأوائل وهذا كذب.

ومن ذلك ما فتح من الطعن في صحيح مسلم من قبل بعض المشايخ، وهم لا يدرون أنهم بهذا الفتح يستجيبون لأمر أعداء الأمة بالطعن في كتب تلقتها الأمة بالقبول، ولا نريد الآن أن نخوض أكثر من هذا،

ولكن الحقيقة هذه مبعثها عدم التقوى والإغراق في الجهل وهي كلمة عظيمة من النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف الخوارج أنهم إعجابهم برأيهم، إعجابهم بأنفسهم، العُجب إذا أعجب المرء بنفسه ورأى أنه قد وصل ما لم يصل به الأوائل ويستطيع أن يأتي بما لم يأتي به السلف في علومٍ كان مجال البحث فيها عند علمائنا هو سيرة السائرة ودائمة، ويزعمون أنهم يأتوا بأشياء جديدة على خلاف ما هم عليه، ما أحد طعن أبداً، ما أحد من قبل طعن في هذا الحديث (إلا أن تروا كفراً بواحً)، ما في أحد طعن، ومر على العلماء وتلقوا مع تدقيقهم بما قال وما روى، ولم يأتي أحد يطعن فيه.

ولماذا يطعن فيه؟ لأن الحديث خلاف المذهب، بل يزعم أن هذا الحديث وضعه من؟ وبضعه إما صحابة وأما تابعون من أجل خدمة سياسة أهل الشام هكذا يقولون، يسري هذا الكلام السم على الصحابة وعلى التابعين بهذه القواعد، الافتراء والكذب ويكذبون، يعني أنت لما تراجع كلام أهل العلم لا تصدقوهم ارجعوا، يعني في هذا البحث الذي فيه (إلا أن ترى كفرا بواحاً)، فيه روايتان عن رجل متى توفي، إحداها تقول: خمسة وأربعين، والرواية الثانية تقول: أربعة وثلاثين، من غير تحقيق ولا تدقيق، اختار الصغيرة لتخدم مذهبه، ومن غير أن يعرج ولا يذكر أن هناك أخرى أنه مات سنة خمسة وأربعين وبالتالي يمكن لحفيده أن يدركه وأن يسمع منه كبيراً مُدركاً، هذا الضلال والانحراف ويزعمون أنهم مشايخ وأنهم على نهج الأوائل، لو كنتم على نهج الأوائل لكنتم أهل أمانة في النقل.

نرجع إلى الحديث الذي بين أيدينا وهو الذي في صحيح مسلم (لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم)، يخنز يعني يتلف ويصاب، والخنز هو التلف مع مصاحبة رائحة وضرر، فهل كان اللحم قبل بني إسرائيل لا يخنز؟ نعم، الحديث يقول: نعم، وهذا مما يدل عليه الحديث أن الناس قديماً لم تكن هذه النِعم -لا بأس على الهامش- أن النِعم قبل بني إسرائيل لم تكن غالبة، والناس يذبحون ويأكلون بمقدار حاجتهم فلا يحتاجون إلى تخزينه، لقلة النِعم، وهذه تفتح لي باباً من الحديث أن كل من حذّر العالم فهم دائماً يحذرون أن العالم مقبل على جوع، وأنت ترى كلما قالوا: إن الأعوام القادمة فيها جوع يزداد النعيم، يزداد العطاء الإلهي.

فلو رجعنا قبل عشرين سنة وجئنا إلى بعض من كان يحذر العالم أن هناك ستصيب مجاعة، حتى قالوا سينتهي الموز من العالم، الموز تراه يكثر في العالم، لا أريد أن أتحدث عن القمح، فتلقاه يكثر الخير والنعيم

يكثر في العالم ويزداد، فهذه فقط على الهامش، بأن الذين يحذرون من الكوارث العظمى في المجاعة والسوء هؤلاء فقط يقرأون قراءة بعيدة عن طريقة حياة البشرية وسيرورتها، فالله أعلم أنه قبل بني قبل بني إسرائيل لم يكن الناس يحتاجون إلى التخزين، لقلة ما بين أيديهم وهذا موجود في القرى، فآبائنا يعرفون هذا لا يحتاجون للتخزين، وإذا جاء الأكل يذبحون ويأكلون وينتهي الأمر.

والذي يُخزن ما لا يمنع، إي القمح يمكن تخزينه، لماذا؟ لئلا يمنع، فالقمح كانوا يخزنونه لأنه لا يمنع، ولذلك مما يدل على تخزين القمح سورة «يوسف»، قال تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨)﴾ [يوسف: ٤٧-٤٨]، لأن هذا لا يمنع، لكن اللحم يمنع، الأصل أن يُطعم فالناس يحتاجون لقلته، اللحم يحتاجونه لقلته، فينبغي إلا يمنع، أنا أقول: يُمنع يعني مذمةً، القمح إذا خُزن لا يكون منعاً إلا في ظروف، لكن اللحم إذا منع في ظروف تلك البلاد والأوقات يكون منعاً ويكون ذماً فيهم.

لكن السؤال هذه الأولية لماذا تقع؟ لأنها سنة الله عز وجل في جريان الأحكام والأقدار وهذه نقطة مهمة، الأولية لها وجود في تاريخ البشرية حكماً وقدراً، كيف؟ الأحكام جريانها على الأحكام مثل ما نعرف الحج، الآن نحن نعرف أن مناسك الحج أغلبها يجري على ما جرى من أولية إبراهيم وزوجه، يعني هذا السعي من أول من قامت فيه؟ أمنا من أجل البحث عن المال لابنها إسماعيل عليه السلام، أم العرب، فكانت هذه أولية الشريعة، الذبح والهدي هناك أولية وهو إبراهيم عليه السلام، فقيام الأحكام لها أولية.

ومن هنا نستطيع أن نقول ما جرى مما تقدم ذكره في السماء، من صراع آدم عليه السلام مع إبليس هي من أجل الأولية، حتى تنشأ هناك أولية للأحكام، لماذا؟ لأن الأمر إذا جرى بلا أولية كان ضعيفاً في الذهن، وكان غريباً في تمثل معناه، ما معنى الآن أن تسعى؟ لوجود هذه الأولية يكون لها معنى، لرمي الجمار لما تذهب أنت على سنن إبراهيم لها أولية، فغياب الأولية إذا غابت تفقد التمثل معناه، في ذهن العابد، فلابد من الأولية، إذن هذا بالنسبة للأحكام، فأول كلمة قالها فلان قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، هذه أولية، إذن لابد من أولية.

وهذه الأولية يرتب الله عز وجل عليها أحكامًا ولذلك في الحديث مما يقابل هذا المعنى من الطاعات المعنى من المعاصي، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كانَ علَى ابْنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِن دَمِها؛ لأنَّهُ أوَّلُ مَن سَنَّ القَتْلَ)، هذه أولية فأنشأت هذا الحكم، وقال الله عز وجل من أجل ذلك: قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وإنما جرت بعد قصة ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧]، فالأولية إذن في الأحكام واضحة وبينة، من أول من فعل كذا؟

والآن نحن حتى نفهم أكثر صلاة الجمعة، هل هي اختيار حكم أم اختيار نفسٍ مهتدية؟ الصواب: هو اختيار نفسٍ مهتدية، ولذلك في الحديث اليهود هم الذين اختاروا السبت، فضلوا عنه يوماً عن خيرية يوم الجمعة، لم يكتشفوا لم يهتدوا له، فابتعدوا يوماً واحداً، النصارى ازداد ضلالهم فاختاروا الأحد، إذن من الذي اختار الأحد ليكون لهم عيداً بالأسبوع؟ النصارى أنفسهم، وهُدي أهل الإسلام إلى يوم العروبة الذي سمي بيوم الجمعة فجمع بهم باختيارهم جمع بهم مصعب بن عمير الجمعة وأول من دعا لها هو أسيد ابن حضير، ولذلك كان بعض الصحابة وهو يمشي إلى الجمعة يترب على أسيد لأنه هو أول من دعا إلى هذه الصلاة فاختاروها، فكان اختيارهم موافقاً لقدر الله عز وجل في فضيلة هذا اليوم في وجود ساعة مستجابة إلى آخره.

فالأولية مهمة جداً في الأحكام سواء كانت محللة أو محرمة، وتكلمنا مرةً أن اختيار النبي ومزاجه يؤثر في أمته، تكلمنا عنها سابقاً والدليل على ذلك قول جبريل عليه السلام لنبينا صلى الله عليه وسلم: (لو اخترت الخمر غوت أمتك)، فاختيار الإمام يؤثر على اختيار الرعية، هذه الأولية في الأحكام بينة إن شاء الله.

أما الأولية في الأقدار فكذلك من هذا النوع، هناك أولية هذه الأولية تسري في أقوام على جهة الاتباع وعلى جهة التعليم، يعني أول ما يطرأ على ذهن المرء وهو يقرأ ما دخل اليهود الذين يعيشون حول المدينة أو في المدينة من يهود المدينة كبني قينقاع كبني قريظة كبني النضير، ما دخلهم في اليهود الذين وقع منهم هذا وهو يخاطبهم، يخاطب اليهود هؤلاء الذين يعيشون زمنه بما فعله آبائهم ويعيرهم بما فعل آبائهم، ولذلك

يقول الله عز وجل عنهم: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، لماذا جاء الخطاب بقوله عز وجل: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾؟ لأنه على معنى: تقول: أتذكر، هم يعرفون، كما تقول: اسأله هو يعرف الحق، لأنها عيبٌ في حقه، فما دخلهم هم ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾؟ لأن هذا المعنى الذي فعله الأوائل سرى فيهم على جهة التربية وعلى جهة: (فأبواه يهودانه أو يمجسانه) سرى فيهم.

فلما سرى هذا فيهم كان ما فعله الأول يلحق بما فعله التالي، بما يفعله التابع، فلذلك نحن نتحدث الآن عن اليهود في القرآن إنما نتحدث عن اليهود في عصرنا، لماذا؟ لأن هذه نفسية جرت فيهم على ما تقدم من الأقدار، قول جبريل لنبينا صلى الله عليه وسلم: (لو اخترت الخمر غوت أمتك)، هكذا فعل آباؤك، فسرت فيك، وذلك الحديث عن الوزغ، أمرنا الشارع بقتله قال صلى الله عليه وسلم: (كان ينفخ على نار إبراهيم)، هذا الوزغ الذي تقتله الآن ما دخله في فعل جده، وليس جده فعل نوعه، فهو وإن كان هذا نوعه في الخلقة فهو نوعه كذلك في الخُلق، وهذا يدلنا على أقدار الله عز وجل.

إذن الأولية مهمة جدًا، كقوله صلى الله عليه وسلم: (نسي آدم فنسيت ذريته)، يعني هذا الأمر جرى فيه في الأب فسرى في الأبناء، أن يتعلق بهذا الإثم أو غير الإثم موضوع ثاني هذا، ولكن يسري هذا فيهم، وهذا أمرٌ ينبغي أن نتعلمه في أنفسنا في أبنائنا في أحوالنا في تربيتنا، ولكن الأولية مهمة جداً، فالآن لم يكن اللحم يخنز لأنه في الحقيقة لا يكنزونه، هذا المتبادر، لكن لنفسية اليهودي أنها كل يوم يخرج فيرى إذا قلنا بأن المن هو العسل الذي يخرج من الشجر أو هذا الطعام الذي يكون فوق الشجر، أو العسل الناطف من الشجر فإن يخرجوا فيجدونه كل يوم فأن تسري في نفوسهم معاني الحرص والبخل والجذب فيحبسونه فعوقبوا، فلما جرى هذا المعنى صرف الناس هذا المعنى.

هل الطعام لم يكن يخنز؟ على معنيين:

المعنى الأول: إما أنه لم يكن يُكنز فلا يخنز كما تقدم.

المعنى الثاني: وإما أنه كان يُكنز على غير معنى المنع، فلم يكن تقع فيه العقوبة الإلهية وهذا بيّن في حياة البشر أن الذي يجمع المال ويمنع حقه يسلط الله عليه هلكته ويمنع بركته، والذي يمنعه من أجل أن يعطيه لحقه، الله يبارك فيه حتى لو حماه، ولذلك الكنز هو حبس المال من غير أداء حقه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥]، والصواب أن الكنز الذي فسره الصحابة هو ما لم يؤدي المرء زكاته، خلاف أبي ذر رضي الله تعالى عنه كما نعرف في خلافه مع الصحابة رضي الله عنهم في هذا.

إذن بنو إسرائيل وقع منهم هذا الأمر فعوقبوا فصار هذا الأمر جارياً في البشر، فحبسه يؤدي إلى خنزه يعني كان ما احتجنا لولاهم، الآن هم أصحاب هذه الجريمة التي صارت في البشرية ويعاقبوا عليها لأنهم هم أصحابها، لماذا يلتحق بهم هذا الأمر؟ كان على الأول كفلٌ منها، هم يتحملون هذه الجريمة ولا شك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، لأن نِعم الله عز وجل كثيرة لما حبسوها ولم يؤدوا حقها ومنعوها وظنوا بالله الظنون النتيجة ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، إما بعدم الشكر وإما بما تقدم ذكره بعقوبتهم برفع هذه النِعم عنهم، طبعاً دائماً نتذكر قوله تعالى أيها الإخوة: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، فإن المرء لا يبلغ شيئاً في إيذاء الله جل في علاه، لا يفعل شيء لا يقدر عليه، الله غالبٌ من غلب، ولا يقدر عليه أحد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت: ٦]، وكما في الحديث القدسي قال صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: (يا عِبَادِي، لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا علَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ؛ ما زَادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي، لوْ أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا علَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي، لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ ما نَقَصَ ذلكَ ممَّا عِندِي إلَّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ)، الله عز وجل لا تضره معصية الناس ولا تنفعه طاعتهم، فهو الغني جل في علاه بذاته سبحانه.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩]، هذه الآية أيها الإخوة الأحبة كذلك فيها تعداد حال اليهود مع نِعم الله عز وجل كما تقدم، وهذه حال نعمةٍ تحتاج إلى جهد، وهذا يدلنا وإن لم يأتي على هذه القضية فيما أعلم أحدٌ من المفسرين أن أمر الطعام والشراب والظل وغيره يعطيه

الله عز وجل لمن يريد وحتى يعطيه لمن يكره، فإن الله عز وجل يعطي الدنيا لمن أحب ولمن لا يحب، والله عز وجل أعطاهم هذا بلا جهد، سألوا موسى عليه السلام فدعا موسى عليه السلام ربه فأعطاهم الله عز وجل هذه النِعم، فالطعام والشراب والظل والنعم التي أعطِيها من غير جهد، ولكن باب العزة والكرامة والنصر لا يمكن أن تُعطى بلا جهد، حتى ولو كان يسيراً.

فلما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فقط ادخلوا فسيتحقق بدخولكم الغلبة، لكن هنا لا بأس من نقطة هذه ليست مطَّردة لكل دخول؛ لأن البعض للأسف حين يتكلم عن الجهاد يوهم أن كل موقعة من المواقع يمكن: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وهذا إفسادٌ لحقيقة النصر في الوجود، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]، وهذه كثير من أهل التفسير قالوا: المقصود بها المرتدون، وهذا قتال شديد بلا شك أن الذي وقع من القتال بين الصحابة رضي الله عنهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وبين المرتدين كان شديداً وقتل من القراء الكثير، فانظر فوقع هنا القتال الشديد فلا يجوز لأحد أن يقول: أن كل قتال: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ هذا لا يجوز. فالوقائع تختلف.

لكن هناك في ذلك الظرف كان من منّة الله عز وجل على بني إسرائيل أنه لو لمجرد دخلوا على هذه القرية لحصل النصر، لماذا؟ ربما لجبن هؤلاء الذين يسموا بالعمالقة يسمونهم بالعمالقة، والمقصود هنا بالقرية هي بيت المقدس، فإذن لننتبه لهذا أن مجرد الدخول لا يحقق النصر، ومجرد الإعداد لا يحقق النصر لابد من الإعداد الكافي ولابد من الثبات وهذا بيّن في القرآن وهذا أمر مهم.

وبعض أهل العلم يرى أن قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، هل هذا كان في وقت التيه؟ أم قبل ذلك؟ فنحن نعلم أنهم خرجوا من البحر ومشوا حتى وصلوا على مشارف بيت المقدس، على الصحيح لأن بعض أهل العلم قال: هي أريحا، وأريحا هي بعد بيت المقدس فلو تصورنا إما جاءوا من الجنوب أو جاءوا من الغرب فلابد أن يمروا على بيت المقدس أولاً ولا شك أنه ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١]، وبيت المقدس هو كذلك ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وهذا بين، على الصحيح أنها

بيت المقدس هذه القرية، وقرية أخذت من الجمع، يقول: قريت الماء، ومنها أخذت القراءة ومنها أخذ القرء اجتماع الدم، وأخذت القراءة لاجتماع الحروف أو الكلمات، وهنا قريت الماء جمعته، وسميت القرية من هذا لأن فيها مجمع الناس ومجمع البيوت.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، بلا شك هذا قبل التيه، لأنهم بدلوا ولم يريدوا الدخول فيها، ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]، على ما جاء التفصيل في سورة «المائدة» حصل التيه، ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ [المائدة: ٢٦].

إذن ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، بحسب السياق كان قبل، ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾ [البقرة: ٥٨]، وإن كانت الواو لا تفيد إلا مطلق الجمع ولا تفيد الترتيب فلذلك وقع هنا الاختلاف، هل ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، كان وقت التيه لأنهم في الصحراء؟ أم وهم ذاهبون إلى الأرض المقدسة قبل التيه؟ وقع هذا الخلاف، والذي عندي أنه قبل التيه، التيه هو عذاب وليس من النِعم، أي بعد أن عاقبهم الله عز وجل بالتيه ثم يطلبوا أن يظلل عليهم وأن يأكلوا المن والسلوى هذا شيءٌ عجيب!!

فهنا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨]، هذا ما زال هو خطاب الله عز وجل، قلنا: الضمير، ضمير الجمع هنا يعود إلى الله عز وجل، وهذه فائدة، لماذا؟ فائدة لأنه قال سبحانه وتعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]، وفي سورة «الأعراف» قال تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١]، والخطايا هو جمع كثرة والخطيئات هو جمع قلة، فلما قال حسان: «لنا الجفنات الغر» قالت له: قللت جفنات أهلك؛ لأنه هذا جمع قلة، فلذلك خطاياكم أكثر خطيئاتكم أقل.

ومما قاله أهل العلم وهذا سأقرأه إن شاء الله من كلام الرازي، الرازي انتبه لهذه الفوارق وجمعها في سياقٍ واحد أكثر من غيره إن شاء الله أنا أقرئها لكم لأهميتها، الفوارق بين هذه الآية هنا وبين الآية في سورة «الأعراف». ففي سورة «الأعراف» لم يقل وإذ قلنا ولم يجعل الخطاب له وإنما ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ [الأعراف: ١٦١]، وإذ قال، هذا سنبينه وذلك لما كان خطابه هو لهم كان أجمل وأعظم ولذلك قال: ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]، الكثيرة، لكن لما كان الخطاب من غيره جعلها ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١] فجعل الجمع قلة أو جمع السلامة، هذا الفرق ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ [البقرة: ٥٨]، فلما كان خطابه لهم كان رحيمًا

عظيماً عميماً كثيراً، ولكن لما كانت نسبة القول لم تكن من خطاب الله المباشر لهم فقلل الأمر، وهذه معروفة عند الناس يعني الرجل إذا بلغ الرسالة ليس كمن صاحب الأمر العظيم حين يتكلم، فلذلك الأمر يقللها حتى إذا جاء خطاب العظيم زاد في العطاء وأكرم فيه.

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، ﴿رَغَدًا﴾ لم ترد كذلك في سورة «الأعراف»، وهذا كذلك يؤكد هذا المعنى أن خطاب الله عز وجل لهم ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، ومن أجل هذا ننتبه لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، لما يترتب عليها من هذه المعاني، فقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾.

لكن تقدم من خطاب الله عز وجل لآدم وحواء في قضية الجنة، قال تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، فقدم الرغد على حيث شئتما، وهنا قال تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، الفرق بينهما أنه هنا لكثرة العطاء ولاتساعه، هنا في المقصود في خطاب الله عز وجل لبني إسرائيل فأنه قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ فدل هذا على أن المكان وسيع ومتعدد النِعم والعطاء، وهذا يلائم ما تقدم ذكره أنه خطاب الله عز وجل فيلائمه، فهنا في هذه الآية خطاب الله عز وجل لبني إسرائيل أنه قدم ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، لكثرة ما يختارونه، ولكن الرغد متأخر، وأما في الجنة فالرغد متقدم، فهو أبلغ في الرغد ولكنه أقل في الاختيار لاتساعها، فهنا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، لكن هناك قال تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: ٣٥]، لماذا؟ لأن طعام أهل الجنة، فلو قورن ما الأعمق في الجنة، أن يكون رغداً أعمق من الكثرة، في الدنيا كثرة ولكن الرغد أقل.

قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، –هنا فقط لأنها تفتح لنا– إعراب كلمة ﴿سُجَّدًا﴾ حال، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، وصف الدخول حال كونكم سجدًا، فحال، ونحن نعرف أن الحال هو وصفٌ مصاحبٌ للموصوف، وهناك نكتة لأهل النحو هو الأصل في الحال أنه جرد من «ال» الواصفة فعوقب بالنصب وصار حالاً، يعني الأصل هو لما تقول جاء الرجل راكباً فالأصل أن تقول جاء الرجل الراكب، فحينئذٍ يكون الراكب هو وصف له، جاء الرجل الراكب، فهي صفة والصفة أبلغ وأثبت، ولكن –وهذه حتى نحفظ الحال– فأزالوا الألف واللام المعرفتين فانقلبت إلى حال فعوقبت بالنصب، فصار

جاء الرجل راكباً فارتفعت الصفة وانقلبت إلى حال وتغيرت إلى أن كونها دائماً منصوبة، لا يهم من الموصوف فيها ولو قلت: رأيت الرجل راكباً، الحال لا يتغير الحال منصوب، فقط هذه طرفة لأهل النحو.

فالصفة هي وصفٌ ملازم للمراد إما للفعل أو الفاعل، فقوله تعالى هنا: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، أي وصفٌ مواكبٌ مصاحبٌ للدخول، وهذا ممتنع، أن يكون السجود وصفٌ مواكبٌ للدخول هذا ممتنع، ولذلك هذا رد على الروافض لما جاءوا بحديث أن الوحيد الذي تصدقا راكعاً هو علّي لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)﴾ [المائدة: ٥٥]، فكيف المرء وهو راكع في الصلاة يخرج الزكاة؟! هذا من العبث، ولكن الجواب على ما يقولونه الجواب هنا.

فإذن امتناع مصاحبة السجود للدخول، يسجد سجوداً كاملاً على مسمى السجود، ثم بعد ذلك يكون داخلاً كيف؟! وهنا العلماء وقفوا موقفين: إما موقف التأويل بمعناه الصحيح حتى يعني حملوا السجود على الركوع، وهذا بين في القرآن موجود، كما قال الله عز وجل عن داوود: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)﴾ [ص: ٢٤]، وهو خرَّ ساجدًا، لأنه لا يمكن للمرء أن يسجد إلا وقد ركع، فالسجود أمرٌ زائدٌ عن الركوع، السجود أمر ولكن يكون فيه الركوع، لأن المقصود من السجود والركوع هو التذلل والخضوع، فلو عُبر بهذا دل على الخضوع والتذلل، ولو عُبر بهذا دل على الخضوع والتذلل، وأما السجود فمعروف وهو التصاق الجبهة في الأرض، والركوع هو الانحناء، ولذلك بعض أهل التفسير يقول: قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، ليوسف أي المقصود ركعوا له ركوع التحية لأن الناس كانوا يفعلونها، وقال بعضهم: لا، هو السجود الحقيقي.

إذن لامتناع مصاحبة الحال لمن صاحبه وهو الدخول فاضطروا لهذا أن يقولوا: المقصود به الركوع يمكن أن يكون السجود هو الركوع، وبعضهم قال: لا، المقصود ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، أي خاضعين متذللين، لا رافعي رؤوسكم كما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة فإنه دخل خاضعاً متذللاً ناسباً الأمر كله والنعمة كلها لله عز وجل، إذن هذا واحد، هذا وجه.

الوجه الثاني: ذكره سيبويه في كتابه «الكتاب» وهو كلامٌ جميل، قال: الحال قد يكون مقدرًا، كيف يعني؟ يكون مقدرًا أي لما يأتي فقد تستطيع أن تقول: رأيت صقرًا صائداً غدا، وقال: صائداً هنا حال

لكنها مقدرة لما سيقع، فحينئذٍ يكون المعنى ماذا؟ وهذا معنى قوي، قال: العرب تقول هذا، فحينئذٍ ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، أي ادخلوه وحالكم بعد ذلك يكون السجود، فهذان هما المعنيان وكلاهما جميل والقرآن يحتمل هذا كله.

قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، طبعًا الباب لا يترتب عليه كبير معنى إما أن الباب هنا ظرف وإما الباب هنا مفعول به، فإذا كان ظرف يعني ادخلوه في الباب، وإذا مفعول به ادخلوا الباب، على ما يجري في الذهن من معنى.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، في سورة «الأعراف» ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١]، نؤجلها حتى نقرأ الكلام، لماذا هنا قدم وأخر، وقلنا دائماً الواو لا تفيد الترتيب، يعني لا ندري ما الذي قيل أولاً وأما قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، يعني المقصود حُطَ عنا خطايانا، أو حطةٌ نسألك إياها، أو حطةٌ نحتاجها، فطلب الله عز وجل منهم إذا دخلوا أن يدخلوها متذللين وأن يسألوا مغفرة الذنوب، وهذا هو أعظم ما يفعله المرء حين النصر، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ١-٣]، التعظيم والتذلل والاستغفار، فقال تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، لكن سيأتي ماذا فعل هؤلاء.

وقال بعضهم: لماذا جاءت هنا ﴿حِطَّةٌ﴾، وفي قراءة أخرى موجودة بالنصب، وهنا جاءت بالرفع، لأن الرفع أبلغ وهي مقدرة بقولهم ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ نحتاجها، حطة نريدها، وضعف الشيخ رشيد رضا أن نسألك إياه يعني وقولوا حطة نسألكها.

فالنتيجة قال: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ﴾، قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾ [البقرة: ٥٨]، وحتى نستفيد إن شاء الله فيما وعدت ثم نتم في الدرس القادم من الآيات، جمع الرازي كلاماً طيباً في الفرق بين سورة «البقرة» وسورة «الأعراف» فيما تقدم فيه.

السؤال الأول: لِمَ قال في سورة «البقرة» ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ [البقرة: ٥٨]، كما تقدم، الله عز وجل يتحدث، وفي سورة «الأعراف» قال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ [الأعراف: ١٦١]، فلم ينسبه له خطاباً مباشراً وإنما حكاية عن قوله جل في علاه؟ الجواب: أن الله تعالى صرح في أول القرآن بأن قائل هذا القول هو الله عز وجل –أين

ذهب الرازي؟! وهذه كلها مسالك يمكن لعالم آخر أن يأتي بمسلك آخر ولا يدل على التعارض، نحن قلنا: أنه لا يوجد آية من كتاب الله تفسر على معنى واحد هذا اتفقنا عليه، من كلام أهل العلم، أن الآية تفسر على معاني متعددة وتحتملها وكلها حق-.

يقول هنا الرازي: لماذا هنا في «البقرة» ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ [البقرة: ٥٨]، وفي «الأعراف» ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ [الأعراف: ١٦١]، قال: الجواب أن الله تعالى صرح في أول القرآن أي في السورة التي بين يدينا «البقرة» بأن قائل هذا القول هو الله تعالى إزالةً للإبهام، ولأنه ذكر في أول الكلام ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ﴾ [البقرة: ٤٧]، إذن ما زال يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، من أجل أن يذكر أنه جاري على مجرى ما تقدم أن القرآن هو كلام الله يتحدث عنه ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، من أجل أن يؤكد هذا قلنا.

السبب الثاني: قال: ولأنه جرى على معنى ما تقدم من ذكره تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]، ثم أخذ يعدد نعمه نِعمةً، نِعمة، فاللائق بهذا المقام أن يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، أما في سورة «الأعراف» فلا يبقى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ [الأعراف: ١٦١]، إبهام بعد تقديم التصريح به في سورة «البقرة»، أي لما انتهى هذا الإبهام وانتهى هذا الإشكال في سورة «البقرة» لا ضرورة أن يعود إليه مرة أخرى.

السؤال الثاني: لِمَ قال في سورة «البقرة»: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾ [البقرة: ٥٨]، وفي سورة «الأعراف»: ﴿اسْكُنُوا﴾ [الأعراف: ١٦١]؟ الجواب: الدخول مقدم على السكون، ولابد منهما فلا جرما أن ذكر الدخول في السور المتقدم والسكون في السورة المتأخرة، يعني أول شيء تدخل ثم تسكن.

ويمكن أن أقول شيئاً آخر يعني الله عز وجل لم يأمر هنا الدخول فقط لمجرد الدخول وإنما أمر الدخول ليحصل ماذا؟ ليحصل الغلبة والغنيمة، يعني لم يحصل أنه فقط لمجرد الدخول مع أن الله عز وجل يبتلي عبيده بأن يأمرهم بما لا تعقله عقولهم؛ من أجل الامتحان كما أمر الله عز وجل إبراهيم بأن يذبح ابنه فيقول ادخل هذا المكان، وهذا رد على من أنكر حديث أصحاب الأعذار يوم القيامة أنهم كيف يمتحنون، الله يمتحن عبيده الثلاثة الذين يعذروا يوم القيامة فالله يقول لهم اذهبوا وادخلوا النار، فرده هذا أبو عمر بن عبد البر وقال كيف؟ الآخرة ليست دار عمل إنما هي دار جزاء وحساب، فالجواب والرد عليه الله يبتلي عبيده بما

يشاء، ولكن لا يوقع الفعل إلا على معنى الحكمة، والحكمة قد تدرك في الابتداء، وقد لا تدرك إلا بعد الانقضاء، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾ [البقرة: ٥٨] وفي سورة «الأعراف» ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا﴾ [الأعراف: ١٦١]، فهذا على قاعدة أن الحدث الواحد تتوالى فيه الصور وتتعدد فيه الصور ليعرف الحال كله لهذا الحدث، فالله عز وجل قال هنا ﴿ادْخُلُوا﴾، وهناك قال: ﴿اسْكُنُوا﴾، ليدل على أن الدخول ليس لمجرد الدخول فقط، ولكن عاقبة هذا الدخول أن يحصل السكون وهو تمام النعمة، لأن السكن أن يكون الشيء ساكناً من النعم العظيمة، طيب هذا مما قاله ونقوله.

السؤال الثالث: لِمَ قال في البقرة ﴿فَكُلُوا﴾، بالفاء وفي الأعراف ﴿وَكُلُوا﴾، بالواو؟ والجواب ههنا هو الذي ذكرناه في قوله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾، وفي «الأعراف»: ﴿فَكُلَّا﴾؟ الواو لا تفيد الترتيب والفاء تفيد الترتيب.

السؤال الرابع: لِمَ قال في سورة «البقرة»: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]، وفي سورة «الأعراف»: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١]؟ الجواب: الخطايا جمع الكثرة -هذا تقدم- والخطيئات جمع السلامة فهو القلة، وفي سورة «البقرة» لما أضاف ذلك القول إلى نفسه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨]، لما كان الحديث حديث على ما تقدم الشرح به إن شاء الله.

السؤال الخامس: لِمَ ذكر قوله: ﴿رَغَدًا﴾، في سورة «البقرة» وحذفه في سورة «الأعراف»؟ الجواب عن هذا السؤال كالجواب في الخطايا والخطيئات، تقدم الكلام عليه أن الله عز وجل يريد لما هو تحدث بنفسه كان العطاء والنِعمة أعظم، ويكفي إلى هنا إن شاء الله وعنده كلام طيب يرجع إليه جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع والخمسون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أيها الإخوة الأحبة أهلاً بكم مع الدرس الرابع والخمسين من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩].

تقدم بعض القول في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا﴾، وقلنا هنا -نُعيد بسرعة-: هناك فرق بين هذه الآية وفي قوله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ [الأعراف: ١٦١]، وهذا ترتب عليه خطابٌ آخر من ذلك أنه ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ولم يقل منهم، وكذلك ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، حيث ذكر الرغد، وتقدم كذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وما زلنا مع هذه الآية.

هنا في قوله تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، فيها دليل أيها الإخوة الأحبة على أن الفتح الرباني للمجاهدين لأن هذا هو أمر الجهاد وأول أمةٍ فرض عليها الجهاد هم بنو إسرائيل، إذ كان قبل بنو إسرائيل كان هناك يأتي النبي فيدعو قومه إلى الدين ثم بعد ذلك ينزل الله عز وجل العذاب على من أعرض وينجو النبي ومن معه متاعاً إلى حين، وأما الجهاد ففرض على بني إسرائيل ولم يُحل لهم الغنائم على ما عرف في كتب السنة النبوية الشريفة المطهرة، فإنه لم يجز الشرع لهم بأن ينتفعوا بالغنائم وإنما الله عز وجل أحل الغنائم لهذه الأمة.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، هذا دخول جهاد، وهذا الموجود هنا على شبه اتفاق بين المفسرين أن هذا مُفسر في سورة «المائدة»، على ما قلناه من قول موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١)﴾ [المائدة: ٢١]، وتقدم القول في قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، على ما فيه من إشكال يطرأ على الذهن في كيفية الدخول مع السجود، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، وتقدم القول فيه.

هنا نأتي إلى قوله تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، انتبهوا إلى الوعدين هذا من المنن الكثيرة التي مَنَّ الله عز وجل بها على بني إسرائيل فهي دائماً تشترك المنِن الدنيوية مع العطايا الأخروية، فهنا قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، فلو لم يكن في دخولهم إلا هذا النعيم وهذا العطاء وهذا الجزاء بأن يدخلوا هذه القرية فيجدوا فيها النعيم فيأكلوا ويتنعموا لكان كافياً بدخولهم، ولكن كذلك ترتب مع هذا الدخول في العطاء الإلهي بأن يدخلوها فيأكلوا منها حيث شاءوا منها رغدا، ثم بعد ذلك يجعل مع هذا العطاء وهو الغنيمة التي تتم بها النعمة في أن يأكلوا من هذه القرية أن يغفر الله لهم خطاياهم، ذلك لأن هذا العطاء الإلهي هو دائماً يشترك فيه أمران: الدنيوي والأخروي، فالدنيوي ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، والأخروي ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾.

وبلا شك أن أهل الدين وأهل المعرفة بالله عز وجل يطلبون النعيم الثاني أن يغفر الله لهم عز وجل خطاياهم، واقتران النصر بالغفران هذا بيّن في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [النصر: ١-٣]، فاقتران النصر بالمغفرة، وهذا كذلك دليل على أن المرء بعد إتيانه الطاعة مطلوبٌ منه أن يستغفر ليغفر الله له، ولذلك قال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، هل الحطة تقال قبل أم بعد؟

هنا في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، دل على المقارنة أو دل على البعدية إذا أخذنا بالتقديم والتأخير مع أن الواو لا تفيد إلا مطلق الجمع، لكن في سورة «الأعراف» تقدم قوله: ﴿حِطَّةٌ﴾ على الدخول، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١] فتقدم، فإذا أردنا أن نجمع بين الأمرين فدلالة على أن الله عز وجل أمرهم بالاستغفار قبل الدخول وبعد الدخول، وأما الاستغفار الذي يكون قبل الدخول من

أجل نزول النصر وأما الاستغفار الذي يكون بعد الدخول كما هو شأن الاستغفار بعد كل طاعة، فإن المرء يستغفر بعد الصلاة وبعد الصيام لما يقترف المرء في هذه الطاعة مع أنها طاعة من النقص، فالاستغفار لا يكون فقط على الذنب، الاستغفار يكون على عدم الكمال حتى في الطاعات، وذلك أنت بعد الطاعات تستغفر الله عز وجل، لماذا؟ لأنك لم تأتي بهذه الطاعة على وجه الكمال المطلوب، فهذا النقص يوجب الاستغفار، فإذن فهمنا هذا أنهم طلب منهم أن يقولوا حطة أي حط عنا خطايانا على ما قاله أهل التفسير أي قبل الدخول وبعد الدخول.

وقبل الدخول لماذا يستغفر المرء؟ استنزالاً لرحمة الله، ولأن الذنب يمنع الطاعات ويمنع العطايا الإلهية والمنح الربانية، فلذلك المرء يستغفر حتى يزول هذا المانع، وبعده على ما تقدم ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، وتقدم الفرق بين خطاياكم وخطيئاتكم وأن خطاياكم هي أبلغ، وهذا يتلاءم مع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، فإن الخطاب رباني هنا، وهنا نُذّكر بأن سورة «البقرة» التي بين أيدينا هي سورةٌ مدنية وسورة «الأعراف» هي سورةٌ مكية فلاءم وجود اليهود حول المدينة عند نزول هذه الآيات أن يكون الخطاب المباشر لهم، بخلاف في مكة فإن اليهود في غياب وذلك قال الله عز وجل: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ [الأعراف: ١٦٠]، فهو إخبارٌ من الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم ماذا جرى لهم، لماذا؟ لغيابهم، لأنه حين نزول هذه الآيات من سورة «الأعراف» لم يكن لليهود حضور عند نزولها بخلاف سورة «البقرة» فإنها نزلت ولليهود حضور، فالخطاب كان متوجهًا لهم.

فلو قال قائل: لماذا -وهذه من المنافع المهمة- لماذا كان خطاب ربنا سبحانه وتعالى لرسولنا صلى الله عليه وسلم في سورة «الأعراف» مع غياب اليهود؟ الذي أعتقده أن هذا تطمينًا أنه سيكون هناك شأنٌ لنصرتك، وشأنٌ لفتح الله عليك وسيأتي النصر الإلهي، ولذلك يخبره ليكون في ذلك تحضير لنفس النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيقع من البلاء ما وقع لموسى عليه السلام، ودائماً أهل التفسير يقولون هذه الكلمة، يقولون: لقد تكاثرت وتعددت أخبار قصة موسى عليه السلام مع قومه في القرآن بسبب المشابهة،

مشابهة حال موسى عليه السلام لحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فجاء الإخبار من أجل الاقتداء لما في الإخبار المشابه من العبرة، فهنا قال: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ جل في علاه.

قال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾ [البقرة: ٥٨]، إذن هناك شيءٌ آخر فوق مغفرة الذنوب مع أن مغفرة الذنوب شيءٌ عظيم، وأول ما يبشر به الأنبياء أقوامهم الاستغفار، يطلبون منهم الاستغفار، ويعدونهم بالمغفرة، في سورة «هود» نرى هذا الاشتراك، الأنبياء يكررون هذه الكلمة، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾ [هود: ٥٠-٥٢]، طلب منهم أن يستغفرون.

ونبي الله نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠)﴾ [نوح: ١٠]، صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [هود: ٦١]، الأمر بالاستغفار، الوعد بالنجاة والمغفرة حتى مع الجن ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

فإذن المطلب الإلهي من الناس أن يستغفروا ربهم، والوعد الإلهي مغفرة الذنوب، مغفرة الذنوب مطلب الصالحين، أن يغفر الله ذنوبهم؛ ذلك لأن الذنوب سبب الهلكة في هذه الدنيا وفي الآخرة، سبب الهلك في الدنيا أن الذنوب هي سبب العذاب الإلهي، والذنوب معوقة لانطلاقة النفس، في سورة «الإسراء» في أولها يتكلم الله عز وجل عن الشرك ماذا يحدث في النفس من تعطيل إرادتها عن الطاعة، في قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢)﴾ [الإسراء: ٢٢]، هذا في بداية الأمر أنه يمنعك من الإتيان بالطاعات ويمنعك من النشاط في الطاعات.

ولذلك في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (إذا قام المرء فصلى فأصبح طيب النفس)، حديث في الدعوة إلى قيام الليل والترغيب به، قال صلى الله عليه وسلم: (أصبح طيب النفس)، لكنه إذا لم يفعل ذلك فأصبح خبيث النفس كسلان، المعاصي تخبث بها النفس ويصبح اختياراتها على الضد من مكارم الله عز وجل وعطايا الله عز وجل للإنسان وعلى الضد من مصلحة الإنسان، الذنوب إذا حملها المرء صارت اختياراته على الضد من مصالحه، وأما العاقبة في الآخرة فمعروف، ولذلك الله عز وجل يمنّ على العبيد بأن يغفر لهم خطاياهم، والآية التي بعدها في سورة «الإسراء»: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ﴾ [الإسراء: ٣٩].

فقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢)﴾ [الإسراء: ٢٢] هذا ابتداء، أنها تعطل طاقة المرء في الطاعات وفي العمل الذي فيه المنفعة، والخاتمة ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)﴾ [الإسراء: ٣٩]، أي العاقبة، انظر تعلق الشرك بالإرادة وكيف أقعد، فتقعده، ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢)﴾، والعاقبة ﴿فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)﴾.

إذن الله عز وجل قال: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، هذه مِنَّة ينبغي أن ينتبه لها المرء، ولذلك إذا أراد الرجل أن يسلم ينتبه لهذا الملحظ، فإن عمرو العاص لما جاء ليبايع النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر هو وخالد بعد صلح الحديبية، فأراد أن يبايعه قال: وذنوبي، ما الأمر في ذنوبي؟ قال: (ألم تعلم أن الإسلام يجوب ما قبله)، فماذا أصنع بالذنوب؟ الذنوب مصيبة على النفس البشرية، فقال تعالى: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، ثم جعل زيادة قال: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، ما هي الزيادة؟ هناك عطاءٌ بالمحو، وهناك عطاء بالزيادة، المحو هو إزالة الفساد وهذه تسمى التخلية، وأما الزيادة فهي التحلية الزائدة، أولاً أن يزيل عنك ما يسوئك، وأن يزيل عنك ما يثقلك وما يتعبك والأخرى ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ما هي الزيادة بالعطاء؟ هذا أمرٌ أطلقه الله عز وجل قال: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، ما هو الإحسان؟ قال: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، وعلق الزيادة في العطاء الإلهي على زيادةٍ في الفعل، ما هي الزيادة في الفعل؟ أن يكونوا أكثر الناس ذِكرًا لله إذا دخلوا فوق قولهم حطة، أن يستغفرون الله، أن يسبحوا الله، أن يقرؤوا

تراتيلهم، أن يحصل المنفعة بينهم إذا دخلوا يعين القوي الضعيف ويحسن إليه وهكذا، فالإحسان بابٌ لا ينتهي، وقال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قال بعض أهل التفسير وهذا ملحظ انتبه إليه رشيد رضا، قال: كلمة بدل تسقط أي عذرٍ لهم، أي لم يتأولوا ففهموا الكلام على غير وجهه، لم يقع منهم الخطأ على جهة خطأ والنسيان، فقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ﴾، يليق بمن اقترف المعصية وهو عالمٌ بها وذاكرٌ لها ومقبلٌ عليها مع معرفته أنها خطأ، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ﴾، فإذن كلمة التبديل دالة على رفع الإعذار أنه لا عذر لهم بهذه المعصية إنما أتوها على مقصدٍ وإرادة وعلى علمٍ وإدراك بأنها مصيبة فهذا تقبيح لهم.

ثم زاد البيان بيان في قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، يعني الأصل كلمة التبديل ترفع الإعذار، ثم جاء البيان الأعظم بقوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿ظَلَمُوا﴾، دائماً في هذا السياق الذي ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾ [البقرة: ٥٧]، النتيجة أنهم ظلموا أنفسهم، ما الذي حصل من التبديل؟ أنهم غيروا الكلمة، الكلمة حطة أي حط عنا ذنوبنا، نسألك أن تحط ذنوبنا، ونرجوك أن تحط ذنوبنا ولكن بدلوا، ماذا بدلوا؟ تلاعبوا بها، وهذا التلاعب على ما ورد في الحديث أنهم قالوا: حبة في شعيرة، أو حنطةٌ في شعرة على رواية، ولكن الحديث الذي في الصحيحين (بدل أن يقولوا: حطة قالوا: حبة في شعيرة)، انظر كلمة ﴿حِطَّةٌ﴾، وهذا يدل على خبث هذه النفوس، وأن النفوس تقترف المعاصي مع أنه لا وجه لها من المنفعة، سوى أن هذه النفوس استمرئت على المعصية، وأنها تبدل وتغير كأنها تتلاعب يتخذون آيات الله هزوا، يعني يتخذون آيات الله هزوا، لم يقولوا كلمة فيها المنفعة.

فماذا تعني حبة في شعيرة؟ أو قالوا: حنطة في شعرة، ما الذي يفيدهم في هذا المعنى؟ ماذا تفيد هذه الكلمات في التعبد مع الله عز وجل، والتعامل في هذا الباب إنما هو تعامل مع الله عز وجل، وليس بين شخصٍ وآخر من بني البشر، وليس بين إنسان وابنه، إنما هو تعامل مع الله عز وجل، أمرٌ علوي فيه الاستعلاء وفيه المعنى وفيه الأثر، قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]، فيه الأثر وفيه الوعد، ثم انقلب هذا إلى ألفاظ لا معنى له، ما معنى حبة في شعيرة؟ لا معنى لها فقط تلاعُب، ما هي عاقبتها؟ لا شيء، ظلم، ما معناها اللغوي؟ ولا شيء تلاعُب، وهذا هو شأن المستهزئين، ترى شأن

المستهزئين في تاريخ البشرية يقترفون مثل هذه المعاني، يذهبون إلى كلمات لا قيمة لها من أجل إزالة كلمات لها المعاني العظمى في هذا الوجود.

قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، وهنا يأتي قيمة القول ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا﴾، الأقوال أيها الإخوة الأحبة ليست مجرد كما يستهزئ الناس يقولون: أقوال وكلمات ولا قيمة لها، لا، الكلمات لها قيمة ولها اعتبار في هذا الوجود لأنها دالة على معاني ودالة على نفوس قائليها، الكلام إبانة، فلما يدخل العبد ويقول: ﴿حِطَّةٌ﴾ فإنها تعبر عن نفسه، أول شيء تعبر عن التواضع لله للحال الذي يقترفه المرء وهو أنه دخل الباب سجدا، وهذا تمام التواضع والتذلل والخضوع، وكذلك مع هذه الهيئة الظاهرة من التواضع هناك قولٌ شارك هذا التواضع، وهو قوله حط اغفر لنا خطايانا، حط عنا ذنوبنا، فاشترك الفعل الظاهر مع القول الظاهر من أجل إما أن يدل على النفوس المتواضعة، وإما أن يذلل النفوس الغير المتواضعة من أجل التواضع، يعني المرء إذا استمرأ الكلام الطيب يعود هذا الكلام الطيب على نفسه بالطيب، حتى وإن لم تكن نفسه طيبة فإنه يجاهد نفسه بالكلام الطيب حتى يعود على نفسه بالطيب، وبالطيب وبالأثر.

ولذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فالصحابة رضي الله عنهم جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم شكوا أنهم كلفوا ما يطيقون، قال صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين: سمعنا وعصينا)، قولوا: سمعنا وأطعنا)، قال: فذلت بها ألسنتهم وليست نفوسهم، بمعنى مازالت نفوسهم في حالة غليان أو في حالة تعجب من هذا الأمر، ومع ذلك زلت بها أنفسهم، فلما ذلت النفوس عاد هذا التذلل على النفوس، كذلك الصحابة في صلح الحديبية لما قام بعضهم يستجيب لأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالحلق، عاد هذا بالطاعة على نفوسهم، استجابوا لله والرسول، حتى ولو كان على خلاف نفسه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أسلم وإن كنت كارهاً).

فالفعل الظاهر من التواضع والخضوع لله عز وجل والخشوع له والتذلل لجنابه جل في علاه مع اللفظ هذا حتى لو كانت النفس مرتفعة فإنها تذلل وتربى بهذا النفس، كما أن المرء يذلل ويربى بكلام غيره له، كذلك يربى بكلام نفسه لنفسه، يتربى وهو يحدث نفسه ويقول هذا الكلام تتربع نفسه وتترقى، من هنا تأتي

قيمة الذكر، الذكر يربي النفوس، والاستغفار أعظم ما يربيها على التواضع، ويصنع العجب لكن بمجرد أن يقول: استغفر الله، هذا هو تمام التذلل والخضوع لله والعبودية، ونفسه تكون متواضعة.

لكن هؤلاء أبوا هذا وذهبوا إلى ألفاظٍ لا قيمة لها، لا في المعنى ولا في الأثر، أنها لا تسقط عنهم الذنب، وهم في أشد الحاجة إليها لأنهم يريدون دخول هذه القرية التي تكلمنا عنها، وأن فيها قوماً جبارين، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، وهذا يفتح لنا أيها الإخوة الأحبة باب الحيل، الحديث عن باب الحيل دائماً يستدل علماؤنا على هذه الآية وفي غيرها من الآيات، في رد باب الحيل أنه كيف يتحايل المكلف على الشرع بكلماتٍ أو أفعالٍ قريبة منها ولكنها لا تسد المسد، ولا تقوموا بواجب التكليف، ولا تسقط عن المرء الكلفة والتكليف، لا تسقطه، وهذا من تمام الإجرام، يعني بدل أن يقول: حطة، يقول: حنطة، بدل أن يقول: حطة، يقول: حبة في شعيرة، هو لو سأل يقول لك: يعني المعنى مقارب، ولكنه هروب من التكليف، لماذا؟ لاتباع الهوى فقط، ليس هناك من طلب إلا إتباع الهوى.

الآن كيفية التحايل؟ هو هذا، الشارع يطلب من العبد أن يأتي بالفعل على وجهٍ ما، فهو يغير فيه شيئاً قليلاً ومن أجل أن يصبح الحرام حلالاً وأن يسقط التكليف عنه، يغير فيه صورته الظاهرة مع بقاء الحقيقة التي يريدها الشارع أو أنه يأتي بالفعل على غير وجهه الذي أمر الشارع به.

فمثلاً: من أجل أن يسقط الزكاة، يتصدق بها لزوجته قبل أن يتم الحول فيسقط التكليف، هذا من باب الحيل أن لا يقول اللفظ المطلوب شرعاً، مطلوب آخر، من أجل أن يتحايل على الشارع أو يتحايل في العقود، يضع كلمة من أجل أن يتحايل فيها على العاقد، وكل هذا الشارع منعه.

وهذا يدل كذلك على أن النفوس العاصية لربها ليست مهدية، ولا يمكن أن تخاطب مخاطبة العقلاء، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]، أي عقلٍ كان عندهم لما اقترفوه؟!! دل هذا على أن أصحاب الحيل وأصحاب المعاصي إنما يريدون المعصية لمجرد المعصية، ذلك لأن التكليف يؤذيهم، ولأن الخضوع شديدٌ على أنفسهم، فيحبون التحرر، كلمة ﴿حِطَّةٌ﴾ فيها التعبد، فيها الخضوع، ولا يريد هذا فيتفلت.

قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، ماذا بدلوا؟ جاء في الحديث على ما تقدم.

قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٥٩]، في سورة «الأعراف» ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ [الأعراف: ١٦٢]، تكلموا كلام طيب العلماء قالوا: الإنزال إنما هو أوله، والإرسال إنما هو تمامه الدال على الاستئصال والعموم، الإنزال يدل على أوله، والإرسال يدل على الاستئصال والعموم، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٢]، أي عليهم جميعهم أصابهم هذا الرجز، كما سيأتي معنى الرجز، وكذلك مما ينبغي أن يهتم به أن الإنزال هنا وشيخ الإسلام حمه الله له رسالة في معنى كلمة الإنزال في القرآن فقط، للدلالة على أن هذه الكلمة لا يمكن أن تطلق في القرآن إلا في الدلالة من شيءٍ آتٍ من جهة العلو للدنو، له الرسالة موجودة ومطبوعة في هذا.

والذي عندي أن الإنزال هو بيان مكان هذا الرجز، والإرسال مكان تأثيره، الإنزال بيان مصدره، من أين أتى، أنه من السماء ﴿فَأَنْزَلْنَا﴾، وأما الإرسال فمكان تأثيره، ومكان تأثيره الإرسال أي العميم، استأصل الجميع، والإنزال أنه جاء من السماء والشيء الآتي من السماء فيه القوة، وانتبهوا إلى هذه المفارقة في قضية الإنزال، إلى ما سيأتي من العطاء على ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، هناك إنزال العطاء، وهنا إنزال العذاب.

قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، لماذا تكررت كلمة ﴿ظَلَمُوا﴾؟ في سورة «الأعراف» ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٢]، فلماذا جاءت ﴿مِنْهُمْ﴾ هناك؟ تقدم الكلام على هذا، وقلنا: لأن الحديث في سورة «الأعراف» عن البعض، فقد ذكر الله البضعية بقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: ٦٦]، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، فهذا لاءم الابتداء في قضية الجزء.

ولماذا هنا كرر الظلم؟ قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، من أجل بيان هذه الجريمة ومرتبة اقترافها، والتنفير منها.

وما هو الرجز؟ الرجز أصلاً هو الاضطراب، وإذا كان الشيء يتحرك فكأنه يرجز ومن هنا سمي الشعر الذي فيه هذا التراقص بالرجز، وكذلك يقال: رجزت الدابة أو تحركت لما فيها من الاضطراب، وهنا الرجز دل على العذاب الذي يزلزلهم، ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، أي عذابًا زلزلهم، هذا الذي

عليه بعض أهل العلم وغيرهم قال: المقصود به الطاعون، فإن الطاعون هو الرجز الذي سُلط على بني إسرائيل بسبب هذه العقوبة، ولا شك أن الطاعون يتعب ويقلقل النفوس التي تصاب به.

قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾، هذه تؤكد قضية النزول من أين؟ من المكان، ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، فدل هذا ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، أنها نزلت من السماء، فدل هذا على أن السماء مصدر العقوبة ومصدر العطاء والنِعم، والمرء هو الذي يختار، والمرء هو الذي يحكُم على نفسه، إما أن ينزل عليه من السماء العذاب وإما أن ينزل عليه النعيم والعطاء.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، على ما تقدم العذاب إما أنه عام وإما أنه خاص بقولهم: الطاعون، وقال تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾ [البقرة: ٥٩]، فاجتمع في الوصف الإلهي لهم هنا وصفان: ظلموا وفسقوا، والظلم هو تجاوز الحد والفسق هو تجاوز الحد، والفسق يقال: فسقت الحبة أي فتحت وتجاوز ما فيها غلافها، هذا هو أصل الفسق، فلذلك هو التجاوز الفسق هو تجاوز والظلم هو تجاوز الحد، فقال سبحانه: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)﴾ [البقرة: ٢٥٤]، لأنهم تجاوزوا الحد، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)﴾ [التوبة: ٦٧]، على ما تقدم أي تجاوزا حدودهم وخرجوا عن طاعة الله عز وجل، هذا بيان الحال الذي عليه بني إسرائيل في هاتين الآيتين من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨]، وتقدم أن القرية هي بيت المقدس وإلى ما جرى معهم وما حدث من أقولهم.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾ [البقرة: ٦٠]، العلماء يعدون هذا الخطاب الإلهي يعدونه بالعد أن هذه النِعمة التاسعة على بني إسرائيل ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾.

وقال أهل العلم: هذه كذلك فيها نعمتان نعمة دنيوية ونعم أخروية ربانية غيبية:

– أما النعمة الدنيوية فبينة واضحة في قوله في أنهم شربوا الماء، ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾، فالله عز وجل فجر لهم الماء من غير مصدره المعتاد الحجر، والحجر اسم

ولكنه بعد ذلك حتى صار صفة، فقالوا: تحجرت التربة يعني صارت صلبة، فالحجر ليس مصدراً لصلابته ليس مصدرًا للماء ولذلك لما سيأتي من ذكره عن قضية البقرة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، إذن الحجارة المقصود بها القسوة، وليست هي مصدر الماء، وهذا حجر بيّن يحملونه على ما سيأتي ذكره، هل هو أي حجر؟ أم هو حجر معين كانوا يحملونه أو يحمله موسى عليه السلام معه؟ على خلاف ولا ندري، وإنما هنا لم يأتي ذكر الحجر سابقاً لنعلم ما هو، ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾، فلم نعرف ما هو الحجر، فليست «ال» عهدية لأنه لم يأتي ذكر الحجر سابقاً لنعرف أنه هذا المعهود من الخطاب في كلمة الحجر، ولكن قوله تعالى: ﴿الْحِجْرِ﴾ دل على أنه معرف لديهم يعرفونه عند هذا الخطاب.

إذن المعنى الأول نعود إلى ما ذكروا، إلى أن هذه من النعم الإلهية أن الله عز وجل أعطاهم نعمة إلهية وذلك بأن فجر لهم من الحجر الماء، وهذا أشبه بأنه كن فيكون، ولكن على صورةٍ لا يعرفها الناس.

– أما النعمة الإلهية الغيبية: أن الله استجاب دعاءهم، بطلبهم من موسى عليه السلام، يعني ما هو الأجمل — هذه ينبغي أن ننتبه لها– ما هو الأجمل عند العابد، أثر الدعاء أم استجابة الدعاء؟ المرء حين يدعو ربه فيستجيب الله عز وجل له، أيهما أقرب إلى قلبه فرحاً؟ أيهما أفرح لقلبه أن الله أجاب دعاءه، أم النعمة التي أعطيها؟ كلاهما نعمة لكن ما هو الأجمل لديه، ما هو الأفضل عنده؟ أن الله عز وجل استجاب دعاءه، فرح المؤمن بأن الله عز وجل نظر إليه وسمع دعاءه وأجابه أحب إليه من النِعمة التي يعطيه إياها، بل أشد من ذلك.

وشيخ الإسلام ابن تيمية حمه الله له كلام أروع من هذا، يقول: بأن المرء إذا وقعت به المصيبة، فإن ما يصاب به من الفرح القلبي وهو يدعو، ومن النور الإلهي النازل على قلبه وهو يدعو أحب إليه من قضاء الحاجة، يعني المرء وهو يستغيث ربه عند المصيبة ويبكي بين يديه يحُس من النِعيم الإلهي في قلبه والعطاء الإلهي الشيء العظيم، يكون هذا النِعيم الذي يحس به أحس إليه من الذي يسأله من النِعيم الدنيوي، وهذا الإنسان يجربه في حياته فإن أجمل ما في الدعاء هو أن ترى أن الله عز وجل قد أجاب، وهذه نقطة تحتاج إلى تنبيه يسير أن الناس لا يرون إجابة الدعاء، لأنه يقع على معنى اللطف والسر والخفاء، يعني الناس قد

اعتادت أذهانهم فيما يساق لهم من أخبار مجابي الدعاء أنهم سألوا الله فحصلت الإجابة حيث دعوا، فحينئذٍ يرون أن الله عز وجل قد أجاب دعاءهم، مع أن بعضهم ممن حجب الله قلبه عن رؤية العطاء الإلهي، ربما لا يفسره هذا التفسير، ربما لا يفسره أنه عطاءٌ إلهي.

فمثلاً: لو جلسوا جماعة من الفقر والحاجة وأصيبوا بفاقة، فسألوا الله أن يطعمهم، فلو مر مثلاً طائر ورمى لهم طعاماً، فإن بعض من حُجب قلبه عن الله في رؤية هذه النعمة الإلهية والإجابة لدعائهم، سيفسرها تفسير آخر، يقول: هذه ما له دخل في الدعاء، ولذلك الله عز وجل قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤)﴾ [الطور: ٤٤].

ولما خرج الصحابة رضي الله عنهم إلى صلح الحديبية وأمطرت عليهم فقال: يقول الله عز وجل: (أَصْبَحَ مِن عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فأَمَّا مَن قالَ: مُطِرْنَا بفَضْلِ اللَّهِ ورَحْمَتِهِ، فَذلكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بالكَوْكَبِ، وأَمَّا مَن قالَ: بنَوْءِ كَذَا وكَذَا، فَذلكَ كَافِرٌ بِي ومُؤْمِنٌ بالكَوْكَبِ)، القول مطرنا بنوء كذا هذا أمر يطول، يعني الناس لو قيل لهم هذا من العطاء الإلهي في هذا الماء الذي جاءكم، يقولون: أي عطاء إلهي؟!! هذا تكون كذا وكذا إلخ، أي ينظرون إلى الجريان السنني، ولذلك قلت لكم أكثر من مرة: بأن جريان السنن حجابٌ عن رؤية يد الله الفاعلة والكريمة، حجاب عن رؤية الله الجواد المعطي، أنت الآن تأكل وتشرب، أنت لا ترى يد الله التي رزقتك وأعطتك ومنّت عليك وأكرمتك لا تراها، لماذا؟ لأن الكثير مما يجري لك يجري مجرى السنن فلا ترى نعمة الله، وهذا من الحجاب عليك ألا تلتفت إلى السنن بمقدار رؤيتك إلى العطاء الإلهي، هذا لا يعني ألا تدرس السنن وكيفية جريان الأقدار هذا أمر، ولكن ينبغي أن تنتبه إلى يد الله الفاعلة في الوجود.

أعود وأقول إن العبد ليفرح بإجابة الدعاء أكثر مما يفرح بأن يتحقق له ما دعا له، أو ما دعاه وطلبه، والله عز وجل يجيب ولكن قلت لكم: لأنها تجري مجرى السنة فيقول: ما الذي جرى؟ ولو أطلع على الغيب لعلم كيف تدبير الله عز وجل لهذه الإجابة كيف وقعت، ولأن الناس يتعودون في سماعهم لأخبار مجابي الدعوة أنها تقع فوراً، ومع ذلك يقع كما تقدم يقع من بعضهم الرفض أنها عطيةٌ إلهية، لكن كثير من الإجابات الدعاء تؤجل، لماذا؟ لتتم على معنى السُنة.

فتجد المرء يقول: اللهم ارزقني الولد، ويدعو، ويدعو، فإذا جاء الولد نسي أنه دعا، يدعوا الله عز وجل أن يرفع هذه الغمة، والغمة تبدأ تحل قليلاً، قليلاً، كما يكبر ابنك قليلاً، قليلاً، وتنسى أنه كان صغيراً، اليوم الحمد لله يوجد تصوير، يعني يصورونك صغيرًا، فيقول: ما شاء الله هكذا كنت والآن هكذا صرت، فيرون هذا التغير العجيب، ولكن قديمًا من غير صور لا يرون الإنسان وهو صغير، فلذلك كأنه الآن، وأنت دعوت الله نسيت أنك دعوت، ينسى، فإذا جاءت النِعمة ينسى أن الله عز وجل استجاب دعاؤه.

ولذلك هنا قال أهل العلم في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾: فيها نِعمةٌ إلهية أن الله عز وجل أجاب دعاءهم وأكرمهم، فانظر هم يشكون إلى موسى عليه السلام العطش، فموسى عليه السلام يدعو ربه ويسأله سبحانه وتعالى الدعاء فيستجيب لهم، هذا يوجب أن يذل لله عز وجل وأن يخضعوا له وأن يحبوه لأن النفوس مجبولةٌ على حب من أحسن إليها، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن: ٦٠]، لكن هذه نفوس غريبة، ترى من حقها على الله عز وجل أن يطعمها، وهذا من تمام الجهل ليس من حقك على الله جّل في علاه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، ﴿اسْتَسْقَى﴾ أي طلب السقيا من الله عز وجل وهنا ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى﴾، أين المفعول به ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى﴾ ماذا؟ ربه، الطلب من الله عز وجل والاستسقاء هو جزءٌ من الدعاء وهو فعل الصالحين عند حاجتهم إليه ومن شريعتنا صلاة الاستسقاء كما تعلمون وفعلها النبي صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠]، هنا أيها الإخوة الأحبة يعني انتبهوا إلى هذه المتعلقات التي يتكرر ذكرها عن النبي الواحد، أي شيءٍ من أمتعة يوسف يذكر في سورة «يوسف» ويتكرر ذكره وله خبر ما هو؟ قميص يوسف، ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، قصة القميص، ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ [يوسف: ٢٥]، ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ [يوسف: ٩٣]، المشكلة هذا القميص.

وهنا مع موسى عليه السلام القصة مع العصا، من ابتداء ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٧-١٨]، وكأن هذا السؤال هو مفتاح لما سيأتي من أخبارٍ عجيبة عنها، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ

أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠)﴾ [طه: ١٨-٢٠]، ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠]، ليس المقصود الجني، المقصود ﴿جَانٌّ﴾ المقصود نار عظيمة، وكذلك قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧)﴾ [الأعراف: ١١٧]، ما يكذبون، هو يستجيب لله عز وجل، هذا يقين موسى عليه السلام، الله يأمره أن يلقي العصا التي بين يديه فيلقيها، وأعطاه الله عز وجل صورة الفعل لما سيكون منها قبل أن يدخل الامتحان.

وهذه تعلمنا أن على المرء أن يربي المرء قبل أن يقذف به في الامتحانات الكبرى مع غيره، الله عز وجل رحيم وموسى قلبه شديد وصاحب قلبٍ شجاع، موسى شجاع، وهذا مما لا شك فيه وفيه صلابة، ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، موسى عليه السلام شجاع ورعى الغنم عشر سنين ليتزوج ومشى في الصحراء هو وأهله لوحده، ولما خرج منهم خرج لوحده في الصحراء باحثاً حتى وصل مدين ورفع الحجر وسقى، شجاع، ومع هذه الشجاعة العظيمة الله عز وجل رباه بأن يرى فعل العصا قبل أن يقذف به في امتحانه مع فرعون، تعليم ما تقذف بأحد دون أن تعلمه وأن تبين له ماذا سيجري معك.

فالمهم أن العصى ألقاها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠)﴾ [طه: ٢٠]، وأيضاً ضرب بعصاه البحر، هذه قصة العصا عجيبة، ودعكم من خلافات التوراة والمفسرين ما هو نوع العصا؟ وهي لم تكن مجرد عصا فهو يعرفها ولم يتوارثها لا عن أنبياء ولا عن أباء، ولذلك لما سأله الله عز وجل ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ﴾ [طه: ١٨]، لا يعرف عنها سراً ولا يعرف عنها أمراً غيبياً ولا يعرف عنها فعلاً خارج الإلف، وما في العصا، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ [طه: ١٨]، وانظر إلى نسبتها له وكأنها ود، ما قال: هي عصا، قال: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، ونسبها نسبة الحب والود له لأنها نافعة، هكذا ينبغي حتى أنت عليك أن تتعلم أن تنسب الأشياء لك لا نسبة الملك والذلة ولكن نسبة الحب حتى للأشياء اليسيرة.

المهم ضرب بعصاه البحر فانفلق، وبعدها العصا يضرب بها الحجر، هل هناك في الحديث كذلك العصا اشتغل بها؟ لما قام عليه السلام يغتسل عريانا فوضع ثيابه فوق الحجر، بعض أهل التفسير قال: الحجر الذي هرب بثيابه هو الحجر الذي أمر بضربه من أجل أن يفجر الماء، لأنه حجرٌ فيه خاصية الحركة يعني يعرف

يمشي، يعني خاصية ليس المقصود بها أنها بأمرٍ طبعيٍ فيه ليس هذا المقصود، لا، بل الله عز وجل هو الذي يخلق في الأشياء على خلاف ما جرت السنة في الخِلقة، وهرب الحجر، الحجر جعل يعدو بثياب موسى، وموسى عليه السلام قدمه اليهود بأنه آدر يعني فيه عيب في بدنه المستور، فلحق به يضربه ويقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى جعل الندوب في الحجر، عصا عجيبة هذه، والآن يضرب بها الحجر فيخرج من هذا الحجر الماء.

وهنا لابد من وقفة فقط يسيرة –البعض يظن أن العصا فيها تأثير لما يقع، لا ليس فيها أي تأثير، وإنما يُجري الله عز وجل هذا الأمر بالسُنة من أجل بيان النِعمة، فلو جرت بغير الضرب لما نسبوا الفعل لله، فلما ألقى السحرة، فالله أهلك هذه الحجارة أو هذه الحبال أهلكها فنيت وذهبت لما نسبوا هذا الفعل لموسى، ولما رأوا أن الله عز وجل قد خص موسى عليه السلام وعصاه بسر لما نسبوه إليه، ما الذي يدلنا على أنك أنت فعلت هذا؟ أو أن هذا الفعل وقع على يدك ليس بيدك على يدك ما الذي يدل؟ لا يوجد، فأن يأمره الله عز وجل بأن يرمي عصاه فتفعل هذه الفعلة، الناس يعرفون أن عصا موسى، ودل هذا على أن شأن موسى في الخلق عظيم، حتى أنه يغير الأشياء من حجارة أو من خشب إلى حية تسعى فدل على أن له علاقة بمن خلق الحجر وخلق الشجر وخلق الحبال وغير ذلك.

فلذلك لما الله عز وجل يأمر موسى عليه السلام بأن يضرب لو جاؤوا للبحر فانفلق، ما الذي يدل على أنه من فعل موسى؟ حتى لو قام يدعو ستجد من الناس من ينكر، لكن أن يأتي إلى البحر فيضرب بعصاه فيستجيب البحر فهذا دلالة على أن الفعل قد وقع على يده وهذه كرامة لموسى عليه السلام، وكذلك كرامة لمن أُنقِذوا، وكذلك هنا لو موسى عليه السلام سأل الله عز وجل وقال: اسقنا يا رب وإذا فجأة خرجت المياه من الحجر لما نسبوه، لابد من وجود من يشكك، لكن أن يأتي بهذه العصا ويضرب بها دل هذا على مراد الله يعني كشف أن الفعل هو فعلٌ إلهي أجراه على يدي هذا النبي العظيم.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، أي طلب الماء لهم سقيا من أجل أن يشربوا، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ استجاب، لم يقل ما الذي سيكون في الحجر وقد رأى فعل هذه العصا العجيبة، قال تعالى: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، طبعًا في سورة «الأعراف» ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾

[الأعراف: ١٦٠]، بعض أهل العلم قال: الانبجاس هو الانفجار ونفس معنى التشقق، تشقق الحجر خرج منه الماء، انفجر الحجر خرج منه الماء، انبجس الحجر فخرجت منه الماء، فقالوا: واحد، والصواب: لا، الذي عندي أن ما قاله بعض أهل العلم: أن انبجس بداية خروج الماء انسياحه منه أن ينز الماء منه بداية الخروج، والانفجار هو الكثرة وهذا دليل على أن الفعل لم يقع مرةً واحدة، ولو وقع مرة واحدة ربما لم يحصل به الانتفاع، أن يخرج الشيء نزراً يسيرا ثم يبدأ يزداد حتى يخرج بالكثرة، يمكن الانتفاع به، ولكن لو خرج انفجر مرة واحدة ربما لا ينتفعون به الانتفاع الكثير، هذا واحد.

النقطة الثانية: أن بعض أهل العلم أشار في أخبار هذه القصة أنه كان يجمع موسى عليه السلام حول الحجر الأسباط، زعماء الأسباط فينز الماء من أجل أن يحدد من أين يأخذ كل واحدٍ مكانه، فالانبجاس خروجه قليلاً، قليلاً من أجل دلالة لمن يذهب، فيه منفعة لمن يذهب، لو خرج مرة واحدة؛ من أين نأخذ؟! ربما حصلت الخصومة أنا أريد هذا المكان، وأنا أريد هذا المكان، فهو يجمعهم حول الحجر، فيضرب الحجر فيخرج منه الماء قليلاً فيذهب لكل أحد فيعرف كل واحد مشربهم، فالانبجاس له مقصد هذا على ما يقوله أهل التفسير.

قال تعالى: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، طبعاً هو الأصل اثنتا عشرة عيونًا، و﴿عَيْنًا﴾ إعرابها تمييز، فقال أهل العلم: إذا جاء التمييز منصوبًا وراء العدد فلابد إجبارًا من الإفراد وإن كان العدد كثيراً، وزعم الفراء على ما يذكرونها عنه أن يجوز التعدد أي يقول ثلاثة عشرة عيونا أو أعيونا ولكن التمييز عادةً إذا جاء للعدد وكان العدد كثير يكون مفرده، هذا ما قاله، فقوله تعالى: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، وذلك لعدد هؤلاء ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] حتى لا تتم الخصومة بينهم وكل واحد يأخذ حاجته من غير خصومة مع غيره.

قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، كيف؟ ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، وعلم كل واحد أي عينٍ هي له، كيف ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾؟ على ما ذكرنا وربما هذا الذي يشجع القول بأنه انبجست، أن يقف كل واحد من جهة الحجر، فتخرج من الحجر اثنتا عشرة عينا تصيب كل أحد فيعلم أن هذا هو مكانه، وربما أنه قد كتب على الحجر أسماء كل سبطٍ من أسباطهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾، حتى هذه عطية إلهية عظيمة بأن لا تحصل الخصومة بعد ذلك حول هذا الماء.

قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠]، تقدم قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]، وهنا ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾، ولماذا يذكر هنا الأكل ولم يذكر فيه إلا الماء؟ طبعًا هنا ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾، التفات، لأن الخطاب الأول هو خطاب المتكلم، ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠]، قال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾، فصار خطاب الغيبة، فهذا التفات عند كثير من أهل العلم، ولكن هنا لماذا كلوا؟ قال: إما لجريان أنكم تأكلوا ما تقدم ذكره وتشربوا هنا، وقال بعضهم: وهو متوجه أن حال هذا الماء هو كحال زمزم (طعام طعم وشفاء سقم)، ولم يذكر قضية للشرب لأن الماء أصلاً للشرب لكن هذا شيءٌ زائد، (طعام طعم)، أي إذا شرب ماء زمزم بنية أن يشبع، يشبع، وإذا شربه بنية الاستشفاء يشفى، فكأن هذا الماء كذلك فيه هذا المعنى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾، هذه نسبة تشريف، والنسبة إما أن تكون نسبة مُلك مطلق وإما نسبة مُلكٍ وفيها تشريف، وإما نسبة تشريف وإما نسبة صفة، وهذه تعرف من خلال انفكاك المضاف عن المضاف إليه، يعني الآن هل يمكن أن نرى رزقاً مطلقاً هكذا رزق؟ نعم، فهو منفصل عن الله ذاتاً ووجوداً منفصل، لكن لو نقول: بياض صفة، بياض فلان، هل نتصور البياض له وجود مستقلاً عن هذا المضاف إليه؟ لا، لابد أن نقول بياض خليل، فلا يمكن انفكاك البياض عن خليل، لا يتصور وجود بياض هكذا ماشي لوحده.

فإذا كان المضاف وتصورنا وجوده مستقلاً حينئذٍ تكون النسبة نسبة مُلك، وقد تنصرف إلى التشريف لماذا يذكر، كقولنا كعبة الله، كقولنا رزق الله، كقولنا بيت الله، فهذا نسبة تشريف، وقد يقال: هذا شيءٌ لفلان ملكه يعني يملكه، وإن كان هذا الملك حاصل كقولنا لعيسى عليه السلام: روح الله، المقصود هنا التشريف منسوبة إلى الله وهي مملوكة له ومخلوقة له ومشرفة بانتسابها إليه، وقوله تعالى هنا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا

مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾، هذا دلالة على أن الرزق عظيم، فتشرف بنسبته إلى الله، والدلالة أن الله عز وجل نسبه لنفسه على معنى التشريف.

قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾ [البقرة: ٦٠]، عثا، يعثوا، فالمقصود به نشر الفساد، ولا تعثوا أي لا تنشروا ولا تفعلوا الفساد، حتى الناس يقولون: العث عما يحصل به الفساد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾، أي لا تنشروا ولا تنتشروا فسادًا في الأرض فتكونوا مفسدين، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾، ما هو تصور العبد وهو يقرأ هذه الآية بحصول الفساد من هذا الماء، الخصومة حوله، عدم شكر الله، هذا كله من الفساد، النعمة عندما تأتي النعمة للإنسان فتقوى نفسه ويقوى بدنه، فعليه أن يتقي الله، نفسه تتشوف إلى المعاصي، والله يقول: ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾، أعطيتكم هذه النعم لا من أجل أن تتقوى بها على معاصي، ولا تتقوى بها على الخروج من طاعتي ويصبح عندكم النفس الغضبية وإنما تقيدوا بما أمرتكم به.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾، وهنا لابد من نقطة في أن أعظم الفساد في الدنيا الذي يقع بعد الشرك بالله هو وضع النِعم الإلهية في غير موضعها، النِعم الإلهية إذا وضعت في غير موضعها حصل الفساد، وهذا دليل على أن الفساد يكون أغلب ما يكون عند انتشار النِعم، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، وحتى هذا الذي ينزل بقدر ما يشاء فإن الناس يؤثر بعضهم بعضًا، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾ [البقرة: ١٨٨]، فلذلك لا ينبغي للمرء أن ينسى أنه إذا جاءت النعمة ألا يستغلها في غير الطاعة، فينبغي أن ينتبه أن النِعم والعطاء والطعام والشراب والمال فيه سعار فيه قوة فيه نشوة فهذه تدعوه للفساد أن ينسى الله فينبغي أن يصرفها في طاعة الله عز وجل هذا ما ينبغي.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، وإن شاء الله نتابع في الدرس القادم قوله تعالى وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادعوا لنا ربك الآية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الأسئلة

السائل: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: ١٦١]، وقلت هنا أن القرية هي بيت المقدس، وبعدها بآيتين قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، أهذه غير القرية الأولى التي ذكرت؟

الشيخ: بيت المقدس ليست على البحر أولاً، لا اليوم ولا تاريخياً، بيت المقدس ليست على البحر لا اليوم، اليوم لست على البحر، ولا تاريخاً لم تكن يوم من الأيام على البحر، وإنما التي على البحر يقولون هي إيلياء على ما يذكرون هي إيلياء يعني هي العقبة، هناك كان شأن هذا ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)﴾ [الأعراف: ١٦٣]، فهذه هي إيلياء هذا المقصود، ولكن في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾، واضح فيه خطاب تذكير بالجريمة، ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ أي ذكرهم بها، ماذا كان يفعل أجدادهم من الحيلة في عدم إتيان ما طلبه الشارع أو نهى عنه الشارع لتركه كيف كان يفعلون؟

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والخمسون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الخامس والخمسون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾ [البقرة: ٦٠-٦١].

تقدم الكلام على الآية الأولى ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، بما فتح الله عز وجل ويسر، وبقيت مسألة تتعلق في هذه الخاتمة القرآنية والفاصلة القرآنية بعد قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، ما هو الرابط بين هذا الأمر بالأكل والشرب؟ ونحن قلنا: أن هذا أمرٌ على جهة الإباحة، كلوا واشربوا على جهة الإباحة، وهناك ضوابط أصولية عند أهل العلم كيف يتحول الأمر الذي هو يفيد الوجوب لأن الأمر على الصحيح يفيد الوجوب، فالأمر إذا صدر من متساويين فعلى معنى الرجاء، إذا صدر من الأدنى إلى الأعلى فهو على معنى الدعاء، وإذا صدر من الأعلى إلى الأدنى فهو على معنى الطلب والجزم والحتم.

فلما كان الأمر علويًا من الله عز وجل إلى عبيده؛ فدل هذا على أن الأمر يفيد الوجوب، وهذا هو مفهوم العرب له، وهذا إفادة القرآن له، فإن الله عز وجل أمر آدم ألا يقرب الشجرة، فأكل منها فكان هذا

عصيانًا أوجب العقوبة، فالأمر يفيد الوجوب، ولكن كيف نفهم أن الأمر ينتقل من الوجوب إلى حالةٍ أخرى وإلى حكمٍ آخر هذه مباحثها في علم الأصول.

ومما ينبغي أن ننبه عليه في هذه الآية أن الأمر الذي يجري مجرى الفطرة إذا جاء على صيغة الأمر فالأكل والشرب هو أمرٌ فطري، يفعله المرء على جهة الحاجة قبل ورود الأمر -وهذه سنستفيد منها في قضايا كثيرة- إذن هنا الأمر جرى على ما استقر في الفِطرة فلا يحمل معنى الوجوب، فلا يُحمل على الوجوب لأنه إقرارٌ لما تفعله النفوس على جهة الفطرة والحاجة، فقبل ورود الأمر الناس يأكلون ويشربون، قبل نزول الأمر من السماء، فإذا أمرهم بشيء يفعلونه على جهة الفطرة وعلى جهة السليقة وعلى جهة الحاجة؛ فدل على أن الأمر بقي على هذا المعنى على أنه إقرارٌ لهم على ما يفعلونه وليس ثمة زيادة في الحكم.

فما الذي يفيده الأمر ما دام أن المرء يفعله على جهة الحاجة، فلماذا يأمر الشارع به؟ هل يأمر شيئًا يفعله المرء أصلاً ذاهبًا إليه محتاجًا إليه؟ هذا الأمر فيه إفادة النِعمة، إذن لما قال الله عز وجل: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، إنما أراد أن يبين نعمته على الخلق، وأن يعدد آلاءه عليهم، فقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، أي أنا أنعم عليكم بالأكل والشرب وأذكركم بهذه النعمة العظيمة أني وقد وضعت فيكم الحاجة للأكل والشرب فقد يسرت لكم الأكل والشرب، بل يسر لكم الطيبات.

أي أن الله عز وجل أمرنا بالأكل والشرب، فهذا الأمر هو تذكير أنك تفعله، وكذلك يذكرك فوق هذه النعمة التي أنعم الله عز وجل عليك بها، أنه يسر لك أطايب تطبيق هذا الأمر، فلم يجري مجرى بلا ضابط بل أجري بضابطٍ أعلى مما تريده وهو ضابط النِعمة وضابط المتعة.

وهذا أمر مهم جدًا وعلينا أن نتذكره أنه إذا جاء الأمر الإلهي في القرآن لأمرٍ يفعله المرء أساسًا على جهة الحاجة إنما هو تذكيرٌ للنعمة، هذا التذكير للنعمة يفيد شيئًا آخر، وهو فوق نِعمة العطاء القدري أنك تجريه على معنى الاستجابة للأمر، نحن قلنا: هذا للاستحباب هذا للإرشاد، فأنت تفعله ابتداءً قبل ورود الأمر تفعله على جهة الحاجة أو على جهة التمتع، أي يمكن أن تأكل على جهة الحاجة لتستقوي وإما أن

تأكل لتتمتع، فأنت تفعله على جهة فعل النفس، فالله عز وجل يقول: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾، هذا من أجل أن يذكرك بالنعمة.

الأمر الثاني: من أجل أن يرفع درجة الفعل الجبلي إلى درجة الإحسان والحسنة، أي أنت تفعله على جهة الجِبلة، الحاجة، أو على جهة التمتع الذاتي، فإذا تذكرت أن الله عز وجل أمرك به وأتيته على جهة إتيان وتطبيق الأمر ارتفع الأمر من درجة الجِبلية إلى درجة الحسنة والمكافئة والعطاء الإلهي، فأنت إذا أكلت تتذكر نعمة الله عز وجل عليك في كونه يسر لك هذا الفعل حين أوجد حاجتك فأوجد ما يقضي على هذه الحاجة ويمتعها ويقضيها، وكذلك أنت باستحضارك النية لهذا الفعل أنك تستجيب لأمر الله عز وجل، فإذن أنت تأتيه على جهة استجابة أمر الله عز وجل؛ فتحصل لك الحسنة.

فتّذكر النِعمة هذا حسنة والإتيان لهذه النعمة تطبيقًا للأمر الإلهي هذا حسنة، مع أن مجرد الإتيان – وهنا نقطة مهمة– مجرد الإتيان لهذا الفعل على ما أمر الله عز وجل من الطاعة هو حسنة حتى لو لم تستحضر نية الطاعة، هذا جوابٌ على سؤال: إتيان المرء للنعمة التي هي رغبة الإنسان وفطرته لو لم يستحضر نية الطاعة هل يحصل له الأجر وقد آتاه على جهة الأمر الإلهي؟

مثال: أقرب مثال وهو الحديث، نحن لا نذهب فوق الحديث نمثل بالحديث، الحديث نفسه مثل بهذا، المرء يأتي أهله للمتعة، ودافع الناس أغلبهم المتعة، قد يستحضرون الولد، لكن عند الإتيان بالفعل لا يستحضر هذا، إنما يستحضر إتيان المتعة، الدافع عند إتيان الفعل المباشر هو المتعة، لكن المرء لا يستحضر أنه يريد أن يتقرب إلى الله عز جل وأن ينفذ أمره وو ... إلخ، ولكنه حين الإتيان به يأتيه على جهته ما أمر الشارع ليس على جهة الطاعة ولكن على جهة ما أمر الشارع، بمعنى أن لا يأتي الزنا ولكن آتى أهله، فهو يستحضر أنه آتى أهله التي أباحها الله عز وجل له.

وهذا بيّن فالمرء لا يستحضر الطاعة ولكن هو لو أنه استبدلت هذه المرأة التي الآن يشتهيها بغير زوجته لما قبل، لنفر وابتعد وترك، فأتى زوجه على جهة أن الله عز وجل أحلها، تاركًا ما حرمه الله عز وجل، أيؤجر عليها مع عدم استحضار نية الطاعة، أي نية ما يأمر الله عز وجل، أن يتقرب إلى الله عز وجل، أن يرزق

الولد، أن يعف نفسه، هذه النيات التي يستحضرها العابد حين إتيانه بالمباح، فهل يحصل له الأجر؟ الجواب: نعم، بمجرد أن يأتيه على صفة ما أحل الله عز وجل قد أُجاز.

أي عندما يذهب المرء إلى السوق فلا يختار لحم الخنزير، ولكن يختار اللحم الذي أباحه الله عز وجل، فهو يأتيه ليأكله وهو لا ينوي أن يتقوى على طاعة الله عز وجل كما يتذاكر بها الصالحون والعباد والمخلصون والمحسنون، لكن فعله على جهة الطاعة هل يؤجر على هذا؟ الجواب: نعم، لمجرد اختياره لما أباح الله عز وجل تاركًا ما نهى الله عز وجل عنه؛ حصل له الأجر.

إذن قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾، تحمل دلالة الطيبة، لا نريد أن ندخل في المسألة الكلامية المشهورة، ما هو المباح؟ وما هو المحرم؟ وهل أكل الحرام من القدر أم لا؟ باختصار المعتزلة يرون -يعني لا ضروري لان تستحضرها ولا أن تتصورها ولكن نذكره على جهة العلم لمن يريد البحث- المعتزلة يرون أن المرء عصى الله لأنه أكل غير رزقه، وأهل السنة يقولون: المرء عصى الله عز وجل، أكل رزقه لكن أخذه من غير حله، هذا هو الفرق.

المعتزلة يقولون: إن المرء حين يعصي الله قد أكل ما لم يرزقه الله لا يريد الله أن يرزقه لأنهم يوجبون على الله الأصلح؛ فعندهم الله لا يرزق الحرام لأن هذا ضد وجوب الصلاح على الله، فإذن ما هو الحرام عندهم؟ أكل ما لم يرزقه الله، اكل ما لم يرده الله إرادةً قدرة.

أهل السنة يقولون: أكل رزقه، لكن أخذه من غير حله، هو رزقه وأخذه بإرادة لله القدرية ولكن مخالفًا شريعة الله.

فإذن لما قال الله عز وجل: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾، هنا النسبة نسبة تشريف، فدل على أن هذا مما انتسب إلى الله، فلماذا قال هنا: ﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾؟ وفي آيات أخرى قال: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وفي آيات قال: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]، ولكن هنا لماذا قال: ﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾؟ لأن الحديث هنا يجري على المنّ والسلوى ويجري على الماء فكأنه أُتيَ من الله عز وجل من غير سبب، أنت ربما على الماء تذهب فتحفر أو تذهب إلى النهر فتحمل الماء وتشربه، تذهب إلى النهر أنت بنفسك، أو تحفر الأرض فتخرج بحفرك الينابيع، وأنت تذهب فتحرث أو تقطع الثمر، لكن هذا الرزق قد

أتى من غير وسيلةٍ منك ولا فعلٍ منك فحق انتسابه إلى الله عز وجل، فكأن هذا العطاء كان من الله عز وجل مباشرةً منه إليك في قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، فحق هذا الانتساب رزق لله وهنا النسبة نسبة تشريف وتمت على هذا المعنى، ولم يقل: من طيبات ما رزقناكم، ولكنه يكفي أن يقول: ﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾، ليدل على الطيبة ويدل على شيء آخر، ما هو الشيء الآخر؟ أنه تم من رزق الله مباشرةً إليك من غير واسطة ومن غير وسيلةٍ أنت تبذلها، وهذا المعنى سيأتي من معاني الأدنى والذي هو خير

النقطة الأخيرة: ربما نقف عندها وهي لماذا هذه الفاصلة القرآنية ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾؟ أول ما يخطر على البال أن الطعام والشراب هو عطاءٌ إلهي ولكنه يحصل به الفساد، من أي جهة؟ أولاً: من جهة أن الطعام والشراب يحصل به الشره ويحصل به القوة، وقوة المرء مع هذه الراحة أنه يخرج في الصباح فيجد المنّ ويأكل الطير ويشرب العسل فهذا نتيجته أن يحصل لديه القوة البدنية، وهذا البسط في الرزق العادة يؤدي إلى الترف والترف يؤدي الى الفساد، فكان لابد من التنبيه عليه، أن هذا الترف الذي أخذتموه وهذا العطاء الذي أُعطي لكم على هذا المعنى سيقوي فيكم نزعة، هي نزعة الفساد في الأرض.

الأمر الآخر: بعض أهل العلم قالوا: وهذا ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، لما طلبوا بدل هذا الطعام، قالوا: بأن من أسباب الفساد التي حصلت لديهم أنهم كرهوا المساواة، الناس يحب بعضهم أن يعلو على الآخر، لكن الجميع يخرجون فيجدون نفس الطعام وهو في قمة أنواعه، أي المرء حين يسعى للمال أو يسعى للطعام، هل يسعى لأن يأكل أجود الطعام؟ أم في هذا الأكل معنى آخر؟ وهو افتخاره على غيره بأنه يأكل أحسنه وغيره لا يأكل هذا الطعام، يعني ما الذي يضيرك وأنت تأكل أحسن الطعام وتلبس أحسن الثياب؟ ما الذي يضيرك أن يلبس هذا اللباس كل الناس؟ وأن يأكل الطعام كل الناس هذا الطعام الذي هو أجود الطعام أن يأكله كل الناس؟ يضيرك هذا؟ نعم، يضير النفوس والنفوس لا تقبل به.

فالنفوس لا تحب فقط أن تأكل أحسن الطعام وأن تلبس أحسن الثياب، لكنها تحب الأثر بهذا اللباس وهذا الطعام، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، يعني إلى ماذا يؤدي هذا؟ هذا لن يوقف رغبتكم في التمايز والأثرة، فسيسفك بعضكم دماء بعض ليكون هو القيم عليه أو المانع لغيره من

إتيانه، فيأتوا بعصابة وعبيد وقد ذكر في بعض كتب التاريخ أن بني إسرائيل هم أول من اتخذ العبيد، وهذا ملاءم لأن بني إسرائيل أول من أُمِروا بالجهاد فيتلاءم هذا المعنى في التاريخ، فإذن عندما يقوى المرء يكون له العبيد ويكون له الخول والأتباع سيمنع الناس من أن يأكلوا، كالذين يحمون الحمى، (لا حِمى إلَّا للهِ ولرسولِه).

ما الحمى؟ تصور أن الملك معه قبيلة وله الأرض الشاسعة الكبيرة الواسعة، فلو تركت الأرض لهم يفعلوا بها ما يشاؤون لكفتهم، لكفت حيواناتهم من الأكل وكفت أفواههم من الطعام، وكفت بيوتهم في البناء، ابنوا ما شئتم، ماذا سيبنون؟! واترك لحيواناتك ما تأكل سيبقى لأن يأكل صاحبك ويأكل جارك وهكذا، وتريد أن تزرع ازرع ما شئت كما تقدر، لو ترك هذا المعنى الناس لا يقبلونه، مع إنه فيه الكفاية وفيه تمام النِعمة لكن لا يقبلونه، لماذا؟ لما جُبِلت النفوس من حب الأثرة.

ومن هنا يأتي موضوع الشيوعية، الشيوعية هي ضد الفطرة، ولذلك الإسلام أقر الملكية حتى في هذه القضايا أقرها لكنه ضبطها، فرق بين النظام الرأسمالي، الرأسمالي ماذا؟ أقر الملكية بلا ضابط، آدم سميث قال لهم: «دعه يعمل دعه يمر»، لا توقفه، وبعض النظريات الاقتصادية تقول: إن الكتاب المقدس -يعني المقصود التوراة- جعلت أفضل البشر هم من يرابون، يعني الذين يصبح عندهم مَلَكة امتلاك الأموال هؤلاء هم قمة البشر.

القصد: هذا المعنى قاله العلماء في الآية التي تليها أن من معاني طلب اليهود استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير كان من أسبابه كراهية هذا التساوي الذي حصل بينهم في أكل المنّ والسلوى، كرهوا هذا التساوي لا يريدونه، لا يحبونه، أرادوا أن يرجعوا لما يحرث ويزرع وغيره.

فإذن فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، أي اتركوه على ما هو عليه، وهذا المعنى اتركوه على ما هو عليه مباحًا لكم كلوا منه ما شئتم تمتعوا به ما أردتم واشربوا كما أحببتم ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، فإن بني إسرائيل لولاهم لما خنز اللحم على ما تقدم في الدرس الفائت، لولا أنهم خزنوه لما خنز اللحم وقد تقدم الكلام فيه.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، هو إطلاقٌ لمعاني كثيرة من الفساد بسبب هذا العطاء العظيم من النِعم والخيرات لهم، والله عز وجل علم البشر وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، البسط المطلق شرعًا وقدرًا فساد، أما قدرًا فساد فإنه لو أعطي الناس كل ما يريدون لبغى بعضهم على بعض، ولو أراد كل واحدٍ أمنية فجاءته أمنيته لحصل البغي والفساد، ولكن الله عز وجل جعل أناسًا يحصل لهم ما يريدون وأناسًا لا يحصل لهم ما يريدون، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وهذا فتنة لهذا، المحتاج فتنة للغني والغني فتنة للمحتاج، والحاكم فتنة للمحكوم والمحكوم فتنة للحاكم، والسيد فتنة للعبد والعبد فتنة للسيد وهكذا، كل واحدٍ فتنة للآخر، فتنة يفتن به، فكل واحدٍ هذا الذي عنده هو سبيله إلى الجنة وسبيله إلى النار، إما أن يكون الغني سبيلاً للفقير إلى الجنة، وإما أن يكون هذا الغني سبيله إلى النار وهكذا، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)﴾ [الفرقان: ٢٠].

إذن البسط فتنة للناس بالبغي وهنا نأتي الى كلمة كانت تردد قديمًا، ينبغي لنا جميعًا أيها الإخوة الأحبة أن نعلم أن بعض مفاسد النظريات لا تظهر في الابتداء، لماذا؟ لأنه يكون فيها الحل لفسادٍ قائم فيحصل في بدايتها شيء من التوازن فالناس يشعرون بالراحة، يعني كان العلمانيون الأوائل يقولون كالتالي: سبب الفساد والشوق والشبق الجنسي في المجتمع الشرقي هو الحريم، بسبب «الحرملك» هكذا يسمونه «الحرملك» يعني انفصال الرجال عن النساء، يسمون مجالس النساء بعيدًا عن الرجال حراملك يعني هذا للحريم، وهي كلمة تركية ولكن مشتقة من الحريم العربية لأن النساء حرم الرجل، أي محرمات على غيره، فهو يحرمها على غيره حتى لو فدى هذا التحريم بنفسه، لو أدى إلى موته فيحرم من أجل هذا يسموها حُرمة، المرأة تسمى عندنا حُرمة، أي محرمة لا أحد يراها إلا هو، لا أحد يلمسها إلا هو، لا أحد ... وهكذا هي له.

فكانوا يقولون: بأن الشبق الموجود في المجتمع الشرقي، يعني المجتمع المسلم من الرغبة لما يرى وجه المرأة كأنه رأى القمر، إذا رأى كف امرأة كأنه خرج من الوجود أي نشوةً ورغبة، ويصفون أن الرجال عندهم شبقٌ زائد للنساء، فما هو الحل؟ كانوا يقولون: إن انفتاح الغربي –هكذا كانوا يقولون يخدعون الواقع– أن انفتاح المجتمعات الغربية على النساء يجعل مسألة الشبق تقل، يعني عندما الرجل لا يرى إلا أمه وأخته وعمته وخالته فهو لا يرى الأجنبية فيبقى عنده الشوق والشهوة القوية الشبق إلى النساء، فقالوا: لو أنه نشأ

بين النساء تعلم في الابتدائية مع البنات وفي الإعدادية مع البنات فهو يتعود رؤية المرأة ولا يكون لديه هذا الذي يرونه في الشرق، كانت مثل هذه الدعوات تلقى الصدى على أساس نجد أن الغرب يجلسون ويشربون الخمر مع بعض وكذا ويعني الرجل ينظر للمرأة وليس هكذا يقولون، وطبعًا هذا كله أكاذيب طبعاً، بعدها ثبتت أكاذيب لا نريد أن نتحدث عنها، وقد نصحتكم كثيرا بقراءة كلام الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في كتيبه أو مطويته الصغيرة «يا ابنتي»، يكشف هذه الأكذوبة.

نتابع فكانوا يقولون: إذا نشأ الرجال مع النساء -«خلط بلط» ولا أدري الجزائريون يقولوا: «غنم ومعيز»- فإذا نشأوا -الرجال مع النساء- فيموت هذا الشبق، وكان بعض الناس يجدون صعوبة في الرد عليهم لا يدرون عن المجتمعات الغربية ولا يعرفون نتائج المرض أين تؤدي، الأمراض لا تعرف في الابتداء، تعرف كيف تنتهي كيف في الانتهاء، فوجدنا وإذا هذه الإباحة وهذا البسط في الحِل أن كل شيءٍ مباح والنساء والامرأة جائزة وكذا، انتهى إلى الأمراض وانتهى إلى أن تركوا النساء إلى الرجال ومن الرجال إلى الحيوانات ومن الحيوانات إلى الآن للأطفال، ولا ندري بعدها، وهناك شذوذ آخر لا ندري عنه، هناك شذوذ آخر في هذا الباب، إذن البسط قدرًا يؤدي إلى الفساد.

وكذلك البسط بالتشريع: أن تقول كل شيء مباح، هذه مصيبة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، هذا العطاء نبههم إليه، هذا العطاء في المنّ والسلوى نبههم أن فيه مرض، لأن الدنيا -هذه قاعدة من قواعد الحياة- لا يوجد في الدنيا شيءٌ بلا مرض يلازمه، لا يوجد، هذه قاعدة أنا أكررها وأظن كررتها كثيرًا، كل شيء في الدنيا أقام الله عز وجل له أمراضه، وذكرت لكم مرة تلبيس إبليس يكفي أن يكون العابد عنده الأمراض، قارئ القرآن عنده مرض وعليه أن يعالجه، هناك في شيء فعليك أن تعالجه، كذلك البسط فيه أمراض عظيمة جدًا والمنع فيه أمراض تعالج، الشرع عالجها؛ تزوج التبكير في الزواج ... إلخ.

إذن انتهينا فلما ذكر الله الأكل والشرب فكان ينبغي أن يختم في هذه الختمة القرآنية العظيمة الهادية المرشدة لنا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، لا يقتل بعضكم بعضًا عليه، لا يستأثر بعضكم على بعض عليه ... إلخ، لا تقوى نفوسكم بهذا الطعام لأن تقوى شهواتكم إلى ما لا ينبغي إلى غير ذلك.

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾، ما زلنا نرى أن الخطاب هو الخطاب، هذا قلناه دائمًا الأدب مبثوث في القرآن بطريقة الخفاء، فهؤلاء ليس عندهم الأدب، ما زالوا ينادون رسولهم باسمه وهو يصبر عليهم، فيقولوا: يا موسى، وهذا من قلة أدبهم، والله عز وجل زجر المؤمنين من أن يسموا رسول الله صلى الله عليه وسلم باسمه المجرد، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، ما ينبغي لا تقول: قال محمد، لا يجوز لك تأثم ينبغي أن تقول محمد رسول الله، رسول الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم، قال محمد رسول الله، فينبغي أن لا تجرده مما أطلق الله عز وجل عليه من الأوصاف.

وتعرفون أن اسم محمد صلى الله عليه وسلم ذكر أربع مرات في القرآن، وليس فيها ولا مرة نداء، الأربع مرات لم يُنادى بها، ولا مرة نودي محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن، إنما ذكر اسمه في أروع مواطن معروفة:

أولاً: ذكر فيه سورة «آل عمران».

ثانيًا: ذكر في سورة «الأحزاب».

ثالثًا: ذكر في سورة «محمد»، سورة «القتال».

رابعًا: وذكر في سورة «الفتح».

هذه الأربع مواطن فقط ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم إلا في هذه المواطن الأربعة، ولا مرة ذكر في هذه المواطن نداءً له، إنما إخبارٌ عنه، ولا مرة ناداه الله عز وجل وقال له: يا محمد، كما نادى موسى ﴿يَا مُوسَى﴾، وكما نادى أنبياؤه، وإنما إخبار عنه، وهذا من تشريف الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، ما نداه، إنما يخبر عنه في إخبار تعامل الناس معه، وفي شأنهم معه وفي حالهم معه، كقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ﴾ [الفتح: ٢٩]، هو إخبار عنه، أو كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، هنا يتحدث عن أب فينبغي أن يذكر الاسم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾، وتقدم ﴿وَإِذْ﴾ هنا أنها ظرف زماني وقلنا: «إذ» لما ذهب، و«إذا» لما يأتي، وتقدم الكلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، كلمة الطعام الأصل في تجريدها اللغوي لما يطعم أي لما يحصل به الطعم على اللسان، وحينئذٍ يدخل الماء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]، لما قال لهم طالوت ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فسمى شرب الماء طعم، فدل على أن الطعام بأصله اللغوي على ما يحصل به الطعم والماء يحصل به الطعم، ولكن عند الإطلاق الطعام ليس منه الشراب وإنما يقصد به ما يأكل وليس ما يشرب.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، ولكن هم ما عندهم طعام واحد هم عندهم طعامان عندهم المنّ والسلوى، فكيف سموه واحدًا؟

القول الأول: قال بعض أهل العلم: فلما كان بنو إسرائيل يخلطون المنّ بالسلوى يخلطون مثلاً يخلطون الخبز بالعسل أو اللحم بالعسل فيخلطونه شيئًا واحدًا فكان واحدًا فصار طعامًا واحدًا.

والقول الثاني: المقصود به أنه صار صنفٌ واحد لأنه يجري على وقتٍ واحد يعني يأكلونه دائمًا فهو طعامٌ واحد، أي لا يكون ثانيًا إنما هو واحد يتكرر، فهذا معنى آخر قالوه، فإذن هو طعامٌ واحد على هذين المعنيين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾، بلا شك أن هذه الآية أيها الإخوة الأحبة هي بيان تعنت اليهود وبيان حال لنفوس وما جبلوا عليه من أخلاق استمرت في الأبناء على جهة التربية وجهة التأثير، (فأبواه يهودانه)، ولماذا هذا الحديث الطويل؟ وفي الحقيقة أنا ذكرت هذا في مقدمة الحديث عن موسى عليه السلام، لماذا هذا الحديث الطويل عن بني إسرائيل؟ أنتم ترون الآن ما زلنا مع الصفحة تقريبًا التاسعة وسيأتي الحديث كذلك مطولاً عن بني إسرائيل، لماذا هذا الحديث الطويل عن بني إسرائيل؟ لأن النموذج اليهودي كامنٌ في النفس البشرية، فلذلك الشرع يأتي بهم كصورة عالية لضلال هذه النفس البشرية، لانحراف هذه النفس البشرية، فما يأتي من بعدهم يكون أدنى، والأدنى ينبغي أن يتربى بضرب المثال بمن هو أعلى منه، فضرب هذا المثل ببني

إسرائيل فيما يفعلونه مع موسى عليه السلام ومع سؤالهم لموسى عليه السلام وتعنتهم، يضرب بهذه النفوس لبشرية وسنرى أمثلة ذلك بعد ذلك، أي بعد أن ينتهي الحديث عن بني إسرائيل سنرى أن هناك مقاربة بين ما يأتي هنا من إخبار الله عز وجل عن بني إسرائيل لإخباره عن بقية البشر فيما يأتي، فإذن هو ضرب مثلٍ فيما هو أعلى في النموذج الإنساني في تعنته وفي عدم معرفته بمصلحته وفي غروره وفي أنه إذا سأل لا يسأل ليستهدي، ولكن يسأل ليتعنت ويرفض، وهذا شيءٌ مهم.

وهنا المثال الذي بين أيدينا هو مثل لتعنتهم، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، أنتم تعلمون أن هذا أصلاً السؤال هو كما ذكر السدي ونحن ذكرنا في درسٍ فائت أنهم طلبوا الطعام ثم طلبوا الشراب ثم طلبوا ... فهي من مطالبهم، وأُعطُوا هذه العطايا من أجل أن يستقر أمرهم، لكن ما الذي حدث بعد أكلهم المنّ والسلوى؟ بطرت نفوسهم وتشوفت إلى ما اعتادوا عليه، وهنا العلماء وقفوا موقفًا يعني فيه شيءٌ من الاختلاف، مختلفًا، وهو هل هذا الطلب الذي طلبوه فيه ما يعاب فيعاقبو عليه؟ أو أنه طلبٌ فطري؟ فإن النفوس مجبولة على ما اعتادت عليه، أن النفوس لا تحب أن تأكل شيئًا جديدًا حتى ولو كان في ميزان الخِلقة العامة هو أفضل وأجود وأحسن وألذ وأطيب؟ فهنا ذكر بعض أهل العلم في هذا الباب كلامًا طويلاً وبعضهم قال: لا، إن مجرد الطلب لا يحمل إساءةً لليهود فهو شيءٌ اعتادوا عليه وأرادوا هذا الأمر.

والسلف في أغلبهم يقولون: «خِسةٌ استمرأوها فأرادوا العودة إليها»، وهذا كلامٌ طيب وهو الصواب إن شاء الله تعالى، أن المسألة ليست على ما اعتاد عليه مطلقًا هكذا بلا قيد، إنما ما اعتاد عليه من الخير أو الشر، يعني رجل اعتاد على شيءٍ من الشر أو اعتاد على شيءٍ من السفالة أو اعتاد على شيءٍ من الخِسة والنذالة، فأن يرتقي إلى ترك هذه الحال أو هذه الأحوال إلى حالٍ أطيب فلا يقال له: رجلٌ استمرأ فأعده إلى ما استمرأ عليه ويحاول أن يعود، ونحن سنرى تعدد أقوال أهل العلم في ما هي الخيرية هنا في الطعام؟؟ ما هي خيرية المنّ والسلوى على هذه المذكورات كما سيأتي ﴿بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، سيأتي ما هو الوجه في الخيرية؟ سيأتي ذكره إن شاء الله، وبعض أهل العلم أطال وبعضهم قصر، فبعضهم أوصل هذه الخيرية إلى ستة أنواع وبعضهم قصر إلى خمس صور أو إلى أربع صور على حسب ما يخرج معهم، وأكثرهم ذكرًا لها وإعدادًا لها وترتيبًا لها هو أبو حيان الأندلسي في تفسيره.

إذن هنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، فهنا أول مشكلة وهي أول مذلة وهو أنهم قالوا ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾، وعلى ماذا؟! ﴿عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، وهذا الكلام يذكرنا فورًا ويرحل بنا إلى كيف كنتم على الصبر العظيم تحت ذلة فرعون؟! فتصوروا أن هؤلاء القوم –وهذا ينبغي أن نستحضره– أنهم كانوا على الصبر والإقامة وعدم الاعتراض وقالوا لموسى: قال تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وعابوا عليه أنه أتى وأراد أن يخرجهم من هذه الذلة مع صبرهم تحت هذا القيد وهذا القهر الذي كانوا يعانونه من فرعون وقومه، فأنتم هناك صبرتم ولما جئنا للطعام لم تصبروا؟!! وكان ينبغي العكس.

فينبغي على المرء أن يصبر على الجوع وهذا ما يمدح به الشعراء، أنهم يصبرون على الجوع والعطش وشدة العيش والتعب، ولكن لا يرضون حياة الذل، ومن ذلك كقول عنترة:

لا تَسقِني ماءَ الحَياةِ بِذِلَّةٍ بَل فَاسقِني بِالعِزِّ كَأسَ الحَنظَلِ

لا تسقني ماء الحياة بذلة ولكن أنا أقبل أن أشرب الحنظل وأكون عزيزًا، أما هؤلاء لا، كانوا يشربون ماء الحياة بذلة فلما جاء الطعام انظر إلى قولهم، وهو اعتراف منهم وإقرار بأنهم لا يصبرون على مسائل الطعام، لا يصبرون، وانظر إلى هذا التهديد، مع أن المخرج لهم هو الإغلاق، أي عندما قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، ما هو البديل؟ قلنا: تهديد، مع عدم وجود المنفذ إلا منفذ واحد، وهو أن يتركوا موسى والمهمات التي جاء بها ليرفع شأنهم بأن يدخلوا الأرض المقدسة ويصبح لهم العزة ويصبح لهم السؤدد ويملكوا الأرض، فيتركوا هذا كله ويذهبون عبيدًا وخَولاً وأتباعًا لغيرهم مع أكلهم في الفوم والقثاء والعدس والبصل، أي كأنهم يقول له: زهقنا، نتركك ونذهب نبحث على قرية فيها بصل وفيها بصل وفيها ثوم وفيها كرفس وفيها نعنع وفيها بقدونس، هذه القثائيات، إذن هذا هو التهديد، هذا الذي يقوله اليهود هو تهديدٌ لموسى عليه السلام بأن أنزل علينا وغير لنا الأحوال وإلا نغير، والله عز وجل هذا التهديد لا ينفع معه، ولذلك كانت العقوبة شديدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، وكذلك هنا انظر هذا الأدب ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، يعني لم يقولوا ادع لنا الله، ادع لنا ربنا، هو أنتم تريدون!! لكن قالوا: ﴿فَادْعُ لَنَا

رَبَّكَ﴾، وكأن الصلة ما زالت مقطوعة بل ما زالت مقطوعة بينهم وبين هذا الإله العظيم، هذا والمرء لا يعرف جنانه إلا بلسانه، فألسنتهم تدل على هذا الخطاب.

قال تعالى: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾، قال بعض أهل العلم ﴿مِمَّا تُنْبِتُ﴾، هذه زائدة، لماذا؟ قال: فلو قالوا فادع لنا ربك يخرج لنا من الأرض، لا كان في ذلك الكفاية من ذكر الإنبات منها؛ لأنه لا يخرج من الأرض إلا ما كان نبتًا، في الحقيقة هذا غير صحيح، نعم في الإعراب يقولون ما يقولون، ولكن في المعاني لا وجود للزائد، ولذلك يقول أهل نقد الشعر: إذا أردت أن تميز بين الشعر المتين وبين الشعر الذي هو فيه الزيادة فانظر إليه ما لو أزلت منه كلمة، هل يبقى على معناه أم يتغير؟ فإذن متانة الكلام في ألا يكون فيه الحواشي التي يزيدها الكاتب مع إمكانية إزالتها؛ لأن البلاغة في الإيجاز، علماء البلاغة يقولون: البلاغة بالإيجاز.

قال تعالى: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾، فهل كلمة تنبت هذه زائدة؟ لو قالوا مما في الأرض أو من الأرض، هل يكون في ذلك المعنى كافيًا وكأن كلمة تنبت زائدة لا قيمة لها؟ الجواب: لا، ما هي إذًا قيمة هذه الكلمة؟ قيمة هذه الكلمة كالتالي: معاني كثيرة منها: أنهم يريدون العودة إلى ما اعتادوا عليه من خروج الشيء من الأرض، يعني قد يقول: أنتم تريدون من الأرض؟ طيب أنا أخرج لكم من الأرض ولكن ليس إنباتًا، هم يريدون الخروج من دار الكرامة، ليس فقط من دار الإطعام، يعني لا يريدوا أن يغيروا طعمة أفوههم بترك اللحم والعسل المنّ والسلوى، هم لا يريدون هذا فقط، هم يريدون الخروج من دار الكرامة، هم يعيشون مع المن والسلوى في دار الكرامة، دار العطاء والكرامة الإلهية، هذا يريدون الخروج منه، ليس فقط مجرد الخروج من الذوق الطيب إلى الطعم الآخر، يريدون الخروج من دار الكرامة، إلى الدار التي اعتادوا عليها، كعبيد يزرعوا ولذلك قال: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ﴾.

فلو قال لهم: أنا أخرج لكم من الأرض ولكن ليس إنباتًا تخرج في الصباح فتجد الكرفس وتجد كذا، قالوا: لا، لا، نحن نريدها إنباتًا على ما جرت عليه العادة، أي هم لا يريدون الخروج –أكررها للمرة الثالثة– هم لا يريدون الخروج فقط من الطعام الأول تركًا لما اعتادوه من ذوق اللسان، لكنهم يريدون الخروج أكثر

من هذا، وهو الخروج من دار الكرامة إلى ما اعتادوا عليه من الطعام والشراب، ولذلك كان لابد ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾.

قال تعالى: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، كلها معروفة ما في شيء جديد عليكم إلا اختلاف أهل العلم في الفوم، البقل الذي تعرفونه وهو مما لا ساق له بخلاف الشجر مثل ما ذكرنا لكم الكرفس، مثل النعناع، مثل البقدونس، هذه تسمى الأعشاب، نعم والقثائيات معروفة التي تكون في داخل الأرض، واختلفوا في الفوم، أشهر قولين للفوم وأقواهما فيما ورد عن السلف، قال بعضهم: الفوم، الفاء في لغة العرب تتغير من الثاء إلى الفاء، والمقصود بها الثوم، وهذا أقرب، لأن العرب تقول: الثالث الأثافي، ثم يقولون: الثالث الأثاثي يجعلون لقربها لقرب المخرج ولو واحد الآن يتكلم بالثاء والفاء كأنهما في السمع شيءٌ واحد فيبدلون، وهذا ما رجحه ابن جرير الطبري.

وأما الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما وهي رواية الأكثر المقصود بالفوم الحنطة واستشهدوا بذلك في أشعار الأولين، وكل هذا محتمل، وإن كان الأقرب الثوم، فإنها الملائمة للغة، قال: ﴿وَعَدَسِهَا﴾ تعرفونه والبصل تعرفونه.

وبعض أهل العلم ممن يهتم بمسائل الأحكام كالإمام القرطبي، قال: هل هذه مما تغير الرائحة هل هي محرمة؟ الجمهور على حلها، الجمهور على حل أكل الثوم حتى ولو لم يمته طبخًا، وكذلك البصل يجوز أكله حتى لو لم يمته طبخًا، ولكن إن بعض أهل الظاهر يرونه إذا منعت عن الصلاة لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر من أكل من هاتين الشجرتين وفي رواية الخبيثتين فسماهما الخبيثتين، وهنا قالوا: مادام هي خبيثة فهي محرمة ولأنها تمنع عن شيءٍ واجب وهي الصلاة (فلا يقربنا مصلانا).

والصواب: أن قول الجمهور هو الأصوب لأن كلمة خبيثة كقوله عز وجل عن زوجتي النبيين: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، المقصود الخيانة في الدين والاتباع، وهنا الخبث في الرائحة بخلاف الخبث الآخر الذي في الطعام كالخنزير وغيره، فإذا أكل المرء منهما فلا يقربن المسجد وهذا لا يعني حرمة هذا الأمر.

والمرء عليه إذا أكل من هاتين الشجرتين في الحديث أن يميتهما طبخًا لأنهما يمنعانه من صلاة الجماعة وكذلك فيهما الإيذاء، فإن المرء إذا قام يناجي فإنه يناجي ربه والملائكة تتأذى مما يتأذى به بنو آدم من الروائح الكريهة، ولذلك على المرء أن يبتعد عنها إذا لم يكن في طبخها إماتة لرائحتها، وبعض الناس جهلاً يزعم بأن خاصةً الثوم والبصل إنما فوائدهما بعدم طبخهما يزعمون أن النيء فيهما هو الطيب، وهذا غير صحيح طبيًا غير صحيح، الصواب: أن فيهما أي الثوم والبصل من السموم ما لا تزول إلا بالطبخ، هذا الصواب في هذا.، فقط هذا شيءٌ زائد، ولا يظن أحد أبدًا أن هناك منفعة فيما حرم الله أو كرهه.

قال لهم موسى عليه السلام: قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، نكمل إن شاء الله في الدرس القادم وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: بالنسبة لمسألة النية واحتساب العمل، ذكرت أن الإنسان يؤجر إذا أتى المباحات.

الشيخ: يؤجر للحديث، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكونُ له فِيهَا أَجْرٌ؟ قالَ: (أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَهَا في حَرَامٍ، أَكانَ عليه فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذلكَ إذَا وَضَعَهَا في الحَلَالِ كانَ له أَجْرٌ)، المعنى اختيار المباح ولو لم يستحضر الطاعة.

السائل: يا شيخنا الحديث يعني مشهور (إنَّمَا الأعمالُ بالنِّيَّاتِ وإنَّما لِكلِّ امرئٍ ما نوى)، وحديث: (فأحْتَسِبُ نَوْمَتي كما أحْتَسِبُ قَوْمَتِي).

الشيخ: نعم، قلنا هذه درجات، يعني الصالحون والمحسنون المخلصون هؤلاء يستحضرون النية عند كل عمل إذا شربوا يستحضرون، ولكن عامة الناس من المسلمين لهم الأجر في شربهم الماء مع تركهم الخمر في زواجهم مع تركهم السفاح يؤجرون على هذا، ولهم أجر في كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ولم يشترط، ولذلك كلام الصحابة يدل على أنهم لا يستحضرون النية عند إتيان الأهل، لو علموا أن ليس فيها الأجر، لاستحضروا النية من أجل حصول الأجر، قالوا: «أيأتي أحدنا أهله وله أجر»، فدل على أنهم لا يستحضرون، فقال صلى الله عليه وسلم: (أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَهَا في حَرَامٍ، أَكانَ عليه فِيهَا وِزْرٌ؟)، لمجرد اختياره الحلال فيها الأجر، لكن هناك أجور أخرى زائدة، الأعمال ليست في الأجر سواء والنيات تزيد الأعمال أجورًا أكثر من مجرد الإتيان بالفعل المجرد.

السائل: جزاك الله خيرًا شيخنا، شيخنا هل هاجر القرآن يأثم؟

الشيخ: من لم يقرأ القرآن قط قصدك؟

السائل: نعم الذي لا يقرأ القرآن.

الشيخ: يعني يكره العلماء له ذلك يكره، ولكن لا يوجد عندنا نص أنه يأثم إذا لم يقرأ القرآن إلا فقط في الصلاة طبعًا يقرأ الفاتحة ومعها سور التي تكفيه ولو أنه لم يقرأ القرآن ولا مرة في حياته، لا أعرف دليلاً يؤثمه، لا أعرف، مع أنه يترك شيئًا عظيمًا ويفوته خيرٌ عظيم، ولكن لا أعرف حديثًا يؤثم تارك قراءة القرآن.

السائل: شيخنا ذكرت إذا جاء الأمر وكان متعلقًا بأمر فطري، فلا يصل إلى درجة الوجوب، وهناك أمور فطرية مثل اللحية والاستنجاء.

الشيخ: على فكرة بعض الناس يقول: لا نسمع الأسئلة، يقول السائل: كيف جُعلت الفطرة وهي أعظم درجة من الواجب؟ يعني الصواب عند أهل العلم أن ما ذكر على معنى الفطرة أنه واجب، الصواب وإن كان هناك خلاف، فلما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الفِطْرَةُ خَمْسٌ -أَوْ خَمْسٌ مِنَ الفِطْرَةِ-: الخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَنَتْفُ الإِبْطِ، وَتَقْلِيمُ الأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ)، فهل هذه واجبة؟ الصواب: أنها واجبة لأنه هكذا فطر عليها الإنسان، بمعنى أصل الخلقة، فيكون البديل المقابل لها هو تغير خِلقة الله،

السؤال، أنت قلت: بأن ما يأتيه المرء على جهة الحاجة، أي هكذا فطرت حاجته إليها كما قلنا في الأكل والشرب، يعني المرء يذهب إليه على جهة الحاجة أو قلنا: على جهة التلذذ، هذه الفطر يستطيع المرء أن يتركها ولا يأتيها على جهة الحاجة، ومن ذلك اللحية ومن ذلك الاستنجاء، المرء لا يأتيه على جهة الحاجة، والدليل أن المرء يستطيع أن يتركها، بل غيروها وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أحمد وفيه مقال (أن اليهود حلقوا لحاهم فزنت نسائهم)، ولما جاء الرسولان من جهة اليمن وقد بعثهما كسرى وهما حليقان، فقال: من أمركما، قالا: أمرنا ربنا، يعنيان: كسرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي)، فدل هذا على أن الإنسان يمكن أن يتركها، لكن نحن قلنا: عما يأتيه على جهة الحاجة أو جهة المتعة، أي هذا من صنف الحاجة والمتعة يزيد فيها يتمتع فيها فهذا الذي نقوله، أما هذه، لا، هذه أمور يستطيع المرء أن يتركها، بل ربما الشيطان يُلبس له أن تركها أجمل وأفضل، كمن يظن في الزمن هذا أن اللحية قبيحة وأن حلق اللحى أجمل، حتى الفلاحين المساكين يقولوا لك: زين لحيتك، في بلادنا يقولوا: زين لحيته، أي حلقها، يعني زينة حلق اللحى فتغيرت الفِطر.

وهذا دليلٌ عندي على أن أمر الله عز وجل بالجهاد وجوبًا إنما المقصود به جهاد الطلب ليس جهاد الدفع وهذا شرحته أنا مرة، قلت: لو كان المقصود به جهاد الدفع لما كان فيه هذا الأمر، لماذا؟ لأن العرب تقوم به على جهة الجبلية، أمر عادي يقوموا فيه، لا يوجد أحد ولا توجد أمة من الأمم إلا وهي تقاتل جهاد دفع، فلماذا توضع هذه الأجور العظيمة لشيءٍ تفعله بقية الأمم؟ تدافع عن نفسها؟ فإذن دل على أن الجهاد الذي له الأجور العظيمة المقصود به جهاد الطلب، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، تصور معقولة أهل المدينة النبي صلى الله عليه وسلم خارج ليدافع عنهم ولا يخرجون معه!! هل تتصور أن أهل المدينة يفعلونها؟!! ولا منافقون ولا غير منافقين كلهم يقاتلون ويدافعون، لا يوجد أحد لا يدافع عن أرضه وعن عرضه وعن ماله وعن مكتسباته وعما يملك.

فلما يقول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، المقصود هذه الأجور التي بعدها لمن؟ لشيءٍ لا تنشط نفوسهم على جهة الفطرة والجبلية والتربية أن ينشطوا له، هو شيء آخر وهو جهاد الطلب.

السائل: هل ذكر أهل اللغة أن معنى الظعينة في الحديث الصحيح، المرأة؟ أم أن معناه الجماعة في السفر؟ وهل يؤخذ منه جواز سفر المرأة بلا محرم إن كانت من القواعد وأمنت الفتنة؟

الشيخ: شرحته في الرد على الشيخ القرضاوي، ورأيت ابن حجر في «فتح الباري» نقله عن بعضهم، أن أحاديث منع سفر المرأة عند وجود الفتنة والخوف، وأما عند استقرار الأمن وذهاب الفتنة فيجوز للمرأة أن تذهب، واستدلوا بهذا الحديث الخبري، حديث عدي بن حاتم، (ستسير الظعينة من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى إلا الله والذئبَ -بالنصب- والذئبَ على غنمها)، يعني لا تخشى إلا الله وتخشى الذئبَ على غنمها، بخلاف ما لو جاء الذئب مرفوع، يعني يكون الذئب قيمًا حاميًا على غنمها، لو قلنا لتخشى إلا الله والذئبُ على غنمها فتكون الواو استئنافية والذئب قيمًا حاميًا لغنمها وهذا لا يصح، يمكن بعض أهل الصوفية يقولون هذا!! وأعجب منه يقولون!!

القصد: (تسير الظعينة)، الظعينة أخذوا منها أن المقصود به المرأة، الصواب: أن الظعينة الظعن، والظعن هو الرحلة، ظعن يعني رحل، والظعينة هي الراحلة، ليس المقصود به المرأة، ولكن المقصود به الرحلة، والرحلة يعني القافلة، أي القافلة لا تخشى إلا الله، ولذلك قال: أين طرار مضر؟! طرار يعني قطاع الطريق، عصابات قطاع الطريق، هل كانت عصابات قطاع الطريق لا يعرضون إلا على المرأة عندما تمشي لوحدها بلا محرم؟ أم كان قطع الطريق قديمًا يتم على الظعينة على الراحلة على القافلة يقطعون الطريق.

وحديث آخر وهذا استدللت به رواية أخرى ليست الظعينة لا تخشى إلا الله، قال: (والراحلة)، فإما أن الصحابي فسر هذه بهذه أو هذه بهذه في النهاية فهم الصحابي الذي روى الحديث مقدم على غيره، هذا واحد، فدل على أن لا تخشى إلا الله المقصود به القافلة، وليس المقصود به المرأة، ولكن أضعف ما في الظعينة حين يأتي الطرار المرأة.

الشيء الآخر أن هذا من أحاديث الأخبار والوصف قد يقع فيه البلاغ ليس إقرارًا، هو يقع في الوصف ليس إقرارًا له، ولكن ليبين مقدار حصول الخبر، كم هو؟ فلو افترضنا بأن الظعينة المقصود بها المرأة، يعني هو ماذا يريد الشارع؟ أصالةً في الحديث، الأصالة هو النص عند الأحناف، إذا الخبر جاء إلى المقصد الأول فهو الأصالة، النص، هذا عند الأحناف بخلاف الجمهور.

فالنص عند الجمهور هو ما لا يفيد إلا معنى واحدًا والظاهر ما أفاد أكثر من معنى مع وجود قوة لأحد المعاني، ترجح أحد المعاني مع وجود معاني أخرى خفية هذا اسمه الظاهر، الأحناف يقولون: النص ما جاء الأمر به ابتداءً والظاهر ما جاء تبعًا، يعني الشارع ما الذي يمثلون به –حتى أضرب مثالا– وهذا مثالهم هو، لما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وليس البيع كالربا، في هذا النص أراد أولاً أصالةً مفارقة الربا للبيع، أنه يوجد بينهما فرق، ولا يفيد التحريم إلا على جهة الظاهر، إذن النص على بيان المفارق، والظاهر الحرمة، حرمة الربا وحل البيع.

إذن ما هي الأصالة في هذا الحديث لما يقول: تسير الظعينة أو الراحلة، ما الذي يريده الشارع ابتداءً؟ يريد الشارع بيان مقدار الأمن، المعنى الآخر الذي يقولوه إفادة الجواز هذا ظاهر هذا إذا أقررنا أن الظعينة بمعنى المرأة، والآن هذا الظاهر ما نقده النص عمومًا بالنهي عنه، الذي هو النص، (لا تسافر المرأة) هذا

نص، من أقوى الظاهر أم النقص؟ النص أقوى هذا باتفاق، فإذن لا ينبغي أن يضرب هذا الظاهر الذي أفاد في خبر ليس المقصود لذاته مع نص بيّن وواضح في الحكم، هنا الخبر وهناك حكم، ويكفي هذا.

السائل: سؤال. يقول هل حديث الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما (كلمة تدين لهم العرب والعجم)، صحيح؟ وهل يقدح في سنده عنعنة الأعمش؟ بارك الله فيكم.

الشيخ: أنا الآن لا أستحضر في الحقيقة هذا الحديث صحيح أو غير صحيح ولكن هذا دائمًا يذكر في السيرة ويعرف الأخ أن السيرة يتسمح فيها ما لا يتسمح في الأحكام، لكن هل هذا الحديث يصح أو لا يصح؟ لا أستحضر هذا الآن، لكن هذا يستشهد به في مواطن السيرة والسيرة يتسمح فيها ما لا يتسمح في الأحكام.

السائل: ما ضابط العلم المشروط في كلمة التوحيد وهل القول بأن الناس يستوون في فهمهما -لكلمة التوحيد- صائب؟ وكيف يفهم بعضهم هذا الفهم؟

الشيخ: هذا شرحته مرة في التفسير وأكرره الآن لأهميته، عندما يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «التفسير على أربعة أنواع، نوعٌ يعرفه كل الناس لا يجهله أحد: يقول: لا يجهله أحد، ونوعٌ يعرفه العرب، ونوعٌ يعرفه أهل اللغة، ونوعٌ لا لا يعلمه إلا الله»، البعض يظن أن هذه الأنواع تكون في آياتٍ مختلفة، أي هذه آية يعلمها كل الناس، وخلاص كل الناس انتهينا منها، وهذه آية لا يعرفها إلا العلماء بالسنة، وهذه آية لا يعلمها إلا الله عز وجل، وهذه آية لا يعلمها إلا علماء اللغة، هذا غير صحيح، في الآية الواحدة قد يقع الأربعة وقد يقع ثلاثة وقد يقع اثنين بحسب، يعني كيف؟

لنضرب مثال: لنأتي إلى هذه السورة العظيمة هي ثلث القرآن، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ [الإخلاص: ١-٢]، لو أتيت لعامي وعالم بالعربية وعالم بالسنة فقيه، قلت له: ما هي الافادة الأولى التي تفهمها من الآية؟ يقول لك: أن الله عز وجل واحدٌ في فعله هو الذي خلق وهو الخالق الأحد، هو المميت الأحد هو الباعث الأحد هو الرازق الأحد، ولو جئت لجدتك تقول لك: معناه الله واحد، ما خلقنا غير ربنا، لا يمتنا غير ربنا، وما يرزقنا غير ربنا، عند أجهل الناس وأعلم الناس هذا المعنى يستوي به الجميع، إذن هذا معنى لا يجهله أحد.

لكن هل العالم باللغة يعلم شيئًا زائدًا في هذه الآية لا يعلموها إلا من جهة اللغة؟ الجواب: نعم، فالعالم يأتي ويفرق ويقول لماذا لم يقل قل هو الله واحد؟ لماذا قال: ﴿أَحَدٌ (٤)﴾، ولم يقل واحد؟ هذه يجيب عليها عالم اللغة لأنه يفرق بين الواحد والأحد، فإذن هنا علمها عالم اللغة فبهذا افترق رأينا أي أنطبق فيها كذا، وعالم الرواية والفقه فلو جئنا لرجل يعرف حديث ابن عباس رضي الله عنهما ما معنى الصمد؟ فأهل اللغة يعلموا أنه المصمت الذي لا جوف له وعالم الفقه يعلم كلام ابن عباس رضي الله عنهما بأنه السيد الذي كمُل سؤدده شيء زائد.

وما لا يعلمه إلا لله عز وجل، لو أحد سأل هذا الواحد كيف هو؟ من الذي يعرفه؟ لا يعرفه إلا الله، إذن في الآية الواحدة أو الآيتان رأينا أنواع التفسير التي قالها ابن عباس رضي الله عنهما، لماذا أحضرت هذا الكلام؟ لفائدته في السؤال.

فعندما نقول نحن: أن التوحيد هو أصل الدخول فيما يحقق النجاة، يعلمه كل المسلمين، وهذا نضربه دائمًا من الأمثلة لمن يشترط شروطًا لصحة التوحيد فوق الشروط التي يعلمها المسلمون جميعًا، فأنا دائمًا ما أضرب من الأمثلة لو سألت جدتك، لو سألت العجوز في البوادي أن تشرب الخمر، تقول لك: حرام، لا أشرب الخمر، وإذا قلت: لها أجازه الملك اليوم أو أجازه مجلس النواب اليوم، فتسب على أبوك وأبو الملك وأبو مجلس النواب، وتقول لك: أخرج، الله عز وجل هو الذي يحل ويحرم، فهذا المعنى يستوي فيه الجميع، تفاصيل هذا التوحيد و دقائقه الأسماء والصفات، يعني الآن هل الناس على معرفة واحدة في معرفة أسماء الله وصفاته؟ ونحن الآن نأتي إلى اللغة كلمة إله هل كل أحد من البشر يعرف أصلها اللغوي كما يعرفها اللغوي؟ افترق الناس.

والمعاني القلبية لكلمة «لا إله إلا الله» لما تشرق على قلب المرء بالنور الإلهي التي بها يقبل على الطاعات ويحب الله كل الحب ويطيع الله كل الطاعة، هل يستوي الناس فيها؟ في المعاني القلبية؟ لا، حتى في المعاني القلبية يختلف الناس، لكن أنا أقول: إن كلمة التوحيد الأصل الذي يتحقق به النجاة، أن المسلمون يعرفونه، لا تضعون لنا شروط، هذا الذي أقوله: لا تضعون لنا شروط ليحصل بهذه الكلمة النجاة فوق ما يعرفه أهل الإسلام منها، العوام والناس يعرفونه هم يعرفون معناها.

ولكن بعد ذلك الناس يتفاوتون في هذا العلم فوق حد النجاة والخروج من الشرك إلى الإسلام، طبعًا يتفاوتون، الإيمان يزيد وينقص علمًا وعملاً وقولاً وحالاً، يفترقون الناس ويتفاوتون، وهذا أكثر ما يمكن اختصاره في هذا الباب، فأنا لا أتحدث ولا يمكن لعالم ولا يوجد أحد من أهل العلم يقول لك: أن العلم بالتوحيد أن الناس كلهم يستوون فيه، هذا جاهل لا يعرف شيء. لكن نحن نقول: إن العلم المنجي الذي يحصل به النجاة، عامة أهل الإسلام، طبعًا هناك من لا يعرف هناك من الجهلة من لا يعرف ربما يعني لا يحصل له شيء من هذه المعاني، ولكن عامة أهل الإسلام يعرفون المعاني التي بها يتم حصول النجاة عندما يقولون: «لا إله الا الله»، ألا نعبد إلا الله لا يجوز أن استغيث بغيره، يا ابني استغيث بالله، العوام كلهم يستغيثون بالله، لا ينفع ولا يضر غير الله، فلا تسأل إلا إياه، هذه في أحد من المسلمين يجهلها، إلا إذا سلك تسليكًا شركيًا فصار يسأل غير الله.

أما الأصل في الإسلام الفطرة إلا من سلك وأشرك وكفر بالله، لما نتكلم عن أسماء الله وصفاته حتى في صفة العلو حتى في صفة الاستواء، ونضرب الأمثال دائمًا ائتي لأي عامي وقول له: ارحموا من في الأرض، يقول لك: يرحمكم من في السماء، الله الذي فوق يا ابني، عمرك شفت واحد قال: الله الذي جنبنا!! لكن كل الناس يقولوا: الله الذي فوق، الله محيط بك يا ابني، الله يراك، يقصدون الإحاطة العلمية، إحاطة القدرة، وهكذا، أما لا يقصدون أن الله عز وجل بذاته بجانبك!! لا، لا يوجد أحد يقصد بهذا، إنما يشيرون إلى قلوبهم، وهذا المعنى الذي يحصل عند العوام هو الذي يحتج به أهل السنة ضد أهل البدع الذين يريدون صرف هذه المعاني القلبية إلى معاني عقلية مجردة لا يمكن تصورها على المعنى الصحيح إلا بمشقة شديدة، وحين المشقة يقعون في بدعةٍ أشد وأشق ويؤدي بهم إلى النفي المطلق كما قال علماؤنا، واضح الكلام لأنني ظننت أن هذا السؤال فيه شبهة اتهام أني عندما أتحدث عن الإسلام المنجي، فكأني أتحدث عن مراتب العلوم وهذا غير صحيح.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس والخمسون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع درس التفسير وهو الدرس السادس والخمسون، وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [البقرة: ٦١-٦٢]

تقدم بعض الكلام في هذه الآية مما يعني يسد بعض معانيها وقلنا في ذلك سريعاً قلنا: ما زال خطابهم فيه ما يعرف عنهم، وهو أنهم ينادون نبيهم بما لا ينبغي والنداء باسمه المجرد وهذا ممنوع في الأدب أن ينادي المرء من ينبغي أن يتأدب معه من أبيه أو من جده أو من علمه أو من هو أكبر منه، فكيف إذا كان في مقام النبوة؟!! فهذا منهيٌ عنه ولكن هذا شأن بني إسرائيل.

الأمر الثاني: عندما قالوا أدعوا لنا ربك وهم يعلمون أن ربه هو ربهم، وهنا ربما يأتي سؤال ما أجبنا عنه في الدرس الفائت أو ينشأ سؤال ما أثرناه في الدرس الفائت، وهو أن كلمة الرب متفقٌ عليها في البشرية إلا ممن شذ أنه الله عز وجل، فليس في ذلك حرج أن يقولوا: أدعوا لنا ربنا لأنه ربهم، بحيث هو الذي خلقهم هو الذي يمدهم هو الذي يطعمهم وليس في ذلك شأن، لأن لفظ الربوبية في بعض معانيه يكون فيه

اختصاص وهو العناية الخاصة يعني هناك الربوبية العامة التي هي لكل الخلق أنه سبحانه وتعالى رب العالمين، فهذه ربويةٌ عامة، وهناك ربوبيةٌ خاصة وهي ربوبية الاعتناء الخاص.

وموسى عليه السلام ولا شك أنه قد حصل معه الربوبية الخاصة، فليس كل أحد أخذ من ربوبية الله ما تحصله موسى عليه السلام، وخاصةً فيما نعلم من قصته ورعاية الله له من مولده إلى كبره وما حصل معه، ولذلك هذه ربوبية خاصة، فهم بهذا الاختصاص ذكروه، ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أي بما اعتنى بك اعتناءً خاصًا مع أنه اعتنى بهم ربنا اعتناءً خاصًا لكن هذا كما قلنا: يدل على عدم أدبهم.

الأمر الذي ينبغي أن نلفت النظر إليه أن هذه الآيات المتقدمة عن بني إسرائيل جمعت فيهم كما يقول ابن تيمية رحمه الله ويقول ابن القيم رحمه الله: بأن أصل الخير ثلاثة، وأن أصل الشر يقابلها ثلاثة، أصول الخير في الوجود أنك إذا أنعم عليك شكرت وإذا ابتليت صبرت وإذا أذنبت استغفرت، وهذا هو شأن المؤمن فإن أمر المؤمن كله له خير إن أصابته سراء شكر، وإن إصابته ضراء صبر، وأين الاستغفار؟ الاستغفار في أن المرء سيقصر في أحدهما، سيقصر في أداء الشكر للمنعم وسيقصر في تمام الصبر على المبتلى به، فلابد من الاستغفار، الاستغفار هو جانبٌ يحيط هذا الحديث وحاضر معه، وهو موجودٌ في هذا الحديث بالإشارة.

وبنو إسرائيل نقضوا هذه الآيات التي تقدمت، نقضوا هذه الخصال الثلاثة التي هي أركان حركة المؤمن ويضادها غيره، فإنهم لما ابتلوا لم يصبروا ولما أُعطوا كما رأينا في المن والسلوى فلم يشكروا، ولما أذنبوا كما سيأتي في البقرة لم يستغفروا، فهذه الأركان التي يذكرها القرآن، من أجل أن نعتبر أن هذه الخصال التي ينفر القرآن البشر منها، مما وقع فيه بنو إسرائيل إنما تقع في أمثالهم، فينبغي أن نحذر سبيلهم، وأن نتقي ما هم عليه.

فهذه يا موسى ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، نحن نقول ادع بالكسر، فنقول: «ادعيلنا» وهذا خطأ، لأن الأصل هو الواو، إذا أردت أن تعرف أنها بالألف المقصورة أو الألف الممدودة، فإما أن تعيدها إلى المضارع، وإما أن تعيدها إلى وضع تاء المخاطب المتكلم، إذا أردت أن تعرف كلمة رضى، هل هي بالألف الممدودة أو الألف المقصورة؟ فماذا تقول؟ رضوتوا أم رضيت؟ رضيت، فإذن أصلها ياء إذن هي مقصورة، لكن لما تقول مثلاً:

دعوت أو تقول: يدعو، هناك يرضى، فهذه قاعدة من قواعد الإملاء وقاعدة مهمة في قضية عند الأمر، أدعُ فلو كان أصلها ياء لكانت ادعي مع أن بعضهم قالها للذكر، بعض أهل العرب قال هذا، قال: يجوز ذلك وكانوا ينطقونها ولكنها غريبة في لغة العرب، فآصلها ماذا؟ الواو، فإذن هي أدعو لأن ما أزيل الواو، وعند الكتابة نعيدها مع إضافة تاء المتكلم فنعرف، مثل الآن ربا ماذا تقول؟ ربوت إذا هي ممدودة، هل يجوز الكسر، هل يجوز القصر، أن تكون مقصورة؟ الجواب: نعم يجوز، لكنها كذلك ليست هي الأبلغ، يعني يجوز أن تكتب الآن رضي رضيت بالياء لا يجوز إلا بالمقصورة، لكن إذا كانت بالواو فالأصل أن تكون ممدودة وجاز، جاز أن تكون مقصورة، لكنها ليست هي الأبلغ، ولذلك هنا الأصل فيها الواو ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.

ولو استطردنا قليلاً هل يجوز للمرء أن يطلب من غيره الدعاء؟ نعم يجوز، يجوز أن يطلب من غيره الدعاء، لكن شيخ الإسلام في كتابه «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» له كلامٌ طيب، وهو منهجٌ جيد، خطأ أن نربطها بالتوحيد وغير ذلك، بعض الناس يشددون، المسألة ليست مسألة تشديد وإنما مسألة مرتبة، ما هي المرتبة؟ ما الأولى؟ ما هو فضل الدعاء أولاً، لماذا الدعاء؟ الدعاء يحصل من العابد لأمرين تحقيقاً لأمر التعبد وطمعاً لما يجنيه الدعاء، يعني لماذا تدعو أنت، دعاء عبادة ودعاء استعانة، أما دعاء العبادة للتقرب إلى الله عز وجل في أنك تدعوه دعاء العبادة، ومن دعاء العبادة أن تقول: «الحمد لله» هذا من دعاء العبادة، الحمد لله خير الدعاء، (أفضلُ الذِّكْرِ: لا إله إلا اللهُ، وأفضلُ الدعاءِ: الحمدُ للهِ).

فإذن أنت تدعو لأمرين، تدعو من أجل أن تتقرب إلى الله بالدعاء، لإظهار الافتقار والعجز والضعف فتدعو، وكذلك من أجل أن تتحصل نتائج ما تدعو له، فإذا سألت غيرك الدعاء، ذهب الفضل الأول وهو المقصد، ما هو الأعظم، أن تحصل ما تطلبه من الدعاء أم أن تتقرب إلى الله بالدعاء، فيحصل لك مقام العبودية؟ إذن المقصد الأول هو المطلوب والثاني تبع، فأنت حين تسأل غيرك الدعاء، فرطت في أعظم المقاصد وذهبت إلى غيرها، حين تريد هذه المنزلة لا أحد يمنعك، ولا ينبغي لأحد أن يمنع ولا لابن تيمية ولا لغيره، هذه النقطة وهو أن تسأل غيرك لحاجةٍ أنت وقعت فيها فتظن أن فيه الصلاح فتتقرب إلى الله بدعائه لأن يقضي حاجتك، لكن فوت شيئاً عظيماً في أنك تستطيع أن تدعو ويحصل لك المراد، لأن الله عز وجل يستحي أن يرد يدي عبده صفرًا إن سأله، في النهاية أنت سيأتيك، هذه نقطة.

النقطة الثانية: من أجل أن نعرف أن الدعاء من الغير ليس ممنوعاً لكن تفوتك المرتبة الأولى، هنا نأتي للمسألة الثانية التي يدندن حولها شيخ الإسلام رحمه الله مع الأولى وهذه منه، هذه من ابن تيمية رحمه الله كذلك، لماذا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة أن تدعوا له، (ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِيَ الوَسِيلَةَ)، لماذا؟ سألهم الدعاء أن يدعوا له أن يعطيه الله الوسيلة، وهي الشفاعة العظمى، المقام المحمود، فلماذا؟ قال: حتى ترتقي منازلهم عند الله عز وجل، وليس ليرتقي هو بدعائهم عند الله عز وجل، فقال ابن تيمية رحمه الله: إذا أراد المرء من غيره أن يدعو من أجل أن يرتقي، يقول له: أدعو وفي مقصده هو أنك أنت ترتقي في الدعاء، كأن يقول له: أذكر الله، كأن يقول له: لا تفوت صلاة الضحى، كأن يقول له: أقرأ القرآن، فحين يطلب منه إنما يطلب منه ليرتقي هو، فيطلب منه الدعاء لمسألة العبادة ليرتقي هو، فهذا ما يؤوله ابن تيمية في هذا الباب.

لكن نحن نقول: بأنه قد ثبت أن بعض الصالحين بل ثبت في الأحاديث أن هناك من طلب من الأخر الدعاء ولكن حمله شيخ الإسلام على المعنى الذي ذكرنا، لكن نحن نقول: أنه جائز للمرء أن يطلب من غيره، ولذلك ينبه على مسألة مهمة ابن تيمية في هذه المسألة كذلك، فيقول: من الخطأ ومن إضعاف الأجر هو إن تعمل للآخر عملاً من أجل أن يدعو لك، قال: لأن هذا من طلب الأجر الدنيوي، وكأنه فاتك الجزاء، يعني عندما يأتي بعض الناس يتصدق يقول: تصدق حتى يدعو لك الفقراء والمساكين والصالحين، وأنت تدعوهم للبيت حتى يدعون لك، أي أنت تدعوهم حتى يدعون لك، يقول: لا، لا تفعل هذا، فهذا يفوت عليك أجر الصدقة لأن مقصود الصدقة أن يدعو لك، لا أن يحصل لك الأجر بهذه الصدقة أو هذه الهدية، ويحتج بفعل عائشة رضي الله عنها، أن عائشة رضي الله عنها كانت إذا أعطت فقيراً صدقة، فقال لها: جزاك الله خيراً، قالت: وأنت جزاك الله خيراً، أي ترد له الكلمة ليبقى لها الأجر.

ولكن هنا سؤالٌ آخر كذلك ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، فهل أمنوه على الدعاء، الحقيقة واضح أنهم أرادوا أن يلقوا بالأمر كله على موسى عليه السلام، وهذا بخلاف ما وقع في سورة «يونس»، فإنهما موسى وهارون عليهما السلام، وموسى عليه السلام الذي قال، ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس: ٨٨]، موسى عليه السلام الذي قال، فجأة الجواب: قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾ [يونس: ٨٩]، ، مع أن مقدمة الكلام

فقط ذكر موسى عليه السلام ولم يذكر هارون عليه السلام، لكن الجواب: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، هذا من أجّل ما استنبط منه العلماء أن موسى عليه السلام كان يدعو وهارون عليه السلام كان يؤمن، فلذلك ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، فجعل سؤال موسى عليه السلام وتأمين هارون عليه السلام كأنهما دعيا معاً، ولكن هنا ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، كأنهم في معزل عن الأمر، ادعو لنا ونحن ننتظر.

وهنا شيءٌ نعرج عليه قليلاً، ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا﴾، هنا ﴿مِمَّا﴾ هذه أيها الإخوة الأحبة مكونة من كلمتين، من وما، ومن في اللغة ماذا تأتي؟ تأتي بمعنى تبعيضيه، ويصح هنا ﴿مِمَّا تُنْبِتُ﴾، أي من بعض ما تنبت، هنا من تبعيضيه من بعض، وقد تأتي بياني أي من نوع ما تنبت الأرض، وقد تأتي كذلك جنسية أي من جنس، وقد تأتي سببية أي بالشيء الذي تنبته الأرض، فهذه أنواع من، تكون من تبعيضيه أو بيانية أو جنسية أو سببية، وكلها يمكن أن تنطبق على هذا.

قال تعالى: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾، وتكلمنا بأن ﴿تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ في الدرس الفائت تكلمنا أنها مهمة، قلنا هنا ﴿مِنْ بَقْلِهَا﴾، هنا تبعيضيه، لأنه لا ينبت كل البقل ولكن من بعض بقلها، وما هو البقل؟ مما لا ساق له، ولأن البقل ينتشر انتشارًا استعير بكلمة البقل على الإنبات الشديد، يقال: «بقلت الأرض» أي أنبتت ما فيها، لذلك لأن البقل مثل النعناع والبقدونس والجرجير هذا كله من البقل، فلأنه ينتشر فلذلك استعير عنها فعلاً بقلت، قال: ﴿وَقِثَّائِهَا﴾، وبعضهم فسر القثاء بأشهر نوعٍ فيه وهو الخيار، ويدخل فيه الكوسا ويدخل فيه البطيخ ويدخل فيه ... من هذا النوع كل هذا من القثاء، ﴿وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

لكن هنا الأوائل يقسمون الأطعمة إلى قسمين، رطبة وحارة أو باردة وحارة، ويطلبون ألا يجمع الحار بالحار وهذا موجود حتى في الطب الحديث، ولذلك هؤلاء اليهود طلبوا ثلاثة من الحارة وهي الثلاثة الأخيرة فومها وقلنا الفوم أصح ما يقال هو الثوم وقيل الحنطة ولماذا الحنطة؟ لأنها وردت في بعض كلام العرب ولأنهم استغربوا ألا يطلب الحنطة وهي أس طعامهم وإلا فاللغة توجب الذهاب للفوم إلى أنه الثوم، وقلنا: بأن الفاء لقرب مخرجها يستعاض عنها بهذا المعنى.

ولو قال قائل: لماذا لم يقل ثومها وينتهي الموضوع؟ أنا عندي أن ذكر الفوم هنا بدل الثوم إن تعين أنه هو الصواب فإنهم نطقوها على معنى الالتباس ليكون هذا وهذا، ذكروا الفوم لالتباسها ليقع هذا وهو الثوم ويقع ما يحتمل من معناها وهو الحنطة، فقالوا: ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا﴾، فهذا من البارد والثوم والعدس والبصل من الحار.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، بما حصلت دناءة هذه الأنواع وهي من المباح، والشيء قد يكون إذا استقل ولم يقارن عظيماً ومهماً، فإذا قورن كان دنيئاً، ومما لا شك فيه هذه الأطعمة مهمة والناس لا يستقلونها وليست قليلة إذا استقلت، يعني هي شيء مهم والناس يأكلونها وتكفي حاجاتهم في الطعام والشراب، لكنها سميت هنا أدنى لأنها تقابل الخير، وما هو أفضل منها، فالفضة لو أنها كانت مستقلة لكانت عظيمة، لكن حين تقارن بالذهب تقول هي أدنى من الذهب، فالشيء قد يكون عظيماً في ذاته أو مهماً في ذاته أو لا يوصف بالدناءة إن استقل، فإذا قورن بغيره نزلت مرتبته، وهذا معروف حتى عند المقارنة، فإنهم ذكروا ومشهور بيت الشعر أن من تحقير السيف أن يقال أمضى من العصا:

ألَمْ تَـــرَ أَنَّ الســـيفَ يَـــنْقُصُ قـــدرهُ إذا قيـــل إنَّ السّـــيفَ أمضـــى مـــن العصـــا

فهنا ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، ولا شك أن الباء هذا خلاف ما نتعامل به في اللغة، الباء دخلت على المستبدل، هو الذي ذهب، الآن أنت تقول: أطعمني فولاً بهذه القروش هذا صحيح، لكن لا يجوز أن تقول أطعمني بطعامٍ هذه القروش لا يصح، فهنا لما قال: ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ فدخلت الباء على المستبدل على الذاهب.

السؤال هنا ما هي نسبية الخيرية والدناءة، بما حصلت؟ هذا سؤالٌ بحثه العلماء أوصل بعض أهل العلم هذه النسبية إلى أسبابٍ ستة، وجمعها صاحب «البحر المحيط» وهو أبو حيان الأندلسي نذكر بعضها، من أراد فليذهب إليه، لماذا هذه الأطعمة الدنية مقابل المنّ والسلوى؟

وأولاً: قبل أن ندخل في هذا، وهذا من جهلهم، من جهل بني إسرائيل فإنهم لو طلبوا هذه الأطعمة زيادة عما هم فيه لما أنكر مُنكر، لكن طلبوا الاستبدال، يعني أبقي ما عندك وزد فلماذا؟ ولكنهم طلبوا أن تذهب تلك النعم وأن يحل بدل منها هذه الأطعمة.

وثانياً: هذه الأطعمة ليست موجودة في الأرض التي هم فيها، فإنهم كانوا في التيه، في الصحراء، وهذه لا يمكن أن تنبت في الصحراء فلا بد أن ينزلوا في بلدٍ أخر، فيحتاجون إلى بلد، وذلك كما سيأتي ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١]، يحتاجوا الذهاب إلى القرى لأنها هي التي تنبت هذه الأنواع، هذه ليست موجودة في الصحراء، فلو كانوا على خيرٍ وهدى وتوفيق لطلبوا زيادة الخير إلى الخير، وربما لا ينكر عليهم مُنكر، ولكن لما طلبوا الاستبدال دل على سفاهتهم.

وهذا أمرٌ مهم أن ننبه عليه، وهو أن المعصية لا يمكن أن تنتج عقلاً، المعصية تفسد العقل وتفسد اختياراته، وهذا بين في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة: ٣١]، قال بعض أهل التفسير: ندم على ذهاب عقله، في التي قبلها قال تعالى: ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾ [المائدة: ٣٠]، خسر ماذا؟ خسر أخاه، خسر ذراعه، خسر سنده، خسر معينه، ولكن لما ذكر الله عز وجل أمر وشأن اختياره وعقله وكيفية حل مُشكلاته وبيان أن الغراب على ما فيه من ضلال «وإذا كان الغراب له دليلاً»، فالغراب لا يصلح لأن يكون دليلاً، لكن سفه أمر المرء بعد المعصية حتى صار الغراب أرشد منه وأعلم منه في قضاء حوائجه، فقالوا: إن المعصية تذهب العقل، وتذهب الاختيار.

فلو قال قائل لماذا هؤلاء الكفار أرشد منا؟ من قال: لك أرشد منا؟!! إذا كانوا أرشد في قضية صناعة الحديد وتكوناته فانظر إلى ما هم فيه من الضلال والسفه في أمور اختيار الأديان في أمور اختيار التشريعات، في أمور اختيار الأخلاق، انظر إليهم من أهدى هم أم الحيوانات؟ هم أضل من الحيوانات، والحيوانات أهدى منهم سبيلا، والله عز وجل يجعل العاصي من أسباب فساد اختياره ما يكون سبباً لدماره من نفسه، من نفسه هو يُدمر، وهذا بين هنا في قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾.

ولذلك هذا ما فهمه موسى عليه السلام لما قالوا: أدعو لنا ربك، هم لم يطلبوا الاستبدال، ولكن هذا قول موسى عليه السلام في حقهم يعني ما قالوا: أبدل لنا، قالوا: ادعو لنا يخرج لنا، فلو قال قائل: هم لم يطلبوا إلا الزيادة، لأننا نرى قول ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾، هو قول موسى عليه السلام وليس هو قولهم، ما قالوا: أبدلنا، قالوا: أدعوا لنا ربك يخرج، هذا يجيب عنه أن المكان ليس لهذا الأمر.

ولذلك هنا نعود إلى فائدةٍ أخرى مهمة في قوله: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾، نحن ذكرنا في الدرس الفائت بأن البعض قال: كلمة ﴿تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ زائدة، لأنه كافي أن يقول يخرج لنا من الأرض، فلماذا تنبت؟ هذه فائدة أن المكان الذي سألوا فيه أن تنبت الأرض ليس هو المكان الذي يخرج منه هذا النوع، فلابد أن يتغير الحال، فتغير الحال يعني الاستبدال، لماذا الاستبدال؟ هنا نأتي لمسألة مهمة لأن الكرامة في العادة لا تحدث إلا عند الحاجة، في أصلها، متى حدثت المعجزات نبوية لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟ عند الحاجة، متى خرج الماء من أصابعه الشريفة؟ عند الحاجة، متى كثر الطعام سواء في الأحداث المتعددة؟ عند الحاجة، الكرامة ليست تلاعباً من أجل أن يتلهى بها الناس فيزيدوا، لأن الأصل أن يجري الناس في الحياة مجرى السنن، فحين تصبح السنن شديدة وتضيق عليهم يطلبون الكرامة لأنها خرق لهذه السنن، أما أن تصبح الكرامة هي الأصل في الحالات العادية فهذا لا أهمية له، ولا يشعر الناس به ولا يهتمون له.

ولذلك ما وقع من المن والسلوى إنما وقع لأي سبب؟ لأنهم في التيه، ولأنهم في الصحراء، ولأنهم في حاجة إلى الطعام، فلذلك لما يريدون أن يأكلوا مما تنبت الأرض إذن انزلوا إلى أراضي مما تنبته.

الآن نعود إلى قضية بما حصلت الخيرية للمنّ والسلوى على البقية؟ العلماء لهم مسالك متعددة:

المسلك الأول: أن هناك فرق بين العطية التي تقع من السماء كرامة، ومما ينبت عادة، فإنه مما ينبت عادة على ما تكلمنا من أنه رب الجميع وما يقع من الإطعام الخاص يقع من المعنى الخاص لرب، فأنت تكون في حالٍ مُكرمة خاصة من الطعام وأن يأكل الناس من القثاء والفوم هذا شيءٌ عادي، رب لعموم البشر، وهنا ربوبيةٌ خاصة، فلذلك هو أدنى بهذا المعنى لأن هذا عطيةٌ على معنى الكرامة وهذا عطيةٌ على معنى الإطعام والكفاية هذان معنيان، فنحن تكلمنا هنا من جهة الأداء يعني من أين يأتي؟ من جهة

الإعطاء وعلى معنى الإعطاء، الحالة الأولى تحمل اثنتين من جهة الإعطاء الإلهي أنه ربٌ خاص، ربوبيةٌ خاصة والمعنى الثاني أنها كرامة، إذن معنيين.

المسلك الثاني: أن المنّ والسلوى هو طيب وكما أن الله يفضل كلامه بعضه على بعض وهو كلامه وهو صفته فإن الله يفضل بين الأطعمة، الأطعمة تتفاضل، مع أنها ضرورية حتى الأدنى هو ضروري، نحن تكلمنا عن قضية الذهب والفضة، مع أن الفضة أدنى من الذهب لكنها ضرورية، التراب أدنى من الفضة لكنه ضروري وهكذا، فالله عز وجل يفاضل بين الأطعمة، فما هو الأفضل المنّ والسلوى بما تقدم وصفه من كفاية الناس له، وإلا هذا الذي هو قثاء وفوم مما هو أصلاً لا يطيب إلا على نوعٍ ما من الأكل مثل الثوم والبصل فأنه لا يطيب إلا بالطبخ وكذلك العدس لا يطيب إلا بالطبخ؟ فإذن الخيرية والدونية هنا أنا كنت أقول الدناءة لا تصح، الخيرية والدونية هنا تعود إلى نوع الطعام نفسه، وأن هذا مقدم فيه.

وهناك معاني أخرى من ذلك أن ما يشتغل به المرء ويتعب ليس كالذي يأتيه هدية وعطية فهذا أفضل وأكرم مما يعطى على جهة الجزاء والتعب والإرهاق وهكذا.

القصد: هذا مما قالوه وأظن أن أقرب المعاني كلها تصح وكلها معاني صحيحة وأن الأقرب أن الدونية والخيرية هنا تعود إلى أصل الطعام، أن هذا خير من هذا ولا شك أن ما يقع من معنى الكرامة لا يتصور فيه الإيذاء، وأما ما في الدنيا فإنه لا يمكن أن يسلم من الإيذاء، والدليل أننا نأكل يخرجه العرق على معنى معين من الروائح وغيرها والإيذاء ويخرج من الفضلات على معنى الإيذاء، مما يجري على معنى العادة والسنة بخلاف ما يخرج أو ما يأتي على معنى الكرامة فلا يقع فيه هذا المعنى.

المسألة الأخرى التي يبحثها العلماء في هذا الباب هل طلب اليهود في هذه المسألة مما يعاب عليهم؟ أم أن طلبهم جائز؟ بلا شك أن طلبهم جائز، يعني ليس أثم والدليل أنهم طلبوا من موسى عليه السلام وقد حصل لهم قالوا: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ولا يمكن الدعاء بمعصية، فدل على أن الدعاء جائز لكنه من مرتبة النفس المهينة، وهذا يعيدنا إلى ما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم: (هل عجز أحدكم أن يكون كعجوز بني إسرائيل)، هناك فرق بين من يطلب المعالي وبين من يطلب الدنايا، فهم نفوسهم تدنت فطلبوا لكن هذا الطلب جائز حر، كمن يخير بأن يعيش ملكاً فيأبى إلا أن يعيش زبالاً، مع أن العمل في الزبالة ليس حراماً

لكن المفارقة موجودة بين النفوس، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى)، لأن هذا بيان لمعاني النفس الشريفة ورفعة للنفوس من أن تطلب ما هو دني إلى أن تطلب ما هو عالٍ، يعني هذه بعض مسائلهم ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، وما نذكره هنا وما نهتم به بأن ترك النعمة المعطاة إلى ما هو أدنى منها هذا ليس شكراً لله.

من المسائل التي كذلك علينا أن نهتم بها أن هذه تبين أن النفوس في هذه الحياة الدنيا تمل حتى ولو بلغت الغاية مما في الدنيا، يعني الكلام عن مرتبة عمر بن عبد العزيز معروف بأنه كان في كل مرتبةٍ يسألها فيتحصلها، فيسأل غيرها حتى بلغ أعلى مراتب ما يبلغه البشر، وهو أن يكون الخليفة فارتقت نفسه إلى الجنة، فهذا الحال الذي عليه بنو إسرائيل من الملال في الحقيقة هو نفسٌ بشرية وأن تميزوا بمعاني، لأن الإنسان كما يقول ابن القيم رحمه الله يقول: الإنسان مع النعم الدنيوية على ثلاث حالاتٍ وتخوفات:

التخوف الأول: هو جذعٌ تعبان من أجل تحصيلها، تراه يسافر يتعب يفارق الأهل يصنع العجائب من أجل أن يتحصل النعمة، هذا تخوف أول.

التخوف الثاني: أن يزيدها، يعني المرء يبحث عن مئة دينار فهو يطلب المال، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤]، فهو مزين له يريدها، لكن إذا تحصل زوجة يريد الثانية، إذا تحصل دينارًا بل إذا تحصل وادياً من ذهب أراد الثاني فهذا تخوفٌ ثاني.

التخوف الثالث: أن تفوته، يخاف أن تذهب.

فإذن لا كمال مع النعمة في هذه الحياة، هل هناك كمالٌ مع النِعم الدنيوية والمادية في هذه الحياة؟ الجواب: لا يوجد تمام، وإذا حصل له بأن يأتيه كل يوم الرزق الذي هو عال فإنه سيمل، هذا هو حال الإنسان وتكلمنا عنها في الدرس الفائت مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧].

قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، أي خير مما سألتم.

قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، هنا ذكر إمام وشيخ المفسرين قولين للعلماء أي ابن جرير الطبري ذكر قولين:

القول الأول: أن ﴿مِصْرًا﴾ هنا المقصود بها العَلَمية، يعني ماذا العلمية؟ يعني مصر المعروفة، وهي التي خرجوا منها، فهل رجعوا إليها أم لا؟ هذا القول الأول وهو بالابتداء هو قولٌ ضعيف لكنه موجودٌ من كلام السلف وقاله أبو العالية وبعض أئمة السلف من المفسرين قالوه، وذكرهم ابن جرير ذكر من قال هذا القول، فقالوا: أن الله قال لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، أي قد أخرجتكم من مصر والذلة فعودوا إلى مصر، فهل عادوا إليها؟ لم يعودوا إليها، قال بعضهم: عادوا إليها، وهذا من أغرب ما يقال، وقال بعضهم: إنما قال لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، على سبيل الإذلال والإهانة لا على سبيل الواقع، أي اهبطوا مصرا فهذا هو مستقركم، إن مقامكم أن تكونوا في المكان الذي خرجتم منه وهو مصر لأنهم تمنوا من الأطعمة ما كانوا يأكلونه في مصر.

فكيف يصح أن تكون هنا عَلَمية مع التنوين ومصر لا تنون أي ممنوعة من الصرف، لوجود مانعين؟ والممنوع من الصرف لا يصح أن يمنع إلا لمانعين كما يقول النحويون، فالمانع الأول العَلَمية والمانع الثاني التأنيث، ولذلك تقول: دخلت في مصر، ولا تقول: دخلت مصرا، فهنا تنوين هذا تنوين، فدل على أنها ليس المقصود مصر، أجاز من أجاز من أهل اللغة وهذا قاله هو الأخفش وصاحبه الكسائي، وأما سيد العربية الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه قالوا: لا، ردوا هذا، وجروا على أن مصر هنا المقصود بها القطر وهي مما يمصر أي من القرى، ولذلك كلمة مصر في اللغة تأتي على معنى التمصير أي على معنى القرى والحواضر، وليس على معنى مصر التي هي مصر التي خرج منها بنو إسرائيل وهذا هو القول الصواب.

الصواب: أن اليهود لم يعودوا إلى مصر ولم يقل لهم الله عز وجل أهبطوا مصرًا أي التي هي هذه ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، وإن كان بعض أهل العلم قالوا: ﴿اهْبِطُوا مِصْرا﴾، هناك قراءة وإن كانت ليست مشهورة ﴿اهْبِطُوا مِصْرا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾، هذه قراءة موجودة لكنها ليست مشهورة، وابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره ردها ومع إقراره بأن معنى ﴿مِصْرًا﴾ يحتمل أن تكون هي مصر، لكن رد هذه القراءة وضعفها، وقال لأن كل المصاحف مُجمعة على وجود الألف المنونة، يعني لا يوجد نسخة مكتوبة، وصحيح في كلمة

مصرا ولكن كلها موجودة بالألف فيستبعد أن تكون مصرا مع وجود الألف انظروا إليها ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، ولو كانت بدون ألف لصح أن يقال: اهبطوا مصر، وهذا ليس موجودًا، لذلك ضعف ابن جرير هذه القراءة.

والصواب في هذا: أن ﴿مِصْرًا﴾ هنا المقصود بها القطر الذي فيه هذا النوع من الأطعمة، وأنهم هبطوا مدينةً ما، قريةً ما، فيها هذا النوع من الأطعمة وهو مصر ممصر أي مسكون فيه أناس وفيه طعام وفيه شراب وفيه زراعة، وليس المقصود مصر التي خرجوا منها.

وهنا ذكرنا مرةً مسألة وهو أن بعض الأبحاث المعاصرة التي تقول: بأن مصر القرآن التي خرج منها اليهود تحت رعاية فرعون ليست هذه مصر المسماة الآن، ذكرنا هذه المسألة مرة؟ نأتي عليها بالسريع، لا أدري إن ذكرتها أم لا؟ هناك بحثان أحدهما للمؤرخ اللبناني الشهير كمال الصليبي في كتابٍ له «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، وكمال الصليبي نصراني لكن غير نصرانية، يعني لا يؤمن بالنصرانية، وهو لبناني وكافر بلبنان يعني لا يعتقد بوجود شيء في التاريخ اسمه لبنان، وقد أصاب في هذه، في الحقيقة لا يوجد شيء في التاريخ اسمه لبنان ككيان سياسي مستقل عن سوريا بالمفهوم الجغرافي العام أو بلاد الشام بالمفهوم الإسلامي، كلمة سوريا كلمة قديمة إغريقية موجودة قديمًا، وأهل الإسلام يسمونها بلاد الشام يعني لأنها للشمال من الكعبة، الشمال من مكة، كما يسمون اليمن من اليمين، يعني الآن لو وقفت في مكة فهذه اليمين اليمن، وهذه هي الشمال الشام، لأنها في الشام شامية وهذه يمنية هكذا سميت، وسميت الحجاز لأنها بينهما، لأنها حجزت وقيل حجزت بين تهامة وبين نجد.

نعود إلى المسألة التي بين أيدينا، فهذا الكاتب له كتاب مشهور أحدث ضجة كبرى بأن التوراة الموجودة بين أيدي الناس، والتوراة نحن نؤمن بقول ابن تيمية أكثر من قول ابن حزم، هذا تكلمنا فيه عدة مرات، بأن التوراة الموجودة بين أيدي الناس ليست كلها موضوعة، وإنما فيها تحريف أما أصلها فصحيح، هذا قول ابن تيمية بخلاف ابن حازم يرى أن هذه التوراة كلها مكذوبة، هذا قول بعيد غير صحيح، وإنما هي محرفة.

فيقول كمال الصليبي: بأنه اطلع على أطلس، وكلمة أطلس هي كلمة وثنية للذكر لكنها شاعت، من أين جاءت كلمة أطلس؟ من الإلياذة اليونانية قصة وثنية من وضع اليونان تقول بتعدد الألهة فالذي يحمل الأرض اسمه أطلس، لأجل هذا تصير الزلازل والبراكين لما بريح حاله من الكتف هذا للكتف هذا، وهذه معتقدات يونانية قديمة واسمه أطلس، فصار الناس يطلقون على الكتاب الذي ترسم فيه جغرافية العالم والمدن سواء كان بتضاريس أو بالتقسيم السياسي أو بالتقسيم القاري فيسمونه أطلس، مأخوذ من اسم حامل الأرض هذا الذي يسمونه إله أو ما شابه ذلك عندهم في دينهم.

يقول: بأنه لما قرأ الأطلس –وهو كتاب جدير بالقراءة، وسأذكر لماذا أنكره العالم الإسلامي وخاصةً المؤرخين في جزيرة العرب– يقول: بأنه لما قرأ الأطلس الذي وضعه شيخ الجزيرة أو علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر، فوجد بأن ما يعرفه لأنه هو يتقن العبرانية، –هو درس العبرانية هو مؤرخ ولكن درس العبرانية وكان يُدرسها– فوجد أن الأسماء الموجودة في التوراة ليست موجودة في فلسطين، ولكن موجودة في جزيرة العرب، وخاصةً في شمالها من جهة تبوك وما حولها، فخرج بكلام طويل بأن اليهود لم يكونوا في مصر هذه وأن اسم مصر هذا مزور، ويشفع له –هذا من عندي زيادة– يشفع له أنها تسمى القبط حتى في بعض الأحاديث التي يحسنها البعض لا يسميها مصر ولكن يسميها القبط، وهي نفس كلمة الغرب حين يسمونها وهي إيجبت «Egypt»، قِبط –وأنا ذكرت هذا في دروسٍ سابقة–.

فيقول: بأنه لا يوجد أي مشابهة للأسماء الموجودة في القرى الفلسطينية مع الأسماء الموجودة في داخل التوراة، لكن كثير من الأسماء بل الكثير جداً من الأسماء لو حورناها على طريقة التحوير التي وقعت كتابة العبرانية بها، وذكرنا مرةً كيف وقع بتغير حروف العلة وبقضية التنقيط، فقال: تخرج هذه التوراة أن مدن اليهود التي تحدثت عنها التوراة قبل خروجهم من مصر، كانت هذه المنطقة وهي شمال الجزيرة العربية هذا الكتاب الأول.

الكتاب الثاني وهو كتاب محمود عبد الرؤوف القاسم وهو «مصر ليست مصر»، ويشفع لهم أمور تحتاج إلى بحث وإلى أجوبة، من ذلك ما تقدم ومن ذلك أن كل المسلات التي كتب فيها تاريخ مصر، تعرفون المسلة تجدونها حجر كبير منصوب ويكتبون عليها التاريخ، وأن كل أوراق البُردة التي تكلمت عن

تاريخ مصر ووجدت في الأهرامات أو في الآثار، وأن كل من كتب عن تاريخ مصر وأقدمهم هوميروس الذي يسمى بأبي التاريخ، لم يُذكر يوسف عليه السلام يوسف قط، ولا كلمة فرعون، كلمة فرعون غير موجودة أبدًا في كل ما ذكر في التاريخ المصري، ولا يوجد حادثة السبع سنوات التي وقعت ليوسف عليه السلام، فمن أين وقع هذا؟ يقول بعضهم -لم يذكرها كمال الصليبي لأن دراسته ليست قرآنية، ولا أدري هل ذكرها محمود عبد الرؤوف القاسم أم لا؟: أنهم يمكن استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾ [الأعراف: ١٣٧]، فإنه قد دمرت مصر بعد فرعون، ولم يعد لها قائمة فكيف بقيت، هذا بعض ما يستدل له في هذا الباب.

فكيف حدث التغير عندهم؟ أنه لما حدث السبي البابلي وأخذ اليهود وتلك الفترة التي فقدت فيها التورة ثم أعادوا كتابتها من خلال بقايا الحفظ الذي في أذهانهم فوقع التزوير فوقع هذا الخلط ولم يدري هو عن بلادهم فهذه وقعت بأنها مصر.

والذين ردوا على كمال الصليبي قرأت كثيراً من أبحاثهم فوجدتهم يخافون فقط، يعني لم يناقش أحدهم المناقشة التي تليق بمثل هذا البحث وإنما الذي ناقشوه هو الخوف من أن يدعي اليهود أن تبوك وما جاورها من شمال شبه الجزيرة العربية هي لهم، قالوا: هم يدعون أن فلسطين لهم ولسنا قادرين عليهم، فكيف لما نعطيهم ونقول هذه لكم أنتم اليهود، أن هذه المناطق هي أصل اليهود وأصل التوراة، فاعتبروها دعوة مشبوهة، وهذا غير صحيح، اعتبروها دعوة مشبوهة من كمال الصليبي بأن يقوم اليهود بأن يدّعوا بأن تلك المناطق لهم، ما علينا في هذا الباب.

وهناك نقطة أريد أن أنبه عليها ذكرها ابن جرير الطبري وأراها تحتاج إلى تنبيه، وهو أن ابن جرير الطبري فسر الآية في سورة «الدخان» عند الموطن في تفسيره لهذه الآية، فسر الموطن من سورة «الدخان» بالآية في سورة «الشعراء»، ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨)﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٨]، وفي سورة «الدخان» قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)﴾ [الدخان: ٢٥-٢٦]، وفي سورة «الشعراء» قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء: ٥٩]، وفي سورة «الدخان» يقول تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)﴾ [الدخان: ٢٨]، فكأنه يقول: أنه

يميل إلى أنهم يمكن أن نستدل بالقرآن أن اليهود عادوا إلى مصر والدليل أنه أورثهم الله، ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء: ٥٩]، هذه حجته.

والذي أريد أن أنبه عليه أن هذا مردودٌ عليه، ولا أراه يصح والله تعالى أعلم واستغفر الله أنه لا أراه يصح، والسبب أن الآيتين لا تتحدثان عن حالٍ واحد، وهذه الآية ليست مفسرة للثانية، واختلاف لفظٍ فيها يدل على أن المقصود بالآية الأولى غير المقصود بالآية الثانية بقومٍ آخرين في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)﴾ [الدخان: ٢٨]، كيف؟ في سورة «الشعراء» الله عز وجل يقول: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩]، فإن ذكر الكنوز هنا مفهوم، ذلك لسرقتهم الكنوز لما خرجوا من مصر وهذا بيّنٌ في سورة «طه»، لما صنعوا العجل قال تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧].

فإن العجل الذي صنعه السامري إنما صنعه من الكنوز التي سرقها بنو إسرائيل لما خرجوا من مصر، فبنو إسرائيل ورثوا الكنوز ولم يرثوا الزروع، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨)﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٨]، فكان هنا ذكر بني إسرائيل بين أنهم ورثوا الكنوز، ولم يرثوا غيرها، لم يرثوا إلا الكنوز ولا أريد في الاستثناء هل يعود على كل المذكور، وأن ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أنها تعود على كل مذكور أم تعود على الكنوز؟ والصواب أنها تعود على الكنوز فقط، ولكن في سورة «الدخان» قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)﴾ [الدخان: ٢٥-٢٦]، فلم يذكر بني إسرائيل، إنما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)﴾ [الدخان: ٢٨]، فالحال غير الحال، لما ذكر الزروع فإن الإرث لم يقع لبني إسرائيل، لكن لما ذكر سبحانه وتعالى الكنوز على ما تقدم ذكره.

قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، هذا دليل لما قدمنا أن مطلبهم ليس معصية.

وهناك كلام ذكره بعضهم فيه بيان أن الناس يكرهون الاشتراك، أن بني إسرائيل لم يملوا من الأطعمة فقط ولكن ملوا من هذا الاشتراك الذي لا يحصل فيه ملأٌ ورعية، وشاريٍ ومشتري ومالك ومملوك، يعني هذا

الطعام الذي يخرج الناس جميعاً ليأكلوا منه فيعودوا شبعانين ويعودوا ريانين ويعودوا مرتاحين هذا لا يريح البعض، فالبعض يريد التملك، فهذا بيّن يعني تقدم ذكره بعضه إن شاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾، فدل على أن الله استجاب سؤالهم، ودل على أن هذا المطلب ليس فيه معصية مع أن فيه إذلال وإهانة لأنهم طلبوا الأدنى بترك الخير.

ولما نزلوا هذا مصر قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، الضرب يعرف ما هو، وهو مما يترك الأثر، المقصود أن الضرب مما يترك الأثر، ولذلك يقال: ضرب في الأرض أي مشى لأن الضرب في الأرض تركٌ لأثر الماشي على الأرض فهذا الضرب، ويقال: ضربت السكة التي هي العُملة، وإذ كانت تسمى دار صناعة العُملة أي النقدين الذهب والفضة وما معها من الفلوس تسمى بدار الضرب، لماذا؟ لما تترك من أثر، فقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾، دل على أن هذا الحكم قد التصق بهم فكأنه صار علامة لا تخرج عنهم، كما يضرب الذهب والفضة وكما يترك الأثر في الأرض لشدة المشي عليه، فصار مؤثراً فيهم وحكماً لاصقا غير متغيرٍ فيهم إلى أبد الآباد.

قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، ما الفرق بين الذلة والمسكنة؟ الذلة: لابد من وجود الغير، والمسكنة لا تقتضي وجود الغير، والمسكنة مأخوذة من السكون، ولذلك صار هناك خلاف بين المسكين والفقير، المسكين من السكون لأنه ليس معه مال فلا يتحرك، ما معه مال، لا يخرج لا يستطيع أن يشتري لا يقدر يتسوق وهكذا، فمسكين أخذت من السكون، الفقير أخذت من فقار الظهر فإنه إذا أزيل فقاره لم يعد له قيمة لم يعد له أثر في الحياة، فمن هو أشد؟ الساكن مسكنتًا أم الذي أزيل فقاره فلا يستطيع الحراك؟ الساكن يمكن أن يتحرك، ولكن الذي أزيل فقاره كيف يتحرك، ومن هنا فإن الفقير أشد من المسكين.

فإذن الذلة لابد من وجود ذال ومذلول، لابد ممن يذله من وجوده، فإذا وجد الغير فهي الذلة، وإذا لم يجد الغير ففيه المسكنة، أي ذلة بفقدان العزة بسبب الآخر، المسكنة فقدان العزة بسبب عدم تحركه من أجل تحصيلها، كلاهما فيه فقدان العزة، الذلة فيها فقدان العزة، والمسكنة فيها فقدان العزة، في الذلة بماذا تزال العزة؟ بفعل الآخر، والمسكنة لعدم تحركه لتحصيلها.

فلو وجدت الذلة أي وجد آخر يذله ولم توجد المسكنة، هل ترجى أن تزال الذلة؟ الجواب: نعم؛ لأنه يتحرك، لكن الله عز وجل يقول: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، من فعل غيرهم، ولم تزُل هذه الذلة لمسكنتهم، فأراد أن يبين أن هذه الذلة ثابتة لهم، ليس فقط لمجرد وجود الغير عليهم، دالاً عليهم أي دال عليهم، ولكن لوجود المسكنة في نفوسهم التي تمنع تحصيل العزة، فهي أبد عليهم، وهذا نحن نراه، اليهود لا يمكن أبدًا إلا أن يبحثوا ويتحالفوا مع الأقوياء، لابد لا يمكن لهم إلا أن يتحالفوا مع الأقوياء، لماذا؟ لشعورهم بأنهم لا يمكن أن يحصل لهم العزة من جهة أنفسهم ولكن من غيرهم.

هذا لو سأل السائل اليوم تقولون هذا: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، فكيف تفسرون هذا الضرب المؤثر الذي لا يزول؟ بسبب ما قدره الله من الأقدار عليهم، وبسبب أن الله ضرب عليهم المسكنة التي لا تزول من نفوسهم، والذلة التي لابد من وجود من يقهرهم ويذلهم، فكيف تجمعونه مع قوله تعالى في سورة «الإسراء»: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤)﴾ [الإسراء: ٤]، كيف تجمعون أنه ضربت عليهم الذل والمسكنة وسيصير لهم العلو؟ لو جاء أحد ليفسر هذا لقدره عقلياً فقط وكلامياً، ولكنكم وأنتم تعيشونه اليوم ليس غريباً عليكم -أعيد الكلام- لو أراد أحد أن يفسر هذا الأمر مما هو ظاهره الافتراق لجمع بينهما جمعا كلامياً، يمكن، ماذا يقول؟ يقول: يحصل لهم العلو بمساعدة غيرهم، مع بقاء الذلة عليهم كيف يحصل علو، يقول: يعني يكون في الظاهر والباطن إلى غير ذلك.

لكن هل تجدون هذا اليوم بيناً واضحاً، لمن العلو اليوم؟ العلو لليهود، وإذا ذهب دعم الخصم الذي يذلهم، ويعلو عليهم ويغلبهم ويتحالفون معه، لو ذهب دعمهم ماذا يبقى لليهود؟ لا شيء، من هنا الناس يتساءلون نريد أن نعرف هي أمريكا حاكمة لإسرائيل أو لليهود، أم اليهود يحكمون أمريكا، هذه علاقة كعلاقة القلب مع الشرايين لا تدري من الذي يقوم بالآخر، لو أذهبنا القلب لما بقي للشرايين قيمة ولو أذهبنا الشرايين لما بقي للقلب قيمة من هو الأصل، ما الأصل؟! ونحن الآن لو نرى أن الغرب يرفع يديه دعماً عن دولة اليهود لسقطت، واليهود يسيطرون على هذا الداعم واللوبي اليهودي يسيطر عليه، فلهم العلو في المال والقرار وضربت عليهم الذلة لأنهم يحتاجون إلى غيرهم في بقائهم في هذا العلو.

قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، وانظر إلى هذا الافتراق، والبوء هو العود عما كان عليه، قال: ﴿وَبَاءُوا﴾، وكأن هذا الأصل فيهم مع أن باء عاد، وباء أي استقر، باء عاد واستقر، فالله يقول: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، وذلك لأنهم في كل مرة يحصل منهم أن يعودوا إلى غضب الله عز وجل في كل مرة، هذا مناسب قوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، مناسب لما تقدم من قوله في أكثر من مرة ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾، يعني وقع منهم الغضب، ووقعوا في غضب الله عز وجل، فخرجوا منه بعفو الله عز وجل، ثم كذلك مرة ثانية، وقعوا في الغضب فعادوا إلى عفو الله ع وجل، ولكن بعد ذلك ما الذي حصل؟ ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، أي عادوا إلى الغضب الذي أخرجوا منه مرةً بعد مرة فكان هذا الغضب مستقراً عليهم، فقال: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

طبعًا بلا شك أن هنا ﴿مِنَ﴾ يصح أن تكون بيانية، يصح أنه ببعض غضبه لأنه لو كان كل غضبه عليهم لكان الأمر عظيماً.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، والكفر بآيات الله يحتاج إلى تفصيل، نعتذر كنت أحب أن نمشي قليلاً لكن المواضيع كثيرة والقرآن ثري ونسأل الله إن يرحمنا برحمته، ويجزيكم الخير بارك الله فيكم الحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا تفضلت وقلت: إن ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، قالا: أصل الخير ثلاث، فما هو أصل الشر؟

الشيخ: ما يناقضها، قلنا: شكر النِعمة والصبر عند المصيبة والاستغفار هذا هو أصل الخير كله، والعبادة تقوم على هذا، وهذا بيّن كذلك في سورة «الفاتحة» كما تقدم قدمنا هذا الشرح، فإن ما يضاد الشكر هو الكفران ما يضاد الصبر هو قلة الصبر والجزاع وما يضاد الاستغفار هو الثبات على المعصية والتكبر، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «بأن خص خصائص اليهود الكبر».

السائل: لما قلت الفضيلة إذا قال: المرء لأخيه ادعُ لي، وأنا أصلاً ادع الله عز وجل ولا أترك هذا الفضل لكن في العوام نقول هذه الكلمة، ثانياً: مسألة كما قلت شيخنا ادعِ ليس أدعُ، هذا أيضًا أصبحت لدينا هكذا تقال ولا نسمع ادعُ، فجل الناس يقولون: ادعِ، فهل في هذا حرج؟

الشيخ: بالجواب يظهر السؤال لمن لم يسمعه، التعلم لا ينفي فطرة المرء ولكنه يرقيها وينميها، فنحن هنا لم نقل في الجلسة ولست مع من يقول: بأن طلب الدعاء من الغير ممنوع وبدعة وهذا يقوله بعضهم للأسف ولكن هذا غير صحيح، ولا أريد أن أتوقف عند ما يقولون، لكن نحن في هذه الدروس وفي غيرها نرقي نيات البشر لأن على المرء أن يتعلم ما هي النية الأولى، فلو أن المرء قال للآخر: ادعُ الله لي، قاصداً أن يدعو، فهذا لا يمتنع، لكن نتكلم عن الأفضل، يعني ما هو الأفضل؟ هو مقام النبوة الذي طلب منا أن يدعو الله له من أجل أن ترتقي نفوسهم، وأما هو فيدعو لنفسه، ولا شك أنه حين ترتقي نفسه يستجاب الدعاء فيقع الفضل الذي يدعو به لك، فنحن نتكلم هنا عما هو أفضل وأولى هذا واحد.

الشيء الثاني نحن قلنا: أن ادعِ تصح لغة خلاص، يعني نحن ما نفينا لكن العوام يقولون كلام الذي يقولونه، فإذا صحت في وجهٍ من وجوه اللغة ولو كان على وجهٍ شاذ أمضيناها لهم، لأننا لا نحاسبهم، ولكن إذا وقع منهم الخطأ، وأنت ذكرتني بمسألة فقهية وهو هل اللحن في الدعاء يسقط إجابة الدعاء؟ هذه مسألة فقهية قالها بعضهم وذكرها الشاطبي ونوه بها فيما تكلمنا في شرح الموافقات أظن مررنا عليها ومذكورة

في بعض كتب أهل العلم، وذكرها ابن القيم هل اللحن في الدعاء يسقط الإجابة؟ أي لو واحد دعا الله عز وجل فلحن وهو يدعو الله عز وجل، يعني يقول: يا اللهَ، والصحيح أن يقول: يا الله، مع أنها في محل نصب منادى، فهل يسقط إجابة الدعاء باللحن؟ بعضهم قال: نعم، وهذا قول شاذ على كل حال ولكنه موجود، قال بعضهم واستدلوا بأبيات شعرية يعني ليست من النصوص: بأن اللحن يسقط إجابة الدعاء، والذي عليه الجمهور، لا، الله عز وجل رب قلوب، والألسن قد تغلط، ولا يستقيم لسان كل الناس العوام، وإذا كان الله عز وجل يستجيب دعاء العجمي، عندما يقول ويتكلم إذا دعا، فليس من شروط الدعاء أن يدعو بالعربية، ليس هو قرآن فيدعو العجمي في دعائه بالعربية وبالعجمية.

وهنا نأتي إلى مسألة أخرى: هل يجوز للعجمي أن يدعو في سجوده في الصلاة بالعجمية؟ الجواب: نعم، يجوز له، وهو لا يعرف إلا أن يقول حاجته بلغته، ولذلك إذا أجزنا بالعجمية فمن باب أولى أن نجيز بالعامية، فيجوز للعامي أن يدعو بلسانه، وليس هذا مما يمنع الدعاء، فأما قول: ادعِ فهي لغة موجودة، وإن كانت ليست على قواعد اللغة، وهنا اليوم رأينا مصرا وما أثرت كنت أظن أننا سنصل إلى قول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، فإنها في سورة «المائدة» ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، وكنا نريد أن نقف عندها وما يترتب عليها من معاني بلاغية، ولكن الوقت أدركنا وإن شاء الله في الدرس القادم الله يقوينا ويوفقنا.

السائل: شيخنا ذكرت أنه من غير الأدب مناداة أصحاب الفضل بأسمائهم المجردة، أنه كان يتحدث بعض الصحابة عن آبائهم مثل ابن عمر وعن أبيه يقول: قال عمر، هل هذا خارج الموضوع؟

الشيخ: هو ربما يتحدث المرء عن أبيه بهذا الاسم تنويهًا له، ولكن الأصل لا تجعل دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا، هذا هو الأصل القرآني وما كان في مقام الرسول ممن حصل له بعض الفضل، كالأب وغيره فلا يُنادى باسمه المجرد، هو لما يتحدث عنه يقول: قال عمر، لكن إذا ناداه هل تتصور أن ابن عمر يقول لأبيه يا عمر رضي الله عنهما؟، فهو يتحدث عنه غياباً تعريفاً به، لئلا يظن بأنه يمدح نفسه بمثل هذه النسبة، أو أنه يمدحه لأنه كذا وكذا، يعني لو قال: قال أبي، ففي ذلك تزكية لنفسه من جهة، ولكن يقول: قال عمر تذكرة له، لكن إذا ناداه وخاطبه فلا يمكن، لا نتصور أن الصحابة رضي الله عنهم

ينادون بهذه الأسماء المجردة لا لأباءهم ولا للعلماء منهم ولا لأهل الفضل فيهم ولا لكبرائهم، بل ينادونهم بأحسن أسمائهم مما ارتضوها لأنفسهم وهي ليست اللقب ولكنها الكُنى.

ما الفرق بين الكنية واللقب؟ فقط ملحظ دقيق قاله كثير من أهل العلم مع خلافٍ فيه بأن اللقب ليس فيه مدح، وعادةً يأتي من الآخر، كأن يقال: أعمش أو يقال: أعرج أو يقال: الضرير ما فيها مدح، والصفة أطلقت من غيره، ولكن الكنية المرء يختارها لنفسه، قال: أبا حفص، هو يسمي، فلذلك ينادى بكنيته، على المرء أن ينادى بكنيته، أو ينادى باسمٍ اشتهر به من الفضل، كأن يقال في زماننا: قال شيخ الإسلام، فإنها إذا أطلقت معناها أطلقت على الكثير من أهل العلم، على الكثير من التابعين وغيرهم، ولكنها اختصت الآن بابن تيمية، يعني لما واحد قال: قال ابن تيمية، لا يضر ولكن من الأدب، ومن هنا فمن الأدب أنه إذا ذكر صحابي أن يترضى عنه وإذا ذكر تابعي ومن دونهم يقال: رحمه الله، هذا كله من الأدب، فلا نتصور أن ابن عمر إذا نادى والده قال: يا عمر، واحد ينادي خالد، هذا لا يتصور وليس هو من الأدب، بل ينادى بأجل أسمائه.

ومن هنا فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُنادى ممن هو أدنى في الفضل في زمانه من الصحابة، الذين كانوا على تعامل معه، ينادونه بأبي القاسم، ومن هنا نهى أن يسمى في زمانه بأبي القاسم واختلفوا هل هذا النهي جاري على الأبد أم أنه خاص بزمانه هذا واحد، ثانياً: هل يجوز للرجل أن يسمى بأبو القاسم مع اسمه يعني اسمه محمد وأبو القاسم أم فقط يجوز أن يقال: أبو القاسم مع غيره؟ هذه خلافات والصواب: يجوز للمرء بعد النبي صلى الله عليه وسلم أن يسمي أبو القاسم لعدم وجود الاشتباه مع غيره، فإن سبب النهي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في السوق فنادى رجلٌ آخر يا أبا القاسم فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم وإذا هو ينادي غيره، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكنى بكنيته، فالحال يدل على المراد ومع أنه قد حدث أن بعض الأنصار سمى ابنه القاسم، قالوا له: لا نسميك بهذا ولا كرامة، لا نعطيك الكرامة هذه ونسميك أبا القاسم وهذا خاصٍ بهم رضي الله تعالى عنهم، ولكنه إذا سمي الرجل بأبي القاسم فليس فيها شيء إن شاء الله تعالى، ولا يمنعه قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا قاسمٌ والله يعطي)، فإن الناس كذلك يقسمون، فإن الأب يقسم لأبنائه والسيد يقسم لعبيده وفتيانه وهكذا.

السائل: هل اليأس من الإجابة دافع للطلب من الغير بالدعاء؟

الشيخ: بلا شك أن اليأس لا يجوز، والله عز وجل قال على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف: ٨٧]، وأساس الكفر عند كثير من البشر هو اليأس، وقد رأيت أناساً من الغرب الكثير عندهم اليأس هو سبب كفرهم، أنهم لا يتصورون أن يغفر الله لهم، فيقول: الله لا يغفر لنا، كيف يغفر لنا؟! لن يغفر الله لنا!! فيبقوا على كفرهم ولا يعودوا، فلا ينبغي للمرء أن ييأس، لا ينبغي، لا يجوز له، بل هو من الكفر كما قال يعقوب عليه السلام والله سكت عنه فدل على إقراره فلا يجوز.

لكن أنا أقول يجوز للمرء لكنها مرتبة يعني دنيا، أن يسأل غيره أن يدعو الله له بأن يقضي حاجته، ابن تيمية أقر هذا المعنى، للذكر على كل حال في التوسع والمسألة موضوعة طويلة فيما قاله ابن تيمية وعامة الناس يعتمدون على كلامه، وكلامه رائع وطيب ولا شك فيه وعليه وممكن أن يخالف في بعض الأمور، ابن تيمية رحمه الله قال: يجوز لأننا وجدنا في النصوص أن بعض الصحابة رضي الله عنهم طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم الدعاء، فجعل هذا خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهذه نقطة ليست له، على هذا المعنى الذي يتحدث عنه الناس أن يسأل الرجل الآخر ممن يظن فيه الصلاح أن يطلب من الله عز وجل أن يقضي حاجته وهذا سأله الصحابة رضي الله عنهم للنبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم وكان يدعو لهم كما طلبت أم أنس أم سليم طلبت له أن يدعو الله لأنس فدعا له، فكانوا يسألونه.

ومرات كان لا يجيب كما طلبت أم حبيبة وهذا شرحته، أم حبيبة طلبت من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو لأخيها معاوية، فسألته أن يطلب أن يطيل الله عمره، فقال صلى الله عليه وسلم: (هذا أمرٌ مقضي وأجلٌ مقضي وأمر قد قضي فلماذا يدعى به)، أي أن يُدعى بطول العمر هو عمره ثابت، فلماذا يدعى له؟! وهناك من سأل فأجاب، سأل الله عز وجل له فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم ودعا له، ادعُ الله لي أن يغفر الله لي، وإما أن يدله على خير، وإما أن يبين له أنه قد حصل له مطلوبه من غير دعاء كما فعل من؟ كما في حديث عمرو ابن العاص عندما جاء وأسلم، فإنه سأل أن يغفر الله له، قال صلى الله عليه

وسلم: (أما علمتَ يا عمرُو أنَّ الإسلامَ يهدِمُ ما كان قَبلَه)، ما في ضرورة للدعاء قد حصل، ولكن لم يثبت قط أنه صلى الله عليه وسلم ردهم دعاء.

فهذا قال –وهذا أخذًا من قول أحمد لأن أحمد جاء في مسائل عنه أن بعضهم سأله الدعاء قال: أتظنني نبي؟! فحمله ابن تيمية رحمه الله أحمد الثاني على أنه يجوز سؤال النبي ولا يسأل غيره والصواب: لا، يجوز ولكن على ما تقدم، فالمرء عليه أن يسأل الله وإذا اشتد به الكرب فلا بأس أن يسأل الآخرين أن يدعوا له والله تعالى أعلم.

السائل: مسألة صلاة المرأة، (شر صفوف المرأة أول الصفوف)، بعض المعاصرين الآن يقولوا: انتفت هذه العلة لأنه الآن صار المصلى منقسم، أصحيح هذا الكلام؟

الشيخ: لا غير صحيح وكل هذا ترهيباً، لنقل ترغيباً للمرأة أن تصلي ببيتها، يعني ما دام أن الشارع يقول لها: تأخري فهذا المعنى موجود، تأخري لئلا تأتي بالمرة، فإن صلاتها في خدرها خيرٌ من صلاتها في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا المعنى موجود ويبقى اليوم وغداً، حتى لو طابق ثاني أو ثالث، فالأولى للمرأة أن تصلي في بيتها، الأولى، وصلاتها في بيتها خيرٌ من صلاتها مسجد النبي صلى الله عليه، وقال صلى الله عليه وسلم: (خير من صلاتها في مسجدي هذا)، فعين المسجد ومعروف فضل الصلاة في المسجد النبوي الشريف.

لكن السؤال هل يمكن أن ينشأ أسباب تجعل صلاة المرأة في المسجد خير؟ الجواب: نعم، كأن يكون القيام وهي تخاف أن يذهب عنها القيام في البيت أو لا تُحصل القيام في البيت كأن تكون المرأة عجوز لا تستطيع قراءة القرآن مثلاً، وهذا كثير في النساء لا يعرفن القراءة، فهي تذهب للمسجد من أجل أن تقوم الليل، والمرأة لو بقيت في بيتها لا تستطيع، لا تحفظ إلا الفاتحة والسور القصيرة، وتريد أن تقوم الليل، فلو ذهبت للمسجد لهذا المعنى، فهذا المعنى شرعي مُعتبر، وعلى هذا مثل ما يقول العلماء وعلى هذا فقس، ولكن القول بأن المعنى اليوم منتفٍ بعزل مسجد المرأة عن مساجد الرجال، فحينئذٍ أولها وأخرها الجواب: لا، فالمقصود هو تنفير المرأة من المجيء إلى المسجد، ولكن (لا تمنعوا إماء الله بيوت الله)، كما في الحديث لا يجوز منعهن إلا إذا أحدثن من الفتنة فيمنعن من الفتنة، لا يمنعن من الحضور، فإذا التصقت الفتنة بالحضور

بعدم قدرتنا على فكها، امتنع الحضور ومنع، إذا التصقت ولم تكن إلا هي، فحينئذٍ تمنع ولكن الأصل أن يفرق بينهما بارك الله فيكم جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

السائل: أقرض قرضاً ربوياً وهو يعلم ولكن قبل الأجل قام بسداد الدين فما حكم عقده، وكيف يتوب؟

الشيخ: الله عز وجل يقول: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ [البقرة: ٢٧٩]، فهذا خطابٌ للمرابي، ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾، لأنه ليس خطاب لمن يؤدي لأن المؤدي مقيد بالعقد فقد يضرب وقد يسجن فهو الخطاب له، ولكن إذا قدر المدِين والناس يقولوا: مديون، وهي ليست لغة صحيحة، وإن قال بها بعض العرب للذكر: مديون، فهي غير صحيحة، بل المدِين، ولكن عند بعض العرب تجوز، نصحح كلام العوام، تصحيح كلام العوام خيرٌ من إبطاله ورده كلياً، فالمدِين إذا قدر أن لا يؤدي إلا الدين جاز، مع أن عقد الربا عند جمهور العلماء بل عند أغلبهم إلا زُفر من الحنفية عقدٌ باطل، زُفر من الحنفية يرى أن عقد الربا عقدٌ فاسد، ما معنى فاسد؟ أي يصح أن تفعله بإزالة شرط الفساد فيه، ينعقد يصحح ولكن عند قيامه يكون فاسداً، فإذا صحح عاد إلى الأصل وهو الصواب.

والجمهور يرونه باطلاً، بمعنى لا تنشأ عليه أثاره يجب أن يرجع كل شيءٍ إلى أصله وإذا أرادوا عقداً جديدًا صحيحًا، فليعقد من جديد، وهذا له آثار تترتب عليه من قضية تاريخ العقد، متى يمضي إلى غيره، تترتب عليه آثار معروفة، هذا الفرق بين الفاسد والباطل عند الأحناف فقط وقول عند أحمد، وأما الجمهور فلا يفرقون بين الفساد والبطلان، إلا في الحج، الحج عند الجمهور يفرقون بين الفساد والبطلان، أما في غير ذلك فالفساد هو البطلان عندهم واحد إلا الأحناف والحنابلة، الحنابلة عندهم قول في التفريق بين الفساد والبطلان وموجه هذا الكلام.

نعود إلى المسألة فرجل أخذ عقداً ربوياً فليس عليه إلا أن يؤدي ما أخذ فقط، وليس للدائن إلا أن يجبره على هذا لقوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾، فقط ليس له إلا رأس المال، الجواب الآن: رجلٌ أدى المال عقد العقد، أنا أعرف السؤال ماذا يقصد وأفصل لكم السؤال، رجلٌ عقد عقداً ربوياً هذا في الغرب موجود هنا قليل، أي دين في الغرب هو عقد ربوي، ما في دين هناك بدون ربا، يعني عندما أنت تذهب

فتشتري كأساً بدين فالعقد ربوي، ولذلك لأنه يقول لك: إذا سددته خلال ستة شهور فثمن النقد كثمن النسيئة، بعد ست شهور يزيد عليك، بكل شهر شيء إذا بتعطينا بالشهر الأول يزيد عليك ١٪، بعد شهرين يزود عليك ٢٪، بعد ثلاث شهور ٦٪، يصبح ربا تصاعدي، ما يسمى بالربا المركب، الربا المركب هو الدين نفسه يصبح عليه ربا.

فيقول السائل: أنا عقدت هذا العقد ولكني أديته قبل حلول الربا، العقد باطل لأن الشرط موجود، ليس العبرة بالتطبيق وغير التطبيق، العقد موجود أنك تعطي الربا، لكن هذا في الغرب لا وجود إلا له، وذلك يمكن للناس أن يتكلموا، وأنا لست في الغرب حتى أجيب عليه، ولكن هذا عقدٌ ربوي لا يجوز، فيقول: لو أني أديت قبل أن يحل الربا ماذا أصنع؟ نقول له: استغفر الله، يعني فقط ليس هذا إلا أن تستغفر الله عز وجل، هذا هو الجواب.

السائل: متى يكون السيف عاصمًا من الفتن؟

الشيخ: عندما تكون الفتن لا تحل إلا بالسيف، كلمة الفتن كلمة موهمة، ويجب أن نضعها موضعها الصحيح، فإن كلمة فتنة تطلق على كل ابتلاء، فقد يكون الابتلاء عدم ظهور الحق، أي تحدث مشكلة بين الناس ولا تعرف الحق مع من، أو يكون الحق من أجل دنيا وليس من أجل دين، فهذه اسمها فتنة، هذه فتنةٌ يجب عليك أن تهرب منها، إذا كانت من أجل الدنيا أو كانت عند التباس الحقوق، هذه أهرب منها ما لك فيها أجلس في بيتك، هذا الذي قال عنه صلى الله عليه وسلم: (كونوا أحلاس بيوتكم)، قالوا: كيف حلس؟ قال: مثل الخرقة، أن تكون مثل الخرقة، لكن قد تكون الفتنة ابتلاء لك، كقدوم الكفار على أرضك، هذا ابتلاء، كيف يكون السيف عاصماً؟ بأن تقاتلهم، عندما يحاول المجرمون شق عصا الطاعة، الواجب أن تقف مع أهل الحق لئلا تحدث الفتنة التي يحصل بها الالتباس.

فالقصد من هذا: عندما يكون السيف هو الذي يعالج الفتنة يوضع السيف، وعندما يكون السيف بنفسه هو الفتنة اكسر سيفك وادخل بيتك وكن حلس هذا البيت، ويكفي إلى هنا في بيان هذا.

السائل: ما ضابط التخصيص بالحس؟

الشيخ: السؤال غير واضح، لكن العلماء يقولون: القرينة إما أن تكون حسية وإما أن تكون عقلية وإما أن تكون لغوية هذه القرينة، هذه القرينة تخصص إما أن تكون لغوية وإما أن تكون عقلية وإما أن حسية- السائل صحح السؤال قال: ما ضابط تخصيص العموم بالحس؟ - نعم، ويضربون على هذا مثالاً يقولوا: كل شيءٍ هالكٌ إلا وجهه، يقولون هذا الكلام، فما هو الحس؟ يعني المقصود ليس الوجه المقصود بالوجه هنا الذات، لماذا؟ لأنه يتصور الوجه بلا ذات، فقالوا: هذا تخصيص بالعقل، قالوا: والتخصيص بالحس كقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فإذا أردنا التخصيص بالبيان ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فقد بيّن أن المساكن موجودة، ولكن إذا أردنا العقل فإن غير المساكن موجودة فإنها لم تدمر التراب، التراب موجود ما دمرته فقال: خصت بالحس.

فالقصد من هذا: بأن الكلام العام قد يخصص بهذه المخصصات الثلاثة: باللغة، فاللغة تخصصه وقد يكون هذا التخصيص بالعقل، وقد يكون تخصيص بالحس، هذه المخصصات أو هذه القرائن تسمى، ويكفي إلى هنا وهذا باب في الأصول راجعوه يعني ليس مما يُجهل في كتب الأصول بل هو مشتهرٌ فيها تجدونه في كل موطن، أسأل الله أن يغفر لنا ولكم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع والخمسون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس السابع والخمسون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾ [البقرة: ٦١].

بعد أن تقدم الكلام عن سؤالهم وما حصل من إجابة سؤالهم من أن الله عز وجل أمرهم أن يدخلوا مصرا يحقق لهم مطالبهم من الطعام الأدنى، ويرتفع عنهم العطاء الإلهي والكرامة الإلهية بما هو خير من الأطعمة وهو المنّ والسلوى، وأول ما يتبادر إلى الذهن أن يتساءل المرء ما هي العلاقة بين هذا الخطاب المختومة به هذه الآية وبين سؤالهم تغيير طعامهم وإبداله؟ وإن كان أهل التفسير لا أعرف أنهم قد تكلموا عنها كلاماً شافياً إلا أني أعتقد بأن العلاقة هو كفران النِعمة؛ ذلك لأن الأنبياء نِعمة من الله سبحانه وتعالى، فإرسال الأنبياء هذه من أعظم بل هي أعظم نِعم الله عز وجل، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

فالأنبياء نِعمة بأنفسهم فإن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بأمةٍ خيرا قبض نبيها بين يديها، كما فعل بهذه الأمة، وإذا أراد بأمةٍ شرا قبضها ونبيها ينظر إليها، فمن النِعم أن يقبض الله نبيها بين يديها، فتبقى هي ولا يهلكها، وبما يأتي الأنبياء من الشرائع وما يأتوا من الأحكام وما يأتوا من الحِكم لهذا الوجود فهذه أعظم نِعمة، الناس يمكن أن يعيشوا بأدنى ما يمكن أن يحقق لهم الحياة، لكن لا يمكن أن يعيشوا من غير الشريعة ولا يمكن أن يعيشوا من غير حِكمة الأنبياء.

فلذلك هؤلاء اليهود لما تركوا نِعمة الله فكان الترك خِصلة لا تتجزأ عندهم، وهناك دلائل على أن الخصال تكون وحدةً واحدة في التعامل مع القضايا إذا عادت لأصلٍ واحد، الشرط إذا عادت لأصلٍ واحد، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله)، لأن خِصلة الشكر إن وجدت عمت واطّردت، فلما كان في نفس المرء، أحاد الناس يكون فيه النظر إلى نِعم المعطين له أو عليه فإن هذا الأمر يمتد إلى النظر إلى نِعمة الله، فحين يترك شكر الناس بما يعطونه من نِعم يكون لزوماً تاركاً للنظر إلى نِعم الله عز وجل ويردها ولا يشكرها.

فالنِعم إذا عادت لأصلٍ واحد اطّردت بين البشر، لا يمكن للمرء أن يكون حسن الأخلاق في بيته، وأن يكون سيء الأخلاق مع الناس، وكذلك العكس، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (خيركم، خيركم لأهله)، لأنها مجال ظهور الأخلاق، المرء ربما يتصنع قليلاً مع التجار ولكنه لا يمكن أن يتصنع طويلاً وذلك في بيته يظهر في بيته، ولذلك الخُلق يظهر بالامتحان ويظهر مع الاطِّراد.

فلذلك هؤلاء لما أنكروا النِعم فيما رأينا من المن والسلوى وطلبوا شيئاً أدنى منه، فهذه النفسية ليست بعيدة من أن تنكر نِعمة الأنبياء فتقتل الأنبياء، ومن هنا ينبغي أن تنظر إلى دقائق الأمور، هذه تعلمنا أن ننظر إلى دقائق الأمور في الإنسان، فإنها إن فاتت، فاتت الكبار، وهذا معروف في الصنائع، بعض الصنائع الدقيقة عندما يدخل الفتى ينظر إليه الخبير، هل يصلح لهذه الصناعة الدقيقة أم لا، بعضهم حدثني بهذا، وقال: أضع قطعة قماش راقية مرتبة وأضع عليها زجاجات صغيرة، فأطلب منه أن يحضر زجاجة صغيرة، فانظر إلى طريقة أخذه لهذه الزجاجة، فإن أخذها أخذاً عنيفاً بلا ترتيب، وفيها عنف، فأعلم أنه لا يصلح لهذه، نفسيته لا تصلح، ولكن انظر إليه فإذا جاء إليه وأخذ هذه القطعة من الزجاج أخذها أخذاً رفيقاً، فأعلم أنه يصلح لهذه الصناعة الذكية، ذلك انظر ينظر إلى ما هو أعلى هل يصلح له، بالنظر إلى هل يتقن ما هو أدنى، فإنه من لا يشكر الناس لنِعمهم اليسيرة لا يمكن أن يشكر الله لنعمه العظيمة.

ولذلك انتبه وعظيم النار من مستصغر الشرر، لا تقل هذه أفوتها من لا يصبر على القليل لا يصبر على الكثير، هذا شيءٌ مفهوم، ولذلك هذا الربط بين تركهم ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ﴾، لن يصبروا خلاص هؤلاء قوم ليس عندهم الصبر، مع أن الذي يأكلونه خير، ولكن كذلك هو يحتاج مع طول المدة

إلى الصبر؛ لأنه طعامٌ واحد، ومن لم يصبر لن يصبر على تكاليف الأنبياء وبالتالي قتلوا الأنبياء، فنرى هذا الارتباط لابد أن ننتبه له، وفي ظني هذا الربط بين هذه المقدمة في طلبهم بإعلانهم أنهم ليسوا أهل الصبر فلذلك وقع ما وقع.

الأمر الثاني وهو المهم: أن الصبر هو سبب العزة وسبب الرفعة والثبات، والرجل المكين والرجل الصبور هو الذي يحقق النتائج، فانظر إلى الربط في قوله تعالى: ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، لأن ارتفاع الذلة والمسكنة عن المرء تحتاج إلى صبر، ويكون أمر الطعام أهون ما ينظر إليه، أي أمر الطعام والشراب واللباس ورغد المسكن هو آخر ما يطلبه، آخر ما ينظر إليه ويهتم به من أجل أن يحقق الرفعة فتبتعد عنه الذل والمسكنة، ولذلك هذه المقدمة في قولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾، تتلاقى بأن النتيجة أن تتحقق عليهم الذلة والمسكنة، هم لم يصبروا على الطعام، لكن هذا عدم صبرهم على الطعام يعني لن يصبروا على تكاليف العزة، لن يصبروا على تكاليف المقامات العليا في الوجود، لن يصبروا عليها، ما دام أنهم لم يصبروا على الطعام فبالتالي لن يصبروا على غيرها.

ولذلك في هذه السورة لما طالوت امتحن الناس بماذا؟ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وجعل هنا مقامين، مقام ألا يذوق ومقام أن يذوق القليل، فجعل مقامين، فانظر إلى تكاليف الجهاد كيف بدأت؟ في امتحانٍ على أمور الطعام والشراب.

ولذلك هذا الارتباط بين قولهم ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾ وبين ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾، إما أن تصبر فتكون عزيزاً ومن هنا فكل أحدٍ يعلم، كما ذكرنا في الدرس الفائت عن المال أن له المرتبة الأولى مرتبة الطلب، وهم الطلب أن يطلب المال، فهذا هم، والهم الثاني: أن يكثره، والهم الثالث: أن يحافظ عليه، وكذلك كل شيءٍ في الوجود الناس يظنون إذا جاءت العزة لم يكن هناك تكاليف، هذا غير صحيح، تكاليف العزة في تثبيتها أشد من تكاليف إحضار العزة حين فقدها، تكاليف تثبيت العزة حين وجودها؛ لأنك مستهدف وحين تطلبها تكون واحدة ممن يطلب، لكن حين تكون منفرداً بالعزة، يكون الكل يطلبك، الكل يسعى من أجل أن يقتنصها منك.

ولذلك –وهذه أنبه عليها دائماً– الناس يظنون أن التمكين سيريح الناس، هذا غير صحيح، التمكين لا يريح الناس، وتكاليف المشقة في المدينة أضعاف، أضعاف، تكاليف المشقة في مكة، لم يعش الصحابة رضي الله عنهم قط ما عاشوه عند الأحزاب، وما عاشوه في غزوة تبوك العسرة لم يعيشوه في مكة، هذه التقلبات لم يعيشوا مثلها، وما عاشوه من خيانة بني قريظة في الأحزاب لم يعيشوه في مكة، الناس يعني يظنون نريد العزة من أجل أن نرتاح، هذا من الجهل ومن يقوله هو جاهلٌ في سنن الوجود وسنن التاريخ وسنن الحياة.

وبالتالي هؤلاء ضربت عليهم الذلة لماذا؟ لأنهم ليسوا –وقد أعلنوا– ليسوا من أهل الصبر، ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾، انظر إلى هذه الكلمة ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾، ودخول ﴿لَنْ﴾ هذه التي تدل على التأبيد في هذا الموطن أي هي النهاية، ولم تأتي للتأبيد، مرات تأتي للتأبيد، بعض الناس يقول: لن –الزمخشرية– التي للتأبيد، فبتالي لن قد لا تأتي للتأبيد في أصل الوضع وهذا غير صحيح، فهم قالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾، خلاص انتهى لا تطلب منا شيئاً نصبر عليه، وبالتالي قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، متناسبٌ مع قولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾.

والأمر الآخر هنا أمرهم أن يدخلوا هذه القرية، قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، إن كنت تريد الطعام والشراب فتحقق لك ذلك، إذا تريد الطعام والشراب هذا لا يجتمع مع العزة، إن كنت تريد رغد العيش فلا يتناسب مع العزة، وهذا ما أردته في تقديمه، في أن المحافظة على العزة وعلى المكانة حين وجودها أشق من طلب العزة حين فقدها، فعليك وأنت تعيش العزة أن تعيش متيقظاً وأن تعيش منتبهًا وإياك والترف فإنك إن عشت الترف كان لابد يقينًا أن تزول عنك العزة.

ونحن نعلم كما هي قاعدة ابن خلدون أن الأمم حين تبني نفسها يكون فيها صفة التعرب، ليس بمعنى التعرب بالمفهوم الاجتماعي ولكن بمعناه شرف الحياة، يعني اللحظات الأولى في انطلاق الأمم للبناء يمكن أن يكون فيها الترف وهكذا عاش الصحابة رضي الله عنهم في أول الأمر، وهكذا لما انطلق التتار في أول الأمر، وهكذا لما جاء الصليبيون إلى بلادنا كانوا يعيشون الفقر المدقع، والحروب الصليبية هي في الأساس هي حل المشاكل الداخلية، فلذلك هم يعتادون أن يحلوا المشاكل على حساب الآخرين، فلذلك لأنهم

يعيشون مشاكل داخلية واقتصادية واجتماعية وفساد، فهم يخرجون هذا الغضب في أراضي أخرى على قاعدة «نصر بلا حرب»، كما ستشرح إن شاء الله في موطنها.

فحين تنطلق الأمم من أجل العزة تنطلق أشبه بالفقر وشرف العيش، ولا يكون فيها الترف، بعد ذلك للأسف وهذه قاعدة سننيه مضطردة، بعد أن تستقر يكون في الجيل الثاني القليل من الترف، لكن الجيل الثاني من بعد التمكين أي الجيل الثالث لهذه الأمة يدخل فيها الترف، وحينئذٍ تبدأ الأمم بالسقوط وتبدأ الحضارات بالزوال لدخول الترف عليها لأنها ظنت أن التمكين لا يحتاج إلى ما احتاجوه لحظة بناء التمكين، غفلة فهذا خطأ.

ولذلك الله عز وجل قال: أنتم تريدون هذا ادخلوا هذا المصر وكلوا كما تشاؤون وإذا أردتم أن تأكلوا كما تشاؤون فليس لكم إلا الذلة والمسكنة، وهذا يدل على أن العزة لا تتلاءم مع هذا المطلب، هذا بيّنٌ فيما نحن فيه، إذن ﴿لَنْ نَصْبِرَ﴾، تتلاءم مع الذلة والمسكنة، وتتلاءم مع ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾، هذا واحد هذا أمرٌ مهم، في أن نرى هذا الترابط بين الأمرين في هذه الآية ولا أدري هل تكلم أحد –أنا لم أطلع– هل تكلم أحدٌ عن هذا الأمر من قبل أم لا.

الأمر الآخر: نحن وقفنا عند ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، وقلنا: بأن الذلة هو وجود قاهر والمسكنة هي أمرٌ داخلي، فضربت عليهم وهذا أمرٌ عجيب لا يمكن أن تقع الذلة على قوم وأن تدوم، حتى يكون في أنفسهم المسكنة، وإلا فالأمم تغلب، ويمكن أن يذلها غيرها وأن يغلبها، والله عز وجل قال: ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ [النساء: ١٤١]، يمكن للكافر أن يكون نصيب، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وبقراءة ثانية ﴿قُتِلَ﴾، فيمكن للكافرين أن يكون نصيب.

ولكن الذي فيه عدم المسكنة ليس في داخله ساكن بل هو متحرك، وهو يجاهد في سبيل الله فلابد أن تدفع يوماً، ولذلك يسعى الطواغيت في كل عصر حين الغلبة، المعاصرون، أنا لا أتكلم عن القدماء، القدماء يمكن كان فيهم ذكاء ما، ولكن اليوم ذكاءٌ صناعي، واستفادوا من الأمور الفطرية التي كان يتعامل بها القدماء وبنوا عليها علوماً، ولذلك اليوم كل غالبٍ يدعو إلى السلام، أنا أنبه على هذه الأمور لأنها

مهمة في حياتنا، الغالب هو الذي يدعو للسلام هذه الأيام، بعد أن يغلب قبل أن يغلب لا يدعو للسلام، بعد أن يغلب ويقهر خصمه يدعوك للسلام، وهذا بين في اليهود في فلسطين وبين في الغرب عندما يدخلوا بلداً فيقضوا عليها ويسرقونها وينهبونها فيدعون للسلام، والآن هذه النظم الدولية من الأمم المتحدة وغيرها تدعو إلى التعايش والسلام لماذا؟ لأن القوى الكبرى في هذا النظام قد غلبت واستقر أمرها في أن تمتص الشعوب فتدعو للسلام.

فالدعوة للسلام لا تكون من قبل خصمك إلا بعد أن يقهرك، من أجل ماذا؟ من أجل تحصيل المسكنة عندك، يعطيك القليل فيسكنك حتى يستقر الأمر، على الأمر الذي غلب عليك فيه، الآن يدعو للسلام، ولذلك دعوة المغلوب للسلام استجابةٌ للغالب في دعوته، الله عز وجل يقول: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥]، لا يجوز لك، القرآن يبيّن في موطنين دعوة السلم أنه ليس هو الذي يدعو للسلم، إنما هو يستجيب للدعوة ولكن وهو عالٍ، وليس وهو مذلول لأن دعوة الغالب إلى السلم هو من أجل إقرار حالة الغلبة عليك، من أجل إقرارها حتى لا تقم، هذا مهم جداً، ولذلك لا يجوز للمغلوب أن يدعو للسلام لا يجوز له، لأن دعوة المغلوب للسلام لا يمكن للغالب أن يعطيك حقك هذا لا يمكن، هل المجنون الغالب بعد أن يبذل جهوده ويقدم فلذات كبده رجالاً يُقتلوا، وبعد أن يبذل المال والغالي والنفيس، ثم بعد ذلك يقول لك: تعال لتشاركني!! تعال لتكون مثلي، هذا لا يمكن، وذلك دعوة المغلوب للسلام هي من أجل إقرار حالة الغلبة عليه.

قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، تكلمنا عنها، ونحن نرى أن اليهود انظر كلمة ﴿بِغَضَبٍ﴾، ولم يقل: باءوا بلعنة وقال: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾، لماذا؟ لنعرف أن الغضب الإلهي يقع على من علم وأنكر، ما هو معلومٌ عنده، وهذا قلناه في ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، من ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؟ اليهود، ﴿الضَّالِّينَ﴾، هم النصارى، ولذلك لما قال الله عز وجل: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)﴾ [النور: ٨-٩]، لأنها تعلم، إذا حدثت هذه، فإذا ردتها تكون عالمة فلم يقل: لعنة قال: ﴿غَضِبَ﴾، فالغضب إنما يلائم دائماً من علم وأنكر في هذا النص، ولذلك قال تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، ويمكن هنا الآيات الكونية، لأنه ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١]، كذلك ما رأوا من الآيات في البحر ضربه فانقسم ومشوا فيه، هذه آيات كونية، والله عز وجل قال: ﴿تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، فتسع آيات اختلفوا في ذكرها ولما نأتي إليها إن شاء الله نذكر الخلاف ونذكر ما فيها، وكذلك المنّ والسلوى وكذلك ضرب الحجر فانبجست منه أو انفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فهذه آيات كونية ولكنهم مع ذلك بقي عندهم الشك، يسألون نريد أن نرى الله جهرا وهكذا، وكذلك كفروا بآيات الله التشريعية، هناك شرائع أنكروها ومن ذلك إنكارهم للجهاد وعدم طاعتهم لأمر نبيهم بدخول الأرض المقدسة، فهذا أمرٌ شرعي الجهاد أمرٌ شرعي، فذلك يكفرون بآيات الله، وما وقع منهم من عبادة العجل هذا كفر بالشريعة، فذلك يكفرون بآيات الله الكونية والتشريعية، والآية هي الأمر العظيم لا تقال آية على الأمر اليسير إنما الآية هي الأمر العظيم.

قال تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، هنا لابد من وقفة، وقف المفسرون ولهم كلامٌ طويل جميل، لم أرى أحدًا جمعه كله في مكانٍ واحد، يعني أن يجمع كل كلام من تكلم على هذا الموطن من قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وللعلماء مسالك متعددة، في أي موضوع؟ في هذا الموطن والموطنين في سورة «آل عمران»، في سورة «آل عمران» هناك موطنان، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]، هنا نفس الكلام في أن الجمع هو جمع سالم، ولكن الخلاف أن الحق هنا عرّف وفي أول سورة «آل عمران» نكر، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١].

وفي الموطن الثاني في سورة «آل عمران» بعد قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٢] فختمت بقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾ [آل عمران: ١١٢]، وهذا يعرفه الحُفاظ ويعرفه من يهتم بمتشابهات القرآن لماذا، هل لهذا سبب؟ نحن نعرف أولاً كما يقول: شارح «شافية ابن الحاجب» أن جمع التكسير يفيد الكثرة، أولاً هذا إذا كان المفرد يمكن أن يجمع جمع سالم ويمكن أن يجمع جمع تكسير، إذا أمكن هذا، فهنا النبي في جمعها يمكن أن تقول: نبيين فهذا جمع سالم، ويمكن أن تقول: أنبياء فهذا جمع تكسير، فيمكن أن يجمع جمع سالم وجمع تكسير، وكذلك جفان، وكذلك سنبلة، جفنة تجمع جفان وجفنات، وسنبلة تجمع سنابل وسنبلات وهكذا.

ولكن هناك ما لا يجمع إلا جمع سالم ولا يجمع جمع تكسير، فيقول البلاغيون -وهذا لمن أراد أن يرجع اليه موجود في «شرح شافية ابن الحاجب»، وهي مطبوعة وموجودة يقول: بأنه إذا كان المفرد يجمع جمع تكسير وجمع سالم، فإن جمع التكسير يفيد التكثير، -تكسير تكثير، سهل حفظها- وأما جمع السالم فإنه جمع القلة، لكن إذا لم يمكن إلا أن يجمع جمع سالم فإنه قد يفيد القلة وقد يفيد الكثرة، هذه انتهينا منها، هذه هي القاعدة.

قبل أن نأتي إلى كلمة ﴿الْحَقُّ﴾، ولماذا هنا قد عرفت، وفي الموطنين قد نُكرت؟ في الموطنين في سورة «آل عمران» نُكرت ﴿حَقٍّ﴾، لكن نبقى عند ﴿النَّبِيِّينَ﴾، وللعلماء مسالك في هذا التغاير، نبدأ بأسهلها المسلك الأول: وهو كلام أبي حيان الأندلسي الغرناطي في «البحر المحيط» ومدعوم بكلام ابن جني كنحوي أو بصفته نحوياً، يقول: بأنه وقد عرّف الجمعين فلا فرق، وقد عرّف جمع التكسير وجمع المذكر السالم وهو نبي أو جمع السلامة كما يقولون، فإنه وقد عرّف فيعني أن الأمرين على شيءٍ واحد ولا ضرورة لأن نبحث عن المغايرة فإن النبيين مثل الأنبياء، لا فرق، هذا القول الأول وهذا الكلام قاله: ابن جني كما ذكرنا فهذا مسلكٌ لوحده.

المسلك الثاني: لا، أنه لابد أن ننظر إلى هذا الفرق على معنى، ما هي؟ مسالكٌ كثيرة نختار الأقرب والأسهل في هذا أي فهمه.

ونبقى هنا أنه جمع سلامة فهو للتقليل وفي سورة «آل عمران» جمع تكثير، لماذا؟ وهذا مسلك من مسالك ما قالوه، وليس قول جميعهم، قال: لأن ملائمة القلة هنا تلائم السياق بخلاف السياق في سورة «آل عمران»، فإن التنفير من فعل اليهود في سورة «آل عمران» أشد من التنفير هنا، لماذا؟ انظر إلى هذا التنفير الأشد في سورة «آل عمران» تنفير أشد، كيف؟ قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ [آل عمران: ١١٢]، وهنا عمم، وهناك ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ فجاءت مصرحة بأنها ذلةٌ في كل مكان وفي كل زمان، وهنا لم يأتي هذا وقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١]، هذا واحد، فلذلك هناك التنفير أشد حيث الذلة ذكرت على الشمول للزمان والمكان والأحوال.

الأمر الثاني: أنه تكرر حرف الجر هناك، أي فرق أن تقول: أكرمت عليًا وخالدا، ما هو الأبلغ؟ أن تقول: أكرمت عليًا وخالدا أو أكرمت عليًا وأكرمت خالدًا؟ تكرار هذا يدل على البلاغة وعلى أنه الأكثر فقال الله عز وجل هناك: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، فدل على أن التنفير في سورة «آل عمران» أشد، ولذلك لائم أن يقول: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

الأمر الثالث: وهو يفتح باب كلمة الحق، ونأتي إليها ولكن نأتي فقط إلى يسيرٍ منها، أن الحق هنا معرف والحق هناك مطلق، ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١]، فإنها كثرت قتل الأنبياء، وأبطلت عنهم أي حجة في قتلهم، سواء كانت هذه الحجة مما يعرف من الحق الذي يقوله الله أو من الحق الذي يزعمونه، وهذا هو سبب التنكير والتعريف، يعني لماذا كلمة الحق هنا معرفة؟ هي تدل على حقٍ واحد وهو الذي من جهة الله، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، أي الذي يُعرف بالشرع لماذا يُقتل النبي، فهل يمكن للنبي أن يُقتل بالحق، كما أمر الله عز وجل إبراهيم بأن يقتل ابنه إسماعيل، يعني بأمر الشريعة، هذا إذا تصورنا وإذا قلنا: بأن كلمة غير الحق هو قيدٌ حقيقي وليس قيدًا أغلبي أي قيدٌ للبيان، بياني، وليس قيدًا من أجل أن يقيد وليس قيدًا حقيقي، وهذا معروف ومذكور وحتى نعرف القيد الأغلبي كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]، هذا قيد أغلبي فإنه لا يجوز للمرء أن يكره فتاته على البغاء سواء أرادت الإحصان أو لم ترده، لكن سبب النزول أن المرأة أرادت الإحصان فنزل من أجلها، فهذا قيدٌ أغلبي، وهذا بيّن لا نريد أن نأتي إليه، لكن لو اعتبرنا أن قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، أنه قيدٌ حقيقي، يعني يمكن للنبي أن يُقتل بالحق، لو تصورنا هذا على ما ذكرنا يمكن يعني الله أمر كما قلنا إبراهيم عليه السلام أن يقتل ابنه إسماعيل عليه السلام.

فإذن حالة التنفير هذه أحضرناها لماذا ما زلنا في كلمة ﴿النَّبِيِّينَ﴾، فرأينا ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾، ورأينا ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾، كيف تكرر ورأينا أن كلمة ﴿حَقٍّ﴾ هناك أفادت ما هو حق من جهة الله وما هو حقٌ هم يعقدونه، ربما هم يعتقدون أنه هذا من الحق في أن يقتلوه ومع ذلك لم يحصل هذا، لم يحصل في نفوسهم أنه يستحق القتل بالحق الذي يعتقدون، فلذلك أطلق الحق وجعله مطلقًا، إذن من أجل هذا ذُكرت كلمة ﴿النَّبِيِّينَ﴾ هنا بجمع السلامة التي تدل على التقليل وذكرت ﴿الْأَنْبِيَاءَ﴾ وهي جمع التكسير

التي تدل على التكثير في سورة «آل عمران»، هذا مسلك من مسالكهم، يكفي هذا ويعني كل ما قالوه تقريباً يدور حول هذا كل ما يقولونه فيما جمعته.

لكن فقط الكرماني له ملحظ جميل، كل ما يقوله في المعاني يدور حول هذا، لكن رأيت الكرماني يأتي إلى ملحظٍ غريب، وهو في الحقيقة زعم البعض من المعاصرين أنه لم يقل به الأوائل، وهو التلاؤم بين سياق الآيات وهذا إن شاء الله أشرحه عندما نأتي لماذا كلمة ﴿كَسَبَتْ﴾؟ ولماذا كلمة ﴿عَمِلَتْ﴾؟ سنأتي إليه، وهذا أشرحه بشيءٍ بسيط، أشرحه بمثالٍ واحد وإن كان يحتاج إلى أمثلة كثيرة، وهو التلاؤم في الألفاظ، التلاؤم في الحروف والألفاظ في الكلمة.

مثال: في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)﴾ [آل عمران: ١٧٨] ماذا بعدها؟ ﴿مَا كَانَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، هذا تجدوه كثيرًا، بل إن البعض هذا يساعدهم على الحفظ، مثلاً: كما في سورة «المنافقون» يعني يخطئون بعض الحفاظ غير المتقنين يبحث كيف يربط هذه يقول: ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ أم يقول: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ فمثال ذلك وهذه يخطئ بها بعض القراء وبعض الأئمة في سورة «المنافقون» -رفعت على الحكاية- الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ﴾ [المنافقون: ٥-٦]، ما الملائم؟ انظر السينات هنا ما الملائم؟ أن تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)﴾ [المنافقون: ٦]، انظر كيف تكررت السين، فالملائم غريب أن تقول: أن الله يهدي القوم الظالمين، هذا حرفٌ جديد، فالبعض ظن أن هذا اكتشافٌ جديد والحقيقة أن الأوائل قد قالوه، قد قالوا هذه الملاءمة في الألفاظ وتكلم الإمام الزركشي ذكرنا هذا في كتاب «البرهان» أن حتى مطالع الحروف المقطعة تتلائم مع الأعداد، وعدوها قبل المعاصرين، عدوا هذه قبل المعاصرين لكن هذا ملحظ في قضية تلاؤم الحروف.

وهنا انظر للعلماء ومسالك العلماء تتعجب كيف يذهبون! هذه ﴿النَّبِيِّينَ﴾، وهم يقتلون الأنبياء أراد أن يقول الكثرة، وهذا كلام الكرماني لماذا قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ٦١]، أين ملائمتها، انظروا إلى الآية التي قبلها والتي بعدها تأملوا هذا لكم، أين تتلائم مع ماذا؟ قال تتلاءم مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، قال: تتلائم مع هذا السياق، وقال آخر: ﴿النَّبِيِّينَ﴾ وإن كانت هذه تجدها ليست مطّردة قال: نرى كلمة النبيين تتلاءم مع قوله تعالى: ﴿النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، فإنها أسهل على اللفظ ولكن هذا يعترضه ما نراه من ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]، يكفي هنا الملحظ في هذا القضية وهذا الباب من الميادين التي يتسابق فيها العلماء ويتراكضون فيها لبلوغ غاياتٍ عظيمة يقبلونها ويردونها.

فقط في كتاب «ملاك التأويل» للغرناطي تجد أنه يجريها على معنى التعدد أنه أراد القرآن أن يذكر لك أمراً وهو ليتسع، سأذكره فقط لمعناه مع خفائه، والغرناطي على طريقة البقاعي في «الدرر في تناسب الآيات والسور»، فإن كلماتهم خفية وتحتاج إلى تدقيق ومراجعة، فأحاول أن أشرح ما يقوله الغرناطي في هذا الباب وهو باب فقط النبيين والأنبياء، يقول: بأن جمع التكسير هو يدل على الكثرة، إذن هو يشمل المفضول والفاضل هذا معنى كلامه، لا أريد أن أسوق كلامه لأن لا يفهم على معنى آخر، لأن كلامه لو سقته لدل على أن هناك أنبياء عندهم علم وليس عندهم العلم، لكن لنقول هذا المعنى، فيقول: الأنبياء شاملة لنبيين وشاملة لما هو أعلى من ذلك، وربط ذلك بالعلم وقال: وهناك شرفٌ آخر في كلمة الأنبياء غير شرف النبوة، شرفٌ آخر، لأنه قلنا: الأنبياء تفيد التكثير، وقال: هذا المعنى غير موجود في النبيين، فأراد القرآن – وهذا مجمل كلامه وتقريب له مع أن مرات كثيرة إذا تغير اللفظ من الصعب أن تصيب المراد تاماً من كلامه–، يقول: «فأراد القرآن أن يجمع الحالتين معاً فنوع الأمر بين النبيين وبين الأنبياء»، أنا أكتفي منه في هذا الباب ونأسف أننا أطلنا لكن في ذلك قراءة لكلام أهل العلم وتنوع كلامهم في هذا الباب.

والآن قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، رأينا قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، قد صار ﴿حَقٍّ﴾ بلا تعريف في سورة «آل عمران» في الموطنين، ﴿الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢]، علمنا لماذا قال: كلمة ﴿حَقٍّ﴾ في الموطن الثاني لتتلائم مع الأنبياء كثرة، رأينا هذا الجواب تم، أما لماذا جاءت كلمة حق في الموطن الأول؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]، لماذا؟ جاءت هناك ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، على ما قلناه، لم يتغير كلام أهل العلم في هذا الباب وهو أنه أراد أن يقول الله عز وجل: إن هؤلاء قتلوا الأنبياء بغير شريعةٍ منزلة هي الحق الذي لا حق سواه ولا بشريعة أنفسهم فيما يعلمون أنه الحق،

قال: ومن ذلك أنه جاء بصيغة التأكيد في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٢١]، فجاء هذا التأكيد من أجل أن يؤكد بلفظٍ آخر كذلك وهو ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١].

ومن خلال هذا الشرح علمنا هل كان هناك قتلٌ للأنبياء بحق أو بغير حق، انتهينا منه فكل هذه المسائل قد تداخلت بفضل الله عز وجل وانتهينا منها.

الآن سؤال هل قتل بنو إسرائيل أنبياء؟ نعم، لكن اختلفوا هل قتل بنو إسرائيل رسلا؟ قالوا: منعوا ذلك، ومن ذلك أنهم لم يقتلوا عيسى، وهناك فرقٌ بين النبي والرسول لا نريد أن نقف عنده كثيراً فإن موطنه إذا وصلنا سورة «الحج» لأن سورة «الحج» جمعت بينهما في سياقٍ واحد بواو العاطفة فدل على تغايرهما، والتغاير قد يكون التغاير في النسبة، نسبة الصفة وكميتها، مع وجود الأصل الواحد في المعطوف على ما عُطف عليه.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾ [البقرة: ٦١]، قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨)﴾، دل هذا على وجود حقٍ نقلي وعلى وجود حقٍ وضعي، هذه اللفظة والله تعالى أعلم أنها دلت على وجود حقٍ نقلي، ما هو الحق النقلي؟ ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾، فدل على وجود أمر، المعصية لا يمكن أن تقع إلا مع وجود أمر، هناك أمرٌ فيخالفه المأمور فيكون عاصياً، طيب الاعتداء، ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، دل على أن هناك حق ثابت تجاوزه هذا المعتدي، فالله عز وجل يريد أن يقول: بأن هؤلاء اليهود قد تجاوزوا النص المنزل في قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾، وتجاوزوا فيما هو مقر في عرف البشر وفطرهم من الحق فتجاوزوه، وهذا أبلغ، ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾، تجاوزٌ من اليهود لما أنزل عليهم من الحق فدل على أن هذا الحق الذي تركوه إنما هو نصيٌ ونقلي، لأنه هناك آمر، عصوا لابد من آمر، والاعتداء لابد من هناك حق ثابت تجاوزوه، فلذلك دل على أنهم قد تجاوزوا الأمرين، ما يثبت من جهة النص وما يثبت من جهة العرف، وما يثبت من جهة الفطرة.

وهنا نأتي إلى نقطة ولا يوجد حقٌ ثابتٌ من جهة الفطرة إلا وجاء النقل دالاً عليه، ولكن قد يثبت النقل حقوقاً لا يعرفها الناس، من أمثلة ذلك: حق الوالد على ابنه هذا من الفطر بالشريعة وبغير الشريعة يعرفونها وهذا مما يؤكد على أن التحسين والتقبيح يثبت بالعقل، أن هناك مما هو حسن وهناك مما هو قبيح

يثبت بالعقل كالكذب، الكذب بالعقل، لو لم تكن هناك شريعة لعلم أن الكذب قبيح، وما دام أن الفطرة تثبته، وما هي الفطرة هنا؟ هو اتفاق البشر عليه، كلهم يلتقون عليه إلا من يشذ ففي كل وقتٍ شذوذ، ولكن مجمل البشرية تلتقي عليه، فكيف يكون هناك حق لا يعرفه الناس؟ لأن الناس لا يعرفونه، تفاصيل الإرث لا يعرفونها، حقوق الله عز وجل لا يمكن أن يعرفها الناس من جهة أنفسهم ولو تركوا لأشركوا، لاجتاحتهم الشياطين؛ فلذلك هناك حقوق لا يعرفها الناس ولا تثبت ولا تستقر إلا بالنقل، وهناك حقوق تستقر في الفطرة والشارع يأتي لتأكيدها كما ذكرنا في بر الوالدين.

فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾، دل على مخالفتهم لآمرٍ إما أن يكون ثابتاً بالكتاب والسنة، وإما أن يكون ثابتاً بالتوراة أو ثابتاً بنص النبي المخبري عن ربه تعالى.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، هنا مسألة مهمة من البلاغيات، قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾، هذا تكرار لذكر علة الغضب الإلهي والذلة التي أصابتهم، فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ [البقرة: ٦١]، هذه عند أهل العلم دالة على جواز تعدد العلة شرعاً وعقلاً، فإنه في منطق الناس يجوز تكرار العلة، ولهم تفصيلات يقولون في كلامهم: تتكرر العلة في الجنس لا في الشخص، هذا كلام المناطقة والمنطقيين، ولكن في الشرع يجوز تعدد العلة والدليل ما عدده العلماء في الربويات، في الربويات العلة متعددة، تجد الجنس والمطعوم و ... إلخ، فيمكن أن تتعدد العلة، فهنا تعددت العلة ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، فأولاً: قصر على ما هو عظيم ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، فذكر ما هو جليلٌ في الأمر ثم عمم أنهم يعصون ويعتدون في أبوابٍ أخرى غير ما ذكرناه لكم في هذه الآية، والدليل أنه أكد في العلة الأولى بحرف التأكيد ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾، ولم يؤكدها في الثانية، انظر ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ﴾، أقال: بأنهم عصوا؟ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾، فجاء التأكيد على الأولى لماذا؟ لما فيها من جرم كما قال بعض أهل التفسير ولما فيها من قبح أكثر من غيرها.

نأتي للآية التي بعدها ونذكر فقط المناسبة بين الأولى والثانية، وهي مناسبة لا يمكن أن يهتدي إليها المرء إلا بقراءة القرآن كله ومعرفة طرائقه وبمقارنة هذه الآية بمثيلاتها، لماذا قال الله عز وجل بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ﴾ [الحج: ١٧]، لماذا؟ هذا مثال في معرفة المناسبة، فمن إحدى طرق معرفة المناسبة بين الآية والتي تليها قلنا: إما أن تنظر إلى عموم القرآن وطريقة بنائه وكذلك أن تنظر إلى نوعها إلى مثالها في القرآن.

أول أمر: علمنا أن القرآن إذا ذكر ترهيباً لابد أن يذكر ترغيباً وراءه، لتتم الرحمة ويتم عدم اليأس، أنه يرغب بعد بيان الترهيب حتى لا يقع اليأس، وإذا رغب فحتى لا يطمئن المرء لابد أن يرهب من أجل أن يتساوى الأمر فيبقى المرء بين الترغيب والترهيب، فلما ذكر الله ما ذكر عن اليهود من هذا كان من العدل أن ينظر أو أن يبين أن بعضهم ليسوا كذلك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾، فجاء هذا، كيف فهمنا هذا؟ أولاً: من طريقة القرآن، وثانياً: من النظر إلى مثيلاتها.

فبعد أن قال سبحانه وتعالى في الآية في سورة «آل عمران»: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾ [آل عمران: ١١٢]، ماذا قال بعدها؟ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]، أولاً: الطريقة العامة في القرآن بعد أن ذكر هذا الشيء المرعب عن اليهود وهذه الخصال السيئة في أغلبهم وفي ما جرت فيهم فإنهم ليسوا جميعاً كذلك، ولذلك قال سبحانه وتعالى في سورة «الأعراف»: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾ [الأعراف: ١٥٩]، هناك آخرين فأين هذا؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢] هنا، وهي تعادل قوله تعالى في سورة «آل عمران» ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾ [آل عمران: ١١٣]، هذه المناسبة الأولى.

ويكفي إلى هنا إن شاء الله، لأن الحديث عن هذه الأنواع وخاصةً عن الصابئين فإنه يطول، لأن الحديث عنهم وتسميتهم المنتشرة في كتب الملل والنحل على معنى لا يوجد فيهم الخير بل هم ملحدون من عبدة الكواكب والشمس والقمر، وكذلك لماذا وقع هنا الصابئين بعد النصارى وفي سورة «الحج»، قال

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧]، تقدم، وفي سورة «المائدة» جاءت الصابئين مقدمة مع الرفع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، لماذا رفعت هنا، هذا ما سنتحدث عنه في الدرس القادم إن شاء الله تعالى وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: هل يجوز تسمية اسم آية شرعاً؟

الشيخ: السؤال هل يجوز أن نسمي بنتاً آية؟ الجواب: نعم، لا أرى في ذلك إن شاء الله أي حرج، فإننا نسمي خالد، ولم يغيره النبي صلى الله عليه وسلم وإنما المقصود فيه طول العمر، وهنا لما نقول آية لا نقصد بها الآية العظيمة التي تسمى في القرآن وإنما هي آية من آيات الله ذلك لأن كل إنسان هو آية فيصح هذا، ما في عندي مانع إن شاء الله، وما في نهي عنها خاص وأمثالها في الأسماء في البنات وفي الرجال موجود إن شاء الله تعالى من الصحابة وغيرهم.

السائل: السؤال عن مسألة تطرقت إليها شيخنا وهي الملاءمة لماذا أتت ﴿النَّبِيِّينَ﴾، وقلت: إنه يوجد المعاصرين من شنع من يقول عن الملاءمة، هكذا فهمت أنا؟

الشيخ: لا، لم يشنع أحد على الملاءمة، لكن هناك من العلماء القدماء من أنكر المناسبة، كالعز بن عبد السلام مثلاً: قال: ما في مناسبة، لا، ليس المعاصرين لا أعرف أحد أنكرها، علم المناسبة موجود في كتب علوم القرآن بأن هناك من أهل العلم من استبعدها في السور الطويلة، قال: يعني صعب، السور القصيرة يمكن أن نجد مناسبة بين الآية والآية ولكن المناسبة في سورة «البقرة» و«آل عمران»، والعلماء ردوا عليها، وكان بعض أهل العلم يجلس ويعلم الناس علم المناسبة ويقول: بأن هذا العلم قد باد وانتهى والحق أن القرآن مركب على أمور ندركها وأمور لا ندركها ولكن لابد من النظر فيها لعلنا نكتشفها، فيصبح المرء من مراتب أهل العلم، لكن أنا قلت: إن بعض أهل المعاصرة قد زعم بأن المناسبة بين الآيات أنه اكتشفها جديداً ولا تعرف عند الأوائل، وهذا غير صحيح، مناسبة الحروف موجودة، وضربنا أمثلة إن شاء الله تعالى فيما يكفي.

السائل: ذكرت في البداية بسبب أنهم لم يصبروا على القليل وعلى الأقل جهدًا فلم يستطيعوا أن يصبروا على الكثير والجهاد، والآن بعض الناس يقول: أن الأمة لا تستطيع أن تصبر على القليل من الفتن والمعاصي فكيف يعني ترمى بالجهاد مرة واحدة؟

الشيخ: الجواب: ننتبه يعني هذا مع سهولة الرد عليه، هذا السؤال مركب من مجموعة من الأغلاط الشرعية والواقعية، أما الشرعية فيكفي أنه لما قال الملأ من بني إسرائيل لنبي الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فشعر بهذا –أنا أرد بالشرع– فإنه شعر هذا النبي أنهم ليسوا أهلاً لهذا، قال: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ [البقرة: ٢٤٦]، إذا الله بعث فيكم نبياً ألا تقاتلوا، لكن هذا لم يمنع من أن يأتي نبي فيخرج معه من يخرج، وبالفعل خرج معه بعضهم، ولم يخرج بعضهم، ومن خرج احتاج إلى تمحيص، ومع ذلك النتيجة ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١]، مع كل هذه المقدمات فهزموهم.

وأنا أضرب لكم مثلاً حتى نفهم طريقة الشارع، وطريقة الشارع تلاءم قدر الله في تحقيق الحق وإبطال الباطل: لا يجوز للمؤذن أن يتوقف عن الأذان بحجة أن الناس لا يستجيبون، فأنت تدعو الناس للجهاد فلا يجوز لك أن تقول الناس لا يجاهدون، أن تدعو الناس فقد يستجيبوا، فمن استجاب أخذته وسلكت فيه وطبقت قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤]، فهذا هو الشارع كيف هذا يتلاءم مع الواقع؟

وهذه قضية حتى شرحت بعضها للأسف في تويتر فرد علي من رد أنت تتكلم كلامًا يعني غير مفهوم، وهي قضية أن الأمر القدري لا يعطل الأمر الشرعي، لا يجوز الاحتجاج بالقدر على إبطال الشرع وهذه الناس يظنونها فقط في العقائد، ويظنونها في المواعظ، لا يجوز للمرء أن يحتج بالقدر على أبطال الشرع، ومعروف كلام ابن تيمية في التدمرية حول هذا، وموجود في كلام الله مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧]، فاحتجوا بالقدر على إبطال الشرع، هذه مفهومة عند الناس، لكن لا يفهمون طرائق تعطيل الشريعة بالقدر من قبل الناس فقهًا وتأصيلاً، ومن ذلك ما سألت عنه الآن، أبين ما شرحته في التغريدات:

لما سأل السائل قال: كيف نمنع تسمية أهل الذمة وقد ذهبت دولة الإسلام منا لا من قبلهم؟ هكذا جاء السؤال مرة، قال: هم يقولون نحن لم نقضي على دولة الإسلام، دولة الإسلام ذهبت –لنفترض الصورة هكذا من غير النظر إلى الهوامش– كانت دولة الإسلام قائمة وكنا نحن النصارى واليهود كنا فيها أهل ذمة،

فذهبت دولة الإسلام ليست منا فلماذا نحن الآن لا نسمى بأهل الذمة؟ ليس لنا دخل؟ نقول لهم: وضربت أنا هذا المثال المشهور وأمثلة كثيرة للفقه كثيراً ما يأتون به ولكن لا يوجد من أصلها بالطرق المطلوبة، الآن هل يجوز لابني الكافر أن يحتج بأنه لم يختر والده ليبطل حكم السبي والغنيمة له في الحرب، يعني لما يدخل أهل الإسلام بلد الكفر ويغنموها يغلبوا عليهم بالقوة والسلاح فيغنموا هذا الولد الصغير، فهذا الولد غنيمة مال في شريعة الإسلام مال، ما يهمنا ماذا يقول المعاصرون، وكثيراً ما غنم أهل الإسلام أطفالاً وهناك من أبناء الخلفاء إنما أخذوا من بنات سبيت وهن صغار فتربينا وهن سبايا فتزوجها الملوك واستولدوا منهن أبنائهم الخلفاء.

فهل يجوز لهذا الابن أن يقول لماذا سبيتي؟ نقول: سيبناك إلحاقاً بأبيك الكافر، فيقول: أنا لم أختر الكفر، خذوا هذه التي اختار الكفر فاسبوه واغنموه، لكن لماذا تغنموني أنا لم أختر، نقول: الأمر القدري لا يمنع تحقيق الأمر الشرعي، هذا كثير في الفقه، فنقول: نحن جاء الشارع ليصف لنا حالة، قال لنا: من هو الذمي؟ الذمي هو من عاش في دار الإسلام بعقد دائم، هذا ذمي، والمعاهد من عاش في دار الإسلام بعقد مقيد بوقت، فإذا لم توجد دار الإسلام خلاص ما في ذمي، هكذا الشارع أمرنا، الشارع قال: إذا وجدت دار إسلام وجد ذمي ما وجدت دار إسلام ما في ذمي.

أنا أتكلم عن الأصل، أما المصلحة والأحكام وغيرها هذا موضوع ثاني، لكن نتكلم عن الأحكام، فهذا من نوعه مما تقدم، فإذن لا يجوز لأحد أن يأتي ويقول: الأقدار تمنع تطبيق الشارع، نقول: أنت أفعل الشرع، ادع، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، خلاص هذا المكلف به، فهذا هو الشارع.

الآن نأتي إلى الأمر القدري، عندما نقول بالأمر القدري الطريقة للتطبيق، الطريقة لمعرفة الأمر القدري أن نخرج النص، ونأتي إلى التاريخ وإلى طرق الأمم في قيامها ضد مغتصبيها وضد محتليها وضد ظالميها ونقول: نتعامل بما تعامل به العقلاء في البشرية، ماذا فعلوا؟ لا نتكلم عن الإسلام ماذا أمر، الإسلام أمرنا بكذا وأمرنا بكذا لا نتحدث الآن، نتحدث في طرائق البشر لنعرف الأمر القدري، لنراه هل يتلاءم مع

الأمر الشرعي أم هو شيءٌ جديد، هذه هي الطريقة التي هي أفضل الطرق، انزع الأحكام الشرعية وانظر بماذا يتعامل البشر في أحوالهم.

وللذكر يا أخوة هذه كلمة قلتها أظن في «الأربعون الجياد» وأقولها الآن: انتبهوا «لعقلٌ سليم خيرٌ من دينٍ باطل، ولأن يبقى الناس بلا دين مع عقلٍ سليم وفطرة سليمة خيرٌ من دينٍ الباطل»، مثال ذلك ما نرى الآن، الآن لو غُزيت بريطانيا ولم يرد فيها مثل مشايخنا، والناس تحركوا بلا دين لا يوجد عندهم إسلام صوفي وليس عندهم مشايخ خربانين وما في عندهم منبطحين، وما عندهم أصحاب المصالح، فقه المصالح والمفاسد كما يتصورها هؤلاء، ماذا سيصنعون؟ كيف يصنعون؟ ماذا صنع الفرنسيون لما غزاهم وغلبهم هتلر، هذا ما نطلبه نحن، فقط.

الآن السؤال: الله عز وجل قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، هذا المكلف به، وهو قال: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤]، التكليف بأن تفعل الفعل هو لك، ما هو الخيار؟ الخيار إبراهيم، سميته هو الخيار على خطى الخليل إبراهيم، إذا أردت أن تذهب سريعاً، ولكن إذا أردت أن تعمل فالخيار بيّن في القرآن ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ هذا هو الخيار، لكن ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هذا تنظيم تشتغل تعمل دعك من النص، لكنه كما يفعل الآخرون.

نعود للسؤال الآن نأتي إليه: لما نقول نحن: نريد من الأمة أن تفعل، طبعًا نحن نريد من الأمة أن تفعل، الآن ما هو قوله هو نسي أن يقول: يقولون لا تورطونا، هذا ليس شغلي هذا فعلك أنت، أنتم بتقصيركم، وأعجبني أحدهم وهو يتحدث قال: الذي يتحدث أنك سرقت الإسلام، يعني قاتلت وفعلت وتحملت كما يتهمون المجاهدين بأنهم هم الذين أفسدوا الأمة!! هو أنت الذي فسدت لأنك تركت الواجب.

وانتبهوا لهذه التركيبة ونبهني عليها أحدهم والحقيقة هي بيّنة ولكن خفية عنا، يأتي واحد يقول: واحد قتل كافرًا مُجمع على كفره في الشريعة وأن دمه مباح ولو قتل لم يقتل به في الشريعة بإجماع أهل العلم، كمن سب الله ورسوله وقتله، فالناس ينكرون ماذا ينكرون عليك؟ ينكرون أنك فعلته منفردًا ولم تكن الأمة معك، من المعيب هو أم الأمة؟ يعني يقول لك: أنت ذهبت لوحدك وتورطت، إذن أنت المجرم لست أنا، أنا ذهبت لوحدي مسقطاً التكليف عن نفسي أنت الذي هربت، فلا يجوز لك أن تتكلم عني، أنت تتكلم

عن نفسك، عندما أذهب لوحدي قائماً بالحكم الشرعي ولو ورطت الأمة، والأمة سكنت حتى جاءها من يدمرها فالأمة المذنبة لست أنا، أنال قمت بالواجب الشرعي، يعني الناس الآن كثيرا ما نسمعهم يقولوا: هذا يا أخي يجب أن تحضر الأمة له، أنت الذي تتكلم أين كنت؟! لماذا أنت لا تتحمل معي؟! هذه الجموع والجماعات التي تنتقد هذا الفعل الفردي، لماذا أنتم لو أنكم تحملتم النتائج كما تحملها الفرد لما بقي وحيداً، وهي بيّنة.

فالقصد: بأننا لما نقول: نقذف بالأمة لا نقذفها إلا بما يكلفنا الشارع بها وعلى طريقةٍ سننية يعرفها الناس، الناس بعد الانتصار يقولوا: ما شاء الله كان بطلاً وهو الذي رفع الراية ومشى أمامنا فثارت، ولكن إذا انهزموا هم وهربوا، حملوا هذا الذي مشى أمامهم حملوه النتائج، والأصل أنكم أنتم الذين خذلتموهم، ويكفي إلى هنا.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والخمسون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلا وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الثامن والخمسون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [البقرة: ٦٢].

كان الكلام في الدرس الفائت قد انتهى إلى علاقة هذه الآية بالتي قبلها، وأننا قلنا: ما قاله أهل العلم بأن طريقة القرآن التربوية أنها إذا ذكرت ترغيباً تذكر بعده الترهيب وإذا ذكرت ترهيباً تذكر بعده الترغيب، ولما تقدم الكلام على حال اليهود بما ذكر الله عز وجل فيهم، في قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾ [البقرة: ٦١]، فكأن الخطاب شاملٌ لكل اليهود وهذا غير صحيح، ولذلك جاءت هذه الآيات تبين الاستثناء.

وقلنا: أن العلاقة بين الآيات مهمة جداً، ويمكن أن تعرف العلاقة من خلال طريقة القرآن الكلية، ومن خلال معرفة شبيه هذه الآية بالآية الأخرى، وقد رأينا أن شبيه هذه الآية في سورة «آل عمران» عندما ختمت ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾ [آل عمران: ١١٢]، فقال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]، فإذن هنا ليسوا سواء نفس الأمر يعني.

وكما نرى هذا في سورة «النحل» في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل: ١٨]، وفي سورة «إبراهيم» قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فعلمنا أن الإنسان لا يمكن أن يقدر على شكر نِعم الله ولا عدها فلذلك هو ظلوم كفار، ولكن هذا من النوع الذي يغفر؛ لأنه ليس هو الشرك المخرج والكفر من الملة.

وهنا كذلك فيما نحن فيه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، أول ما يتبادر لذهن قارئ هذه الآية أو الحافظ لكتاب الله أنه يجد هذه الآية في موطنين أخريين من القرآن الكريم، الموطن الآخر في سورة «المائدة»، والموطن الثالث في سورة «الحج»، وليس هناك كبير إشكال بين هذه الآية وبين آية سورة «الحج»، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧]، ففيها نوع خلاف وذلك بأنها في سورة «الحج» قدم الصابئين على النصارى وفي هذه الآية قدم النصارى على الصابئين.

ولكن الإشكال في سورة «المائدة» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ [المائدة: ٦٩]، فقدم الصابئين ولكنه رفعها، مع أنها في سياق المنصوبات بـ «إن» لأنها معطوفة على اسم «إن»، لم يكن يخطر على بال أحد من أئمة اللغة وممن خبروا وسبروا لغة العرب، أن يعترضوا على القرآن، لم يخطر ببال عالمٍ قط مهما بلغ شأنه، أن يعترض على لغة القرآن؛ لأن القرآن هو حجة اللغة، ولا يحتج باللغة على القرآن، ولكن الجهلة اليوم وقبل اليوم في انتشار الجهل بلغة العرب اعترضوا على هذا وحتى إن بعض النصارى من المعاصرين ممن تسوق كلماتهم على المساكين من الناس الذين لا يعرفون النحو، ولا يعرفون أسرار العربية فإنهم يأتون بهذه الآية من سورة «المائدة» شاهداً على أن القرآن فيه أخطاء نحوية، كيف يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ [المائدة: ٦٩]، وكأنهم يتعاملون يعني مع رجلٍ معاصر من معاصريهم، ولا يتعاملون مع هذا الكتاب العظيم الذي بهر العرب وأعجزهم وجعلهم يسجدون لبلاغته وحكمته وقوته وجزالته.

وننبه إلى أن هذه طريقة الجهلة، وهذا نراه حتى في داخل الصف الإسلامي ليس بهذه المستوى من الاعتراض، لكن نرى الاعتراضات على كلام أهل العلم بمثل هذا النوع، نرى بعض المعاصرين ممن يتسمون

بالفقهاء أو يتسموا بالمجتهدين أو يتسموا بالمفكرين، يعترضون على طريقة الأوائل في باب من الأبواب، دون أن يعرفوا سر كلام الأوائل، انتشار كثير من المعترضين في أبواب متعددة، يعني عندما يأتي جاهل ويقول: ليس هناك نظرية نقدية للأدب عند العرب، هو جاهل لا يدري؛ لأنه يتعامل بما يتعامل به الأطفال في موضوع الدراسات الأكاديمية حول مسألة من المسائل، يعني يتعامل كأنه طفل، أين النظرية كأنه يتعامل مع قوم أي العرب القدماء الأقحاح والعلماء الفطاحل الجهابذة يتعاملوا ممكن يتعامل مع الطفل الصغير أنه يضع له القواعد الصغيرة ليمشي عليها، ولا يدري أن العلماء عندما تكلموا في العلوم العظيمة، تكلموا على مستوياتهم، فكان سر العلم بينهم موجود، وبذلك يتفاضل الناس قديمًا.

وكذلك اليوم تجدون اعتراضات على طرق محدثين، لماذا وضع مسلم هذا الحديث، لماذا وضع البخاري هذا الحديث، لماذا أنشأ العالم الفلاني كتابه على هذه الطريقة، هذه الاعتراضات بدل أن تُنشئ أسئلة كما أنشأت عند علمائنا أسئلة عندما يقرأون هذه الآية أنشأت أسئلة جميلة ورائعة أدت بهم إلى استنتاجات راقية وذوقية وعلمية وقيمية، لماذا وضع النصارى هنا قدمت لماذا أخرت النصارى عن الصابئين في «الحج» لماذا رفعت في سورة ... إلخ؟ فلم يكن سؤالهم من أجل أن ينتقدوا، من أجل الانتقاد السلبي، ينبغي حين تسأل أن تبحث لعلمك أساساً أن وراء هذا الأمر سر فيجب عليك أن تبحث، لماذا؟ لأنك تتعامل مع كمال، مع القرآن مع كمال ومع البشر من أمتنا في أذواقهم العلمية وقواعدهم العلمية تتعامل مع قمم، لم يصل الناس إليها اليوم، وإذا كان للقدماء كأبي عمرو بن العلاء إمام من أئمة اللغة يقول: «ما نحن في من مضى إلا كبقلٍ صغير أمام جذوع شجرٍ كبار»، أو كما قال، أي إذا كان الرجل فطحل عظيم كأبي عمر بن العلاء وهو إمام من أئمة اللغة يصف نفسه أمام الأوائل كالبقل وقد تقدم ما هو البقل، مما لا جذع له، كيف إذا نبت حول الشجرة العظيمة الباصقة فيكون صغيراً هكذا نظروا إلى أنفسهم، فكان دورهم هو التفسير، التعليل، لماذا؟ وليس الاعتراض؟ واليوم الجهلة يعترضون.

وطبعاً لا يوجد مسلم على ظهر الأرض يعترض على القرآن، لا يمكن إنما يبحث كما يبحث الأوائل فقد يهتدي إلى أشياء جديدة، وقد يرجع إلى كلام العلماء فيهتدي بكلامهم، لأن المسلم يعلم أن هذا هو كلام الله عز وجل والله عز وجل قد أتم كلماته صدقاً وعدلا، وأنه أحكم هذا الكتاب كتاب عزيز ومحكم ومفصل ومكنون كما وصفه الله عز وجل بهذه الأوصاف، فدورنا أن نبحث لماذا؟ أولاً: ما هو توجيه، هذا

ربما كان ينبغي أن نؤخره إلى سورة «المائدة»، حين نصل إليها، لكن لا شك أن كثير من الأسئلة تنشأ في الابتداء عند وجود المثيل، وهنا لابد أن نصل إليها.

طبعًا لا يوجد هنا اعتراض على هذه الآية، لأن ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ هنا منصوبة لأنها معطوفة على منصوب، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فالذين هو اسم إن المنصوب ثم ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾، كذلك منصوب وكذلك ﴿وَالنَّصَارَى﴾ منصوب، ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾، منصوب فلا يوجد، أي هي على ما يعرف من النسق.

ولكن في سورة «المائدة» جاءت كلمة الصابئين مقدمة، وجاءت مرفوعة، ولماذا مقدمة؟ نأخر الكلام عليها لأن البلاغة فرعٌ من فروع النحو، فالكلام عند أهل العلم كثير وأنت تقرأ كلام أهل العلم تفرح أنها جاءت لذلك حتى تفجر العلم، يعني مرات يكون -لا نقول هنا خطأ- لكن مرات تكون الكلمة على غير الجادة المعهودة المطروقة ليس على غير الجادة الصحيحة -انتبهوا إلى الفرق بينهم- أن تكون الكلمة أو يكون الفعل على غير الجادة المطروقة المعهودة، خير من أن تأتي على طريق الجادة المعروفة، لماذا؟ لأن مجيء الكلمة على طريق الجادة المعروف والمشهورة لا تنشئ تساؤلاً، هكذا هي، لكن أن تأتي الكلمة على غير الجادة المطروقة المعهودة الشائعة تُنشئ الأسئلة، فتتمنى مرات أن تأتي الكلمة على غير الجادة لتُنشئ هذه الأسئلة فتحصل الإفادة.

والحال أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يحبون الأعراب لأنهم يجرؤون على الأسئلة ما لا يجرؤوا هم عليها لأن الله عز وجل أمرهم ألا يسألون، أن يكفوا عن السؤال حتى تنزل الآيات.

والأمر يسير، هناك مسالك لأهل العلم في سبب رفع الصابئين في سورة «المائدة» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، فلماذا؟ فبعض أهل العلم وهذا معروف كالإمام مالك رحمه الله في ألفيته جعل هذا نوعاً من أنواع الجواز في اللغة، وقال كلمته، قال في ألفيته: «وجائزٌ رفعك معطوفاً على منصوب إن بعد إن تستكمل»، جائز، قال: هذا في اللغة يجوز، ولهم شواهد كثيرة أنه يوجد هذا في كلام العرب، أنه يجوز رفع المعطوف على منصوب إن، اسم إن منصوب، فإذا عطفت على منصوب إن جائز لك أن تنصبه على طريقة الجادة المعهودة في أن المعطوف من التوابع، فإذا كان معطوفاً على منصوب فهو منصوب، وإذا كان معطوفاً على مرفوع فهو مرفوع، فإذا جاء هكذا فهو على الجادة المطروقة،

ولكن جائزٌ رفعك إياه، لا يتكلم عن جائز رفعك اسم إن وإنما المعطوف على اسم إن وجائزٌ رفعك معطوفاً على منصوب إن –منصوب إن يعني اسمها– بعد أن تستكمل، أي بعد أن تستكمل الجملة آياتها فهذا وجه من وجوه كلامهم، فلذاك الأمر ليس غريباً وقال: هكذا الطريقة.

الآخرون ذهبوا مسالك متعددة أكثر من رأيته جمع فيها هو الآلوسي في تفسيره، ذكر خمسة وجوه تقريباً في لماذا هذه مرفوعة؟ وأشهر ما ذكر غير ما تكلم به الإمام مالك رحمه الله أشهر ما ذكر أمران:

الأمر الأول: أنها هذه معطوفة على مِحل اسم إن، كيف؟ يقول: الأصل في اسم إن أنه مبتدأ ودخل عليه الناسخ، إن من النواسخ ككان يعني ماذا غيرت؟ دخلت على الجملة الإسمية فأحدثت فيها أثرها، مثل: الرجلُ جميل، مبتدأ وخبر، لكن لما دخل هذا الناسخ إن فجعلت الأول وهو المبتدأ جعلته منصوباً، إن الرجلَ جميلٌ فنسخته، فما هو مِحل اسم إن قبل دخولها، مِحله هو الرفع، الرجلُ جميل، فقال: هذه معطوفة على مِحل اسم إن يعني قبل دخول الناسخ عليها هذا وجه.

الأمر الثاني: الوجه الذي اختاره سيبويه قال: هذا مقدم في الذكر مؤخرٌ في الواقع لأن الواو هنا استئنافية، الفرق، هنا يقول: في «سورة المائدة» الواو ليست عاطفة، ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾، ليست معطوفة على ﴿الْيَهُودُ﴾، ولا على ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وإن كانت مقدمة في الذكر فالتقدير إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى هنا واو استئنافية والواو الاستئنافية يعني استأنفت في الخطاب فما بعدها مبتدأ، هذا فرق، فقال: الأصل أن نقول: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى انتهينا، والصابئون.

وهذه أشهر ما قيل والباقي كله تفنن، إذن هذه ثلاث أقوال هي أشهر ما قيل وأسلم ما يقال:

القول الأول: أن هذا جائز في لغة العرب، أن المعطوف على اسم إن يجوز فيه الرفع ويجوز فيه النصب وهو الجادة أو على خلاف الجادة.

القول الثاني: أنها معطوفة على مِحل اسم إن قبل دخول الناصب.

القول الثالث: بأنها مؤخرة فتكون الواو استئنافية.

فهذه أقولهم، وهذا سهلٌ جداً في اللغة وموجود له الشواهد، لكن السؤال وهو الأهم لماذا جاء هذا التغاير؟ تخريجها على طرائق النحويين ليس بالصعب، ولم يجدوا فيها مشقة في ذلك، لكن البحث ما وراء ذلك، لماذا جاء والصابئون هنا؟ هناك اتفاق مع افتراق، الاتفاق على أن هذا الرفع يوحي بالتغاير، أنت تمشي في طريقٍ مسلوكة ففورًا يظهر لك شيء غريب، فيستوقفك، فقال هؤلاء: الواو هنا وضعت بهذه الطريقة على كل ما قيل، إما أنها جرت على غير الجادة مع وجودها في أنها مرفوعة لأنها معطوفة على اسم إن، وإما أن يقال بأنها الواو ابتدائية، فلماذا تقدم؟ لأمر، فهي على غير الجادة المطروقة، فإذن هي لابد أن تسترهق، قالوا: هذه من أجل أن تصنع سؤالاً، لماذا؟ هنا وقع الخلاف بينهما وفي الحقيقة القرآن يحتمل هذين المعنيين ونحن قلنا أكثر من مرة: بأنه لا يوجد آية في القرآن لها تفسيرٌ واحد، ولا تفسيران في الحقيقة بل أكثر بكثير، وهذا من هذا، هذا ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ هنا في سورة «المائدة» لوجوه متعددة.

هذا الاستدراك الذي تصنعه الآية في رفع الصابئين على غير الجادة، لابد أن توقفك للسؤال، وعلى قولين قد اشتهرا، القول الأول: بأن هذا ليؤكد لك بأن الصابئين مع غرابة دخولهم إن أحسنوا دخلوا –هذا قول أعيده– قال: العادة الصابئون لا يدخلون في الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأن المشتهر من الصابئة أنهم عبدة الكواكب، وسيأتي معنى الصابئين، فالذي في الذهن أن الصابئين لا يدخلون فيمن عمل الصالح وآمن وكذا، فهو شيءٌ مستغرب، فأن يدخله هنا ليقول لك: إنهم قد دخلوا إن آمنوا وعملوا الصالحات، فمع غرابة شأنهم إن فعلوا على خلاف ما استقر من حالهم من عدم إيمانهم إن عملوا الصالحات دخلوا هذا وجه.

والوجه الثاني مخالف كلياً لهذا المعنى للمسلك الآخر، حتى لا يدخلوا في جزم إن، فالأول ليؤكد أنهم يدخلون انتبه هم يدخلون مع قلة ما يذكر عنهم، إن فعلوا دخلوا.

القول الثاني: ليخرجهم من تأكيد إن فإنهم لا يستحقونها، إن الذين آمنوا والذين هادوا قال والصابئون، الصابئون لا يستحقون الدخول في إن هم يدخلوا في من آمنوا وعملوا الصالحات فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لأنه لا يوجد في سورة «المائدة» ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، بل هذه الكلمة ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ

رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢]، لا توجد إلا في سورة «البقرة»، ولا توجد في أي سورة أخرى فقط ذكرت في سورة «البقرة» في خمسة مواطن، أما لماذا ذكرت في سورة «البقرة» هنا ولم تذكر في سورة «المائدة» سنأتي لهذا.

إذن قال: لعدم استحقاق دخولهم في تأكيد إن لأن فيهم الأمر أقل فارتفعوا كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧]، لماذا آخر إسماعيل، لماذا أخره؟ أخره لعدم استحقاقه في دخول بناء البيت كأبيه، فلو قال الله: وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل لعلمنا أن الرفع منهما سواء على مرتبةٍ واحدة أو قريبة، لكن هذا التأخير إنما وقع من أجل أن يقول لك: إن الذي يرفع البناء والقواعد من البيت هو إبراهيم وإسماعيل يدخل تبعاً فأخره كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]، فلماذا أخره؟ أخره لئلا يظن أحد أن البراءة من الله عز وجل كالبراءة من الرسول، أو براءة الرسول من رجل هي كبراءة الله عز وجل منه، هل يمكن أن تقع بعض البراءة الجزئية البشرية الجبلية من الرسول لأحد الناس جزئية لا أقول كلية، الكلية لا تقع إلا على معنى البراءة منه كافراً، لكن يمكن أن يبرأ منه براءةً جزئية، أن يبرأ من فعله، لما طرد النبي صلى الله عليه وسلم وحشي قال: (لا أراك)، يجلس خلفه، فيمكن أن تقع براءة الرسول صلى الله عليه وسلم من رجل أو من أحد على جهة الجبلية والخلقة والمشكلة الذاتية، لكن لا يمكن أن تقع براءة الله عز وجل من عبد من عبيده على هذا المعنى، فالفرق بينهما واضح.

فإذن هذا الافتراق من أجل أن يدلك على الخلاف، فلئلا يدخل الصابئون في تأكيد إن رفعوا، انظر هذا المسلك، رأينا أن المسلكين أن كليهما ينبأن أن هذا الرفع يثير التساؤل لكن إلى أي جهة، إما أن يشير إلى هذه الجهة أو يشير إلى هذه، هل هذا المعنى صحيح؟ كلاهما يحتمله.

هناك مسلكٌ ثالث لهذا الرفع، وقاله صاحب «ملاك التأويل» وهو الغرناطي، وكتاب الغرناطي في الحقيقة يقول فيه أنه رد على الملحدين فكأن هناك في عصره نشأ من الإلحاد في عدم الفهم لهذه الآيات على أي وجهٍ سيقت فرد عليهم، وكان هذا الرد دائماً أن الشر ينتج الخير، لولا الشر ما نتج الخير، كما يقول ابن حزم: «لولا خصومي ما كتبت كلمةً»، وقال ابن تيمية: «إن الله نصر الأنبياء بوجود خصومٍ لهم»، وقال تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾ [الفرقان: ٣١]،

قال: لماذا وضع ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، في أنه جعل له مجرمين من الأعداء؟ لأن وجود الاعداء هو نصر، لأنه لولا وجودهم ما تحقق اسم النصر، وجود الخصومة مهم.

القول الذي سلكه الغرناطي، والآن مضطرين أن نأتي إلى الثلاث آيات في البقرة وفي المائدة وفي الحج، قال: لما كان الترتيب على جهة القدرِ وهو أن هناك أمة لها كتاب، وهناك أمة ليس لها كتاب، فجاء الترتيب على قدر الأقدار والشرف كان هذا هو موطن سورة «البقرة»، فالترتيب على أي قدر في سورة «البقرة»؟ على قدر شرف الأقوام، من أول؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى﴾ [البقرة: ٦٢]، على شرف الأقدار، الصابئون ليس لهم كتاب، قال: فشرفهم أقل، فالترتيب على شرف الأقدار، والنصارى تبع لليهود.

ولما كان الترتيب في سورة «الحج» على مرتبة الزمن وليس الأقدار تقدم الصابئون، لأن الصابئين قبل، وسيأتي تفسير الصابئين، فقال: فتقدم الصابئون في سورة «الحج» لأن الترتيب ليس على قدر الشرف ولكن على الزمن، فراعى القرآن قال: جاء في سورة «البقرة» في الذكر الترتيب على القدر، في الزمن متى حدث هؤلاء، فذكر الصابئون قبل في سورة «الحج».

وفي سورة «المائدة» جاء الترتيب على أهمية ما قاله في سورة «الحج» مع مراعاة المرتبة، وكأن الأمر حد أول وحد ثاني وحد وسط، الحد الأول: على القدر، الحد الثاني: على الزمن، الحد الثالث: راعى الزمن مع مراعاة القدر، راعى الزمن في أنه قدم الصابئين ولكن راعى القدر، فأجرى النصارى على الطريقة المعهودة ورفع الصابئين ليقول: موطنها في الزمن كذا ولكن موطنها في القدر متأخرة، من أجمل الكلام وأفضله، ويكفي إلى هنا والكلام في هذا الباب طويل وجميل في كلام أهل العلم ولكن هذا إن شاء الله فيه مجمل ما قالوه وخلاصة ما أتوا به من الكلام الطيب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [البقرة: ٦٢]، اليهود من أين أخذت؟ هل هو اسم علم هكذا ليس بمشتق من مصدر ولا من فعل، أم لأنهم هادوا، قالوا: هُدنا إليك فسمو يهودًا؟ وهذا قول قوي أنهم قالوا: هُدنا إليك يا ربنا، أي قد اهتدينا إليك، قد مشينا إليك وسلكنا سبيلك وأمرك فسموا يهود،

وقيل لاسم من أسماء أجدادهم ونسلهم وقيل غير ذلك، والذي عليه هو القول الأول وهو الأكثر، لأنهم قالوا: هُدنا إليك، وبقي هذا الاسم عليهم.

قال تعالى: ﴿وَالنَّصَارَى﴾، النصارى كذلك وقع الخلاف لماذا سموا كذلك؟ وقيل لاسم مدينة عيسى عليه السلام الناصرة، وهذا اسمٌ قديم، هذه المدينة قديمة واسمها الناصرة، فلأنه فيها واتباعه اجتمعوا فيها فسموا نصارى على هذه الناصرة، وقيل لأنه قال لهم: قال تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، فسمو نصارى من نصرتهم لعيسى عليه السلام، وكلا الوجهين جائزٌ في الأمر.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، من هم الصابئون؟ الصابئ في لغة العرب هو المتحول، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يسمى الصابئ يعني الذي غير دين آبائه وتحول عن دين أجداده وقومه، فيسمى الصابئ، قال: صبئ فلان أي تغير تحول، فالصابئون هم المتحولون عن أديانهم، هذا جملةً، قد يكون المتحول عن دينٍ حق فيكون صابئاً إلى الباطل، وقد يكون هذا متحولاً عن دين باطل فيكون إلى دينٍ حق كما تحول الصحابة رضي الله عنهم، كان يسمون بالصابئين لأنهم تحولوا عن دين آبائهم وأجدادهم وعشائرهم إلى دين النبي صلى الله عليه وسلم إلى دين الله عز وجل إلى الإسلام، فيمكن هذا وهذا، ولكن هذا المعنى اللغوي.

والصابئون تطلق في كتب الملل والنحل على من عبدوا النجوم، زعموا أن لهم نبي ولكنهم غيروا وبدلوا، يزعمون أنهم على دين يحيى، وهم في العراق، يقال: بلاد الصابئة هي بلاد العراق، ويقال: لما حدث فيها من كثرة الفتن، نزول الفتن فيهم فتحولوا وكانوا على دين الموحدين ولا شك أن كل قريةٍ نزل فيها أنبياء، ونزل فيها رسل يدعونهم ولكنهم تحولوا إلى عبادة الكواكب، وقيل: إن إبراهيم عليه السلام نزل فيهم، وحوار إبراهيم مع قومه ومع أبيه لما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٦]، فخاطبهم على قضية الكواكب لأنهم كانوا يعبدون هياكل الكواكب، يعبدون الكواكب، فمثل بها أنها تغيب ولا تدوم، وهو يريد رباً لا يزول،

وهذا على جهة الاحتجاج ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾، وليس على جهة التعبد الحقيقي، قال الله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

فإذن الصابئون هل كان فيهم موحدين؟ الجواب: نعم، فيهم موحدون ولكن انتشروا كما في النصارى، الآن لا يوجد نصارى موحدون، ويهود موحدون لا يوجد، دينهم باطل لا يعبدون الله، اليهود لا يعبدون الله، اليهود ماديون يعبدون إلهاً مصورًا في أذهانهم على صورة رجل، هم يرونه رجلاً، ولذلك قال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، لا يؤمنوا إلا بالمحسوس ولكنه يتكلم ربنا سبحانه وتعالى عمن تحقق فيهم ماذا؟ ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٦٢]، وهذا أيها الإخوة الأحبة يفتح لنا باباً من الحديث على بعض النقاط:

النقطة الأولى: دجل بعض المشايخ وكذبهم على الله عز وجل وافترائهم على القرآن، وذلك بزعمهم أن هؤلاء الذين يعيشون اليوم من اليهود والنصارى والملحدين يدخلوا في هذه الآية، وهذا نجده في ضلالهم وهؤلاء فساق وفجرة وكفرة، ولو كانوا مشايخ يكفرون، وهذا لا يحتمل فيه الجهل إلا لمن لا يعرف دين الله، يعني الرجل يعيش في غابات لم يصله إلا كلمة الإسلام فأمن بها ولا يعرف تفاصيل الدين ويظن أن النصارى يقولون قوله، لو تصورنا أن رجلاً يعيش في غابات الأمازون أو في ادغال أفريقيا فوصله هذه الكلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ويظن أن اليهود يقولونها ويظن أن النصارى يقولونها فهو يصوب دينهم، لأنه يظن أنهم على الدين الذي يؤمن به فيتصور فيه الجهل، ليس لجهله بالتوحيد ولكن لجهله بالأسماء، ماذا يدخل تحتها، فهذا يتصور.

لكن كل من صوب دين اليهود والنصارى ودين أي رجلٍ في الأرض لا يتبع دين محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الزمان فلن يقبل منه، هو لا يقبل منه آمنا ولكن كل من صوبه فهو كافر، هؤلاء الذين يقولون للناس: إن الميزان هو أن تؤمن بالله على طريقتك أنت المهم أن تؤمن بالله لأن النصارى يقولون: نحن نؤمن بالله، واليهود يقولون: نحن نؤمن بالله، ويسمونها الأديان الإبراهيمية الآن، يكذبون، الذين يتكلمون عن الدين التوحيد يزعمون حتى توت عنخ آمون أنه موحد، ويزعمون أنه أقدم من أتى بالتوحيد هم الفراعنة، على ما تكلمنا عنه في الدرس الفائت، ويزعمون أنهم أتوا بالتوحيد.

ما التوحيد عندهم؟ أن يقال: إن الله واحد، النصارى يقولون: الله هو الأب والابن والروح القدس ماذا؟ إلهاً واحداً، حتى في التصور لحقيقة الإله الواحد لا يتصورونها تصورًا إسلامياً، ولكن التوحيد عندنا في قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٢]، أي من وحد الله في عبادته، ليس فقط وحد الله في ذاته وأسمائه وأفعاله، هم ماذا يقولون التوحيد؟ توحيد الله في الذات، توحيد الله في الأفعال، توحيد الله في الأسماء، هذا هو التوحيد، هذا توحيدٌ يسمى عندنا بتوحيد الربوبية، وهو إفراد الله بالقدم، وإفراد الله عز وجل بالإنشاء، ما أحد أنشأ غير الله في هذا الوجود، وإفراد الله عز وجل بالإمداد، وإفراد الله عز وجل بأسمائه التي اختص بها دون بقية البشر، فهذا توحيدٌ لا يسلم المرء إلا به ولكنه لا يكفي لنجاة المرء من جهنم، لابد أن يعبده ولا يعبد سواه، فلو نسب هذه الصفات لله وعبد غيره لأشرك، أقول هذا من المقرر عند طلبة العلم، لكن أقول حتى اليهود والنصارى اليوم لا يوحدون الله في ربوبيته، لا يوحدونه لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله لا يوحدونه.

مثلاً: من ينسب إلى الله عز وجل أنه أب ابن روح القدس، من ينسب إلى الله عز وجل الأقاليم هذا لم يوحد الله، وإن زعم أن هذه الثلاثة واحد، الله ذكر عن بعض اليهود وليس كل يهود، اليهود اليوم لا يوجد أحد منهم يقول: عزير ابن الله لا يوجد، هذه الطائفة من اليهود كانت حول المدينة زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبادت وانتهت، لكن اليهود كيف يشركون بربوبية الله عز وجل؟ تصورهم للرب أنه رجل كبير له لحية طويلة جالس على العرش هذا كفر بأسمائه وصفاته، لا يقدسونه التقديس الذي يليق به جل في علاه.

فإذن الذي يصوب دين اليهود والنصارى اليوم اعتمادًا على هذه الآية هذا كافرٌ بالله ولا يؤمن بالقرآن وهو ليس فقط في المرتبة الأولى من الكفر، الله عز وجل جعل مراتب المعاصي أعلاها ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ [الأعراف: ٣٣]، ما الأعلى من الشرك ما هو؟ قال ابن القيم رحمه الله: الله عز وجل رقى من الأدنى إلى الأعلى في درجات المعاصي أولاً ﴿حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، وأعلى من ذلك ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾، المشايخ الذين يصوبون، ومن يصوب دين اليهود والنصارى اعتماداً على هذه الآية وزعموا أنه المعيار هو الإيمان بالله على

أي فهمٍ كما قلنا، وعلى أي طريقة وترك عبادته وتوحيده ويزعم أنه المهم بالعمل الصالح من يعمل فيدخل في هذه الآية هذا كافرٌ بالله وكافرٌ بالقرآن والله، والله، والله أنه أنجس وأكفر وأكثر شركاً من أبي جاهل وأبي لهب، لأنه يكذب على الله وأبو جهل كان يفرق بين دين محمد صلى الله عليه وسلم الذي أتى به من عند الله وبين دينه الذي يؤمن به، وهؤلاء لا يريدون هذا التفريق، هذه مسألة مهمة جداً.

ولقد تأملت -هذه كتبتها في «صبغة الله الصمد»- ولقد تأملت كل الآيات التي يحتج بها هؤلاء من دعوة وحدة الأديان أو أن النصارى الذين يعيشون بيننا واليهود الذين يعيشون بيننا يمكن أن يدخلوا في آيات الرجاء على ما هم عليه فوجدت كلها باطل، كقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]، الآن يأتي شيخ ويقول: ليسوا سواء، نقول: نعم اليهود والنصارى ليس سواء، وحتى النصارى ليسوا سواء، هناك من النصارى من لا يعاديك نؤمن بهذا، نصارى الفلبين ما شأننا بهم، أو نصارى لا يهتمون بمقاتلة المسلمين ليسوا سواء، لكن لما قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣] ماذا قال بعدها؟ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٣]، من هؤلاء؟ ومن أين تأتوا بهم؟ كمل الآية يا عبد الله، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

فلما تأتي إلى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أكملها، ما وجدت آيةً فيها مدحٌ لهم إلا آية واحدة، وهذه تليق وبقيت مفتوحة للنصارى في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ممن أسلم وممن لم يسلم، ممن أسلم صار مسلماً، وانتهت كلمة النصارى عنه وله أجران النصراني واليهودي إذا أسلم له أجران، لأنه أمن بنبيه، ثم أمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فله أجران، ففقط آية واحدة تتحدث عن مدحٍ فيهم وهي قول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فقط هذه الآية يمكن أن تطبقها الآن على أي نصراني أو أي يهودي أو أي مشرك من المشركين فهؤلاء نعم منهم من تستأمنه بدينار فيجحده كما هو شأن اليهود وأغلبهم والأصل فيهم ذلك وبعضهم من تأمنه بقنطار فيؤديه إليك هذا تابع لخُلُقه وتابع لسلوكه وتابع لما يؤمن به من دينه، أما اليهود ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، هم أصلاً يعني يرون الجواز الربا من «الغوييم» من الأميين وغير ذلك.

أما كل الآيات وقد رجعت إليها واحدة، واحدة، كلها على الشيخ أن يكملها فإن أكملها أبطلت حجته في نسبة هذه الآية التي تمدح طائفة من أهل الكتاب ممن يعيشون بيننا، لا يجوز هذه آية الذي يحتج بها كما قلنا على ما يقولونه من تصويب أديان النصارى واليهود والمشركين في زماننا وأن الرجاء محتمل أن يقع عليهم هؤلاء كفرة، يقولون على الله ما لا يعلمون، وإن كانوا مشايخ هؤلاء من أكلت السحت.

النقطة الثانية: أن هذه الآية تبين لنا أولاً: أن الشعار شيءٌ مهم، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، فهذه تسمية الله عز وجل ونحن نعلم أن المصطلحات إن كانت عرفية جاز التغير فيها، قد يكون عرف عام قد يكون عرف خاص، قد يكون عرف لأهل المدينة كلها وقد يكون عرف خاص للنحاسين والحدادين وأهل الدباغة، لهم أعراف خاصة، لهم كلمات خاصة يقولونها ألفاظ، وقد تكون أعراف لكل الأمة وقد تكون أعراف خاصة، مثلاً: الآن كلمة لن أكل لحم، فإن الناس في أغلبهم لا يطلقون على السمك اللحم، لو قلت له: ماذا أكلت؟ فيقول لك: لحم لا يخطر على باله أنك أكلت سمكاً، مع إنه ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]، هو لحم ولكن عموم الناس لا يطلقون فهذا عرف.

فالأسماء إما أن تكون شرعية، يعني لا يجوز لأحد أن يأتي ويقول: الصلاة رياضة روحية هذا يضرب على رأسه حتى يخرج الشيطان من رأسه، لا يجوز، الصلاة هي الصلاة، والصوم هو الصوم، فالأسماء القرآنية والنبوية يجب أن تبقى على ما هي عليه، لماذا؟ لأن تغيير الأسماء على غير ما هي عليه يؤدي إلى التلاعب بكتاب الله، وانظروا إلى عدم فهم الإيمان فهماً صحيحاً كيف صاروا ينزلون الآيات والوعود على الإيمان الذي هو في أذهانهم وليس الإيمان الذي هو في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النور: ٥٥]، اذهب لجماعة معينة جماعة يقول لك: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أنا علي أن أرتب إيماني ترتيباً خاصاً، أقوم الليل أكثر الذكر فيحصل لي الوعد، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، لماذا؟ لأنه يفسر الإيمان تفسيراً باطلاً فأنزل آية الوعد عليه وهو لا يستحقها لماذا؟ لجهله بكلمة الإيمان فبقاء الأسماء على ما هي عليه واجبٌ شرعي لئلا يؤدي إلى تفسير القرآن تفسيراً باطلاً، فالأسماء يجب أن تقر على ما هي.

فالله عز وجل قال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، لا يجوز لنا أن نسمي أنفسنا بتسميةٍ أخرى، بالمحمديين مثلاً، لا يجوز أن نقول هذه أمة المحمديين، هذه يطلقها المستشرقون يقولون عنا المحمديون؛ لأنهم يقولون: هذا الدين من عند محمد، ولا يريدون أن يوصلونه إلى مرتبة ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، لا يريد أن يوصلنه أن هذا الدين الرباني فمن تعلق به ربانياً كونوا ربانيين، ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾، فالتسميات قرآنية، فالمتقين تسمية قرآنية، فلا يجوز لأحد أن يغير.

هذه الأسماء الموجودة اليوم لا حجة لإبقائها، يعني لما الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، هذا كلامٌ عمن لم يبلغه دين محمد صلى الله عليه وسلم، من لم يبلغه ماذا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم من لم تبلغه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من أمن بالله واليوم الآخر هذه فقط تنزل عمن لم تبلغه الشريعة، وأما من بلغته الشريعة فلا يقبل منه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ [آل عمران: ٨١]، أخذ الميثاق على من؟ على أئمة الأمم وهم الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ [آل عمران: ٨١]، فالله عز وجل أخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا أي الأنبياء، فبالتالي أن يؤمن أتباعهم.

ومحمد صلى الله عليه وسلم بشر به الأنبياء وطلبوا من أممهم ومن أتباعهم أنه إذا جاء الرسول صلى الله عليه وسلم آمنوا به، فلما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم كانوا كافرين بأنبيائهم لأنهم خانوا العهد الذي دخلوا به دين رسلهم.

إذن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾، هذا كله هذا قبل دين النبي صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لأحد أن يتسمى لا بيهودي ولا نصراني، لا يجوز لأحد، إنما هو الآن الذي يجمع الناس هو الإسلام، طيب لماذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾؟ وهؤلاء آمنوا يعني الذين هادوا منهم من آمن وعمل صالحا ومن النصارى من آمن وعمل صالحا، الذين اتبعوا عيسى عليه السلام من

الحواريين آمنوا وعملوا الصالحات، بنو إسرائيل منهم أمة مقتصدة منهم آمنوا، والصابئين منهم من ترك دين الباطل لدين النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم من كان على دينه الأول إذا اعتبرنا أن أصلهم هو أتباع دين يحيى عليه السلام، قلنا: إنهم ينتسبون إلى يحيى عليه السلام، فلماذا قال في أولها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؟ ليدخل فيها كل من انتسب إلى الإيمان، ويمكن تخصيص ذلك بالمسلمين أي أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن هذا علينا أن ننبه عليه أن هذه الأسماء بادت وانتهت والله عز وجل لم يقبل لنا إلا اسم الإسلام.

الأمر الأخر بأن هذه الأسماء انظر كأساسٍ أولي علوي لا ينبغي أن يسمى إلا الإسلام لكن هذه أسماء تشير لك إلى معنى بأن الناس تنوعت أسماؤهم، فيمكن للناس أن يتسموا بأسماء داخلية لا تؤثر على انتمائهم للاسم الكلي الكبير، كما سمى الله عز وجل أنصار ومهاجرين، فهذا اسم موجود، فقد يوجد اسم خاص ولكنه لا يؤدي إلى الولاء الباطل، وإنما يؤدي إلى الولاء الحق الذي يريده الله عز وجل.

فمثلاً: لما تداعى الأنصار والمهاجرين إلى أسمائهم لفعلٍ باطل، وقالَ الأَنْصَارِيُّ: يا لَلْأَنْصَارِ، وقالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يا لَلْمُهَاجِرِينَ، ماذا قال صلى الله عليه وسلم؟ (ما بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ)، وقالَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (دَعُوهَا؛ فإنَّهَا خَبِيثَةٌ)، بالرغم أن الاسم شرعي وقرآني لكن لأن المقصد باطل فنفاه الشارع وسماه: بدعوة الجاهلية، وقال صلى الله عليه وسلم: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم)، فنهاها، ولكن إذا سميت أسماء على هذا المعنى فلا بأس، وهو أن تكون داخل الولاء الإسلامي العظيم فلا بأس أن يتسمى كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فهي قيمة تعارفيه، فيجوز أن يتسمى أناس بقيمة تعارفيه ما على هذا المعنى الذي تقدم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، نحن نؤكد دائماً على أن ركن الإسلام وركن الشخصية الإسلامية هو الإيمان واليوم الآخر واتباع الرسول، ركن الشخصية المسلمة ثلاث أركان:

أولاً: الإيمان بالله الذي يؤدي إلى تجريد العبادة إلا لله، وإخلاص المرء وألا يكون عبداً إلا لله.

ثانياً: أن يكون مقصده في عمله الدار الآخرة.

ثالثًا: ألا يكون سبيله في الاتباع إلا النبي صلى الله عليه وسلم، هذه أركان القرآن المكي، وهي أركان الشخصية المسلمة.

قال تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة: ٦٢]، في موطنين فقط -امتحان لكم للحفاظ- في موطنين فقط جاء قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا﴾ مفعول مطلق وهي للتأكيد، المفعول مطلق يأتي للتأكيد، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)﴾ [النساء: ١٦٤]، مفعول مطلق جاء للتأكيد، ولتقطع الظنون فيما حصل، هذه يستدل بها أهل السنة على أنه حصل كلام حقيقي، والدليل هذا التأكيد ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، فهنا في موطنين في القرآن قال تعالى: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾:

الموطن الأول: في سورة «الكهف» في خاتمتها، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

الموطن الثاني: في سورة «الفرقان»، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، فقط في هذين الموطنين.

لماذا جاء هذا التأكيد؟ نحن قلنا: هو تأكيد لأنه مفعول مطلق، والمفعول المطلق يأتي للتأكيد، السبب هو أن هذين الموطنين ذُكر فيهما أمرٌ خاص من الجنة، ففي سورة «الكهف» تقدم ذِكر الفردوس هذا خاص، ليس الجنة بالعموم هنا ذُكر خاص من الجنة، ذِكرٌ خاص لما في الجنة وهو الفردوس، وأما في سورة «الفرقان» فذكرت لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥]، فلما كان في هذين الموطنين ذكرٌ خاص لموطنٍ خاص في الجنة احتاجت إلى عملٍ خاص، وهو الإكثار منه والتأكيد عليه عمل عملا صالحا، والبقية عندكم.

قال تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢]، قلنا هذه لا توجد إلا في سورة «البقرة»، ولذلك لو قارنا بين هذه الآية وبين آية سورة «المائدة» بعد ما انتهينا من قضية رفع الصابئين، ولماذا لم يأتي قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢]، في سورة «المائدة»؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)﴾ [المائدة: ٦٩]، ما قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، السبب نرى الرحمة في سورة «البقرة» أكثر وأوسع من ذكر الرحمة في سورة «المائدة».

وللذكر في سورة «المائدة» كان هناك ذكر لليهود وذكر للنصارى لكن من أكثر ذكراً في سورة «المائدة»؟ النصارى، في سورة «آل عمران» من أكثر ذكراً؟ النصارى، اليهود في سورة «المائدة» قلة، ربما ذكروا ولا أذكر الآن، لم استقرائها، ولكن في سورة «البقرة» ذكر النصارى قليل، في سورة «البقرة» الذكر لمن؟ أغلبه كما نرى في بني إسرائيل ولما جاء ذكر بني إسرائيل وذكر النصارى في سورة «المائدة» أشد ما يذكر بل لم تجمع كلمة ﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ في موطن واحد إلا في سورة «المائدة»، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠]، جمع كلمة ﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ لا توجد إلا في سورة «المائدة» فقط، ففي سورة «المائدة» فيها تشنيعٌ شديد على اليهود والنصارى، وذكرٌ شديد بما هم فيه، بخلاف ما ذكر في سورة «البقرة»، ليس فيها هذا التشنيع الشديد الذي نراه في ذكر كفرهم وضلالهم وإجرامهم في سورة «المائدة».

فالصورة الكلية لسورة «البقرة» فيها غلبة الرحمة، وكلمة الرحمة في سورة «البقرة» ذكرت أكثر من أي سورة أخرى في القرآن، وذكرت أكثر مما ذكرت في سورة «المائدة»، فسياق وصياغة سورة «البقرة» يغلب فيها الرحمة، وسياق وصياغة سورة «المائدة» في التشنيع على اليهود، ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾ [المائدة: ٧٨]، أين هذا كله؟ في سورة «المائدة»، ولذلك هذا لا يناسب أن يقول: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، خف، الميزان هناك خف.

وهذا كله يعيدنا إلى النقطة الأولى، لماذا تتغاير السور؟ من أجل أن تفكر، هذا دعا العلماء إلى أن يفكروا وأن يجمعوا وأن يروا أين هذه ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، أين هي، ماذا أنتجت؟ أنتجت قراءة كليا للسورة، وهذا الباب مهم جداً في أن تعرفه من أجل أن تقرأ الآيات بهذا المعنى وأن تستوقفك، يعني الآن رأينا ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، رأينا أهميتها، وهذا كثير في القرآن.

مثلاً: في قضية الرفع والنصب أنت تستوقفك لماذا جاءت ﴿الْأَيْمَنِ﴾ مكسورة في سورة «مريم»، قال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، وفي سورة «طه» قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠]، جاءت بالنصب، لماذا؟ لأن الصفة الأيمن هي الصفة للجانب، الأيمن صفة للجانب وليست للطور، تقول: جانب أيمن وجانب أيسر، فإذن أيمن تذهب إلى كلمة الجانب أو الأيسر إلى جانب، فلما كانت جانب دخل عليها حرف الجر ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾، من جانب في سورة «مريم»، دخل عليها حرف الجر؛ فكانت الصفة لها ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾، لأنها صفة لها، لكن في سورة «طه» لم تكن مجرورة بل كانت منصوبة أي كلمة جانب كانت منصوبة فكانت ﴿الْأَيْمَنَ﴾ صفة لها منصوبة، وإن كان جرى على مجرى الجادة المعهودة ولكن يدعوك للتفكر.

ومثال هذا: وكله مما تكلم فيه أهل العلم في سورة «البقرة» لما بين الله عز وجل: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)﴾ [البقرة: ٢٧٢]، أما تستوقفكم هذه؟ الأولى والثالثة بزوال حرف النون لماذا؟ لأنها مجزومة، ﴿وَمَا﴾ لأن ما هنا شرطية، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾ فشرطية فمجزومة، لكن ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ﴾، هنا نافية والنافلة لا تجزم، ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾، هنا ﴿وَمَا﴾، أي لا تنفقون من شيءٍ إلا لوجه الله بخلاف الأولى ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾ أي شيءٍ تنفقوه فتجدون خيره إما لأنفسكم أو عند الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢]، ثم قال جل في علاه: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [البقرة: ٦٢]، تقدم هذا وقلنا بأن الخوف هو لما يأتي والحزن لما فات، الخوف يخاف لما يأتي إما يخاف لشيءٍ معه من أن يذهب أو لشيءٍ يرجو ألا يأتي فالخوف لما يأتي، ولكن الحزن لشيءٍ فات يحزن على شيءٍ فات، لا يحزن على شيءٍ قادم، لماذا يحزن على شيءٍ قادم، كيف؟!! فلذلك القرآن يطمئنهم أنه لن يذهب عنهم شيء فات ولن يذهب عنهم شيء قادم، لن يفوتهم شيء مما مضى ولن يخافوا أن يفوتهم شيء يتحصلونه فيذهب أو لا يتحصلونه أصلاً، فلذلك الخوف مرفوع ويضاده الأمن، والحزن يضاده الفرح، فذلك هؤلاء في حال فرحٍ وأمن.

ولكن لماذا هنا أستخدم كلمة ﴿عَلَيْهِمْ﴾؟ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؟ لأنه ربما يكون الخوف في نفوسهم، ولكن لا يوجد خوف عليهم، فالقرآن يطمئنهم بأنه لا يوجد خوف عليهم من خارجهم، لأن الخوف يقع من الخارج عليهم، والناس قد يخافون ولا يوجد خوف حقيقي، فالقرآن يرفع عنهم الخوف من نفوسهم ويرفع عنهم الخوف من خارجهم، ولذلك الله عز وجل قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٢]، قد تكون آمنة غير مطمئنة نعم، لا يوجد عليها ما يهددها ولكنهم يشعرون بالخوف، ولكن الله عز وجل طمأنهم، ضرب الله مثلا قرية كانت أمنة في واقع الأمر فلا خوف عليها وهي مطمئنة هنا قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، ليدل على رفع الخوف الحقيقي ورفع الخوف من نفوسهم.

وقال سبحانه وتعال: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فما قال: ولا يحزنون، نحن قلنا: هذه ﴿وَلَا هُمْ﴾، لترفع العموم عن الآخرين وترفع الصفة إلا عليهم فهي من أجل أن تختص بهم أنهم هم الذين لا يحزنون دون سواهم، فغيرهم جزمًا سيكون حزيناً، هذه تكلمنا عنها وسميناها ضمير الفصل والفرق بينه وبين ضمير الشأن –وجزى الله خيرًا من نبه لأنه مرة أخطأت في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص: ١]– لكن الفرق بين ضمير الشأن وضمير الفصل شرحنا هذا وقلنا: إن ضمير الفصل مهمته ألا توهم ما بعد المبتدأ أنها صفة بل تؤكد أنها خبر، من أجل أن تختص عليه، لو قال: ولا يحزنون، ماذا تدل؟ يعني وراء الله اسمها محذوف يعني هؤلاء الذين مذكورين ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فلو لم يوجد الضمير هنا الذي هو ضمير الفصل ويسمونه كذلك ضمير العماد، لأن عمدة الكلام يعود إليه في أن هؤلاء هم الذين لا يحزنون دون سواهم، هذا يسمى ضمير الفصل.

فلو قلنا: عليٌ كريم فإنها لا تنفي صفة الكرم عن غيره، هو كريم كغيره، لكن لو قيل: عليٌ هو الكريم دل على أن كرمه لا يشاركه فيه أحد، ويكفينا هنا في قضية البلاغة في أن نعرف أن ضمير الفصل إنما يراد به تخصيص الصفة للمبتدأ، يكفي إلى هنا إن شاء الله تعالى، وبقي بعض ما يُتكلم عن هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [البقرة: ٦٢]، إن شاء الله نكمل في الدرس القادم بارك الله فيكم جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

والحقيقة قبل أن نفارق ما من آية ننتقل منها إلى آيةٍ أخرى إلا ويتمنى المرء أن يعود إليها لوجود كلامٍ مهمٍ فيها، فعندما تركنا هذه الآية ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، ففي قوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ٦١]، الحديث عن قتل النبيين وإن كنا قد أجلناه إلى سورة «الحج» إلا أننا فاتنا أن نذكر بعض معانيها ولكن من يراجع في كتب أهل العلم يجد الكثير من الفوائد وإن شاء الله يكون مثل هذه الدروس فاتحة لطلبة العلم أن يبحثوا عن أكثر مما نذكره جزاكم الله وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: هؤلاء القوم الين يسمونهم شيوخ الذين يخرجون على الفضائيات أو غيرها ويدعون أن هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، يدّعون أنه يوجد في عصرنا هذا منهم يؤمن ولا يكفرونهم بل محرمٌ علينا أن نكفرهم، ألم يقرؤوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ [آل عمران: ٨٥]، فكيف هي عقولهم؟!

الشيخ: يسأل الشيخ حفظه الله يقول: أن هؤلاء الشيوخ الذين يصوبون دين اليهود والنصارى بمثل هذه الآيات ألا يقرؤون ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ [آل عمران: ٨٥]؟

الجواب: لا يوجد –وهذه قاعدة من قواعد القرآن– لا يوجد آية يحتج بها مبطل إلا وفي الآية ما يرد بها عليه، أي لا نحتاج لآية أخرى لنرد عليهم، فاليوم أنا قلت فقط عممت في جهة وخصصت جهة قلت: لا يوجد آية يحتاج بها المبطلون في تصويب أديان الناس اليوم من اليهود والنصارى إلا وهم يحتجون بباطل إلا آية واحدة تليق أن تُنزّل على كل نصراني ويهودي التي ذكرتها، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥] فقط، وقرأت أنا هذه الآيات ومن ذلك مثلاً خذ:

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣]، انظر يعني بيّن أن هؤلاء النصارى الذين تجدهم أشد الناس رحمة هم الذين آمنوا واتبعوا الحق، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ

بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)﴾ [المائدة: ٨٢-٨٦]، الآية ترد عليهم وليس هؤلاء النصارى.

والدليل أن اليهود مع كثرة كلام القرآن عليهم، لم نعاني منهم إلا في الفترة الأخيرة، لكن طوال حروب الأمة كانت من النصارى، طوال حروب الأمة في تاريخها مع النصارى، ومع المشركين والوثنيين في الشرق ومع النصارى في الغرب، وتقوم الساعة والروم أكثر الناس يقاتلهم المسلمون ويقاتلون المسلمين فكيف يقال؟! فلذلك هذه الآيات على هؤلاء أن يتموها ليعرف الناس كذبهم.

ومرة سمعت للشيخ، ما هو بشيخ للأسف يعني كنت أظن فيه الخير، سُئل عن الاختلاف القدري بين الناس، ووجود يهود ونصارى ومشركين ووجود مسلمين إلى غير ذلك، وهذا الوجود القدري من أجل المحنة والابتلاء، يعني الله عز وجل خلق من أجل محنة المؤمنين والابتلاء ومن أجل أن تملأ جهنم، قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾ [هود: ١١٩]، الله أخذ على نفسه فمن أجل هذا، تحول الناس واختلاف الناس ابتلاء، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢)﴾ [التغابن: ٢].

اسمع، مرة الشيخ أسمعه وهو يتحدث، قال: قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨)﴾ [هود: ١١٨]، المسكين أراد والله أراد أن يكملها فعلم أنها تبطل احتجاجه فسكت، الآية تقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨)﴾ [هود: ١١٨] كمل الآية، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩]، يستثني، أي الذين رحمهم الله لا يختلفون، فبيّن الله عز وجل، والله خرجت من لسانه بعض أحرفها فأعادها وسكت، الآية ترد عليه قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، هذا أمر قدري، مشيئة قدرية، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨)﴾، ماذا قال؟ أي هؤلاء ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ

رَبُّكَ﴾، لا يختلفون، ولما علم أنها سترتد عليه في حكمه على هؤلاء أنه لم يرحمهم الله هؤلاء ليسوا مرحومين فبلعها.

القصد: أننا لا نحتاج في الحقيقة يا شيخنا أن نذهب إلى آيات أخرى لنبطل دعواهم، الآيات تبطل دعواهم، نفسها تبطل دعواهم، يعني التي بين أيدينا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [البقرة: ٦٢]، هذه وأين ذهبت آيات اليهود التي قبلها؟ الآية التي قبلها أين ذهبت؟ من تعني بهم هؤلاء الذين يقتلون الأنبياء، هم قتلوا النبي صلى الله عليه وسلم محمد؟! نعم قتلوه، حكماً، ألم يخططوا لقتله، وأنتم تعرفون أن المرء بنيته يصيب ما يصيب العامل، ألم يذهب النبي صلى الله عليه وسلم في بني النضير، لما ذهب من أجل أن يأخذ منهم الدية فتآمروا أن يلقوا الحجر عليه، ولولا إخبار الملك له جبريل عليه السلام لقتل فقتلوه، هذا حكم القتل هذا.

وكذلك وضع المرأة السم، حتى أن سعيد بن المسيب رحمه الله يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم مات شهيداً، على أساس أنه كان يثور به السم كل عام، فلما مات إي سنة وفاته صلى الله عليه وسلم ثار به فمات، ويرى أنه مات شهيدًا من قتلهم، فيقتلون، من هؤلاء؟

القصد: يعني هؤلاء المبطلون والضلال وللأسف كما يسمون الأديان الآن الأديان الإبراهيمية من قال: بأن النصارى الآن على دين عيسى واليهود على دين موسى، هذا كذب.

السائل: في سورة «الحج» ذكر المجوس.

الشيخ: كنا نتمنى نأتي إليها ولكن سورة «الحج» الخلاف فيها يسير مع هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾ [الحج: ١٧]، فلذلك ذكر المؤمنون وذكر المشركون وذكر من لهم كتاب ومن ليس لهم كتاب والذين أشركوا أطلقت من أجل أن يبّين إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، لأن متعلق هؤلاء في هذا الموطن غير متعلق هذا، هذا بماذا تعلق؟ في ذكر العمل الصالح، وكذلك سورة «المائدة»، لكن هنا التعلق بشيء آخر وهو تعلق الحكم الإلهي فيهم، فذكر والذين أشركوا ليس فقط المجوس، وقيل: المجوس لهم كتاب

وقيل ليس لهم كتاب، ولكن أُدخلوا مع أهل الكتاب في جانب وليس كل الجوانب، فلا يجوز الزواج منهم، وقال الشافعي: «إن ثبت لهم كتاب فيدخلون في مسمى نساء أهل الكتاب»، لكن الصواب أن المجوس لا تُزوج نساؤهم بخلاف أهل الكتاب ولكن يعمل بهم في الجزية عمل أهل الكتاب كما في حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع والخمسون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس التاسع والخمسون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ووصلنا إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤]، هذا يعده أهل العلم أنه هو الإمنان والامتنان والفضل العاشر فيما عده الله عز وجل على بني إسرائيل منذ أول ذكرهم في هذه السورة وهو أول ذكرهم في القرآن مصرحاً مع أنهم قد ذكروا سابقاً في سورة الفاتحة عندما تكلم الله عز وجل عن المغضوب عليهم ولكن منذ أن بدأ الله عز وجل بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، فهذا هو الإمنان والامتنان العاشر فيما عده أهل العلم.

ويفتتح الله عز وجل في هذه الآية بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، تقدم أيها الإخوة الأحبة أن «إذ» هي ظرفٌ زماني والفرق بينها وبين «إذا»: بأن «إذ» لما مضى و«إذا» لما استقبل، وأن «إذ» عند أهل العلم لابد من تقدير فعلٍ لها أي اذكروا إذ أو اذكر إذ، قال: لابد من تقدير فعل «إذ» عند الزمانية.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، تقدم أيها الإخوة الأحبة بأن الله عز وجل جل في علاه يتكلم عن نفسه بنون الجمع الدالة على العظمة، وهذا لا ينبغي للبشر إلا أنه يقع منهم مرات ولكن ليس على سبيل التعظيم ولكن على سبيل الإخبار، يقع من ألفاظهم، ولكن المرء عليه أن يجتنبه، فلا يقول: نحن أو فعلنا أو قمنا؛ لما في الجمع من التعظيم الذي لا ينبغي، ولكن يقع في كلام أهل العلم، وجدت في كلام بعض أهل العلم يقع مثل هذا في كلامهم ومع علمنا بأنهم يغمطون أنفسهم ولا يعظمونها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، الميثاق أغلب أهل العلم على أنه المقصود به التوراة، المقصود بأن الله عز وجل أخذ ميثاقكم أي بالعمل بالتوراة، وبعض أهل العلم في من فسر القرآن بالقرآن في تفسير الميثاق بقوله تعالى فيما يأتي من سورة «البقرة»: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)﴾ [البقرة: ٨٣]، فجعلوا الميثاق هي هذه الأوامر الإلهية بدءًا من التوحيد والشرائع والعبادات وكذلك الأحكام، وبعضهم قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، المقصود به الميثاق هو رسولنا صلى الله عليه وسلم، أي أخذ ميثاقهم أن يؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم إذا جاءهم، وهذا أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: ٨١]، فالله عز وجل أخذ عليهم الميثاق بأنه إذا جاء محمد صلى الله عليه وسلم أن يتبعوه وكل هذا داخل في التوراة، في الحقيقة كل ما ذكرناه داخل في ميثاق أخذهم بالتورة.

والميثاق أيها الإخوة الأحبة نرى له صلة وثيقة في قضية الثقة، وكذلك القوة فالميثاق لا يكون إلا بالقوة، ولذلك يقال: أوثق أي ربط، وأوثق هي من عقد التي أخذت منها كلمة عقيدة التي تدل على الربط الشديد وكذلك ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾، التي تدل على أن الأمر عظيم ما دام أنه قد ذكرت هذه الكلمة الميثاق فهي دالة على أمرٍ عظيم؛ فإنه لا يؤخذ الميثاق على أمرٍ سهلٍ وعلى أمرٍ دني، وإنما يؤخذ الميثاق على أمرٍ عظيمٍ جليل فهذا دالٌ عليه، وكذلك يدل على أن الله عز وجل أخذ عليهم أخذاً قوياً شديداً وليس بمجرد هز الرؤوس، أي أن الله عز وجل أخذ الميثاق عليهم فقبلوا به هزًا لرؤوسهم أو بألفاظٍ موهمة، لا، وإنما أخذ منهم العهود والعقود بألفاظٍ صريحةٍ بينة لإنها دالةٌ على كلمة الميثاق.

والله عز وجل نسب هذا الميثاق إليهم، قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، فنسب الميثاق إليهم مع أن الطرف الآخر هو الله عز وجل، هذا العقد بين طرفين، من هما؟ الله عز وجل وبنو إسرائيل، طبعاً هناك من قال: الميثاق المقصود به هو ميثاق الذي أخذه الله عز وجل من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، قالوا هذا القول ولكن هذا في الحقيقة يعني قولٌ بعيد قليلاً ولو قارنا بينه وبين الأقوال الأولى لوجدنا أن الأقوال الأولى أقرب إلى الصحة والسبب أن هنا الحديث عن قومٍ خاصين ولهم ميثاق خاص، والدليل أن الميثاق نسب إليهم، ولماذا لم ينسب إلى الله عز وجل تعظيماً لشأنه وشرفًا؟ من أجل بيان عندما

ينسب الميثاق إليهم فينقضونه فيكون في ذلك معرةً لهم، أي لم يقل الله عز وجل وإذا أخذنا ميثاق الله أو ميثاقنا عليكم وإنما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، فأنتم التزمتموه، فحين يقع الخُلف فإنما يكون الخُلف جريمةً كبرى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾، الرفع بيّن وهو إلى جهة الأعلى، والجهات كما هي معروفة وبينة، وهنا الرفع أنه أخذه حتى ارتفع فلا يلامسهم، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ﴾، والرفع لا يكون إلا فوق، فلماذا قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ﴾؟ إي لو قالوا: ورفعنا الطور، فلماذا قال: ﴿فَوْقَكُمُ﴾؟ ليدل على أن الرفع كان شديدًا، فإن فوق تدل على أنه لم يلامسهم، وكان في جهة الفوق على جهةٍ بيّنة؛ لئلا يقال: حدث سحر أو ما شابه ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

فالله عز وجل أخذ الطور ورفعه فوقهم ليدل أن الرفع كان بيناً واضحاً وعلى أنه ارتفع فوق على ملامستهم لرؤوسهم، أي لم يلامس الرؤوس، قوله تعالى: ﴿الطُّورِ﴾، الطور هو الجبل ويفرقونه بينه وبين غيره من الأسماء أن الطور لما فيه الشجر، والله أقسم بالطور وقال: ﴿وَالطُّورِ (١)﴾ [الطور: ١]، فهل المقصود به هنا الطور أي جبل، أي رفع فوقهم الجبل؟ أم الطور الذي هو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦]، ماذا قال الله عز وجل في أولها؟ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا﴾ [القصص: ٤٤-٤٥]، لماذا قال: الغربي هنا؟ لماذا قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢)﴾ [مريم: ٥٢]، لماذا لم يقل بجانب الطور الأيمن؟ لأن النداء الذي حصل كما تقدم في موطنين في سورة «طه» وفي سورة «مريم» أن النداء تم بجانب الطور الأيمن، فلماذا ذكر الأيمن؟ تشريفاً لمن خوطب لأن اليمنى صفة مدح، اليُمن واليمين «تلقاها عرابة باليمين»، فاليمين صفة قوة وصفة مدح، فأن يجلس وأن يكون النداء لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن هذا مدح للمكان، ومدح المكان مهمٌ جداً إذا استلزمه وكان فيه مدح الفعل كذلك، والدليل على أن الله عز وجل اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم مكاناً مباركاً، وهو مكة من أجل أن يلد فيه ويبعث فيه واختار مكانًا مباركًا من أجل أن ينصر دينه وهي المدينة واختار مكاناً مباركاً وهو الشام من أجل أن يكون مقام كرسيه.

فالمكان له قيمة بما يناسب الحدث فلما الله عز وجل أراد أن ينادي موسى عليه السلام نداءً عظيمًا يتعلق به النبوة والتكليف، يتعلق به التشريف، فناداه من جانب الطور الأيمن، ما قال لا شمال ولا جنوب ولا قال غرب ولا شرق، وهذه الجهات ليس فيها مدح، بخلاف يسار ويمين، أي الشمال ليس فيه مدح، الجنوب ليس فيه مدح، الشرق ليس فيه مدح هذه جوانب ليس فيها مدح، ولكن اليُمن مدح ولذلك اختار الله عز وجل لموسى عليه السلام أن ينادى بجانب الطور الأيمن ليكون المكان شريفاً يناسب شرف التكليف الذي حصل له والوحي الذي حصل معه.

الآن بان لكم لماذا لم يقل الطور الأيمن هنا لماذا استعاض عنه بكلمة الغربي؛ لأن الغرب لا مدح فيه ولا ذم كما قلنا الشرق لا مدح فيه ولا ذم، ولكن تصوروا أن يقول الله عز وجل لرسوله عليه السلام: وما كنت بجانب الطور الأيمن، هناك فيه فعلٌ وقع وهو الإيجاب، ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، ففيه مدح، هنا يقول له: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦]، الله عز وجل يريد أن يشرف رسوله.

ونحن قلنا في أكثر من موطن بأن الأدب مبثوثٌ في القرآن في ثنايا هذه الخطابات التي تقع من الله عز وجل لعبيده الشرفاء العظماء المكرمين وكذلك في خطاب الأنبياء بعضهم لبعض وفي خطاب الأنبياء مع ربهم، الله يعظم رسوله ويحبه، وهناك فيه جانب مدح لما فيه من إثبات أنه كان بجانب الطور الأيمن لما أوحي إليه، ولو نُفي عن النبي عليه السلام مقاربته لجانب الطور الأيمن لكان في ذلك ما لا يريده الله عز وجل من تشريف رسوله، فلما أمتنع هذا امتنع ذكر الجانب الطور الأيمن واستعاض عنه بالغربي؛ لأن كلمة الغربي لا تحمل دلالة مدحٍ ولا ذم، بخلاف ما لو قال: وما كنت بجانب الطور الأيمن؛ لكان في ذلك نفيٌ لمقامٍ فيه جانب المدح الذي مدح به موسى عليه السلام، لا بأس هذه من الفوائد التي ينبغي أن نهتم لها.

الآن الطور، يقول أهل العلم: بأن الطور هو الجبل الذي فيه النبت والشجر وأقسم الله عز وجل به فهل هذا الطور الذي نتقه الله عز وجل ورفعه فوقهم هو الطور الذي نودي عنده موسى عليه السلام للوحي؟ بعض أهل العلم قال: نعم، وبعضهم قال: لا، وإنما هو مطلق الطور، والأقرب أنه ليس هو الطور الذي نودي عنده موسى عليه السلام والسبب أن هذا الحدث وقع في التيه، فإنه لما رجع موسى عليه السلام

بالتوراة وبالألواح فأمرهم بأخذها فوقع هذا الفعل، وهذا لا علاقة له في المكان الذي أوحي إليه عليه السلام، فلذلك الطور هنا جبلٌ معين آخر غير الطور الذي نودي عنده موسى عليه السلام، وفي أكثر من مرة ذكر الطور ويكفي أن نعلم أنه الجبل، من أين علمنا أنه الجبل؟ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وما هي الفوارق بين هذه الآية من سورة «البقرة» وبين مثيلتها، أو التي تتحدث عن نفس الحدث في سورة «الأعراف»؟ لنتأمل من جهة الألفاظ ومن جهة الترتيب، هنا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٦٣]، ما الفرق بين هذه الآية والآية في سورة «الأعراف»، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]؟ أولاً هنا ذكر الرفع، هناك ذكر النتق، هذا لفظ، هنا ذكر الطور هناك ذكر الجبل، وهنا قدم أخذ الميثاق على رفع الطور، وهناك قدم نتق الجبل على الميثاق، هنا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا﴾ [البقرة: ٦٣]، فأول الميثاق ثم ذكر الرفع، في سورة «الأعراف» ذكر النتق أولاً، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)﴾ [الأعراف: ١٧١]، فذكر الميثاق بعد نتق الجبل.

فلا يمكن أن نعرف الجواب على الترتيب حتى نرى الألفاظ التي تقدمت ونحن على قاعدة سيبويه التي قال عنها الأستاذ محمد محمد أبو موسى حفظه الله قال: «تزول الجبال ولا تزول هذه القاعدة» وهذه مهمة جداً، قالها سيبويه في «الكتاب»، «فإن العرب يقدمون ما هو أهم وما هو أرعى في الذكر»، أي مهم تقدمته، قد يكون مهم من جهة نفسه، وقد يكون مهم من جهة الخطاب، وقد يكون مهم من جهة السامع، ليس كلمة المهم وما هو أرعى مطلقة، وسنلاحظ هنا أن الرِعاية في التقدمة والتأخير لا تعلق لها إلا بالألفاظ؛ لأن الألفاظ التي حملتها سورة «الأعراف» لا تتلاءم مع تقدمة الميثاق على نتق الجبل، بخلاف هنا.

ما هو الأشد؟ قوله رفعنا الطور، أم نطقنا الجبل؟ الجبل بلا شك في الذكر يكون فيه الطور وما هو أعظم من الطور، أي أنت لو تأتي إلى سلسلة جبال عظيمة ممتدة تقول عنها جبل، لكن لا يمكن أن يكون

الطور سلسلة جبال متصلة ومتوزعة، إنما هو جبل، فلذلك الطور أخص دلالةً من الجبل، الجبل أعم وأعظم، يطلق على ما هو عظيم، هذا واحد، ولكن الطور ليس كذلك.

النقطة الثانية: أن النتق هو أخذ الجبل من أصله، ويقولون: من أصله هم لا يعرفون قديماً ما معنى أصل الجبل؟ يقولونها في كلامهم، ولكن لا يعرفون أن الجبل ثلثيه في الأسفل وثلثٌ في الأعلى، يعني كلمة أوتاد ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)﴾ [النبأ: ٧]، لا يمكن أن يعرفها إلا جيولوجي في هذا العصر، الجبل نفسه وتد متصل بنفس الصورة ونفس الهيكل في أن يكون ثلثه في الأعلى وثلثيه في الأسفل وتد، وعادةً الوتد يكون لأنه يهتم بما يربط به يكون في الأسفل أقوى، لأنه سيتم به الربط بخلاف ما لو وضع شاخص، أي لو وضع شاخص من أجل أن يدلنا على شيء لا يشترط إلا أن يكون ظاهراً، أما في الأسفل لا يشترط أن يكون عميقاً المهم أن يدل، لكن الوتد ما المقصود به؟ المقصود به أن يمنع شيئاً أن يحمي شيئاً أن يربط به شيء ولذلك لابد أن يكون مغروساً غرساً شديداً في الأسفل، ولا يكون هذا إلا إذا كان الأسفل أعلى وأقوى وأكثر من الأعلى، ولذلك الله عز وجل نتق الجبل، والجبل علمنا أنه عظيم وهو أعظم من الطور وعلمنا أن كلمة النتق أشد من كلمة الرفع؛ لأنه ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، لا تدل على أنه أخذ من أصله، والنتق كان من الأصل، الله عز وجل أخذه بملائكته، فرفعوا هذا الجبل حتى نتق أي أخذ من أصله.

إذن الصورة المهولة، وبلا شك أنه ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ صورة مهولة، لكن أين أشد هولاً هل في سورة «البقرة» أم في سورة «الأعراف»؟ في سورة «الأعراف» أشد، فلما كانت سورة نتق الجبل أعلى وأجل وأعظم وأكثر هولاً تقدم ذكرها على الميثاق؛ لذلك لما يكون الذكر في مثل هذه العظمة، يأتي ذكر أوعى وأرعى وأهم فإنه ذكر في المقدمة، لماذا قدم الله عز وجل نتق الجبل على الميثاق في سورة «الأعراف»؟ لأن الصورة لما رفع من الجبل ونتق وأخذ من أصله أشد مما ذكر هنا في سورة «البقرة».

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، تقدم وانتهى، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ لماذا؟ أن الله عز وجل رفع فوقهم الطور؟ ليتم أخذ الميثاق عليهم، ذلك لأنهم تلكأوا وترددوا بل ربما رفضوا أخذ الميثاق، لما قال لهم: خذوا هذه؛ ترددوا، فماذا فعل الله عز وجل؟ أخذ الجبل ونتقه فوقهم كأنه ظُلة فأخذ عليهم الميثاق.

وأول سؤال يخطر على بال السامع لهذا، هذا إجبار، والتكليف في الدنيا إنما يقع على جهة الاختيار ولا إجبار في ذلك، فهنا أنه يرفع الجبل فوقه كأنه ظُلة ويقع في ذلك التخويف الشديد والرعب في القلوب فيستسلمون ويقروا بهذا بل سجدوا، وذكر أهل العلم صفةً لسجودهم وهيئةً لسجودهم، فإنه لما أخذ منهم الميثاق في هذه الحالة خروا سجدًا فكانوا سجدًا لا على جباههم ولكن على شق وجوهم، أي عينٌ إلى الجبل وعين ساجدة إلى الأرض، لما فيهم من الخوف من الجبل وظنوا أنه واقعٌ بهم، فقيل هذا: أنه وقع منهم هذا السجود.

إذن كيف يقع هذا الإجبار أو هذا التخويف الذي هو على صيغة إجبار لهم فيؤخذ منهم الميثاق، لماذا؟ أما إيمانهم بالميثاق وأنه من عند الله عز وجل فهذا مما لا شك، ولكن هؤلاء القوم يقع منهم الكثير مما نسميه بين قوسين «التدله» الذي نسميه نحن الدلال، أي «يتدلعوا» على موسى عليه السلام لا يأتي لهم بأمر إلا وطلبوا منه مطالب من أجل أن يتبعوه، فهم يتبعونه ولكنهم يحملون موسى عليه السلام عندما يأتي لهم بالأمر والطلب يحملونه بمطالب، كما رأينا طلبوا رؤية الله عز وجل، طلبوا أن يسمعوا كلام الله عز وجل، طلبوا المن والسلوى والطعام، طلبوا الماء والشرب إلى غير ذلك، فكانوا يطلبون وتشتد مطالبهم؛ فلذلك هذا إنما لقطع مطالبهم، رفع الجبل وقع لقطع مطالبهم لئلا يقع منهم مطالب عندما جاءهم بالتوراة من أجل أن يلتزموها، لو أنهم كفروا وخرجوا فلهم، ولكن كانوا يعلقون إيمانهم بمطالب فحتى يقطع عليهم هذه المطالب فنتق الله عز وجل الجبل فوقهم، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾.

ولماذا قال سبحانه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾؟ الظُلة هي الغمامة، فدل هذا على أنهم رأوه بلا عُمُد كما يرون السحاب في السماء، لا يوجد له عُمُد على الأرض، لا يوجد من يحمله، فرأوا أنه ظُلة كأنه غمامة، وكذلك فيها دليل عندي على أن هذا الفعل وقع وقت الظهيرة، وقع وقت الظهيرة التي يحصل بها الظل، وهو فوقهم فلا يمكن أن يكون هذا الوقت إلا وقت والشمس مستوية سواء في كبد السماء حينئذٍ يقع فيه أنه ظُلة، فلو كانت الشمس على يمين أو شمال لا يحصل به الظُلة أي الغمامة التي تحجب الشمس، وإنما هو يصلح لعمل الظل لأنه ظُلة.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾، هذا دليل على جواز تشبيه العظيم بالصغير تنبيهًا، من أعظم الجبل أو السحابة؟ الجبل أعظم لكنه تشبيه العظيم بالصغير تنبيهًا، كما شبه في الحديث: (يأتيني مثل صلصلة الجرس)، من أعظم صلصة الجرس أم صوت الوحي؟ صوت الوحي ولكن شبه من أجل التقريب.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، بقوة، اختلف العلماء قوة ماذا؟ هل هي قوة الإرادة؟ هل هي قوة النية؟ فبعضهم قال: هي قوة الإرادة أي خذوه بجدٍ واجتهاد، فهذا وصفٌ للإرادة ألا تتلكأ وألا تتراجع، وهناك من أهل العلم من قال: بنيةٍ وإخلاص، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، أي بقوة قصدٍ لله عز وجل ألا يكون إلا له، وكل ذلك محتمل، يعني قوة ماذا؟ فهكذا قالوا وهكذا قالوا، وهذا دليل على أن دين الله لا ينفع معه إلا هذا الشأن، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)﴾ [الطارق: ١٣-١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل: ٥]، فهذا الدين لا ينفع معه أن يأخذه المرء أخذًا يسيراً لا ينفع، لأنه إذا أخذه على هذا المعنى تشتد المحن على هذا الدين فربما يتركه، والذي يأخذه بقوة فلو جاءت المحن عليه لا يتركه.

أما الذي يأخذه بتهاون ويأخذه على معنى المتعة وعلى معنى الأوقات الزائدة يصرف جل وقته لغير الدين فيعطي الدين بعضه هذا لا ينفع، وهذا هو شأن الدين كله، لا بد من أن تأخذ الدين بقوة، ولذلك الله عز وجل قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل: ٥]، وقال بعدها: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦)﴾ [المزمل: ٦]، لا يمكن لك أن تتحمل هذا القول الثقيل حتى تتهيأ له بفعلٍ يوحد نفسك له، وهو أن تقوم هذا الليل، تقومه من أجل أن تهيئ ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ [المزمل: ٧]، ولذلك لابد من التمرين، لابد من وجود التمرين لبقاء الصلة قوية بينك وبين هذا الدين، هذا التمرين هو عبادة الله عز وجل والإخلاص له وكثرة العبادة والإنابة، وإذا وقع البلاء قبل الإعداد ربما يخسر الإنسان، ولذلك عليه إذا كان له في النهار سبح طويل عليه أن يهيئ نفسه بقراءة القرآن وبذكر الله عز وجل وهكذا.

ولذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول عن الأذكار بعد الفجر: «لولا هذه لما قويت على شيء في النهار لوهن بدني»، لولا أذكار الصباح لوهن بدني، وبعض أهل العلم يقول: إن لم أقم الليل شعرت بصداع وتعب في رأسي، أي يصاب بالصداع بدون قيام الليل، الذي لا يعتاد على هذه الأمور لا

يشعر بالفرق، كما أن المرء لا يشعر بالفرق إذا اعتاد على طعام المر حتى إذا ذاق شعر الفرق، وذلك على المرء أن يأخذ هذا الدين بقوة.

مثلاً: القرآن نزل بحزن فخذوه بحزن، القرآن لا يمكن أن يدخل على قلب المرء ويتفاعل معه إلا بأن يقوم فيه، فقال صلى الله عليه وسلم في الحديث: (الصيامُ والقرآنُ يشفعانِ للعبدِ يومَ القيامَةِ، يقولُ الصيامُ: أي ربِّ إنِّي منعْتُهُ الطعامَ والشهواتِ بالنهارِ فشفِّعْنِي فيه، يقولُ القرآنُ: ربِّ منعتُهُ النومَ بالليلِ فشفعني فيه، فيَشْفَعانِ)، اسهره الليل، وفي علم الحديث والأخذ به انظروا إلى سيرة العلماء في طلبهم للحديث، بعضهم يقول: شربت بولي ثلاث مرات في طلب الحديث من العطش، وبعضهم جاع، وبعضهم أصيب بالبلاء والتعب وغيره إلى غير ذلك، في الرحلة في طلب الحديث، وبعضهم أنفق كل ما ورثه من أبيه في طلب الحديث.

ولذلك هذا الدين لا يؤخذ بما يأخذوا الناس، قال سبحانه وتعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)﴾ [الأنبياء: ١-٢]، هذه الصفة لا تليق مع هذا القرآن ولا مع أحكامه ولا مع عمله، الصلاة لابد أن تأخذها بقوة وهكذا، بقية الدين الجهاد لابد أن تأخذه بقوة، أن تأخذه الحياة هذا الدين إن أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ولا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، لابد هذا أن تفهمه، ومن أراد الرفعة فليعطي الدين كل حياته، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام: ١٦٢]، كل شيء، فقال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾.

والصحابة رضي الله عنهم كان هذا شأنهم مع الدين وبهذا رفع الله عز وجل شأنهم ونصر الدين بهم وصار لهم لسان صدقٍ في الآخرين، كما رفع الله أئمتهم من الأنبياء هذا الدين لا ينفع فيه النوم ولا ينفع فيه اللعب لا ينفع فيه هذا، فقالوه عز وجل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، فهذه القوة يجب أن تكون إما من إرادة وإما أن تكون بالقصد، أين تقصد؟ أن تقصد وجه الله، لأنك إن قصدت غير وجه الله لابد أن يأتي يوم وتترك، ولو في آخر لحظة، وإذا أخذته لله بقيت حتى الممات، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾ [الحجر: ٩٩]، وبجدٍ ومشقة، كما هو شأن كل من حمل هذا الدين، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)﴾ [البقرة: ٦٣]، هذه أول ما يخطر على السامع لها أن يقارنها بالآية التي تأتي من بعد، ماذا فيها؟ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ٩٣]، هناك أمرهم بأن يلقوا ﴿وَاسْمَعُوا﴾، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، لابد أن تسمع وهنا قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا﴾ [البقرة: ٦٣]، هذا يدل على وجوب أخذ هذا الدين على حالةٍ واحدة في الابتداء والأثناء حتى الممات، فعند الابتداء قال تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾، ما في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)﴾ [الأنبياء: ٢]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥)﴾ [الشعراء: ٥]، هذا ما ينفع.

ففي الأول ﴿وَاسْمَعُوا﴾، فبعد السماع أخذته في الابتداء على جهة الوعي له، وعلى جهة الفهم له اسمع، سمعته فهمته وعيته وبعد ذلك سلكت فيه عمرك كله ﴿وَاذْكُرُوا﴾، في كل لحظة يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾.

ويبقى السؤال لماذا هذا الخطاب لم يشهده اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم؟ والخطاب لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، واليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرفع الله عز وجل عليهم الجبل، وهذا قلناه كثيراً فإن أحكام أئمة الأمة تسري في أتباعهم إلى يوم القيامة، وحال الأئمة يسري في الأتباع إلى يوم القيامة.

الآن بما عرفت أن القرآن معجز؟ لأنه أعجز أئمتك فيما تتكلم فيه من البيان، بعضنا عنده شيء من البلاغة، لكن لم يصل إلى درجة من تحداهم القرآن، هل وصلنا إلى درجة الذين نزل عليهم التحدي؟ أعظم الناس فهماً للغة هم الذين نزل عليهم القرآن، هؤلاء وصلوا إلى الذروة في البلاغة فالتحدي الذي وقع عليهم فعجزوا أن يأتوا بمثله هو واقعٌ عليك؛ لأنك أنت الوارث لهم، مع أنك لم ترث كل ما عندهم ورثت بعضه، فلذلك العجز الذي وقع عندهم كذلك أنت تعترف به -وقلنا أكثر من مرة وأكرر- لما قال جبريل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: (ولو أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ)، فإن سراية الهداية في الإمام سراية الهداية في المأموم.

ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾ [الشورى: ١٤]، كيف وقع الشك؟ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، كيف وقعوا في الشك؟ لأن الأئمة قد اختلفوا فيه ابتداءً، لأن الأئمة الأوائل الذين نزل عليهم الكتاب وقع فيهم الخلاف، فسرى هذا الخلاف في بقية الأتباع، لماذا؟ لأن الأوائل هم المادة التي يقع عليها التكليف، هم الأول كما ذكرنا في موضوع الإعجاز، موضوع اللغة، هم مادة التكليف، هم الذين يصلحون هم أصلحوا من يخاطبوا بالكتاب ولذلك نزل عليهم الكتاب، هم أصلح من يخاطب بالتكليف، فإذا لم يكونوا على كفايةٍ في هذا الحمل كان من بعدهم من الأتباع أكثر عجزًا، وأكثر انحرافًا.

ولذلك لما يقول الله عز وجل لليهود هؤلاء الذين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، هو يتكلم لأنه هذا سار في الآباء، ولذلك موسى عليه السلام ماذا قال لهم؟ موسى عليه السلام جاء قبله الأنبياء، على أبناء يعقوب بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، مع أنهم لما جاءهم موسى عليه السلام كانوا في الذلة، ولم يرتفع لهم شأن في زمن موسى عليه السلام قط، ورفضوا أن يدخلوا الأرض المقدسة ومات موسى عليه السلام قبل أن يدخل الأرض المقدسة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، فالخطاب في الآباء هو خطابٌ في الأبناء وما وقع من النعيم على الآباء هو لازمٌ للأبناء.

قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أي هذه الكلمة ينبغي أن تبقى مترددة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أولاً: أخذوه وقوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾، إن لم يقع الاستماع في بداية الأمر سيكون أعجز عن الاستماع بعد ذلك، ينبغي أن يكون الاستماع في الابتداء، ولذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)، انتبه هذا من أجل أن تعلم، من أجل أن تتربى (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ٨٣]، هذه من أول مرة لها سر هذه، إياك أن تفوتها وهنا كلمة للشيخ عمر المختار رحمه الله قال: «إياك أن تحني رأسك لأنه ربما لا يكون لك فرصة ثانية بأن ترفعه»، هذه أول مرة هذه مهمة تحدد مصيرك في الحياة، انتبه إليها.

قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أي من الميثاق، ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، هذه الخلاصة لكل أوامر الله عز وجل في الصيام في الحج في العبادات خاتمتها ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لأن باب الجنة والرضا الإلهي هو التقوى، ولا شك أن هذه علة النهائية الغائية لكل مطالب الطاعات والشرائع والأوامر.

بعد ذلك ما الذي حدث منهم؟ قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، التولي هو الرجوع والترك، من ولى، موالاة ومعاداة، من أين جاءت؟ عدى تعدى، عدى الرجل تعدى الرجل يعني يتركه وراءه، تعداه، ومن هنا أخذت المعاداة لأنه تركه في سبيلٍ آخر، هذا مشى في سبيل وهذا في سبيل فتعداه، ولكن وليه أي مشى مكان مشيه خلفه، لذلك الموالاة، أي مشى وراءه، تبعه، من هنا أخذت الموالاة يوالي المؤمنين يمشي وراءهم على طريقهم، يوالي رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وراءه، يوالي الله عز وجل يتبع أوامره، لكن عدى تركه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)﴾ [الحجرات: ١].

وهنا قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، تركتموه، مشيتم ورأوه تركتموه قول تعالى هنا: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، طبعا هنا ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي، ما معنى التراخي هنا ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾؟ هل يعني التولي –وهذه يرفضها البلاغيون– هل نقول: التولي فقط هي للتراخي ثم وقع التولي بعد ذلك بعد زمن، لا، هذا معنى ولكن المعنى المقصود ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي كلما حصل الخطاب بهذا حصل منكم التولي مرةً بعد مرة حتى طال زمن التولي، فـ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي طال زمن التولي لماذا؟ لأنه كلما خوطبوا به تولوا.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي من بعد ما أخذ الله عز وجل الميثاق برفعه الطور فوقكم.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)﴾ [البقرة: ٦٤]، هم تولوا، فقال: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فكأن الآية تقول: أي لم تكونوا من الخاسرين؛ لأنه حصل فضل الله عليكم، هذا ظاهرها، فقال: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾، خلينا أولاً مع الفضل والرحمة، لماذا؟ نحن نعرف دائمًا أن الواو تقتضي المغايرة، والمغايرة لا تعني شيئين مختلفين كليًا، ربما تعني شيئًا واحداً ولكن على درجاتٍ مختلفة، كقوله: (الإسلام والإيمان والإحسان)، الصلاة من الإسلام والصلاة من

الإيمان والصلاة من الإحسان لكن درجتها في الإسلام الأحكام ودرجتها في الإيمان العمل القلبي، ودرجتها في الإحسان الترقي فهو فعلٌ واحد ولكن درجاته متفاوتة، فهذه ننتبه لها لأن البعض يقع في هذا إذا كان يقتضي المغايرة، فكأن المغايرة كلية وليس كذلك.

فهنا ما هو؟ ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾، الفضل والرحمة، هل يمكن أن يقع الفضل وتتخلف الرحمة؟ الجواب: نعم، قد تعطي الرجل المال فهذا من الفضل، ولكن أن يسلك فيه سبيلاً باطلاً لم تقع الرحمة، فالفضل والرحمة يعني أن يقع الشيء وهو نعمة هذا فضل، وأن يقع على معنى من الخير له هذه هي الرحمة، فوقوع الشيء بين يديك هذا فضل، لكن آن تتصرف فيه تصرفًا فيه المنفعة هو الرحمة، أن يقع الشيء بين يديك هذا فضل، ألا يقع الحساب بعده عليه هذا رحمة، أن يقع الشيء بين يديك فضل، وأن يقع منك قوة الاستخدام له هذه رحمة، وقد يكون رجل عنده مال فالله فضل عليه بالمال، لكن لا يستطيع أن ينتفع به مريض لا ينتفع به، ربما لا يستطيع أن يلبس اللباس، لا يستطيع أن يأكل الأكل الممتع، لا يقال: رحمة، فكل هذا من المعنى، وقد يكون الفضل مما يتعلق بالنعمة المادية والرحمة مما يتعلق بالنعمة الشرعية المعنوية، كل هذا يدخل في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾.

نرجع للسؤال ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾، الآن لولا حرف امتناع لوجود، نقول: لولا لكان، لولا مجيئك لشربنا الماء، هل شرب الماء وقع؟ لا، مجيئك جاء ويسمونه حرف امتناع لوجود، لولا ضربك ابنك لأعطيتك مئة دينار، ضربت ابنك موجود وامتنع إعطاءك المئة دينار، فحرف امتناع لوجود، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾، موجود فضل الله ورحمته ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، هل امتنع الخسران؟ امتنع الخسران، هل امتنع الخسران كله؟ أم أن فضل الله ورحمته وقعت، ولكن وقع الرفض منكم أنتم؟ فقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أي بما يلائم الفضل والرحمة ولكن كنتم غير آخذين لهذا الفضل والرحمة، وبعض أهل العلم قال: لكنتم بمعنى لصرتم، وهذا تقدم: كان بمعنى صار، تقدم مثيلها، أي لصرتم من الخاسرين، وما معنى الخسران؟ الخسران معناه النقص، أصل كلمة الخسران تعني النقص.

إذن هنا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي كلمتكم التي قدمتموها بقوة في أن تأخذوا هذا الكتاب وهذا العهد الذي بيننا وبينكم، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ﴾، نرى أيها الإخوة الأحبة هذا التنوع في ذكر ربنا سبحانه وتعالى لحال بني إسرائيل لا يأتيه بصيغةٍ واحدة، ينوعه ويفصل بينه لأنه لم يقع في سياقٍ واحد، يعني انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ﴾، يعني ينوع فلا يأتي في سياقٍ واحد.

وأقرب آية وقع فيها السياق الجامع هي الآية التي في سورة «النساء»، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥)﴾ [النساء: ١٥٣-١٥٥]، جمعت سورة النساء في هذ الآيات المطالب كلها التي تنوعت وتوزعت في هذه السورة وفي غيرها.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ [البقرة: ٦٥]، نحن قلنا في الدرس الفائت لم تجتمع كلمة القردة والخنازير إلا في سورةٍ واحدة هي سورة «المائدة»، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، فقط، وإلا فالخنازير والقردة تنوعت.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾، أول ما يخطر على البال هو أن تفصيل هذه الحادثة أين نجده في سورة «الأعراف»، قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، فصلت هناك، وهنا لابد من ذكر وإن كان هذا في سورة «الأعراف»، ولكن حتى نرى المطلع كيف يفترق هنا عن سورة «الأعراف»، في سورة «الأعراف» قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، هذا تجده من الفرق بينه وبين قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، ما قال: واسألوا الله الذي اتيناه آياتنا، لماذا افتتح المطلع ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]؟ هذا تبكيت لهم كأنك تذكر المرء بشيءٍ يستقبح أن تذكره به، يستقبحه لأنه من تاريخه، ومن أفعاله ومن أعماله ومن إجرامه فقال: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾، فإنه إن سألهم

طأطئوا رؤوسهم إن كان ثمة حياة في وجوههم، ولذلك قال: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾، ولكن لما جاء إلى رجلٍ واحد منهم، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، هذا واحد.

الشيء الثاني: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٥] ربما ينسون، لماذا؟ لأنه شخصٌ واحد فربما لا يهتمون بذكره وشأنه، لكن ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣] لأنها جرت على أمةٍ منهم كبيرة، قرية كاملة كانت تعدوا في السبت.

وهنا ذكر جديد غير ما تقدم نحن قلنا: أنه المنّ العاشر فيما تقدم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة: ٦٣]، وهذا مَنٌّ جديد آخر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، فهنا دل على أنهم يعلمونه، وهذا متوافق مع قوله تعالى ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، ما في ضرورة أنا أذكركم بشيء تعلمونه، ولكن أنبهكم ماذا وقع، وهذا تحذيرٌ رباني بأن نظام العقوبة ما زال جارياً عليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾، تقدم حال اليهود مع الحيل، في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، (فقالوا: حبة في شعيرة)، وهذه القصة التي حدثت مع بني إسرائيل ركن من أركان التنفير من الحيل في التعامل مع الله عز وجل، واليهود أئمة الحيل، من ذلك حطة، من ذلك القرية التي كانوا يصيدون فيها يضعون الشباك يوم السبت ويأخذون الحوت يوم الأحد، ومن حيلهم أنه حرم عليهم الشحم فأذابوه فصار سمناً فباعوه، فقالوا: نحن لا نبيع الشحم نحن نبيع السمن، فتغير الاسم تغير الحكم، وهذا ينبغي أن يهتم بها أهل الإسلام، والعلماء شددوا النكير في التنفير من الحيل.

وأشد الأئمة تنفيراً للأمة من إتيان الحيل هو الإمام مالك رحمه الله، ولذلك الذهبي رحمه الله يقول: «فقه مالك هو خير الفقه»، لأنه يقوم على ركنين، والحقيقة هما ركن واحد لا يكون الأول إلا بالثاني، وهو «النظر إلى المقاصد وترك الحيل»، لأنه لا تقع الحيل إلا بنفي المقاصد، عندما تنظر فقط إلى ظاهر الشيء ولا تنظر إلى مآله، ولا إلى حقيقته؛ فقد أقفلت مقصده، وإذا أقمت الأحكام على المقاصد نفيت الحيل، وهذا أخذه منه الشافعي رحمه الله وأخذه منه أهل العلم، وبعض أهل العلم للأسف يعني نوع واشتهر عن بعض علماء أهل الرأي من الأخذ بالحيل، وهناك حيل مجمع على تركها، لا يقول بها مسلم، كحيل تعطيل

الشرائع من ذلك حيلة تعطيل الزكاة، وهو قبل أن يحول الحول يتصدق بكل ماله أو يهب ماله كله لزوجته، وقبل أن يحول الحول والمال في يدي زوجته تعيده إلى زوجها، وهذه حيلة مجمع على تركها.

وهناك حيل مجمع على قبولها وإن دخلت في مسمى الحيل، ولكنها ليست من الحيل الشرعية، ذلك لوجود مقاصد أقوى من مقاصد إتيانها على ظاهرها، من ذلك ما فعله أيوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾ [ص: ٤٤]، ماذا فعل؟ حلف يمينًا أن يضرب زوجته مئة سوط، لشيءٍ أتته وهو في زمن مرضه أيوب عليه السلام، فلما شُفي أراد أن يبر يمينه، فالله عز وجل أمره بأن يأخذ مثكالاً مثكولاً من العصي الخفيفة فيضربها ضربة واحدة فيكون قد أصاب، فهذا من الحيل التي أجمع العلماء عليها ومن ذلك أخذوها في الرجل حين يزني فإن ضرب مات، رجل زنا وهو مريض على فراش الموت فمن أجل تطهيره طبعاً لا يجوز ضربه وهو في هذه الحالة، لأنه لو ضرب على هذه الحالة لمات، فذهب مقصد الشارع، ومقصد الشارع العقوبة، ومقصد الشارع التطهير، لا أن يقتله، فيؤخذ ويضرب كشارب الخمر الذي هو مثلاً يخشى عليه الموت وهكذا، فهذه حيل شرعية، لماذا؟ لأنها تلتقي مع المقاصد فهذه هي العلة، أن الحيلة تصبح شرعية حين تلتقي مع المقاصد، وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم: (الحرب خدعة)، لأنها تلتقي مع المقاصد، وأما إذا خالفت المقاصد فلا يجوز للمرء أن يأتيها، مجمع على تركها.

وهناك حيل مختلف فيها والصواب تركها، عدم إتيانها لا يجوز، والعلماء في بعض الحيل مستقل ومستكثر، فمثلاً بيع العينة من بيع الحيل، الشافعي رحمه الله يقول به؛ لأنه لا يهتم في العقود بالمقاصد، وهذا مخالفٌ لمنهج أستاذه والصواب مع أستاذه، وأقصد بذلك الإمام مالك رحمه الله، الصواب مع مالك رحمه الله والحديث وإن ضعفه الشافعي رحمه الله حسنه كثير من أهل العلم، وفي منعه وحرمته موافقة للمقاصد أقوى وأجل، ولذلك الشافعي رحمه الله في باب البيوع والعقود أشبه مثل بالظاهرية، وفصل ذلك في كتابه «الأم» تفصيلاً طويلاً، في أن المقاصد لا اعتبار لها ولكن ننظر إلى العقود التي تجري بين الناس على ظاهرها، ولذلك أجازة بياع العنب لعاصر الخمر، يشتريه لعصير الخمر هذا آثم لكن البائع باع شيئاً محترمًا في عقدٍ مكتمل الأركان، والصواب منعه وفي حديث عند ابن حبان، يعني في رجل على طريقة ابن

حبان مجهول لكن هو يوثق المجاهيل على هذا المعنى فيه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع العنب لعاصر الخمر، والصواب هذا وهو منعها.

وهناك اختلاف في مسائل شديدة كالتورق وهو نفس العينة لكن مع غير العاقد الذي باع ابتداءً، وهو أن يشتري البضاعة من الرجل ديناً ويبيعها نقدًا لرجل آخر وليس لنفس الرجل، العينة لنفس الرجل، التورق لرجلٍ آخر، هذه أجازها جمهور أهل العلم، والْمُفتى به في مذهب أحمد رحمه الله الجواز، وأما ابن تيمية رحمه الله فكان يشدد على حرمتها منعاً لباب الحيل، يقول: الحيل لا تجوز، ويقول ابن القيم رحمه الله: راجعت شيخي في هذه –راجع ابن تيمية رحمه الله– مرات كثيرة، فأبى أن يتراجع، والعلماء أغلبهم على حله.

القصد: أن الأصل النظر إلى الحيل ولابد من النظر إلى مقاصد الفاعلين، الصواب النظر إلى مقاصد الفاعلين، وحجتنا في ذلك ما رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما عندما سأله رجل عن التوبة للقاتل، فإنه ميز بين من فعل ففتح له باب الأمل والرجاء والرحمة، ومن أراد أن يمهد لنفسه التوبة بعد الفعل ولم يفعل بعد، فمنعه حتى يقطع ويأسه من الفعل، لابد من النظر إلى مقاصد الناس في هذا الباب.

والمقاصد معتبرة حتى عند الظاهرية، يعني لا يظن أحد أن المقاصد عند الظاهرية أو عند الشافعية غير معتبرة، لا، المقاصد معتبرة، لكن أقصد في العقود التي تنشأ بين الناس على صفة المعاوضات، ومن ذلك ابن حزم رحمه الله لما يأتي للتفريق بين البيع وبين الدين لا ينظر إلا إلى جهة المعنى أي المقصد، يقول ما الفرق بين البيع وبين الدين؟ يعني أنت تعطيها لرجل يطلب منك دينًا خمسين دينارًا على أن يرده لك خمسين دينار بعد أسبوع أو شهر أو شهرين لو كان هذا بيعاً لحرم، لأن بيع الذهب والفضة نسيئة، لأن شرط البيع إن كان من النقدين بشرطين التقابض والتماثل، التقابض يحصل القبض، لكن هذا دين وليس بيع فصار فيه هذا معنى التسمح لأنه يقوم على الإحسان، بخلاف البيع فإنه يقوم على التحاق، بمعنى حقي وحقك ويترتب عليه ما يترتب، فما الذي فرق بينهما؟ المعنى، المقصد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، ﴿السَّبْتُ﴾، تأتي بمعنى الراحة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، ونكمل إن شاء الله في الدرس القادم جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: البعض يقول الدين ممنوع والعتب مرفوع؟

الشيخ: الرجل قصده ممنوع يعني لا يمنع هذا العقد، وهو عقد اختياري الدين كالعقود الاختيارية، ليس مُلزمًا لأحد، والدين مستحب، أي يُستحب للرجل إذا جاءه رجل لحاجة أن يقضي حاجته بالدين وله أجران، بخلاف أجر الصدقة له أجران، وأما فأن يقول الرجل: أنا لا أداين، فهذا من حقه ولا تثريب عليه، وإن ترك باب الفضائل والمكارم.

السائل: متى يجوز طلب الدين؟

الشيخ: الدين من العقود المباحة بلا شروط.

السائل: إذا كان أمر دنيوي، أمر فطري أي ليس بحاجة له؟

الشيخ: يعني لا نستطيع أن نقارنه بالمسألة، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تَزالُ المسألَةُ بأحدِكُم حتَّى يَلقى اللَّهَ وليسَت في وجهِهِ مُزعةُ لحَمٍ)، فهذا في المسألة فإذا اقترب الدين بهذا المعنى يلحق هذا المعنى، وإن كان الأصل في الدين أنه عقدٌ جائز من الطالب ومن الدائن، أي من المدين والدائن، الناس يقولوا: مديون، وهي ليست لغة صحيحة، نعم من الدائن والمدين.

لكن إذا اقترب الدين لهذا المعنى أي رجل إذا أكثر الدين قطعاً سيقع في عدم الوفاء، والذي نراه يُكثر من طلب الدين نرى أن وفاء السداد عنده ضعيف، لأنه لا يدري يأخذ من هذا وهذا إلخ، فلذلك إذا اقترب الدين بمعنى السؤال يصبح كما في الحديث، وحينها تصبح المسألة حراماً فإن المسألة لا تحل إلا لحاجة، لثلاثة مذكورين في الحديث في مسند أحمد رحمه الله.

السائل: في بداية الدرس قلت فوق وعلى، فهل من الخطأ أن نقول مثلاً الكتاب فوق الطاولة، لأن فوق تبين بعدم وجود الملامسة وعلى تبين الملامسة؟

الشيخ: لا، تستطيع أن تقول الكتاب فوق الطاولة لبيان الجهة وعلى لا تفيد إلا الفوقية، فتستطيع أن تقول: الكتاب على الطاولة وتستطيع أن تقول: فوق الطاولة، ولكن في الحقيقة كلمة الأدق في كلمة فوق أنها لا ملامسة فوق أي جهة الفوق.

السائل: بعضهم يقول في قضية حيلة بني إسرائيل ﴿يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، فمن الإسرائيليات أنهم يضعون شباكهم قبل يوم السبت فتصيد يوم السبت ويأخذونها يوم الأحد، وهذه ذكرت في الإسرائيليات، أما في القرآن فذكر أنهم يعدون يوم السبت فقد يفعلونها يعني حقيقة في يوم السبت يصطادون، أما قضية يضعون الشباك وغيره من الإسرائيليات والصحيح أنهم يعتدون في يوم السبت يعني فعلوها حقيقةً؟

الشيخ: قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٥]، ما الذي يريده قائل هذا الكلام؟

السائل: لا، فقط أن هذه من الإسرائيليات يعني لا نصدق ولا نكذب، لكن يعني القرآن يعني لا لم ينفي أنه من الحيل لكن يمكن كان بعضهم يجعلها كالحيل ممكن لبعضهم أن يفعلها يوم السبت.

الشيخ: يمكن، يعني هذا من التفسير الذي لا يضر، ولكن الحيل كذلك في بيع الشحوم وارد في الحديث هذا، أنهم يحولون الشحم إلى سمن فجعلوا تغيير الأسماء مع بقاء الحقائق على ما هي عليه، على ما هي عليه، يعني ممكن لإنه في الحقيقة ليس هناك حديث مرفوع يبين كيف كانوا يفعلون يوم السبت فنجزم به، فيمكن أن يقال هذا.

السائل: الحديث الذي يذكر فيه عن بني إسرائيل، قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَوَّلَ مَا دخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّه كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّه وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ، ثُم يَلْقَاهُ مِن الْغَدِ وَهُو عَلَى حالِهِ، فَلا يَمْنَعُه ذلِك أَنْ يكُونَ أَكِيلَهُ وشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ

قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ)، يجوز هم استدلوا بهذا المسألة، أنهم كانوا في السبت يرموا الشباك ويوم الأحد يجمعون الشباك وفيها الصيد؟

الشيخ: لا، الحديث فسره قال ذلك لأنه يكون أنيسه وجليسه في ليلته، يجلس معه في الليل بسبب المسامرة، كانوا يتناهون عن منكر فعلوه فبسبب المسامرة والصداقة يمتنع من الموعظة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

السائل: في فتوى سابقة قلتم إن المسح على الجورب يجوز حتى بدون حاجة، فهل من أنشأ سفر مثلاً في رمضان لقصد الفطر يجوز وهل فيه تشابه بين المسألتين؟

الشيخ: لا، لو أن رجلاً سافر بقصد الفطر فنحن لا نمنعه، مع أنه مما يعاب عليه، لو أنه سافر في رمضان بقصد الفطر فإنه يعاب عليه، ولا شك أنه يعاب عليه، لكن هل هناك ما يمنع من فطره وقد أنشأ سفراً وعلة الإفطار هو السفر، لا، ولكن الناس يأخذوها وكأننا نجيز للناس الإفطار، النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (السفر قطعة من العذاب)، يا رجل يهرب من تكليف الصيام بأن يُنشئ عذاباً بالسفر!! يعني من نخاطب في الشريعة نحن؟ في الشريعة نخاطب العقلاء أم نخاطب الشاذين؟ اليوم لو أننا قلنا للناس هذا ونقول له نقول: جائز تريد أن تسافر من أجل أن تفطر سافر وأفطر، لكن من أين خرجت وأين دخلت؟ ما الذي هربت منه وما الذي أصبته؟! فرجل يسافر يدفع المال ويدفع تعب البدن وفراق الأهل وما في السفر نفسه من مشقة، سماها النبي صلى الله عليه وسلم: (السفر قطعة من العذاب)، فقط من أجل أن يأكل.

ثم ثانياً: في السفر يعني أي متعة في الطعام، يعني ما الذي يُمنع منه المسافر؟ هل فقط راحة البدن أم الأكلة الطيبة أيضًا؟ يعني حتى الطعام لا يتلذذ به المرء في السفر، إنما يأخذه على جهة الحاجة السريعة، يعني هذا محاولة كأننا نجيز للناس أن يفطروا في رمضان وأن يتلعبوا، لا، ليس صحيح، واحد كل يوم يسافر ويرجع ويسافر ويرجع فهذا مشقة عليه، ولذلك نعم نحن نقول: جائز هذا الفعل ولكن بلا شك أنه شيء من التلاعب بالدين لكنه جائز لا نمنعه، وما رأيته فقيهًا قط منع من هذا إلا على جهة ربما معاملة الشيء بضده من استعجل الشيء قبل وقعه، ونحن نقول بحرمانه، أو معاملة الشيء بضد ما قصد له كمن قتل

والده استعجالاً للوراثة فيعاقب بضد قصده يمكن لفقيه أن يقولها على هذا المعنى يعامل بضد قصده ونمنعه منه، لكن لا أظن بأنه يمنع لغير هذا المعنى.

السائل: ما الفرق بين الحكم والتشريع وما دليل التفرقة، وكيف فهم بعض أهل العلم بأن الكفر العملي كله أصغر، من أين فهموا ذلك؟

الشيخ: الحكم جزء من التشريع وهو أوسع، يعني القاضي يُعمل تشريعاً يقال: حكم، كلمة الحاكم، الحاكم بما يسمى بقيامه على الأمة هذا حاكم، يسوس الناس هذا حاكم، فكلمة الحكم أوسع، ولكن ولا شك أن التشريع جزءٌ من الحكم، فمن الشرع فقد حكم، ودخول التشريع أنه كفر في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٤]، في الحكم دخول أولي، بل لو قال قائل: بأن هذا من قياس الأولى لجاز، وإن كان التشريع حُكمًا، أي حكم بأن هذا حلال، هذا تشريع، حكم بأن هذا حرام هذا تشريع، فإذن جاز لغةً وجاز شرعاً.

السائل: فهل هناك فرق بين التشريع العام والحكم في قضية معينة؟

الشيخ: هل أراد السائل أن يقول: هل هناك فرق بين التشريع العام والتشريع في الحكم في قضية معينة؟ لا، من قال في ديننا بأن هذا شيء، لو قال عن الماء: هذا حرام فهذا تشريع وهو حكم، والتشريع العام فقط حالة واحدة لا يوجد دين لا يشبه ديناً في بعض أجزائه ولكن أن يجعل أصل التشريع لغير الله عز وجل ولغير رسول الله، هذا اسمه تشريع عام، والآن الياسق الذي كان يحكم فيه جنكيز خان جزء منه مأخوذ من الإسلام، وبريطانيا فيها تشريعات توافق التشريعات الإسلامية، لا يوجد تشريع لا يوافق تشريع آخر فيه من كل وجه، ليس من المعقول أن توجد ديانة تجيز كل المحرمات التي تحرمها الديانات الأخرى قاطبةً، لابد أن تحرم أشياء وتحل أشياء.

فكلمة التشريع العام، التشريع العام المقصود به أن يجعل أصل التشريع لغير الكتاب والسنة، سواء توافق معه في الفرع أم لم يتوافق، ومن هنا فالتشريع قد يخالف الشرع في أصل الوضع وقد يخالف في صفة الوضع، كيف؟ في أصل الوضع أن يقول: هذا حلال والشرع يقول: حرام، أي أن يأتي ويقول: الخمر حلال، نحن الإسلام نقول: الخمر حرام، لكن قد يتوافق مع الأصل ويختلف في الفرع، فأن يقول: الخمر حرام، ونحن

نقول: الخمر حرام، لكن هو يقول: حكمها أن يسجن، ونحن نقول: حكمها أن يجلد، فهذا وافقنا في الأصل، في أصل الحُرمة، لكن خالفنا في صفة الحُرمة، ليس في أصلها ولكن في صفتها، كم هي؟ كم مرتبتها؟ أو ما هو حكمها؟ فكلاهما كفر.

وفقط هنا مسألة نحن دائماً نقول وأكررها مرات ومرات، الذين يريدون تطبيق الشريعة الإسلامية من خلال البرلمان هذه ليست شريعة إسلامية، وإن التقت مع الإسلام في الصفة لكنها اختلفت في التكييف، السبب أن أصل الحِل والحُرمة عندنا قال الله عز وجل، هم يقولون: هنا الحكم صار حراماً بحكم الشعب له، وإن التقى في الصفة، لكن اختلف في التكييف.

نرجع للموضوع، الآن السؤال ربما يسأل رجل جلس ليحكم بشريعة طاغوتيه، فسواء أصاب الإسلام أو لم يصب هو كافر، لأنه لم يجعل الشريعة حاكمة له، لكن السؤال هنا الذي يدور لو أن حاكماً قاضياً جعل الأصل هو الشريعة، ومرجع الأحكام هي الشريعة، لكن جاءه رجل فحكم بغير الشريعة، حكم في هذه المسألة بغير الشريعة، مع أن المسألة باطنية، يعني نحن بظاهر الأمر أنه حكم في ظننا بالشريعة مخطئاً، يعني رجل قاضي من قضاة الإسلام جالس يحكم بالشريعة، فجاءه رجل فحكم بغير الشريعة عليه، فلو سئل لوجد تأويلاً أنه حكم بالشريعة، فإذن المسألة باطنية قد يكون يعلم أنه قد حكم بغير الشريعة فالمسألة باطنية، هذا الفعل منه خروج من الملة أم أن هذا الفعل معصية، وهو مرجعه الشريعة وحكم في مسألة واقعة نازلة بين يديه بغير الشريعة، ورأينا صورتها الظاهرة، فهل خرج من الملة بهذا الحكم أم لا؟ هذا خلاف بعض أهل العلم قال: لا، قال: لا يكفر بها، هذه معصية من المعاصي.

والذي عندي أنها كفر الذي عندي أنه كفر بها، يعني لساني تريد أن تخرج كلمات شديدة في حق الجهلة اليوم، الذي رد علي وزعم أنني خالفت كل أهل العلم في هذه المسألة جاهل، ولذلك في بحثه أحضر كل الروايات إلا الرواية التي عليها المدار وهي رواية ابن مسعود، التي رواها الطبري في تفسيره وهي مشهورة وسندها صحيح بلا خلاف بين أهل العلم، وهو لما سُئل عن الحكم بغير حكم الشريعة، حكم القاضي فقال: هذا الكفر، لما سئل عن الرشوة في الحكم، كفر، فهذا نص يجب المصير إليه، ولكن مع ذلك أقول هي مسألة باطنية، لأننا من الصعب يعني في دولة إسلامية وقاضي يحكم بالشريعة، فيحكم بقضية وثم يقول

أنا حكمت بغير الشريعة وأردت الحكم بغير الشريعة، فهي مسألة باطنية فيعني المدار عليها تصوري، لا علاقة لها بواقعنا؛ لأن واقعنا أن مدار التشريع يدور على من نسب إليه حق التشريع، حتى أصل التشريع من له حق أصل التشريع؟ فهذه مجمع عليها ما في خلاف، والذي يزعم الخلاف ضال، لا يوجد أحد من أهل العلم قال: بأنه من قال بأن حق التشريع لغير الله، بل قالوا: كفر، لا يوجد أحد، هذه مجمع عليها، والله لو قلت بأن كلمة المخالف كفر لكنت قريباً من الصواب، لو قلت بأنه من خالف في تكفير من قال: إن حق التشريع يجوز أن يسند لغير الله، في الحِل والحُرمة ولم يكفره؛ لكفر، ما لم يكفر هذا لكفر لكان في قولي صواب لأنه خالف إجماعاً يقينياً لا خلاف بين أهل العلم فيه، لكن ماذا نصنع.

المهم الذي زعم بأنني في هذه المسألة خالفت المتقدمين والمتأخرين جاهل كمن يزعم بأن الصحابة رضي الله عنهم لم يكفروا تارك الصلاة، كمن يزعم بأن الصحابة رضي الله عنهم لم يكفروا تارك الزكاة، وللأسف الصحابة رضي الله عنهم المشهور عنهم لا يعرف عنهم، لا يعرف عن الصحابة رضي الله عنهم أصلاً، لا يُعرف عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم لم يكفروا تارك الزكاة، بل عرف عن بعضهم بما صرحوا به أن من ترك الزكاة فقط كفر، وبهذا أخذ جماعة من أهل الحديث منهم الشيخ البخاري، ارجع إلى مسند الحُميدي في آخره عقيدته وكفر تارك الزكاة، لكن جهل الناس بمسائل أهل العلم وأقوال السلف يوقعهم في هذا.

فزعم أحدهم جاهلاً راداً بظلم وافتراء بأني أتيت بما لم يأتي به الأوائل في تكفير الحاكم الذي يحكم بغير الشريعة في مسألة أنه كفر فزعم أنها خارجية، جهل!! ودليله الآية ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤٤]، هذا دخل في الحكم دخولاً أولياً، ودليله في التفصيل ونسبة السلف هو كلام ابن مسعود، يرجع للنص، وفي بحثه جاء وأحضر كل الكلام إلا هذه الرواية، من الظلم والافتراء والجهل والتلاعب.

السائل: كيف فهم بعض أهل العلم بأن التشريع من الكفر العملي والذي كله أصغر؟

الشيخ: لا يوجد من قال هذا؟

السائل: الشيخ الألباني.

الشيخ: لا، الشيخ الألباني لا يعتد بخلافه في هذه المسألة، الشيخ الألباني في موضوع الإيمان لا يعتد بخلافه لأن أصوله ليست مستقيمة، شرحنا يعني ماذا يقول بعض تلامذته، بأنهم اشترطوا للتشريع أن يكون كفراً في أن يقول المشرع هذا من عند الله، ولا يكون من عند الله، هذا جهل! لأنه لو قال أحد -سواء تشريع أو غير تشريع- قال قصة وقال: هذه من عند الله وهي ليست من عند الله يكفر، من نسب لله أمرًا وهو يعلم أنه ليس لله فقد كفر سواء تشريع أو غير تشريع هذا مسألة كفر، وأما الكلام عن الأحكام فهو كلام مستقل في هذا الباب، الكذب على الله عز وجل مسألة كفر غير التشريع هذا كفر مضاعف، التشريع كفر والكذب على الله كفرٌ آخر، وليس هذا كفر للكفر الآخر الذي هو الكذب على الله، أما كيف أخطأ؟ للبحث عن تفسيرات أسباب أخطاء أهل العلم كثيرة جداً، وزعمه أن الحكم بغير ما أنزل الله هو كفرٌ عملي، والكفر العملي هو كفرٌ أصغر هذه من أخطائه، ولما عرف ابن حزم رحمه الله الكفر وعرفه ابن تيمية رحمه الله، كلهم جعلوا الكفر والرد على الله عز وجل جحد ما أنزل الله عز وجل، ثم قالوا: «وكل عملٍ سماه الله ورسوله كفرا»، سموه كفر يعني كفر أكبر، كل ما سماه الله كفر فهو كفر، حتى لو كان جحداً ولم يكن تكذيباً، ماذا عرفه ابن حزم؟ «الكفر هو الجحد أو رد ما أمر الله»، جحده أو رده، وقال: «وكل ما سماه الله كفرا من قول أو عمل».

ولما نقول الإيمان قولٌ وعمل ماذا قال؟ قال العمل كله ليس ركنًا، العمل ليس ركن صحة ولكن جعله شرط كمال، وهذا بخلاف الألباني في هذه المسألة لا يعتد به لا يلتفت إليه، قواعده منهارة في هذا الباب رحمه الله، والمعاصرون الذين اشترطوا تكفير المشرع بشرط أنه لا يكفر إلا إذا قال: إنه من عند الله، هذا شرطٌ ضال بدعي لم يقل به أحد من أهل العلم، وفرقٌ بين الوصف وبين علة الحكم، يعني لما هم فقد تعلقوا بكلمة هل الأحكام تؤخذ من كلام لابن كثير في البداية والنهاية مع أن كلامه مضبوط وصحيح، لكن هل هذه المسألة خفية لدرجة أن يعاد فيها إلى ما قاله ابن كثير فقط في البداية والنهاية؟ هل خفية لهذه الدرجة؟ مع أن كلامه صحيح، فعندما يصف كفر جنكيز خان كان يضع لهم الشرائع ويقول: هو من عند الله، هو يصف لكن بما كفر جنكيز خان.

ثانياً: وهذا حتى نرد هذا الرد القاسم ويجب أن نحفظه يا قوم جنكيز خان لما وضعه لم يكن مسلماً، انتبهوا فقط هذه لتنهي المشكلة، وما قالها أحد قبل هذه الجلسة، لما وضع جنكيز خان الياسق وضعه قبل

أن يُسلم، فقومه كفرةٌ جهلة ظنوا أن هذا نبي يوحى إليه ظنوه رجل رؤيوي كما يقول النصارى، أو كما يقول المشركون: ساحر له علاقة بالغيب، على دينهم، فكان يقول: الله أعطاني إياه، كيف الله أعطاك إياه؟! لأنه ابن الله كما قالت أمه: ولدت من ابني بشعاع الشمس، أبوه شعاع الشمس، أحبل شعاع الشمس أمه فولدته، فهم مشركون وثنيون، انتهينا منهم، لماذا هم كفار جماعة جنكيز خان؟ لأنهم في كل باب من أبواب الكفر، وثنيون في اعتقادهم، مشركون في عبادتهم، يقول: هو من عند الله، كفر ظلمات بعضها فوق بعض، انتهينا منهم.

ولما جاء التتار وأسلموا –انتبهوا هؤلاء– الذين أسلموا وعلموا دخلوا في الدين وصار عندهم مشايخ كما وصفهم ابن تيمية، ووصفهم بعدها ابن خلدون، ووصفهم ابن كثير، كان معهم إمام وشيخ وتيمورلنك معه علماء وماشيين معه حتى شيعة، يعني تيمورلنك كان شيعي عنده علماء الشيعة، انتهينا من جنكيز خان، وضع لهم الياسق وراح، فسرى الياسق في أبنائهم، السؤال العلماء كفروهم ولا ما كفروهم؟ لعملهم الياسق، كفروهم لأخذهم شريعة أبيهم، فالسؤال لما أخذ الأبناء شريعة أبيهم كانوا يعتقدون أن هذه الشريعة من عند الله عز وجل؟ أليس اليوم يشترطوا جماعتنا لا يكفر المشرع الآخذ إلا إذا اعتقد من عند الله ولا يكون من عند الله، على ما تقدم من الكلام أكثر من مرة من عدم إمكانية أن يكون الشيء مانعًا ويكون شرطاً.

لكن الأبناء هل هناك أحد من الأبناء كان يأخذ بالياسق ويعمل به كشريعةٍ يلتزمها، هل كان أحد منهم يقول: إنني أخذها من جهة أبي لأنها أوحيت له من عند الله عز وجل؟ نحن نتصور أن هؤلاء أسلموا بإسلامهم المعروف الذي لم يقبله العلماء، حتى تحول الكثير منهم إلى إسلام صحيح، التتار أسلموا إسلاماً صحيحاً، وهم الآن يعيشون في سيبيريا ويعيشون في موسكو تتار مسلمين لا يأخذون بالياسق ولا بغيرها، لكن الياسق الذي كان يعمل به أبناء جنكيز خان، وهم على الإسلام الذي أسلموا به، على دينهم الذي هم عليه، فيما لم يقبله أهل العلم منهم، وقال ابن كثير كفار وابن تيمية عالج موضوع خاص وإن كان يكفرهم لكن عالج موضوع قتالهم وأنه ممتنع شرعًا، لكن ابن كثير ماذا يقول عنهم؟ كفار.

طيب سؤال –انتبهوا قبل أن تجيبوا– هل كان هؤلاء الذين يزعمون الإسلام ويعملون بالياسق وقد كفرهم ابن كثير ومن معه من العلماء، هل كانوا يقولون: إننا نعمل بالياسق لأن الله أوحاه لأبينا جنكيز خان، هل يتصور هذا؟ لا، انتهى هذا الشرط، فهؤلاء العاملون قد كفروا بالله بالتزامهم بشريعةٍ لا يهم عندهم أبوهم جاء بها وهم يلزمون أن أباهم لم يأت بها من عند الله وإنما وضعها من جهة عقله، بعد أن أسلموا أقل الشيء بعد أن أسلموا، يعني رأوا الإسلام وآمنوا أن محمداً رسول الله وخاتم النبيين لكنهم في الشريعة قالوا: نحن نلتزم شريعة أبينا جنكيز خان، هل كانوا يعتقدون أن الله أوحى له بهذا؟ هل كفرهم العلماء؟ ابن كثير وغيره كفروهم لأنهم يعتقدون أن أباهم كان يعتقد أنه نبي وليس بنبي؟!

هم كفروهم لالتزامهم بشريعةٍ غير شريعة الإسلام، وهؤلاء بالتزامهم بها ليس لأنهم يعتقدون أنها من عند الله وأن الله أوحى لأبيهم وجدهم جنكيز خان، وإنما لمجرد الالتزام، فإذا كان الالتزام بشريعةٍ غير شريعة الرحمن كفر بغض النظر عن اعتقاد صاحبه فيها، فماذا تقول: عمن شرعها ابتداءً؟! يعني معقول هؤلاء الأتباع كفار والإمام الكبير مسلم!! انتبهوا لهذه النقطة لأهميتها.

جزاكم الله خيراً بارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الستون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلً بالإخوة الأحبة مع الدرس الستون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

أول ما يلاحظه الناظر في هذه الآية أن بدايتها ومطلع هذا التذكير لهذا الأمر وهذا الخبر عن بني إسرائيل هو المخالفة في المطلع بينه وبين ما تقدم وما سيأتي، الأخبار التي تقدم ذكرها في السورة عن بني إسرائيل افتتحت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾، وهذا شرحناه، وقلنا: إن «إذ» هو لما انتهى و«إذا» لما استقبل، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤)﴾ [المدثر: ٣٣-٣٤]، فإدبار الليل قد تم وإسفاره مستقبل لما سيأتي.

لكن هنا بعد أن رأينا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣]، هنا هذا الخبر لم يأتي بمثل هذا السياق ولم يقل سبحانه وتعالى: وإذ اعتديتم في السبت ولكنه جاء هنا بصيغة الإخبار عن غيرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، فهو مطلعٌ يختلف، بعدها عاد إلى صورة المطالع الأولى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، فقط في هذا الخبر القرآني عن بني إسرائيل نراه مختلفًا، فما هو السبب؟

نبه على هذا الإمام الشيخ الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» وهو فقط فيمن رأيت قد مالا إلى هذا التنبيه، وهو أنه يقول: بأن ما ذُكر من الأخبار قد علمت في صحائف بني إسرائيل، أي هذه الأخبار ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، في وقت موسى عليه السلام، ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى﴾، هي إخبار عن موسى عليه السلام مع قومه، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ هو إخبار بني إسرائيل عما يقولونه عن موسى عليه السلام، ولكن هذا الخبر لم يكن في كتبهم المقدسة وكتبهم المعتمدة، يعني هذا لم يقع مع موسى عليه السلام ولم يقع له ذكرٌ في الكتب الخمسة المسماة بالتوراة، وهذا صحيح.

وفي الحقيقة من استقرأ الكتب الخمسة المسمى بالتوراة في مجموع الكتاب العهد القديم، لا يجد ذِكرًا أبدًا لهذا الخبر وهو ذكر ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾، الاعتداء في السبت لم يرد له ذكر، قصة القرية التي اعتدت يوم السبت في اقترافها لما حرم الله عز وجل من الصيد والعمل خلافًا لما أمر الله عز وجل به بني إسرائيل من وجوب الدعة والراحة وترك العمل لم يرد له ذِكر أبدًا في كتبهم، وحتى في الكتب الشارحة التي بعدها في ذكر الأنبياء والملوك، لم نرى لها ذِكرًا قط، إلا وجدته في خبرٍ واحد في «حزقيال»، الخبر في الإصحاح الثاني والعشرين في الفقرة الثامنة، ويقولون آية اليوم تشبهًا بالقرآن كما يقول النصارى آية، وإلا هذه التسمية تشبيهًا لكتبهم بالقرآن وهي ليست في القرآن.

ففي الإصحاح الثاني والعشرين في الفقرة الثامنة في «حزقيال» يقول: «ازدريت أقداسي ونجست سبوتي»، طبعًا هناك من كتبها على وجهٍ آخر، ولكن الذي وجدته أنا في الكتب المطبوعة من قبلهم بهذا اللفظ: «ازدريت أقداسي»، هناك من جعلها على معنى «احتقرت مقدساتي»، وهم يختلفون في الترجمة كثيرًا بينهم، ولكن ما يهمنا هو قولهم: «ونجست سبوتي» ففي هذا ذكر لأمر اقترافهم المعصية في أمر يوم السبت فقط، وليست لها ذكر في بقية الكتب بالتفصيل الذي ورد في القرآن.

في القرآن ورد هذا الخبر في ثلاث سور:

– ورد في سورة «البقرة» وهذا الذي بين أيدينا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥].

– وفي سورة «الأعراف» في ذكر القصة، قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

– وفي سورة «المائدة» عند قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وهنا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ [البقرة: ٦٥]، والتفصيل الذي لهذه القصة موجود في سورة «الأعراف»، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾ [الأعراف: ١٦٦]، وفي هذا تفصيلٌ مهم في سورة «الأعراف» ودلالة على أن قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾، هو مرتبة ثانية من مراتب العقوبة. ذلك بعد أن عتوا، دل على أن هناك عقوبة سابقة قد سبقت تحولهم ومسخهم إلى قردة، هناك سابقة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا﴾ [الأعراف: ١٦٥-١٦٦]، جعل العقوبة التالية وليست الأولى أن جعلهم قردة علامة أنه وقع عليهم عذابٌ فيه مجالٌ للتوبة فيه مجالٌ للعودة، فلم يقع منهم العودة فعتوا، أي ازداد عصيانهم صلابة، ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ [الأعراف: ١٦٦]، صار عاتٍ أي صلبًا، فلما ازدادت معصيتهم صلابةً وقوة ووغولاً في الشر ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾ [الأعراف: ١٦٦]، فهذه مهمة عظيمة في هذا الباب ولها مثيلٌ في القرآن لما يأتي أمر سورة «التوبة» إن شاء الله نشرحه، فإذن ذُكر هذا الأمر في ثلاث سور.

نعود إلى السبب الذي نرى هذا المطلع المخالف، نقول: بأن الطاهر بن عاشور رحمه الله في «التحرير والتنوير» نبه وقال: السبب ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، لأن هذا لم يذكر كبقية ما ذكر من الأخبار، يقول: الأخبار السابقة والتالية مذكورة في التوراة في الأسفار الخمسة، ولكن هذا ليس له ذِكرن وهذا صحيح ليس له ذِكر، فقال: دل هذا على إعجاز القرآن في أنه ذكر هذا على صيغةٍ تخالف الصيغ الأخرى فدل على أنه يعلم ما في كتبهم، ويخبر عما ليس في كتبهم، وهذا رد على من زعم بأن القرآن ظِلٌ للتوراة، ففي القرآن أخبار عن بني إسرائيل وعن النصارى –عن أتباع المسيح عليه السلام الذين أصابوا في اتباعه أو خالفوا اتباعه– أخبار لم توجد في كتبهم، عن عيسى عليه السلام في

الإنجيل لا توجد أخبار، وإنه ينبئهم بما في بيوتهم، هذه لم تذكر عندهم، وغيرها، وكذلك هذه القصة لم تذكر في كتبهم، فمن زعم أن القرآن هو ظلٌ للتوراة وظلٌ للإنجيل فقد كذب؛ فهذا خبرٌ عن بني إسرائيل لم يذكر في كتب بني إسرائيل، إنما جاء فقط في نصٍ «ونجست سبوتي»، فليس فيه الذكر والتفصيل الذي ورد في القرآن.

فقال الطاهر بن عاشور: لما كان أمر هذه القصة وهذا الخبر ليس مذكورًا في كتبهم فاختلفت الصيغة والمطلع فيه؛ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، وأين علمهم به؟ فهو ليس في كتبهم فكيف علموه؟ دل هذا على أحد أمرين:

- إما أنهم كانوا يعلمونه في كتبهم فأزالوه؛ ذلك لما في إخباره من تقبيحٍ لهم، تقبيح شديد؛ فأخفوه، فأزالوه، فأراد أن يقول القرآن: أنتم تعلمونه مع إخفائكم له.

- وإما أنهم لا يعرفونه وإنما يعرفوه علماؤهم فقط، فمعرفة علمائهم له كفاية لهم؛ لأن العلماء هم المخاطبون دون غيرهم، هم الذين إذا اتبعوا الحق اتبعهم الأتباع ومن ورائهم.

وهذان المعنيان يؤيدهما المطلع في سورة «الأعراف» يقول الله عز وجل: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، ما معنى ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾؟ إي اجعلهم يفضحون ما أخفوه، دعهم يذكرون ما ستروه، ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ كما أنك تقول لآخر: اسأله، اسأله، ذلك لأنه ينكره أو يخفيه، ولكنك إذا ذكرته به وأطلعته عليه خنس وعرف أنه الحق، فقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾، لما في ذلك من تبكيتٍ لهم، ولما في ذلك من كشفٍ لما أخفوه من الشر الذي جرى منهم في هذه الحادثة.

إذن هذه المخالفة في ﴿وَإِذْ﴾، ﴿وَإِذْ﴾، وهنا جاء ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، في ذلك إعجازٌ قرآني، أنه يخبر عن شيءٍ يكتمونه، فإن تداولوه إما تداولوه سرًا من غير أن يذكروه في كتاب، وإما أنه فقط يذكره علماؤهم ويخفونه على أتباعهم، وأحد الأمرين شرٌ عليهم، سواء هذا صح أو هذا صح فالأمر يسير في بيان الشر لهم، والشر عليهم.

وهنا يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، الكثير من أهل العلم يقول: ولقد عرفتم، والفرق ينبه القرطبي رحمه الله في «الجامع لأحكام القرآن» ينبه على أن الفرق بين عرفتم وعلمتم أن العلم هو للحال والمعرفة هو للشخص، فتقول عرفت فلان، أي عرفت شخصه، ولكن علمت فلان، أي علمت حاله من كمالٍ ونقص. وهنا يصح أن نقول ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾: أي عرفتم أشخاص من فعلوا هذا الفعل، إذا كانت علمتم بمعنى عرفتم فيكون تذكير بأنكم حتى تعرفون أسمائهم، تعرفون أشخاصهم، وإذا بقيت على معنى علمتم بمعنى علمتم فإنها تكون على معنى أنكم تعلمون أحوالهم وتعلمون هذا الخبر وما جرى فيه.

ثم هنا جاء بهذا التقرير العظيم والتوكيل ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، فدل هذا أنهم لا يمكن أن ينكرونه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾، كلمة ﴿السَّبْتُ﴾ عند أهل العلم على معنيين وكلاهما في الحقيقة يؤدي إلى حالٍ واحد: إما بمعنى القطع يقول: سبت أي قطع، وإما أن تقول: سبت إي استراحة، فيقول: يوم السبت يوم الاستراحة، ويقول: السبت أي القطع، فيصح أن يقول سبت بهذا المعنى وسبت بهذا المعنى في لغة العرب.

ولأهل العلم نظرة إلى أسماء الأيام، يقولون: الجمعة والسبت لا نراها متعلقة بالعدد، الأحد متعلق بالعدد، أحد واحد، الإثنين الثلاثاء الأربعاء الخميس، ولو جرت على هذا لقال: الخميس السادس والسبت السابع، قال: الأيام جرت كلها تسميةً لعددها، والأحد هو اليوم الأول الذي بدأ الله عز وجل فيه خلق السماوات والأرض، وأتم الله عز وجل الخلق كله يوم الجمعة اليوم السادس، السماوات والأرض خلقهما في ستة أيام، فانتهى، فكان اليوم السادس هو يوم الجمعة، لماذا يوم الجمعة؟ لأنه قد جمعت أي تم خلق السماوات والأرض عندما أنت تتم واحد فتجمعه، الثاني فتجمع الثالث ... فإذا تم جمع الجميع كان جمعة.

وكان السابع هو يوم السبت، ما معنى السبت؟ أي قطع كل شيء وانتهى، أو كل شيءٍ قد استقر على ما هو عليه ودعا على ما فيه، وهذا السبت، فكلاهما على معنى واحد السبت بمعنى القطع والسبت بمعنى الدعة والاستراحة، أي كل شيءٍ خلقه الله عز وجل في ستة أيام السماوات والأرض فانتهى، فتم قطع كل شيء في اليوم السادس قطع لم يكن هناك عمل في خلق السماوات والأرض في خلقها، وإما أن يكون كل شيء قد استقر مستريحًا على ما خلق عليه، ولا نريد أن ندخل فيما يقوله اليهود أن اليوم السادس هو

الذي استراح فيه الله، الله عز وجل نفى ذلك وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)﴾ [ق: ٣٨]، أي من تعب فالله عز وجل لا يتعب جل في علاه، ولكن الوصف ليس لله عز وجل السبت ليس وصف لله عز وجل، ولكنه لِما خَلَق الله عز وجل من مخلوقات.

والله عز وجل يقول عن السبت: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ١٢٤]، وهنا يجب أن نعلم ما هو الاقتراف الذي اقترفوه في السبت؟ المعلوم أن الأنبياء كلهم قد أخبروا أقوامهم على اليوم الذي ينبغي أن يستريحوا فيه، يجتمعوا فيه للعبادة فلا يعملون ويكون هذا اليوم لهم عيدًا، فكيف حصل هذا؟ العلماء على خلاف والأحاديث تثبت الحديث في هداية الله عز وجل لهذه الأمة يوم الجمعة يبيّن المعنى، هناك من يقول وهم جمع المفسرين يقولون هذا القول: أن الله عز وجل أمر أنبيائه موسى وعيسى عليهما السلام بأن يجعلوا يوم الجمعة يوم عيد، ولكن اليهود خالفوا، فقالوا: لا، نريد السبت لأنه يوم الراحة، فنريد أن نستريح، والله عز وجل أراد يوم الجمعة لِما خَلَقَ الله عز وجل في الجمعة من حق.

ما هو يوم الجمعة؟ الله عز وجل خلق السماوات والأرض، الله عز وجل خلق آدم فيه، الله عز وجل أنزل آدم من الجنة ويوم القيامة تقوم الجمعة، يعني الله عز وجل جمع كل شيء وخاتمة كل شيء هو أعظم ما فيه، الخواتيم هي أعظم ما فيه، اليوم الخاتم هو أعظم ما فيه هو يوم جائزة، فلذلك الله عز وجل خلق يوم الجمعة وجعل فيه بركة عظيمة جدًا، يكفي أن فيه ساعة مستجابة منذ أن خلقه الله عز وجل ليس فقط بتشريع النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن منذ أن خلقه الله عز وجل، خلق يوم الجمعة وفيه ساعة مستجابة، على خلاف بين العلماء أين هي وأكثر أهل العلم على أن ساعة الإجابة هي آخر ساعة من يوم الجمعة.

والساعة في السُنة هي قريب من الساعة في يومنا هذا، الآن عندنا اليوم أربعة وعشرين ساعة، فالساعة لحديث الجمعة: (مَنِ اغْتَسَلَ يَومَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ، فَكَأَنَّما قَرَّبَ بَدَنَةً، ومَن رَاحَ في السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَكَأَنَّما قَرَّبَ بَقَرَةً، ومَن رَاحَ في السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ، فَكَأَنَّما قَرَّبَ كَبْشًا أقْرَنَ، ومَن رَاحَ في السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ، فَكَأَنَّما قَرَّبَ دَجَاجَةً، ومَن رَاحَ في السَّاعَةِ الخَامِسَةِ، فَكَأَنَّما قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإمَامُ حَضَرَتِ المَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ)، فدل على المقاربة على أن ساعة القرآن والسُنة التي يتحدث عنها هي الساعة المقاربة

لساعتنا اليوم، فآخر ساعة من يوم الجمعة المقصود به قريب من الساعة التي نحن نقسم بها يومنا هذه الأيام الساعة المعروفة.

فالذي عليه الأكثرون أن الله عز وجل أمر الأنبياء أن يخبروا أمتهم باليوم الذي يعيدون فيه، هو يوم العيد، فاليهود طلبوا ألا يكون الجمعة، بل أن يكون السبت حتى يستريحوا، فلما اختاروا هذا اليوم؛ الله عز وجل الله عز وجل أوجب عليهم أوامر أشد مما هو ينبغي أن يكون؛ وذلك عقوبةً لهم، فأمرهم يوم الجمعة بأوامر منها ألا يعملوا وأن يستريحوا، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ١٢٤]، و ﴿اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي صار بينهم نقبله أو لا نقبله، أو أنهم اختلفوا فيه مع يوم الجمعة الذي قدر عليهم من قبل الأنبياء، هذا على الوجه الذي قاله المفسرون.

وفي الحديث الصحيح أن الله سبحانه وتعالى يقدر للأنبياء حركة ويقدر للأمم حركة ما تكون في الأئمة والقادة ويسري هذا في الأتباع –وهذه شرحت كثيرًا سابقًا أمر عليها بسرعة– من الذي اختار الجمعة؟ من الذي اختار يجمع بالناس الصلاة ويجمعهم ليعظهم في يوم الجمعة من اختارها؟ هل اختارها النبي صلى الله عليه وسلم؟ هل أرسل لهم يقول لهم: اختار لكم يوم الجمعة أن تجمعوا فيه، وأن تجتمعوا فيه؟ أم أن الصحابة رضي الله عنهم اختاروه بأنفسهم؟ الصحابة رضي الله عنهم اختاروه بأنفسهم، فالأمة اختارت لما في هداية الله لها ولما في قلوبها من الحق أن تختار يومًا يوافق الحق عند الله عز وجل، وهذه مكرمة عظيمة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ: (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات)، لهداية الله له ولِما في قلبه من النور ومن المحبة لله عز وجل أنه يفهم عن الله عز وجل مراده، وهذه من فقه العبد لأسماء الله وصفاته التي توجب قدرًا أن يفهم العبد شرع الله عز وجل وقدره.

كيف يفهم شرعه؟ لماذا عمر رضي لله عنه قال: «اجعل لنا يا رسول الله مقام إبراهيم مصلى»؟ فالله عز وجل أمرهم أن يجعلوا مقام إبراهيم مصلى، أي عمر رضي الله عنه اهتدى لأن يكون هذا المكان مكان عبادة خاصة، فما الذي أنار قلبه؟ هو محبة هذا القلب لله عز وجل، حتى يصبح هذا القلب فيما يحب ما يحبه الله عز وجل، والأقدار كثيرة في هذا الباب والدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم يختار من أقدار فيما يحب على ما يختاره الله عز وجل، كما قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم: (لو اخترت الخمر غوت

أمتك)، هذا في القدر، هذا بابٌ عظيم في هذا الأمر، فلما اختار الصحابة رضي الله عنهم الجمعة، دل على أنهم هُدوا إلى الحق كما خلقه الله عز وجل من يوم الجمعة.

واختار اليهود يوم السبت؛ ابتعدوا لم يصيبوا، بأنفسهم اختاروا، فالله عز وجل وكل لهم أن يختاروا يومًا يجعلوه عيدًا لهم فاختاروا السبت، هل حدث في قلوبهم أن الجمعة هو الحق فمالوا إلى السبت ليستريحوا؟ يمكن هذا، أنهم علموا الحق فحادوا عنه، ويمكن أنهم لم يهتدوا إلى الحق أصلاً لشيءٍ في قلوبهم يمنع هداية الحق، والنصارى ازدادوا ضلالاً وبعدًا فاختاروا الأحد، وفي الحديث: (هم السابقون ونحن اللاحقون)، وقد سبقناهم بيوم الجمعة فتحول الحال، هم سبقونا في المكارم في الزمن، فاليهود قبلنا في الزمن وأصابوا من الخير قبلنا في الزمن -أنا أتكلم عن الموحدين- والنصارى أصابوا الخير في الزمن، ولكن نحن سبقناهم قدرًا في القدرِ والرفعة، فلذلك الجمعة أولاً بعد ذلك يأتي السبت بعد ذلك يأتي الأحد، فالنصارى اختاروا أول يوم وهو الأحد، اليهود اختاروا اليوم الذي يلي الفضل وهو السبت، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم اختارت يوم الجمعة وفي ذلك تقديرٌ عظيم لفضل هذه الأمة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، هنا والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ [النحل: ١٢٤]، أي ما فرض الله عز وجل فيه من فرائض بسبب اختلافهم فيه، إما اختلافهم أنهم أبعدوا عن الحق وإما أنه قد وقع فيهم الخلاف حوله، وإذا وقع الخلاف رفع الخير، كما في ليلة القدر، تحقا رجلان فرفعة ليلة القدر، كل هذا المعنى موجود.

الله عز وجل يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، مازال الخطاب لبني إسرائيل ومازال الخطاب عن أخبارهم، ما هو موطن هذا في كل مطلع وفي كل خبر؟ يعني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ هو بالنسبة في هذا السياق لأن الله عز وجل يحدثنا عن بني إسرائيل فيخبرنا عن أخبارهم، وما جرى منهم من معاصي وما جرى منهم من حيل، وهنا الحيلة سنبين هذا ومن قال به، هذا جرى من الحيلة، الله عز وجل ذكر الفضل، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة: ٦٣]، بيّن على أنه ينبغي أن يأخذوا ما أتيناكم وقال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، الأخذ بالقوة هو المناقض للأخذ بالحيلة، أن تجابه الأمر كما هو ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، وهذا يخالف الحيلة، أن تأتي إلى الشيء بنفسه فتحمل هذا الشيء حملاً كما

يجب، ولكنه أراد أن ينبه بعدها على أنهم لم يأخذوا ما أخذ عليهم الوثاق به أو عليه. فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)﴾ [البقرة: ٦٣]. ثم جاء الأمر بأنهم لم يأخذوا هذا بقوة، وإنما تلاعبوا على ما سيأتي ذكره.

إذن لماذا جاء السياق ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾، من أجل هذا البيان من أجل أن يبيّن أنهم نقضوا العهد الذي أُخذ عليهم بأن يأخذوا ما أمر الله عز وجل به بقوة، هذا مهم جدًا، ولماذا يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠]؟ لأنه في سياق الولاء والبراء، وهذا سيأتي في سورة «المائدة»، ولماذا ذكر الله عز وجل: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، سيأتي لماذا ذكر هذا السياق في سورة «الأعراف»، فالخبر يتنوع أمره بحسب سياقه مع أنه هو دلالة على شيءٍ واحد ولكنه يأتيه من وجوهٍ متعددة توافق السياق.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾، الاعتداء هو من العدو والعدو هو من التجاوز، ولذلك يقولون في السباق سباق العدو؛ لأن كل واحد يريد أن يسبق صاحبه، وإذا سبقه تعداه، نحن نقول: تعدى، فتاتي التعدي بمعنى التجاوز، أي تجاوزه، ومن هنا الولاء والبراء، ونقول: الولاء والمعاداة، الولاء يواليه من المولاة يمشي وراءه وأصلها من ولي الشيء أي تابعه، فيقال: فلان ولي فلان في الأمر أي مشى وراءه، والمعاداة من التعدي وهو التجاوز، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾، ومنها أخذ العدو لأنه يتجاوز حق الآخر، عدو فهو يتجاوز حقك، وعدوًا لك تجاوزك، ومن هنا صار لكلمة العدو دلالة بنفسها على معنى مفهوم في النفس لا يحتاج إلى شرحٍ طويل، لكن هذا أصلها، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ﴾، أي تجاوزوا أمر الله عز وجل فيه، أين؟ ﴿فِي السَّبْتِ﴾، وهنا قالوا: ﴿فِي﴾ ظرفية، وقال بعضهم: تعليلية، ولا نريد ان نطيل في هذا الأمر.

وكيف حصل منهم الاعتداء؟ الذي عليه المفسرون وروية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال ابن كثير رحمه الله: وسنده جيد، في القصة المذكورة أنهم يرمون شباكهم يوم الجمعة، فتصيد يوم السبت لما ذكر الله عز وجل: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، فهذا خبرٌ من ابن عباس رضي الله عنهما والقصة ليس لها ذِكر في الكتاب الذي بين يدي بني إسرائيل، فلا يمكن أن

يقول أحد: أخذه ابن عباس من كتاب أهل الكتاب، لأنها لا توجد في كتبهم، فدل هذا على أن لابن عباس رضي الله عنهما اطلاعٌ آخر هو اطلاع الشريعة المحمدية فيه وليس من اطلاعٍ آخر، لو قال أحد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾، أي اعتدوا اعتداءً مباشرًا بأن صادوا يوم السبت، له وجه يعني لا يناقش، والأغلب على أنها باب الحيل وهي موافقة للسياق: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، فهم أخذوه ولكن بتحايل، في السبت وقفوا ولم يشتغلوا ولكنهم اقترفوا تحايلاً في هذه المعصية.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ [البقرة: ٦٥]، قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾، هنا القول هو قولٌ كوني، ما قال لهم شريعة أي أنتم كونوا قردةً أي أنكم أنتم حولوا أنفسكم إلى قردة، وإنما هنا الأمر على خلاف إرادتهم وهذا يدل على غلبة القدر على الإنسان، فالإنسان يمرض بغير إرادته، والانسان يسقط من غير إرادته ويرتعش مرات كثيرة من غير إرادته، دل على أن الإنسان لا يملك نفسه مُلكًا كاملاً وتامًا ومطلقًا، فالله يقول لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾، فكانوا قردة، وهم لا يحبون أن يكونوا قردة، فقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾، قول كوني، غالب عليهم، قاهر على إرادتهم، فكانوا قردة.

واختلف أهل العلم هنا من المفسرين بين جمهورٍ وبين قول مجاهد، هل كانوا قردة بأجسامهم؟ أم بأرواحهم؟ أي مسخت أخلاقهم حتى كانوا قردة مع بقايا أجسامهم على ما فيها، هذا قاله مجاهد، وقال الأكثرون: لا، لو وقع هذا لما وقعت العبرة، كيف؟ نحن نرى أناسًا هنا، لكن كيف يمسخ في داخله قردًا؟ قال بعض أهل العلم أكلت العرب الإبل فأصابها ماذا؟ الإبل ما هي صفتها؟ صفتها الصبر، وقالوا: وأكل الفُرس، الفَرس فأصابهم التيه والكِبر، وقالوا: وأكل الغرب –الذين هم الروم– أكلوا الخنزير فأصابتهم الدياثة، وأما الزنوج فأكلوا القردة فأصابهم الخفة والطرب والرقص، هذه من كلمات أهل العلم ونحن قلنا مرةً ما يقول العلم بأن أسماء الأمم اشتقت من أخلاقها، أهل فارس من الفرس والعرب من الإعراب والإبانة والروم من الروم والمخاتلة.

يعني كل هذا يدور في نفس السياق فيما نحن فيه، فلو وقع في نفوس هؤلاء المسخ النفسي الداخلي لما كان عبرة في الآخرين، نحن نرى في زماننا هذا أناسًا في نفوسهم نفوس قردة على هذا المعنى أهل استهزاء

وأهل لعب وأهل الطيش وخفة ولا يرتدعون ولا يأخذون الأمور بقوة في أمر دينهم يلعبون، ولكن هل يعتبر الناس؟ هل في ذلك عبرة للآخرين؟ لكن لو أنه انقلب الجسم سواء انقلبت النفس إلى نفس قرد أو بقيت نفسه نفسًا إنسية فهذا تقع فيه العبرة، أي أن يقوم الرجل من نومه أو تقوم المرأة من نومها فيكون جسمه قد تحول من إنسي إلى قرد ففي هذا عبرة، ولذلك قول الجمهور في أنهم مسخوا قردة أي بأجسامهم، بغض النظر هل نفوسهم بقيت على ما يذكر كثير من الرواة أنه مسخت أجسامهم وبقيت نفوسهم على ما هي عليه، أو مسخت أجسامهم وكذلك نفوسهم، أي صاروا قردة في كل شيء، فالمهم العبرة قد حصلت.

الأمر الثاني الذي يتكلم عليه أهل العلم وهو هل هؤلاء الممسوخون هل لهم نسل؟ يعني هل القردة التي نراها اليوم في بعضها من نسلهم؟ فقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾، دل على أن القردة معروفة قبلهم، أي يوجد قردة مخلوقة قردة، ولكن السؤال هل الإنسان إذا مسخ قردًا هل يتناسل؟ قال بعضهم: نعم، وابن العربي المعافري المكي رحمه الله نصر هذا القول، واحتج له بالحديثين المشهورين في أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم عن الفأر قال: (فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ لا يُدْرَى ما فَعَلَتْ، وإنِّي لا أُرَاهَا إلَّا الفَأْرَ)، اختفت أمة من بني إسرائيل والحديث رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن أمةً من بني إسرائيل فقدت، قال صلى الله عليه وسلم: (فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِن بَنِي إسْرَائِيلَ، لا يُدْرَى ما فَعَلَتْ، ولا أُراها إلَّا الفَأْرَ، ألا تَرَوْنَها إذا وُضِعَ لها ألْبانُ الإبِلِ لَمْ تَشْرَبْهُ، وإذا وُضِعَ لها ألْبانُ الشَّاءِ شَرِبَتْهُ)، فإذن قال صلى الله عليه وسلم: الفأر ما أراها إلا الأمة التي فقدت من بني اسرائيل.

وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال عن الضب قال: (ما أراها إلا مسخًا من مسوخ بني إسرائيل) أو الحديث، فهو رأى أن الضب مسخ ما اراها، والحديث في صحيح مسلم أنه ما من أمة مسخت فكان لها نسل، قال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللهَ لم يجعلْ للمسخِ نسلًا ولا عقِبًا، وقد كانتِ القِردةُ والخنازيرُ قبلَ ذلك)، الصواب أن الأمة إذا مسخت لا ينسل لها نسل، لكن كيف؟ وهذا هو الصواب، أن الأمة الممسوخة لا ينسل لها النسل، وكيف تبيد؟ هل تبيد بأنها تتناكح فلا تتوالد؟ أم أنها إذا مسخت لم تأكل ولم تشرب؟ لأن هناك من العلماء من قال: أنه لما مسخوا لم يأكلوا ولم يشربوا ثلاثة أيام فماتوا، أم يجري عليهم المجرى القدري في أنهم حتى لو تناكحوا وأكلوا وشربوا لا ينجب بعضهم من بعض، وهذا الأمر فيه خلافٌ يسير يعني لا يضر هذا وهذا وليس في ذلك منفعة، ولكنه من الواجب أن نقول: بأن الأمم التي مسخت لا

تتناسل فلا يكون لها أولاد إذا مسخت، فهؤلاء القردة وهذا الضب وهذه الفئران ليس منها أحدٌ من الذي مسخ.

وأين نذهب بالأحاديث هذه أحاديث (ما أراها) وهذا يفسر قوله صلى الله عليه وسلم في قضية تأبير النخل، أن النبي صلى الله عليه وسلم ظن فقال: (ما أرى)، أي من جهة قبل أن يرده الخبر، النبي صلى الله عليه وسلم يتأول الأمور هكذا يقرأ الأحداث أنها تقع على هذا المعنى فيأتي النص الشرعي والنص الإلهي له بالقطع أنه صواب أو خطأ، فلما النبي صلى الله عليه وسلم نهاهم عن تأبير النخل وقال: (أرى أنه لا ينفع)، فلم يؤبروا النخل أي لم يلقحوه فلم يخرج النخل على ما يعرفونه من الصلاح، فقال: (هذا أمرٌ من أمور دنياكم وأنا رأيٌ رأيته)، فهذا من الأمور التي ينبغي أن يلاحظ فيها لفظ النبي صلى الله عليه وسلم، لما قال: ما أراها الا الأمة التي فقدت أو أراها إلا مسخ عن الضب والنبي صلى الله عليه وسلم أكل أمامه الضب، وضع الضب فأراد أن يأكل منه فأخبروه فرفع يده وعلل عدم الأكل في أنه لم يكن من طعام أهل بلده، وأكله الصحابة رضي الله عنهم على مائدته وهو يرى، فدل ذلك على الإقرار.

فإذن قوله صلى الله عليه وسلم: (ما أراها) هذا من جهة الرأي ما أراها، أنا أرى هذا أظن هذا، فدل هذا على أنه ليس من وحي الله عز وجل له.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، القردة والخنازير، ولم يجمع الله عز وجل القردة والخنازير إلا في سورة «المائدة» وقد تقدم هذا، كيف؟ قال بعض أهل العلم: الشباب قردة لخفتهم والخنازير هم الشيبة، مسخ الله عز وجل الشباب قردة ومسخ الله عز وجل الشيبة خنازير، وقيل: تم المسخ على مرتبتين – وهذا قولٌ آخر لأهل العلم– أنه وقع المسخ أولاً قردة فلما –من أخس القردة أم الخنازير؟ الخنازير أخس– فلما زاد إجرامهم ولم يتوبوا؛ الله عز وجل مسخهم خنازير فقالوا: مرتبتين، وقيل: أنه في مرةٍ واحدة.

قوله تعالى: ﴿خَاسِئِينَ﴾، خسئ الشيء أي بَعُدَ، ويقال له: اخسأ أي ابتعد «امشي، روح»، وإذا طرده قال اخسأ لن تَعدُ، ابعد، يعني ليس لك قيمة، فهذا من الإبعاد والصَّغار، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، من أين ابعدوا؟ ابعدوا عن الإنسانية التي كرمها الله عز وجل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ [التين: ٤]، فأن يبعد عن هذه الصورة المكرمة التي خلق الله عز وجل

عليها آدم من الحسن والجمال، وهو الدابة الوحيدة التي تمشي على الأرض وهي قائمة على قوائمها وإلا بقية الدواب، الله عز وجل أهانها بأن تمشي على يديها ورجليها والمرء يمشي منتصبًا، فأقامه الله عز وجل على أحسن ما يكون من الجمال، فقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، أي مبعدين أذلاء صاغرين لتحول أجسامكم إلى المهانة.

وقيل مبعدين، فالناس يأنس بعضهم لبعض، يعني إذا جلس الإنسان لإنسان يأنس إليه، فإذا صار قردًا أين يرمى؟ بعيدًا عنه، ويبعد عنه خاسئًا أي محتقرًا، ولا يبعد عنه على جهة التبجيل، ولا على جهة عدم التماثل فقط ولكن يبعد خاسئًا، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، أي كانوا على ما أمر الله عز وجل، فكانوا.

قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، الضمير هنا الضمير على ماذا؟ بعضهم قال: على العقوبة أي فجعلنا هذه العقوبة نكالاً، وبعضهم قال: فجعلنا هذه الأمة أي التي عصت، وهو لا شك أنه ليس كل بني إسرائيل وقعوا في هذه المعصية، ونحن نرى في صورته –وهذا ننبه عليه– نرى في سورة الاعراف أن هناك أناس رفضوا، وانقسم الناس إلى ثلاثة أقسام في سورة «الأعراف» القسم الناجي وهم الذين أمروا ونهوا وهذا صرح بنجاتهم، والقسم الهالك الذين اقترفوا هذه المعصية، والقسم الثالث الذين لم يأمروا ولم ينهوا، وهؤلاء اختلف الصحابة رضي الله عنهم فيهم، وقال عكرمة: راجعت ابن عباس رضي الله عنهما عشر سنين عليها حتى رجع إلى قولي: بأن الله عز وجل أنجاهم، وإلا فابن عباس رضي الله عنهما كان يقول: أهلكهم؛ لأن الله عز وجل لم يذكر الناجين إلا: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فذكر النجاة، وهذا على خلافٍ سيأتي إن شاء الله تعالى.

فقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، فهذا الضمير على ماذا يعود؟ بعضهم قال: العقوبة وهم الأكثر، الأكثر قالوا: «المقصود فجعلنا هذه العقوبة نكالا»، والنكال هو العذاب، والنكل هو المنع وكذلك الارتداد، نكل على عقبيه أنه رجع، ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾، أي عقوبةً تردع، أولاً تعاقب فتوقفه عند حده، إذا عاقبه أوقفه عند حده، وكذلك تزجر غيره العاقل، تزجر غيره، ولذلك يقال: للحديدة التي تردع الدابة نكال، لأنه تردعه، ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي العقوبة، ومنهم من قال: الأمة، فجعلنا هذه الأمة نكالاً؛ حتى يتعظ بها، وبعضهم

قال: المقصود الحيتان، أي فجعلنا الحيتان التي تأتي عذابًا عليهم، وقالوا: هذا أبعد الاقوال، قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، أي كما تقدم وهو الأقوى العقوبة التي وقعت عليهم في تحولهم إلى قردة، ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾، أي عذابًا ومنعًا، عقوبةً وسجرا.

قال تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، من هما ما بين يديها وما خلفها؟ الكثير من أهل التفسير قال: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾، أي من الأمم، وما بعدها من الأمم، يعني ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾، أي عقوبة لمن اقترفها وزجرًا لمن نظر إليها واتعظ بها ورآها، فإنه لما يرى أن الناس تحولوا إلى قردة وخنازير يزدجر، ولكنها عقوبة كذلك لمن أتاها، قال تعالى: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾، أي من الأمم وما خلفها من الأمم، أي فجعلها عبرةً وعظة وزجرًا للأمم التي سبقت أي التي اقترفت هذا الفعل وكذلك وما بعدها من الأمم الآتية، وهذا قولٌ قوي عليه الأكثرون، وقال بعضهم: المقصود به الأمة الحاضرة وهم بنو إسرائيل، ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾، أي الأمة التي اقترفت وسبقت والأمة التي تلتهم من بني إسرائيل والأمر قريب والتعميم هو الأفضل، أي أن الأمم كلها عليها أن تتعظ من ذلك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾ [البقرة: ٦٦]، عم وخص، العم: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من الأمم عامة وخاصة، ما الخاصة؟ قال: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾، والموعظة هي الإخبار بالخير، أن يخبره بموعظة أنه إذا فعلت هذا الأمر فلك الخير العظيم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾، لأن المتقين لا يصيبهم إلا الخيار في تركهم لهذا يصيبهم الخير، وكلمة المتقين تقدم معناها في أول السورة بتوسعٍ إن شاء الله تعالى.

فهذا هو قوله سبحانه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ﴾، ودلت ﴿مِنْكُمْ﴾ على أنهم من بني إسرائيل، ودلت هنا ﴿مِنْكُمْ﴾ أي من بعضكم ولم يقترفه الكل، ﴿فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾، أي لهذا الفعل العظيم هذه العقوبة ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾، أي زاجرةً وعقوبة، ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، للأمم التي حضرت التي والأمم التي تلت وكذلك موعظ للمتقين وأعظم الناس وصفًا في دخول المتقين هنا من سمع هذه الآيات من الصحابة رضي الله عنهم، فلذلك كانوا من أبعد الناس عن المعاصي، مخافة أن يقع عليهم ما وقع على بني إسرائيل.

والآن الخلاف متى وقع هذا؟ أغلب المفسرين على أنها لم تقع هذه في زمن موسى عليه السلام، ولو وقعت في زمن موسى عليه السلام ربما لرأيناها في الأسفار الخمسة، والأسفار الخمسة هي التي يزعمون أنه جاء بها موسى عليه السلام وما بعدها بعد موسى عليه السلام، فهي بعده، وبعض المفسرين يقول: وقعت في زمن داوود عليه السلام، وكل هذه أخبار لا ندري عنها، وأين هي هذه القرية؟ على الأغلب أنها «أيلا» التي كانت على البحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، قرية هي على البحر والله تعالى أعلم بهذا ولا نستطيع أن ننفي وأن نجزم والله تعالى أعلم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الواحد والستون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أيها الإخوة الأحبة معكم مع الدرس الحادي والستون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة»، وختمنا ما دلت عليه الآيات السابقة من معاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

بقي لنا فقط توظيف هذه الآيات والفوائد المستفادة منها بالنسبة لأهل الإيمان وأهل الإسلام، هي بالنسبة لخطاب الله عز وجل لليهود المقصود بها التذكير بسيرهم وسلوكهم وأخلاقهم وأن الله سبحانه وتعالى قد امتحنهم امتحانات عظيمة، ومع ذلك فشلوا فيها، وكذلك يريد أن يبيّن تحايلهم على أمر الله عز وجل ويريد أن يذكر هؤلاء الأبناء بما جرى للآباء من ابتلاءات ومن عذاب في إعراضهم عن ذكر الله عز وجل وعن أمره سبحانه وتعالى.

وهنا قد يقول قائل: فما دخل الأبناء؟ الأبناء يجرون على سنن الآباء؛ إذا تلقوا التدريب والتربية منهم، إذا مشوا على تربيتهم وعلى طريقتهم وعلى سلوكهم، فإنهم يفرزون نفس النوع الذي عليه الأجداد، ويفرزون نفس الأخلاق التي عليها الأجداد هذه هي المشكلة، وكذلك إذا بقيت نفس المعاني الموجودة في الأجداد بقيت في الأبناء ستفرز نفس السلوك وهذا الذي وقع من اليهود، اليهود بسبب ما ربوا عليه من عقائد فاسدة أنتجها أحبارهم، وفهموا النصوص على غير معناها وتلقت نفوس الآباء كرم الله عز وجل على غير المراد، لأن الله عز وجل يعطي العطايا مع الابتلاء، لا يرفع الله عز وجل رجلاً مقاماً إلا ويقابل هذا المقام ابتلاءً وأوامر عظيمة من أجل أن يستحق هذا المقام، والله كرم بني إسرائيل واختارهم على العالمين، هذا

الاختيار ليس لجنسهم، وليس لنسبهم هذا الاختيار لما أعطوا من الأوامر العظيمة التي يجب أن يقوم بحقها، لكنهم لم يقوموا بحقها، فالله عز وجل يريد أن يذكر الأبناء هذا الأمر.

فإذن قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، احذروا هذا ما وقع لآبائكم من المعاصي فإياكم أن تقعوا فيما وقع فيه الآباء؛ لأنه إذا وقع منكم هذا الذي وقع من الآباء سيقع فيكم ما وقع في أباءكم وأجدادكم من العذاب.

لكن بالنسبة لنا نحن فما هو المستفاد من هذه الآيات؟ بلا شك أن هذا الخطاب القرآني هدى للمتقين كما تقدم في هذه السورة، وحيث أنه كذلك؛ فإن الواجب الاعتبار به من قبل المخاطبين به والمؤمنين به وهم أهل الإسلام قبل غيرهم، فحين يخاطبنا الله عز وجل بما جرى للأمم السابقة إنما يريد وإن كان على جهة الخبر على جهة التبكيت لهذه الأمم السابقة في تنبيه أبنائهم كما في هذه الآية، لكن المراد به أصالةً هو أن يذكر المؤمنين أن لا يقعوا في هذه الأفعال التي وقع فيها هؤلاء الأقوام، هذا هو الذي ينبغي أن نفهمه، هذا خطابٌ لأهل الايمان أولاً، للمسلمين أولاً.

وقد يقول قائل: هم فعلوا هذه المعصية التي فيها التحايل، وقد يقول قائل: ليس هنا التحايل، الحقيقة أن يمسخوا قردة يعادل معصيتهم كما نبه على ذلك ابن كثير رحمه الله في تفسيره، لماذا مسخوا قردة دون غيرهم؟ ذلك لأن القردة أشبه بالإنسان في شكله، لكنه ليس كالإنسان في نفسه وفطرته ومعناه، فالله عز وجل جعلهم أقرب ما يكون الإنسان وأقذر ما يكون في الباطن، وهذا يعادل موضوع الحيلة، فالحيلة في ظاهرها الطاعة وعدم المعصية في ظاهرها، وفي باطنها المعصية هي حيلة، إذا نظرت إليها بظاهرها دون مقصدها ومآلاتها؛ فإنك تقول: جرت على معنى الطاعة أخذوا الطعام يوم الأحد ولم يقع منهم الصيد الفعلي يوم السبت، ولكنها في مقصد علم الله عز وجل ومراده في الشرع والأحكام هو إنها هي عينها هي معصية.

فلما كان الظاهر يخالف الباطن في الفعل الله عز وجل جعل المعصية نكالاً لما بين يديها، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أي جعل الذنب يعادل المعصية التي اقترفها، أي جعلنا العقوبة تعادل المعصية، وهذا نجده كثيراً في القرآن، أن العقوبة تعادل المعصية في شكلها وفي هيئتها وهنا نرى

كذلك، رأينا أن القرد هو أشبه ما يكون في الإنسان خِلقةً، لكنه يخالفه في معناه، وكذلك ما اقترفوه من المعصية في الصيد يوم السبت الذي امتهنوه.

والسؤال: هل وقعت الأمة في المعاصي التي وقع فيها بنو إسرائيل؟ الجواب: نعم، وقعوا في معاصي وما زالوا يقعون، هل وقعت العقوبة الإلهية عليهم بما وقع على بني إسرائيل؟ أما فيما نعلم سابقاً وإن كان يذكر على جهة الأخبار، لكن ليس هناك من خبرٍ مؤكد، أنه قد وقع مسخٌ في هذه الأمة كما وقع في بني إسرائيل، يعني قد يتناقل الناس الأخبار ولكنها ليست موثقة ويذكرها القصاص والذين لا يضبطون الأخبار ضبطًا علمياً صحيحًا، لا نعلم.

لكن هل سيقع مسخ في هذه الأمة؟ الجواب: نعم، الحديث في صحيح البخاري[1] في النهي عن المعازف أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر في آخره أنه سيقع في هؤلاء الذين يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، ففي آخره يخسف بهم ويمسخوا قردةً وخنازير، أي في آخر هذه الأمة أناس سيبيتون على معاصي عند جبل في الحديث على علم، عند علم، فيأتيهم أي السائل الفقير فيسألهم أي الطعام، هم يشربون ويلعبون ويستحلونها كما تقدم في الحديث الحِرَ أي الزنا والحرير أي اللباس المحرم والخمر والمعازف، فيكونون عند علم، عند جبل، فيأتيهم السائل الفقير يسألهم الطعام والشراب، فيقولون: تعال إلينا غداً، إما استهزاءً، وإما رمياً له، إبعاداً له، قال: فيصبحوا وقد ذهب العلم، الجبل خسف بهم ذهب، قال: ويمسخوا قردة وخنازير.

وفي مسند أحمد: (أنه يكون في آخر هذه الأمة خسفٌ ومسخٌ وقذف)، الخسف هو في الأرض الجبال تهوي وتصبح ودياناً والأرض كذلك، فهذا هو الخسف، والمسخ هو هذا أن تتحول الهيئة الإنسانية إلى هيئةٍ أخرى غير مكرمة، لأن الله عز وجل كرم بني آدم في أشكالهم، وأما القذف فهو الرجم من السماء، يقذفوا بحجارةٍ من السماء، وهذه الأحاديث تشجع وتؤيد هذا المعنى الذي نحن بصدده، ولذلك سيكون في هذه الأمة هذه المعاني.

---

[1] قال صلى الله عليه وسلم: (لَيَكونَنَّ مِن أُمَّتي أقْوامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ والحَرِيرَ، والخَمْرَ والمَعازِفَ، ولَيَنْزِلَنَّ أقْوامٌ إلى جَنْبِ عَلَمٍ، يَرُوحُ عليهم بسارِحَةٍ لهمْ، يَأْتِيهِمْ - يَعْنِي الفقِيرَ- لِحاجَةٍ، فيَقولونَ: ارْجِعْ إلَيْنا غَدًا، فيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ، ويَضَعُ العَلَمَ، ويَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وخَنازِيرَ إلى يَومِ القِيامَةِ)، الراوي: أبو مالك الأشعري | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخار، الصفحة أو الرقم: ٥٥٩٠ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]، التخريج: أخرجه البخاري موصولا وصورته معلقاً بصيغة الجزم (٥٥٩٠).

وقد يقول قال: لماذا لم يقع في هذه الأمة ما وقع في بني إسرائيل؟ الجواب: رحمة من الله عز وجل بهذه الأمة، رحمةً بها وتركاً لها لتتوب، فالله عز وجل يرحمها، ومن مكر الله عز وجل أنه يمد لها فالناس للأسف، صبر الله عز وجل عليهم يقع في الأغلب على جهة الغفلة، حين يأتون المعاصي فلا يتوبون وتستمر الحياة على ما هي عليه، بل يجدون الغِنى، يجدون الراحة في المعاصي، ويشربون ويسكرون ويلعبون القمار وكذا ويستحلوا ويزنون فيقومون في الصباح فلا يجدون شيئاً، ومرةً أخرى هكذا، هكذا، فصبر الله عز وجل يشجعهم عند القلوب الغافلة، وبعضهم لا، صبر الله عز وجل يعلمهم الحكمة فيقبلون على التوبة، يقول: الله عز وجل صبر علي؛ فأنا أجدر بأن أتوب، وهذا قلة من الصالحين، وأما الأغلب للأسف يطبع على قلوبهم فلا يتوبون ولا يعودون إلى رشدهم من هذه المعاصي.

القصد: أن هذه الأمة سيحصل فيها هذا، أما أن يكون قد حصل، فليس هناك من أخبارٍ موثقة، ولذلك علينا أن نعلم هذا.

الأمر الثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾، هذا الذي سنتحدث عنه الآن، ما لم تكن في القلب تقوى فلن تتعظ، ليس العبرة أيها الأحبة بوجود الماء أي الموعظة، وإن كان هذا الماء راقاً صيباً نافعاً، العبرة بالقلب الذي يتلقى بالأرض التي ينزل عليها الماء، قال تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً﴾، لمن؟ هو ماء نافع فيه الروح والحياة وفيه السعادة لكنه ينزل على جلمود، صخر، فلا ينتفع به الجلمود ولا ينبت به الزرع، فالعبرة بالقلب، ولذلك على المرء أن ينظر حين تمر عليه المواعظ، في كل يومٍ موعظة.

فبعض الناس يظن أن المواعظ الكونية انتهت، ولم يبقى إلا المواعظ القرآنية النبوية وهذا غير صحيح، البعض يقول: أين الآيات التي نسمع عنها في القرآن بخسف أقوام وبدمار أقوام وبرفعة أقوام؟ سبحان الله، في كل يوم تقع الآيات، في كل يوم! هل تراقب حركة الحياة حتى في الأفراد؟ هل تراقب حركة الحياة في الدول؟ هل تراقب حركة الحياة في السكن والمدن؟ والله أيها الإخوة الأحبة تمر على أماكن مررت عليها في صغرك وهي من أنعش الأماكن تجارةً وكان الناس يظنون أن المقيمين فيها هم من أسعد الناس إلى أبد الآباد، اليوم تمر عليها وهي خربة سوداء قاحلة لا أحد ينظر إليها هذا من آيات الله عز وجل في الأحياء والإماتة، هذا من آيات الله في العزة والذلة، كم رأينا سابقاً ملوك وسلاطين ورؤساء الواحد منهم ظن أنه لن

يموت ولن يبيد ولن ينتهي ملكه، وإذا مات سيأتي أبنائه من بعده وهكذا طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، ولكن كيف رأينا تبدل الأحوال، أليست هذه الآيات تراها الآن، ألم ترى أناساً من الأثرياء كان يحلف أحدهم والله لو ضربت النار في مالي فلن يهلك، وسيبقى منه ما يغنيني ومع ذلك مات فقيراً، متسولاً، طالباً الصدقة من أيدي الناس، أليست هذه الآيات بينة واضحة في الحياة تراها، كذلك كم من أناس كانوا فقراء لا يملكون شيئاً وصاروا أثرياء، وكم من أثرياء صاروا فقراء، الأحياء والإماتة، العطاء والمنع، الذلة والعزة، كلها آيات تتجدد في كل يوم، ومن لم يراقب هذا فقلبه ميت، ولا يصلح أن يدخل في كلمة المتقين ولذلك هو موعظة للمتقين، وإن كان ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، خطاب لليهود فقط في أوله، لكن هذا الأمر خطاب للمؤمنين وموعظة يعظك أن تأتي هذا الفعل، لئلا يقع منك.

وأما أن يكون المسخ المعنوي في هذه الأمة فموجود، المسخ بأن يكونوا خنازير كما تقدم فيهم الدياثة، فهذا موجود، للأسف هذا موجود بكثرة، وهذا أشد في أن المرء إذا عوقب في الدنيا لم يعاقب في الآخرة، عقوبة الدنيا مسقطة للعقوبة في الآخرة، ولكن المسخ المعنوي الباطني القلبي الأخلاقي لا يسقط عقوبة الآخرة، ولذلك هؤلاء الذين يمسخوا خنازير في نفوسهم ومشاعرهم وأحكامهم في دياثتهم في عدم الانتصار لأعراضهم بل يفرحون كما يفرح أهل الدياثة من النصارى واليهود في أن تخرج زوجته كاشفة عارية، وهو يفرح أن الناس ينظرون إليها ويتعجبون من جمالها!!!

بل نرى اليوم من يعلم المعاصي على أهله من القوادة ولا يقام له شأن، من أين هذا؟ هذا من المسخ المعنوي، هذا الذي نراه من حركة القردة، أناس ممسوخين قردة ليس لهم هم إلا السفاد وليس لهم إلا الرقص، كالقردة، لا يعرفون الخير ولا الحق ويرقصون الليل والنهار، هذا مسخ، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾، وهذا أشد أنواعه أن يقفل على القلب فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكرا، أشد آيةٍ على أهل العلم ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، أشد آية؛ أن يزين في قلبك المعصية، أن تصبح المعصية جميلة، وهذه أنت لا تشعر بها، وصولك لهذه المرحلة لا تشعر به، إنما يجري عليك تطبيعاً وتسليكاً ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ [المائدة: ٣٠]، يسلك المرء يكون من أتقى الناس ومن أشد الناس انتصارا لعرضه ولكنه بعد مدة تراه ممسوخاً، فتعجب كيف كان وكيف صار!! والسبب هذا هو، السبب أنه يسلك قليلاً، قليلاً، ولذلك

من هنا فالمرء يبتعد عن المعاصي وعن أسبابها، وعن الصغائر حتى لا يقع في الكبائر، ويبتعد عن الكبائر حتى لا يقع في الشرك وهكذا.

الأمر الآخر المستفاد منها وهو أن الله عز وجل قادر على أن يخلق ما يشاء وأن يقلب كل عينٍ على ما يريد، ولا يقدر على هذا إلا الله عز وجل، السحرة سحروا أعين الناس لم تتحول الحبال إلى أفاعي حقيقة، لكن سحروا أعين الناس، وظنوا أن الحبال والعصي قد تحولت إلى أفاعي، ولكن عصا موسى عليه السلام تحولت إلى أفعى حقيقية وليست مخيلة، ولذلك ابتلعت وأكلت وأبادت هذه العصي وهذه الحبال، وهنا الله عز وجل جعل الصواب –كما قلنا في الدرس الفائت هؤلاء– هؤلاء حولوا إلى قردة على الحقيقة، وليس كما قال بعض الأئمة كمجاهد عليه رحمة الله مجاهد بن جبر، أنه فقط مسخت معانيهم القلبية ونفوسهم، بل في الحقيقة مسخت أجسادهم لأن هذا أدعى للعبرة، فإن المسخ الظاهر يقطع الجدال، لأنه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، وقد يقول: لم يمسخوا قردة وخنازير، ولكن حيث رآهم الناس وتأكدوا من أشكالهم فدل على هذا المعنى، من العبرة.

ولذلك الله عز وجل قادر الذي أمشاك كما قالت آمنا عائشة رضي الله عنها كما استغربت فقال صلى الله عليه وسلم: (أليسَ الذي أمْشَاهُ علَى الرِّجْلَيْنِ في الدُّنْيَا قَادِرًا علَى أنْ يُمْشِيَهُ علَى وجْهِهِ يَومَ القِيَامَةِ؟)، يعني الله عز وجل قادر، فالله عز وجل جعل في العين قوة الإبصار، فقادر أن يجعل الإبصار في الأنف، هو سبحانه يقول للشيء كن فيكون، فلذلك قال: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾، فأمرهم فلم يستطيعوا لها الرد، وكانوا وصاروا على هذا الأمر، فدل على قدرة الله عز وجل أنه لم يخلق السنن من أجل تكون حاكمة عليه، أقصد السنن القدرية، لم يخلقها لتكون حاكمةً عليه بل خلقها وهو حاكمٌ عليها، الله عز وجل خلق الماء وفيه قوة الإغراق والسيولة، فجعلها جبالاً مع موسى عليه السلام سلبها وجعل فيها قوةً أخرى، أزال عنها هذه القوة إلى قوةٍ أخرى، هذه قدرة الله عز وجل، وذلك النظر لهذه الآيات يرى أن الله عز وجل على كل شيء قدير وأنه يقول سبحانه وتعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾، ولم يقل: فكانوا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ [البقرة: ٦٥]، فأين الفعل؟ لم يذكره القرآن، ما قال: فكانوا قردة خاسئين، لم يقل هذا، لماذا؟ لأنه متعينٌ في الذهن لا يمكن الابتعاد عنه، ولا يمكن

إنكاره؛ فكأنه حاصل، فكانوا قردةً خاسئين، يعني الله عز وجل ترك لنا الخبر بعد الأمر أنه ثابتٌ لا ينكره منكر، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، فلا يمكن إنكارهم لهذا.

وتكلمنا عن ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، والضمير وعودته، ومنهم من قال: إلى العقوبة، ومنهم من قال: إلى القرية، ومنهم من قال: إلى الأمة، ومنهم من قال: إلى الحيتان وهو أبعدها، وأغلب أهل العلم على ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، أي فجعلنا العقوبة، وبعضهم ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾، أي القرية فجعلناها وهذا الأقرب فيما قاله كثير من أهل العلم ومنهم ابن جرير عليه رحمة الله.

وتكلمنا عن ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وقال ابن كثير هنا اعترض وبعض أهل المعاصرين ينقل على ابن كثير كثيراً ولا يعزو، ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، طيب ما بين يديها لو قالوا: الأمم السابقة، فكيف يحصل؟ فتعين عند ابن كثير رحمه الله أنه ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي الذين حضروا هذه الآية، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي ما يأتي بعدهم، من غاب عنهم، يعني القرية حضرها أناس وغاب عنها أناس، ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي من القرى التي كانت حولها تشاهد الفعل، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ الذين ابتعدوا ولم يروها فوصلهم الخبر فاتعظوا به.

ولا أريد أن أخوض هنا في أن ما يقوله الجاهلون من أن الإنسان ارتقى في خِلقته من الحيوانات البسيطة حتى كانت آخر حلقة له وهو القرد وثم صار إنساناً، كما يقال في نظرية التطور الدرويني، كلها جهالات قالها كثير من الأقدمين، وأنا لما ناقشت كتاب «مقدمة ابن خلدون» تعرضت لها وأنها قديمة وهذا كله من الأكاذيب، فالله عز وجل كرم بني آدم وخلقه على هذه الخِلقة وأجراه على هذا المعنى وخلق الخلق مع تنوعه فيه الوحدة، وهذا تكلمنا فيه وهذا من قدرة الله عز وجل، يعني إذا كان القرد قد نشأ من ما قبله وما قبله وما قبله، فهذا كله من الجهل ولا يمكن أن يقول به عالم وإنما ممن تأثروا بأفكار الآخرين، لا يمكن لمسلم أن يعتقد هذا الاعتقاد، الله عز وجل خلق آدم وكرمه وأسكنه الجنة ثم بعد ذلك جعل زوجه حواء فيها وخاطبه ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وعلمه على ما هو عليه، وفي الحديث أن الله خلق آدم على صورته أي خلقنا على صورة آدم، نحن قد خلقنا فهذا هو آدم، قبل آدم هل هناك أناس من أين يأتون بهذا الكلام؟!!

فنحن نرى أن الأشياء متعددة ولكنها تعود إلى أصلٍ واحد، الشجر الخلية النباتية واحدة لكنها متعددة، لماذا لا تقول بأن الأشياء كذلك تطورت؟! لأنهم لا يستطيعون أن يقولون: بأن الشجر الفلاني هو أفضل من الشجرة الفلانية، مع أنها في سُنتها العامة على معنى الخلقة الحيوانية، يعني هناك خلية حيوانية هناك خلية نباتية، فلماذا لا تقولون: بأن الخلية النباتية قد تطورت، طيب تطورت من أين إلى أين؟ من هي الشجر الأرقى، نحن نرى الإنسان هو أرقى، لأننا نرى ذكاءه ونرى عقله ونرى إدراكه ونرى تميز خلقته في الإكرام، فهو الوحيد الذي يمشي منتصباً ليس على يديه ذِلةً، وإنما يمشي منتصبًا هذا من إكرام الله عز وجل له في الخلقة، وكذلك في وجهه وفي رجليه وفي حالته على جمالٍ من الخِلقة مميزة، فيستطيعون أن يقولون: أن الإنسان ارتقى لأنهم يرون حيوانات وحيدة الخلية وحيوانات أكثر من ذلك وهكذا ترقى، ولكن في نفس المعنى موجود في النبات، لماذا لا يقولون؟! لأنهم لا يستطيعون إيجاد هذا المعنى، وأقصد بأنه لا يوجد خلية نباتية أو لا يوجد شجرة أفضل من شجرة مع أن هذا يبطل قولهم، على كل حال.

ولا نريد أن نرد عليهم كما يقول بعض القصاص: أن القردة من الإنسان، لا القردة الذين مسخوا ماتوا وبادوا وليس لهم نسل على ما تقدم من الشرح في ذلك.

ثم بعد ذلك يعود نفس الخطاب الذي تقدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾، ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، عاد نفس الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، سبب تسمية السورة هذه الحادثة وهذه الآيات، لماذا سميت هذه السورة بالبقرة؟ السبب هو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فلما جاء ذكر البقرة في هذه السورة سميت السورة بالبقرة، وهذا دليل أيها الإخوة الأحبة على أن أسماء السور في أغلبها ليس في كلها وفي بعضها توقيفي وبعضها لم يرد، ولذلك تعددت الأسماء، يعني لماذا خصت السورة بهذا الاسم؟ نعم ورد هذا الاسم سورة «البقرة» و«آل عمران»، لكن بعض السور لم ترد بالنص.

لكن هنا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فهذا هو الأول أن السورة سميت لهذا الأمر.

الأمر الثاني: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، تقدم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾ [البقرة: ٥٤]، ولم يقول هنا يا قوم، وتقدم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾ [البقرة: ٥٤]، وقلنا: لماذا هنا يناديهم يا قوم وهنا لم يناديهم، وكذلك في سورة «المائدة» ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ [المائدة: ٢٠]، قال: ﴿يَا قَوْمِ﴾، وهنا لم يأتي بقوم، لأن الأمر هنا يسير وسهل، بخلاف الأمر الأول والثاني.

فهنا لما يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، هذا أمر عظيم فلذلك يحتاج إلى التحنن فيقول: ﴿يَا قَوْمِ﴾، وكذلك ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠]، يريد أن يأمرهم بدخول الأرض المقدسة والقتال والجهاد جهاد العماليق، فهو أمرٌ عظيم، لكن هنا الأمر يسير أن يذبحوا بقرة، وذبح البقر ليس بالأمر العسير فلا ضرورة لهذا التحنن في الخطاب، لذلك يقول: اذبحوا بقرة، فيذبحوا بقرة، ولذلك لم يأتي هنا ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾، إنما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾.

ودعونا نقدم مقدمة يسيرة، لماذا في هذه الآية -كما في هذه الآيات كما هو معلوم- أن العلة للأمر قد تأخر ذكرها؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، لماذا نذبح بقرة؟ ما هو المطلوب؟ تأخر ذكره، الذي تأخر ذكره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢]، وهو بعدها ولم يتقدم، ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣]، كيف؟ أي اذبحوا بقرة، فتأخر التعليل والسبب عن المطلوب، هنا طلب الله عز وجل منهم أن يذبحوا بقرة، لكن لماذا؟ تأخر السبب، العلماء على قولين:

- قالوا: هكذا جرت القصة، وهذا بعيد، الله عز وجل أمرهم فحصل القتل من أجل أن يحصل هذا الأمر، فالأمر جاء وهذا بعيد، أي أن الأمر حصل بأمر ذبح البقرة ثم حصل القتل إلى غير ذلك وهذا بعيد كما قلنا.

- والصواب هو التالي:

أولاً: أن القلب حصل بسبب السياق.

وثانياً: بسبب النفسية.

أما أنه بسبب السياق: لأن مقصود القرآن أن يبين حال أجداد وأباء اليهود الذين يخاطبون بهذه الآيات في القرآن، ما هو المقصود؟ القصص القرآني يجب أن نعتني به من خلال سياقه، وهذا قليل من يعتني به من الناس حين يتكلمون، كثير من المفسرين والمتكلمين في القرآن يعتنون بالفروق اللفظية بين السورة والسورة للأمر الواحد، لماذا ذكر هنا وذكر هنا، يعتنون بهذا الجانب، كما تقدم من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، فنحن نرى أن هذه تتكرر على وجهٍ ما؛ فنبحث عن الفروق اللفظية بين هذه الآية وهذه الآية، كما في قصة موسى عليه السلام، لماذا ذكر بهذا اللفظ؟ لماذا قال تعالى هنا: ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠] وهناك ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، فهذا وجه من وجوه البلاغة القرآنية.

ولكن كذلك ينبغي الاعتناء بأمرٍ آخر، ذكره كثير من أهل التفسير ويغفل عنه الكثير، وهو أن سياق القصة يناسب مقام القصة في سياقها الكلي للسورة، يعني لماذا ذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، لماذا ذكر فقط في سورة «العنكبوت» أنه مكث ألف سنة إلا خمسين، لماذا؟ فقط في هذا السياق، قد يقول قائل: هنا زيادة لا تجدها في السورة الثانية وفي السياقات الأخرى فهذه فائدة ينبغي الاعتناء بها.

لكن السؤال: لماذا ذكرت هنا دون غيرها؟ لماذا ذكر في سورة «الأنعام» ﴿آزَرَ﴾، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤]، دون أن يذكر في السور الأخرى؟ هنا لابد من النظر إلى سياق القصة بالنسبة إلى السورة كلها، والذي نحن فيه في هذا المعنى، لما قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فأخر ذكر السبب في الذبح وقدم القصة لماذا؟ لأن المقصود هو بيان حال بني إسرائيل، ليس المقصود هو القصة فقط، ولكن يريد القرآن أن يبين في هذه السورة حالة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام ومع غيره فيما سبق، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، أغلب المفسرين على أنها كانت بعد موسى عليه السلام.

فالمقصود هو يبين حالهم، وليس فقط الخبر بما فيه من معاني أخرى، إنما المعنى أن يبين من أنتم، وكيف جرى سبيل أباءكم وأجدادكم في تعاملهم مع الأمر القرآني، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ [البقرة: ٦٥]، حولوا وبدلوا، هذه صورة من صور المعصية وهي سورة التحايل، يريد أن يبين القرآن كاشفاً لهم ومنبهاً لهم ومذكراً لهم حالاً آخر من أحوال المعصية التي يقترفونها، وهي ترك الأمر بعلة عدم كمال بيانه، هم ما ردوا الأمر، فإما أن يحتال عليه بحيل ما حتى يسقط التكليف.

ونحن تقدم الكلام في قضية الحيل وقلنا: أن الفرق بين الحيلة الشرعية والتي ذكر بعضها في كتاب الله مثل حيلة ضرب أيوب عليه السلام زوجه التي حلف إن شفي أن يضربها بمئة ضربة فأخذ مثكالاً فضرب مائة بواحد وضربها، فالحيل الشرعية هي التي تحقق مقصد الشارع، مقصده، والحيل الشيطانية هي التي تبطل مقصد الشارع، الشارع يريد شيئاً فيحتال ويبطله كحيل إسقاط الزكاة، الشارع يريد ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أن يأخذ من المال الزكاة، المحتال يسقط هذا المقصد يبطله، فقبل أن يحول الحول يتصدق بماله أو أن يهدي ماله لزوجته، فحتى إذا قارب الحول الزوجة أهدته إياه، أسقط الحكم الشرعي، تأتي الزوجة وتتصدق بمالها وتهدي مالها لزوجها وهكذا، حتى يهرب، فهذا كله من الحيل التي تسقط المقصد الشرعي، تبطله وهذا هي الحيلة الباطلة، فالناس يتحايلون، فهؤلاء تحايلوا على الحكم الشرعي من أجل أن يأخذوا.

الآن يريد الشارع أن يبين حالاً آخر مارسه اليهود في إسقاط الحكم الشرعي وهو عدم وضوح البيان، بحجة أنه أمره فالبيان لم يكن واضحاً، والشارع حين يترك الأمر بلا بيان دل على أن الشارع يريده على أي وجه، ولم يحدده رحمةً بك، والتحديد يقع به التضييق، هناك فرق بأن يقول لك: اذبح بقرة، فأن تذهب فتأتي بأي بقرة وتذبحها، فيقع مراد الشارع منك أي بقرة، فلو حدد يضيق، لنفترض هناك ألف بقرة في القبيلة أو العشيرة والبلدة فيمكن أي بقرة يقع عليها الأمر، تختار أي بقرة، ولكن إذا حدد واحدة حصل التضييق، فانظر أن الشارع يريد أن يخفف وهم يزعمون أن الشارع أطلق ولم يحدد فابطلوها، فهذه صورة من صور المعاصي.

ونعود قبل أن نتم هذا الأمر، إذن ما هو مقصد الشارع، هل أن يذكر لنا القصة؟ أم أن يذكر لنا حال بني إسرائيل مع الأوامر الشرعية؟ المقصود هو أن يبيّن حال بني إسرائيل مع الأوامر الشرعية، فلذلك لا يهم

لماذا أمرهم أن يذبحوا بقرة، إنما أمرهم أن يذبحوا بقرة فحصل منهم هذا الفساد الذي أدى بهذا الأمر إلى التضييق الذي وقع عليهم، هذا واحد، فإذن توافق إيراد القصة، شكل القصة تلائم مع المطلوب في السياق، السياق يريد أن يبيّن حال هؤلاء القوم مع الأوامر الشرعية هذا واحد.

الشيء الثاني: لماذا اختلف السياق؟ لاختلاف نفوسهم، نفوسهم مقلوبة هو يتحدث عن أقوام قد قُلبت نفوسهم من الزكاة إلى الضلال، من الصلاح إلى الضلال، ومن البركة إلى المحق، ومن قبول الأمر إلى التلاعب بالارتفاع عنه وتركه، فلما كان حال المتكلم عنهم قد صاروا على هذا الحال من الانقلاب جاءت القصة منقلبة لتبيّن حالهم، فهم منقلبون مزاج، وليسوا على حالٍ إيمانيٍ سديد فانقلبت القصة، وهذا من عظمة القرآن، في أنه يتكلم حديثاً يوافق النفس، يوافق القدر، يوافق المخلوق، يوافق الكون على ما هو عليه، يقدم ويؤخر بحسب ما عليه الواقع الذي عليه المتكلم عنه.

هذه القصة أيها الإخوة الأحبة مع موسى عليه السلام كما هو بيّن، موسى عليه السلام يأمرهم ولا نريد أن نستعجل في فوائد القصة فلنأتي إلى ما هي عليه من السياق وضرورة شرح الألفاظ فيها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ [البقرة: ٦٧]، هذا يدل على وجه الإيجاب، الله عز وجل يأمر وأمره على وجه الإيجاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فهذا حكمٌ شرعي، بخلاف ما تقدم ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾، ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ هل هو أمر شرعي أم أمر كوني قدري؟ هذا أمرٌ كوني قدري، ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾، وهنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، فهو أمرٌ شرعي.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، بعض أهل العلم وقف على هذه الآية موقف الباحث عن الحكم الشرعي، وهناك مباحث في القرآن تسمى آيات الأحكام، تفسير آيات الأحكام، وهذا علمٌ قال به بعض أهل العلم حيث يأتوا إلى القرآن فيبحثوا عن الآيات التي تؤخذ منها الأحكام فيفسرونها، وكيف فهمها أهل العلم، كيف أخذوها وكيف عملوا فيها أدوات الفقه، فنشأ ما يسمى «تفسير آيات الأحكام» وهو علمٌ قديم، وعلماء المذاهب اتخذوها هناك كالهراس الشافعي، هناك تفسيرات الأحكام كذلك للنسفي في أحكام القرآن، فكل علماء مذهب يأخذون هذه الآيات ويفسرونها تفسيراً فيه الشرح لمذاهبهم الفقهية،

وجاء من قال -وهذا قول صحيح-: بأن هذا الوجه غير صحيح، بمعنى أن القرآن كله أحكام، حتى الأخبار هي أحكام وهذا حقيقة، كل خبرٍ في القرآن حكم يعلمنا حكمًا.

فالمهم هناك من يتوسع وهناك من يضيق وهناك من يتحدث عن كل سورة فيها هذا الوجه، يعني قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ [البقرة: ٦٥]، يمكن لأحد أهل العلم أن يتكلم: هل يجوز لأحد أن يقلد القردة والخنازير، أن يقلدها في مشيتها في حركتها، يمكن أن يبدأ في البحث عن هذا الحكم من خلال هذه الآية، هذا وجه.

المهم هنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، نحن نعلم أن الأنعام التي أحلها الله عز وجل لنا إما لها منحر وإما لها مذبح، يعني الإبل ليس لها إلا منحر والغنم ليس لها إلا مذبح تذبح، والبقر لها منحرٌ ومذبح، واختلفوا ما هو الأفضل والكثيرون على أن الأفضل الذبح وليس النحر، واستدلوا بهذا الدليل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فجعلوا أمر الأنبياء عليهم السلام لأتباعهم بأن يذبحوا البقر لا أن ينحروها، والفرق بين المنحر والمذبح يعرفه أصحاب الشأن.

هنا لما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، فهو أمرٌ متوجه إلى جميع بني إسرائيل، إلى جميعهم، ويمكن أن يستدل به على ما يسمى بفرض الكفاية، يمكن أن يستدل به على فرض الكفاية لأن الله يأمركم جميعاً، أن تذبحوا بقرة، لو قام بها واحد لحصل المقصد، لأن المقصود هو تطبيق هذا الفعل وهو أن تذبح بقرة، ولا يمكن أن يتصور أن يشترك الجميع في ذبحها، لكن يمكن أن يتصور أن الجميع يدفع ثمنها، وأن يتمالئ الجميع على تطبيق هذا الحكم، والقصد بأنه لو وقع من واحد أن ذبح البقرة لتم الأمر، لكن دل هذا على أنه لم يقع هذا الفعل من واحد منهم قط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، ولو قام بها واحد لحصل المقصود، ولكن القصة تدل على أنه لم يقع من واحدٍ منهم قط، دل على إجماع أهل الشر فيهم وأنهم هم أهل شرٍ في هذا الباب.

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ هنا نكرها، لم يذكر صفاتٍ لها، ولم يأتي على لونها ولا على عملها ولا على سنها، لا يأتي القرآن على شيء، لا على اللون ولا على السن ولا على العمل، وإنما نكرها، فلو أتى المأمور بأي بقرة، صح منه؛ لأن المطلق هو ما لا يقيد، المطلق الذي لم يقيد، مطلق لم يقيد بصفة ولم يقيد

باسم ولم يقيد بوصف ولم يقيد بعمر ولا بعمل، يعني أنت لو قلت لابنك: أحضر لي كأساً، فأحضر لك كأسًا، سواء هذا الكأس كبير أو صغير، سواء كان ملون أو غير ملون، فلا تستطيع أن تعيبه، أنت قلت لي: أحضر لي كأسًا، بخلاف ما لو قلت له أحضر لي الكأس الأبيض في البيت، فدل على أنه لا يجوز لك أن تحضر الكأس الأخضر لأنك عينت صفته، فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، لم يعين وصفها، فدل هذا على جواز أن يأتي الناس بأي بقرة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧]، والهزوا هو التلعب ومن الاستهزاء والاستصغار وهذا هو منتهى الجهل فرد عليهم موسى عليه السلام ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)﴾ [البقرة: ٦٧]، فدل هذا على أن الاستهزاء بالكلام جهل، ودل هذا على أن كل كلامٍ لا حقيقة له هو استهزاء، ما هو الفرق الاستهزاء وغيره؟ هو أن الكلام الذي لا حقيقة له هو استهزاء، لأنهم: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، بمعنى أي حقيقةٍ في كلامك هذا، أي شيءٍ في كلامك هذا فيه الجدية، فرد عليهم ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)﴾، فدل هذا على أن الاستهزاء هو جهالةٌ من فاعله، والاستهزاء ليس فقط أن لا يكون له حقيقة، ولكن أن يكون فيه كذلك لهوٌ وتحقير لمن خُطب به، أنت لا تستطيع أن تستهزئ من العاقل، ولا تستطيع أن تستهزئ بالكامل ولا تستطيع أن تستهزئ بصاحب الوعي، ولكن أنت تستهزئ بالصغير، في أن تخبره في غير الحقيقة، فهو يخاف منها، فيصدقها فأنت تستهزئ به، أو أن تعيّره فتستهزئ به.

فانظروا إلى حقارة هؤلاء القوم حين نسبوا الاستهزاء إلى أعظم نبيٍ أرسل إليهم، وإلى نبيٍ ما رأوا منه إلا الحق، والمعروف عن موسى عليه السلام الجد كل الجد كما هو معروف عن الأنبياء، يعني من راقب وقرأ سيرة موسى عليه السلام مع قومه لا يرى فيها إلا الجد المطلق، ولا يرى فيها إلا القوة ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، هذه ليست صفة رجل يتلعب ويستهزأ، لكن انظر إلى حقارة هؤلاء القوم، يقولون لرجلٍ رأوا منه الآيات العظيمة، ورأوا منهم جد كل الجد ورأوا منه الصرامة كل الصرامة، ورأوا منه الصبر كل الصبر والشجاعة كل الشجاعة في دخوله على فرعون، والثقة بالله كل الثقة والصدق كل الصدق، ومع ذلك ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، هذا كله يدل على حقارة قلوبهم.

الأمر الثاني: لو افترضنا أنهم لم يفهموا هذا، أن يذبحوا البقرة ولا يعرفون لماذا؟ اذبحوا بقرة، لماذا؟ فما هو شأن التابع مع المتبوع؟ ما هو شأنه في قضية النبوة؟ هو التصديق والالتزام فوراً دون مساهلة، فشأن العبد لربه حين يأمره النبي ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، عليهم أن يستجيبوا، ثم انظر إلى صدق بيان موسى عليه السلام في دفع كل تهمةٍ تحصل في القلب، فالنبي قد يتكلم مع الناس كلاماً من جهة نفسه، وهذا ذكرناه البارحة في الدرس الفائت لما النبي صلى الله عليه وسلم ذكر عن الفئران، قال صلى الله عليه وسلم: (ما أراها إلا أمة من بني إسرائيل فقدت)، فقال: (ما أراها)، يعني من جهة نفسه، ما قال: الله يقول لكم ذلك، فهو يخبر من جهة نفسه، مع الكلام على الحديث.

ولما قال الصحابي رضي الله عنه -في بدر-: قال يا رسول الله: «أرأيتَ هذا المنزلَ، أمَنزلًا أنزلكَهُ اللهُ، ليسَ لنا أن نتقدَّمَه ولا نتأخَّرَ عنهُ، أم هو الرَّأيُ والحربُ والمكيدةُ؟ قال صلى الله عليه وسلم: (بل هوَ الرَّأيُ والحربُ والمكيدةُ)، فما قال: هذا من الله، لو من الله قال: لسكتنا وسلمنا، والأصل في إخبار الأنبياء أنهم لا يخبرون من جهة أنفسهم، الأصل أن النبي إذا قال قولاً فليس من جهة نفسه، وإنما هو من جهة الله عز وجل، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣)﴾ [النجم: ٢-٣]، الأصل ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)﴾ [النجم: ٤] هذا الأصل، إلا إذا جاء شيءٌ آخر مثل قوله صلى الله عليه وسلم -عن الضب-: (أنه ليس بأرض قوم ما أحبه)، لم يقل: إن الله لا يحب أكله وليس هو حرام، ولم يقل أنه من الخبائث، قال: (أنا لا أحبه)، فأكل على مائدته وهو ينظر ولم ينههم.

فانظر إلى بيان موسى عليه السلام القاطع لمثل هذا الجهل في نفوس بني إسرائيل، ما قال اذبحوا بقرة فيسألونه من جهة نفسك أم الله يأمرك، فقطع عليهم هذا السؤال وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، فكان ينبغي وهم يصدقون أنه نبي أن يمتثلوا ولا يترددوا لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا يتصور في الأنبياء الكذب، ولا الخطأ في التبليغ، الخطأ في التبليغ لا يتصور عنهم، وليس فقط الكذب لا يخطؤون في التبليغ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ [الحج: ٥٢]، عند التبليغ هو الإحكام التام الذي لا يعتريه النقص ولا الاضطراب.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، هذا يدل على نفسوهم.

الأمر الآخر أن هذا دليل على وجوب امتثال أمر النبي دون فهم معانيه، يعني القصة هي ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)﴾ [البقرة: ٧٢]، فكيف نظهره؟ قال: اذبحوا بقرة، كل واحدٍ سيتسأل ما المقصود بالبقرة، كيف سنحصل على الجواب من ذبح بقرة؟ أنا سأتساءل، وأنت ستتساءل وكل واحدٍ سيتساءل، لكن مع تساؤله يجب عليه أن يمتثل الأمر، فهو امتحانٌ رباني للمأمور أن يمتثل للأمر حتى ولم يفقه معناه ولم يعرف مآلاته، هذا امتحان، وهذا تعليمٌ رباني للمؤمنين أن يمتثلوا الأمر حتى وإن لم يعرفوا وجهته، لماذا يأمرنا الله بهذا؟! وإن كثيراً من الأحكام لا يدركها العبد الممتثل لأمر الله عز وجل، لكنه يستجيب لأن الله عز وجل أمره، ولا بد من وجود حكماء يدركون المآلات، موجود علماء يدركون المآلات لكن ليس كل واحدٍ من المؤمنين يدرك مآلات الأوامر إنما يمتثل، الله أمرني بهذا فأنا أقوم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾، المؤمن عليه ألا يتساءل لماذا؟ أولاً فهمنا لماذا البقرة؟!! لا يفعلها أهل الإيمان مع أنبياءهم، ولا يفعلها العابدون مع طلب ربهم، لا يفعلون هذا.

وطبعًا لقومه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، دل هذا على أن الأمر متوجه في الأغلب إلى الرجال وليس إلى النساء، وإن كان القوم تطلق في بعض وجوهها على الرجال والنساء ولكنها في الأصل تطلق على الرجال لأنها من القِوامة والشدة ولا تطلق إلا على الرجال، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ﴾ [الحجرات: ١١]، فميز النساء عن القوم.

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، فرد عليهم موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)﴾، ومنتهى الجهل الذي تبرأ منه أنه يكذب على الله سبحانه وتعالى، نحن قلنا الله يأمركم، فمنتهى الجهل هو أن يخبر المرء الناس بأمر لم يقله الله عز وجل، أعوذ بالله إن الله يأمركم، فأعوذ بالله أن أقول لكم: أن الله يأمركم ولم يأمر، فمنتهى الجهل هذا، والجهل عند الناس هو ضد العلم ولكنه في القرآن أوسع من ذلك بكثير، فقد يعلم المرء ولا يعمل فيسمى جاهلاً، وقد يعلم أنه كاذب فيخبر بغير الحقيقة مع علمه بالحقيقة فيكون جاهلاً كما في هذا الأمر، يعني الجهل هنا الذي نفاه عن نفسه موسى عليه السلام

هو أن يكون عالماً أن الله لم يأمر فأمر الناس بذلك وهو عالم، بأنه كاذب، وموسى عليه السلام يقول: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)﴾، وأعوذ تقدم الكلام فيها عذت: التجأت، أي ألتجأ إلى الله أن أكذب، وهذه كلمة تقال لرجل حين يعلم قدر الله، أعوذ بالله كيف للمرء أن يكذب على الله وهو يعلم أن الله سيعاقبه فيلتجئ إليه؟ كيف يكون هذا؟ فقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)﴾، هو دليل على أنه صادق لأنه التجئ إلى الله عز وجل، وهرب إليه لا منه، لأنه يعلم أنه قد صدق خبره وأخبر الصدق عنه.

قالوا لما تأكد لديهم، خلاص الآن، أول طعنوا في أصل الخبر، فلما تأكد لديهم أن الله عز وجل قد أخبر به وأن الله عز وجل قد أمر به، ذهبوا إلى إسقاط الخبر عن طريق المشقة عليهم والتقييد، الآن انظر الأسئلة ستؤدي بهم إلى مزيد من التقييد أي مزيد من الحرج، ومزيد من التضييق، التقييد إنما هو تضييق، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، وهذا من جهالاتهم، وتقدم الكلام كيف يتكلمون دائماً عن موسى عليه السلام بهذا اللفظ، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أليس ربكم كذلك؟! ألم يكن هذا ربكم هو الذي أنجاكم هو الذي أطعمكم هو الذي أكرمكم هو الذي رفع شأنكم؟!! وكأن هذا الرب هو رب موسى فقط وليس ربهم!!

قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ﴿ادْعُ﴾ أي أطلب لنا من ربك إن يبيّن لنا ما هي؟ ما هي؟ هو سؤالٌ عن ماهيتها، وذلك في بيان سِنها، وهذا أقرب ما يذكر فيه، يعني البقر الجيد والبقر السيء إنما يذكر بعمره، فطلبوا هذه الماهية، فهي بقرة ولكن طلبوا شيئاً زائداً عن كونها بقرة، في ماهيتها ولذلك طلب سنها، فهم موسى أنهم طلبوا سنها عمرها لأنه هو أول ما يتبادر على ذهن السائل في بيان الحسن والقبح والجودة، فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، وقولهم يبيّن لنا على يقينهم أن هذا هو أمر الله عز وجل، ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا﴾، إذًا البيان من أين؟ من الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ﴾ [البقرة: ٦٨]، أي يقول لكم الله عز وجل، ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، هنا البقرة ليست واقعة في حدين ولكنها بين الحدين، فهي لا فارض ما هي الفارض، الفارض لغةً هو المتسع، ومعنى ذلك أنها قد ولدت كثيراً فاتسع بطنها واتسع كذلك ضرعها، لما درة من حليب بكثرة الولادة وكثرة الحمل، فهي ليست فارض، ليست كبيرة، ولا بكر، وبطر إما أن تكون

غير مطروقة من الفحل فلم تلد وإما أنها ولدت مرة واحدة، فيقال: لها بكر؛ لأنها أي أتت بالبكر، فهي ليست هذا ولا هذا، أي ليست هي فارض كبيرة مسنة كبيرة جداً، ولا بكر صغيرة لم يطرقها الفحل أو لم تلد إلا مرةً واحدة ولكنها عوان، والعوان هو الوسط، يقال للشيء إذا أتى مرة أو مرتين عوان، ويقال الحرب أي التي قامت مرة أو مرتين، فإذن هذه البقرة ليست فارض ولدت كثيراً ولا كبيرة، ولا صغيرة لم تلد أو ولدت مرة واحدة، ولكنها ولدت مرةً بعد مرة، فهي وسطٌ بينهما، قال: ﴿عَوَانٌ﴾، وسط بينهما،

قال تعالى: ﴿وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، بين الفارض وبين البكر، قال: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)﴾، انظر يعني خلاص تم الأمر، هذا تقييدٌ وهو في بيان الزمن فشجعهم موسى عليه السلام مراقباً إياه افعلوا، اذهبوا، طبعًا الآن كانت كل بقر البلدة والقبيلة وبني إسرائيل تصلح، الآن لا تصلح كل البقر إنما قل العدد، لما تميزت أمور فخرجت وبقيت أنواع فلم تخرج، قال: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)﴾، هذا تأكيد لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، من سواد نفوسهم، والمرء يعجب لجهالة هؤلاء القوم!! يعني هل كثرة السؤال سيؤدي إلى إسقاط الحكم، أم أنها السفاهة التي تعمي المرء عن رؤية العواقب، فيأتي هذه الأمور سفيهًا جاهلاً لهذه العواقب يمكن هذا ويمكن هذا، قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩] انتهوا من العمر، الآن جاءوا للون، فانظر إلى تقييدات اللون، قيد لونها بثلاثة تقييدات ثلاثة، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾، بالله عليكم واحد يريد يذبح بقرة آمنا بكر عوان لأن ربما هذا دال على الكبر وليس دال على الصغر، فهي وسط يمكن في ذلك منفعة لكن لون ما دخله؟ يعني ما دخل اللون في نوع البقر.

فجاء التشديد فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾، هذا أول قيد بقرة صفراء، ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)﴾، أما صفراء فبيّن ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي غير مختلط بلونٍ آخر، قالوا: فاقع يعني صريح ليس فيها لون آخر، وقالوا فاقع أي قوي ولكن قوته لا تؤذي الناس، ولا ينظرون إليها بقبح ولكنها ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)﴾، فقيد اللون بمعناه، وقيد اللون بصفته، وقيد اللون بدرجته، أما اللون فقيده بأنها

صفراء، وبقوته بقوله: ﴿فَاقِعٌ﴾، وبمعناه في نفوس الناس، بحيث لو ذهب الناس إليها فرأوها صفراء فاقع لونها لا تسرهم، ما أعجبتهم، سيعرضون عنها ويقولون: هذه ما اعجبتنا.

قال موسى عليه السلام الله يقول لكم: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾، قالوا: هل البقر مأخوذ من البقرة، أم أن البقرة مأخوذة من البقر، والبقر هو ماذا؟ الشق لأن البقرة تضرب بقرونها فتشق الأرض، ويقال بقره يعني شقه، بقر بطنه: شقه، فهل البقرة مأخوذة من البقر وهو الشق، أم الشق مأخوذ من البقرة؟ على مذهبين لأهل العلم، فإذن:

أولاً: ﴿صَفْرَاءُ﴾، ومعروف اللون الأصفر.

ثانياً: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾، أي قوي شديد أو سليمٌ ليس فيه شيءٌ آخر.

ثالثًا: قوله: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)﴾، إذا نظر إليها الناظر أسرته.

وهل اكتفوا بهذا الآن جاؤوا إلى عملها، أولاً: إلى عمرها، ثانيًا: إلى لونها، ثالثاً: إلى عملها، ماذا تعمل؟ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]، مع كل هذا تشابه عليهم!! يعني هذا يدل على ما عليه قلوبهم وما عليه نفوسهم من الغرور ومن الجهل ومن التمحر لترك الطاعات ومن التحلل منها، فماذا بقي؟ يعني كم تتصوروا أن بقرة صفراء فاقعٌ لونها تسر الناظرين في البلد، أربعة خمسة ماذا بقي؟! فإذا قيدناها بأنها فارض ولا بكر عوان بين ذلك، ماذا بقي؟! قال تعالى: فقالوا: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، ولا شك أن كل عاقلٍ لا يقول بقولهم ولا يمكن أن يصدق قولهم، كل عاقلٍ لابد أن يرد أنهم أكذب خلق الله في قولهم: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، أي لا يمكن أن يقول قائل: أن هناك بقر بهذه الدرجة الكثيرة من هذه الصفات ثم تشابه عليهم.

قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ما زالوا على غرورهم، هذه ينبغي أن ننتبه إليها، ما قالوا: ادعو لنا ربنا، قل لربنا أن يغفر لنا وهكذا، قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)﴾ [البقرة: ٧٠]، يعني قولهم: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)﴾، إما على جهة التعليق الذي لا يهتادون لفعله، وإما أنهم قالوه من أجل أن يمرروا قولهم لموسى عليه السلام، وأنا إن شاء الله لمهتدون، أي إلى البقرة التي يأمرنا الله بذبحها، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ﴾، هذا بيان ماذا الآن؟ بيان العمل، ﴿إِنَّهَا

بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١]، ونقف عند هذه الآية إلى الدرس القادم، جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم الحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني والستون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أيها الإخوة الأحبة أهلاً وسهلاً بكم وهذا هو الدرس الثاني والستون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة»، ومع قصة البقرة وهي سبب تسمية هذه السورة، تقدم الكلام عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)﴾ [البقرة: ٦٧-٧٠].

وصلنا إلى هذه الآية بعد أن تكلمنا عن الآيات الفائتة التي تلوناها وقلنا: بأن قوم موسى عليه السلام سألوه أولاً: عن عمرها وعما يناسب الحال العمري لها من الولادة وغيره، ثم سألوه عن لونها والآن جاء السؤال عن عملها، والله عز وجل ذكر شيئاً طيباً في هذا الباب هو عند بعض أهل العلم من أسباب الرعاية لهم وإلا لم يهتدوا أبدا، ذلك بأنهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، ولا شك أن كلمتهم هذه ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، هي كلمة ظالمة وكلمةٌ غير مهدية لأنه تقدم أن الطلب توجه إليهم بذبح أي بقرة، دون وصفٍ خاصٍ لها، ولكن لما شددوا في السؤال شدد الله عز وجل عليهم في الأمر والتشريع.

لكنه ذكر عنهم أنهم قالوا هنا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، هذه الكلمة عند بعض أهل العلم فيها رجاء، ذلك لقولهم هذا واصل ربنا سبحانه وتعالى الحديث معهم لإقامة الحجة عليهم وإلا لقطع، فهم قالوا:

﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، وكأنهم رققوا الأمر في هذه العبارة، رققوا الحال، يعني أنهم على استعداد إن اهتدوا إلى المقصودة فإنهم سيفعلون، ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، وهذا الوجه من المدح لهم، هو في الحقيقة عندي غير سديد لمن قاله من أهل العلم أو غير مصيب، ذلك لأنهم علقوا الأمر على عدم الاهتداء، قالوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، وهو لم يطلب منهم، هم في زعمهم هذا، في كلمتهم هذه ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، كأنهم يعلقون عدم ذبح البقرة المطلقة أي ذبح أي بقرة كأنهم علقوه على عدم الاهتداء، وهو لم يطلب منهم الشارع ذلك، الشارع الله عز وجل لم يطلب منهم على لسان موسى عليه السلام ولم يأمر موسى عليه السلام بأن يقول: لهم اذبحوا بقرةً معينة، فقد أطلق، فلماذا هم يشددون في قولهم، ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾؟! من الذي طلب منهم بقرةً معينة فتاهت عليهم معالم هذه البقرة، فيسألوا الهداية لها، من الذي طلب منهم؟! هم الذين زعموا عدم الاهتداء، وهم الذين زعموا أنها بقرة معينة ذات أوصاف محددة فشددوا على أنفسهم.

فقولهم هذا ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، في الحقيقة حيلة، وكأن الأمر متوجه إلى بقرةٍ محددة وليس الأمر كذلك، فقولهم: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، هو في حقيقة حيلةٌ من حيلهم في اتهام الأمر بأنه غير جلي وغير واضح، والأمر ليس كذلك، فلذلك الذين من أهل العلم في كتب التفسير وهي منسوبة لبعض أكابر الأئمة في أن قولهم: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، هي بابٌ ومخرجٌ لهم ومدح لهم من أجل الاهتداء، ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، يعني قد هديتم، وليس الأمر كذلك، بل أنا أعتقد بأن هذا من حيلهم، لأن ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، كأنهم لم يهتدوا إليها من قبل ولو أخذوها من قبل لكانوا مهتدين، فهم الذين شددوا فشدد عليهم،

قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، ونحن تكلمنا بأن هذا من الخطاب السيء، يقولوا لموسى عليه السلام ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أين لو قالوا: ادعُ لنا ربنا، ﴿يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾، في الحقيقة تشابه البقر عند أهل العلم في وجهه ليس في لونه وليس في حجمه وليس في سنه ولكن البقر يتشابه على العرب في أمثلته من وجهه، البقر تتشابه على الناس في وجوهها، لأن وجه البقر يشبه وجه كل بقرة، والخلاف بينها يسير ولا يميز بينها إلا في الحجم واللون والعمر، ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)﴾ [البقرة: ٧٠].

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ [البقرة: ٧١]، فجاء البيان من الله عز وجل على هذه الصفات، أولاً: بأنها غير مذللة أي غير مدجنة لعمل من الأعمال لم تُذلل، والبقر وشأن كل حيوان لا يستقيم على عملٍ له إلا إذا دُرب، فأنت تأتي بالحصان لابد أن تدربه ليكون نافعاً لشيءٍ إما للركوب إما للمبارزة أن يكون نافعاً في الحروب، وإما أن يكون للجر فلابد أن يدرب، وهذا التدريب تذليلٌ له.

والله عز وجل ذلل لنا حيوانات معينة من أجل منفعتنا، وهناك حيوانات من الأوابد المقصود بها الوحش التي لم تُذلل، كالسباع لم تُذلل، لكن الله ذلل الكلب تدربه، قال تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]، تذلل الطيور، بعض الطيور تذلل أي تدرب، المقصود بتذلل أي تصبح مدربةً لاستخدام صاحبها لها، فإذا لم تدرب بقيت الحيوانات على ما هي عليه لا تنفع، وبعض الحيوانات حتى لو دُربت لا تنفع لأشياء، أي لا يمكن أن تدرب مثلاً حيوان لغير نفعه، البقرة هل تنفع لأن تكون للمبارزة في الحروب؟!! لا تنفع في الكر والفر كما وصف فرس امرؤ القيس المكرر المفر لا تفع للأقبال والإدبار بسرعة للحروب، ليس هذا من شأنها، فالبقر الناس يستخدمونها أصلاً للحم، يسمنونها للحم، ولذلك هي تنحر أو تذبح وتقدم الكلام بأن الأولى فيها الذبح لهذه الآية، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، وللبقرة منحر ومذبح ففيها الاختيار، والغنم فيها المذبح، والأبل فيها المنحر، وقال بعض أهل العلم الأولى في الثلاثة هو الذبح لهذه الآية.

فالأصل في تربية البقر هو من أجل اللحم، لكن الناس يستخدمونها لغير اللحم، ومن ذلك هذا أنها تُذلل من أجل بقر الأرض من أجل الحراثة، إثارة الأرض، التثوير هو الرفع، ما معنى ثار أي ارتفع أشتد خرج من مكانه، فإذا استخدمت البقرة من أجل الحراثة ثارت الأرض خرج ما في بطنها إلى أعلاها ثارت، فقال الله عز وجل عن هذه البقرة أنها لم تستخدم للحراثة، فقال تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١].

قوله تعالى: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾، هذه ليست جملة مستأنفة عند كثير من أهل العلم نبين وجوهها، ليست جملة مستأنفة، بمعنى لو كانت مستأنفة لكان لا ذلول وقفنا ولكنها تثير الأرض، هذا وجهٌ من الوجوه،

ولكنه وجهٌ بعيد، والصواب ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾، فجاء النفي في الابتداء والنفي في الانتهاء، في قوله تعالى: ﴿لَا ذَلُولٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾، فقوله: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾، أي لا تثير الأرض أي غير مستخدمة للحراثة، فدل هذا على أن البقر يستخدم للحراثة، لكن هذه البقرة خاصة إنما أصحابها يثمنونها لأكلها لا يستخدمونها للحرث، هذا وجه.

ووجه آخر أنها تثير الأرض مستأنفة على وجهين، لا ذلول كلمة تثير الأرض، قال بعضهم: مستأنفة على أنها تثير الأرض لا للتذليل لها في حرث الأرض، ولكنها تثير الأرض لعباً، وهذا وجه بعيد، لكنه موجود في كلام أهل العلم ذكره الإمام القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ومذكور عند غيره، مقصود لا ذلول تثير الأرض، أي لا تشتغل في حرث الأرض لكنها تثير الأرض لعبًا ولهوًا.

وقالوا: لا، مستأنفة ولكن ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ هي ليست مذللة تذليلاً لغير إثارة الأرض يعني هي تثير الأرض، وهذا وجهٌ كذلك بعيد، أي هي ليست ذلولا ولكنها تثير الأرض أي تُستخدم للحراثة، هذا وجهٌ من الوجوه ولكنه قولٌ كذلك بعيد، وأصوب الأقوال أنها لا ذلول أي غير مستخدمة لإثارة الأرض أي لحرثها، ودل هذا عند أهل العلم على أن البقرة يستخدم لإثارة الأرض، غير ما تقدم أنها ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾، تستخدم كذلك البقرة من أجل الاستيلاد.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾، أي ليست سائمة بمعنى أنها لا تستخدم لسقي الأرض، وهذا دليل على أن البقر يستخدم، فهي هذه البقرة يعني مدللة ولا تشتغل في هذا ولا تشتغل في الحراثة، ولا تشتغل في السقي، يبقى أمرها لماذا؟ يبقى أمرها من أجل اللحم أو من أجل كرامتها عند أهلها، وإن كان هذا لا يعرف عند العرب، يعني العرب تربي بعض الحيوانات لكرامتها، لا للذبح ولا للاستخدام ولكن لجمالها، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾ [النحل: ٦]، ومن هنا قال بعض أهل العلم: إن الجمل أخذ من الجمال لأنه لا يوجد في الحيوانات أجمل منه، ولا يوجد في الحيوانات شبيه له، ولا يوجد في الحيوانات من يقوم مقامه، قالوا: لكن الزرافة مع كبرها، قال: ليست هي بصلابة الجمل، والتناسق في الجمل لا تدركه الزرافة، والزرافة أخذت من الزريف أي الطويل، ولذلك حتى في العامية زريف الطول أي الطويل، فالزرافة أخذت من الطول والجمل أخذ من الجمال.

فبعض الحيوانات تُقنى في البيوت من أجل جمالها، ويكون سعرها أكثر ما هي من أجله سواء كان من الحراثة أو من أي عملٍ لها سوى الجمال، يعني مرات الجمل له سعرٌ أغلى من أي سعرٍ آخر لأي عملٍ آخر أنت تحتاج إليه، الجمال فقط للمتعة، لكن الحراثة، السقي، الاستيلاد، ومع ذلك يكون ثمنه ما هو جمالي أكثر ما هو حاجي أو ضروري، وهو الجمال، ولكن لا يعرف عند العرب أن البقرة تتخذ لجمالها إلا إذا صار مسابقة جديدة هذه الأيام مسابقة جمال البقر، كما يفعلون جمال الجِمال مثلاً أو الخيول.

القصد: أن هذه البقرة تحدد وصفها بعمرها وحال العمر لها في قضية الاستيلاد وفي لونها العجيب ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾، وتحدد كذلك عملها بأنها لا تعمل مربوطة في البيت من أجل إذا صح تثير الأرض للعب واللهو، فبعد أن قال: ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾، قال: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، أي سليمة، ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾، الآن انتهى هذا، لكن ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، بمعنى لا عيب فيها خُلقي، أي ليست هي عرجاء وليست هي مريضة وليست هي عوراء هذه عيوب الأضاحي التي لا تقبل، عيوب الأضاحي، -الآن نحن مقبلين على عيد الأضحى- فما هي العيوب التي ترد بها الأضحية؟ هي هذا العوراء البيّن عورها، فإذا لم يكن بينًا جاز، والعرجاء البيّن عرجها، فإذا لم يكن بيّنًا جاز، والمريضة التي لا مخ لها بمعنى أنها عجفاء فهذه كذلك لا تقبل، إما غير ذلك مثل مكسورة القرن فلا بأس بها، أو مشقوقة الأذن فلا بأس بها، أو مقطوعة الذيل فلا بأس بها، أو كان ذكر خصياً فهذا أطيب،

فالقصد: أنها ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، بريئة من هذه العيوب التي يقدح في أمثالها، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، يتعلق ببدنها كما ذكرنا، ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾، يتعلق بلونها، فلما قال: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾، أي ليس فيها لون آخر لأن ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾، شية من الوشي، والوشي هو التزيين، مثل: وشي الثوب، أي يكون الثوب على صفةٍ من اللون فيأتي الوشي على لونٍ آخر، هذا الوشي، فهي ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾، أي لا لون فيها إلا اللون الذي تقدم ذكره، فقطع عليهم أي صفة فلم يجدوا هذا كما يذكر في كتبهم، لم يجدوا هذه البقرة إلا واحدة على هذه الصفات التي تقدمت، قال سبحانه وتعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١]، تمة هذه الصفات وقطعت.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]، وكلمة الحق هنا أغلب أهل التفسير على أن ﴿جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، أي جئت بالصفات البينات الواضحات للبقرة المطلوبة، هكذا إذا رجعت إلى كتب التفسير تجد العلماء يقولون هذا، ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، أي جئت بالبينات، والحقيقة أن بعض أهل العلم وهو الأصوب أن ﴿جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ هي لتقابل كلمة ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، فلما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)﴾، فإذن الهزو هو الجهل، الاستهزاء جهل ولا يجوز أن ينسب لدين الله، ولا يجوز أن يستخدم مع دين الله، لئلا تسقط هيبة الدين، أي لا يجوز خلط الهزل بالجد، ودين الله كله جد، وقرآن الله عز وجل جد، وليس بالهزل، فالجهل خلط الهزل بالجد، وكذلك الهزو غير الحق، لما ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، ثم ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، فدل على أن الهزو غير الحق، الاستهزاء والهزو لا يكون حقًا، والحق يخالفه، فلما ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، أي على خلاف ما اتهمناك به، هذا هو الأصوب، وكأنهم يردون على أنفسهم حين اتهموه بأنه إنما أمرهم استهزاءً بهم، ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾.

وبعض أهل العلم يفرق بين الحق والحقيقة، الحقيقة قد تكون شيئاً باطلاً معصية، مثلاً: إثبات كذب رجل، فالحقيقة أنه كذب، ولكن الكذب ليس حقاً، بخلاف الحق، الحق ما كان في نفسه صواباً وكان وجوده كذلك حقاً، هذا مما يفرق به عند بعض أهل العلم أن الحقيقة لا تعني أنها حقٌ في نفسها، لكنها حقٌ في وقوعها، أنه وقع حقيقة، ولكن الحق ما هو في نفسه كذلك وفي وقوعه وفي وجوده، ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾.

قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)﴾ [البقرة: ٧١]، هنا ﴿كَادُوا﴾، يسميها أهل البيان من أفعال المقاربة، كأن تقول: كاد الرجل أن يأكل لكنه لم يأكل، كاد أي قارب، فإذا جاءت كاد مثبتة دلت على أنه لم يقع الفعل، إذا جاءت مثبتة، كاد أن يأكل، كاد أن يضرب، كاد أن يصل لكنه لم يصل، هو قارب مقاربةً شديدة لكنه لم يأتي بالفعل الذي بعده كاد أن يفعل، وإذا جاءت كاد منفية، الله يقول: ﴿وَمَا كَادُوا﴾ هنا منفية، ﴿وَمَا﴾ هنا نافية، إما أن تأتي «ما» مصدرية بمعنى الذي، أو نافية ما حضر أو تأتي سؤال، ما الذي جاء بك؟ فهنا ﴿وَمَا﴾ نافية.

فإذا جاءت «كاد» هذه منفية على ماذا تدل؟ بعض أهل العلم قال: كاد إذا جاءت مثبتة فهي مثبتة، وإذا جاءت منفية فهي منفية، وهذا هو الأصوب، إي إذا نفيت كاد دلت على عدم الوقوع، وإذا جاءت مثبتة جاءت على الوقوع، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور: ٤٠]، هنا نفي فدلت على نفي الوقوع، فإذا وردت منفية فهي منفية وإذا وردت مثبتة وجاءت على الإثبات جاءت على الإثبات وإذا جاءت على النفي، جاءت على النفي.

قال الله عز وجل: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور: ٤٠]، لماذا قال: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾، فإذا أخرج يده لم يراها؟ قال أهل البلاغة: هو لم يرها لكنه ربما لاحظ شيئاً هو لم يرها، الرؤيا هو وضوح الأمر أنه رأى الشيء على حقيقته، لكن ربما في الليل يمر أمامه شيء بعيد فيلاحظ ما يسمى زواله، طيفه، خياله، القرآن يبين أن هذه الظلمة اشتدت عليهم حتى نفى مقاربة الرؤية، يعني لم يكد يراها حتى كاد هذه بعيدة، هو كاد اقترب، يقول: لا، هنا نفى أن يكون قد اقترب من رؤيتها، ليس فقط لم يراها ولكن كذلك هو أشد من ذلك.

فالله عز وجل قال هنا: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)﴾ [البقرة: ٧١]، هو لو قال: وما كادوا يفعلون منفية لوقع النفي، لو قال سبحانه وتعالى: قالوا الآن جئت بالحق وما كادوا يفعلون، لدل هذا على أنهم لم يفعلوا، وما كادوا يفعلون كما قلنا في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور: ٤٠]، ما كادوا يفعلون، يعني لم يقتربوا من الفعل وليس لم يفعلوه لم يقتربوا منه اقتراباً، لكن لما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾، قدم هذا أنهم فعلوا الفعل، لكن ما كادوا ليدل على تعنتهم، القرآن يريد أن يقول: بأن صراعهم مع أنفسهم كان شديداً حتى يكادوا أن لا يقتربوا من الفعل لكن ذبحوها، هذا هو الوجه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)﴾.

تقدمت الكلام أيها الإخوة الأحبة على أن سبب قول موسى عليه السلام لقومه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، لم يتقدم سببه، وإنما تأخر السبب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢] الآن جاء السبب، للعلماء مشارب ومسالك كثيرة لماذا تأخر هذا السبب عن

القصة، لماذا لم يذكر السبب في الابتداء؟ لتتناسق القصة والخبر أن يذكر السبب ثم يقول لهم موسى عليه السلام: اذبحوا بقرة، ذكرت أنا وجهًا لها:

الوجه الأول: -الذي ذكرته أكرره بسرعة- بأن سبب السياق هو بيان تعنت بني إسرائيل، هو يريد أن يقول الله أمركم فافعلوا كذا، اذكر لما أمركم، لما أمركم، وأنتم تسألون: لماذا أمرهم؟ فجاء الجواب، فهو يتناسق مع السياق، وهو بيان تعنت بني إسرائيل تقدم أنهم رفضوا الأمر والآن يتلاعبون في الأمر.

والوجه الآخر: أن انتكاسة نفوس بني إسرائيل تتلاءم مع انتكاس القصة، القصة تبين حال نفوس بني إسرائيل وما هم عليه، فأراد القرآن يقول: إن انتكاسة الخبر يناسب انتكاسة نفوسكم.

بعض أهل العلم لهم مسالك أخرى كما ذكرت، ومن ذلك قالوا: لو تقدم السبب ثم جاء الخبر لما استفدنا من القصة إلا فائدة واحدة وهي تعنت بني اسرائيل، لكن لما تأخر السبب استفدنا أمراً أخر وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)﴾ [البقرة: ٧٢]، استفدنا أولاً: بيان حال بني إسرائيل مع الأمر الإلهي، أنهم يحاولون الهروب منه قدر الاستطاعة والتنصل منه بكثرة تعليق الأسئلة عليه، كيف أفعله؟! هو غير واضح غير بيّن! في زعمهم، إذا جاء الأمر هكذا مطلقاً فيرد عليه يقول: أمرك غير واضح غير بيّن؛ من أجل إسقاطه، كما أن المدير يأمر الموظف عنده أفعل كذا، فيقول: هذا أمرٌ غير بيّن وما دام غير بيّن فهو يسقط، عدم بيانه يؤدي إلى إسقاطه فهكذا أراد اليهود، فهذا المقصد قد تم.

والآن جاء مقصد آخر فجاء ذكره فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ﴾، هنا بيان لماذا؟ بيان لشيءٍ آخر في نفوسهم، ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)﴾، لو تقدم السبب لفات هذا المعنى من تنوعه إلى أمرين وليس إلى أمرٍ واحد.

قال تعالى: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، ﴿الْآنَ﴾، اسم لظرف زمان يدل على المضارع، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، الآن جاء الخبر والسبب الذي يبين لنا مساق القصة ولماذا وقعت؟ فالسبب هو أنه ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، فنسب القتل ربنا إلى القوم، العلماء لهم مسالك في هذا لا أريد التوسع فيه، خاصةً في قضية القسامة وقد توسع فيها القرطبي رحمه الله في «الجامع لأحكام القرآن»

توسع فيها كثيراً، وأمر القسامة في الفقه الإسلامي أمرٌ مشكل، والإمام أحمد رحمه الله مع أنه إمام أهل الحديث في عصره إلا أن حديث القسامة قد شغله فقال عن حديث القسامة: «أنه حديثٌ ذو شجون»، شجون بمعنى لكثرة ما فيه من روايات وكثرة ما فيه لم يأخذ به، وكذلك الحنابلة لا يأخذون بالقسامة.

ما هي القسامة –فقط للتنبيه–؟ القسامة هو أن يكون بين قبيلتين أو عشيرتين أو قريتين عداوة، فيقتل أحد العشيرتين أو القريتين على حدود أو أقرب ما يكون إلى القرية الأخرى المعادية لأهل هذا القتيل، فالشبهة كما يسميها الإمام الشافعي اللوث، اللوث هنا ماذا؟ القرائن، فالقرائن اللوث والشبهة من الذي قتله؟ أهل القبيلة الثانية، فماذا نفعل؟ الطريقة لرد التهمة عنهم أن يحلف خمسون رجلاً من هذه القبيلة التي هي متهمة به والقرائن عليها لوجود العداوة ولقربه منهم، بأن يحلف خمسون رجلاً منهم خمسين يميناً أنهم ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلاً، فإن نكثوا، إذا قالوا: ما نحلف، حلف أهل القتيل، خمسون يميناً أنهم قتلوه، فإما أن يحددوا أو لا يحددوا، أي أن يقولوا: فلان قتله، للشبه عندهم، لأخبار لكن لا تصل إلى درجة اليقين، لكن هم يعلمون فلان أنه كان معه في الليل وكذا وهو الذي ناداه، هو الذي واعده ... إلخ، فيحلفون، فيستحقون دم قتيلهم، هذه هي القِسامة، إما أن يحلف فينجو وأما أن يحلف أهل القتيل فيستحقون دم قتيلهم هذه القِسامة.

هذا الحكم فيه أحكام كثيرة مختلفة، وردوا الأمر بعد نكول أهل المتهم أو المتهمين أو أهل القبيلة التي تتهم به، هل ترد الإيمان إلى أهل القتيل أو لا؟ هذا خلاف، فلو نكثوا لو نكلوا عن الإيمان، وحلف أهل القتيل أن فلان قد قتله، هل يقتل به أو فقط الدية؟ هذه المسألة من المسائل الشائكة ولذلك الإمام أحمد لم يأخذ به مع أنه حديثٌ ثابت، لكن لكثرة ما فيه من روايات وكثرة ما فيه من اختلاف في الحديث فلم يأخذ به الإمام أحمد، وألف ابن حازم كتاباً في القِسامة، ألف فيه كتاباً جمع فيه الروايات كعادته في المسائل المشكلة، كما كتب وجمع المرويات في الحج ابن حزم لكثرة ما فيه من اختلاف في الروايات في الحج، كل من الرواة قد حدث بما فهم وحدث بما رأى أو حدث بما سمع، فكثرت روايات الحج، وكذلك في القسامة.

بعض أهل العلم قال: وأصل القسامة على هذا أنه ثبت باللوث من القاتل لأنه يضرب ببعضها هذه ليست من قرائن الأحكام اليقينية التي يثبت بها الدم، فهل هي أدنى من القسامة؟ فلذلك تحدثوا في القسامة

في هذا الباب وفي هذا الموطن ولذلك قالوا مما قالوا: إن هذه الآيات دالة على أن شرع ما قبلنا هو شرعٌ لنا، وأنا مع هذا القول: أصولياً أن الشرع ما قبلنا –بالشروط– أن شرع ما قبلنا هو شرعٌ لنا بشروط أن يكون قد ثبت بالكتاب والسنة ألا يأتي نصٌ شرعي يخالفه يدل على نسخه، وقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، دليلٌ على هذا، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، دل على هذا المعنى.

والله عز وجل قال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، فنسب القتل لهم، لماذا؟ على هذا المعنى، فالآن في القتل سواء الخطأ أو شبه العمد عند إسقاط القصاص عن القاتل، في القتل الخطأ وشبه العمد، من الذي يتحمل الدية؟ القبيلة العصبة تتحمله، فسماها هذا الأمر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾، أنتم قتلتموه ما دام أن تتحملوا هذا المعنى، طبعاً بلا شك معروف أن القتل العمد العصبة لا تتحمله، إنما القاتل هو نفسه هو يتحمل الدية المغلظة إذا أسقط أولياء الدم القصاص عنه،

فالله عز وجل قال: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، أنتم قتلتموه جميعاً إما لمعرفتهم إما لتواطؤهم وإما لمحاولتهم إماتة حقه، ضياع حقه، محاولتهم أن يضيع الحق، فسمى هذا القتل لهم جميعاً، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، وهذا دليل على أنه إذ ستر المرء الحق كان مشاركاً، هذا دليل على أن المرء إذا سُئل عن حق فكتم لغيره وكان شاهداً فستر الحق فيكون مشاركاً للظالم في أخذه الحق، وإذا سكت الرجل عن بيان من الذي قتل؟ وهو يعلم القاتل فيدل هذا على أن دم القتيل معلق في رقبة هذا الشاهد الخائن الذي خان هذه الشهادة ولم يظهرها، فالله عز وجل يحمله هذا الحكم وقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾.

قال تعالى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، ما معنى الدرء؟ الدرء هو الدفع، فهنا مشاركة ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، أي كلكم دفع هذه التهمة عنه، ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، أي كل واحدٍ دفع التهمة عنه، هل رماها في غيره لا يشترط، القصد أنه أبعدها عن نفسه فقط، إذن لا يشترط في كلمة ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، أن يقول: أنا لم أقتله ولكن قتله فلان لا يشترط، إنما يقول: أنا لم اقتله ويسكت، فهذا درء التهمة عنه، دفع التهمة عنه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)﴾، فلما أرادوا أن يميتوها بدفع التهمة عن أنفسهم كل واحدٍ عن نفسه، الله عز وجل أراد أن يبين الحق، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة:

٧٣]، جاء الأمر الإلهي قلنا: هذا القتيل أن يضرب ببعض هذه البقرة، أول شيء تذبح، لابد أن تذبح، فثم بعد ذلك أن يضرب ببعضها، ما هو هذا البعض؟ هذا لم يذكره القرآن، والصواب أنه لو ضربوه بأي جزء منها يصح عليه وصف بعضها، البعض قال: لا، إنما ضربت باللسان، وبعضهم بالذيل، وبعضهم بالفخذ، وهذه الأقوال لا نقف عندها لعدم اعتناء القرآن بها، فدل على أنها ليست من الأهمية.

قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾، أي يأتوا بجزء من هذه البقرة المذبوحة فيضربوا بها الميت، فبعد ذلك، القرآن سكت وهذه طريقة قرآنية وهي الاختصار، هذا الاختصار مبعثه أمور، إما لأنه لا يدل إلا على حدثٍ واحد كهذه الحالة، أي لما يقول الله عز وجل: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، ماذا يأتي بعدها؟ قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾ [البقرة: ٧٣]، هذا التقرير، ما الذي حدث؟ حدث أن ضربوه فعاش هذا الميت فتكلم عن قاتله ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾، يعني هذه الثلاث خصال بعد قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، قبل قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾، هذه مقررةٌ لا يمكن الخلاف حولها لأن سياق السورة أو الآية يدل عليه، الاختصار هنا لأن القرآن يختصر ما هو مقررٌ في الذهن حدوثه يقيناً ولا يمكن الخلاف حوله.

مثال ذلك: أحد الإخوة يسأل لما تكلمت عن قصة لوط عليه السلام لما قال: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾ [هود: ٨١]، هذا قول الملائكة ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾، لماذا؟ قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾ [هود: ٨١]، هذا لماذا؟ دل على أن ثمة حوار جرى بين لوط وبين الملائكة عليهم السلام جميعاً لوط والملائكة دل على أن هناك حوار أنه قال: يعني أريد الصبح قالوا ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾.

وكذلك في سورة «يس» هذا كثير الاختصار موجود في الخبر القرآني، في قصة «يس» قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٠-٢٦]، ولكن في قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ما الذي جرى؟ قتلوه، أنهم قتلوه فمات شهيدًا، فارتقت روحه إلى السماء فدخل الجنة، ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾، لا يمكن إلا هذا.

وهنا كذلك قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، فضربوه، أول شيء ذبحوا وضربوه ببعضها، فعاش أحيي هذا القتيل فتكلم وأخبر عن قاتله لأن هذا هو المقصود، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾.

وكم مرة في سورة «البقرة» ذكرت أخبار إحياء الموتى كم مرة غير هذه؟ أربع مرات غير هذه:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦]، هذه الأولى وتقدم ذكرها، الله عز وجل أحيا بني إسرائيل بعد أن أماتهم بعد أن طلبوا أن يروا الله فأخذتهم الصاعقة، فالله أحياهم.

ثانيًا: هذه القصة، الله أحيا هذا الميت فتكلم عن قاتله ثم عاد ومات، وسنأتي إليها.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)﴾ [البقرة: ٢٤٣]، هذه الثالثة.

رابعًا: قصة عزير، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وهذا فرق بين عُزير وبين أهل الكهف، أهل الكهف ما ماتوا، أهل الكهف فقط أنام الله عيونهم مع بقاء حياتهم، قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨]، ما ماتوا، بخلاف قصة عُزير، عُزير مات، ومن المفارقات أنه مات فمات حماره وذاب لحم حماره وطعامه ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، طعامه بقي كما هو وقال بعضهم: كان التين، وهذا يحتمل ولكن أي طعام حتى لو لحم ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، لم يتغير وهذا الرابع، الذي هو ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، أماته مائة عام ثم بعثه.

خامسًا: مع إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ

جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وسكت القرآن وهذا مثال آخر سكت، ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾، ما قال: إنه فعل ثم جاءته لأن هذا يقيناً قد وقع، وهذا من اختصار القرآن.

القصد: أن في سورة «البقرة» هذه خمس حوادثٍ في إحياء الله الموتى.

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾، يعني إحياء الله الموتى هنا فقط في قضية عودة الروح إلى البدن لتكون حية ولكن ليس هو بيان الصيغة التي بها يتم الأحياء، وإلا فالإحياء له صيغة، أن الجسد يموت ويتحلل ويذوب كل شيء في ابن آدم إذا طال عليه العمر حتى يبقى منه إلا عجب الذنب فقط، وهو الذي منه ينبت الإنسان، ولكن هنا كذلك عودة الروح، الروح فارقته قتله صاحبه فخرجت الروح فالله عز وجل أعاد إليه الروح ونطق وتكلم.

ولو قال قائل هنا هو خلاص الآن لماذا يقع القصاص وقد أحيي ثم مات؟ نقول: ما وقع على سبيل المعجزة لا يسقط به الحكم، هذا وقع على سبيل المعجزة وهو أنه قد عاش فلا يسقط الحكم في أنه مات قتيلاً ويستحق أولياء الدم القصاص أو الدية.

قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، أي البقرة هنا الضمير يعود البقرة، ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، فهذه آية من آيات الله عز وجل، القرآن يريد أن يقول: أن المنفعة ليس فقط في أنه قد عاش فأبانا من قتله، هذه منفعة عظيمة لأنها تؤدي إلى زوال التهمة بين الناس وتؤدي إلى زوال الخصومة بين الناس، لو لم يقع معرفة القاتل لاختصم الناس وربما قتل بعضهم بعضاً، وبقيت التهمة قائمة وربما يقتل الناس المظلوم ويتركون الظالم، فهذه منفعة عظيمة، لكن هل هذه المنفعة أعظم من منفعة ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، من هو الأعظم منفعة للبشرية؟ هو فقط أن هذا القتيل قد كشف قاتله؟ أم أن المنفعة العظمى في أنه ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، ما الأعظم عند الله؟ وما الأعظم في دين الله؟ الأعظم في دين الله هو أن ترى آيات الله عز وجل، أن تعلم آيات الله عز وجل، فلذلك قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾.

وماذا قال عيسى عليه السلام لما طلب آية من الله وهي نزول المائدة ماذا كان دعائه؟ قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤]، هل قال: لنأكل منها أول؟! قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾ [المائدة: ١١٤]، فعيسى عليه السلام طلب المائدة ليس فقط للأكل والشرب كما طلبوه، ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)﴾ [المائدة: ١١٢-١١٣]، عيسى عليه السلام لما خاطب الله عز وجل ما قال نريد أن نأكل منها أولاً ولكن لتكون لنا عيداً أي نفرح بنعمتك علينا، نزول آية هذا أمر يجعل الأمر عيد لنفرح به، ولتكون آية.

فإذن الأعظم في هذا هو كشف القتيل أم أنها كونها آية؟ كشف قتيل وقعت لأهل الحدث، لكن كونها آية لكل من سمع بها بعد ذلك إلى يوم القيامة، إذن الانتفاع أشد في كونها آية، فقال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾ [البقرة: ٧٣]، يريكم الله عز وجل كيف يحيي الموتى وكيف سبحانه وتعالى يريكم هذه الآيات، واحد مات ثم أحيي من يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، هل يوجد في البشرية من يستطيع أن يفعل هذه الآية، لا يستطيع، فلذلك دلت على أنها فعل الله سبحانه وتعالى.

قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]، القسوة هي الشدة واليبس، اليُبس والغلظة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، ما المقصود؟ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، خاطب من؟ خاطب الجميع، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، وهنا يقول جل في علاه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، هذا الخطاب لمن؟ الخطاب لليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، الخطاب لليهود، وبعضهم قال: خطاب لأهل القتيل، بعض أهل العلم قصر المعنى على خطاب لأهل القاتل أنهم لم يرضوا بذلك أنه قال هذا لا نصدقه وهذا بعيد، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، بعضهم جعلها قاصرة على أهل القاتل أنهم رفض الدليل البيّن في أن ابنهم أو أحد أفرادهم قد قتل هذا القتيل.

ولكن هذا الصواب أنه خطاب ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، أي لليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فما دخل اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، هذا تكلمنا عنه في دروسٍ السابقة، فالذي رآه اليهود زمن النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات الدالة على صدقه هي أعظم هذه الآيات، أعظم من الآية هذه التي أحيا الله عز وجل فيها هذا الميت فأخبر باسم القاتل، أعظم، رأوا آيات أعظم من ذلك، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبنائهم لشدة ما رأوا من الآيات، ولذلك ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، فلذلك الله عز وجل قال مع كل هذه الآيات قد قست قلوبكم، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي بعد أن رأيتم الآيات.

والقلب القاسي هو أبعد ما يكون عن الله عز وجل، فما الذي يلينه؟ ما الذي يلين القلب إذا قسى القلب فإنه لا يخشع لأمر الله، ولا يتعظ للمواعظ القرآنية والأحاديث النبوية ومواعظ الوعاظ، لا ينتفع لأنه قاسي، مثل الحجارة التي إذا نزلت عليها الماء لا ينبت منها الزرع، قاسية صلدة، فما الذي يلين القلوب؟ يلين القلوب الاستجابة لأمر الله عز وجل، حتى لو شعرت أن قلبك لا تدمع العين وعلامة قسوة القلب هو عدم الاستجابة لأمر الله عز وجل أنها لا تدمع العين ولا تقشعر الجلود ولا يتم التأثر بالمواعظ القرآنية والأحاديث النبوية ومواعظ أهل الايمان، لا يتأثر، فدل هذا أن القلب قاسي.

ومن كان له قلب قاسي فليبكي عليه، وليلينه بأن يكثر من الاستجابة لأمر الله عز وجل، ومن أمثال ذلك أن يكثر من ذكر الله عز وجل، أن يكثر من الصلاة، أن يكثر من قراءة القرآن، هذه تلين القلوب أن ينظر إلى آيات الله في الكون أن ينظر إليها، وخاصةً الآيات التي فيها بيان الرحمة الإلهية، فيما يطلب الإنسان صاحب القلب القاسي ينظر إلى الأيتام، لينظر إلى اليتيم قلبه يلين، ينظر إلى الفقراء والمساكين بالرحمة والعطف، فقلبه يلين لأنه إذا قسى قلبه لا يستجيب لهذه المواعظ الكونية الحادية القدرية السنية الموجودة في الكون، قلبه لا يلين على الضعيف، قلبه لا يلين على الفقير، قلبه لا يلين على المسكين، فعليه أن يجبر قلبه على هذا الأمر، وإن لم يستطع كما هو منسوب لأبي بكر رضي الله تعالى عنه «ابكي فإن لم تستطع فتباكى»، على المرء أن يتحزن من أجل أن يصيب الحزن، وعليه أن يتباكى من أجل أن يصيب البكاء، وعليه أن يحسن إلى الناس ولو بإجبار نفسه على الإحسان ليلين، الكلمة الطيبة ربما تكون شديدة على النفس عند بعض الناس لكنه إذا أجبر نفسه عليها على الكلمة الطيبة وأجبرها مرة ومرة، ومرة، فتصبح الكلمة الطيبة له سجية، وإذا يجبر نفسه على الرحمة على الخلق تصبح الرحمة له سجية، لأن العلم بالتعلم،

والحلم بالتحمل والصبر بالتصبر، هذه أخلاق يتعلمها المرء، ولكن إذا وجد في قلبه قسوة وابتعد عن مواطن لين القلب فيزداد القلب قسوة يزداد ويزداد حتى يصبح القلب قاسياً وأشد قسوة من الحجارة كما يصفه القرآن في هذه السورة.

فعلى المرء أن ينتبه دائماً لقلبه، ينتبه، كان يسمع القرآن فيتأثر، الآن لا يتأثر لماذا؟ عليه أن يدرك قلبه، عليه أن يتصدق، الصدقة على الفقراء هذه من أشد ما يلين القلب لأن مبعث الصدقة هو الرحمة، ولذلك الله عز وجل قال عن الرحمة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وماذا؟ لماذا خص ذكر الزكاة؟ كما في سورة «الأعراف» ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فخص ذكر الزكاة لأن في الزكاة رحمة على الخلق، في الصدقة رحمة على الخلق، عندما تتصدق على الفقراء والمساكين هذه تذهب قسوة القلوب.

ولذلك اجتمعت قسوة قلوب بني إسرائيل مع محبتهم للمال، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٧٤]، اجتماع منع الصدقة واجتماع منع الرحمة مع قسوة القلب.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، خطاب لهم، ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، بعد هذه الآيات العظيمة الآمرة لكم والدالة على عظمة الله عز وجل، وقعت هذه القسوة في القلوب، قال: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، هنا ﴿أَوْ﴾، ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، قال بعض أهل العلم: ﴿أَوْ﴾، هنا بمعنى واو، فهي كالحجارة وأشد قسوة من الحجارة، وقال بعضهم: بمعنى بل هنا، فهي كالحجارة بل أشد قسوة، الإضراب، لماذا الحجارة قاسية؟ لأنها كذلك فيها اليُبس وفيها الشدة.

وحين يوصف عطاء الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم من العلم فشبه القلوب التي تتلقاه بأنواع، ما هي أنواع القلوب في تلقيها لعلم النبي صلى الله عليه وسلم ولمواعظه ولهديه؟

النوع الأول: أرض تأخذ الماء فتنتفع به وتنبت به الكلاء، هذه أرض نافعة وهو أفضلها أن تأخذ الماء فتحتفظ به وتنتفع به ثم تنفع به الآخرين.

النوع الثاني: من الأراضي هو الذي يحفظ الماء، لا ينتفع به ولكن يحفظه، هؤلاء يسمونهم بأهل الرواية، الأوائل يسمونهم أهل الرواية والدراية، يعلمون يأخذون العلم وينفقونه للناس وينتفعون به، والآخرون هم فقط أهل روايةٍ فقط، كمثل الماء التي تجتمع فوق الصخور، تأتي إليها فتأخذ منها الماء فحفظت لك الماء، وأوردت الماء كما وصلها.

النوع الثالث: هناك قلوبٌ صلدة لا تنتفع بالماء ولا تحفظه لغيرها، أرض أو صخر صلب وصلد، ينزل عليه الماء فيسيل فلا ينتفع به فلا ينبت الكلاء ولا الزرع، ولا يحفظه من أجل انتفاع غيره من الحيوانات والدواب والإنسان والشجر وغير ذلك.

فالله عز وجل قال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، وأبعد ما يكون القلب القاسي، لا ينتفع، ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ لماذا؟ لماذا أشد قسوة؟ جاء الشرح، بعض أنواع الحجارة فيها منفعة، وفيها لين لبعض المنافع، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة: ٧٤]، كلاهما واحد يتفجر منه الأنهار هذا أعظم لأنه إذا تفجرت منه الأنهار، الماء هل يبقى مكانه أم يجري إلى غيره؟ تتفجر منه الأنهار فتفجر الماء من داخله لم يبق مكانه ليأتي الأخرون لينتفعوا به ولكنه مشى إليهم، هذا الماء الذي تفجر من هذه الحجارة مشى إلى الناس بخلاف الثانية، الثانية قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾، فالناس يأتونه، الأول أعظم، الأول أجل لأنه ﴿يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾، أي تمشي هذه المياه لكثرتها وعظمتها وشدة خروجها تفجر، فتخرج حتى تصل إلى غيرها، والثانية ﴿يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾، هو صخر ولكن لشدة تأثره انفلق.

من أعظم أنهار المياه أم نور القرآن؟ أم عظمة القرآن؟ الله يصف القرآن ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا﴾ [الحشر: ٢١]، الجبل يتصدع فهذا القرآن أشد من الأنهار وأشد من المياه ومع ذلك يقع على القلب فلا يخرقه، هناك قلوب كانت من أعتى القلوب لكنها سمعت القرآن فاتعظت به فصارت من ألين القلوب وأمثل هؤلاء الناس هو الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه، كيف كان؟ جباراً في الجاهلية، لكن لما سمع القرآن مع قسوة قلبه لكنه تأثر، هناك أناس يسمعون القرآن ولا يتأثرون به، بل

ينقلب تأثرهم إلى السلبي بسماعهم القرآن يصبحوا أكثر عداءً له، فالله عز وجل أراد أن يقول هؤلاء لا ينتفعون تمهيداً، هذا الخبر تمهيدًا لما سيأتي،

قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، يعني أراد القرآن أن يقول: بأن هذه الحجارة تتصدع، إما أن تتصدع بفعلٍ ما، وإما أن تتصدع نازلة بلا مؤثر إلا من خشية الله عز وجل، طبعاً هنا هذا على المعنى الحقيقي وليس على المعنى المجازي كما يقول البعض، بعض أهل التفسير قال: ﴿يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، هو مجازي لكن لا، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فهل هذه الحجارة نراها تتصدع من غير ماء يأتي عليها أو من غير مؤثرٍ يأتي عليها إلا مؤثر واحد هو غيبي، هذا المؤثر الغيبي هو ﴿يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، الحجارة هبطت من خشية الله تصدعت من خشية الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، هذا كله تقدمة لقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٧٥]، صار حالهم إلى إغلاق القلوب وقسوتها فلو أنتم دعوتموهم الليل والنهار ووعظتموهم في الصباح والمساء وفي كل حين فلن يهتدوا ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾ [البقرة: ٧٥] ... الآيات، نأتي إليها إن شاء الله في الدرس القادم.

جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث والستون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلا بالإخوة الأحبة مع الدرس الثالث والستون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾ [البقرة: ٧٤].

فقط عند هذه الآية الأمر التشريعي للقلب بأن يلين، الله عز وجل أمر المؤمنين بأن تلين قلوبهم؛ لأنه أمرٌ شرعي وممدوح، والممدوح لا يمكن أن يكون إلا بفاعلٍ إنساني من جهة إرادته، أن يقع الفعل بإرادةٍ إنسانية، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

وقد يطرأ سؤال على نفس القارئ، كيف يشبه ربنا سبحانه وتعالى الأمر التشريعي بالأمر التكويني؟ فالأمر التشريعي بأن تلين القلوب، ولين القلوب بأن تتأثر من كلام الله عز وجل، والقسوة هي معناها عدم التأثر، يعني الأصل أن الشيء إذا ألقي عليه أمرٌ آخر أن يتأثر بهذا الفاعل الذي وقع عليه، فإذا لم يتم هذا التأثر سمي هذا قاسيًا فالحجارة لو ضربتها على الأرض هي تؤثر فلا تتأثر، لو وقع عليها الماء هكذا لينا هينا طل، فلا تتأثر، ولذلك هي قاسية، لكن الشيء اللين فلو جئت إلى شيء لين سواء كان مائعًا أو أصلب من المائع بقليل، فلو ألقيت عليه آخر لتأثر.

إذن هنا التشبيه إنما وقع لأجل هذا الأمر أي أن القلوب وقع عليها هذه الآيات التي تقدم ﴿وَإِذْ﴾، ﴿وَإِذْ﴾، ﴿وَإِذْ﴾، التي ذكرت في هذه السورة ومما تقدم ذكره كثيرًا وآخرها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)﴾ [البقرة: ٧٢]، وكلمة ﴿تَكْتُمُونَ﴾، وإن لم نعرض لها في

السابق فإنها تدل على أنهم كانوا يعرفون القاتل أو أن بعضهم كان يعرف، وإن كان الخطاب لجميعهم وهذا معروف في القرآن قد يقع الخطاب بالجمع ويقصد به الخاص، وهذا ما ذكره علماؤنا وأول من ذكره الإمام المطلبي رحمه الله الإمام الشافعي، عامٌ يراد به الخصوص.

والخصوص قد يكون واحدًا، وقد يكون أكثر ولا يكون الجميع، فقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، دل هذا على أنهم كانوا يعرفون القاتل، والله عز وجل أراد أن يظهر القاتل؛ من أجل أن تقام الأحكام الشرعية كرامةً لموسى عليه السلام، فإنه مما يعاب على الإمام أن لا يقيم الحق، سواء كان هذا التخلف بفعل كسلٍ منه أو بفعل عجزٍ منه، عدم إقامة الحكم الشرعي على الرعية من قبل الإمام، سواء كان هذا الإمام أبًا في البيت أو كان راعيًا لعشيرة، أو راعيًا لأمة، فإن تخلفه يكون عيبًا في حقه، حتى لو كان هذا التخلف بسبب عجز، ولذلك من كرامة الله عز وجل لموسى عليه السلام أنه لم يجعل دم هذا القتيل بلا قصاص، أو بلا دية، الله عز وجل لم يجعل لهذا النبي وهو إمام هؤلاء القوم، لم يتخلف الحكم، فإن الله عز وجل من كرامته لنبيه أن كشف لهم.

ولذلك كان الخلفاء الصالحون في أمتنا إذا وقعت معصية فلم يعرفوا فاعلها، كالقتل مثلاً أو كالجرائم المعلنة التي تشتهر فإنهم كانوا يشعرون بالضيق أن يقع هذا الأمر في سلطانهم فلا يقيمون الحقوق، تخلف الحقوق هذا عذابٌ من الله عز وجل، يعني لو أن رجلاً أصاب معصيةً كبيرة واشتهرت فلم يستطع الإمام الوصول إليه، إما لعدم معرفة الناس له، وإما لمعرفتهم وعدم قدرتهم على إقامة الحق عليه؛ فيكون هذا نقصًا في حق الإمام، ولذلك الله عز وجل أراد كرامةً لموسى عليه السلام أن يظهر القاتل، فالمعاصي إذا انتشرت فلم تقم فيها الحقوق، حتى لو كان عدم إقامة الحقوق بسبب عجز، عدم القدرة عليها، فهذا من العذاب الإلهي، وهذا من نقص الكرامة الإلهية لهذه الأمة.

ولذلك نبينا صلى الله عليه وسلم أعظم الأنبياء لما تحقق منه النُصرة على الأعداء بنفسه، فالله عز وجل انتصر لنوح عليه السلام بأن عذب قوم نوح، بالأمر القدري، وكذلك عاد وثمود وقوم لوط، هؤلاء تحقق عليهم العذاب بالفعل القدري الكوني وليس بفعلٍ منهم، ولكن الله عز وجل أكرم نبينا بأن انتصر وانتصف من أعدائه بيده، بنفسه عليه الصلاة والسلام.

القصد: أن هذا الأمر –القتل– كان يكتمونه فأظهره الله عز وجل كرامةً لموسى عليه السلام، للنبي الذي بينهم.

نرجع إلى السؤال، كيف شبه الله عز وجل الأمر الشرعي بالأمر الكوني؟ هذا كثيرًا ما يقع في القرآن المعارف الشرعية أرقى من المعارف الكونية، المعارف الشرعية معارف علمية، والمعارف القدرية معارف كونية مادية، فمن الأرقى؟ الأرقى هو الثاني، ما أول ما يتعلم الطفل؟ يتعلم الماديات ثم يرقى ذهنه من الماديات إلى المعنويات فالمعنويات أعلى، ولذلك من أرقى في فعلي الرب الجانب القدري أم الجانب الشرعي؟ الجانب الشرعي ما خلق الله عز وجل القدر والكون إلا لأنه يوافق حبه وبغضه من أجل الحب والبغض، من أجل العطاء والمنع، من أجل الإكرام والإهانة.

والعرب تسمي فعل المادة مهنة، يعني الفعل المادي الذي يمارس باليد يسمى مهنة، وهو أقرب من أن يكون إلى الإهانة، أو الهون الضعف، فهو أمرٌ يستطيع المرء أن يتقنه في مدةٍ قليلة، لكن الحكمة العلمية الذهنية هذه أرقى بكثير، فهي أعلى مما يستخدم من جهة اليد، فالمعارف العلمية من الحكمة أرقى من إدراك المرء لما هو كوني، ولذلك الله عز وجل يضرب بالمثل المادي من أجل أن يرتقي المرء في معرفته إلى المعنى المعنوي العلمي، الحكمة.

فالله عز وجل أراد أن يبين قساوة القلب، قساوة القلب هو أمرٌ يدل على عدم تأثر القلب بما يتأثر به كما ذكرنا، ما هي القسوة؟ القسوة هي عدم استجابة ما يتأثر عادةً بشيءٍ تأثر منه لدخول عامل عليه، أي الأصل في هذا الخشب أن يحترق، لأنه مادة محترقة، فإذا امتنع الاحتراق قسى عن الاحتراق لدخول عاملٍ دخل عليه، الأصل أنه يحترق فنقول: قسى؛ لأنه لم يتأثر.

فالأصل في القلب بعد أن رأى هذه الآيات التي تقدم ذكرها، ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾، هذه الآيات التي مرت ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، بعض أهل العلم قال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، بعد حادثة البقرة، أي بعد أن رأيتم هذه الآية قست قلوبكم، وقالوا: أنه حصلت القسوة بعد هذا الحادث، وأغلب التفسير على أن القسوة قد حصلت بعد مجموع هذه الآيات التي

ساقها الله عز وجل في هذه السورة وقد تقدم ذكرها، فقست قلوبهم بعد هذا كله، فكيف شبه الله عز وجل قسوة القلوب؟ بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

وهنا قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، هذا التخيير الآن سنقرأ كلامًا لابن كثير، فقط تعريفًا وتنويهًا لقيمة هذا التفسير العظيم وهو تفسير ابن كثير، لأن كثيرًا من الناس إذا سألك عن أفضل كتاب في التفسير تدله على ابن كثير فهو يقرأ فيه ولا يجد نفسه، إما أن يقع منه هذا التفسير بأن ما فيه من الاختيارات يعني سهلة فيريد تفسيرًا أكبر منه، أو أن تجد البعض يقرأ فيه فيشق عليه، والصواب أن هذا التفسير وهو تفسير ابن كثير رحمه الله وهو تفسيره الذي سماه «بتفسير القرآن العظيم» هذا الكتاب هو كتابٌ من أرقى ما كتب في التفسير، دعكم مما قيل فقط يعني بعض الناس يظن لأنه تفسيرٌ سلفي في مسائل العقائد يعني يحبونه ويقدمونه لأن الكثير من كتب التفسير المشتهرة والكبيرة جرت في مسائل العقائد على طريقة الأشاعرة مثلاً في موضوع التأويل أو التفويض في الأسماء والصفات ومسائل الكسب في القدر إلى غير ذلك مما هو معروف.

فهذا التفسير نعم على طريقة الأئمة الأوائل في هذا الباب، لكنه كذلك كتابٌ عظيمٌ في مسائل العلم واختيارات ابن كثير رحمه الله فيه تدل على رقيٍ عظيمٍ فيه، وأنا سأبين بعض أوجهه الآن، فهذا من المواطن التي ينبغي أن نقرأها في تفسير كثير لنعرف مواطن الجمال ومواطن العلم في تصنيف هذا الإمام لهذا التفسير.

القصد من هذا: أن الله عز وجل شبه بما هو مأمورٌ به بما هو مخلُوق، مأمور به ألا تقسى القلوب وتستجيب لأمر الله عز وجل، وقلنا كيف يخرج المرء من القسوة إلى اللين، والله عز وجل شبه بما هو كوني، الكوني ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، ما معنى ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾؟ أن الله عز وجل ذكر أن الحجارة تستجيب لبعض المؤثرات هنا، والقلب لم يستجب لما هو أعظم من هذا المؤثر على الحجارة، فالله عز وجل ذكر تأثر الحجارة بالماء، ومن أعظم الماء في تأثيره على الحجارة أم القرآن في تأثيره على القلوب؟ أم الآيات الكونية والآيات العظيمة التي ذكرها الله عز وجل على القلوب؟ بلا شك أن هذا القرآن أعظم من الماء، ولذلك عدم تأثر القلوب بهذا القرآن وبهذه الآيات العظيمة التي أراها الله عز وجل لبني إسرائيل يدل على أن قلوبهم أشد من الحجارة.

ونقف فقط عند نقطة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، ذكرنا في الدرس الفائت أن الخطاب للجميع، لليهود، فهذا شأنهم، وخطابٌ للمخاطبين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وليس فقط لليهود الذين حضروا هذه الوقائع التي تقدم ذكرها، وهذا لأنهم جروا على سنن آبائهم في عدم الاهتداء بالآيات والآيات تدل على صدق النبي ومع ذلك كذبوه، وسيتبين هذا مما سيأتي.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، ﴿أَوْ﴾ عادةً للتخيير وتقع عند التردد، فتدل على ماذا؟ تدل على أن المتكلم لم يجزم بأحد الأمرين، أنه هذا أو هذا، وهذا ممتنعٌ في حق الله عز وجل، أن يقول: هي كالحجارة وممكن أقل أشد قسوة هذا ممتنع، هذا الموطن من استخدام كلمة ﴿أَوْ﴾ وقف عنده أهل العلم، فيما رأيت من كتب التفسير لم يجمع أقوال أهل العلم في معنى ﴿أَوْ﴾ التخييرية هنا التي دلت على التردد وليس هناك ثمة تردد؛ لأن الله عز وجل يعلم، إنما يقع التردد من عدم العلم.

لكن كيف تقول هذا وفي الحديث القدسي الله عز وجل يقول: (وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه تردُّدي عن قبضِ نفس المؤمن؛ يكره الموتَ وأنا أكْرهُ مساءتَه)، فكيف تردد؟ فالحديث يثبت التردد، التردد يقع لأمرين: إما أن يقع لعدم العلم وإما أن يقع لتنازع الإرادات، أنت إذا وقفت على حد بين طريقين، لا تعرف أي الطرق موصلة إلى هدفك، فتتردد، فسبب التردد هو ضعف العلم، سبب التردد أنك لم تعلم الطريق الموصلة أو الأجود أو الأقصر ... إلخ، فسببه ضعف العلم، لكن أنت تكون عالماً بالشيء، ولكن يقع عندك التردد لتنازع الإرادات، أنت تحب وابنك يحب؛ فأنت تعلم أن هذا يعادل هذا فأنت يقع في قلبك التردد لتنازع الإرادة، إما تنازع إرادتين في ذاتك أنت وإما تنازع إرادتين بين إرادتك وبين إرادة أخرى.

ذهبت للسوق اختلفت أنت وصديقك فيما تشتري، فهنا وقع التردد لتصادم الإرادتين، فالتردد بسبب تخلُف العلم كما الحالة الأولى لا يقع في نفس الله عز وجل، لا يمكن، ولكن التردد بسبب أمرين لإرادتين يقع في نفس الله عز وجل، ما هما؟ جريان السُنة وعدم إساءة الحبيب، الله عز وجل وقت لكل نفسٍ وقت وفاتها، فالله إرادته الكونية مقدرة أن يموت في الساعة الفلانية هذه إرادته الكونية، وهو يعلم أن حبيبه هذا المؤمن يكره أن يموت، فالله عز وجل لا يريد إساءته، لا يريد إغضابه؛ لحبه له ولحب العبد له، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، فوقع التردد في نفس الرب بين أن ينفذ إرادته التي قدرها في الأزل ومشيئته التي كتبها

في الأزل وبين أن يسيء عبده، ما الذي يغلب؟ ما كتب كونًا، فهذا ليس من التردد الذي يعيب، هذا من التردد العظيم، بين ما قدر كونًا، لا يبدل الله كلماته ولا يغير كلماته، ولكن لحبه تردد ولم يجري إلا ما قدر.

فهنا يقول جل في علاه: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، هل سبب هذا هو تردد بين أمرين؟ أم على ماذا يدل هذا الحرف ﴿أَوْ﴾ الذي يفيد التخيير ويفيد التردد؟

في الحقيقة أنا أحب أن أقرء معكم هذا التفصيل الجميل الرائع في كتابٍ يزهد فيه طلبة العلم، وأنا أريد أن أنبه على فضل هذا الكتاب في بعض الجوانب، وهذا إن شاء الله نستخدمه نحتاج مرةً نقرأ في كتابه لنبين فضائله وخصائصه وميزاته ومن أجل أن ينشط طالب العلم وأن يذهب إليه مباشرة.

انظر ماذا يقول كثير رحمه الله عند هذا الموطن من بيان ﴿أَوْ﴾، قال: «اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، بعد الاجماع على استحالة كونها للشك»، المقرر في نفس كل طالب علم يعلم ربه أنه لا يمكن أن يقع الشك؛ لأن الشك موطنه ضعف العلم، وهذا مستحيل في حق الله عز وجل، هنا لما امتنع حملها على الظاهر ذهبنا إلى التأويل لكن هنا التأويل بأي معنى؟ بمعنى الاجتهاد، كلمة التأويل هنا بمعنى الاجتهاد، أي يجتهدون لمعرفة المراد بعد أن تعذر الحمل على المعنى الأول، المعنى الأول لـ ﴿أَوْ﴾ هو الشك والتردد، فهذا معنى ممتنع، فلنذهب نذهب لما تقوله العرب من معاني أخرى.

انظر لتفصيلات ابن كثير رحمه الله، قال: «فقال بعضهم ﴿أَوْ﴾ ها هنا بمعنى الواو»، العطف، فصار كالحجارة وأشد قسوة، إلى هنا يقف دور المفسر، ما وراء ذلك يأتي دور البلاغي، ما المعنى؟ المعنى هنا «أو» تأتي بمعنى «واو»، فهذا دور المفسر، لكن البلاغي يقول: لماذا جاءت ﴿أَوْ﴾ هنا ولم تأتي «واو»؟ أي لماذا لم يذهب إلى «الواو» مباشرة؟ هذا دور البلاغي، سنحاول أن نكتشف هذا ولم يذكره هنا رحمه الله، قال: «فقال بعضهم ﴿أَوْ﴾ ها هنا بمعنى «الواو» تقديره فهي كالحجارة وأشد قسوة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾ [الإنسان: ٢٤]»، أنا لا أريد الآن أن أذهب للبلاغي لأن ما سيقوله فيما يأتي من الكلام يشير إلى هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾، أم آثمًا وكفورًا؟ يعني يمكن أن تطيع أحدهما وتعصي الآخر أم المقصود أن لا تطع أحدًا منهما؟ المقصود أن لا تطع لا آثم ولا كفور، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾، وكما قال النابغة الذبياني:

قالـــت ألا ليتمـــا هـــذا الحمـــام لنـــا إلى حمامتنـــــا أو نصـــــفه فقـــــد

فقال: تريد إلى نصفه إلى حمامتنا أو نصفه أي ونصفه فقد، وهذا أخذه ابن كثير رحمه الله موجود في تفسير الطبري كما هو معلوم، تريد ونصفه، قالها ابن جرير، وقال جرير بن عطية:

جـــاء الخلافـــة أو كانـــت لـــه قـــدرًا كمـــا أتـــى ربَّـــهُ موســـى علـــى قـــدر

قال ابن جرير الطبري: يعني نال الخلافة وكانت له قدرا، إذن انتهينا «أو» هنا بمعنى «الواو».

وحكى القرطبي قولاً أنها للتخيير في مفهومها بهذا أو بهذا، هذا هو الذي أردته، يعني المفسر وقف عند الأولى وقال: المقصود بـ ﴿أَوْ﴾، «واو»، لكن السؤال فلماذا جاء بـ ﴿أَوْ﴾؟ لوجود معنى التخيير فيه، ﴿أَوْ﴾ إذن موجودة في داخلها، صحيح، هم حملوها على الواو، ولكن وجود معنى التخيير في داخل النص، لماذا؟ هذا ما سيبينه، القول الثاني هو في الحقيقة تفريع عن القول الأول.

قال: أنها للتخيير في مفهومها بهذا أو بهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، وكذا حاكاه فخر الدين في تفسيره وزاد قولاً آخر وهو أنها للإبهام بالنسبة للمخاطب، القرآن يقول: ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، يعني ماذا؟ يعني يمكن أن يكون بعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة، وممكن أن يقال: كان أولها أنها كالحجارة ثم ازداد إجرامهم حتى صارت أشد قسوة، وهو لبيان المراتب، أي ذكر ﴿أَوْ﴾ هنا لبيان المراتب، إما المرتبة في نفس الواحد أنه بدأ هكذا بدأ عصيانه حتى صارت قسوة قلبه أشد من الحجارة، وإما أنهم هم بعضهم كان أمره كالحجارة وبعضهم أمره أشد من الحجارة، وليس على معنى الشك كما تبين.

وزاد قولاً أي فخر الدين الرازي في تفسيره، قال: وزاد قولاً آخر وهو أنها للإبهام بالنسبة للمخاطب، لإبهام، كيف؟ يضرب المثل: يبهم الأمر عليه، كقول القائل: أكلت خبزًا أو تمرًا وهو يعلم أيهما أكل، هو يقول: أكلت خبزًا أو تمرًا فهو يعلم ولكنه يبهم على المخاطب ماذا أكل، وقولاً آخر: وهو أنها بمعنى قول القائل: أكلي حلوًا أو حامض أي لا يخرج عن واحدٍ منهما -انظر كلها تدل على ما ذكرنا- أي وقلوبكم صارت في قسوتها كالحجارة أو أشد قسوةً منها لا يخرج عن واحدٍ من هذين الشيئين، هذا فقط لماذا استخدم ﴿أَوْ﴾ مكان «واو» وهي دالة عليه.

هذا كله عند ابن كثير رحمه الله، انظر، هذا كله عند ابن كثير لمن يزهد فيه، وقال آخرون: ﴿أَوْ﴾ ها هنا بمعنى بل تقديره فهي كالحجارة بل أشد قسوة، وهذا الإضراب من أجل بيان الأشد، أنهم لم تقسوا قلوبكم كالحجارة بل أشد من ذلك، وكقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)﴾ [الصافات: ١٤٧]، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩)﴾ [النجم: ٩]، وقال أخرون: معنى ذلك ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عندكم، هي كالحجارة ولكن عندكم أو أشد قسوة، قال: حكاه ابن جرير، وقال أخرون: المراد بذلك الإبهام على المخاطب، يريد ان يبهم على المخاطب، كما قال أبي الأسود:

أُحـــبُّ محمـــداً حُبّـــاً شـــديداً وعباســـاً وحمـــزةَ والوصّـــيا

فـــان يـــكُ حـــبُّهم رشـــداً أُصِـــبْهُ ولســـت بمخطـــيءٍ ان كـــان غيّـــا

وهو يعلم أنه يحبهم «ولست بمخطيءٍ ان كان غيّا»، فيقول: قال ابن جرير: ولا شك أن أي أسود لم يكن شاكًا في أن حب من سمى رشدٌ ولكنه أبهم على من خاطبه، قال: وقد ذكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الأبيات، قيل له: شككت؟ فقال: كلا والله ثم انتزع بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ: ٢٤]، من باب الإلزام، فقال: وكان شاكًا من أخبر بهذا في الهادي منهم من الضلال.

وقال بعضهم: معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة وإما أن تكون أشد منها قسوة، لا تخرج عن هذين الأمرين، قال ابن الجرير: ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره.

قلت: –والآن كلام ابن كثير، يريد أن يرد القول الأخير إلى قولٍ قد سبق– وهذا القول الأخير يبقى شبيهًا بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٧-١٩]، تقدم أن هذين مثلان ليس مثل واحد كما قال ابن جرير، فابن جرير قال: هذا

مثلٌ واحد، والصواب أن هذان مثلان، مثل ﴿الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، والثاني ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾، المثل الناري والمثل المائي وكل واحد دال على نوع من أنواع النفاق.

وكقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ [النور: ٣٩-٤٠]، إما الظلمة أو سراب بقيعة، يعني الكفر ليس حالةً واحدة، قول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾، هو يظن أنه على الحق، ويبصر شيئًا لا وجود له، يقول بحقائق ليس لها وجود في الواقع بل هي من الأساطير، هذا حال أحدهم، وأما الثاني مع قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾، أي لم يبصر شيئًا، سراب بقيعة يبصر لكنه يبصر وهمًا سرابًا، وفي بحر لجي لا يبصر شيئًا، فهذان مثلان للذين كفروا كِلا الآيتان، الأول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾، والثاني: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾، وكلاهما في سورة النور، أي إن منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا والله أعلم.

وفقط أريد أن أواصل لأدلل على شيءٍ في تفسير ابن كثير رحمه الله وهو من الأهمية بمكان.

وهنا أيضًا فقط فائدة: في الحقيقة تفسير ابن كثير رحمه الله مرجع مهم جدًا لتفسير الحافظ أبو بكر بن مردويه، وإن كان السيوطي قد ذكر تفسير ابن مردويه في «الدّر المنثور»، لكنه جرده من الأسانيد، كعادته، فتفسير «الدر المنثور» للسيوطي مجرد من الأسانيد لم يذكر فيه الأسانيد، فإذا أردت أن تعرف تفسير ابن مردويه أو الكثير منه، في الحقيقة هو لم يأتي عليه كله في تفسيره فابن كثير أتى بتفسير ابن مردويه مع أسانيده، لكن ليي جميع التفسير فقط أردت هذه الفائدة لنقرأ:

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن أيوب حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي الثلج حدثنا علي بن حفص حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تُكْثِرُوا الكلامَ بغيرِ ذِكْرِ اللهِ، فإنَّ كثرةَ الكلامِ بغيرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْوَةُ القلبِ، وإنَّ أَبْعَدَ الناسِ من اللهِ القلبُ القاسِي)، بعد أن ذكر من رواه وسنده عن طريق ابن مردويه، وهذا من فضائل تفسير ابن كثير، هذا من فضائله وخصائصه، رواه الترمذي في كتاب الزهد من جامعه عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج صاحب الإمام أحمد به يعني لأنه رواه ابن مردويه عن رجلٍ ثم

عن رجل ثم عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، ومن وجهٍ آخر عن إبراهيم بن عبد الله بن حارث بن حاطب به وقال: غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم -أي ابراهيم بن عبد الله بن حاطب- ثم أكمل في مخطوطٍ آخر، وروى البزار عن أنس مرفوعًا (أربعةٌ من الشَّقاءِ: جمودُ العينِ وقَسوةُ القلبِ وطولُ الأملِ والحرصُ على الدُّنيا)، فقد أردت أن أبين فضل هذا الكتاب وما فيه.

يقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، العقل يثبت أو ينفي، فإذا تحدث ربنا عز وجل عن الإثبات من جهة النظر ربطه بالعقل وقال: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، ولذلك تقدم سبحانه وتعالى في قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾ [البقرة: ٧٣]، ما هو دور العقل؟ العقل لا ينتج علمًا، معروف عند أهل السنة -ولا نريد أن نبسط هذا بسطه العلماء كثيرًا- العقل لا ينتج علمًا، العقل ماذا يربط بين العلوم فيخرج بالنتائج هذا جزء من عمله لكن لا ينتج علمًا، العقل ليس علمًا ليس معرفة، ولذلك يقول الله عز وجل هنا بعد ان بيّن لهم ما حصل من إحياء الموتى فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾، أي تدركوا أن ما وقع اليوم سيقع يوم القيامة من إحياء الموتى، فالعلم ربطت حالته الآن بما سيحدث بما سيكون، ما دام أن القدرة واحدة.

لكن هنا أيها الإخوة الأحبة لما جاء إلى القلب قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، ولم يتحدث عن العقل، لماذا؟ لأن الأمر يتعلق بالعلم، أنت تثبت العلم بما سيقع بما رأيت أنت، بما رأيت من القدرة، القدرة ناجزة والقدرة حاوية وتامة بأن تحيي الموت مستقبلاً كما أحيتها الآن، فالأمر أمرٌ عقلي، لكن لما تحدث عن الاستجابة لأمر الله عز وجل، ماذا قال؟ قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، الأمر للعقل أولاً، لكن الاستجابة لما يقرر العقل، هذا أمر القلب، فقد يقتنع العقل ويقبل بالمقالة ولكن القلب لا يستجيب، والقلب هو مرجل الإرادات، فالاستجابة وعدم الاستجابة له تعلقٌ بالقلب، ليس له تعلقٌ بالعقل؛ لأن العقل قد يدرك الحق ولكن القلب يأباه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾، وذكرنا أن الحالة الأولى هي أشد ولا شك، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾ [البقرة: ٧٤].

قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، هذا إثبات أن الحجارة تخشى الله، وأن بعض ما يقع في هذا الكون إنما يقع بسبب خشيته لله عز وجل وتسبيحه لله جل في علاه، والله عز وجل قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وفي الحديث: (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)، فالحجارة تتأثر من الله عز وجل ومن خطابه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾ [البقرة: ٧٤]، هذه الخاتمة والفاصلة القرآنية من أجل كذلك ردع القلوب وردع النفوس من أن تظن أن ما تكتمه في قلوبها وما تنكره قلوبها بسبب القسوة أن الله لا يعلمه، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، والأقرب أن تحمل على عمل القلب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٧٥]، أي بعد هذا كله وبعد كل هذه الآيات، مشكلة اليهود كما ذكر القرآن وكما بيّن ليس في موضوع عدم معرفتهم الحق، هم رأوا الحق ومع ذلك أنكروا، فبعد أن قست قلوبهم بعدم الاستجابة لأمر الله عز وجل، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، والطمع ما هو؟ الطمع هو أشد من الرجاء، الطمع رغبة لكن مع شدة التعلق، الرجاء فيه رغبة لكن أقل من تعلق الطمع.

فهل هذا معيب أن يطمع المؤمنون بهداية الكافرين؟ وفي الحديث الذي في الصحيح، قال صلى الله عليه وسلم: (لَوْ آمَنَ بي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، لآمَنَ بي اليَهُودُ)، وهذا يدل على أن هؤلاء القوم هم أكثر الناس عنتًا وأكثر الناس درءًا للحق وأكثر الناس ابتعادًا عن متابعة الدين الحق، فالله عز وجل يقطع من قلوب الصحابة الطمع في إيمانهم، ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، لكن هذا لا يمنع أن يطمعوا، ليس لدرجةٍ نهى الله عنها، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]، فالله عز وجل نهى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يهلك نفسه من أجل إيمان من كتب الله عز وجل عليه الشقاوة، نهاه الله عز وجل عن ذلك، نهى الله عز وجل هؤلاء لئلا يقع منهم إهلاك أنفسهم في طمع إيمان هؤلاء، فقطع منهم، وقال الله عز وجل عن لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح: ٢٧]، قطع منه الأمل بأن يؤمنوا،

وهكذا اليهود، اليهود لم يؤمن منهم في وقت من الأوقات عشرة، قال بعضهم: هذا الحديث خاص بيهود النبي صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: لا هو خاص في كل زمان، أن يقع هذا الإيمان من عشرةٍ منهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾.

والعلماء وقفوا عند قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، ولهم هنا لفتة جميلة، قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، ولم يقل: بكم، فقالوا: لم يقل يؤمنوا بكم وإنما قال: ﴿لَكُمْ﴾ فدل على أن إنكارهم ليس لما تدعون ولكن إنكارًا للداعي نفسه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام: ٣٣]، أي ليس تكذيبًا للحق الذي جئت به ولكن جحدًا لما تقوله أنت في ظاهر الأمر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، إذن يريد أن يقول القرآن: إن سبب عدم متابعتهم للحق هو أن الحق جاء من عندكم، لماذا؟ لأنهم كانوا يطمعون أن يكون الرسول منهم، كانوا يطمعون هذا الطمع، فلما لم يقع كفروا بالرسول لا لجهة أنه ليس رسول ولكن لجهة أن الرسالة جاءت على هذا الرجل من دونه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، ولم يقل: بكم، أو لم يقل: أفتطمعون أن يؤمنوا بالحق، بل قال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، فدل على أن المشكلة في الوسيلة وليس المشكلة في ذات الموضوع.

وهنا أيها الإخوة الأحبة القرآن يقدم لنا أصناف اليهود، اليهود أصناف:

الصنف الأول: هذا هو الصنف الذي بين يدينا، ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾ [البقرة: ٧٥]، إذن هذا الصنف الأول سمع الحق وعلمه وعقله، إذن هؤلاء علماء اليهود، الصنف الأول ممن أنكر بعثة النبي صلى الله عليه وسلم هم علماء اليهود، وهؤلاء العلماء كان شأنهم تحريف المعاني، انتبه إلى قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾، هل هذا تحريف الألفاظ أم تحريف المعاني؟ هذا تحريف المعاني، هم يثبتون اللفظ كما هو ويتلعبون بمعانيه من أجل أن يسقطوا التكاليف ومن أجل أن تتناسب الأوامر في ظنهم مع أهوائهم.

وهذا فريقٌ يختلف عمن ذكرهم الله عز وجل في الآية التي تأتي من بعد في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]، هذا تحريف الألفاظ، يكتبون كتابة ويلقونها تلاوةً على طريقة ما تقرأ التوراة فيظن الجاهل أن ما يقرؤونه هو التوراة، ولذلك هذا الصنف الثاني، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾ [البقرة: ٧٩].

وهؤلاء الذين يستجيبون للألفاظ المحرفة، من هم؟ ترون الصنف الأولى من اليهود ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾، أي يعلمون لفظه ويعلمون معناه على الحقيقة لكن يحرفون المعنى هل هؤلاء لو تليت عليهم الآيات محرفة في ألفاظها تنطلي عليهم؟ لا تنطلي عليهم، إذن الفريق الثالث هم الجهلة، الذين يسمعون الكلام وقد حرفت ألفاظه فانطلى عليهم هذا التحريف هؤلاء هم الجهلة، أما الأوائل فهم العلماء، فالجهلة ينطلي عليهم تحريف الألفاظ، والذي يمارس التحريف فينطلي على أمثالهم من الذين يلوذون بهم وهو تحريف المعاني، وهذا هو أشدهم، وقد تقدم في هذه السورة وفي هذا الموطن تحريف المعاني على تحريف الألفاظ لأنه أشد، تحريف الألفاظ يمكن كشفه، ويُكتشف من خلاله فقط كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، وما معنى ﴿أَمَانِيَّ﴾ هو فقط تلاوة اللفظ، عند كثير من أهل العلم التفسير، الأماني هي تلاوة اللفظ، فالصنف الأول ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤)﴾، يعلمون الكتاب سمعوه وعقلوه وعلموه، أما هؤلاء ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾، أي لا يعرفون إلا حروفه.

إذن بيّن القرآن لنا أصناف اليهود، هذا الصنف الأول، قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، هذا الفريق الأول قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، ما المقصود هنا بـ ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾؟ المقصود به التوراة، كانوا يسمعون التوراة، ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، وهذا دليل على أن التوراة هي كلام الله، هل المعتزلة يقولون بأن القرآن ليس كلام الله؟ لا، يقولون: بأن القرآن كلام الله، البعض يظن أن المعتزلة لا يقرون هذا اللفظ، المعتزلة يقرون أن هذا كلام الله، التوراة هي كلام الله، قال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، يقرون أنه الكلام، ولكن الكلام عندهم كبيت الله، كلام الله كبيت الله، كما تقول: بيت الله، وكما تقول: ملك الله، وكما تقول: عبد الله، عندهم هذا كله على معنى واحد من كما تقول:

كلام الله، فهو نسبة على التشريف والمقصود عندهم المقصود أنها مخلوقة، ولكن النسبة هنا لماذا وقعت؟ وقعت على التشريف، هذا فهمهم، فلا ينكرون أنه كلام الله، لكن لا يقولون كما يعتقد أهل السنة بأن كلام الله هي صفة من صفاته.

قال تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾، قلنا: هنا التحريف، يحرفون الحرف هو إبداله، انحرف عن الجادة أي خرج عنها، فيحرفونه أي خرجوا عن الحق الذي جاء به كلام الله عز وجل، قال: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ﴾، وهذا دليل على أنه يمكن للمرء أن يعذر بجهله، أي يمكن للمرء أن يخطئ في تفسير كلام الله عز وجل وهو يريد الحق، فهذا معذور، ولكن القرآن قطع عن هذا الفريق من اليهود الشبهة فقال تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾، ما معنى ﴿عَقَلُوهُ﴾؟ أي فهموا معناه، والعقل هو الإدراك والعقل هو الربط، فهؤلاء عقلوه، أي أدركوا معانيه على ما أنزل عليه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي يعلمون أنهم يحرفون، أي وقع منهم هذا الفعل بعلمٍ منهم، ولذلك الله عز وجل سماهم بالمغضوب عليهم لأنهم يعلمون الحق ويحيدون عنه.

ثم جاء القرآن إلى الصنف الثاني من اليهود، من هم الصنف الثاني؟ هم المنافقون، الصنف الأول من اليهود تقدم وهم علمائهم الضالون الذين يعرفون الحق ويحيدون عنه ويحرفون معانيه من أجل أهوائهم، الصنف الثاني: قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)﴾ [البقرة: ٧٦]، ماذا كانوا يفعلون؟ ما هو واقع هذه الآية في حياة الصحابة رضي الله عنهم؟ أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يسألون اليهود أديننا حق؟ أتجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم هذا النبي عندكم في الكتاب، فماذا يقولون؟ يقولون: نعم، إذا سُئلوا من قبل الصحابة رضي الله عنم ومن قبل المسلمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، المقصود بالذين آمنوا الصحابة رضي الله عنهم، وهذه آية من الآيات التي تزكي شأن الصحابة رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

فالقرآن مدح هؤلاء الذين عاشوا بين ظهراني اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا مدحٌ للصحابة رضي الله عنهم كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ

السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، فالله عز وجل دعى الناس للإيمان كما آمن الصحابة، ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، أي الصحابة رضي الله عنهم، وهنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٧٦]، هذا مدح لمن لقي اليهود فسألهم هذا السؤال وهم الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

فقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾، وهذه الصفة تقدمت في أول السورة هي أنها صفة المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤] وتقدم هناك في أول السورة أن شياطينهم هم اليهود، وهنا نفس الشيء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ [البقرة: ٧٦]، هذا صنف من أصناف اليهود المنافقين، ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾، بماذا أمنوا؟ أي نحن وإياكم على دين واحد وأن نبيكم حقٌ وصدق ونحن نؤمن به.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، وقوله: ﴿خَلَا﴾، أي أسر بعضهم إلى بعض، الخلوة وهي عدم وجود الغير، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾، قال بعضهم لآخر، أو قال كبراؤهم للجهلة منهم، لأن هذا لا يقع من الكبراء، فالكبراء إذا سُئلوا فإنهم لا يجيبون هذه الحقائق، الكبراء وقع منهم أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، وإذا سُئلوا من قبل الكفرة من أصوب الدينين ديننا أم دين محمد صلى الله عليه وسلم؟ يحلفون لهم أن دينكم خيرٌ من دين محمد صلى الله عليه وسلم.

فهؤلاء المنافقون المذبذبون الضعفاء يقع منهم إذا جلسوا مع الصحابة رضي الله عنهم، وسألوهم -أي الصحابة- أموجود عندكم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بهذه؟ يقولون: نعم، هل محمد صلى الله عليه وسلم على الحق؟ يقولون: نعم، ولكن إذا رجعوا إلى كبرائهم، ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي أتحدثونهم بما أنزل الله عليكم، والفتح هنا بمعناه العطاء الإلهي، قال تعالى: ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي بما أنزل عليكم من ذكر صفة محمد صلى الله عليه وسلم، قال: ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، لأنه يوم القيامة سيسألون هل شهدتم على صدق النبي لهؤلاء؟ فسيقولون: نعم، قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، إما هو من خطاب الكبراء لهؤلاء المنافقين الضعفاء، وإما أن الله عز وجل يريد أن يبكتهم بأن فعلكم لا يناسب العقل الذي تقدم ذكره فيهم، الله عز وجل رد عليهم بقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]، هذا إذا كان قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مرتبط بما بعده من قوله تعالى:

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]، أي أوليس عقلهم يعلم، ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)﴾ [البقرة: ٧٧]، ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾، فالله عز وجل يقيم عليهم الحجة مما علموا، جل في علاه، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع والستون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو الدرس الرابع وستون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وكنا مع قوله تعالى في ذكر اليهود بعد أن ذكر قصة البقرة فقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾ [البقرة: ٧٥-٧٨].

قلنا: بعد أن ذكر الله عز وجل حال أهل الكتاب وخاصةً اليهود في ذكر أفعالهم وذكر ما وقع معهم من آيات ومن ذكر ما وقع منهم من أفعال تجاه أوامر الله عز وجل وتجاه أوامر الأنبياء، فالله عز وجل قطع من قلوب المؤمنين الأمل بإسلام هؤلاء، لأن التالي والذرية ستتبع الجد والأب والسلف، فما كان واقعاً من الأجداد سيقع في الأبناء، لا على جهة التناسل البدني، ولكن على جهة التربية العلمية الواحدة، يعني هؤلاء نشأوا على شيء وأنشأوا أبناءهم عليه، وربوا أبناءهم على هذه المعاني من قيم الباطل، وبالتالي ما فعله هؤلاء مع الأنبياء السابقين، سيفعلونه معكم ولن يؤمنوا، فلذلك قطع منهم، وقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾، وهذا سؤال استنكاري بمعنى لا تطمعوا، أي يستنكر القرآن والله عز وجل من المؤمنين أن يصبح في قلوبهم الطمع، والطمع هو الرجاء مع أشد، الطمع كما تقدم هو أشد من الرجاء هو التعلق مع رجاء الوقوع، مع محبة الوقوع أو الرغبة في الشيء مع التعلق الشديد به.

المهم هنا قلنا: بأن الله عز وجل ذكر ثلاثة أصناف لليهود، وإن كان بعض أهل العلم يقتصر على صنفين، ولكن السورة والآيات التي بين أيدينا تبيّن بجلاء أن اليهود هنا ثلاثة أصناف، وليس صنفاً واحداً، الصنف الأول: هؤلاء الذين تقدم ذكرهم، وهم الذين يعلمون الحق، وبعد إدراكهم وعلمهم لما يقول الكتاب أي التوراة يحرفونه، وقلنا: بأن هذا التحريف هو تحريفٌ معنوي وليس تحريفًا ماديًا، وإن كان سيأتي تحريف لفظ الكلام، يغيرونه، وبعض أهل العلم يقول: بأن التحريف الذي وقع هنا ليس عاماً وإنما يمثلون به التحريف الذي وقع في صفة النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر بعض أهل التفسير وهم كثر من أهل العلم وينقل بعضهم عن بعض: بأن صفة النبي صلى الله ليه وسلم كانت على كذا وكذا، فجاء اليهود ومسحوها وحرفوا الكلم، وبعد أن علموا أن هذه الصفة تقع على هذا الرجل الأمي النبي الكريم المرسل من عند الله عز وجل محمد صلى الله عليه وسلم، فإذن أولاً وقع منهم تحريف الألفاظ.

ووقع منهم تحريف المعاني إنزالها على غير وجهها، لما سألتهم قريش، أديننا خير من دين محمد؟ هذا من تحريف المعاني، الذي يجيب بالباطل هذا يحرف الحق، فهؤلاء ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥]، أي أدركوا معانيه، وليس فقط أدركوا معانيه من جهة اللفظ ولكن رأوا واقعه من جهة الواقع، رأوا حقيقته من جهة الواقع، أي أنهم علموا ماذا تعني هذه الكلمات من جهة المعاني ومن جهة عالم المثال الذهني، ثم بعد ذلك رأوا هذه الكلمات على حقيقتها أين هي؟ فحرفوا هذه الكلمات ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤)﴾، دل على أنهم ما فعلوا هذا على جهة التأويل كما يقع هذا الخطأ من جهة العالم الصالح، فإن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن أن القاضي الذي هو في الجنة معذور عند الله عز وجل، مُخطئ يظن أن هذا هو الحق، فإذا اجتهد القاضي فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد القاضي فأخطأ له أجر، فدل على بعد الإثم عنه ولم يقع عليه، فالله عز وجل رفع هذا الاحتمال في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤)﴾، أي اقترفوا هذه الجريمة وهم يعلمون أنهم على باطل وأن ما يقولونه هو خلاف ما يريده الله عز وجل.

وما يهمنا هنا أن هذا يقع فيه جماعة من أهل الإسلام، ولذلك سلفنا -وهذا تقدم في سورة الفاتحة- قالوا: إن من ضل من علمائنا فيه شبه اليهود، ومن ضل من عُبادنا فيه شبه النصارى، فهذا وقع من بعض من أفتى للناس طمعاً في الرئاسة أو أفتى للحكام طعماً في المال والمنصب والرئاسة، أن أفتاهم بالباطل، يعني لماذا سمى العلماء الإرجاء دين الملوك؟ لأنه يسعدهم، ولذلك كان بعض العلماء يقولون للحكام: بأن الحاكم غير مأزور مهما فعل، بعضهم كان يفتيهم بهذه الفتاوى، وهم من أهل الإرجاء، وسمة الإرجاء هذه ألصق بهؤلاء من أي سمةٍ أخرى، كأن يقول: هذا الحاكم مرفوعٌ عنه القلم، مهما أتى من أوزار مرفوع عنه القلم، ويدخلون عليهم ويزينون لهم الباطل، كما فعل اليهود مع قريش زينوا لهم دينهم الشركي، وفضلوه على دين النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذا يقع وقع في الأوائل ويقع في تاريخ الإسلام، هناك الكثير ممن زين لأهل الباطل باطلهم، كان التتار عندهم مشايخ وقضاة ويزينون لهم أفعالهم، حتى إن بعضهم من زين لبعض الإسماعيلية عبادة النجوم، لما علم من هؤلاء من قضية عبادة النجوم وتعلق الأقدار بالنجوم يقول لهم أمطرنا بنوء كذا ونوء كذا، ولد فلان بظهور النجم الفلاني، فيؤلفون الكتب تصحيحاً لهذه الطريقة من الاعتقادات الشركية الباطلة في أثر النجوم على الإحياء والإماتة وعلى الأقدار وعلى تصرف الكون والسنن، وأُلفت كتب في هذا، وهناك من العلماء من ألف في تحسين أديان الباطل، عدو الله النعمان الذي كان مفتياً وقاضياً للإسماعيلية للعبيدية حاكمي مصر كان حنفيًا ثم بسبب المال وبسبب سطوة السلطان ارتد عن الإسلام وصار على دينهم، القاضي النعمان من أشهر من كتب في دين الإسماعيلية القرامطة، وألف لهم الكتب، وهناك كتب مطبوعة أهتم بها، وهو كان حنفياً! كان سنياً! لكنه انقلب إلى الباطل.

وهكذا نحن رأينا في زمن الاستعمار الذي نسميه الاستحمار لما دخل الطليان إلى ليبيا رأينا مشايخ وعمائم يخرجون إلى الطليان ويقرون لهم أنهم أولياء الأمر، ويعلنون أن المجاهدين هم خوارج وأنهم مفسدون في الأرض وأنهم محاربون يستحقون أن يقتلوا ويصلبوا و ... إلخ، حكم الحِرابة، ورأينا هذا كذلك بمن خرج من المشايخ والعلماء من ذهب إلى الإسبان والبرتغال والفرنسيين لما دخلوا المغرب، دخلوا عندهم وجالسوهم، ولا نريد أن نذكر أسماء لأن لهم أبناء ربما يغضبون، لكن هذا موثق بالصور وموثق بالأوراق والرسائل، بخطوط أيديهم.

وهذا يوجد في كل ملة وللأسف في كل وقت، وفي زماننا هذا، من يدخل على الحكام والسلاطين والملوك ويزين لهم أفعالهم، ويسمي من خالفهم بالخوارج، ويسمي من نصحهم بأنهم يريدون الإفساد في الأرض، ويسمون الذين يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنهم مفسدون وهكذا، ويزينون الباطل، فيوجد في أمتنا وهذا السرد يعني هو مرور بسرعة على واقع الأمة وعلى واقع المشايخ تاريخاً ومعاصرةً فيما وقعوا فيه من التحريف، ولولا أن عصم الله عز وجل القرآن من تحريف ألفاظه لحرفوه، ولكن تحريف معانيه –أي القرآن– الكثير يفعلونه اليوم.

فالله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، هذه كلمة ﴿مِنْكُمْ﴾، كم أسقطها علماء السلاطين، كما أسقطوها، ولم ينتبهوا إليها، أو أسقطوها عالمين بها، حيث جعلوا الكفار أولياء، ألم تروا ممن أفتى بتحريم قتال اليهود!! وجعل الصلح الذي جرى بينهم وبين بعض الطواغيت ملزماً للمسلمين!! وأن هذا السلم وهذا الصلح ملزم لكل مسلم ولا يجوز أن يعاديهم!! فيعني هذا أن اليهود هم أولياء أمور المسلمين في فلسطين!!

والذين يكتبون عن الوطنية اليوم، هذه فتنة عظيمة مضت لأن الجهاد سحقها وحاولوا أحياءها في دول الغرب ولكنهم لم ينجحوا وهو الإسلام الوطني، وكان دعاته يقولون للمسلمين في الغرب: أنكم رضيتم بالإسلام المصري والإسلام الشامي والإسلام الباكستاني والإسلام الإندونيسي، فلماذا لا تقول الإسلام الأمريكي والإسلام البريطاني؟ وهذه كتبوها، أنا لا أتكلم عن خيالات، هذه كتبت من قبل مشايخ وممن تلقب بالدكتور والشيخ والمفتي من غير ذكر أسماء، لكنها مصيبة وطامة، وجعل هؤلاء كل من تسلط على المسلمين بحقٍ وبباطل وليس هناك إلا الباطل في هذا الزمان جعله ولياً لأمر المسلمين ويجب طاعته إذا أمر! بل هناك من حرم الخروج وقتال الأمريكان لما غزوا العراق! لا تظن أن هذا الأمر يسير أو أنه قليل في الأمة، هناك كثير من المشايخ واللحى يتبعونه، فهذا الإجرام وقع فيه طوائف من هؤلاء، ودخلوا كاليهود في هذه الآيات، بل أشد، وخرجوا من الملة مع أشكالهم الإسلامية، بل أشكالهم التي تميزوا بها بأنهم من أهل العلم.

والعجيب لو أردنا أن نرى سياق الآيات لوجدنا أن هؤلاء على نفس المعنى! ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة:

٧٦]، بمعنى أنهم إذا جاءوا إلى أهل الإسلام يقولوا: والله نعرف أنهم على الباطل، ولكن نتقي شرهم أو نريد أن نكسب مصلحةً منهم أو ما شابه ذلك، هذا الواقع وهذا الحال! فهذا الصنف موجود، وكان في اليهود وللأسف كل ما وقع فيه أهل الكتاب والأمم السابقة سيقع في هذه الأمة سيصيبها.

ثم ذكر الله عز وجل القسم الثاني منهم وقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾، في الحقيقة لم أرى أجمل من كلام ابن تيمية رحمه الله في تفسيره سورة «الإخلاص»، لشيخ الإسلام كتابٌ مستقل في تفسير سورة «الإخلاص» بحث فيهم مباحث عظيمة جداً في بيان فضل هذه السورة والتواتر على أنها تعدل ثلث القرآن وبين أن كتاب الله عز وجل وأن كلامه يتفاضل كما أن أوامره تتفاضل فكذلك كلامه يتفاضل، وبين فيها كذلك وجوب معرفة معاني الكتاب، ولما جاء إلى هذا الأمر وهو الرد على من زعم بأنه يمكن أن يستأثر الله عز وجل بعلم معاني بعض آياته له دون بقية العلماء، وبين أن هذا من الباطل، بمعنى أنه لا يوجد آية في كتاب الله، لا يعلمها بعض أهل العلم، أو كلهم لا يوجد، يعني لا يوجد آية في كتاب الله عز وجل لا يعرفها أحد من أهل الإسلام المعنى.

وأما التأويل بمعنى الوقوع وهو الشيء على جهةٍ أخرى في أحواله، وهو وقوع الشيء ولما يأتيهم تأويله أي واقعه، لكن جاء إلى هذه النقطة وبين أن الواجب هو معرفة كتاب الله عز وجل معرفة معانيه، الواجب أن يعرف الناس، وجاء إلى هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾، وأنا سأقرأ فقرة له في تفسير هذه السورة وطبع –كتابه هذا– مستقلاً وهو تفسير سورة «الإخلاص» وهو موجود في المجلد السابع عشر أي هذا الكتاب من مجموع الفتاوى، والمهم أن نبين أقواله في تفسير معنى أمي وسأشرح بعد ذلك مما فهمته من كلام أهل العلم في معنى الأمي، وله ما يقارب بحسب الطبعة الأولى لما جمعه عبد الرحمن بن محمد بن قاسم نعم وابنه محمد في مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية تقريباً عشر صفحات، كتب عشر صفحات تقريباً في تفسير هذه الآية.

ولكن ما يهمني أن أقرأ لكم ما معنى الأمي كما يشرحه شيخ الإسلام ونقف عنده، ليدلكم على هذه الطريقة التي أختص بها ابن تيمية، وهذه كذلك سنجدها في الآيات القادمات عندما نتكلم عن تفسير آيات أشكلت على كثير من أهل العلم أنه كيف يميز بين الألفاظ ووقائعها، لا ينزلها على معنى واحد، أي

نحن نعرف أن ابن تيمية رحمه الله لما رد على المنطقيين ولما جاء إلى كلمة الصابئة، فصل تفصيلاً لا تجده في غير هذا الموطن، من هم الصابئة؟ القرآن يمدح الصابئة، الصابئة في زمانه وفي تاريخ الإسلام المعاصر هم الذين يعبدون النجوم، فكيف يمدحهم القرآن وهم عبدة النجوم؟ فيأتي إلى تفصيلها، فأنا أقرأ لكم لترو هذا بأم أعينكم كيف يفصل معنى الأمي؟ لأن هذه الأمة، أمةٌ أمية قبل أن ينزل عليها الكتاب، ما معنى هذا؟ أمةٌ أمية بعد أن نزل الكتاب، تسميتها بالأمية، أمةٌ أمية قبل نزول القرآن له معنى، وتسميتها بأنها أمةٌ أمية بعد نزول الكتاب له معنى آخر، وهذه ميزةٌ لابن تيمية رحمه الله نقرأ ما يقول ونقف عند كلامه عليه رحمة الله.

قبل ذلك أغلب كتب أهل العلم مما يتميز به شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسيره، عندما يأتي إلى الآيات لا يقف عند كتب التفسير فقط ولكن يذهب إلى كتب معاني القرآن التي كتبها أهل اللغة كالكسائي، ثعلب، الفراء، لهم كتب اسمها «معاني القرآن» وهم يفسرون الكلمات من جهة لغوية تناسب السياق وهؤلاء لهم علم، هؤلاء الذين كتبوا في معاني القرآن من أهل اللغة كالكسائي كالزجاجي، كالفراء، كثعلب، هؤلاء الأئمة وغيرهم، هؤلاء لهم ذوقٌ عظيم في تفسير كتاب الله عز وجل، وعندهم كلام فيه أقرب إلى الحق من كثير ممن كتب في التفسير، ولذلك هو يمر على أقوال هؤلاء.

فكلمة أُمّيّ وأنت إذا رجعت إلى كتب التفسير تجد الأكثر يقولون: أُمّيّ أخذت من الأم، أُمّيّ أصلها من الأم لماذا؟ قالوا: لأن الأمّيّ هو الذي لا يقرأ ولا يكتب يعني لم يتميز لم يترقى، الأمّيّ هو من لم يترقى، لأنه بقي على حاله لما انفصل عن أمه، هو أمّيّ منسوب لأمه على الحال الذي فارق عليه أمه، فهو لم يتميز ولم يترقى في العلوم، لم يقرأ ولم يكتب ... إلخ.

وقبل أن نأتي إلى الأماني نأتي إلى الأمّيّ، لنرى ماذا يقول شيخ الإسلام، قال: والأمّيون نسبةٌ إلى الأمة، قال بعضهم: نسبةٌ إلى الأمة وما عليه العامة، فمعنى الأمّيّ العامي الذي لا تمييز له، لما كان معنى الأمي نسبة للأمة أي لعامة الناس، فهناك العامة وهناك الخاصة، فالعامة لم يتميزوا بشيء فلم يرتقوا إلى الخاصة، فبقوا على مرتبة العامة فهم الأمة، وقد قال الزجاج: هو على خُلق الأمة التي لم تتعلم فهو على جبلته، وقال غيره: هو نسبةً إلى الأمَة، لأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء، ولأنه على ما ولدته أمه، هو جعلها

شيئاً واحدًا إلى الأمة، لماذا؟ نسبة إلى الأمَة التي لا تكتب لأن الإماء لا يكتبن ولا يقرأن في الزمن الأول، وإن كانت الإماء في زمن الإسلام صرنا هن العالمات.

قال: «والصواب أنه نسبةٌ إلى الأمة»، قال: «عامي نسبة إلى العامة التي لم تتميز عن العامة بما تمتاز به الخاصة، وكذلك هذا -أي الأمي- لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة، ويقال: الأمي لمن لا يقرأ ولا يكتب كتابًا»، انتهينا هذا من جهة اللغة، إما نسبة إلى كما قالوا الأم أو نسبة إلى الأمَة أو نسبة إلى الأُمة، على معنيين.

والآن يأتي لماذا وصفت هذه الأمة بالأمية: «ثم يقال لمن ليس لهم كتابٌ منزلٌ من الله يقرؤونه وإن كان قد يكتب ويقرأ ما لم ينزل»، أي أناسٌ ليس لهم كتاب منزل من السماء لكن يقرأون ويكتبون ما ليس منزل من السماء، فهؤلاء قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠]، فجعل الناس قسمين، أناسٌ أنزل عليهم الكتاب وأناسٌ لم ينزل عليهم الكتاب، فالذين أنزل عليهم الكتاب وصفهم بهذا الوصف ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، والذين لم ينزل عليهم الكتاب وصفوا بالأميين، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا﴾ [الجمعة: ٢]، فإذن هم أميون بعث فيهم رسولاً، فهذا وصفهم قبل الرسول، «وقد كان في العرب كثيراً مما يكتب ويقرأ المكتوب ولكن وكلهم أميون» على هذا المعنى، أنه ليس عندهم كتابٌ منزل يقرؤونه كبقية أهل الكتاب يعني هناك أهل الكتاب وهناك أميون.

فهل ارتفع هذا الوصف عنهم بعد أن أنزل الكتاب؟ انظر هذه طريقة ابن تيمية رحمه الله، من واظب على النظر في كتبه استفاد هذه الطريقة، وأدراك هذه الطريقة من العلوم العجيبة: «فلما نزل الكتاب عليهم لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لا يقرأون كتاباً من حفظهم بل هم يقرؤون القرآن من حفظهم، وأناجيلهم في صدورهم لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم، بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم»، أي لم يرتفع عنهم وصف الأميين لكن جاءهم وصف الأميين هنا على معنى جديد، وهو «أنهم لا يحتاجون أن يقرؤوا كتابهم حاجة غيرهم؛ لأن أناجيلهم -المقصود بالإنجيل القرآن- لأن أناجيلهم في صدورهم بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم، بل

قرآنهم محفوظ في قلوبهم، كما في الصحيحين من عياض بن حمار المجاشعي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (وإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ)، ويقول الله في الحديث القدسي للنبي صلى الله عليه وسلم: (إني مبتليك ومبتلٍي بك وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظانًا)، وهنا نائمًا فلا يمكن أن يقرأ نائم من كتاب، فدل على أنه يقرأه حفظًا، ولذلك هذه أمة الحفظ، وقدم النوم في الحديث إن صح أن هكذا نطقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان يجوز التقديم والتأخير ولكنه قدم النوم عن اليقظان، أي قدم الحافظ على غير الحافظ وإن قرأه من كتاب، فدخلوا في معنى الأميين أي لا يحتاجون إلى أن يقروا كتابهم الذي أنزل عليه فبقوا على وصف الأميين.

فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم، بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظًا في قلوب الأمة، وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمةٌ أمية بعد نزول القرآن وحفظه، لم يرتفع عنهم هذا الوصف كما في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ ولَا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وهَكَذَا)، فلم يقل: إنا لا نقرأ كتابًا ولا نحفظ، لأنهم يقرأون ولكن يقرأون من غير كتاب، بل قال: لا نكتبه ولا نحسب فديننا لا يحتاج أن يكتب ويحسب، لأنه في الأصل في صدور أهل العلم، كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهم بكتابٍ وحساب، ودينهم معلق بالكتب لو عدمت لم يعرفوا دينهم، ولهذا يوجد أكثر أهل السنة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع، وأهل البدع فيهم شبهٌ بأهل الكتاب من بعض الوجوه.

ثم هنا في نفس الكتاب في معنى وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾، وشرحنا هذا، يعني من أهل الكتاب، ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾، ما معنى أماني؟ الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج: ٥٢]، تمنى يعني قرأ، فالأماني هي القراءة وتأتي مشددة وتأتي من غير تشديد، أمانيّ، وتأتي بمعنى أماني، فهذا هو الأقرب الذي عليه أغلب أهل التفسير على أنهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾، انظر ما قال: لا يقرأون القرآن إلا أماني، لا يعلمون منه إلا سماع الحفظ إذا قرأ عليهم ولا يعلمون منه إلا حروفه حين ينطقونه، وأما عقل معناها فلا يعلمونه.

وهذه الصفحات التي ذكرتها الصفحات العشر في هذا التفسير للسورة كلها يبحث في هذا المعنى، وإبطال المعاني الأخرى، ولا أريد أن أستطرد أكثر، فأرجعوا إليها، ففيها فوائد جليلة من كلام شيخ الإسلام، ويقول: بأن بعضهم فسر الأماني -أمر عليها سريعة، وهذا موجود في كتب أهل العلم وكتب التفسير- أن بعضهم فسر الأماني بالأكاذيب، يعني الأكاذيب التي قيلت لهم ممن؟ من علمائهم فلا يعلمون إلا الأكاذيب في دينهم، يعني التي قيلت لهم، وبعضهم قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ أي أمنيات، على ما سيذكر القرآن من قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، إذن لا يعلمون من دينهم إلا الأكاذيب التي قيلت لهم في وصف النبي صلى الله عليه وسلم وفي غيرها من العقائد والفقه والمسائل أو لا يعلمون إلا ما تمنوه من الكتاب، ورد عليهم ابن تيمية ردودًا جميلة في هذا، أرجعوا إليها ولا أريد أن أقف عندها مع أهميتها.

إذن هؤلاء القسم الثاني وهذا التفصيل مهمة، هذا التفصيل رباني من أجل أن نعلمه، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾ [البقرة: ٧٨]، لماذا اجتمع وصف الظن مع الجهل؟ ذلك لأن الذي يحصل عنده اليقين هو العالم، ولذلك لو جاء الأمّيّ وقرأ القرآن وفهم منه على قدر أمّيته هل يكون جازماً بهذا المعنى أم يكون مضطرباً؟ فلو جاء عالم لرده أو جاء مخالف لرده؛ لأنه ما فهم منه إلا على جهة الظن، فحين يقرأ لا يعلم إلا ما يقرأ فإن حصل لديه علمٌ وهو يقرأ على هذه المرتبة لا يكون علمه إلا على جهة الظن، أي هو أصلاً يقرأ القرآن ولا يعلم منه إلا ألفاظه وحروفه التي ينطقها أو التي يسمعها هو لا يعرف القراءة والكتابة فيسمع، ولكن لا يعرف المعنى ولا يعلم المعنى ولا يدرك المراد، فإن وقع عنده علمٌ من المعاني لما يقرأ، وقع على جهة الظن، سواء أصاب أم أخطأ، لا يهمنا الكلام الآن في الصواب والخطأ، وإنما يقع منه هذا العلم الذي علمه من السماع على جهة الظن، وهذا مما لا يمدحه فإن ما يقرره الكتاب الحق من العلوم يجب أن يكون على جهة اليقين، وهذا لا يتحصل إلا من العالم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾، هنا قلنا: تحريف المعاني.

القسم الثالث: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ﴾ هذا تحريف الألفاظ، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، وطبعًا

القسم الثاني: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾، يدلك على مصيبة المقلد، وأنه لا يثبت على دين لأنه لا يستطيع أن يقيم الحق في نفسه من خلال الدليل، ولا يستطيع أن يرد الشبه لأنه مقلد أو لأنه جاهل، وهذا نعيه على مثل هؤلاء الناس فالواجب هذا من الواجبات العينية على كل مسلم أن يعلم القرآن وما فيه.

وأنتم ترون الآن على من تنطلي شبه الزنادقة في تفسير كتاب الله من المعاصرين؟ على من تنطلي؟ تنطلي على الجهلة الذين لا يعرفون كتاب الله، كانت الفترات السابقة تقوم على تنفير الناس من القرآن حتى وقع هذا التنفير في نفوس ما يسمى بالعاملين للإسلام، حيث انتشرت عبارة أن القرآن يأتي بالعمومات، هذه الكلمة كلمةٌ ضالة، أبعدت الناس عن التفكر والتدبر في كتاب الله، عندما يقال: هذا كتابٌ لا يأتي إلا بالعمومات والتفصيلات أنت تجتهد وتأتي برأيك من عندك ومن خلال إدراكك للحياة، ومن خلال رأيك وتفكرك بنفسك من غير النظر في كتاب الله، فحينئذٍ يصبح هذا الكتاب مجرد يعني يمر عليه العامي والعالم على جهة واحدة، لأنه كتاب عمومات، فنفرت الناس، وأنت تجد أن بعض من انتسب للعمل للدعوة وللعمل للإسلام تجده يقرأ للفلاسفة قراءة التدبر وللمفكرين قراءة التدبر، وإذا أدرك من كلامهم معنى فرح وطار به وعد نفسه مفكراً وعبقرياً ولكنه لا ينظر في القرآن، فنشطوا كثيراً الآن في وقت من الأوقات إلى النظر فقط في كتاب الله وقراءته، وأما التدبر فيه لاستخراج كنوزه ومعانيه واستنباطه دره الخفية التي أختص الله عز وجل بها أهل العلم، هذا لا تجد إلا القليل، ولكن هذه فترةٌ بادت وانتهت.

فلما أقبل الناس على القرآن وبدأت الدعوة إلى إحياء علوم التفسير، جاءهم الشيطان من هذا الطريق وهو التفسير الباطني، تفسير الزنادقة الجديد فيما يسمونه بالقراءة المعاصرة، ما يقصدون بها التفسير، هم لو قالوا كما يقال بالمفكر لو قالوا: نحن نفسر القرآن، لقيل لهم: أين أدوات التفسير؟ الناس في أذهانهم وفي وجدانهم وفي عقولهم أن التفسير علمٌ يحتاج إلى آلة، بل إلى آلات، لكن قراءة مفكر، فأمثال هؤلاء الآن تجد أن كلامهم –هؤلاء الزنادقة– ينطلي على من لا يعرف الكتاب، لا يعرف اللغة العربية ولا يعرف تفسير السلف ولا يعرف قواعد التفسير، لا يأتي على شيء من هذا، فتتعجب!! يخرج لك العوام ويقولوا لك:

انظر هذا تفسيرٌ جديد هذا تفسيرٌ عبقري، وهو جاهل! كحال الذي لا يعرف النحو يذهب إلى الخطبة والخطيب لا يأتي على قاعدة من قواعد النحو إلا وحطمها، وجعلها يعني قاعاً صفصفا، والعامي لا يعرف فيخرج وقد مدح الخطيب، وأما عالم النحو فيدخل ويخرج وقد أصيب بالمرض والصداع لأنه يعرف الأخطاء، وهكذا، العامي هو مادة الشر، والأمي على هذا المعنى الأمي الذي لا يعرف العلم الجاهل هذا ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾، هذا الجاهل الذي لم يترقى بالعلم هذا مادة الزنادقة.

واليوم الحال واحد لا فرق بين حواضر الإسلام وبين بواديها وبين قراها بين وسطها وأطرافها لا تجد، قديماً أين ينشط أهل البدع؟ ينشطون في القرى بعيداً عن حواضر الإسلام يذهبون إلى البوادي وإلى القرى ويدعون الخوارج يذهبون إلى الأطراف، أين نشط ابن تومرت؟ في الأطراف، وجاء بالبدو فغزا حتى استقر ملكه، لأنه إذا جاء إلى حواضر العلم قديماً كشفوا زيفه وجهله وطحنوه، وأظهروا فساد قوله وبينوا ضلاله، لكن اليوم لا فرق بين حواضر الإسلام وبين بواديها! الكل على حالٍ واحد، الناس لا يعرفون، حطموا اللغة العربية، بغّضوا الناس في الكتاب والقرآن، صار لا يدرس الشريعة إلا من رسب كل الرسوب في المواد، وكان جاهلاً وهكذا، وثم قيدوا الناس في الكلام وأفسدوا وأبعدوا المدرسين الذين هم من العلماء وأسقطوهم ومنعوهم، فلم يبقى إلا الجهال، يذهب طالب العلم إلى معاهدٍ للشريعة وإلى كليات الشريعة فيخرج منها كما دخل فيها، بل يخرج أشد جهلاً، بما يُعلم من الباطل من قبل مشايخ لا يعرفون، ومن قبل مدرسين يفسدون ولا يصلحون.

فالقصد: هذا عيبٌ ينبغي البراء منه وهو يدل على وجوب التدبر في كتاب الله عز وجل، هذا يوجب علينا أن نتدبر كتاب الله عز وجل، وأعلى درجات التعامل مع الكتاب هو تدبره، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، التدبر، نعم قراءة القرآن بغير تدبر لك أجر، لكن هذا القرآن أنزل من أجل أن نقرأه حرفاً بحرف ومن أجل أن نتعلم معانيه ومن أجل أن نؤمن به وأن نعمل به، وأعلى درجات ذلك هو أن نتدبر، وكلما كان الرجل متدبراً في كتاب الله عز وجل كلما كان أعلى درجةً عند الله عز وجل، ومفاتيح هذا الكتاب لا تفتح إلا لمن أحبه الله، ومن بذل وسعه وطاقته في استخراج كنوزه ولألئه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، هذا الصنف الثالث من الذين يحرفون حروف الكتاب –التوراة– والمقصود بهم ما زال هو اليهود هذا ممنوع في كتاب الله عز وجل، فلا يمكن أن تبدل كلمات الله عز وجل، القرآن يمكن أن يؤول تأويلاً باطلاً، فالله عز وجل لم يعصم الكتاب من تفسير الباطل يقع هذا، ولكن الله عز وجل عصم كتابه من التحريف والتبديل، فهذا القرآن لا يبدل، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر: ٩]، هذا الكتاب لا يُبدل ومن قال بأن حرفاً مما نقرأه اليوم ليس من كتاب الله عز وجل وزيد فيه ومن زعم أن حرفاً غائبٌ عنا ليس موجوداً في كتاب الله عز وجل فهو كافرٌ مرتد.

وهناك شبهة يسيرة قد يقول قائل: ولكن وجد من الصحابة رضي الله عنهم من أنكر بعض الآيات، أو السور، المعروف عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وهذا مشهور عنه بأنه كان ينكر المعوذتين أنهما من القرآن، ويقول: أنهما رقية، لو افترضنا أن هذا الكلام لا تأويل له على جهةٍ ما، وقلنا: بأنه على ظاهره، فإننا نكفر بعد انعقاد الإجماع لا قبله، بعد أن أجمعت الأمة على أن هذا كتاب، يمكن في الزمن الأول الرجل يتلقى من واحد، وقد يغيب عنه، يعني لم يكن جميع الصحابة رضي الله عنهم حاضرين في كل موطنٍ نزل القرآن فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدعوهم فيكتب الجميع ويحفظ الجميع، لم يكن هذا، ولذلك لما جمع أبو بكر رضي الله عنه القرآن جمعه في مكانٍ واحد لم يجدوا جميع القرآن عند كل واحد، كان مجموعاً في الصدور عند كثير، والقول: بأنه لم يكن يحفظ القرآن إلا القليل، هذا قولٌ باطل، في مقتلة القراء، كم قتل في بئر معونة من القراء؟ قتل سبعون، لماذا جمع أبو بكر رضي الله عنه القرآن في مصحفٍ واحد؟ جمعه في مكانٍ واحد، وبقي عنده ولما مات أخذه عمر ولما مات أخذته حفصة، حتى كتبه عثمان في مصحفٍ واحد ووزعه على الأمصار كما هو معروف، أقول لماذا جمع أبو بكر المصحف لماذا؟ مخافة أن يذهب لكثرة ما قتل من الحفاظ في قتال المرتدين، مع بني حنيفة، لما قاتل المرتدين من بني حنيفة، فدل هذا على أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم كانوا يحفظون كتاب الله عز وجل، وهم يقولوا: كان الأربعة فقط يحفظونه من الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ابن الزبير كان يقوم فيه في ليلة، كان يقوم بالقرآن في ليلة، تميم الداري كان عند النساء، يومٌ في النساء كما ورد وإن كان في الحديث فيه كلام، أُبي ابن كعب كان من أتقن الناس حفظًا لكتاب الله، أبو هريرة كان من حفظة كتاب الله ومن المتقنين له.

القصد: أن الذين كانوا يحفظون القرآن كثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لكن ليس كل الصحابة كان حافظًا له، وبعض الصحابة كان كاتباً لبعضه ولم يكن كاتباً للبعض الآخر، ولذلك لما جمعه أبو بكر رضي الله عنه كان من شرط جمعه ألا يقبل آية حتى تكون مكتوبة عند أحدهم محفوظةً في صدر آخر، فيمكن لصحابي أن لا يعرف هذا، يمكن، ومما ذكره العلماء، هل علم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ختم القرآن في الصلاة؟ هذا خلاف بين العلماء، هل قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع القرآن على الصحابة رضي الله عنهم؟ الجواب: نعم، قرأه عليهم، لكن السؤال هل ختم القرآن كله في الصلاة إماماً للمسلمين؟ الأكثر على النفي، مع اختلافهم هل فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع القرآن، وهذه المسألة التي وقعت بين أبي حيان الأندلسي وبين ابن تيمية معروف الخلاف فيها، ولا يعلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قط أنه كان يختم القرآن على طريقة بعضهم، فبعض القراء ماذا يفعل؟ يختم القرآن يبدأ بالبقرة وهكذا حتى يختم القرآن في الصلاة الجهرية، وهذا لا يعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فالقصد: ليس جميع الصحابة رضي اله عنهم سمعوا جميع القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان بعضهم سمعه جميعه من النبي صلى الله عليه وسلم، هذا بلا شك، والكثير منهم، لكن بعضهم لم يسمع منه جميع القرآن، وكان النبي صلى الله عليه وسلم -هذا إذا أولنا حديث ابن مسعود- والمعروف أنه كان النبي صلى الله عليه وسلم يرقي الحسن والحسين، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما كما في الصحيح، فظن ابن مسعود رضي الله عنهم أن هذه الآيات رقية لما كان يرى من كثرة رقية النبي صلى الله عليه وسلم لهما، أي للحسن والحسين، ومن المعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم قليلاً ما كان يقرأ هذه القصار في الصلاة، أي إماماً، يعني القليل جداً ما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه القصار من السور في الصلاة، يعني مثل ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر: ١]، ومن ذلك المعوذتان، فظن ابن مسعود رضي الله عنه أن هذه رقية وليست قرآنًا، لكثرة ما كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ويرقي بهما الحسن والحسين، فيمكن هذا يتوقع منه.

لكن لو أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه جاء وخالف الإجماع وهذا لا يمكن أن يقع فيه، ولكن نذكره على جهة التنزل لكان مخالفًا للإجماع، ومخالف ما استقرت عليه الأمة معروفٌ حكمه، ولذلك عندما يقولوا: لماذا تكفرون اليوم ولا تكفرون من فعل ذلك زمن النبي صلى الله عليه وسلم؟ نقول: لم يكن الإجماع

قد انعقد لعدم تصور وجوده، وأما بعد أن استقر هذا القرآن وعلم وبيّن للأمة أنه جاء بطريق التواتر التي لا يمكن أن يعتريها الشك، ولا يمكن أن يعتريها الخطأ، ولا السقوط والنسيان، فدل هذا على أنه من أنكر حرفاً اليوم من كتاب الله أو زعم أن حرفا أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وأوجبه الله عز وجل وجعله من القرآن ثم اليوم غير موجود فهو كافر وكفى بهذا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، فهذا ممتنع في أمتنا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩]، ما معنى ليشتروا به ثمناً قليلا؟ بعض أهل العلم قال: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، أي التقرب عند العامة، يعطونهم ما يريدون ليتقربوا عند العامة، وبعضهم يقول: إنما يكتب الكتاب من أجل أن يجري هذا الكتاب على الكتابة والوراقة وغيرها، وبعضهم قال: إنما هذا موافقة لما غير وبدل، أنتم تعلمون أن اليهود غيروا الأحكام ومن ذلك الرجم، فيسقطون آية الرجم في بعض نسخ التوراة ليس في كل التوراة، يسقط بعضهم هذه الآية من الكتاب من التوراة من أجل أن يسوقها على الناس لئلا يعرف الناس ضلالهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾ [البقرة: ٧٩]، عليهم إثمٌ من جريمتين، الجريمة الأولى: لها تعلق بالعلم، والجريمة الثانية: هي بيع الباطل، أولاً: جريمة تتعلق من جهة العلم نفسه، يعني لو افترضنا أنهم فعلوا هذا من غير ثمن لكانت جريمة، فكيف إذا فعلوا هذا وأرادوا به الثمن، فقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ﴾، الويل هنا لها معنيين عند أهل العلم ويل معناها الثبور والعذاب وشدة العذاب والغضب، وويل وردت في الحديث أنها وادٍ في جهنم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾، أي المال الذي اشتروا به هذا وأخذوه بمقابل هذا، هو عذابٌ عليهم.

ثم بعد ذلك ربنا سبحانه وتعالى ذكر صفة من صفاتهم أو ذكر علة كما ذكر أهل التفسير، ذكر الله عز وجل علة وقوع هذه الأفعال منهم، ما الذي جراؤهم؟ يعني اليهود يسمعون المواعظ، فما الذي جراؤهم على هذه الجرائم وهذه المعاصي، ما الذي جراؤهم؟ فذكر الله عز وجل علة جرؤتهم في هذا، وهذا يدل على أنهم كانوا يعرفون كل ما فعلوه من جرائم كانوا يعلمون أنهم يقترفون بها المعاصي، فهنا في هذه الآية يفسر الله عز

وجل علة اقترافهم وجرأتهم على هذه المعاصي، فقال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾ [البقرة: ٨٠-٨١].

أول ما يسترعي القارئ لكتاب الله عز وجل هو أنها وردت هنا في سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، ووردت في سورة «آل عمران» في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، فما الفرق بينهما؟ بعض أهل العلم كالآلوسي في تفسيره قال: «هذا من باب التفنن»، وباب التفنن المقصود به تعدد الوجوه المحتملة في اللغة الواحدة، لأن اللغة تحتمل هذا وهذا، فإذا كان المعدود -أيام هنا مذكر، مفردها يوم- فإذا كان المعدود مذكراً الأصل فيه أن يختم وصفه إذا جمع بالتاء، ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، هذا الأصل، إذا كان المعدود مذكراً، كان الموصوف إذا جمع، الموصوف هو ماذا؟ معدود العدد ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، هذا وصفها، كان الموصوف الأصل أن يجمع بالتاء، ويمكن أن يجمع بالألف والتاء، يعني الأصل ما هو؟ معدودة والفرع معدودات، فقال: «هذا من باب التفنن»، أي هذا جاز كأصل وجاز كفرع، فذكر الأصل وذكر الفرع، وهذا الذي قاله على هذا اللفظ من التفنن هو الذي جرى عليه كثير من المفسرين قبله وبعده وإنما فسره الآلوسي هنا فسره، من الذي قال بهذا القول؟ قاله الزمخشري، قال: جرت على معنى الأصل والفرع.

وقال من قلده، من يأخذ من الآلوسي عادةً من المفسرين؟ الرازي، ومن يأخذ منه فيقبله مرة ويرده مرات؟ أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط»، هذا قالوه، طبعاً إذا كان المعدود مؤنثاً جمع موصوفه على الألف والتاء كما تقول: جرة وجرات، هذا وجه من وجوه أقوالهم وهناك وجوه أخرى اختلفوا فيها.

قالوا: ما الأكثر معدودة أم معدودات؟ قالوا: إذا كان المعدود غير عاقل فأُفرد وصف المعدود الذي هو الجمع كان هو الأكثر والأبلغ عدداً من غيره، قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، ليس معدودات، فمعدودة مفرد والمعدود هو أيام عاقل ولا غير عاقل؟ غير عاقل، أيام غير عاقل فإذا جمع غير العاقل ووصف بالمفرد كان أكثر، فمعدودة أكثر من معدودات، هذه من قواعد البلاغة.

-نعيد الكلمة بسرعة- إذا كان المعدود غير عاقل فوصف بالمفرد كان أبلغ، الغريب هذه أكثر أهل البلاغة يقولونها، وصاحب «التحرير والتنوير» عكسها، وإن كان بعض أهل اللغة القدماء أنكروها، قالوا: هذا لا يعني شيئاً قد يأتي هذا وقد يأتي هذا، ولكن هذا هو قول الأكثر، يعني صاحب «التحرير» والتنوير ابن عاشور رحمه الله، يقول: لا معدودات أكثر عدداً من معدودة، والأكثر على أنها معدودة ما دام هي مفردة إذن هي أكثر من معدودات، ويسمون هذا جمع قلة معدودات يسمونها جمع قلة كجفنات جمع قلة، ولذلك يقال: أن الخنساء مع إنكار بعض أهل اللغة لها، يقال: بأنه عابت حسان لما قال:

لَنـــا الجَفَنـــاتُ الغُـــرُّ يلمعـــنَ بالضّـــحى وأســـيافنا يقطـــرنَ مـــن نجـــدةٍ دمـــا

قالت: قلل عدد جفنات قومه، طيب على هذا المعنى ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ أشد، وأكثر من معدودات، فقال: هذا لأنه كلامٌ ليس عن طائفةٍ واحدة، وإنما عن طوائف، فبعضهم قال: سنمكث في جهنم سبع أيام بعدد الأسبوع، عن كل ألف يومٍ من عمر الدنيا يوم، هم يقولون: بأن عمر الدنيا سبعة ألاف سنة، عن كل ألف يوم؛ فسبع أيام، هذه في ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، وقال: بعضهم سنمكث في النار أربعين يوماً، بعدد الأيام التي وعد الله عز وجل موسى عليه السلام أربعين يوماً، فالذين قالوا: أربعين يوماً ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، والذين قالوا: سبع أيام ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، فقالوا: هذا لقوم وهذا لقوم.

وبعضهم قال: إن الشناعة هنا فيما ذكر القرآن تقتضي هذه الكثرة، إن الشناعة في مواقف اليهود هنا أشد، فلذلك شناعة هذه الأخبار التي سيقت وقيلت هنا هذه أشد، فلذلك قالوا: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، كثروا، وهناك في سورة «آل عمران» الشناعة أقل من هذه الشناعات الكثيرة التي ذكرت فيهم وقيلت فيهم، هذا مجمل ما قاله أهل التفسير في هذا ويكفي هنا.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا﴾، والمس هو اللمس برفق، أو ملاقاة شيئين برفق، لمس، ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، وهذا دليل على أنهم يعلمون أنهم أهل معصية، ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، الله أبطل قولهم هذا، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾، هل بينك وبين الله عز وجل ميثاق أن لا تمكثوا في النار إلا هذا العدد؟! هل هناك؟! ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾

[البقرة: ٨٠]، وهذا أشد أنواع الكفر، لما ذكر الله عز وجل المحرمات في سورة «الأعراف» ماذا قال؟ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ [الأعراف: ٣٣]، ماذا جعل أعلى شيء بعد الشرك؟ هو ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ [الأعراف: ٣٣]، لأن القول على الله ما لا يعلم هو يجمع ذلك كله، يؤدي إلى الشرك وإلى الكفر بالله وسب الله وادعاء الباطل عليه وفي ذلك إغرارٌ للآخر. وإفسادٌ للآخرين.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾، وهم لن يستطيعوا أن يحضروا هذا، وهم أدعوا على الله عز وجل في هذا الباب أشياء كثيرة وقالوا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، فالله عز وجل قال: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨]، فإذا أنتم أحباب لماذا تدخلون النار ولو هذه المدة القليلة؟ قال تعالى: ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾، جل في علاه فدل أن الله سبحانه وتعالى إذا وعد لم يخلف جل في علاه لأنه الحق المبين، ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾، فلما لم يحضروا دليلهم على أنه بينهم وبين الله عز وجل عهداً دل على أنهم يقولون على الله ما لا يعلمون، قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾، أي ما لا تعلمون أنه أنزل عليكم،

قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾ [البقرة: ٨١]، هذه الآية لنا موقفٌ طويل معها لأهميتها في اعتقاد المسلم في المعاصي في باب الأحكام والأسماء وباب المآلات نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، شيخنا هل هو نوع من الإرجاء كان عند اليهود مع كل معاصيهم؟

الشيخ: كان ينبغي الوقوف مع هذه الآية فيما يقع فيه المسلمون، كان ينبغي الوقوف لكن لضيق الوقت أجلنا، لكن وقد فتحته نأتي إليه، هذا الاعتقاد الذي يقع فيه من آمن بالحق ثم قصر فيه ثم علق هذا التقصير بالمغفرة والرحمة فيؤدي هذا إلى ما يسميه العلماء الإرجاء، وإلى أشد من ذلك هو يؤدي إلى الكفر، وهذا سنبينه في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾ [البقرة: ٨١]، سنبينه، لكن هذا الاعتقاد وهو اعتقاد أن الله عز وجل سيغفر، كما بعض المسلمين اليوم يسب الدين والرب ويترك الصلاة ولا يترك معصية إلا ويأتيها ويقترفها، ثم بعد ذلك يزعم أن المسلمين سيدخلون الجنة في نهاية الأمر، فهذا هو اعتقاد الباطل، هل هذا نوع من أنواع الإرجاء؟ نعم هو نوع من أنواع الإرجاء؛ لأن البعض من المرجئة الغلاة يقولون: بأن الإيمان فقط مجرد الكلمة، والأعمال لا تضرها، يقول بعضهم هذا وهم غلاة المرجئة وإن كان بعضهم اليوم ممن لا يتبنى هذه العقائد ولكنه يقررها في أحكامه، يعني بعض الخطباء والمدرسين يحكموا بها على الناس مع هذا الواقع.

مثلاً: لو جئت الآن وقلت لبعض المشايخ: هؤلاء يسبون الدين ويخرجوا من الإسلام، لقال لك: لا تكفر، لو قلت: هؤلاء الحكام طواغيت لا يحكمون بالشريعة وبدلوا الدين، يقولوا لك: لا تكفر، لا تحكم على أحد بالجنة والنار، هذه يفعلها مشايخ، فإذا قيل لهم هذا، لو رجعت إلى كتاب الإمام ابن حسن الأشعري، لقلت: هؤلاء غلا ثم جئت إلى بعض أقوال العلماء أنهم يكفرون، أن بعض أهل العلم يكفر من قال بهذا الاعتقاد، يعني من قال بهذا الاعتقاد أن مجرد الإيمان هو الكلمة، حتى لو لم يأتي شيئًا من لوازمها ولم يأتي بعمل من أعمال الإسلام، بل أتى بضدها وسب الله وسب الرسول، وكان مسلماً العلماء يكفرون هذا القائل لا يكفرون الفاعل، يكفرون من قال بهذا القول.

فهذا نوع من أنواع الإرجاء في كتب أهل العلم، وفي كتب المقالات والملل والنحل، وهذا مما ينبغي الحديث عنه إن شاء الله في الدرس القادم لأنه داخل في قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١]، وهذا هو كفر المآل، الخطيئة أحاطت به حتى لبسته، فلم يأت بخير هذا سنبينه إن شاء الله في القادم وأنا أطلب من الإخوة قبل أن نأتيه يرجعوا إلى كتاب «تفسير آيات أشكلت» لابن تيمية هو في المجلد الأول شرح هذه المسألة شرحاً طويلاً عند آيات ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، والخلاف في الحسنة والسيئة، فهذا بابٌ من مزالق ما وقع فيه الكثير من المفسرين والعلماء، فوقف عليه وتكلم فيه كلاماً طيباً ثم أتى لهذه الآية، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ سيئة وهي موجودة في الفتاوى أظن في المجلد الرابع، ليس جميع ما نشر في هذا الكتاب «تفسير آيات أشكلت» ولكن بعضه موجود حول ثلاث ورقات موجود حول هذه الآية في مجموع الفتاوى لابن تيمية ولكن من أراد التفصيل فقد نُشرت في هذا الكتاب، وعندي أن هذا من أواخر ما كتبه ابن تيمية «تفسير آيات أشكلت».

السائل: شيخنا لما ذكرت عن الأميين، هل ينطبق على وصف الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؟

الشيخ: الوصف هذا تجاوزته والعلماء يقفون عند هذه الآية في وصف الأمي، لماذا هي مدحٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وذمٌ في غيره؟ يعني النبي صلى الله عليه وسلم عندما وصف بالنبي الأمي هذا مدحٌ له أن يكون بمثل هذا العلم، وأن يكون بمثل هذه الحكمة، وأن يكون بمثل هذا العطاء، ثم هو أمي فهذا مدحٌ له، لأننا نرى أن الأمي لا نعيبه فقط لأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولكن نعيبه لأنه بترك القراءة والكتابة حصل عنده نقصٌ في العلم، أي الذي لا يقرأ ولا يكتب في حياة الناس يكون تلقيه للعلم أقل بكثير ممن يقرأ ويكتب، لأنه لو سمع الكثير فسيفوته أكثر بكثير بترك القراءة، القراءة هي مصدر العلم، السماع أقل، السماع بالنسبة للعلماء أقل من القراءة، فلذلك نحن نذم الأمي لأن علمه قليل، لماذا؟ لعدم وجود عنده آلة العلم، لكن نحن نمدح النبي صلى الله عليه وسلم لأميته، لماذا؟

أولاً: لأن هذا لم يحصل وأميته لم توصله لهذا بل أعطاه الله العلم التام الذي لا يمكن أن يبلغه أحد بل كل علوم أهل الملة هي قبصٌ من نوره صلى الله عليه وسلم، وفرغٌ من نوره وشعاع من نور علمه صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: الله أقامه نبيًا أمياً لماذا؟ لأن هذا دليل إعجاز في أنه يعلم هذا العلم من غير أن يقرأ ولا يكتب فدل على أنه من جهة السماء من الله عز وجل، وهذا مذكورٌ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت: ٤٧-٤٨]، فلو كان كاتباً؛ لقال الناس: تلقاه من غيره، وقالوها مع أنه لا يقرأ ولا يكتب، وقالوها كذباً وجهلاً، ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس: ١٦]، يعني لا أقرأ ولا أكتب.

السائل: –سؤال خارج الدرس– ما حكم إرسال الطلبة للدراسة في الغرب مع وجود احتمال انحرافهم وحكم المال المأخوذ منه؟

الشيخ: الذي أنا أقوله سألني بعض الإخوة، قال: لماذا لا تكتب حكم الإقامة في دول الغرب، قلت: لأني متهم، لأنني لو قلت ما أعتقد، سيقول الجاهلون والخصوم والبعض: الآن يا أبا قتادة لماذا لم تكن تقول هذا وأنت في ديار الغرب، ومن كان بجانبي ويسمع لي ويعرف أهلي أقرب الناس إلي، يعلمون أني وأنا في ديار الغرب أقول الإقامة في ديار الغرب حرام، الإقامة في ديار الكفر التي هي ديار الغرب حرام لا تجوز، وكل من يستطيع أن يخرج منها فلا يخرج فهو آثم، ليس فقط لغلبة الظن في أنه سيفسد وسيفسد أبنائه، لكن لليقين أنه سيفسد، ليس لغلبة الظن، ولكن يقيناً أنه سيفسد، فإن امتنع فساده اليقين سيقع في أبنائه، أو في بعض أبنائه، يعني يقول: هذا ابن جيد، انظر قد يكون للرجل ولدان، ولد صالح في الغرب وولد فاسد وقد تكون ابنته جيدة وابنه فاسد، وقد يكون العكس، لا يقم أحد في بلاد الغرب إلا وهو آثم، لا يوجد، كل من استطاع –هذا بحسب القدرة– كل من استطاع أن يرحل من تلك البلاد فواجبٌ عليه الرحيل، وأنا أعرف أنه سيأتي من يقول: الآن يا أبا قتادة، لا، ليس الآن، هذا من قديم، ولا أريد أن أتكلم

عن نفسي لكن شهد الله هذا اعتقادي منذ أن وطئت تلك الديار وعرفت حالها، ليس في وقت متأخر بعد أن سجنت، لا، قبل ذلك بكثير، وكنت أحض على هذا.

أما الذهاب للدراسة فلا يجوز، السبب: أنه لا يوجد علم خاص نقول للناس اذهبوا فتعلموا هناك ولا تجدونه في بلادٍ أخرى، اليوم العلوم مشاعة ومفتوحة ولا يوجد علم خاص في ديار الغرب لا توجد في ديارٍ إسلامية أخرى يجدها فيها، هذا الذي عندي فالجواب: لا، لا يجوز قط.

السائل: ما هو حكم العمل في المكتب يسهل سفر الطلاب للدراسة في الخارج مقابل أن يدفعوا مبلغ مالي مقابل خدمته؟

الشيخ: يعني متابعةً لما تقدم الله يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، فهذا إثمٌ صريح فلا يجوز العمل فيه.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والستون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الخامس والستون من دروس التفسير ومازلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾ [البقرة: ٨٠-٨٢].

تقدم الكلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وبيّنا ما قاله أهل العلم في الفرق بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، وانتهينا منها، وهنا فقط في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون، يعني لما نفى الأولى أي نفى قولهم أو ادعاءهم إن قالوا، ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾، فلما نفى هذا ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون، وهذا إذا كان الخيار بين منفيٍ مطلقاً وبين مثبت، فيكون بل للإضراب أي أضربت، والعلماء يقولون: ضرب على الشيء أي أزاله؛ ولذلك يسمون البيت الذي يصك فيه العملة بدار الضرب أي كأن الضرب هو محو وإنشاء شيءٍ آخر، هذا هو الضرب، ويقول العلماء عندما يكتبون كتابة فيأتون إلى حرف قد أخطأوا في كتابته ونسخه، فيقال: يضربون عليه أي يمسحونه، ويثبتون غيره، فيقال: هذا حرفٌ مضروب عليه أي مُزال ومثبتٌ غيره.

ولذلك حرف «بل» وهو من حروف المعاني، وهذا بابٌ جليلٌ في اللغة، اهتم به أهل اللغة من جهة واهتم به أهل الأصول بل إن بعض كتب الأصول توسعت فيه أكثر من توسع كتب أهل اللغة، لأنه بابٌ من أبواب علوم الآلة والاجتهاد، لابد للمجتهد أن يتعلم معنى هذا الحرف، فهذا الحرف له معنى وكلمة حرف هنا على معناه الاصطلاحي وليس على معنى الحرف المكون للكلمة، لما نقول: كتب فحرف الكاف نقول عنه حرف وليس المقصود هذا، هذا حروف المعاني، ومن ذلك النظر في قولهم بل، أي يضربوا عما سلف فينفيه ويثبت ما بعده ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)﴾، اي تقولون على الله ما لا تعلمون، ومثلها ما سيأتي ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ﴾، وهذه تؤدي إلى نفي ما قبلها وإثبات ما بعدها، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، نفت ما قبلها مما قالوه من الكذب أنه بينهم وبين الله عهدًا.

ومما يستفاد من هذه الآية أمرٌ عظيمٌ هو قاعدة من قواعد الشرع التي ينبغي أن يقيم المرء نفسه عليها وهي أنه ليس بين العباد وبين الله عز وجل وسيلة للقرب منه لا بنسب ولا بادعاء ولا بشعار، وإنما النسب بين الناس إن جاز هذا اللفظ وبين العبيد هو عبوديتهم لله عز وجل، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، والوسيلة لا تُنشئ ولا تنشأ من جهة الإنسان، لا يُنشئها الإنسان، الوسيلة بينك وبين الله هو الرب فهو من يشرعها وهو من يقولها، لا يجوز لأحد أن يدعي وسيلة غير ما شرعه الله.

والوسيلة إما أن تنشأ من جهة رحمته وعطائه وكرمه فهي مَنٌّ إلهي، وإما أن تنشأ من جهة الإنسان، ولا تنشأ من جهة الغير إلا من جهة الرحمة كالدعاء، أن يدعوا فلان لفلان أن يدعوا ابن لأبيه، أن يدعوا الأخ لأخيه، أن يدعو المتأخر للمتقدم لما فعلى المتقدم من خيرات لهذا المتأخر، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا﴾ [الحشر: ١٠]، لأن الإخوة الذين سبقوهم هم وسيلة إيصال الخير لهم، وإما من رحمة الله عز وجل أن يدعوا المرء بأسماء الله عز وجل وصفاته ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ندعوا بأسماء الله وصفاته أو ندعو بأعمالنا، هذه الوسيلة المقبولة، كحديث الثلاثة الذين أواهم المبيت إلى غار، فقالوا: لن ينجينا مما نحن فيه إلا أن ندعو الله بصالح أعمالنا، لن ننجو إلا بأن ندعو الله بصالح أعمالنا فدعوا الله بصالح أعمالهم.

فهؤلاء اليهود، ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، لماذا؟ لأنهم قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه فلا يعذبنا، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، فالله عز وجل كذبهم وقال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨]، أي تجري عليكم السنن التي تجري على بقية البشر سواءً بسواء لا فرق، وبهذا أمرنا الله عز وجل وأمر المؤمنين ألا يتكلوا على الشعارات ولا على النسب، قال صلى الله عليه وسلم: (يا فاطمة اعملي ما شئت فإني لن أغني عنك من الله شيئا)، وهي ابنة النبي صلى الله عليه وسلم التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم: (فاطمة بضعةٌ مني)، هي جزءٌ منه عليه الصلاة والسلام ومع ذلك لن تتقرب إلى الله عز وجل إلا بصالح عملها، ليس لها وسيلة غير ذلك.

وكذلك الشعار، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، فهم يقولون: نحن أهل كتاب ونحن أبناء الأنبياء بنو إسرائيل يعني بنو يعقوب عليه السلام ومع ذلك الله عز وجل يقول: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، ينفي أي صلة بينهم وبين الحق، إلا ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، وهذه تقال للمسلمين اليوم، قواعد الإيمان مطّردة بين جميع الخلق وبين جميع أتباع الأنبياء، لا يتميز بها قوم عن قوم ولا أهل شريعة عن أهل شريعة، قواعد الإيمان واحدة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وجميع الأنبياء جاءوا بقواعد الإيمان واحدة، لا تختلف، والذي يختلف هو الشرائع.

فلما نفى الله عز وجل الإيمان عن الأمم السابقة إلا ما أقاموا الحق والشريعة فهذا منفيٌ عن هذه الأمة، فنحن مسلمون، نحن أتباع الحق، نحن أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، بيننا وبين النبي نسب، لا ينفع، بنو إسرائيل الذين بعث إليهم النبي صلى الله وسلم هم أبناء يعقوب نسباً ومع ذلكم هم من أهل النار لأنهم لم يصدقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وأبناء إبراهيم عليه السلام، قريش ينتهي نسبها إلى إبراهيم عليه السلام التي عادت النبي صلى الله عليه وسلم مثل أبو جهل أبو لهب قريش كلها ينتهي نسبها إلى إبراهيم عليه السلام ومع ذلك لا ينفعها، لا ينفع المرء إلا عمله، وعمله يمده إلى رحمة الله، عمله يدخله الرحمة كما أن الرحمة تدخله في عمله الصالح، أي لا ينشأ العمل الصالح إلا برحمة، ولا يستحق الزيادة والبركة بعد عمله إلا

برحمة الله عز وجل، وهذه الرحمة لا تنشأ إلا بالعمل، لا تنشأ إلا منه، أولاً منه، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف: ١٥٦].

إذن العمل لا ينشأ إلا برحمة الله عز وجل، ولا تتحقق رحمة الله عز وجل على العبد إلا بالعمل، أي الرحمة التي يتم بها البركة والزيادة في صعود الدرجات ونيل الكرامات، هذه الرحمة لا تتحقق إلا بوجود العمل.

وهذا يقوله بعض المسلمين تراه ملحداً ساباً لله عز وجل، ساباً للرسول صلى الله عليه وسلم، ساباً للشريعة مستهزئاً بالإحكام الشرعية، أكلاً للربا ومستحلاً له، ليس فقط أكلاً للربا بل يستحله، بل بعضهم يقول: إن درهم الربا لفي فمه أحلى من درهم الحلال يقولونها، وهذا شرك وخروج من الملة، كفر، وبعضهم يوالي أعداء الله، يوالي المرتدين ويوالي المشركين، ومع ذلك يقول: أنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فيأتيه الشيخ على المنبر يمر عليه لحظة من كلام الشيوخ على المنابر أن كل أمة محمد صلى الله عليه وسلم يدخلون الجنة، ويقول: أنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو كاذب ليس من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

بعض أهل العلم قال: أمة محمد صلى الله عليه وسلم على نوعين: أمة الدعوة وأمة الإجابة.

– أمة الدعوة: هم الكفار والمسلمون كلهم، فالآن النصارى هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم على معنى أنهم مكلفون بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم ومكلفون بالدخول في شريعته، وإن كان الإمام أحمد رحمه الله كما ذكر عنه الخلال كان ينكر هذه اللفظة ولا يحبها، هذه الكلمة أن جميع الناس المسلم والكافر هم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، كان الإمام أحمد ينكر هذه الكلمة ويستعظمها لا يراها جيدة، لكن أهل العلم يقولونها في كتب الأصول وأقصد كتب أصول الدين، فهؤلاء على معنى أنهم مكلفون بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم فهم يدخلون في هذا الباب.

أمة الإجابة: فالمقصود بأمة محمد صلى الله عليه وسلم التي تدخل الجنة هي التي أتت بالتوحيد وشروطه، فلو أنها أتت بالتوحيد ونقضته بعد ذلك، بماذا؟ بموالاة أعداء الله، بالإتيان بالأعمال الشركية،

بسب الله عز وجل وسب الرسول صلى الله عليه وسلم كما يفعل الكثير للأسف ممن ينتسب للإسلام وينتسب للنبي صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء نقدوا التوحيد خلاص.

والقاعدة الشرعية أيها الإخوة الأحبة: أنه من أتى بكل أعمال الشريعة، كلها، وأتى بناقضٍ واحدٍ من نواقض الشريعة لا ينفعه بقية الشرائع، لو أنه صلى وصام وزكى وحج وجاهد وسب الله ورسوله، سب الله كفر خرج من الملة، لا تنفعه بقية الشرائع، وهذا وقع مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، هؤلاء من؟ يصلون وراء النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء في الجهاد، خرجوا للجهاد في غزوة العُسرة، ومع ذلك قال الله عز وجل: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، كفرهم الله عز وجل، ولقد قالوا: كلمة الكفر، كفروا بقول قالوه، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

فالقصد: هذه الآية ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾، وهذه للأسف هي عقيدة كثير من الجهلة، يقولون: نحن سندخل الجنة في نهاية الأمر، لا لن تدخل الجنة أنت خالد في جهنم، بل إن المرتد في ديننا أشد غِلظةً في دركات النار من الكافر الأصلي، الجنة درجات والنار دركات، دركات أي إلى الأسفل، فالمرتد أكثر كفراً من الكافر الأصلي، الذي عرف الإسلام ثم سب الله عز وجل وسب الرسول صلى الله عليه وسلم وخرج من الدين بتركه الصلاة فهذا أشد كفراً، فلا يطمعن أحد بالرحمة دون أن يأتي بموجبها.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَى﴾، وبلى نافية لما تقدم ومثبتة لما بعدها، ﴿بَلَى﴾ رد عليهم كل ما قلتموه لا يصح، ثم تثبت ما بعدها، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، وهنا أريد أن أقف مع إخواني وقفة علمية أنا أعرف أن البعض ليس له خبرة بكلام أهل العلم في المسائل العلمية التي –لا نقول عويصة– لكنها أرقى من درجة العوام في سماع التفسير الوعظي، فهناك من يحب أن يسمع تفسيراً وعظياً يفهمه كل أحد، وهناك مراتب في التفسير ينبغي أن يستمع لها طلبة العلم.

ووعدت في الدرس الفائت أن أتكلم عما قاله ابن تيمية رحمه الله شيخ الإسلام في كتابه «تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء»، هذا الكتاب أيها الإخوة لا بأس أن ننوه به لأنه جزء من كتب التفسير

التي ينبغي أن يُعاد إليها، وأنا نوهت في الدرس الفائت إلى أن هناك كتب تفسير لا ينشط لها بعض المعاصرين، لا ينشط لها الطلاب المعاصرين، ومن ذلك قلنا: التي ألفها أهل اللغة، بيّنا هذا، وإن كان ابن تيمية رحمه الله المشهور عنه والمعروف عنه أنه إمامٌ في التفسير وله مشاركات في غيرها، يعني هو أعظم ما يكون مفسراً، وأصلاً علمه الذي بز به وظهر به على أقرانه واشتهر به هو التفسير، ومع ذلك كان رحمه الله يُسأل لماذا لا تكتب كتاباً في التفسير؟ كان يُسأل لماذا لا تكتب كما كتب غيرك؟ وكتب بعض تلاميذه كما كتب ابن كثير رحمه، وإن كان لم يجلس أمامه مدةً طويلة لكنه من تلاميذه الذين أخذوا عنه وحضر جنازته، فكتب كتابه، فكان يقال له لماذا لا تكتب كتاباً في التفسير؟ فيقول: «إن ما يوجد في كتب أهل العلم هو كافي، ولا نحتاج» ومكث سنين وهو يفسر سورة «نوح» على المقعد بعد صلاة الجمعة يجلس في مسجد دمشق وليس على المنبر يُوضع له مجلس بجانب المنبر ويدرس ويشرح سورة يوسف، ومكث سنين وهو يفسر هذه السورة، ولا شك يشرحها على طريقته فيما نراه من كتبه، ففي كتبه لو جمعت تفاسير في وقوفه مع السور والآيات لرأينا عجباً.

المهم هنا يوجد فوائد في هذا الكتاب، وأنا أعتقد أن هذا الكتاب هو آخر ما كتب من كتبه وهو «تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء» -انتبه لهذا العنوان الطويل لأهميته- يقول: «تفسير آيات اشكلت على كثير من العلماء حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير فيها القول الصواب، بل لا يوجد فيها إلا ما هو خطأ»، طبعًا هذا العنوان مأخوذ من بعض ألفاظ ما ذكره في الكتاب، يعني هذا العنوان مأخوذ مما ذكر في الكتاب.

لما جاء موضوع الحسنة والسيئة هذا من المواضيع التي اختلف فيها طوائف أهل الإسلام، الحسنة والسيئة، يعني إلى الآن الناس يتساءلون، ففي الحديث: (إن الله عز وجل يغفر الصغائر ما لم تؤتى الكبائر)، وحديث آخر يقول: (الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إلى الجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ ما بيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الكَبَائِرَ)، فلو إنسان زنا فصلى ورأى نظر أو قبّل، في الحديث لما قبّل، قال صلى الله عليه وسلم: (إن الحسنات يذهبن السيئات)، الرجل لما قال قبل، فقال له: (قم فقد غفر الله لك فإن الحسنات يذهبن السيئات).

طبعاً بلا شك هناك مسألة أخرى هل السيئات تذهب الحسنات؟ بعض أهل العلم أستعظم هذا ورأى أنه لا يقول هذا القول إلا الخوارج وهذا غلط، وشرح هذا وأفاض فيه ابن رجب في شرحه على صحيح البخاري، وهو نفس عنوان كتاب ابن حجر اسمه «فتح الباري»، وابن حجر اعترف أنه أخذ هذا العنوان «فتح الباري» منه، فهل السيئات تذهب الحسنات؟ الجواب: نعم، وبعض أهل العلم خوفاً من دين الخوارج ومذهبهم زعم أن السيئات لا تُذهِب إلا إذا كانت شركًا، مع إنه في الحديث يذهبن، حديث: (من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله)، كما قول عائشة: «أخبروا زيد أنه قد بطل حجه وجهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم»، لما أفتى بالصرف، فإذن السيئات وإن لم تكن شركاً تُذهِب الحسنات.

الآن نحن أمام هذا لو أن رجلاً نظر –كما في الحديث– نظر إلى محرم أو قبّل امرأةً أجنبيةً عليه، فذهب فتوضأ وصلى هل تُسقط الصلاة إن أحسن فيها –شرط الإحسان فيها– إن أحسن فيها وأحسن الوضوء كما هو في الحديث وأتى المسجد فصلى، الحديث يثبت أن هذه الصلاة بهذه الصفة وهذه الهيئة تسقط هذا الذنب لأنه لم يأتي الكبيرة، طيب لو أنه زنى فأتى بعد ذلك بهذه السيئات، هذه مسألة.

مسألةٌ ثانية: لو أنه رابَ أتى الكبيرة أكل الربا، ثم أتى سيئة لا علاقة لها بالربا، كما ضربنا ونعيد المثل: نظر إلى امرأة محرمة عليه أجنبية أو قبّل امرأةً أجنبية وهو أكل الربا هذه المعصية من النظر إلى المرأة ومن القبلة لا علاقة لها بالربا.

الحالة الأولى: زنى فنظر وقبل وزنى، فأتى بالكبيرة وأتى بالصغائر ولكن هذه الصغائر لها علاقة بماذا؟ بالكبيرة.

الحالة الثانية: أتى بالصغائر وأتى بكبيرة لا علاقة لها بهذه الكبيرة كما ضربنا، رجل راب وأتى بصغيرة من الصغائر مثال ما ذكرنا فهل في الحالة الأولى الصلاة تكفر الصغيرة، وهل في الحالة الثانية نفس الأولى، في الحديث يقول: (ما لم تؤتى الكبائر)، أي لو أنه أتى بهذه الكبيرة وأتى بالصغائر اللاحقة بها فالحديث لا يغفر له، طب لو أتى بالكبيرة وبالصغائر لا علاقة لها بهذه الكبيرة، هل تكفر الصغائر؟ أم ما لم تؤتى الكبائر على إطلاقها؟ الكلام عن حديث: (من قال: لا إله إلا الله مخلصاً بها قلبه دخل الجنة).

هذه الآية التي بين أيدينا هي مما أشكلت على بعض أهل العلم، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١]، كيف وقف عندها ابن تيمية رحمه الله، سأقرأ كلامه، يقول هنا: «لخوف مقاربة مذهب الخوارج فذكروا السيئة هي الشرك»، قال: «لهذا المبدأ وليس للنظر إلى معناها الصحيح»، هنا هذه الدقة يجب أن نتعلمها في كلام أهل العلم بمعنى كيف؟ يمكن للرجل أن يقول صواباً بقواعد باطلة، فينبغي ألا يقّر على قوله الصواب وإن أصابه، لماذا؟ لأن قاعدة استنتاجه لهذا الصواب غلط، هل يمكن للبدعي بقاعدةٍ باطلةٍ بدعية أن يقول حقاً؟ نعم، ولكن لا يُقّر عليه؛ لأن قاعدته باطلة.

ومن هنا فالحديث الذي رواه الترمذي وحسنه بعض أهل العلم مع تضعيف الآخرين، (من قال بالقرآن برأيه فقد أخطأ وإن أصاب)، فالعبرة ليست بأنك تصيب، العبرة أن قواعدك صحيحة، فهل يمكن للرجل أن تكون قاعدته صحيحة ويأتي بعد ذلك فينزل هذه القاعدة فيُخطئ؟ هذا فعل المجتهدين من أمتنا كلهم، كل المجتهدين الذين يُخطّئون لأنه وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ قاعدته صحيحة، القاعدة التي بنى عليها واتباع الكتاب والسنة وقواعد أهل العلم ولكنه يخطئ، فمن الأقرب في ديننا أن تكون القاعدة صحيحة فيُخطئ المرء بها أو بإنزالها أم أن تكون قاعدته خطأ فيصيب، من هو الأفضل؟ الأفضل أن تكون القواعد التي بنى علمه ومذهبه واجتهاده عليه صحيحة، وإن أخطأ، لا أن تكون قاعدته خطأ ولو أنه أصاب في الفروع، هذه مسألة مهمة جداً في ديننا.

وهناك كلمة عظيمة لشيخ الإسلام رحمه الله يقول: «إن من مهمات العالم التي تمنع الاضطراب أن تكون قواعده صحيحة» تمنعه من الاضطراب وينسجم، وهذه الكلمة التي قالها كنت أعجب من كلام النووي ومن كلام العلماء عندما يأتون لابن حزم في فروعه الفقهية، وكنت مما استغرب منها في بداية الطلب، وأقول: كيف يتهم هؤلاء العلماء ابن حزم بأنه مضطرب في أقواله، وفي الحقيقة لما المرء خرج عن طرق التقليد وتعظيم الأسماء الجديدة بعيداً عن طرق الأئمة الأربعة ومذاهبهم أدرك هذا، ولذلك من الأوراق التي جمعتها وضاعت للأسف وهو أن ابن حزم يقول في كثير من أقواله بالقياس دون أن يدري، وتضطرب أقواله وتتعارض وهو لا يدري لأنه يجري مجرى الظاهر ولا ينظر إلى أصول القواعد، بخلاف الأئمة، الأئمة وإن أخطأوا ولكن قواعدهم صحيحة.

وطبعًا أنا لا أصل إلى القول: بأن ابن حزم قواعده باطلة هذه كلمة كبيرة، ولكن فرق بين من تتحد أصوله لدرجة التماهي، وبين أن تضطرب أصوله ولو اضطربت يسيراً، فالأئمة الأربعة أصولهم واحدة، وقول العالم تضطرد أصوله وقد يخطئ في الأصل، يعني حتى أتوسع فيها، أعجبني كلام ابن تيمية رحمه الله عندما يتحدث عن الاستحسان عند الحنفية، أنا أتحدث حتى عن الشيوخ وكبار الشيوخ، والذين درسنا عليهم الأصول، عندما يأتون إلى مبحث الاستحسان في أصول الفقه تجد كلاماً عجيباً، أن الاستحسان الذي يقوله الحنفية يقوله كل العلماء، ما هو الاستحسان؟ يقول: «الاستحسان وهو خروج الفرع عن قاعدة الأصل لقرينة»، مجمل ما يقولونه هذا، ماذا يعني؟ يقولك الأصل يمشي هنا فتأتي قرينة تمنع إلحاق هذا الفرع بهذا الأصل، فهذا الفرع بسبب هذه القرينة التي أخرجته عن الأصل يقال: استحسن، وأما القول بالاستحسان على معنى التشهي فلا يقوله عالم، هذا كلامٌ طيب وكل العلماء يقولونه.

بمعنى، مثلاً: المزابنة مجمع على تحريمها، وهو بيع التمر بالرطب جزافًا، بيع تمر كيلاً برطب جزافًا محرم، هذه مزابنة لا تجوز، وكلهم يقولون: بجواز بيع العرايا، العرايا خروج من المزابنة، خروجٌ منها، إذن الاستحسان بهذا المعنى، أخرجنا العرايا عن المزابنة فهذا استحسان، طيب هذا استحسان يقوله كل العلماء فإذن الاستحسان على هذا المعنى لا يختص به الأحناف يقوله كل العلماء، وأما الاستحسان على معنى التشهي فلا يقوله عالم حتى الأحناف، إذن أين هذا الاستحسان الذي تكلم عليه الشافعي وعاب على الخصوم وهم أهل الرأي، عاب عليهم القول به، فقال: «من استحسن فقد شرع»، إذن الشافعي لا يتحدث عن الاستحسان بهذا المعنى وهو خروج فرع عن أصل لوجود قرين، لا يتكلم عنه؛ لأن هذا يقوله الشافعي رحمه الله ويقوله كل العلماء، إذن يقول عن الاستحسان المذموم، ما هو؟ طيب الاستحسان بمعنى التشهي أن يقول الرجل من جهة رأيه وهو لا يتصور أن عالماً يقول به، يقول: هذا يعجبني، هذا أحب إلي، على معنى مخالفة الشرع، هل يتصور أن أبا حنيفة رحمه الله قاله؟!!

طيب هذا الاستحسان على معنى التشهي وهو القول بالرأي مجرداً لا يقول به عالم، والاستحسان الذي يُمدح به ويقوله الأحناف في كتب الأصول يقوله كل العلماء، إذن ما هو الاستحسان الذي عابه الشافعي رحمه الله على فقهاءٍ يقولونه في عصره، ما هو؟ لم أجد هذا الجواب إلا عند ابن تيمية رحمه الله، لم أجده إلا عنده، أن الاستحسان هو كالتالي: وهو أن يصحح الفقيه أصلاً يبني عليه فروعه وإن خالفت الدليل.

مثال: الأحناف يأتوا ويقولوا: نهى رسول الله عن بيعٍ وشرط، يجعلونه أصلاً وهذا الحديث لا يصح، هذا الحديث لا نريد أن نقول: موضوع، نقول: ضعيف جداً، وحكم عليه بعض أهل العلم بالوضع، لكن الأحناف يصححونه فجعلوه أصلاً، نهى رسول الله عن بيع وشرط، فجعلوه أصلاً، ففرعوا عليه فروع خالفت أصولاً وخالفت نصوصاً فصار هذا هو الاستحسان.

اريد أن أقول أرجو بهذا التوسع أن نعلم أن بعض أهل العلم وقعوا في أخطاء في كتب التفسير، أرادوا بها الخير مع أنهم أصابوا فيما انتهوا إليه ولكن قاعدتهم غير صحيحة، ماذا يُقصد بهذا؟ نأتي إلى كلامه، هنا يُخاف ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، لو جعلنا كلمة سيئة مطلقة، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾ [البقرة: ٨١]، أول ما يطرأ على ذهن القارئ لها إن أعمل على ظاهرها أنه صار على مذهب الخوارج، أن الكبائر تُخلد في النار، فلخوف الفقيه أو المفسر من أن يطرأ هذا المعنى على ذهن القارئ في كتابه الذي أنشأه لتفسير هذه الآية، فإنه لا يذكر من أقوال السلف إلا القول الذي يخرج هذا المعنى الذي يشير إلى مذهب الخوارج، هذه طريقة ينبهنا عليها ابن تيمية رحمه الله في بعض كتب أهل التفسير.

أعيدها لأهميتها، هذه الآية بظاهرها عند البعض تشير إلى مذهب الخوارج، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، أي كثرت معاصيه حتى أحاطت به، ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾، مقابل من؟ مقابل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾، فمخافة الوقوع في هذا الاعتقاد يقول ابن تيمية: «يأتي المفسر فيسقط تفسير السلف –مرويات– تفسير السلف لهذه الآية بهذا المعنى، فلا يُبقي في تفسيره إلا: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ هي الشرك»، يقول ابن تيمية: «إبقاء هذا التفسير حق»، أي قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، هو الشرك، هو حق، «لكن الذي فعله بإسقاط تفسير بعض أهل العلم للسيئة أنها المعصية والكبيرة هذا ما لا ينبغي»، وهذا أمرٌ عجيب!!

يعني أنت ذهبت إلى محكمة، وعندك أدلة هي لك، الحق معك، وهناك أقوال وأفعال أنت تخفيها فبدل أن تشرحها على وجهٍ صحيح أو أن تضاعفها، ماذا تفعل؟ تسترها، يقول: «هذا فعلٌ لا يمدح»، المطلوب

هو منك إذا كانت موجودة على الحقيقة أن تفسرها تفسيراً يلائم الحق، وإما أن تضاعفها فتردها أنها غير صحيحة، ولكن لا تخفيها.

هذا يدلك أيها الأخ الحبيب على أنه لا يوجد في الدنيا أعدل من أهل السنة، ولا يوجد في الدنيا ما هو أعظم من الحق، أذكر الأمور كما هي، الروايات الباطلة أذكرها، الروايات الحق أذكرها، كل ما ورد أذكره بين يديك، ضعه أمامك لا تهرب، الذي وّجد بين يديك من الروايات والمقالات ضعها بين يديك، فضعف ما شئت إن كان ضعيفاً، وأوّل ما شئت أن كان يحتاج إلى تأويل موافقةً للأصول الشرعية التي جاءت بها القواعد الشرعية، افعل هذا، وإياك أن تأتي فتخفي على القارئ ما هو موجود، حتى ولو كان باطلاً أظهره، قل: هو موجود نعم ولكنه باطل، لماذا؟ لأن هذا الدين لا ينمو إلا تحت الشمس، والعالِم لا ينشأ إلا مع الحقائق، بعض الناس يخفي حقيقة على ابنه فيكتشفها بعد ذلك فتدمره.

عائشة بنت الشاطئ عائشة عبدالرحمن، دخلت على أبوها –وأبوها من العلماء– وهو يقرأ كتاباً فلما رأها أخفاه، لما رأت الكتاب أخفاه فبقيت متعلقة بهذا الكتاب باحثةً عنه حتى كبرت وأخذت فيه رسالة الدكتوراه، لا تُخفي عن الناس، ابنك لا تخفي عنه الحقيقة، جماعتك تنظيمك لا تخفي الحقائق، هذا قالوه: كذا وكذا، وكذا، فإما أنه باطل فترد عليه أنه باطل تثبت بطلانه، مثلاً حديث ضيف فيه كذاب، تذكره، ولذلك علماؤنا ما أخفوا شيئاً، تجد كتبًا من الموضوعات، موضوعات مكذوبة موجودة تذهب إليها فتجدها موجودة، والعلماء يحكمون عليها بالوضع، وتجد روايات صحيحة لكنها تحتاج إلى إعمالها بحسب قواعد الشريعة، أما أن تخفي هذا لا يجوز، ديننا لا ينشأ مع الرطوبة، الرطوبة تُنشئ الديدان والقاذورات والأوساخ، تحت الشمس تكون الأمور واضحة وبينة وجلية وظاهرة وكما هي، فينبهنا ابن تيمية لهذا.

وأنا أريد أن أقرأ لكم هذه الكلمة القليلة في حروفها التي احتاجت منا إلى شرح مطول، انظر إليه، تقدم الكلام ولم أقف عنده لأنه يحتاج إلى شرح مطول وربما نأتي إليه وهو موضوع الأسماء والأحكام لما تكلمنا عن قضية الكبيرة حتى يتوافق، فيقول ابن تيمية عندما بدأ في هذا المبحث، مبحث علاقة الذنوب ومتى توبق المرء، وما هي الذنوب التي تعفى، وكيف أن كلمة التوحيد تدخل الجنة ابتداءً وكيف تدخل الجنة انتهاءً، أي هناك أحاديث كحديث (وإن زنا وأن سرق)، على ماذا تبين؟ تبين على أنه يدخل الجنة في نهاية

الأمر أم في بداية الأمر، طيب هناك أحاديث تدل على أنه من قال: (لا إله إلا الله مُخلصاً بها قلبه دخل الجنة)، هل يأتي على ذهن المرء أنها تدخله الجنة ابتداءً دون أن يدخل النار، دون أن يعذب؟ يقول أهل العلم: نعم، لماذا؟ لأنه لا يمكن أن يكون مخلصاً بها قلبه إلا وقد أحرقت الذنوب ولم يبقى له من الذنوب، بخلاف قوله: (وإن زنا وإن سرق)، فإنه يبقى معه من الإيمان ما ينجيه بعد أن يتطهر من ذنوبه في النار، هذه مسألة من مسائل الأحكام وكذلك فيما ذكرناه في موضوع الكبيرة.

نبقى في موضوع هذه الآية في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، لما تقدم من كتب التفسير، منهجية كتب أهل العلم، يقول: «قلت: الصواب ذكر أقوال السلف»، هذا المجلد الأول من «تفسير آيات اشكلت ... بقية العنوان»- «الصواب ذكر أقوال السلف وإن كان فيها مرجوح -لازم تذكرها- فهي أولى من ذكر أقوال المتأخرين، وإن قدر أن ذلك القول ضعيف»، حتى لو كان قول السلف ضعيف اذكروه، «فالحجة تبيّن ضعفه ما تخفي»، الحجة تبيّن ضعفه اشرحه، ما الأولى أن يخفيه فلا يعلم إذا وقع بين يدي طالب من جاهل مبتدئ فتصنع عنده ضلالة وبدعة، أم أنك تظهره ابتداءً وتبيّن وجهه، ما الأفضل؟ الأفضل أن تظهره ابتداءً وتبين وجهه، «فالحجة تبين ضعفه، فلا يعدل عن ذكر أقولهم -أي أقوال السلف- لكونها قد وافقها قول طائفةٍ من أهل البدع، فنذكر ضعفها ونبينه بالحجة».

طبعاً هو يأتي بعد ذلك إلى هذه الآية ويبيّن ما هو الوجه، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ يقول: ما هي السيئة هنا؟ يقول: «ورد عن كثير من السلف السيئة هنا الكبيرة»، موجود وإذا راجعت كتب التفسير وجدت هذا، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، أي كبيرة، قال: «﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، أي التفت به المعاصي من كل جانب»، الكبيرة والمعاصي إذن الصغرى، الكبيرة وقال بعضهم: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي الظاهرة، ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، أي الباطنة، هذه موجودة في أقوال السلف، فإذن ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، أي كبيرة ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي الصغائر، ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾، إذن هذا مذهب الخوارج، مذهب الخوارج أنه من أتى وعمل الصغائر فذلك أصحاب النار، فالحديث عن من؟ الحديث عن بني إسرائيل، الحديث عن أناس قد آمنوا بأصل الشريعة، فهذا قولهم، يقول: «هذا ضعيف، والصواب وإن ورد عن السلف، والصواب ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، أي الشرك والكفر»، قال: لماذا؟ لأنه جعل المقابل لها، نحن نعرف «الواو» لا تفيد الترتيب، لا تفيد إلا التغاير، يعني لا يجمع بين

شيءٍ واحد هو ونفسه لا يُجمع، جاء عمر وعمر لا يصح إلا إذا كان عمر الثاني هو ليس الأول، والتغاير لا يعني المغايرة من كل وجه، يعني نحن نقول: الله خلق السماوات والأرض، فالسماوات غير الأرض بتغايرٍ تام لكن قد تقول: الإسلام والإيمان والإحسان، والمعروف أنه لا يكون المرء محسناً إلا إذا كان مؤمناً، ولا يكون مؤمناً إلا إذا كان مسلماً، فهنا التغاير في المرتبة، مع وجود بعض الاختلاف، يعني الإحسان فيه شيءٌ ليس في الإيمان، وفي الإيمان شيءٌ ليس في الإسلام، فهذا تغايرٌ في المرتبة.

فلما قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، إذن السيئة غير الخطيئة «الواو» أفادت التغاير، إذن هنا ماذا؟ هنا ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، أي الشرك، ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ وفي قراءةٍ أخرى مشهورة: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ﴾، أي أحاطت به، يقول: إذا أحاطت به، أي ليس له حسنة، لأن المؤمن إذا عمل حسنة لابد أن تزيل بعض خطيئاته فلا تحيط به، فلو أنه أتى بالشرك وأحاطت به خطيئاته بعد ذلك ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، هذا وجه.

وهذا على أن الأقوال الأخرى ضعيفة ومردودة ومرجوحة، فلو صحت هذه الأقوال، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، بمعنى السيئة الكبيرة، لو صحت هذه، ما هو وجه التفسير فيها؟ لأنه ينبغي حتى لو كان القول ضعيفاً أن يحمل على معنى صحيح، وهذه طريقة عظيمة من طرق علمائنا، يعني يأتي للحديث وهذه الطريقة ابن تيمية كثيراً يستخدمها في منهاج السنة، يكون الحديث ضعيفاً فالأصل أن ينبذ لأنه أثبت العرش ثم أنقش، ويقول العلماء: «التأويل فرع التصحيح»، أولاً: لا ينبغي أن تقوم بعملية التأويل والحديث ضعيف، خلص رده ضعيف وانتهى الموضوع، لكن العلماء لا يقبلون هذا فقط، يعني يضعفونه فيبنون القول الصواب على استبعاده.

فلو افترضنا أن هذا صحيح، ماذا يفعلون؟ يبدؤون بتأويله مع افتراض صحته، وهذه مرتبةٌ متقدمة في العلم، يعني يقول: هب أنه صحيح، فوجه استدلالك به باطل وهو لا يخالف دين الله في ما تقرر من الصحيح، هب أن هذا القول صحيح، وهو ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، يعني كبيرةً، ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، بهذا المعنى ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، قال: القرآن لم يقل فيها خالدون أبدا، لم يقل هذا من كلامهم، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ

وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾ [النساء: ٩٣]، فقال: «الخلود هنا طول المكث وليس الأبد»، الخلود هنا طول المكث، وليس الذي فيه الاستقرار وعدم الخروج.

وجهٌ آخر من وجوه تفسيرها ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، على المعنى الثاني الذي هو مردود وضعيف ومرجوح، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، عندي هذه الآية تبيّن كفر المآل على هذا الوجه الآخر، كيف؟ ما هو كفر المآل؟ وللأسف هذا الكفر كثير في الوجود، لكن الكلام عليه قليل، وهو ما قاله السلف: «إن المعاصي بريد الكفر»، ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾، كسب سيئة كبيرة وعمل المعاصي وعمل، وعمل، كما قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الروم: ١٠]، في الحديث وشرحه ابن تيمية هنا في هذا الكتاب، ألا يوجد من تكثر عليه المعاصي من أمة محمد حتى إذا جاءه الموت عرض عليه الشيطان الكفر، فكفر، هذا كفر المآل، يعني هو لم يكن كافراً بها لكنها أوصلته إلى الكفر، هذا الفعل وهذا العمل من المعاصي ليس كفرًا، ولم يكفر به المرء، لكنه ماذا عمله؟ حمله إلى الكفر، لكن هذا العمل حمله إلى الكفر، وهذا كفر المآل يقع كثيراً من الذين يعملون المعاصي ثم عند الموت يكفرون ويخرجون من الملة، هذا كفر المآل، وإذا أحاطت به خطيئته، دل على أنه لم يعمل خيراً، إذن هذا هو ما يمكن أن تحمل عليه هذه الآية من الوجه الحق الأقوى أنه ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي الشرك لأنها قابلت الخطيئات، فالمعاصي بدون تحديد هل هي خطيئات كبرى أم صغرى لم تبيّن الآية فدل على أنها محتملة للأمرين الصغرى والكبرى فدل أن السيئة هي شيءٌ آخر وهي الشرك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾ [البقرة: ٨١-٨٢]، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس والستون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس السادس والستون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)﴾ [البقرة: ٨٣].

هذه الآية كما نرى أيها الإخوة الأحبة فيها التفات فقد تقدم أن الخطاب كان يجري سابقاً مباشرةً لبني إسرائيل، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾، ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، كان الخطاب لهم مباشرة، هنا التفت إلى خطاب الغياب، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وهذا من التنوع كما يقول أهل البلاغ، من التنوع حتى لا يحصل الملال، ولأن الخطاب السابق كان كله حديثٌ عن الآيات الكونية في تذكير الله عز وجل بني إسرائيل بنعمه عليهم، وأما الآن فقد جاء الخطاب إلى ما أمر الله عز وجل بني إسرائيل من التشريعات فهذه الآية حاوية للتشريعات التي شرعها الله عز وجل على بني إسرائيل وأمرهم بامتثالها، فكان الحديث عن نكرانهم والحديث عن تلاعبهم بالشريعة، الحديث عن تحريفهم للكتاب على وجهين، الحديث عن محاولاتهم للخروج عن الأمر الشرعي كما في قصة البقرة إلى غير ذلك مما تقدم ذكره، والآن الخطاب الرباني لهم بتذكيرهم مما أمرهم الله عز وجل به وماذا جروا مع هذا الفعل في قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)﴾.

وهنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، والميثاق كما تقدم في الآيات الميثاق هو العهد، أي أخذ الله عز وجل العهد على بني إسرائيل، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وتقدم من هم بنو

إسرائيل، هم أبناء يعقوب عليه السلام، وإسرائيل من الأسر، اللغة التي تسمى بالعبرية هي لغةٌ من اللغات العروبية التي تسمى عند علماء اللغة على ما في هذا التقسيم من ملاحظات شديدة هي لغة قريبة من العربية، وهي لغة سامية وأصولها وجذورها الكثير منها يمت إلى العربية، فإسرائيل من الأسر، والأسر هي العبادة، يعني العبد مأسور مقيد، فإسرائيل يعني عبد الله، والجبر هو من القوة، فجبرائيل من القوة، وميكائيل هو من الكيل، وهكذا فإسرائيل هو معناها عبد الله عز وجل وإيل هي لغةٌ عربية، الإل هو الإله، ووردت في كلام العرب كما وردت على لسان الصحابة رضي الله عنهم، كما قال أبو بكر رضي الله عنه عن قرآن مسيلمة الكذاب، قال: «هذا كلامٌ لا يخرج من إل» يعني من إله، فإل هي لغةٌ عربية لا شبهة فيها، والأسر هو من القيد والعبد مقيد فهو عبد الله.

فأخذ الله عز وجل ميثاق بني إسرائيل، وهذا الدليل في خطاب الله عز وجل على بني إسرائيل أن اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم هم يمتون إلى إسرائيل بنسب، يعني اليهود زمن النبي صلى الله عليه وسلم ليسوا فقط يهوداً من جهة الدين ولكنهم كذلك من نسل إسرائيل، وإن كان اليهود بعد ذلك دخل فيهم من غيرهم، يعني عامة اليهود اليوم من يهود الخزار، وهؤلاء لا يمتون إلى بني إسرائيل بصلة نسب، هم يهود تهودوا وكثير من القبائل الغير إسرائيلية تهودت، فدخل فيهم ما ليس من بني إسرائيل وإن كان أساس هذا الدين، في أساس وضعه المغير والمبدل أنه دينٌ عنصري، هم يتعاملون مع الشعب، يعني مع نسل لرجل أنهم هم الذين اختارهم الله وفضلهم وجعلوا هذه الفضيلة بلا ضابط وبلا تكاليف، كما هو شأن الضلال.

ولذلك هنا ننبه على أمر ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، الكثير من الناس اليوم يسب إسرائيل، ويسب الأنبياء وهذا من الباطل، يعني بعض الجهلة يفتخر أن فيها قوماً جبارين وهؤلاء في القرآن هؤلاء كفرة، فالله أمر بني إسرائيل أن يقاتلوا الجبارين، ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨]، الله أمرهم أن يدخلوا هذه القرية فيقاتلوا هؤلاء القوم، فهم سموهم قومًا جبارين ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢]، صدقوا أو كذبوا، وسكت القرآن عن ذلك لأنهم أصحاب قتال، وإن كان القرآن يثبت أنهم سيكونوا جبناء في الحرب، فقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فبمجرد الدخول ستغلبونهم، دل على أنهم ليسوا بما وصفهم بنو إسرائيل بهذه الصفة أنهم جبارون.

فالقصد: أن البعض ينتسب حتى للكفر، والأصل هو الانتساب الإيماني، يعني إسرائيل عليه السلام هو نبي من أنبياء الله ولا نفرق بين أحدٍ منهم، نحن من أتباع هؤلاء الأنبياء جميعاً ونحن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو أخ هؤلاء الأنبياء، وقال صلى الله عليه وسلم: (الأنبياءُ إخوةٌ لعَلَّاتٍ؛ أمَّهاتُهُم شتَّى ودينُهُم واحدٌ)، أي أبوهم واحد وأمهاتهم شتى، الأنبياء أبناء أبٍ واحد أي نسبهم يمتد إلى أبٍ واحد، الأنبياء فيهم النسب، ولكن أمهاتهم شتى من أقوام مختلفة.

فالله عز وجل أخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل وتكرر هذا الأمر في القرآن أن الله أخذ الميثاق، وسيأتي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] وتقدم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣]، فتقدم هذا العهد والميثاق بهم، وهذا تنبيه على أنهم كانوا يأتون بهذا العقد ويوثقونه وهو الميثاق، والميثاق من الثقة أو الإيثاق وهو الربط الشديد، والثقة لا تنشأ إلا مع وجود الربط الشديد على أمرٍ معين بين رجلين أو بين شخصين.

فالله أخذ الميثاق على بني إسرائيل ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، ﴿لَا﴾ هنا الأصل أن تكون ناهية، أي لا تعبدوا إلا الله والفرق بين «لا» الناهية و«لا» النافية أن «لا» الناهية هي أشبه بالأمر ولذلك يكون ما بعدها إذا كان مضارعاً يكون مجزوماً، فأنت تقول: لا تفعل، أمر، فيقع عليه الجزم، فلذلك لو قلت لجماعة: لا تفعلوا، فهذا أمرٌ ومخالفه هو النهي، إذا كان أمر افعل وإذا كان نهيٌ لا تفعل، فهو هذا ظاهره أنه الأصل أن يقع على معنى النهي، ولكن هنا لم يأتي الجزم، فقال تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾، فدل على أنه خبر إذن هو نفي وليس نهي، إذن هو خبر، لو كان أمراً لقال: وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدوا إلا الله، ولكنه وقع هذا في إحدى القراءات، موجودة قراءة ابن مسعود هكذا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾،

فلماذا وقع هنا الأمر مع أنه أمر ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ﴾، وقع هذا الأمر على صيغة الخبر هذا كثيرٌ في القرآن وفي السنة، أن يقع الأمر على جهة الخبر، لماذا؟ لأنه أوثق أنواع الأمر والنهي، كقوله صلى الله عليه وسلم (إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِن هَا هُنَا، وأَدْبَرَ النَّهَارُ مِن هَا هُنَا، وغَرَبَتِ الشَّمْسُ

فقَدْ أفْطَرَ الصَّائِمُ)، قوله: (قد أفطر)، هو قال: أفطروا، هو أمرٌ بالإفطار لكن دل هذا على أعلى درجات فكأنه أمرٌ مستقر ومقضيٌ به، فلذلك هو أمرٌ على صيغة الخبر وهو أعلى درجات الأمر كما هو معروف.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وفي القرآن قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فاقتران أمر عبادة الله عز وجل وتوحيده وألا يعبد إلا هو مع طاعة الوالدين ورد في القرآن هنا، وورد في سورة «الإسراء» قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ووقع في سورة «لقمان» قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ [لقمان: ١٣-١٤].

وبعض أهل العلم ذكر لماذا جاء الأمر الإلهي في سورة «الأحقاف» في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، قال: هذا في سياق الأمر الإلهي في توحيده، أن الذي ينقض توحيد الله عز وجل فلا يعرف فضله، هو أولى بأن ينقض بر والديه وهما أصل الإحسان والوجود، لماذا يقع هذا الاقتران بين الأمر بعبادته جل في علاه وحده، وألا يعبد إلا هو، والأمر بطاعة الوالدين، لماذا؟ لأن الله عز وجل هو المنعم في الإيجاد وطريق هذا الإيجاد الإنساني هو الوالد والوالدة، من المنعم في إيجادك من الذي خلق؟ الله عز وجل، فما هي وسيلة إيجادك في هذه الحياة؟ الوالدان، فلذلك اقترن هذا بهذا، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من لم يشكر الناس لا يشكر الله)، أي صفة الشكر هي صفةٌ أصيلة لا تتجزأ، قال صلى الله عليه وسلم: (خيركم، خيركم لأهله)، الأخلاق لا تتجزأ في ديننا، فإذا تجزأت؛ حمل معنى التجزؤ على الهوى وعلى عدم الإخلاص في الفعل.

فلو قال قائل: كيف هذا الرجل يحسن إلى جيرانه ولا يحسن إلى والديه؟ إذا لم يحسن إلى والديه وهم أقرب الناس إليه وأحسن لجاره دل على أن هذا الإحسان ليس فيه الإخلاص هناك مصلحة، وليس لخلقٍ أصيلٍ في الإحسان في هذا الإنسان، فلو وجد فيه صفة الإحسان على المعنى الصحيح لكان أولى الناس بها والديه، فالأخلاق لا تتجزأ، فإذا تجزأت تخلا منها هذا المعنى ودلت على عقلٍ ما، على طريقةٍ ما، إيجادٍ ما.

مثلاً: الرجل حين يسيء إلى أهل بيته، وقال صلى الله عليه وسلم: (خيركم، خيركم لأهله)، هذه أخلاق، فيكون سيء الأخلاق في بيته ويكون حسن الأخلاق إذا كان تاجراً، على ماذا يحمل حسن الخلق

هذا؟ ليس على أنه صفة أصيلة في هذا الإنسان، وليس على أن هذا الإحسان وهذا حُسن الخلق مَلَكة من مَلَكات النفس، لأنها لو مَلَكة لم تتجزأ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله)، من أولى الناس بشكره؟ هنا الشكر أن يرى نعمة هؤلاء عليه، وفضلهم عليه، أن يرى نعمة والديه وفضل والديه عليه، ولذلك أولى الناس بالشكر هم الوالدان، فإذا خلا هذا المعنى دل على فقدان هذه الصفة أصالةً من الإنسان، فإذا فعلها، يقول: كيف نرى أناساً يحسنون إلى الناس، ويسيئون إلى والديهم؟ فنقول: هذا ليس بسبب الإحسان النفسي، ليس بسبب خُلق الإحسان في النفس، هذا لأمرٍ آخر فيه مصلحة، خلا عن معنى الإخلاص وعن وجود هذه الصفة على وجهها الصحيح.

فإذن اقتران عبادة الله ببر الوالدين لهذا المعنى وفي هذا كذلك أمرٌ آخر وهو أن العبادة لله عز وجل قائمة على الشكر، ما هو الموجب لعبادتك لربك؟ هو نظرك إلى نعمته عليك، فالأساس الذي ينطلق به الإنسان في عبوديته لربه هو رؤيته أنه هو الموجد له وهو المنعم عليه، فإذا خلى هذا المعنى لم يحصل له كذلك النظر إلى نعمة والديه عليه، خلا هذا، فلذلك المعنى واحد في عبوديته لربه هو نفس المعنى في طاعته وإحسانه لوالديه، فلذلك جاء هذا الاقتران.

وفي ذلك معنى كذلك آخر وهو أن الإنسان يرتقي في معارفه، باب النظر إلى المحسن على معنى الشكر له يرقيه إلى المعاني العظمى، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، فالأخلاق الأصيلة تقود إلى ما هو أعلى منها، فإذا وجد في الإنسان بره لوالديه طاعته لوالديه رقت به إلى نظره إلى من يحسن إليه، ومن هو المحسن الأول، وهو الله عز وجل، فترقى معانيه، انظر هذه الأخلاق ترقى من معانيها الفطرية، يعني الإنسان مفطور على بره بوالديه، فما هو المطلوب منه؟ أن ترقى بعد ذلك معرفته بمعنى الإحسان الذي وقع من ولده عليه، لأنه من هو المحسن الأول؟ من هو الذي وفقه لوجود والديه عليه؟ من الذي وفق والديه ليكونا بهذه الرحمة عليه؟ فترتقي هذه المعاني إلى معنى المحسن الأول.

وفي ذلك يقول علماؤنا: كل شكرٍ لمنعمٍ في الوجود إذا تدبره المرء ارتقت به إلى شكر المنعم الأول –كل حمدٍ هم يقولون ولكن الأولى أن نقول هذا اللفظ– كل شكر لمنعمٍ وقع عليك من أي موجودٍ في الوجود يرقى بك إلى شكر المنعم الأول، من هو المنعم الأول؟ هو الله عز وجل، يعني أنت يحسن إليك رجل، فمن

الذي وفق هذا الرجل للإحسان إليك؟ من الذي وضع في قلب هذا المحسن الرحمة في قلبه عليك؟ فترتقي معارفك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، هنا ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾، الناس عندهم وهو الأصل أن يقولوا: الوالد تطلق على الأب والوالدة تطلق على الأم، وجوزوا بلا تردد إلا من خالف البعض بأن الوالد تطلق كذلك على الوالدة، كقولهم عريس وعروس للرجل يصح، فالرجل يقال له: عريس وعروس، فيقال له: عروس وإن نفاه بعضهم ولكنها وردت في لغة العرب حتى أن الأصمعي ذكرها أنه سمع العرب يقولون: عن الرجل عريس، والعرب تقول: عن الرجل كذلك عروس، وكذلك الأم يقال لها والد ويقال لها والدة، بخلاف الأب لا يقال له: إلا والد لا يقال له والدة، وبعضهم نفى أن يكون هذا، ولكن هذا موجودٌ في لغة العرب أن يقال للوالدة كذلك والد، ولذاك الجمع بينهما الوالدين ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

وهنا تفصيلات تأتي على المعنى العظيم في هذا الباب وهو من أولى الناس ببرك؟ أمك، من أولى الناس بحسن صحبتي؟ الأم، يعني لو تنازع الأب مع الأم، لو تنازع برهما؟ فبرهما للضعيف، فبرك للضعيف أوّلى لضعفه، يعني أبوك صاحب حاجة بقضي حاجته، لكن إذا كان كلاهما على معنى الضعف فلابد أن تقوم بهما سواء، لكن إذا تنازعا فالأم أولى، لقوله صلى الله عليه وسلم لما سُئل: (من أولى الناس بحسن صحبتي)؟ قال: أمك، لماذا؟ مع أن الولد ينسب لأبيه، لماذا ينسب لأبيه؟ لأنه هو الزارع، الأم حالها هو كالأرض فقط، ولذلك هذه الدعوة المجرمة اليوم، الدعوة الشيطانية التي يقوم عليها بعضهم: بأننا علينا أن ننسب الأولاد لأمهاتهم، وهذا هو مدخل في الحقيقة يقوله هؤلاء الزنادقة، مدخل لقضية إسقاط الزواج الإسلامي، إسقاط العائلة الإسلامية، يعني هذه يفعلها من رأى أنه يجوز للمرأة أن تعاشر من شاءت فحينئذٍ لا ضرورة لمعرفة والده، والمرأة في بالنسبة للولد وبالنسبة للإنجاب دورها كالأرض وهذا علمياً، والأب هو الزارع فينسب إليه، لكن من أولى الناس بحسن الصحبة؟ هي الأم؛ لحاجتها لضعفها.

والقاعدة الإسلامية التي قالها عمر رضي الله تعالى عنه، قال: «المرء لحاجته»، أي كيف تقدم العطايا؟ وكيف تقدم الصدقات؟ وكيف تقدم المنح؟ «المرء لسابقته»، انظر للسابقة و«المرء لحاجته والمرء لبلائه»،

هذه قاعدة انظر هذا الفقه العظيم الذي استوعب الوجود، هذه كلمة للفاروق استوعبت كيف يقدم الناس؟ لا يقدم الناس –فكر فيها– لا يمكن أن تقدم إلا لهذه المعاني الثلاث أو لأحدها، المرء لماذا؟ «المرء لسابقته»، رجلٌ الآن ضعيف مسكين لكن لما تنظر إلى تاريخه وإذا هو صاحب بلاء وعطاء، فهذا يقدم على غيره فالمرء لسابقته، والمرء لماذا؟ لحاجته، الأبناء هذا مُحتاج وهذا غير محتاج، فتعطي المحتاج، وثالثاً: المرء لماذا؟ لبلائه، الآن ماذا يعمل؟ فبهذه المعاني تقدم.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، أي الأب والأم، والوالد يطلق على الأب فقط، ومع أن القرآن جمع الأب والأم بقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾، فقال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١]، فلما جمعهما قدما الأب لماذا؟ لأغلبيته، كما يقال: العمران، وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما لماذا جمع على عمر رضي الله عنه؟ قال بعضهم: لثقل أن يقول: أبا بكر رضي الله عنه، لثقلها، وقال بعضهم: لأن عصر عمر رضي الله عنه أطول بكثير، عاد عمر رضي الله عنه والأعمال التي تمت في زمانه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فلم أرى عبقرياً يفري فريه)، فلطوله فغلب عمر رضي الله عنه، فهكذا هنا غلب الأب فقال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾، لغلبة الأب، وأما الوالد والوالدة فإذا صح أن الوالد يطلق على الأب ويطلق على الأم فلا غلب لأحدهما على الآخر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِحْسَانًا﴾، ولم يقل: وبالوالدين حسنا، مع أنه قال ربنا عز وجل بعد ذلك: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ولهذا ذكر ولم يقل كما قال في –كما سيأتي– في سورة «الإسراء»: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]، فهنا قال سبحانه وتعالى عن الوالدين: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] ليس فقط في القول وهنا هذه السورة سورة مدنية، وسورة «الإسراء» مكية، فهناك جعل القول؛ لأنه إذا شدد في القول فباب العمل أولى، أي إذا نهي أن يقول: أف، فباب العمل أولى، وهنا قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] أطلقها، أي في القول والعمل والعطاء وفي كل شيء، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وهو مبالغةٌ في الحسن، والحسن هو تمام الشيء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة: ٨٣]، في سورة «النساء» الله عز وجل قال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]، فهناك كرر ﴿وَبِذِي﴾، ﴿وَذِي﴾، هنا قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة: ٨٣] لم يكررها، وفي سورة النساء كررها، لماذا؟ لأن سورة «النساء» -وهذا كله من النظر قد يصيب المرء وقد يخطئ- لأن سورة «النساء» قد ذكر فيها القربى كثيرًا والعلاقات، في سورة النساء ذكرت العلاقات المحرمة والعلاقات بين الأقارب وابتدأت في قضية إيتاء اليتامى أموالهم ثم إيتاء النساء النِحلة وهكذا، وإيتاء الإيتام أموالهم، وعدم مسابقة أكلها قبل أن يكبروا وذكرت قضايا الميراث والفرائض، فذلك كانت في سورة «النساء» خصيصة ذكر الأقربين أكثر، فتكرر الأمر بها، بخلاف هذه السورة، فهذه السورة ليس لذلك، إنما هي ليست حديثٌ عن علاقة الحكم بمثل هذه القرابات، إنما هي حديث عن بني إسرائيل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾.

﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾، هنا هي مطلقة يعني عامة، كل قرابةً لك يطلب منك الإحسان له، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى﴾، يعني أمرك بأن تحسن لذوي القربى، فأمرك كما تحسن لوالديك تحسن لذوي القربى، ومن ذوي القربى هو كل من مت إليك بقرابة، والقرابات في الشريعة، أولاً: ما جاءت عن طريق الرحم، ثم ثانيًا: ما جاءت عن طريق الرضاعة كما في سورة «النساء»، ثم ثالثًا: عن طريق النسب، هذه قرابات الشريعة وهذه على الترتيب، أولى درجات القرابة هي الرحم، وهي التي يتم بها إعطاء المواريث، يعني قرابة الرضاعة ليس فيها مواريث، قرابة النسب ليس فيها مواريث إلا الزوجة، لكن ليس هناك صلة في المواريث مع الأنسباء، لكن هذه قرابة، فهذه على الترتيب هذه القرابات، أعلى درجات القرابة هي ما متت إليك عن طريق الرحم، فتقدم القول وبعد ذلك القربى ممن مت لك.

فهل الجد يدخل في قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؟ الجواب: نعم؛ لأن الجد بمنزلة الأب، والجدة بمنزلة الأم، والإخوة والأخوات والبنات والأبناء هم من ذوي القربى، وهناك من ذوي القربى من يجب إيصال العطاء لهم، وهناك مَن، مِن الاستحباب أن تبدأ بهم، أن يضع المرء صدقته فيهم قبل غيرهم، لماذا؟ لأنهم

أولى الناس بإحسانك، لما جاء أبو طلحة رضي الله تعالى عنه ببيرحاء[١]، قال: يا رسول الله إني أحب إلي مالي، لما أنزل الله عز وجل: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، فجاء بأجود بساتينه وكان أبو طلحة ذي مال، وكان من أثرى الأنصار، كما يقول أنس رضي الله عنه –وأنس رضي الله عنه هو ابن زوجته أم سليم رضي الله تعالى عنها، ورباه أبو طلحة رضي الله عنه– قال: وكان أكثر الأنصار مالا، فجاء به ووضعه فقال يا رسول الله: هذا أحب مالي إليه أتصدق به، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ضعه في أقاربك)، فوزعه على أقاربه، فأولى الناس بالصدقة هم أقارب المرء؛ لأنه إذا كفاهم خير من أن يكفي غيرهم.

قال تعالى: ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾، وهنا ذو بمعنى صاحب، وذو في لغة طيء وهي لغة شمالية لا يحتج العرب بها، من طيء بسبب قربها من الأعاجم في الشمال، كانت قرية شمالية فلا يحتج بها، وذو عندهم بمعنى الذي، فيقال: جاء ذو قتل، أي جاء الذي قتل، وأما ذو بمعنى الصاحب وهي منها كما تعلمون من الأسماء الخمسة والأسماء الستة كما هو معروف.

قوله تعالى: ﴿وَالْيَتَامَى﴾، يقول العلماء: «اليُتم في الإنسان من جهة الأب، وفي غيره من جهة الأم»، يعني في الحيوانات والدواب اليتم من جهة الأم، وأما اليتم في جهة الإنسان فقط من جهة الأب أي إذا فقد الإنسان أمه لا يسمى يتيماً، لا يكون يتيماً إلا إذا فقد أباه، ولا يكون يتيماً إلا قبل البلوغ ولا يقال: بعد البلوغ يتيم، وقالوا: اليُتم من الانفراد، أصلها من الانفراد، شيءٌ يتيم أي منفرد لا مثيل له، لا يشاركه غيره، فلأن اليتيم انفرد عن أبيه سمي يتيماً، وقال بعضهم: اليُتم لا، ليس من الانفراد، ولكن أشياء أخرى ذكروها، لكن هذا أشهرها أن اليتم من الانفراد، فهذا معناه ﴿وَالْيَتَامَى﴾، أي أمرنا الله عز وجل أن نحسن إحسانا بالوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين.

ومعروف الكلام عن المساكين، والعلماء يفصلون فيها في سورة «التوبة»، لأنها من مصارف الزكاة فهناك يأتي التفصيل في المساكين، وما الفرق بين المسكين وبين الفقير ومن هو أشد، والأغلب على أن

---

(١) جاء أبو طلحةَ ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على المِنبرِ ، قال: وكانتْ دارُ ابنِ جعفرٍ، والدارُ التي تليها إلى قصْرِ بنِ جُديلةَ حوائطَ لأبي طلحةَ، وقد كان قصرُ بني جُديلةَ حائطًا لأبي طلحةَ ، يقال له: بَيْرُحاءَ، وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يدخلُها ، ويشربُ مِنْ مائِها، ويأكلُ مِنْ تمرِها.

الفقير أشد فقراً وحاجةً من المسكين، لماذا؟ قالوا: لأن الفقير أخذت من فقار الظهر، فمن خلا من فقار الظهر لم يتحرك قط، والمسكين من السكون، السكون أقل ممن خلا من الفقار، هذا من جهة اللغة، ولأن القرآن قال: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، المساكين عندهم سفينة، وأما الفقير فليس عنده شيء، ولكن إذا أفردت الفقراء والمساكين دلت على المعنيين، يعني إذا أفردت كلمة المساكين فلابد أن يدخل فيها من باب أولى الفقير.

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، دل على أن ما تقدم هو الفعل، يعني ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، على الفعل كما تقدم الكلام، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، أمرنا الله عز وجل بأن نحسن في كلامنا، وهنا أولاً قيد الفعل والإحسان لأناس، قيد الإحسان لأناس، لكن لما ذكر المقال فهو مطلقٌ لجميع الناس، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، لجميع الناس، سيء الكلام هذا لا يُمدح حتى لو أساء لأعدائه، إلا على ما يكون على معنى الجهاد، يعني أن يهجوهم، أما على غير هذا المعنى فلا يجوز، وإنما مطلوب الإحسان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُوا﴾، أي يا بني إسرائيل، ﴿لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وتقدم الكلام عن هذين الأمرين العظيمين في دين الله عز وجل ولعِظمهما يقترنان كثيراً في القرآن، يقترنان كثيرًا، وعلق الله عز وجل كما في سورة «التوبة» وصف الإخوة بين الناس قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وعلق رفع السيف عن الناس، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، معلق ودائماً هذا الاقتران بينهم، وكثير من أهل العلم يكفر على ترك الصلاة والزكاة حتى لو لم يكن هناك جحود وهذا قول كثيرٍ من الصحابة رضي الله عنهم.

بعد أن فرغ من هذه الأوامر، ماذا كانت النتيجة من بني إسرائيل؟ أخذ ميثاقهم، فماذا كانت النتيجة؟ قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾، هذا من العدل الإلهي، وهذا دليلٌ على أن المرء عليه أن لا يعمم حيث لا يكون التعميم حقيقياً، يعني عندما يعمم والتعميم باطل فلا ينبغي هذا، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾، لكن ليس كل بني إسرائيل تولوا، فقال تعالى: ﴿إِلَّا

قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)﴾ أي وحال توليكم الإعراض، توليتم وكان حال توليكم الإعراض عن أمر الله عز وجل.

وطبعًا لو نحن رأيناها أولاً: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، يعني كم مطلب هنا في هذه الآية؟ في هذه الآية ثمانية مطالب أمر الله عز وجل بني إسرائيل بأن يمتثلوا أمرها وأن يفعلوها، فتولوا عن هذه الأوامر الإلهية وهذا هو مقصد السياق وهو بيان حال بني إسرائيل مع الأوامر الربانية ومع التشريعات التي فرضت عليهم.

ثم قال سبحانه وتعالى" ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، هنا رأينا في الآية السابقة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٨٣]، هنا عاد إلى الخطاب المباشر لهم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، وهنا مقصود ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، بالباطل، وأما سفك الدماء بالحق فممدوح، ولذلك أمر الله عز وجل بالجهاد وأمر بقتل أعداء الله عز وجل ومن أمر الله عز وجل بقتلهم، وهنا مأمورون بأن لا يسفك الناس الدماء بالباطل، وهذه الآية تذكرنا بما في مطلع السورة، عندما قال الله عز وجل للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فبنو إسرائيل ممن جرى عليهم الحال فيما ذكر الله عز وجل كما سيأتي.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، قوله تعالى: ﴿دِمَاءَكُمْ﴾، هو أمرٌ لهم بأن لا يتعاطوا فيما بينهم هم هذا الأمر وهو معصية سفك الدماء، وقال: ﴿دِمَاءَكُمْ﴾، فكأن المرء حين يسفك دم أخيه يسفك دم نفسه، وهذا هو الموجود عُرفاً، المرء حين يقتل أخاه كأنه بتر عضواً من أعضائه، كأنه قتل نفسه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)﴾ [البقرة: ٨٤]، العلماء كثيراً ما تكلموا عن هذه الآية بأن الإخراج من الديار يعادل سفك الدماء، يعني انظر قتل النفس كالإخراج من الديار، ذلك لأن سفك الدم هو إخراج المرء من هذه الحياة إلى حياةٍ أخرى، الظلم له والقتل وهذا أعظم أنواع الجرائم في الوجود لما أرادت الملائكة أن تبيّن أعظّم ما اقترفه هذا الخليفة أو هذا السيد الذي

سبق هذا الإنسان على الأرض ماذا قالوا له؟ ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ولذلك أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء، فهو أعظم أمر؛ لأنه بعد الشرك بالله وهو ظلم حق الله عز وجل على العبد، وهذا ظلمٌ للإنسان، وأعظم أنواع الظلم الذي يقترفه الإنسان ضد أخيه هو أن يقتله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾، الإخراج من الديار يعادل قتل النفس، وهو مقرونٌ به لأن الإخراج من الديار هو نزع الإنسان من طمأنينته، نزع الإنسان مما استقر عليه، نزع الإنسان من مُلكه، لماذا يسمى وطن؟ يعني استوطنه، وجعله مكاناً للاستيطان، والبقاء فيه والأمان فيه، فهكذا خرج منه، فحينئذٍ يتيه في الأرض، ولذلك الله عز وجل جعل من العقوبة العظيمة على الإنسان وهو أن ينفى من الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، وأغلب أهل العلم على أن النفي من الأرض هو أن لا يُجعل له استقرار في مكان، كلما أراد أن يستقر في مكان قام أهل المكان بعد أيام ويطردونه حتى يبقى متشرداً في الأرض، وهذا من أشد أنواع العذاب، ولذلك الله عز وجل لما أراد أن يمن على الإنسان، قال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]، وجود البيت الذي يستكن فيه الإنسان ويأوي إليه هذا من النعم الإلهية العظيمة ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، يعني البيت هو سكن والناس يشعرون بهذا ويحسونه، إذا كانوا في رحلة أو كانوا في سفر ثم رجعوا، فكيف يشعر إذا دخل بيته؟ بما وصفه الله عز وجل؟ ﴿سَكَنًا﴾، يعني تسكن نفسه، ولذلك الناس يسمونه سكن، لأن نفسه تسكن فيه وتطمئن وتشعر بالأمان والراحة.

فهؤلاء الله عز وجل أخذ عليهم الميثاق ألا يقتل بعضهم بعضا، وأن لا يخرجوا بعضهم بعضا من بيوتهم، وفي ذلك بيان على أن الإخراج من البيوت جريمةٌ عظيمة، وهذا حال المرء إذا خرج من بيته فإنه يهان وأنه لا يحصل له الأمان وهكذا، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عن المسافر قال: (السفر قطعة من العذاب)، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾، المقصود ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾، أي من كان منكم، فهم من أنفسهم، ﴿مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾، أي أخذ الله عز

وجل عليهم الميثاق فقبلوه وأقروا به والتزموا على أن يأتوا به على ما أمر الله عز وجل، وعلى الوجه الذي يحبه الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، أي لا تنكرون هذه الواقعة، لا تنكرون هذا الميثاق، وهذا دليل على أنهم اقترفوا المعصية وهم ذاكرون للمعصية لم يغفلوا عنها، ولا يأتي المرء المعصية على هذا الوجه إلا وهو ذاكرٌ لها، وخاصةً في بداية الأمر، في بداية الأمر هو يقترفها ورجله تتقدم وتتأخر عالماً بأن الله عز وجل قد أخذ عليه الميثاق ثم تموت روحه، تموت نفسه وتتكلس وتصبح ميتة في أحاسيسها فيقترف المعاصي دون تذكر، لكنه لو ذُكر فإنه لا ينكر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾، والإقرار هو الاعتراف، أقر أي اعترف، أي أتى بالشهادة على نفسه من جهة نفسه، شهد على نفسه بنفسه لم يحتاج إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، ما مقصود الشهادة؟ هو الحضور، شهد بمعنى حضر وتأتي بمعنى علم، يعني عندما نقول نحن: «أشهد أن لا إله إلا الله» أي أعلم، وأعلى درجات العلم أن يحصل عن طريق الشهادة، الحضور، أن يشهد فيرى ويسمع، فأعلى درجات العلم هو الشهود الحضور، فلذلك أوتي بالعلم في أعلى درجاته حين الإقرار بوحدانية الله عز وجل، فلم يقل: أعلم أن لا إله إلا الله، إنما قال: أشهد، لما في معنى الشهادة من القوة ولما في معنى الشهادة من الإقرار، يعني لو قال: أعلم هذا، كأنه لشيءٍ آخر، كأني أنا غير ملتزم به، لكنه حين يقول: أشهد، فكأنه كذلك يقر على نفسه، فهي أعلى درجات العلم، وفي ذلك الإقرار، والالتزام، الشهادة التزام، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)﴾، وقال تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)﴾ [الأنبياء: ٥٦]، أي من العالمين بهذا الحق الإلهي عليكم.

فماذا كانت النتيجة؟ قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾ [البقرة: ٨٥]، حتى نعرف الوجه الذي اقترفوه تبين لنا معنى هذه الآية وتظهر ظهوراً جلياً، ماذا كانوا يفعلون؟ اليهود قبائل كما هو شأن هذا الوجود، والقبلية

والعشائرية فقط هي من أجل المعرفة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] فقط لماذا؟ ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، فليست عليها الولاية، وليست عليها التناصر وليس عليها القتال وإنما هذه كلها من أمور الجاهلية التي نهى عنها الشارع، العرب كانوا يغزون على هذه المعاني على الجاهلية:

ومَـــا أَنَا إِلَّا مِـــنْ غَزِيَّـــةَ إِنْ غَـــوَتْ غَوَيْـــتُ وَإِنْ تَرْشُـــدْ غَزِيَّـــةُ أَرْشُـــدِ

فهو يمشي على منوالها، هذه معاني الجاهلية، المعنى الوحيد من أجل ما أقر الله عز وجل به من الحق في قضية تنوع الناس وتوزعهم إلى قبائل وعشائر وإلى ما هو أصغر من ذلك أفخاذ وعائلات هو من أجل التعارف، من أجل أن يعرف الناس من أين أنت، ومن أين أنت، فقط، لكن لا يجوز أن يكون الحق مربوطًا مع القبيلة ولا عقد الولاء على القبيلة ولا على العشيرة.

فبنو إسرائيل مع أنهم يعودون لأبٍ واحد وهو إسرائيل عليه السلام وهو يعقوب عليه السلام إلا أنهم صاروا قبائل، من ذلك الذين كانوا حول المدينة، من كان حول المدينة؟ بن قريظة، بنو النضير، بنو قينقاع، أما خيبر فكانوا خارج المدينة، أما في المدينة فهذه القبائل الثلاثة، هؤلاء كان لهم أحلاف من العرب من الأوس والخزرج الذين بعد ذلك جمعهم الله عز وجل تحتم اسمٍ عظيمٍ مبارك وهو الأنصار، والخزرج أكثر عدداً من الأوس مع أن آخر معركة بين الأوس والخزرج وهي معركة بُعاث التي قتل فيها عامة الكبار من القبيلتين كان النصر للأوس على الخزرج، عبد الله بن أُبي المنافق كان أولياء وكان خزرجي، وسعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه وهو أحد سعد السعود، من هم السعود هؤلاء، سعد بن معاذ أعظمهم وأجلهم وأكرمهم، وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وأسعد بن زرارة، أسعد بن زرارة هو رجل أكبرهم سناً ومات في أحد حول أحد، وسعد بن الربيع مات في أحد، أظن أن سعد بن زرارة مات قبل أحد لست الآن متأكداً، ولم يبقى إلا سعد بن معاذ الذي قتل في حصار الخندق وبقي حياً قال: اللهم إن كان هناك بقية قتال لقريش فأبقني وإلا فأمتني، ورمي بسهم الغرب، أي لا يدرى راميه فمات بعد أن فتح الله عز وجل بني قريظة، الذين هم أولياؤه.

هنا الآن نأتي بنو قريظة هم أولياء الأوس وكذلك النضير، بعض أهل الأخبار يقول وكذلك النظير، لكن قينقاع قولاً واحداً هم حلفاء للخزرج، لنترك الآن بني النظير، بنو قينقاع أولياء للخزرج، وقريظة أولياء

للأوس، وكانت الحروب تقوم بين الأوس والخزرج، واليهود لأنهم يهود فكانت كل قبيلة تدخل مع حلفائها في القتال، يعني الأوس يقاتلون مع أنهم أولاد عموم الأوس والخزرج هم أبناء عمومة، ولا دين لهم إلا الشرك، لكن إذا تقاتل الأوس مع الخزرج قامت بنو قريظة وقاتلت اليهود إخوانهم من بني قينقاع مع الأوس، وقامت بنو قينقاع مع أولياءهم من الخزرج بقتال الأوس.

إذن اليهود يقتلوا بعضهم بعضاً، فالله عز وجل أخذ عليهم الميثاق ماذا؟ ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، وهذا قتال ليس وراءه إلا المال، ليس وراءه إلا الهوى، لا قتال ديني ولا قتال مشروع، الأوس والخزرج على ماذا يتقاتلون؟ عصبية يتقاتلون على عصبية، يتقاتلون من أجل الغنائم، يتقاتلون من أجل التنازع على السلطان في يثرب يومها، فتقوم كل طائفة على ما تقدم ذكره، تقوم كل طائفة بقتال الطائفة الأخرى، مع الوثنيين فيسفك بعضهم دم بعض، أجازوا لأنفسهم القتال وسفك الدماء، فإذا انجلت الحرب وانتهت كان عند بني قريظة مع الأوس أسراء لبني قينقاع، يؤسر منهم وكان من بني قريظة أسراء عند بني قينقاع، وكان أسراء من بني قينقاع عند بني قريظة، فماذا يفعلون؟ أجازوا لأنفسهم سفك الدماء فإذا بردت الحرب وثلجت الحرب بين الطائفتين قام كل واحدٍ وفدى الأسير الذي له، يدفعون أموال للأسرى وهم الذين أوقدوا الحرب وأشعلوها.

فما الذي وقع؟ أنهم كفروا ببعض الكتاب وهو الذي نهى عن قتل بعضهم بعضًا، وأخذوا ببعض الكتاب في أنهم يفدون أسرائهم، هذا الذي كان يقع منهم، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، أما أنهم كفروا فبقتال بعضهم بعضًا، وأما أنهم آمنوا فبفداء أسرائهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، لأنكم على معنى واحد وهو اليهودية، وعلى دينٍ واحد اليهودية، ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾، هذا القتال يخرجه كل واحد، ويغنمون أموال بعضهم البعض عند القتال، ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، حين تقع الهزيمة ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾، ما قال: وهو محرم عليكم الفداء، الفداء هو إقرارٌ بالحق؛ لأن الله عز وجل أمر بفداء الأسرى، ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، هذا أعلى درجات الالزام، لو قيل

له: لماذا تفدي الأسير، لقال: هذا أمر الكتاب الذي بين أيدينا، فلماذا تقاتل؟ ما هي الحجة؟ هذه أعلى درجات الالتزام، أن الله يلزمهم بأنهم يتبعون أهواءهم، يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، ما هو الكفر؟ الكفر هو تغطية، فإما أن يقع قولاً وإما أن يقع فعلاً، فإما أن يكفرون بهذا الأمر الإلهي قولاً يردونه وإما أنهم يكفرون به فعلاً، وهم يكفرون به فعلاً، لكن هل ردوه على جهة الإنكار له في الكتاب؟ هذا لا يعرف عنهم، قال تعالى: ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، فما هو جزاء من يتلعب هذا التلعب، يأخذ بعض الكتاب ويكفر ببعض؟ أن يعذب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وهذا وعيدٌ لمن فعله من أهل الإسلام، الخزي، ما هو الخزي الذي أصاب اليهود في زمن هؤلاء؟ أنهم كانوا يقاتلون من أجل غيرهم، يعني هو يقاتل لماذا؟ هذا اليهودي يقاتل لماذا؟ يقاتل من أجل العربي.

والبعض يظن أن اليهود كانوا يحكمون يثرب وهذا غير صحيح، للذكر فقط اليهود في المدينة هم من العرب، يعني كعب بن الأشرف اليهودي عربي، يعني هؤلاء اليهود حول المدينة كانوا عرباً، وكانوا من اليمن وأصلهم عربي من اليمن، يعني لا يظن ظان أن اليهود عِرقٌ أجنبي جاؤوا من أوروبا أو جاؤوا من المشرق والمغرب فاستوطنوا المدينة لا، اليهود في المدينة وما حولها من العرب.

وقد يسأل سائل: فكيف جاءوا إلى المدينة؟ مما يقال وهذا يحتاج إلى توثيق من التاريخ، بأنهم لما سمعوا من كتابهم أن هذه الأرض هي موطن النبي القادم، كما كانوا يفسرون يعني موطن ملكهم، هم ينتظرون الملك الذي يخرج وسيحكم العالم وسيجعل اليهود أسياد العالم، فإنهم لما سمعوا في كتبهم أن هذه الأرض هي موطن هجرة النبي القادم، يعني ملكهم القادم فاستوطنوا هذه المدينة رجاءً أن يكون منهم، هذا مما قيل، لكن المعروف أن اليهود هؤلاء القبائل التي ذكرنا أسمائها من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وهكذا خرجوا على التوالي هؤلاء خرجوا هكذا، أول ما خرج بنو قينقاع، النبي صلى الله عليه وسلم أخرجهم لأنهم في الأسواق كشفوا عورة امرأةٍ مسلمة، وأخرج الله عز وجل بني النضير لأنهم أرادوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يذهب ويأخذ منهم الدية، فأرادوا قتله برمي حجر عليه وهو جالس يأكل من طعامهم، وبنو قريظة معروف لما نقضوا العهد في الأحزاب.

فالقصد: أن هؤلاء اليهود هؤلاء من العرب، والعرب الأقحاح.

فكيف هذا الخزي الذي وقع عليهم؟ قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾، أنهم أتباع، أعظم الخزي هو أن يكون الإنسان خول، أن يكون تابع لا قيمة له، الحرب تنشأ من قبل غيره وهو يكون تبعاً لها، يموت منه الناس ولا قيمة له، هذا خزي، فالذي وقع أنهم خزي، الأصل أنهم هم الذين ينبغي أن يكونوا مستعلين بإيمانهم، أن تقع لهم العزة والكرامة، ولكن لم يكن لهم شأن إلا إذا قامت الحروب من قبل غيرهم من الأوس والخزرج أن يكونوا تبعاً يقتل منهم الرجال ويؤسر منهم ويدفعون فداء الأسرى فلا قيمة لهم.

وهذا الذي يقع في كل أحدٍ ترك أمر الله عز وجل، الذي يتابع غيره ليكون تبعاً فيما وقع فيه اليهود هو أن يكون حاله كذلك، خزي في الحياة الدنيا، وهذا الذي وقعت فيه الأمة، هذا ليس فقط على اليهود إنما هو قانونٌ إلهي، هذه سُنةٌ إلهية جارية في كل من نقض أمر الله عز وجل، فالذي يخالف أمر الله عز وجل، انظر يقتل بعضهم بعضاً كما ترى الآن الأمة يقتل بعضهم بعضاً، الشعوب تقاتل على ما يراد منها من الحكام، ويختلف الناس وتسب القبائل والعشائر وتسب المدن، الآن طبعاً القبائل والعشائر قليلة، الآن التكاتف والتكتل على أي أساس؟ على أساس الحكومات والدول والحدود المصطنعة، الجاهلية، فتجد أن هؤلاء يقوم سلطانهم على التفريق بين الناس، يقتل بعضه بعضا على من أجل كرة قدم، يقتل بعضهم بعضا ولا يدرون لماذا على إغلاق حدود، لماذا تغلق الحدود؟ وتجد نصف العائلة هنا ونصف العائلة هناك، ويحارب بعضهم بعضاً، وألعوبة يلهون بها الناس، وذلك الخزي لا قيمة لهم، الأمة التي تكون على هذا المعنى من الافتراق ومن قتال بعضها بعضًا من أجل خدمة آخرين كما تقع فيه أمة الإسلام اليوم عاقبتها الخزي لا قيمة لها، لا أهمية لها.

والعجب أن الذي يعيش الخزي حين يقتتل على هذا المعنى يظن نفسه سيداً!! وهذا أعظم تطبيقٍ لقوله صلى الله عليه وسلم: (غثاءٌ كغثاء السيل)، ما هي صفة الغثائية؟ لا قيمة له قش، وسخ، قاذورات، لكنها تكون طافية فوق الماء، ما الذي يسيرها؟ الماء تحتها، لكن هي فوق عملاق، تظن نفسها أنها كل شيء، فتجد الشعوب يتقاتلون، وينشؤون الأشعار، تجد البعض لا يستحق أن يدخل التاريخ إلا من أقذر أبوابه،

عشائر لا قيمة لها، أدنى من درجات الصراصير، ولكن إذا اقتتلوا بينهم كأنهم أسياد الدنيا، كأنهم هم الذين يقودون العالم، يتحدثون كأن الدنيا كلها تصيغ إلى مسامعهم، وهذا موجود في كل البلاد بلا استثناء، في كل البلاد يشعرون أنهم أسياد الدنيا، هذه الدول العربية التي تسمى بالعربية الإسلامية، لو جئت إلى قبائلها وعشائرها وأهل مدنها كل واحدٍ يظن أنه سيد الدنيا، وهو لا قيمة له، هو مجرد سن في داخل دولاب، يُضحك عليه ويستهزأ به ويلعب به، حتى الدينار في جيبه لا يملكه على المعنى الصحيح، يعني الدينار الذي في جيبه ينام وهو له قيمة فيقوم الصبح يستيقظ صباحًا وقيمته وصلت إلى النصف أي يسرق منه وهو لا يدري، بالحسابات المعروفة، ويستخدم للقتال وللحروب وللصراخ، لا قيمة له، وللأسف هذا كله تحقيق لقوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، لا قيمة لهم.

اليهود يشعرون أنهم شعب الله المختار، يقولون: أنهم هم أهل الكتاب، في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل زمن يشعرون أنهم هم أسياد الدنيا، وأن الله عز وجل يحبهم دون بقية الناس، لما يحبكم وأنتم أزل خلق الله، فإن كان يحبكم حقيقة لماذا لا يرفع شأنكم؟ لماذا لا يعزكم؟ وهذا يقال للمسلمين اليوم: إذا كنتم أنتم بهذه العزة وبهذه العشائرية وهذه القبائل القبلية وهذه الحكومة وهذه الدول وهذه الحدود، أنتم أسياد الدنيا، فلما أنتم هكذا لا قيمة لكم؟ لا أهمية لكم؟ الدواب أشرف منكم، الدواب لها قيمة، والله يا أخوة أنه ربما يقتل فرس من أحصنة الشرطة البريطانية فيهتم لها أكثر مما يقتل قبيلة في أمة الاسلام اليوم وعشيرة! قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، هذا هي العقوبة الإلهية، الخزي، (ولكنكم غثاء كغثاء السيل)، خزي، (وتتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها)، أمن قلة نحن يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: (بل أنتم كثير ولكنكم غثاء)، خزي في الحياة، وهذا أصاب كل من أعرض عن أمر الله عز وجل.

وهنا انظروا إلى هذا الحكم كيف اقترن بموضوع القتال، حين يكون خادمًا لغيره، الخزي، للأسف الناس الآن يتحدثون عن الخزي بسبب الضعف المادي، يتحدث ويقولون لك: نحن لأننا فقراء بالرغم أن الأمة الإسلامية الآن يعطيها الله عز وجل من المال مع الخزي، فهذه الأموال التي تهدر والتي في جيوب المسلمين، أموال تكفي الأمة المسلمة سعادة عشرات السنين ومئات السنين، فالخزي ليس لقلة المال، ولا لقلة العدد بل أنتم كثير، انظر لكثير العدد، انظر إلى الخزي كيف اقترن في هذه الآية بماذا؟ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا

مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، انظر إلى ارتباط الخزي في هذه الآية بموضوع يتعلق بالقتال أين هو، وعلى ماذا هذا القتال، وكل انحرافٍ عن وجهة القتال في سبيل الله، وكل انحرافٍ عن أن تكون الأمة هي واحدة فيما هي فيه هذا خزي يصيبها الله عز وجل من التفرق ما يجعل لأعدائها عليها سبيلاً.

قال تعالى: ﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾، ليس فقط في هذه الدنيا، ولكن في الآخرة، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾، في الدنيا عذاب، هذا الخزي عذاب، ويوم القيامة أشد من ذلك، فلا يظنن أحد أنه بالفقر يدخل المرء الجنة أو بالمظلومية يدخل الجنة، وهذه قضيةٌ مهمة، مما يظن البعض أنه لمجرد أن يكون المرء مظلوماً يدخل الجنة، أو أن يكون فقيراً يدخل الجنة، القرآن ينفي هذا، لا علاقة لدخول الجنة لا بالفقر ولا بالغنى، قد يكون المرء فقيراً كافراً عدوًا لله عز وجل فيدخل النار، وقد يكون غنياً مؤمناً كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فيدخل الجنة وكالزبير بن العوام رضي الله عنه يموت وتاركًا الملايين ورائه، وقد يكون المرء فقيراً مؤمناً فيدخل الجنة، وفقراء المسلمين، ليس أي فقراء، يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة سنة، كحديث أبي هريرة: (فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمس مائة سنة)، مع ما يحصل للأغنياء من الفضل في جانبٍ آخر، في جانب الشكر، وفي ذلك أحاديث ليس هذا الكلام الآن في هذا الموطن.

فبعض الناس يظن أننا ما دمنا فقراء فنحن أولى بالجنة، لا، العبرة بالإيمان قد يكون المرء غنياً فيكون صواماً قواماً عابداً موحداً قبل كل شيء فيكون من أهل الجنة، والآن كثير في العالم من المشركين من الكفار وهم فقراء، لا يجدون ما يأكلون ولا ما يسدوا عورتاهم، ولا يظن أحد اليوم أن المسلمين بما لهم من خزي في الدنيا أن الجنة لهم، فإذا توحدوا وتكتلوا على أساس ما كان يتكل عليه اليهود فيما ذكرته الآية، فلهم خزيٌ في الدنيا وله في الآخرة عذابٌ شديد، فلا يظن أحد أنه بالمظلومية، لأني أنا مظلوم أستحق الجنة، لا، هذا أصابهم الخزي أي صاروا مظلومين بغلبة أعدائهم عليهم، كغثاء السيل وفي الآخرة يردون إلى أشد العذاب.

قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾ [البقرة: ٨٥]، الله عز وجل يراقب هذا ويرى منكم ما تفعلون ولا يخفى عليه شيء، وهذه الشعارات التي تقولونها وأنكم يهود وهذا الهزيج الذي تفعلونه قال

تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، هذا الله عز وجل لا ينظر إلا إلى أفعالكم على الحقيقة.

قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٥-٨٦]، هنا هذا تفسيرٌ لسبب وقوع هذا المعنى من القتال، لماذا وقع هذا المعنى من القتال؟ لماذا كانوا يتحالفون مع المشركين من الأوس والخزرج؟ هذا هو السبب، كما يقع في هذه الدنيا من غير اليهود والآن للأسف هذه الآيات تنطبق على المسلمين أكثر من انطباقها على غيرهم، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾، وتقدم ﴿اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾، باعوا الآخرة ولم يلتفتوا لها وإنما أرادوا الدنيا ونسوا الآخرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)﴾ [البقرة: ٨٦] إن شاء الله نكمل في الدرس القادم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: هل النفي بصعوبته يساوي السجن؟

الشيخ: السؤال ما هو الأعظم السجن أم النفي؟ يعني كلاهما خلاف فطرة الإنسان، السجن وإن كان لم يرد قط كحكمٌ شرعي بعد أن نسخ الله عز وجل حكم المرأة الزانية، المرأة الزانية كان حكمها بأن تحبس في بيتها حتى يجعل الله عز وجل لها سبيلا، فرفع هذا الحكم وبقي معناه قائماً في الرجال عند كثير من العلماء في النفي، أنه الجلد مع النفي، فالسجن هو خلاف فطرة الإنسان خلاف ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان وفيه عذاب، وإن تقدم الكلام أن السجن ليس بالحكم الشرعي، أي لا يوجد عندنا حدود حكمها السجن، ولذلك فلسفة السجون هذه الأيام هي فلسفةٌ غربية، والسجن عقوبة بدنية، عقوبة نفسية، عقوبة مالية، عقوبة للعائلة، وعقوبة للحكومة، يعني عائلته تُعذب، ونفسه تُعذب، وماله يصرف عليه من غير فائدة، والحكومة تصرف عليه من غير فائدة، فالسجن على خلاف الفطرة، والعلماء الذين أجازوا السجن لأسباب ليس على هذا السجن الذي يُتخذ الآن.

ونص شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى على أنه إذا سجن المرء لحاجة، أي إذا سجن من أجل أداء حقوق، إذا سجن من أجل بدعة لا ينشرها، كل هذه عقوبة تعذيرية وليست حداً مقدراً، يعني يجوز اتخاذ السجون، وعمر رضي الله عنه في كتب الأوائل هو أول من أتخذ السجن، فيجوز اتخاذ السجن لهذا المعنى، فإذا أتخذ، قال: ولا يمنع إلا من التصرفات التي سجن من أجلها، أي لا يجوز منعه من مقابلة أهله، من معاشرة أهله من التصرف في البيع والشراء إذا لم يكن ممنوعاً منه، إذا كان سفيه وسجن من أجل سفاهة إهلاك ماله فيمنع من التصرف في هذا الباب، لكن لا يمنع من تصرف مقابلة أهله، من العيش مع أهله، ولذلك قال بعض أهل العلم: السجن هو وضعه في بيت، كما كان الأوائل، كان السجن هو بيت العباس، أخذه عمر رضي الله عنه اشترى بيت العباس منه واتخذه سجنًا، وكان قديماً إذا سجن العالم أين يسجن، قديماً؟ يسجن في بيت أحد العلماء، وهكذا، ولكن بعد ذلك السجون صارت سيئة حتى يطين عليه، لما دخلت التصورات للأسف غير العربية وغير الإسلامية وخاصةً عندما دخلت الترك فصار السجن

أشد من النفي، كان قديماً السجن يوضع في داخل جب، كما سجن الإمام السرخسي أين وضع؟ ما معنى الجب؟ بئر، يحفر بئر في الأرض ويطين عليه حتى لا يبقى منه إلا أن يدخل عليه الهواء والشمس، ويوضع له من أجل الطعام فقط ويبقى في البئر، وهذا لا يجوز شرعاً، فهذا سجنٌ ليس له وجهٌ شرعي، وهذه السجون اليوم كل السجون على ما نعرفه اليوم ليس لها وجهٌ شرعي أبداً، كل هذه السجون كلها آثمٌ فاعلها، والقائمون عليها آثمون، أنا أتكلم حتى لو كان السجن لأمرٍ شرعي، مثلاً: يسجن السراق، يسجن أصحاب البدع، أنا أتكلم عن دولة إسلامية، ولكن هذه الطريقة من السجون في الغرب وفي بلاد المسلمين كلها سجون غير شرعية.

فمن هو أشق السجن أم من النفي؟ هذا بحسب الناس وحسب أحوالهم، يعني مرات النفي أهون عليه من أن يقيد المرء هذا التقييد السيء، مرات لا إذا كان السجن على المعنى الشرعي فيما ذكرنا أهون من أن يطارد فلا يستقر له مكان ولا يقابل أهله ولا يتصرف ولا يستطيع الاستقرار والاطمئنان يعني مرات السجن على المعنى الشرعي أهون ومرات لا يكون أسوء هذا بحسب الناس أوضاعهم وبحسب ما يلاقون من العنت، فلا نستطيع أن نقدم هذه على هذه، ولكن السجن ليس من الحدود الشرعية في شيء، وينبغي الابتعاد عنه، لأن المرء عندنا يجلد ثم يعود إلى حياته، سرق مع أنا لا نتصور أن السراقين، هذه أكررها وأنبه عليها لأنه يقع فيها الخلط، لا نتصور أنه إذا قيمة أحكام السرقة في دولة الإسلام كل السراقين في السجون ستقطع أيديهم، كثرة السراقين في بلاد المسلمين سببها أن أئمتهم سراقين فسرت السرقة من الأئمة إلى الاتباع، فكما قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم: (لو أخذت الخمر لغوت أمتك)، المزاج للإمام يدخل في الرعية، يسري في الرعية هذا واحد.

الشيء الثاني: أن أغلب السراقين اليوم هو لهم أسباب شرعية، بسبب الفقر كثير منهم، أنا لا أبرر لهم لكن كثير منهم بسبب الفقر، وبسبب الحاجة، وكذلك بسبب تفاوت الحياة بين الفقراء والأغنياء، اليوم الغني يعيش الترف ويفتخر بهذا ويصل إلى الناس، والناس يرونه أنه قد وصل إلى هذه الحالة بسبب السرقة وبسبب المعصية، هم يمشون، فأناسٌ ينجحون في سرقتهم فيغتنون، وأناس لا ينجحون فيمسكون، فالسبب هو غير شرعي، ومن ذلك أن كثير من المساكين منهم بسبب الحاجة، وهذا لا يكون في دولة الإسلام.

والأمر الآخر وهو الأشد أن أغلب السراقين في بلاد المسلمين السبب هو عدم وجود الرادع، لأن العقوبات في ديننا عقوبةٌ وزجر، تعاقبه وتؤلمه لما اختاره من معصية وتزجره، ولو علم الناس أن السرقة فيها قطع اليد اليمنى فسيتحسس يده كثيراً قبل أن يسرق، لكن اليوم يقول لك: أسرق وأدخل السجن أكل وأشرب وكذا، فيتعودون عليها، فلذلك لا نتصور أنه إذا أقيمت الأحكام الشرعية سيكون هذا العدد الكبير من المعاصي والعصاة في بلادنا.

القصد: بأن هذه السجون والمنافي بحسب الناس، ما هو الأقرب بحسب الناس، وهنا لابد من التنبيه أن الأحناف عندما أتوا إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، فسروها بالسجن، فسر الأحناف النفي من الأرض بالسجن، واحتجوا بقول الشاعر:

إذا جـــاءَنا السَـــجّانُ يَومـــاً لِحاجَـــةٍ عَجِبنـــا وَقُلنـــا جـــاءَ هـــذا مِـــنَ الـــدُنيا

فاعتبروا أن السجين ينفى من الأرض فكأن السجن هو خارج الأرض، قالوا: «إِذا جاءَنا السَجّانُ يَوماً لِحاجَةٍ» يعني جاء للطعام أو لشيء، «عَجِبنا وَقُلنا جاءَ هذا مِنَ الدُنيا»، علامة أنهم خارجون عن الدنيا.

السائل: المواثيق التي نزلت على بني إسرائيل كانت مرة واحدة أم على عدة مرات؟

الشيخ: إذا المقصود بها أنها نزلت، نعم نزلت في التوراة، المقصود أنها المواثيق التي نزلت، هذه المواثيق التي ذكرها الله، نزلت في التوراة، نزلت مرةً واحدة، لكن هل كررت عليهم؟ الجواب: نعم، كما القرآن نزل مرةً واحدة، لكنه يكرر على أذهان الناس وعلى أسماعهم مرات عديدة.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم الحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع والستون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس السابع والستون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وكنا مع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)﴾ [البقرة: ٨٤-٨٦].

دائماً الحديث عن الأمر القلبي في القرآن لا يعني البحث عنه كشرط، هذه قضية تحدثنا عنها كثيراً، القرآن أكثر وبل سره الحديث عن الأمر الباطن، ولما نقرأ أحداث السيرة النبوية في القرآن وهذا شرحته بتفصيل في كتاب «صبغة الله الصمد» أن الحديث القرآني يتجاوز الظاهر، مع أنه يتحدث عن الظاهر، كقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢]، في حديث عن الظاهر، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧]، هذا حديث عن الظاهر في كيفية الخروج والتعالي، كذلك الحديث القرآني يهتم كثيراً بالباطن، لأن الباطن هو منشأ الإرادات، الأفعال الظاهرة منشأها الإرادات الباطنة، والإرادات الباطنة هي محط نظر الله عز وجل، قال صلى الله عليه وسلم: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلُحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب)، فالقلب هو مرجل الإرادة، هو مكان صراع الإرادات، بين عاجلة وبين أجلة، بين

شهوةٍ دنيوية وبين شهوةٍ معرفية أو رغبةٍ معرفية، فلذلك القرآن دائماً يذهب إلى الباطن من أجل أن يعالجه لأنه إذا عولج الباطن صلح الظاهر.

لكن الحديث عن الباطن ليس له علاقة بالحكم، وإنما هو تفسيري، يعني القرآن يفسر لنا لما نشأ هذا الفعل، فهم أرادوا الحياة الدنيا، هذه إرادة القلوب صار هناك فيها صراع بين إرادة الآخرة وبين إرادة الحياة، فغلبة إرادة الحياة الدنيا لسفاهتهم، سفهاء يحبون العاجلة هذا هو شأن الإنسان، فغلبة الإرادة الدنيوية الإرادة الاخروية.

ولكن حين نحكم نحن لا نقول: بأن هذا الفعل لا يمكن أن نحكم عليه بحكم القرآن حتى نتحقق من الباطن، الوصف القرآني للباطن هذا خاص بالله عز وجل، لا يستطيع أن يطلع عليه أحد، فكيف نعرف الباطن من خلال الظاهر، ولذلك قال علماؤنا: «علاقة الظاهر بالباطن علاقة تلازم، لكنه غير مطلق»، لتخلفه في بعض الأحيان بسبب النفاق وبسبب الإكراه، فيقولوا: «غير مطلق يمكن أن يتخلف» لكن هذا الجزئي لا ينبغي أن يعود على الكلي وهي علاقة الظاهرة بالباطن علاقة تلازم هذا هو الكلي، والجزئي القليل الاستثنائي هو غير مطلق.

فلذلك القرآن هنا حكى عن هؤلاء الذين كانوا يقاتلون بعضهم بعضاً تواطؤًا مع حلفاءهم من العرب كما تقدم في الدرس الفائت، أن بني قريظة كانوا يتحالفون مع الأوس وأن بني قينقاع كانوا يتحالفون مع الخزرج فيتقاتلون، ويقتل بعضهم بعضاً ويسفك بعضهم دم بعض، ثم حين الأسر يفي بعضهم ويدفع دية وفداء الآخر، فقال الله عز وجل ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، وانظروا إلى قوله تعالى: عبر عن الفعل بلفظ الإيمان، وعبر عن الترك بلفظ الكفر، هم لم يشرعوا هذه الشريعة، هم مارسوها، ولكن لم يغيروا أحكام التوراة لم يغيروها، بقيت على ما هي عليه، ولو سئل أحدهم: أهذا يجوز في دينك؟ لقال: لا يجوز، فلماذا تفعله؟ من أجل حلفائنا ومن أجل كذا، نستغفر ونتوب كما تقدم، أياما معدودة ندخل في النار فنحاسب حساباً يسيراً ثم ننقلب إلى الجنة، لكنهم لم يستحلوه، لكن القرآن سمى هذا الفعل قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

فلذلك الذي يفعل هذا الفعل يكون قد آمن، والإيمان هنا بلا شك أنه مرتبة مدحية لأنه إذا فعله المرء فإذا قاتل المسلم، المسلم، فإنه لا يكفر إلا إذا قاتله من أجل دينه، أو قاتله ليس من أجل دينه، ولكن قاتله نصرةٌ للكافر ولو من أجل الدنيا مع إقراره لدينه؛ لأن نصرة الكفر على الإيمان كفر، بغض النظر عن المعنى القلبي إذا تحالف وقاتل المسلم تحت راية الكفر، المسلمين، فكان في قتال هذا ولو على سبيل الاحتمال حتى لو تخلف، فانتصر الكفر على الإيمان حتى على جهة الاحتمال فيكون قد نصر الكفر، ومن نصر الكفر على الإيمان فقد كفر، ولذلك عبر القرآن وقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، فلما أتوا هذا الفعل الذي هو فعل بغير نظر الاعتقاد، سماه الله عز وجل إيماناً وهذا كقوله تعالى فيما سيأتي من القرآن لما ذكر الصلاة، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وأهل التفسير على أن الإيمان هنا هي الصلاة، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي في تحول القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام.

فقال سبحانه وتعالى بعد ذلك كله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦]، لماذا فعلوا هذا؟ فعلوا هذا طلباً للدنيا، تحالفوا من أجل الدنيا وقاتلوا إخوانهم من أجل الدنيا، فهؤلاء كفروا ببعض الكتاب وآمنوا ببعضه، وهنا لماذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، فدل هذا على أن الأصل الإيماني موجود، القاعدة هنا لابد أن ننبه إليها وهو أنه إذا أتى المرء بمكفر ثبت عليه كفره، أي حكم الكفر عليه بعد انتفاء الموانع وتحقق الشروط، فإنه لا قيمة لبقية أعمال الإيمان، وهذه كمسألة التعديل والتجريح، لماذا العلماء لا يشترطون للتعديل أن يذكر المعدل الشروط، الصفات التي أدت به إلى تعديله؛ لأن صفات التعديل كثيرة، هل يقول: عنه صادق ثم يقول: عنه أمين، ثم يقول: عنه ورع، ثم يقول: ... وهكذا يعدد إلخ، لكن التجريح كافي مع وجود بقية الصفات كلها في المرء، فإذا أتى بمجرحٍ واحدٍ خلاص أسقطت الباقي لا قيمة لها في النهاية هو غير ضابطٍ، خلاص لا نقبل حديثه.

وكذلك في الكفر والإيمان، إذا أتى المرء بالمعاصي التي لا يكفر بها المرء وأتى بالطاعات التي هي من الإيمان حينئذٍ تحدث الموازنة وقد تدخل رحمة الله عليه فيدخل الجنة بلا حساب، وإذا غلبت المعاصي فحينئذٍ هو موكول لأمر الله عز وجل، إذا غلبت الطاعات هو إلى رحمة الله عز وجل أقرب، كما قال الله عز وجل عن ضده: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، لماذا للإيمان أقرب؟ وإذا تساوت قالوا: هؤلاء

أهل الأعراف، ونهايتهم إلى الجنة لأن أصل الإيمان موجود، فإن الله عز وجل يدخل الجنة أناس بعد التوحيد لم يأتوا بأعمالٍ قط.

ولو أتى الرجل بكل أعمال الصلاح كما ذكرنا سابقاً جاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يصلون خلفه ويأتون بالوضوء وو ... إلخ، وأتوا بعملٍ مكفر وهو الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، ما رأيناهم أجبن عند اللقاء وأوسع بطناً عند الغنيمة أو عند الطعام، فقال تعالى: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، أخرجهم من الملة لهذا الفعل، لذلك لا يقال لأحد: والله هو مسلم يأتي بأعمال الإسلام إذا أتى بالمكفر الذي ثبت عليه كفره بعد تحقق الشروط وانتفاء الموانع، فهنا قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾.

وهنا نقطة مهمة جداً في هذا الباب وهو أن القرآن ينفي عن عصاته أي نوعٍ من أنواع العقلانية، وهذه تربيةٌ قرآنية غفل عنها عامة أهل الإسلام في هذا الزمان، حينها ترى امرءًا ما خرج عن حد الطاعة إلى المعصية فلا يخرج عنها إلا لهوى، ما خرج عنها لعقلانية، يقول لك: لا، هو رجل يعني يبحث عن الحق، ولكنه لم يهتدي إليه، الله عز وجل قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وأولى الناس دخولاً مع أن السياق في هذه سورة، وهي العنكبوت، كلها حديثٌ عن الابتلاءات بمعنى الذين جاهدوا في ثباتهم على الحق، منذ أن قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا﴾ [العنكبوت: ٢]، من أول السورة، وختمت بهذه الآية، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾ [العنكبوت: ٦٩]، مع أن السياق كله حديثٌ عن الابتلاء، أي الذين جاهدوا في ثباتهم على الحق هداهم الله سُبل الخير.

إلا أن أولى الناس دخول بها أي هذه الآية من جاهد في طلب الحق لابد أن يصل إليه، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، أي طلبوا الحق على وجهه الصحيح من غير موانع، أخذ الحق بعد ثبوته من الهوى ومن الدنيا ومن الكبر ومن الغرور فلابد أن يهتدي إليه، هذه قاعدة قرآنية، فإذا رأيت غير مهتدٍ فأعلم إنما ابتعد عن الهداية بسبب الهوى، قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ

مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾ [النجم: ٢٣]، ولذلك لا تحترم أي مخالف للشريعة، الذي يريد أن يجعل الصلاة غير ما علمت عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا لا تقل: عنه مفكراً، لا تقل: هذا رجل يفكر وعليك أن تقيم عليه الحجة، لا، هو يعرف من نفسه أن دافعه الهوى، مسيلمة لم يكن مفكراً، اليوم لو حضر عند الناس مسيلمة وتكلم لكان من عظماء المفكرين، لألبسوه لباسهم وأجلسوه أمام تلفازهم وجعلوه يتشدق بكلماتهم فصار مفكراً، ويقول مسيلمة ما يقوله الآن، دخل على سجاح تزوج بها فلما خرجت سجاح إلى قومها، قالوا: ماذا أمهرك؟ قالت: ما أمهرني شيئاً، هي صاحبة هوى، دخل بها وقال الشعر القذر الجنسي السيء بها ومعها، فلما خرجت سألوها ماذا أمهرك؟ وهي تريد الجنس وتريد الشهوة، فقالت: ما أمهرني شيء، فقالوا: عارٌ علينا أي ارجعي وأطلبي منه المهر، فرجعت إلى مسيلمة فأمهرها بأن أسقط عن قومها صلاة الفجر وصلاة العشاء.

واليوم الذي قاله مسيلمة يقوله المفكرون اليوم تماماً، يسقطون الوضوء، يسقطون الصلاة، يسقطون الزكاة يسقطون الحج، ويسمونها بغير أسمائها، ويأتون الحرام ويسمونه بغير اسمه، ويزعمون أنه فكر، وللأسف بعض المشايخ وبعض الناس يحترمهم، يقول لك: احترمهم هؤلاء يفكرون يا أخي لهم أدلة، اقرؤوا القرآن كله، القرآن لا يعذر مخالفيه، لأن الله عز وجل هو رب القلوب هذا جانب من جوانب حديث القرآن عن النفوس، القرآن يتحدث عن النفوس وهو العالم بها ربنا يعلمها بصيرٌ بها، ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)﴾ [طه: ٧]، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [التغابن: ٤]، يعلم كل شيء، فلذلك هؤلاء سبب إعراضهم عن الشريعة الهوى، فهؤلاء استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، يقول لك: أنا لا أعرف الحق!!

وهناك قضية مهمة جدًا ما علق القرآن أحكام الكفر والإيمان عليه لا تشتبه على صغار أهل الإسلام ولا على أطفالهم، ولا على مبتدئهم ولا على عاميهم، القاعدة الكونية هي مقدمة لفهم القاعدة الشرعية، كيف؟ الله عز وجل أقام هذه الكونيات من أجل أن نفهم شريعته، يعني الآن نحن نقول: الإيمان، نقول: أركان، نقول: واجبات، نقول: مستحبات، هذا كأس الماء فيه هذه الأركان، هذا الكتاب فيه هذه الأركان، يعني أنت تدرك المعارف المعنوية من خلال إدراكك للمعارف الكونية، فالله عز وجل أقام هذه الكونيات طريقاً لإدراك المعاني؛ لأن المعاني خفية.

وهنا نقطة، كيف نفهم هذا؟ نفهم على القاعدة التي سأقولها: «كلما كان الشيء ضرورياً كان مبذولاً لكل أحد»، ما تعلقت به الحياة لا يمكن أن يسيطر عليه أحد، -طبعًا ليس مطلقًا فيمكن لأحدهم ان يكتم نفسك- ما هو أشد الأشياء قيمة للإنسان؟ هو الهواء، ولذلك هو مبذولٌ لكل أحد، ما أحد يضع على فمك ولا أنفك حنفية ولا صنبورا من أجل أن يمنعه، مبذول تمشي في أي وقت، في أي مكان تجده، لأنه ضرورة الحياة وجوده متعلقٌ بركن الحياة، «فكلما كان الشيء ضرورياً كان مبذولاً»، «كلما كانت حاجة الناس إليه قليلة كلما كان عزيزاً» وهكذا، فالماء يأتي بعد الهواء أكثر من الطعام، حاجة الناس إليه أكثر من الطعام، ثم يأتي الطعام وهكذا، فكلما اشتدت الحاجة للشيء بُذل، وكذلك في العلم، هذا المثل الكوني في الهواء والماء والطعام هو نفسه في المعارف والمعاني، ما علق الله عز وجل عليه الكفر والإيمان هو شيءٌ مبذول يعرفه الناس لو خوطب به العامي يفهمه، فكيف يجهله من زعم الناس أنه مفكر، يعني كيف يأتي أحد ويقول: أنا لا أفهم هذه لا أعرفها؟ يأتي ويقاتل مع الكفرة يشتغل مع أعداء الله ضد المسلمين ويقول: الأمر فيه اشتباه!! الله علق عليه الكفر والإيمان، إذا قاتلت مع الكفار ضد المؤمنين جعله خارجاً من الملة، أي تعلق به دخول النار إلى أبد الآباد، ثم يقول: هو خفيٌ علي!! يكذب، ولذلك العلة الوحيدة لقضية هذه الممارسات ما هي؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾، قبلوا بالحياة الدنيا لا يريدون الآخرة، هذه الإرادة لماذا غلبت؟ غلبت لعدم اليقين على الآخرة، وغلبت لأن الإنسان ظلوم جهول من ظلمه لنفسه وجهالته بقيمة الآخرة.

لكن هنا منفعة لماذا قال القرآن هنا: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة: ٤٨]، مع أننا في آياتٍ قادمة سنرى قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢]، وتعددت بعضهم قال: ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩)﴾ ذكرت ست مرات في القرآن، لكن ذكرت ﴿يُنْصَرُونَ (١٢)﴾ هنا وذكرت ﴿يَنْظُرُونَ﴾ في سورة البقرة وذكرت كذلك ﴿يَنْظُرُونَ﴾، في سورة «آل عمران».

فلنقارن بينها وبين سورة «آل عمران»، لنرى هذه الدقة العجيبة في سياق القرآن، وحتى نفهمها نقدم مقدمة:

لماذا قال الله عز وجل في سورة «الحج» قال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥]، وأما في سورة «فصلت» فقال تعالى: ﴿تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]، لم يذكر هذا الفرق أحد قبل سيد قطب ولذلك هذه يصح فيها القاعدة، «كم ترك الأول للأخر»، «كم» على معنى التكثير، كم ترك الأول للأخر، فهذه سكت عنها الأوائل لم يأتوا إليها فيما أعلم، لا أعلم أحدًا ذكرها، إلا سيد قطب عليه رحمة الله، تأملها فوجد أن السياق في سورة «فصلت» حديث عن التعبد، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨)﴾ [فصلت: ٣٧-٣٨]، حديث عن خشوع القلوب لله عز وجل، حديث عن المؤمنين، وقبلها قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠]، الحديث عن القلوب، الحديث عن مؤمنين، فناسب هذا الحديث عن المؤمنين والحديث عن عدم السجود للشمس والقمر والسجود لرب الشمس والقمر ناسبه أن يذكر أمر الأرض التي تخشع لأمر الله عز وجل فهي عابدةٌ لله عز وجل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]، لأن السياق يناسب الحديث عن العبادة، وهذا ليس في سورة «الحج»، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥]، إذن السياق يحمل على معنى وعلى لفظ، وهنا أنا قدمتها لتفهم هذه، لخفاء هذه وظهور تلك لكنها على نفس المعنى.

الحديث هنا عن قضية القتال، وتقدم قوله سبحانه وتعالى: ﴿جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٥]، طبعاً هؤلاء اليهود لهم خزي في الحياة الدنيا وتكلمنا في الدرس الفائت لماذا اختص الحال هذا بهذا الحكم وهو الخزي، هو أنهم يقاتلون لأنهم لا قيمة لهم، غثاء، يستخدمهم الكبار من أجل الوصول إلى مأربهم، فلهم خزي في الحياة الدنيا، يعني هل لو انتصروا يكون لهم الخزي؟ النصر لا يكون لهم، هل التابع الخول يكون له قيمة في نُصرة سيده، من الذي يسرق الأضواء؟ السيد، التبع لا يكون له قيمة، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٥]، إذن السياق حديثٌ عن حرب، فناسب أن يقول: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)﴾ [البقرة: ٨٦]، لأن السياق حديثٌ عن الحرب وعن النُصرة والهزيمة وغيرها، فقال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)﴾ [البقرة: ٨٦].

ولماذا قال سبحانه وتعالى: في سورة «البقرة» ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦١]؟ واللعنة أشد ما يصاب ولا يلعن حتى يستقر أمره على الكفر، خلاص لا منجاة له منه لا يخرج منه، ولذلك نهى الشارع عن اللعن على هذا المعنى وهو الخروج والطرد من رحمة الله، فهذا طردٌ نهائي لا عودة منه وذلك بعد أن ماتوا، فقال تعالى في سورة «البقرة»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢]، وقال تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)﴾ [آل عمران: ٨٧-٨٨].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢]، ما في خروج لأنهم ماتوا هم كفار فليس لهم خروج من النار، فليس لهم وقتٌ مؤقت أو يؤقت لخروجهم من النار، وذكر مستوى العذاب لا يخفف، وذكر وقته، والناس حين يكون العذاب ينظرون إلى هاتين الجهتين، أي يكون المرء في عذاب شديد فينظر أن ينزل عنه، وثم ينظر إلى لوقت انتهائه، فالله عز وجل نفى لا ينزل العذاب عن مستواه ولا هو ينتهي إلى زمنٍ محدود.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)﴾ [البقرة: ٨٦]، وهنا ذكر لأوليائهم، فلا أحد من أوليائهم يستطيع نصرهم، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦]، لماذا لا ينصر بعضكم بعضا، لا أحد ينصر هناك ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر: ٣٨].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [البقرة: ٨٧-٨٨]، ومازال الحديث عن حالهم عن حال اليهود، وماذا أعطاهم الله عز وجل، وماذا حمل لهم الأنبياء من دلالات وبصائر ومن بينات، فماذا كانت نتيجتهم، الحديث عن اليهود، وهذا الاستغراق الطويل في الحديث عن

اليهود، ليس فقط من أجل الاستمتاع بسبهم، لا، لأنه «نعم بنو العم هؤلاء إن كانت لهم اللعنة ولكم الزهراء»، إن كان عليهم العذاب ولكم أنتم فقط الاستمتاع بل هو من أجل الإنذار لنا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، والمقصود بالكتاب هو التوراة هنا، لأنه هو المعهود لما أتاه الله عز وجل لموسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾، وقفّا من القفى والقفى هو الذي يتبع، قفّا المرء هو ما يتبعه يمشي هناك للأمام وهناك القفا يقفوه، ولذلك يقال: يقفوه أي يتبعه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾، أي بعد أن أتى الله عز وجل موسى الكتاب، وجعله نبياً لبني إسرائيل، فالله عز وجل اتبع من بعد موسى عليه السلام الرسل، وبنو إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء لا الملوك، كلما مات نبي خلفه نبي يسوسونهم، حتى لما أرادوا القتال طلبوا من نبيٍ لهم نريد ملكاً نقاتل معه، فالأنبياء هم الذين يسوسونهم ويحكمونهم، فكثر فيهم الأنبياء لحاجتهم إلى الأنبياء.

فلماذا هذه الأمة لا يكون فيها الأنبياء؟ لعدم حاجتهم إلى الأنبياء، هذه الأمة ليست بحاجة إلى الأنبياء فيها من يقوم بالحق كمقام أنبياء بني إسرائيل في بني إسرائيل، ولذلك لا تخلو الأرض من قائمٍ لله بحجة، من أين هذا؟ من قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق)، ومن قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ففي كل وقتٍ هذه الأمة هي خير أمة، وهل يُسأل الآن نحن خير أمة؟ الجواب: نعم، هذه الأمة هي خير أمة، الآن في هذا الزمان نعم هي خير أمة، ما الذي يقيم الحجة الآن على هؤلاء الكفرة بأن الإسلام حق؟ هم أهل الحق، المجاهدون اليوم لم يقيموا فقط الحجة على أهل الكفر بما هو توحيدٌ وإيمان ولكن قاموا عليهم الحجة حتى في السنن، ينتشر في الغرب ممارسات المجاهدين قبل العمليات الاستشهادية ماذا يفعلون، فيجدونك إذا أنت مثلاً تحلق يقول: يعرف الناس، هم يعرفون ماذا يفعل المسلمون في هذا، فالمسلمون يقيمون الحجة على الخلق والمسلمون اليوم وهم أضعف خلق الله، هم الذين يبلون في أعداء الله أشد البلاء، القلة القليلة، ليس المقصود به الغثاء كغثاء السيل هذا، المقصود طائفة الحق (لا تزال طائفة من أمتي قائمةٌ على الحق)، هذه هي التي تقيم الحجة، ولذلك هي خير أمةٍ أخرجت للناس.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾، لا حاجة لهذه الأمة –أمة محمد صلى الله عليه وسلم– بالأنبياء إنما علماؤها كأنبياء بني إسرائيل كما في الأثر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾، وهنا أيها الإخوة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، لما يكون الأمر أمر تعظيمٍ وتهويل الله عز وجل يستخدم اسمه جل في علاه على معنى الجمع، لما في ذلك من التهويل والتعظيم ولما في ذلك من جلال المتحدث عنه وهو الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾، وآخر أنبياء بني إسرائيل هو عيسى عليه السلام، وليس بين نبينا وبين عيسى نبي، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، وتعرفون أن سورة «المائدة» أغلبها حديث عن النصارى، وكذلك سورة «آل عمران» أغلبها في الحديث عنهم، وأغلب سورة «البقرة» في الحديث عن أهل الكتاب يتحدث عن اليهود.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، عيسى عليه السلام القرآن قليلاً ما يذكره إلا إذا كان في سياق الأنبياء، وأما إذا كان الحديث عنه فقليلاً ما يذكره إلا بنسبته إلى أمه تذكيراً لهذا الأمر، أنه ابن إنسان أي عيسى عليه السلام هو ابن إنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، هو ابن الإنسان فلذلك هو عيسى ابن مريم، ولم يُنسب إلى أبيه لأنه لا أب له، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾، البينات هي الدلائل على صدقه أنه نبي، وأوتي من البينات أكثر من غيره من صغره إلى يوم وفاته، يوم وفاته لم يأتي، وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فمتوفيك بمعنى مستوفيك، الاستيفاء هو القبض، تقول: استوفى مالك أي قبضته، والصواب أنه لم يمت ورفع حياً إلى السماء على الصحيح، قال بعض أهل العلم غير ذلك وأحتج بهذا كذاب قاضيان أنه مات، والصواب أن عيسى عليه السلام إنما قبضه الله عز وجل حيا وهو يعيش في السماء، فأكثر القرآن نسبته لأمه تذكيراً أنه ابن الانسان عليه السلام أنه ابن مريم، ومريم هي ابنة عمران وبتفصيل ولادته وجلال ما وقع له تحدونه في سورة «آل عمران»، والحديث عنه كثيراً في سورة «النساء»، وفي حجاج ربنا سبحانه وتعالى لبني إسرائيل، وما جرى معه وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما،

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾، لماذا أحتاج البينات أكثر من غيره، مع أن موسى عليه السلام تسع آيات بينات، وقال تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، من هو؟ موسى عليه السلام لكثرة ما أوتي من بينات، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وهنا قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: ٨٧]، أنه نبي وأنه رسول وأنه صادق، منذ طريقة حمله، أنه حُمل عليه السلام من أمه من غير أب، في سورة «الأنبياء» قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)﴾ [الأنبياء: ٩١]، وأما في سورة «التحريم» قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ [التحريم: ١٢]، وأما ﴿فِيهَا﴾ يعني مريم عليها السلام و﴿فِيهِ﴾ المقصود الرحم، فإما ينسب إليها وإما ينسب إلى الرحم.

قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾، ولا أريد أن أتكلم عن الروح التي نفخت فيه فهي مخلوقة ويأتي الرد عليهم، لكنه قال سبحانه وتعالى: ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ أنه تكلم في المهد أنه كان ينبئهم ما يأكلون في بيوتهم، أنه كان ينفخ في هيئة الطير التي يصنعها بإذن الله عز وجل فتطير وتصبح حية، وأنه يحيي الموتى ويبرئ الأكمه بإذن الله عز وجل، هذه آيات بينات، وللذكر فإن الله عز وجل في القرآن تكلم عن آيات لعيسى عليه السلام لا يعرفها أهل الكتاب، يعني هناك آيات مثل قوله ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فينبئهم هذه لا تذكر، ليست عندهم ليست في كتبهم، هذه ليست في إنجيلهم الموجود، لا يعرفونها، وكذلك أخذ الطير وصناعته من الطين على هيئة الطير والنفخ فيه، هذه لا توجد في كتبهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، ما هو روح القدس؟ تقريباً بإجماع أهل التفسير المقصود به جبريل عليه السلام، وذلك لهذا الترتيب، في آيات قادمة قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]، عرف من الذي نزله على قلبه عرف به، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]، فعلمنا أن الذي نزل القرآن على قلب محمد صلى الله عليه والسلام هو جبريل عليه السلام، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢]، فعرف به انه الروح القدس، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وعرف به أنه الروح الأمين، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، إن جهلت لفظاً في القرآن ومعنى لكلمة ابحث عن هذه الكلمة وتكررها على

أي معنى جاءت فتجد المعنى واحداً، فهنا لما قال تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، دل على أن روح القدس هنا هو جبريل عليه السلام.

والنصارى عندهم الروح القدس، كثيراً يقولون: أب وابن والروح القدس، هو عندهم هو أحد الأقانيم الثلاثة، هم يقولون: أن الله عندهم الرب له أقانيم ثلاثة، مع اختلافهم الذي لا ينتهي، ما هي هذه الأقانيم؟ هل هي أشخاص مستقلة؟ هل هي صفات متعددة لشخصٍ واحد؟ وكيف تمشي الصفة مستقلة بعيداً عن الموصوف؟ وما هو حال هذا الأقنوم؟ هل هو يعادل كل أقنوم آخر أم هو أصغر منه؟ يعني عيسى أحد الأقانيم الثلاثة عندهم، عندهم الأب والابن والروح القدس، وعيسى ما هي قيمته مع الأب، هل هو مساوٍ له؟ أم هو أقل منه؟ اختلفت الكنائس على هذا لمعنى، بعضهم يقول: مساوي، وبعضهم يقول: أقل، وكلٌ يحتج بنصوص من هذه الكتب التي بين أيديهم المحرفة.

وللذكر فقط في كتابهم المقدس حتى في أعمال الرسل لم يذكر الروح القدس إلا قليلاً ولعله لم يذكر إلا ثلاث مرات فقط، ومن ذلك الروح القدس نزل لما عمد يوحنا المعمدان عمد اليسوع –أنا هنا أستخدم عباراتهم– كيف عمده؟ جاء إليه وهو يعمد الناس في البحر في الماء، يعني أقصد به بنهر الأردن الذي يسمى المغطس اليوم جهلاً وكذباً فكان يعمد الناس فجاء إليه عيسى، فجاء هكذا، فجاءه روح القدس مجسماً على هيئة الطائر، يعني روح القدس ودخل في مين؟ قال فحل فيه، هذا الروح القدس لا ندري ما هو، هل هو شخص مستقل؟ هل هو معنى من التأييد والبركة؟ هذا معنى موجود، لأن حضرة الكذاب الأكبر بولس الذي هو شاوول اليهودي، حدث في أعمال الرسل أنه لما جلس هو وأتباع له قال: فحلت فينا روح القدس، فروح القدس هذه مشكلة عندهم يعني، ما هي؟ لها معاني متعددة، إذا كانت صفة يعني صفة التأييد، القوة، لما حلت روح القدس في بولس صار يتكلم بكلامٍ قوي كالنار، إذن هي شيء تحل في غير الأنبياء، وليس فقط في عيسى، وهل هي شخص مستقل؟ نعم هي كانت طائر، على هيئة طائر تشكلت مادياً.

فالقصد: أن الروح القدس عندهم لا قيمة له، وهو شيء مضطرب لا ينتهي إلى قولٍ واحد عندهم، لا نعرف ما هو، واحدهم خلاص يقال هكذا كلمة نهائية يقال: هو أحد الأقانيم الثلاثة بعد ذلك هذا الأقنوم حدث عنه ولا تنتهي.

فالله عز وجل أيده بروح القدس، ولماذا خص عيسى عليه السلام بروح القدس؟ في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحسان بن ثابت رضي الله عنه: (أُهجهم وروح القدس يؤيدك)، من المقصود به؟ جبريل، هذا الحديث في الصحيحين، في صحيح البخاري ومسلم، ورد هذا الحديث بألفاظ أخرى في السنن، ولكن هذا والجامع له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أهجهم، أو هاجهم وروح القدس معك أو أيدك الله بروح القدس).

فلماذا خص الله عز وجل عيسى بروح القدس؟ لحاجته لذلك، ولحاله الذي هو عليه، لما علم من كثرة تكذيب الناس له، حتى من تكذيبهم له من جهة طهارة أمه، ولذلك لما تكلم هذا الروح القدس قوة، ولماذا سمي جبريل بروح القدس؟ جبريل هو أمين الوحي، والوحي هو روح العالم، كما أن الأبدان لا تتحرك إلا بالروح، فالعالم لا يحيا إلا بالإيمان، فما الذي يأتي بهذا الإيمان؟ من الأمين عليه؟ من الذي يحمله للبشرية؟ من هو الذي يأتي للأنبياء؟ هو أعظم رسل الله عز وجل وأعظم ملائكة الله عز وجل وهو جبرائيل عليه السلام، ولذلك اليهود كانوا يكرهونه لأنه هو الذي ينزل بالعذاب عليهم، كرهوه، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]، فإذن إذا خلى العالم من الروح، ذهب العالم، (تقوم الساعة وليس على الأرض رجل يقول: الله)، فلذلك سماه الله عز وجل روح هذا العالم لأنه هو الذي ينزل بما فيه حياة البشرية، فهو روح القدس، والقدس جمع قدوس، والقدوس هو المنزه من الخطايا والمنزه من النقائص، والمنزه من العيب، وذكرت كلمة القدوس مرتين فقط في القرآن، في سورتين من سور المسبحات، انظر علاقة التسبيح بقدوس، ذكرت القدوس في سورة «الحشر»، وفي سورة «الجمعة»، وكلاهما من المسبحات، فهذه العلاقة بين سبحانه، سبحانه، وهذا التسبيح له علاقة بالتقديس ولذلك هو روح القدس منزه، هذا الرسول الذي يحمل رسالة الله عز وجل إلى الأنبياء هذا مقدس.

فلماذا أيده الله عز وجل بالروح القدس؟ لكثرة التهم عليه، وخاصةً ما اتهم به، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتان عظيما، فأيده الله عز وجل بالروح القدس، ومن هذه الروح التي أيده الله عز وجل بها بأنه تكلم في المهد، وأول كلمة قالها عيسى هي التي صار فيها الخلاف، كل خلاف النصارى اليوم حول كلمة، قال تعالى: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٢٩-٣٠]، أول كلمة قال: أنا عبد الله، ثم حصل الخلاف فيهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾، إذن ما هي عِلة رفض الحق في اليهود؟ الكِبر، العلة عند اليهود في رفض الحق هو الكِبر، ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾، وهذا الكِبر صفةٌ لا تليق إلا بالله عز وجل، لا يجوز أن يتعبد بها المرء، الرحمن يتعبد بها من الرحمة، الرحيم يتعبد بها المرء، الجواد يتعبد بها المرء، يتعبد بمعنى يكون على منوالها وعلى معنى من معانيها في نفسه، الغفور الله يحب، الجميل الله يحب، وهكذا، ولكن الكبرياء لا تليق بوجهٍ من الوجوه في العبد، ولذلك لو تلبس بها العبد كان مذموماً على أي وجهٍ كان، فلا تليق إلا بواحد وهو الله عز وجل، وهذه الصفة يعذب الله عز وجل كل من نازعه فيها، ففي الحديث (العزة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما عذبته).

ومن كبرياء الله عز وجل أنه لا يأذن لأحدٍ بالانفراد، حتى ولو كان في ذلك تعب للمؤمنين، ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كانت عنده ناقة لا تُسبق أبدا، فجاء إعرابي على قاعودٍ له فسبقها، فشق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما ارتفع شيءٌ إلا كان حقاً على الله أن يضعه)، لماذا؟ لتتجلى صفة الكبرياء قدراً كما هي صفة لله عز وجل قدراً، حتى لا يبقى أحد فوق، كلهم سيموتون، ولذلك من كبرياء ربنا عز وجل ينادي يوم القيامة بعد أن يقبض كل الأرواح بقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، هذا من كبرياء الله.

والكِبر يمنع من دخول الجنة، يقول صلى الله عليه وسلم: (لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ، قالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ونَعْلُهُ حَسَنَةً، قالَ: إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ)، بطر الحق التعالي عليه، غمط الناس منعهم حقوقهم.

- بطر الحق أن تترفع، الحق قد يكون في المعاني، قد يكون في الوجود، واحد نازعك في شيء لكن الحق في المعاني أشد، فأن تترفع عليه إذا جاءك معنى صحيح فتترفع عليه في العلوم.

- وغمط الناس ألا تدفع إليهم حقوقهم وتنكر حقوقهم هذا كبر.

فانظر هذا إنكار العلم وحقائق الوجود وحقائق المعاني وإنكار حقوق الناس هذا هو الكبر.

قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ﴾، الأنبياء لا يأتون إلا بما يضاد الهوى، قال رجلٌ لابن عباس رضي الله عنهما: والله أن هواي معكم، قال: لا يكون الهوى ممدوحاً في القرآن أبدًا، الهوى لا يمدح في القرآن، ويكفي أنه هوى، لأنه شيءٌ لا يثبت المرء عليه، شيءٌ لا قيمة له، لا مستند له، إلا ما تحب فلا قيمة له، ولذلك ألف الإمام ابن الجوزي كتاباً سماه «ذم الهوى»، الهوى لا يمدح، لا يُعاد فيه إلى العقل، لا يُعاد فيه إلى دليل، لا يُعاد فيه إلى منطق، فقط هو هوى شيء يحبه ويكرهه، وقال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾، أي أعرضتم عن متابعته كِبرًا، لماذا؟ لأنه لم يأتي بهواهم.

ومن ذلك ما سيذكره القرآن عنهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فتكبروا على أمر الله عز وجل، وما الذي دفعهم على عدم متابعة النبي صلى الله عليه وسلم؟ هو الكِبر، لماذا الكِبر؟ لأنهم رأوا أنه من أمةٍ أدنى منهم، في التوراة فيها احتقار للعرب، ويصفون إسماعيل بأوصاف فيها احتقار، أنه أول حاجة وحشي ويده على كل شيءٍ ويد كل شيءٍ عليه، يعني رجل ابن صحراء، وهكذا العرب ابن صحراء، صياد، وحشي، يعيش على الضباب، ويده على كل شيء، كل شيء ملكه ولكن لا يملك شيئاً هذا هو شأن العربي، يعني لأنه يصيد فكل شيء ملكه، الصياد كل شيء ملكه، يصيد أي شيء وهو ملكه، وحين لا يجد فيده ليست على شيء، ويد على كل شيءٍ عليه، هكذا وصف وهذا تحقير.

ولذلك هم لا يرون إسماعيل هو الابن الأكبر البكر لأنه ابن آمة، فلذلك هو لا قيمة له، فأتباعه وأبناؤه من العرب لا قيمة لهم، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من العرب استكبروا؛ لأنه لم يأتي منهم، وهذا هو بطر الحق وغمض الناس، لأن الحق جاءك من فلان، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى

رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف: ٣١]، بدنا واحد كبير! جايينا واحد يتيم! لو أنه أتى من فلان وفلان ومن هؤلاء كبراء القوم، أتى من أبو جهل، أتى رجل من أهل الطائف من ابن عبد يا ليل، من ناس يحترمون! فيأتي من الفقير! فلذلك يُرد الحق بما لا علاقة له بالحق، الحق تكمن قوته في نفسه، لا في وسيلته ولا فيما يحمل فيه، فكيف إذا حُمل بشخصٍ هو الصادق الأمين، ولذلك قال تعالى: ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾، أنتم لم تأخذوه لأنه لم يأتي على الهوى الذي تريدونه، ما الهوى؟ إما أن يأتي بما يوافق هواهم إذا جاء من أنبيائهم، وإما أن يكون على غير هواهم، يعني على غير مذهبهم، على غير دينهم، على غير طائفتهم على غير شعبهم، فهذا أتى على غير ما يريدون، فقال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾، أي امتنعتم عن متابعته بسبب الهوى.

قال تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾، أناس يُكذَبوا فلا يُقتلوا، فيكتفون بتكذيبهم، والظاهر أن هؤلاء الذين يكتفون بتكذيبهم ممن قال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم: (ويأتي النبي وليس معه أحد)، يعني خلاص يبقى رجلاً منبوذاً فيكفي في تكذيبه وتعذيبه فيبقى، لكنهم إذا أحسوا بالخطر منه على أتباعهم وعلى أبنائهم وعلى سفائهم كما يسمونهم أي على ضعفاهم، ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾، فأناسٌ يُكذبوا فيكتفوا بالتكذيب وأناس يُكذبون فماذا؟ فيقتلون، وهذا بحسب إما إجرام الفاعل وإما بحسب مرتبة المقتول والْمُكذب، يعني هم مجرمون يراعون مراتب الناس في التكذيب والترك والاستهزاء، وأناس لا.

وفرعون تدرج مع موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥)﴾ [الشعراء: ٢٥] في أول الأمر، بعدها قال لهم: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ [الشعراء: ٢٧]، أول حاجة في إعراض ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، أي الكلام الفارغ، بعدها كأن الكلمات لم تعد بالتلميح تنفع لابد من التصريح، ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾، لما لم تنفع هذه الكلمات في موسى عليه السلام، لم تردع موسى عليه السلام عن أن يقول الحق، ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)﴾ [الشعراء: ٢٩]، هكذا رتبتها سورة «الشعراء»، رتبت الحوار بين موسى عليه السلام وبين فرعون، ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، أنت كنت تتكلم كأنه لا قيمة له، ﴿قَالَ

لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي﴾، ليس جنون هذا صار الآن تحدي، صارت حقائق أمام أوهام عندك، ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

ولا بأس أن نذكر بأن الطريقة التي يتعامل بها الخصوم، خصوم الدعوة، خصوم الحق، التي يتعامل بها هؤلاء الخصوم فيها قسوة، فهذه قضايا ليست هي مجال التداول والحوار، لا، الحوار إما بالإعراض إلى درجة الاستهزاء والقتل وعدم الاستماع والتنفير التام، وإما إن لم ينفع هذا فما هو؟ إذا لم ينفع التكذيب الذي يؤدي إلى تنفير منك؟ القتل، ولما جاءت أوصاف القتل ﴿قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، وواحد سأل: هذا النبي ما يكفي أن يقتلوه خلاص يضربوه بسكين، لماذا ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؟ ثم بعد ذلك يجمعوا له هذه النيران العظيمة فألقوه في سواء الجحيم، سماها جحيمًا ربنا، من أجل الصدمة، ترويع، هم يريدون أن يهزوه من أجل أن يجبن، ومن أجل أن ينهار تحت أرجلهم باكياً مستجدياً، ومن أجل ترويع الأتباع حتى لا يتبعونه، هذه طريقتهم ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾، وطبعًا لو قلنا: أنه استغراق في ما أتى به الأنبياء فيما لا تهو أنفسهم لصح هذا، ولكن واضح أن هذا ليس في كل بني إسرائيل هناك وهناك، ولكنهم هم قتلة الأنبياء، ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾، انظر ﴿وَفَرِيقًا﴾، فدل على أنهم لم يقتلوا واحدًا ولا اثنين فريق، قتلوا فريقًا، فدل على قتلهم الكثير من الأنبياء، وهذا دليل على ما يصح من وصفهم بأنهم قتلة الأنبياء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾، ﴿غُلْفٌ﴾ العلماء ذكروا قولين وإن كان أغلب المفسرين لم يذكر إلا قولاً واحداً، وذُكر الثاني من أجل التنفير منه كما ذكر ابن قيم في «بدائع الفوائد»، في «بدائع الفوائد» وقف عند هذه الآية:

– فإما أن يكون جمعها مأخوذ من غلاف، غلف من غلاف، والغلاف يمنع ما في داخله من أن يتأثر، من أن يأتي أو يخرج، فهذا غلاف، أي ما فيها في داخلها يوجد شيء يغلفه.

– وإما أنها مأخوذةٌ من أغلف وجمعها أغلفة أو غُلف وهنا طبعاً قراءتان ﴿غُلْفٌ﴾ و ﴿غُلُفٌ﴾، فما المعنى الأول لو أخذت من غلاف، قال: لا، وهذا هو القول الضعيف الذي رده أغلب أهل العلم وبعضهم

لم يذكره قط ولما ناقشه ابن القيم رده من جهة معناه، وكذلك أخذه من شيخه، وموجود كذلك في الفتاوى شرح لهذه القضية.

– وأما قوله: أنها مأخوذةٌ من غلاف، يعني في قلوبنا من العلم والحكمة ما لا نحتاج لك، في قلوبنا ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، أي فيها هذه الأغلفة التي قلوبنا قد غُلفت فيها من الحكمة والعلم ما لا نحتاج إليك، هذا وجه وإن كان هناك وجه آخر يصح في هذا المعنى، ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، أي فيها من العلم، ليس لأننا لا نحتاجه لما تأتي به من العلم والهداية والنور، لا، في قلوبنا من العلم العظيم الذي منعنا من أن نهتدي لقولك، فمن باب أولى من كان جاهلاً من الأعراب أن لا يأخذ بقولك، وعلى كل حال فهذا المعنى بعيد في أنهم قالوا: قلوبنا غلف، على معنى أنها أغلفة قد حوت العلم، هذا بعيد، والثاني أنها مغلفة ولذلك أغلف، والأغلف هو الذي لم يختتن لأنه يُغطى ذكره فيقال هذا، فقال: غُلف جمع أغلف، أي بأنه لا يدخل فيها الخير مُغطى، وهذا كما قال السلف كقول قريش: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، ﴿أَكِنَّةٍ﴾، بمعنى أن قلوبنا مغلفة فلا نستمع إليك، ولماذا قالوا هذا؟ أليس في هذا إقرار منهم؟ قالوا هكذا: هو أنهم علقوا عدم الهداية على الأمر القدري، ولذلك يمكن أن يقال: لقد غلفت قلوبنا ألا تسمع –وهذا وجه جديد هو يناسب السياق في هذا المعنى– قلوبنا قد غلفت فلا يمكن أن يدخل فيها إلا من جاء على هوانا، قلوبنا مغلفة فلا يصدر إليها الحق لا يدخل لا يرد إليها الحق، إلا إذا كان لما تقدم، إلا إذا كان على الهوى الذي نريده.

وبعضهم قال: المقصود به ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، أي هم قالوا على جهة الأمر القدري، أي نحن لن نهتدي بهذا، وبعضهم قال: لا نريد أن نسمع منك، كما هو كفر الإعراض، إن كنت نبياً لأنت أجل من أن تكلمني وأن كنت كاذباً فأنا أجل من أن أسمع لك، هذا من الإعراض الشديد الذي فيه دون الاستماع للحق ورده ابتداءً دون الانتباه له،

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، وهذا أغلب السلف والمتأخرين على معنى قول قريش ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾ [فصلت: ٥]، هذا

في سورة «فصلت» وسورة «فصلت» بينت مراتب وأحوال الناس مع القرآن، وهي لم تقم إلا لهذا ونأتي إليها إن شاء الله.

قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، وبل للإضراب كما تقدم، بمعنى إلغاء ما قالوا وإثبات ما سيأتي، ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، أي ما أصابهم من أن لا يسمعوا الحق ولا يتبعوه إلا أن الله عز وجل قد لعنهم، ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، وهنا إضرابٌ للمعنى ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾، أقول قولي هذا وأستغفر الله إن شاء الله نتابع في الدرس القادم بارك الله فيكم.

الأسئلة

السائل: ما الفرق بين القلب والفؤاد؟

الشيخ: لا فرق بين القلب والفؤاد، القلب والفؤاد شيءٌ واحد، والقرآن لا يتحدث هنا عن الآلة الجسمية إنما يتحدث عن هذا القلب باعتباره مِحلة للمعاني وليس فقط لما هو مادي، أما لا فرق بين القلب والفؤاد، وإن كان هناك سؤال شرحناه في موطنٍ آخر، لماذا دائماً يقول عن القلب أنه لا يفقه، ولا يقول عن العقل، والفقه هو العلم، هو أشد العلم أعلى درجات العلم هو الفقه، فلماذا لم ينسبه للعقل؟ لأن العبرة بالانتساب للعلم عملاً، فالعلم يتم إدراكه بالعقل ﴿يَعْقِلُونَ﴾، ولكن أن يلتزم المرء به عن طريق إرادته، ومرجل الإرادات هو القلب.

السائل: هل يجوز على نبينا أن يُقتل؟

الشيخ: إذا الكلام من جهة عقلية فيجوز، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فجوز حصول القتل له، لكن من جهة العصمة الإلهية كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرسونه، يأتي بالحراس على بيته، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، تركهم فعلم أنه معصومٌ قدراً من إيذاء الناس له بالقتل، واختلفوا بعد ذلك في موته أمات شهيداً أم لا؟ سعيد ابن المسيب رحمه الله يقول: بأن نبينا صلى الله عليه وسلم مات شهيداً، يقول: لأن النبوة مرتبة عظيمة حاويةٌ لمراتب أمتها، فحاوية لمرتبة الصديقية وحاوية لمرتبة الشهادة ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجد في كل عامٍ ألما، من سم الشاة التي أكلها من بني النضير، ثم فزعت عليه سنة وفاتها، فيقول هو مات من السم الذي مات فيه، يعني هذه فقط مسألة تصورية ليس لها أهمية كبيرة، فإن صحت ويمكن أن تصح ولا شيء يمنعها فلا تلغي ما قلناه، أن الله عز وجل عصمه حتى يأتيه قدره الذي قدر له.

السائل: ما هي الكتب التي يجب دراستها في التعمق في السيرة النبوية؟

الشيخ: يعني أشد الأسئلة عليّ وأتعبها هو هذه الأسئلة، ما هي الكتب في أصول الفقه؟ ما هي الكتب الجيدة في السيرة النبوية؟ ما هي الكتب الجيدة في التفسير؟ إذا كان المرء مبتدءًا فأنا أنصحه ابتداءً جيد كتاب «الرحيق» إذا كان الرجل مبتدئ، يريد أن يبدأ بالسيرة ويتقوى بها، وللذكر فيمكن للمرء الكاره للقراءة أن يبدأ بالكتب التي ليست فيها مشقة عقلية، عبد الحي الكتاني على ما فيه من كلام، علمه عمه القراءة عن طرق قصص الكاتبة «أجاثا كريستي» لأنه كان لا يقرأ فيريد شيء من أجل أن يشده للقراءة فكان يعطيه هذه القصص، حتى إذا صارت القراءة له مَلَكة، دعمه بالكتب الأخرى التي فيها المشقة والقراءة والمنفعة والعلم، وبعد ذلك تصبح القراءة مكروهة له.

فالسؤال إذا أراد المرء؟ فجيد، «مختصر سيرة ابن هشام» لعبد السلام هارون جيد، «الرحيق المختوم» قراءته جيد، أما أحب كتب السيرة إلي أنا يعني التي اتمتع بها هي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم التي هي في «البداية والنهاية»، بل أحب منسكٍ للحج عندي هو منسك ابن كثير، الذي هو في «البداية والنهاية» هو أحب المناسك إلي، فيقرأ فإذا أراد الزيادة عن ذلك، أي أراد أن يرتقي فليذهب إلى كتاب «السيرة النبوية لابن هشام» التي هي مختصر «سيرة ابن إسحاق»، ولذلك مرات المختصر يغلب على الأصل، يعني «سيرة ابن إسحاق» غير معروفة فهي غير موجودة، والمختصر هو الموجود «سيرة ابن هشام»، وإن كان فيها الكثير مما يستنكر مثل قضية شعر آدم، فذكر أشعار وكذا، فهذه لا تصح، فيعني ينتبه لهذا وإذا أراد الرقي أكثر فيمكن أن يقرأ كتب الطبقات التي فيها الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله عنهم وعن أحواله وهكذا والله تعالى أعلم، وفي النهاية لا يوجد كتاب يغني عن كتاب، كل كتابٍ فيه من الفوائد التي يتميز بها عن الكتب الأخرى.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والستون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الثامن والستون من دروس التفسير، وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [البقرة: ٨٧-٨٨].

المناسبة بين مطلع هذه الآية الأولى وبين خاتمتها يحتاج إلى شيءٍ من الشرح، لماذا قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ﴾، يريد أن يقول ربنا سبحانه وتعالى وما زال الخطاب في سياق ذم بني إسرائيل وبيان ما أعطاهم الله عز وجل وما قابلوا هذه المنن والعطايا الربانية، وكيف تعاملوا مع الأنبياء السابقين؟ وكيف سيتعاملوا مع هذا النبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم؟ المناسبة بين هذه المطلع لهذه الآية وبين خاتمتها، أن الله عز وجل أعطى موسى عليه السلام الكتاب وأعطاه على جهة من جهاتٍ الآيات العظيمة، أنه أعطاه الألواح تلقى من الله عز وجل الألواح، وجاء بالألواح إليهم وحصل مع هذا الكتاب آياتٌ عظيمة وبيناتٌ عظيمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، ففيه من الآيات الدالة على تعظيمه والدالة على أوامر الله عز وجل والدالة على صدق ما جاء به.

وكذلك الله عز وجل أعطى عيسى عليه السلام هذه الآيات البينات العظيمة، أنه نطق في المهد وأنه كان يحدث بني إسرائيل بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وكان يبرئ الأبكم والابرص ...إلى آخر ما أعطى الله عز وجل عيسى عليه السلام من الآيات ومع ذلك كفروا به، فيريد أن يقول: ما جئت به من

الآيات على يد هذا النبي العظيم يعادل ما جاء على يد الأنبياء السابق؛ فلا تتحججوا ولا تتذرعوا بأن هذا النبي لم يأتي بالآيات فكفرتم به، وأن هذا النبي لم يأت بالبينات فأعرضتم عنه، وأنه لم يأت بما أتى به موسى وعيسى والنبيون عليهم السلام من قبله، فلذلك أنتم كفرتم به، يريد أن يقول: إن الله عز وجل أعطى الأنبياء الذين كفرتم بهم آياتٍ بينات عظيمة وأيد الله عز وجل عيسى عليه السلام بروح القدس.

وقلنا في الدرس الفائت أن روح القدس هو جبريل، وإن كان بعض أهل العلم قال: الذي أعطاه الله عز وجل لعيسى عليه السلام الروح القدس المقصود به الإنجيل، وهذا بعيد؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ [المائدة: ١١٠]، وهذا ذكرناه هذا تعليل لما ذكرنا الدرس الفائت، لماذا خص عيسى بروح القدس؟ لما أعطي من الآيات، لكثرة ما حصل له من اتهامات زائدة عن اتهامات حصلت للأنبياء، ومن ذلك الاتهامات التي اتهمت بها أمه ... إلخ، فقال قال الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]، فلو كان روح القدس هو الكتاب لكان في ذلك تكرار، والقرآن لا يأتي بالتكرار، لأن القاعدة في التفسير أن التأسيس خيرٌ من التكرار، التأسيس أي أن يأتي بعلم خيرٌ من التأكيد، الذي هو تكرار التأكيد.

فالله عز وجل يريد أن يقول لبني إسرائيل: قد أعطيت الأنبياء السابقين ومع ذلك أحدثتم معهم هذه الحوادث من التكذيب وو ... إلخ، ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾، فلذلك تناسب هذا، إنما هو تذكيرٌ لهم بعدم وجود الحجة والعذر عندهم في الإعراض عن هذا النبي، ما عندهم حجة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)﴾ [القصص: ٤٨]. ونفس الشيء الذي قالوه مع الأنبياء الذين جاءوا بالبينات ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [آل عمران: ١٨٣] وسيبين القرآن أنه جاءهم ببينات علموا أنه الحق كما ستأتي في الآية التي بعد هاتين الآيتين.

ولماذا قال الله عز وجل: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾، اختلفت الصيغة؟ ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ بصيغة الماضي، ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بصيغة المضارع، ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾، ومعروف أن الفعل المضارع يدل على الاستمرارية، ولأن القتل متضمنٌ بالتكذيب، فهم حصل منهم هذا وسيحصل منهم هذا، فشأنهم هو التكذيب مع القتل، فقال تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾، بما خصوا من التكذيب، وسيبقى شأنكم من التكذيب والقتل قائم.

وهنا قوله تعالى: ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ﴾، دائمًا العلماء نبهوا على أن النفس في القرآن دائمًا تأتي بالفعل القبيح، كقوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨]، دائمًا ذكر النفس يأتي مع القبيح ويأتي مع الشر ويأتي مع الغلط وهذا هو شأنها، وإن كانت هناك نفس مطمئنة وهناك نفس راضية، وهكذا.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [البقرة: ٨٨]، هذه الآية تُشابه الآية التي في سورة «النساء» لما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥)﴾ [النساء: ١٥٥]، ففي سورة النساء قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ﴾، وهنا قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، العلماء نبهوا كلمة ﴿بَلْ﴾ هنا هي للإضراب، لكن ليس للإضراب عما فات، لا تنكروا قولهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، وإنما الإضراب للسبب الذي نشأ في نفوسهم، لدعواهم بأن قولهم هذا يسقط عنهم تبعية اتباع الحق، فيقول الله عز وجل: لا، بل أنتم محاسبون عليه، ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، فالإضراب ليس على ما قالوه، الإضراب ترتب عما ما قالوه.

وقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، محمولة مع الاستهزاء كما تبين في التفسير فيما ذكرنا في الدرس الفائت إما على الاستهزاء وإما على الاحتجاج بالقدر، وهذا يفعله عامة العصاة، إما أن يستهزئوا بأنهم لا يفهمون، لم يفهموا هذا الكلام الذي جاء به أو أن عندهم من العلم وعندهم من الحق ما يكفيهم وليسوا بحاجة لما جاء به النبي، وإما أنهم مشغولون عنه ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، لا نأتي مشغولون عنك، هذا يأتي بمعنى الغلف فهي مغلفة لا تسمع ولا تعي ولا تفهم ما تخاطب به، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، واللعنة هي الطرد من رحمة الله، وهناك قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥)﴾ [النساء:

١٥٥]، هنا ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ﴾، هي نتيجة الطبع أي قد امتد هذا الأمر فيهم وسيسري فيهم، لماذا سيسري فيهم ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾؟ لأن الآيات التي جاءت على أمثالهم تخضع لها الجبال ويخضع لها كل منصف، فلما كفروا بمثل هذه الآيات لن يؤمنوا بمثيلها، فرفع الله عز وجل عليهم الطور، رأوا البحر كيف ينشق، رأوا بأم أعينهم كيف سلط الله عز وجل على القبط الديدان وسلط عليهم الدم وسلط عليهم الضفادع وسلط عليهم الطوفان، فرأوا الآيات فبعد أن تُرى هذه الآيات فهل يمكن أن يهتدوا بعد أن كفروا بهذه الآيات؟!! ولذلك وقعت اللعنة، وهكذا إذا كان الأمر على هذا المستوى من الكفر، الله لا يقبل منهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧)﴾ [النساء: ١٣٧]، خلاص انتهى الأمر.

ولذلك لما الله عز وجل بيّن أن المؤمنين إذا خرجوا إلى مغانم ليأخذوها، يقول المخلفون، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]، خلاص المسألة في أولها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)، وهذا يعلم الناس جميعًا بأنه عليهم أن لا يتلاعبوا مع الحق، فإن المعرض عنه ابتداءً مع علمه بالحق اتباعًا للهوى وتكبرًا عليه؛ يطبع الله على قلبه فلا يهتدي، ويُلعن فتبقى اللعنة سائرة فيه إلى أن يموت، وإلى أن يلقى الله سبحانه وتعالى فيعذب.

وقوله سبحانه وتعالى هنا: ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [البقرة: ٨٨]، ﴿مَا﴾، هنا زائدة، والزيادة في القرآن تدل على التأكيد، أي فقليلاً يؤمنون، وهنا ما معنى ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ قال بعضهم: ﴿مَا﴾ هنا نافية، لأن العرب كأنها تقول مررت على أرضٍ ما تكاد تنبت أو ما كانت لتنبت أو ما كانت نابتة فنفيٌ لها بأنها تنبت، فقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي لن يؤمنوا أبدًا، هذا قول.

وقولٌ آخر يناسب الآية التي في سورة النساء ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)﴾ [النساء: ٤٦]، إما أن يكون الحال في بيان درجة الإيمان وإما أنه في الإيمان ببعض والكفر ببعض، أي ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾، في بعض ما يؤتى إليهم ويكفرون في الكثير منهم، ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ مما يخاطبوا به من الأوامر والنواهي والعقائد.

والقول الثاني: ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي أن إيمانهم حين يخاطبوا يكون قليلاً، فالقول الأول نفى الإيمان عنهم كليًا، والقول الثاني أثبت الإيمان لكنه إيمانٌ ببعض وكفرٌ ببعض، فإذا كان هناك إيمانٌ ببعض وكفرٌ بعض دل على عدم وجوده، وإذا كان هناك الإيمان قليل، فالإعراض عنه يكون كثيرًا فهذا بحسبه، ليس خروج من الإيمان بالكلية، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [البقرة: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)﴾ [النساء: ٤٦].

وبعد هذا الأمر في بيان ما تكلم الله عز وجل عنه ذكر حالهم فيما تقدم في شرحه للآية التي تقدمت، قلنا: لما قال الله عز وجل بعد ذلك: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)﴾ [البقرة: ٨٧]، بعد أن جاءوكم بالبينات العظيمة، فهذا مثال وهذا حالكم اليوم، فإن كان قد صنع أجدادكم هذا في الأنبياء السابقين فأنتم تمشون على نفس السيرة وعلى نفس الطريقة لا تختلفون عن آبائكم وأجدادكم، وبالدليل هذا انظروا إليه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة: ٨٩].

وكان اليهود إذا غُلبوا في قتالهم مع العرب، وذكروا قتالهم مع حلفائهم من أهل المدينة، وقال بعضهم: لا، مع قتالهم مع غطفان فقد كانت تنتصف منهم غطفان من أهل الطائف، فكانوا يُغلبوا، فيرطبوا قلوبهم بهذه الهزيمة أن النصر آت، ويحلفون ويهددون خصومهم الذين ينتصرون عليهم في المعارك أنهم سيهزمونهم عندما يأتيهم النبي الموعود الملك الذي سيؤدي بهم إلى حكم العالم، اليهود سيحكمون العالم من خلال الملك الذي سيأتيهم، هكذا وعِدوا، فكانوا يعلمون أن هناك ثمة نبي قادم في هذه الموطن وفي هذه الأرض، بل كانوا يقولون: قد أهل زمانه واقترب وقته وهذا سيكون من اليهود والله عز وجل سُينزل معه شهب النار وينصر اليهود وينصر هذا النبي على العالمين وسيكون اليهود هم أسيد العالم، هذا الاعتقاد ما زال يسري فيهم، اليهود ما زالوا ينتظرون هذا الملك الموعود.

وهو في الحقيقة –كما كتبت في بعض أبحاثي– أن هذا الملك هو نفسه وعينه الدجال، وهو نفسه مهدي الروافض، أي هذه الشخصيات الثلاث هي حديثٌ عن شخصيةٍ واحدة، وهو الدجال الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم: أنه سيأتي من اليهود، وهو من اليهود كما في الحديث، من عائلة يهودية،

ويكون وزرائه ومستشاروه سبعون الفًا من يهود أصفهان عليهم الطيالسة، فهو يهودي ومستشاروه واقرب المقربين له من اليهود، وكذلك مهدي الشيعة، ومهدي الشيعة في كتبهم، في كتاب «الكافي»، وغيره، يقول: بأنه يتكلم العبرانية ويحكم بشريعة موسى وداود، فهذه صفات ملك يهودي يتكلم العبرانية ويحكم بشريعة اليهود، وهو الملك اليهودي إذن هو ملكهم الذي سيأتي، فهذه من صفات هذا الملك الذي ينتظرونه.

فكانوا يستفتحون على الكفرة –على العرب الكفار–، ما معنى ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾؟ يعني يقولون: أن الله سيفتح لنا نصرًا عليكم، والفتح هنا كقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح: ١]، والفتح هو النصر، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، هذه مقالة ربنا سبحانه وتعالى للمشركين من قريش؛ لأنهم استفتحوا النصر على صاحب الحق، كما قال أبو جهل: اللهم انصر أولى الطائفتين بالحق، فقال تعالى: أن ﴿تَسْتَفْتِحُوا﴾، أي طلبتم أن ينصر الله عز وجل صاحب الحق فقط وقع، ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾، وقد نزل على صاحب الحق وعلى أولى الطائفتين بالحق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجنده.

فهؤلاء كانوا يقولون: عندما يأتينا الملك اليهودي والنبي الموحى به من عند الله عز وجل، وهو نبي آخر الزمان، سننتصر بهذا النبي عليكم، فأنتم كنتم تعلمون هذا النبي وتعلمون مخرجه من أين خرج، وتعلمون صفاته، وتعلمون هيئته، ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فلما جاء هذا النبي كفرتم به، لماذا؟ لأنه على ما تقدم من الخبر ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ﴾، فإذن هذه الآية هي شرحٌ لهذه الآية بأنه هناك نبيٌ جاء على خلاف هوى أنفسكم والنبوة ليست على هوى أحدٍ من البشر، لأن الهوى مذمومٌ من كل وجه، وإنما النبوة عطاءٌ إلهي تعطى لمستحقيه من أجل تثبيت وتوحيد الله عز وجل في الأرض، تثبيت التوحيد، ومن أجل نشر الخير والعدل والحق والشريعة وإقامة الدين، وليس من أجل نصرة قومٍ على قوم، لا بالعشيرة ولا بالنسب ولا بالعائلة، فهم طلبوا نبيًا من أجل أن ينتصروا هم، لماذا ينتصرون على غيرهم؟ ما الذي عندكم من الخير؟ فجاء هذا النبي كما كنتم تستفتحون على ما طلبتم ولكنه جاء على غير هوى أنفسكم لأنه لم يكن نبيًا من بني إسرائيل.

وفي الحديث عند أبي داود: لما جاء اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه أسئلة ليستوثقوا أنه النبي، فسألوه فلما انتهوا من الأسئلة والأجوبة، ظهر لهم صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نشهد إنك لرسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: وما يمنعكم من اتباعي؟ قالوا: أخذ علينا العهد ألا نتبع ألا نبيًا من بني إسرائيل، وكذبوا، ليس هناك ثمة عهد بينهم أن لا يكون النبي إلا من بني إسرائيل، لا يوجد، لكنهم بسبب أهوائهم وهذا هو السبب لا غير، ثم هو لزعمهم أن النبوة كما نرى في أبناء إبراهيم عليه السلام، فإسماعيل كان نبيًا وإسحاق كان نبيًا، فسرت النبوة في أبناء إسحاق، وانقطعت النبوة من أبناء إسماعيل عليه السلام، وبقيت منقطعة حتى وصلت إلى خير الأنبياء وإلى خاتمهم وإلى سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم، ليتحقق دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة: ١٢٩].

فانقطعت النبوة من نسل إسماعيل عليه السلام، وبقيت النبوة في نسل إسحاق ثم يعقوب الأسباط وهكذا، حتى وصلت عيسى عليه السلام وكان هو خاتم الأنبياء قبل النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يأتي نبيٌ بعد عيسى عليه السلام، وكل هؤلاء الأنبياء من بني إسرائيل، سليمان وداوود ويوشع إلى غير ذلك، كل هؤلاء من بني إسرائيل، فهؤلاء لما جاءت النبوة على خلاف مرادهم؛ كفروا، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة: ٨٩].

نلاحظ في هذه الآية ترداد كلمة الكفر، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾، ولم يقل أحد: ترداد كلمة الكفر غير مناسب، إنها تناسب الحال، فلما تجد طالب علم وتجد عالماً يتحدث عن المكفرات إذا انتشرت في الناس، وغلب الجهل عليهم في المكفرات، فيأتي الجاهل يقول: ألا تعرفون الحديث إلا عن التكفير؟!! وهو أعظم ما يتحدث عنه، لأنه مما إذا اقترف الناس المكفرات، نقضوا إيمانهم ولا ينفعهم بعد ذلك القيام بالشرائع، إذا أتوا بالكفر، فالواجب أول ما يتعرف الناس هو التوحيد، ومن واجبات تعلم المرء التوحيد أن يتعلم ما ينقده، وهو الكفر والشرك، يجب عليه أن يتعلمه.

وهذه الآية كذلك تحذيرٌ لأمة الإسلام، بأن الكثير من الناس يأتون إلى الحكم ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)﴾ [النور: ٤٩]، يأتون إليه ويقولون نحن نريد الحق، فإذا جاء الحق على خلاف ما يطلبون وما يأمنون وما تهوى أنفسهم؛ كفروا وهربوا، والكثير من الناس تركوا الحق بسبب أهواءهم، تركوا الدين بعضهم ترك الإسلام بسبب أنه جاء على خلاف أهواءهم.

جبلة بن الأيهم الغساني، يقال: أنه أسلم، وكان ملك الغساسنة، وهذا لما أسلم فذهب إلى العمرة وهو يطوف وكان يطوف بثيابٍ مسبلة مع بقاية جاهليةٍ فيه، فوطئ ثيابه رجلٌ إعرابي، فلطمه، فاشتكى هذا الإعرابي الفقير الأمر إلى عمر الفاروق رضي الله عنه، فطلب أن يقتص منه، فاستأذنه إلى ثاني يوم ليقتص منه وفي الليل، فآذن عمر رضي الله عنه، ففي الليل حمل أهله ودوابه وأمواله وهرب بهم إلى الشام، إلى الروم وتنصر، ما الذي دفعه؟ دفعه الهوى، الإعراض، وبقي مشركًا وذكر في كتب التاريخ، أن بعض المسلمين لما دخلوا الشام مروا عليه فأراد أن يسلم على أن يعفوا عليه عمر، فاستأذنوا عمر رضي الله عنه، فجاء الخبر بالعفو عنه، ولكن بعد فوات الأوان فكان قد مات، قصة هذا الرجل مشهورة فكثير من الناس إذا لم يأتي الدين على أهواءهم كفروا به، ويظنون أن ميزان الحق الإلهي الذي ينزله على الأنبياء ويقاتل عليه الأنبياء ويقاتل عليه المؤمنون، هو أن يأتي الحق أهواءهم وعلى منوالهم وعلى شهواتهم، ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ [المائدة: ٧٠]، ولا بد الحق أن يكون من عشيرتهم أو يكون من أبناءهم، ميزان النبوة ليس له هذه الموازين التي عند الناس، ولذلك لما اختار النبي طالوت ملكًا، رفض اليهود لأنه ليس من أهل القريتين عظيم ولم يؤتى سعةً من المال.

وهذه كلها موانع لاتباع الحق بعض ظهوره، وهؤلاء كانوا يعرفونه، ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة جاء اليهود يستطلعوا صفات هذا النبي، فوجدوها كما هي عندهم، وكم من واحدٍ من اليهود جاء ليستطلع صدق هذا النبي، فلا يوجد يهودي قط حول المدينة ولا في الجزيرة في حقيقة نفسه وسر نفسه إلا وهو عالمٌ بأن النبي صلى الله عليه وسلم هو رسول الله، وحتى النصارى، لما جاء نصارى نجران إلى المدينة فرأوا النبي صلى الله عليه وسلم ورأوا صفاته عليه الصلاة والسلام فأبوا أن يسلموا، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يباهلهم فلم يقبلوا المباهلة، وهم راجعون أحدهم عثر فقال: تعس الأبعد، سب على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له أخوه الكبير الراهب بل أنت تعست، والله أنه لصادق، قال: لماذا لا نتبعه ما دام

أنه صادق؟ فذكر له أنهم في الروم من أشراف الناس وأعطاهم الروم السيادة والمكانة الدينية والأموال، فهل يترك كل هذا من أجل أن يلحقوا بهذا النبي؟ أخوه لما علم الحق في الليل قام ولبس ثيابه ورجع الى المدينة وأسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، والمقصود بالكتاب هنا هو القرآن، وهذا القرآن كل ما فيه يصدق ما جاء من كتاب اليهود وهو التوراة، انظروا إلى الشرائع الاختلاف في الشرائع قليل وإنما ما حرم عليهم من الطيبات عقوبةً لهم، وإلا فباقي الشرائع كما جاء في التوراة جاء في القرآن، ومن هنا يقول الزنادقة المعاصرون: بأن الشرائع المحمدية مأخوذة من الموسوية وليست شريعة، فإذا جاءوا ليبطلوا شريعة من الشرائع قالوا: هذه ليست من الإسلام هذه جاءتنا ودخلت علينا من اليهودية، مثلاً: كما يحاربون قطع اليد، كما يحاربون حكم الردة، كما يحاربون الحجاب وغطاء الوجه ويقولون: هذه أخذت من اليهود، نعم هي ديانة كل الأنبياء.

فلذلك هذا الكتاب، ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٨٩]، أي أنه مثله، قال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾، يطلبون الفتح والنصر والتأييد، ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي من العرب المشركين، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾، هذه الجريمة، يعرفونها، ﴿كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ تأكيد، ماذا قال ربنا عز وجل قبلها؟ ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، طردهم الله عز وجل من رحمته وسرى هذا الطرد من رحمة الله فيهم وفي أبنائهم؛ لسيرهم على منوالهم وعلى طريقتهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)﴾ [البقرة: ٩٠]، هؤلاء باعوا شيئًا والمقصود بالبيع هو الترك، فسمى الترك بيعًا، هم لا يملكون الحق حتى يبيعوه، وإنما كان الحق بين أيديهم معروضًا ليأخذوه ويتركوا ما ملكوا من الباطل ومن الديانات الباطلة ومن العقائد الفاسدة، فلما تركوا سمى الله عز وجل هذا الترك بيعًا، فقال تعالى: ﴿بِئْسَمَا﴾، وبئس تقال للتقبيح، وهي ضد نعمة، فقال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بئسما باعوا به أنفسهم، ماذا اشتروا؟ باعوا أنفسهم، ضيعوها، لماذا

أضاعوها؟ ووضعوها في غير محلها؛ لأنها ستعذب وستهان ولا قيمة لها، ماذا اشتروا؟ الضلالة، اخذوا الضلال، فأخذوا الضلال لأنفسهم وباعوا أنفسهم أي أهلكوها، هذا هو القول الصواب.

وقال بعضهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا﴾، إنما هو على ظاهرها أي اشتروا الضلالة، ذلك لأن المرء إذا جاءه العذاب أو جاءه ما ينفعه دفع كل شيء، فهؤلاء شروا أنفسهم بشيءٍ دفعوا به، ما هو الذي دفعوه هو الباطل، هذا ذكره أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط»، ورده ونسبه لبعض من قال به، والصواب هو هذا أنهم باعوا أنفسهم واشتروا الضلالة.

قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾، أي بئسما فعلوا هذا بما وقع منهم بأنهم كفروا بما أنزل الله عز وجل، هذا الكتاب الذي جاء به هذا النبي من الذي أنزله؟ أنزله الله سبحانه وتعالى ﴿بَغْيًا﴾، لماذا هذا سَبَبُ سَبِب لهذا الكبر الذي وقع منهم، ولماذا وقع منهم هذا ما اشتروا به أنفسهم؟ ﴿بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾، أي بغوا، ظلموا، جحدوا، أن هذا الحق نزل على غير أهوائهم، ﴿بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾ أي الكتاب، ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ لأن النبوة فضل وليست بالكسب وليست بالدعوة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فالنبوة ليست كسبًا، لا يصح أن نقول: أن المرء كلما اجتهد بالعبادة فوصل إلى درجة من العبادة يكون نبيًا!! فالنبوة ليست كسبًا، لا يكتسبها الناس اكتسابًا مهما بلغت درجة عباداتهم وتقواهم، النبوة اصطفاء، بما اصطفى الله عز وجل هارون عليه السلام؟ بتزكية أخيه له وبحاجته له، فكان خير شافعٍ، وخير نعمة قدمها أحدٌ لأحد في هذه الدنيا، هي النعمة التي قدمها موسى عليه السلام لأخيه هارون عليه السلام، أنه اختاره نبيًا ليعينه على مهمته العظمى، فالله عز وجل آتا موسى عليه السلام سُئله؛ فصار فضل موسى عليه السلام على هارون عليه السلام من أعظم فضل بشرية بعضها على بعض.

إذن النبوة من فضل الله عز وجل، هذا فضل يعطيه الله عز وجل ليس بيدك، ليس لك أن تحجر على نعمة الله، ليس لك انت أن تقيد نعمة الله، ولذلك لما قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، قالَ تعالى: (مَن ذا الذي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أنْ لا أغْفِرَ لِفُلانٍ)، أي من الذي يحلف على الله عز وجل أن يفعل!! من هذا! ولذلك

لما قال صلى الله عليه وسلم: التحيات لله والصلوات والطيبات)، فهو كل شيء لله عز وجل، فلذلك لا يجوز لأحد أن يحلف على عز وجل أن يفعل هذا إلا على معنى الرجاء.

ولذلك كما في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (لو أقسم على الله لأبره)، ليس على معنى أن يقع هذا الفعل من الله عز وجل بسبب هذا المتألي أو هذا الخالف، وإنما يقع على معنى الرجاء، يدعوا الله عز وجل دعاءً يصل به أن يستغيث به لدرجة الحلف، فقال صلى الله عليه وسلم: (لو اقسم على الله لأبره)، وليس المتألي وشرطها أن تكون في الخير، فلا يجوز لأحد أن يجبر ربنا سبحانه وتعالى على شيء، فالله عز وجل يعطي بفضله ويمنع لعدله، يعطي بكرمه ويمنع لعدله وحكمته، فلذلك هؤلاء بغوا. لماذا قال لما نظروا ان فضل الله نزل على غير مرادهم ﴿بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فالنبوة ليس كما يقول بعض الصوفية، والنبوة هي أعظم درجات الولاية، وليس كما يقول بعض الصوفية؛ لأن بعضهم يقول: إن خاتم الأنبياء فيه إشارة في بعض كلامهم إلى أن خاتم الأنبياء خيرٌ من خاتم الأنبياء، وهذا كفر وردة، إذا اعتقد أحدٌ أن هناك من البشر من غير الأنبياء خيرٌ من نبيٍ من الأنبياء فقد كفر، النبوة اصطفاء وهي أعلى درجات الولاية والقرب من الله سبحانه وتعالى،

قال تعالى: ﴿بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾، هذا الفضل فيه اختيار رباني، ولكن، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾ [القصص: ٦٨]، فالله عز وجل يقدر أن يخلقك غير ما خلق، ولكنه سبحانه وتعالى اختار أن يخلق هذا الخلق، وبعد أن خلق اختار، اختار أزمنةً على أزمنة، فهناك زمان خير من زمان، رمضان خير الشهور، الأشهر الحرم خير الشهور، العشر ذي الحجة خير الأيام، ليلة القدر خير الليالي، وهناك أراضي اختارها الله عز وجل على بقية الأراضي، كما اختار مكة على غيرها واختار المسجد النبوي على غيره من المساجد سوا المسجد الحرام، والله اختار بشرًا على آخر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)﴾ [آل عمران: ٣٣]، اصطفاهم فهذه مشيئته، ولكن مشيئته دائمًا محاطةٌ بحكمته وعدله، ربنا سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل جل في علاه، ولكنه لا يختار سبحانه وتعالى إلا على وفق الحكمة، وإلا على وفق العدل، لئلا يكون لناس عند الله حجةٌ في شيء، قال تعالى: ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

فكانت نتيجة هذا كله من ممارسات وأعمالهم، قال تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾، ﴿فَبَاءُوا﴾ يعني استحقوا أو مضوا، باء، بوء، إي أنت تستحق هذا أمكث هنا، امض لهذا الأمر وليس لك غيره، امض في هذا الطريق من اللعنة وليس لك غيره، أنت تستحق هذا الحكم ولا وليس لك غيره، قال تعالى: ﴿فَبَاءُوا﴾ أي استقر أمرهم على هذا الحال، ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾، انظر هذا العذاب العجيب! في تكراره وفي أوصافه! ماذا حكم الله عز وجل عليهم؟ قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا﴾، وهو وصفٌ يستحق العذاب، أن يكون المرء كافرًا؛ لأن الكفر هو ستر الحق، وهو مذمومٌ من جهة نفسه، وبعد ذلك قال تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾، لعنهم الله عز وجل، ثم وصف فعلهم ﴿بِئْسَمَا﴾، وصف فعلهم أنه فعلٌ يستحق البؤس، قال تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾، والآن غضب.

وهنا في قوله تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾، هل الغضب الأول غير الغضب الثاني؟ أم هو غضبٌ واحد فيه التكرار؟ اختلف أهل التفسير وأغلب الأوائل من السلف على أنهما غضبين، أي أن الغضب الأول يختلف عن الغضب الثاني، فما هو الغضب الأول؟ -اختلفوا فيها- قال بعضهم: الغضب الأول بما جرى من كفرهم بعيسى عليه السلام، والثاني: بما جرى منهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فباءوا بغضبين: الغضب الأول بكفرهم بعيسى عليه السلام، فقد غضب الله عليهم، والآن بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فغضب الله عليهم.

وقال بعضهم: الغضب الأول بكفرهم بما أُنزل من التوراة، فكثيرًا ما كفروا به، فباءوا بغضب، والغضب الثاني: بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقال بعضهم: المقصود بالغضب الأول هو الثاني وإنما جاء لتكرار لشدة الغضب وهوله فيما وقع منهم.

قال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)﴾ [البقرة: ٩٠]، القرآن يصف لنا العذاب بأنه أليم، أي يقع به الألم، وهذا وصفٌ لحال من وقع عليه، ويقع العذاب: عذابٌ أليم وعذابٌ عظيم وعذابٌ مهين.

عذابٌ أليم: هو بنسبته إلى من وقع عليه، لأنه إذا تألم كان العذاب أليمًا.

وعذابٌ عظيم: بنسبته إلى صفة العذاب العظيم.

والعذاب المهين: بنسبته إلى كليهما، أنه هو في نفسه مهين وانه كذلك يهين صاحبه.

والمتأمل أن وصف العذاب المهين يكون مناسبًا لمن فيه عتوٌ وغرورٌ وكبر وترفع، لماذا الإهانة؟ الإهانة وهي الخزي والعار، وقد يكون العذاب ليس أليمًا في نفسه أي لشدته وليس عظيمًا لكثرته، ولكنه يكون مهينًا بالنسبة لنظر الناس إليه، يعني لو أن رجلاً عظيمًا في الناس جاء واحد إليه وضربه على وجهه أو بصق في وجهه فهذا عذاب، وهو عذاب مهين، ولكنه ليس أليمًا، أن المرء لا يتألم به من جهة جسمه، وإنما أهانه من جهة نفسه، وليس عظيمًا لكثرته، لم يضربه بالسيف، لم يحرقه بالنار، ونرى أن السياق إذا كان الحديث عمن أصيب بالغرور أو الكبر أو الترفع أو سعى لشيءٍ من هذا ليتحصله على طريقة المعصية جُزي بعذابٍ مهين.

وهذا العذاب المهين لماذا؟ ﴿بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧]، هؤلاء اليهود يرون أنهم هم خير الناس، وليس عليهم في الأميين سبيل، وأن اليهود هم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لا يعذبهم، فإن عذبهم، عذبهم أيامًا معدودة من أجل تحلة القسم ومن أجل نفاذ الوعيد فيما اقترفوه من معاصي، فإذن عندهم غرور وعندهم كبر، وهذه الصفة تسري فيهم إلى الآن، يعني الذين يدرسون الحالة اليهودية، لماذا اليهود في العالم مكروهون؟ ومبغوضون لماذا؟ هو هذا، هو علم الناس بأن هؤلاء القوم ينظرون إلى بقية البشر أنهم دواب «غوييم»، وأن أموالهم مباحة وأشياءهم مباحة ودماءهم مباحة.

وتعرفون قصة الفطر في أعياد الفصح، يأتون بأحد من «غوييم» المسلمين أو من النصارى فيذبحونه ويخلطون دمه بالفطير ويأكلونه، وهو كعك العيد عندهم، فطير اليهود في عيد الفصح يجب أن يكون مخلوطًا بدم أحدٍ غير اليهودي، وقصة الدكتور أو الطبيب توما في دمشق مشهورة ومسجلة في الوثائق، واليهود يحاولون الاستهزاء بهذه العقيدة، ولما كانت أمهاتنا في صغرنا يهددن الصغار ويقلن: إياك يأتي اليهودي يسرقك ويشرب دمك، الحقيقة هذه ليست من فراغ وليست أسطورة، هذه حقيقة، وفي «الكنز المرصود في فضائح التلمود» لأحدهم قدم له الشيخ –شيخنا الأستاذ مصطفى الزرقا– قال: كانت أمهاتنا في حلب –وهو حلبي– كنا يهددننا ونحن صغار بأن اليهود سيسرقوننا ويشربون دمائنا، وثبت أن هذه

حقيقة، عائلة أبي العافية المشهورة في دمشق وهي يهودية أحضرت طبيبًا نصرانيًا وذبحته من أجل هذا، وهذه مثبتة في التلمود عندهم، ولكن الآن قد يقول قائل: لماذا لا نرى هذا؟ لا يوجد ضرورة فالآن بنوك الدم منتشرة، يعني قد يسأل سائل: لماذا لا نسمع يسرقون الأطفال؟ ما في ضرورة، بنوك الدم موجودة ولهم أتباع في البنوك يأخذون كيلو دم ممن عرفت أسماؤهم، خاصةً تعرفون أن بنوك الدم إذا أخذت دم من أحد يسجل اسمه، فيعرفون هذا يهودي أو غير يهودي فيخلطونه ويأكلون، فلا توجد ضرورة اليوم لقضية القتل.

والقصد من هذا: يشعرون أنهم خير البشر، فعقيدة اليهود في التوراة تقوم على أنهم شعب الله المختار والأرض مُلكٌ لهم والبشر بهائم خلقوا لخدمتهم، وتجد هذه العقيدة في كل التوراة، مبثوثة في كل صفحة من صفحات التوراة، اليهود شعب الله المختار، الأرض مُلكٌ لهم، كل الأرض، يعني فلسطين فقط موطئ قدم ليزلفوا منها إلى العالم، والبشر بهائم خلقوا لخدمتهم، فإذن ما الذي يناسب هذا الاعتقاد من الغلو في النفس والتكبر؟ ما هو العذاب المناسب له؟ الإهانة، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

وقد يسأل سائل: لماذا نرى العذاب المهين في سورة «النساء»؟ نجدها مكررة؟ ولما قال الله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤)﴾ [النساء: ١٣-١٤]، لماذا ذكرت الإهانة هنا؟ الناس لماذا يسرقون حقوق الأيتام؟ ولماذا يجورون على النساء في عدم إعطائهن الفرائض والارث؟ طلبًا للعزة، يريدون المال الغنى، فيطلبون الغنى من أجل العزة من أجل الرفعة، فناسب هذا إهانتهم في ضد ما سألوا، «ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه»، طلبوا العزة بالمعصية فكانت النتيجة أن لهم عذاب مهين، وهكذا نجد أن صفة العذاب المهين فيمن كان يناسب حاله من الكبر والغرور أو طلب هذا الأمر على غير وجهه الصحيح فناسبه العذاب المهمين.

والشيخ الشعراوي له لفتة، لا أدري هل هي منه؟ أم من غيره؟ قال: الألم قد يصبر عليه أي العذاب الأليم قد يصبر عليه المرء، فإذا جاء العظيم صرخ حتى يعرف منه الألم في نفسه.

قال تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)﴾، وهنا تكرر وصف الكفر في اليهود، ولذلك لا يجوز لأحد اليوم يزعم أن اليهود ليسوا كفرة؛ لأن هناك دعوة مجرمة في هذه الأيام تسري

بين الناس، وهي تقوم على قضية عدم اعتبار دينٍ من الأديان أنه هو الحق وبقية الأديان باطلة، وأن أتباع هذا الدين هم أهل الجنة وأن أتباع الأديان الأخرى أنهم في النار، هذه وحدة الأديان وإماتة الولاء والبراء، القرآن يقرر انظر هذه الأوصاف: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)﴾ [النساء: ٤٦]، وصفهم بأنهم كفروا لما جاءهم كتاب عند الله مصدق لما معهم وهكذا الله عز وجل لعنهم، الله عز وجل وصفهم بأنهم يستحقون هذا الوصف: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٩٠]، وكذلك ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)﴾ [البقرة: ٩٠]، ونحن نعلم أن كلمة الغضب الإلهي تكون صفة لمن علم الحق وأنكره، لما تقدم، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]، فالضالين غضب الله عليهم، ولذلك ماذا قال الله عز وجل عن المرأة الملاعنة التي ترد إيمان زوجها مع علمها بصدقه؟ قال تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧)﴾ [النور: ٧]، فلما جاء وصف المرأة وهي تعلم أنه على الحق، قال تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ [النور: ٩]، لأنها تعلم الحق، فلذلك ناسب هذا وهذا، وهؤلاء على هذا المعنى أصابتهم اللعنة وأصابهم الغضب.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)﴾ [البقرة: ٩١]، هذه الصفة اليهودية تسري في كثير من الأمم وتسري في كثير من الأتباع وتسري في كثيرٍ من الأقوام أنهم يقيدون الحق إذا جاء من جهةٍ معينة فإذا جاء من غيرها لم يأخذوه، هذه تسري، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، الحق جاءهم من غير مرادهم، وهذا نفس الشيء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، إذن العبرة ليست فقط في النبي، وإن كان هذا النبي وهو الوسيلة كان حقًا، فيصبح الإيمان به من الإيمان بالله.

وهنا ينبغي أن نعلم أنه لا يكفي أن تؤمن بالحق، ولكن الحق كذلك أمتحن بحملته من قبل المدعوين إليه. امتحنوا، المطلوب من أن نعبد الله عز وجل، وكذلك طلب منا أن نعلم أن طريق العبادة لا تأتي إلينا إلا من طريق هذا الرسول، فصار هذا الرسول ركنًا من أركان الإيمان وصار تعزيره وتوقيره وتعظيمه ركنًا من أركان الإيمان، ولذلك الرجال ليسوا فقط مجرد أسماء، الرجال هم الدين لأنهم حملوا الدين، صاروا جزءًا من الدين لأن الدين صار لا يعرف إلا من خلالهم، كما أن الحق لا يعرف إلا من خلال النبي، فكذلك الحق

في كل وقت لا يعرف إلا من خلال الرجال، فيطالب المؤمن بالاحترام والتقدير لهؤلاء، وزعمه أنه لا يريد الا الحق فقط بغض النظر عن الرجال، هذا سيمتحن في هذا يومًا من الأيام، وهذه اليهودية التي تسري اليوم للأسف في الكثير من الأحزاب وفي الجماعات وفي التنظيمات وفي المشيخات وفي المدارس وفي المذاهب، أنه إذا جاءه الحق من طريق شيخه ومن طريق حزبه ومن طريق جماعته آمن به، فإذا جاء من غير طريق جماعته وحزبه وشيخه ومذهبه، أنكره ورده، ويمتحن الناس وطلبة العلم في هذا في كل يوم، في كل يوم تمتحن الجماعات في هذا الباب، ليس فقط اليهود.

فهؤلاء اليهود ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، وذلك لأن الحق له طريقٌ واحد، وما هو هذا الطريق؟ ما أنزل الله عز وجل، الحق ليس له مصدر إلا أن يأتي من السماء ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، لم يعتبروا أن الحق مقرونون بما أنزل الله عز وجل، ليس هذا، جعلوا للحق شروطًا لقبوله، وهذه فتنة، فتنة لا يجوز لك أن تضع على الحق شروطًا لتقبله، نعم مُطالب أهل الحق بأن يقدموه للناس بأحسن مقال، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، فأنت أن تكون حكيمًا وأن تكون أديبًا وأن تكون مُحسنًا وأن تكون خلوقًا وأن لا تستخدم ألفاظ السوء في الدعوة إلى الله عز وجل وأن تخاطب الناس بالحكمة وتخاطبهم بما تعرف عقولهم، لا بما تنكره ولا تقدر عليه.

ولكن هب أن الحق جاء على خلاف ما تهوى أنفسنا وجاءنا بغير هذه الشروط، جاءنا رجل وحمل الحق مع شيء من الشدة والغلظة، فهل نقول نحن لا نقبل الحق إلا أن تأتي به على الوجه الصحيح؟ هو آثمٌ أنه قدم الحق بغير وجهه الصحيح، ولكن الإثم عليك أكثر حين رددته، الحق إن جاءك وأنت غضبان يجب أن تقبل به، فغضبك لا يعذرك في عدم قبوله، الحق إن جاءك من عدوك يجب عليك أن تقبل به (الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها)، في الخصومة إن جاءك الحق يجب أن تقبل هذا الحق، إذا علمك أحد علم الحق من كتاب الله عز وجل ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم عليك أن تنتبه وتقول سمعنا وأطعنا كما هو شأن المؤمنين.

فهؤلاء إذا جاءهم الحق من السماء بما أنزل الله عز وجل اشترطوا، ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، إذا جاء الحق من قبل رجالنا، وإذا جاء الحق من قبل أنبيائنا، وإذا خوطبنا به ابتداءً؛ لأن الخطاب لبني إسرائيل

في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يكون تبعًا، أول نزل على من؟ قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فالخطاب نزل أولاً على النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغ عشيرته، دعا عشيرته، ثم ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فصار للعرب، ثم بعد ذلك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، فصار هذا الدين عامًا لكل أحد، فحين خوطب اليهود لم يخاطبوا به أصالةً، خطبوا به عن طريق، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾، لابد أن يكون أولاً نحن الذين ينزل علينا الكتاب من أجل أن نوزعه على الناس.

وأنتم تعلمون أنه لا يوجد دين عنصري، حتى اليهودية في أصلها ليست دينًا عنصريًا، هي لا تجعل اليهود خير الناس لمجرد أنهم يهود، وإنما اختيروا أن يكونوا خير الناس من أجل أن يحملوا هذا الدين، فإن لم يحملوه كانوا شر الناس، ولكن اليهود لإجرامهم حولوا هذا الدين إلى دينٍ عنصري، إلى أنهم فقط هم الذين خير الناس وأن الأرض مُلكٌ لهم وهم الشعب المختار، فهم شعب، والذين يحاولون الخلط بين كلمة شعب وبين كلمة أمة، بين قوم وبين أمة هؤلاء جاهلون، هناك أمة مسلمة بغض النظر عن عربي وعجمي، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولكن اليهود لم يجعلوا الخيرية في خارج إطار من هو من بني إسرائيل.

وحتى اليوم أنتم تعلمون أن اليهود الفلاشة في فلسطين، من يهود الفلاشة؟ هم اليهود الذين تهودوا من الأفارقة، وهؤلاء ليسوا من بني إسرائيل، تهودوا ديانةً ولكن أصولهم من السودان، أي من غير بني إسرائيل، إلى الآن يرفض الحاخام اليهودي الأول في اليهود أن يصلي عليهم صلاة اليهود، مع أنهم تهودوا؛ لأن اليهودية هي دينٌ عنصري خاص بشعب، فقالوا: نؤمن فقط بما أنزل علينا فقط، هذا هي الدائرة، حق باطل فقط الذي أنزل علينا ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾، أي من الحق، حتى لو كان حقًا يكفرن به، كما رأينا.

قال تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾، يعني غيره، خارج هذه الدائرة هي التي نؤمن بها وما وراء هذه الدائرة وخارجها لا نؤمن به، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾، هذا الذي كفروا به هو حق، الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق، الذي جاء به عيسى عليه السلام حتى هو من بني إسرائيل من قبل وكفروا به هو الحق، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾، هل هذا

الذي هو خارج ما أمنوا به يخالف ما أمنوا به وقد نزل عليهم؟!! سبحان الله!! هو يوافقه ولكن لأنه جاء على غير طريقهم الذي يريدونه ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)﴾، نقف إلى ها هنا ونسأل الله عز وجل أن يرحمنا برحمته والى الدرس القادم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع والستون

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نحمده تعالى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، ونصلي ونسلم على خير خلقه نبينا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس التاسع والستون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وكنا مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)﴾ [البقرة: ٩١].

وقفنا عند قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾، وهذا المقطع من السورة كله يجري على سَنن واحد فيما تقدم الحديث عليه، وهو أن علاقة هؤلاء القوم من بني إسرائيل مع هذا النبي، هي نفس علاقتهم مع الأنبياء السابقين، وأن ما يُحدثونه مع النبي صلى الله عليه وسلم من تكذيب وما يتعاملون به من رد الرسالة، هو ما حصل مع الأنبياء السابقين، وليست المسألة متعلقة بعدم وجود البرهان والبينات عند هذا النبي، يعني لا حجة لهم فيما يفعلونه، بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأتي بما يشهدوا لنبوته، بل تكرر في هذا المقطع القرآني وهو قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾، فمن نفس المشكاة ومع ذلك التعامل هو نفس التعامل في الرد.

فلما جاءوا إلى أمر الله عز وجل أنه أمرهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، لأنه هو الحق، العبرة بأنك لست مؤمناً بما أنزل الله عز وجل لأنه جاءك من هذا الطريق دون هذا الطريق، هذا الشرط وهو الاشتراط على الله عز وجل هذا فعلٌ يهودي، وفعل الضلال، يعني لا يجوز لأحد أن يتألى على الله عز وجل، ولا يجوز لأحد أن يفرض قانونه ومراده وهواه على الله عز وجل، لا يجوز، الله عز وجل أعلم حيث يجعل رسالته، والله عز وجل يختار من خلقه ويهدي من يشاء، وليس لأحد أن يراجع ربه أو أن يفرض قوله

كما فرضه إبليس، لا يجوز، لأن إبليس كان يعلم أن هذا هو من عند الله ولكنه رده استكباراً وإباءً واتباعاً لقياسه الموافق لهواه.

فهؤلاء اليهود لما قيل لهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، الذي جاء من طريق أنبيائنا وأما الذي جاء من طريق غيرنا وهم ما يسمى عندهم بالأميين أو الأمين أو «غوييم» كما في كتبهم، فهم لا يقبلونه، فالله عز وجل أكذبهم في هذه الآية، ورد عليهم بأنه قد جاءتكم النبوة والرسالة من الطريق الذي اشترطتموه، ومع ذلك قتلتم الأنبياء، الطريق الذي اشترطتموه وفي آيات أخرى والبينات التي اشترطتموها جاءتكم، ومع ذلك كفرتم بها وكفرتم بما قبلها، ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)﴾ [القصص: ٤٨]، كفرتم، فهكذا لما ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، قال الله عز وجل لهم: حتى الذي انزل عليكم من طريق أنبيائكم بما تحقق في هذه الرسالة من شروطكم لم تتبعوها، بل قتلتم الأنبياء، ولذلك بنو إسرائيل هم قتلة الأنبياء، وكانت فيهم النبوة الكثيرة، جعلكم ملوكا، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، فبنو إسرائيل أكثر الأمم أرسل إليهم الأنبياء، وذلك لكثرة فسوقهم.

أهل العلم كابن تيمية رحمه الله يقولون: لماذا هذه الأمة لم تحتج حتى إلى محدث وملهم؟ قال صلى الله عليه وسلم: (فلو كان في أمتي محدثون لكان عمر)، أي ليس في هذه الأمة محدث، فلو كان لكان عمر رضي الله عنه؛ لاستغناء هذا الأمة بالرسالة عن هذا الطريق، ولاستغناء هذه الأمة عن النبوة فيما يحدث العلماء فيها من إقامة الحجة، ومن بيان الحق؛ استغنوا عن الأنبياء، ولذلك جاء في الأثر وإن كان لا يصح، «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، أي يقومون بما قام به أنبياء بني إسرائيل، من سياسة الأمة ومن بيان الحق.

فلذلك الله عز وجل رد عليهم وقال: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾، هم ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)﴾، فكذبهم الله عز وجل، وهكذا يرد عليهم القرآن في كل حجةٍ عليه، لتنقطع الحجة، وفي كل مرةٍ نلاحظ هذا الاهتمام الشديد لهؤلاء القوم، والرد على شبههم، لماذا؟ لأن اليهود في هذا الباب هم أئمة البشرية في الحسد، لما قال الله عز وجل:

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا﴾ [البقرة: ٩٠]، ما هو البغي الذي منعهم من أتباع الرسول؟ هو الحسد، حسدوا هذا النبي، حسدوا أن تأتي الرسالة إليه، قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، حسدوا أن يأتي هذا الفضل على من اختاره الله عز وجل من غيرهم.

فهؤلاء اليهود هم أئمة الشر مع الرسالة، فكثرت فيهم الصفات التي بها ردوا على النبوة، وهذه الصفات التي ردوا بها على النبوة وتكبروا عليها وأعرضوا عنها سرت في الأمم الأخرى، الأمم الأخرى فروع لما تأصل عند اليهود من أسباب الرد على النبوة وعدم طاعتها، هم اجتمع فيهم الشر كله، ومع وجود الأدلة والبراهين على ذلك ولكن لم يتبعوا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾.

انظروا هنا هذا الالتفات الرائع في الآية والبلاغ الجليل، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾، الآن جاء ردهم ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، ولم يقلوا: ونكفر بما وراء ذلك، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾، ولم يقل: ونكفر، ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، دل ذلك على أنهم سكتوا ولم يأتوا بهذا اللفظ عند الكثير من المفسرين، يعني وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾، ليس هو من قولهم، وإنما هم سكتوا، ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، ويقفون، معنى ذلك أنهم يكفرون بما وراءه، فتغير الخطاب، هذا من إحدى الوجوه، فإذا كان التفاتا ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾، يعني قالوا: نحن نكفر بما وراءه، هذا وجهٌ وهذا وجه، إما أنهم لم يقولوا فسكتوا، وإما أنهم قالوا، فإذا كان من قولهم فهو التفات، وإن لم يكن من قولهم فهو بيانٌ لحقيقة واقعهم؛ لأنهم سكتوا فدل ذلك على أنهم لا يؤمنون بما وراءه وهو من مفهوم المخالفة.

قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾، ﴿تَقْتُلُونَ﴾، دالة على الحاضر والمستقبل، فعل مضارع، قال: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾، ولكن لم يرد بها هذا لقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾، فدل على الماضي، فاستخدم لفظ المضارع في الدلالة على فعل الماضي، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾، فدل على أنه من السابق، فلماذا أتى به هنا؟

– إما لجواز ذلك كما يقول المفسرون: بأن من لغة العرب جواز استخدام فعل المضارع للماضي.

– وإما لأمرٍ بلاغي وهو أن هذا الأمر سرى فيهم، فهو سرى من قبل وفي إشارة إلى ما يحمل من دلالة الاستمرار، فدل على الماضي باللفظ ودل على معنى الاستمرار بالمعنى، بما هو في داخله، ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾، فلم قتلتم؟ ولما تواصلون القتل؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وهذا رد عليهم ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾.

ومع أن هذا لم يأت به شرطٌ قرآني ولا شرطٌ توراة، يعني ما جاء في التوراة ولا في الإنجيل أنك لا تؤمن إلا بما جاءك من طريق أنبيائك، لم يأتي هذا، هذا كله من وضعهم ومن أكاذيبهم، فهنا خلط الأمر الشرعي –وهو الإنزال عليهم– خلط بالهوى والعنصرية، وهذا يقع في كثير ممن اقتدى باليهود.

فنحن نرى في هذا العصر مثلاً من أمثلة رد الحق في بعض البلاد، أنهم يجعلون الدين جهويًا أو يجعلونه عنصرياً، تجد البلد يقول: نحن مذهبنا كذا ونأخذ بهذا المذهب؛ لأن هذا الشيخ من بلدهم مثلاً، أو لأنه جرى هذا المذهب في أجدادهم، فيخلطون الدين بالهوى ويخلطون الدين بالعنصرية، هذه شبهةٌ يهودية، الحق لا يتعلق بالجهة، والحق لا يتعلق بالآباء ولا بالأجداد، الحق تكمن قوته في ذاته ويجب اتباعه لأنه الحق وليس لأنه أتى من هذا الطريق، وهذه قضية مهمة، العلماء ينبهوا على أنه يمكن للمرء أن يبدأ اتباعه لأمرٍ لأنه الحق، ثم بعد ذلك يختلط هذا الحق بأمرٍ نفسي، أو أمرٍ خارج عنه فيصبح هذا الأمر خارجي أغلب.

والإمام أحمد رحمه الله له فائدة عظيمة في هذا الباب تؤخذ في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنه قال: «إذا رأيت أحداً –معنى الكلام– إذا رأيت أحداً نهيته، قال: فإن لم يجبك، قال: أعرض عنه»، إذا رأيته على معصية، انهاه، وإذا أصر، قال: اتركه، وعلل ذلك رحمه الله «لئلا يختلط أمر أمرك له أو أمر نهيك له عن المنكر بانتصارك لنفسك أنه لم يطعك في الأولى»، انظروا إلى هذه الدقة، هذه قد تكون وقد لا تكون، فهذا لا يعني أن لا تكرر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن انظر إلى هذه اللفتة الإيمانية العظيمة الدقيقة في علم النفس، وهذه تقع في الناس، يعني يقف أحدهم فيأمر بالمعروف الناس، فلا يجدهم، فهو بعد ذلك لا يغضب أنهم تركوا المعروف الذي أمرهم به، ولكنه يغضب أنهم لم يطيعوه هو حين أمرهم بذلك، هنا الآن أمرهم لأمر ثم بعد ذلك دخلت فيه أمورٌ أخرى، فاحذر أن تصبح هذه اللواحق من الأشياء الأخرى أن تصبح هي الأصل ويغيب الحق.

ولذلك من جلال وعظمة ما يعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما حدثت حادثة الإفك، لما نزلت براءة أمنا عائشة رضي الله تعالى عنها، فقال أبو بكر رضي الله عنه لها: «قومي فاحمد رسول الله»، فقالت رضي الله عنها: «والله لا أحمده، ولا أحمد أحدًا، ولكني أحمد الله»، قال: «فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم»، ابن القيم قال: لماذا تبسم؟ وهذا من تجريده التوحيد، ومن تجريده في خلو الأمر عن أي شبهةٍ نفسية في نفسه، لا توجد شبهة، قال: «لأنها نسبت الحمد لمن يستحق»، فالنبي صلى الله عليه وسلم فرح أنها نسبت الحمد لله، فمرات الأمر بالمعروف يشتبه، هل أنت تأمر لله عز وجل أم أنك تأمر لأنه من جهتك.

وهذا نلاحظه اليوم في اختلاط الوطنية بالشريعة، نجد بعض البلاد مثلاً لها تاريخٌ في الدعوة إلى الله عز وجل، فهم يلتصقون بها ويجعلون التوحيد ملتحقاً بهم، يعني يجب أن تحب التوحيد ويجب أن تحب كذلك أبناء من دعوك إلى التوحيد، وربما يكون الأبناء من أفسق خلق الله وأفجر خلق الله، والورثة من أكثر الناس معاندة لدين آبائهم، لكنهم يوجبون عليك أن تحب الدين وأن تحب آبائهم وأن تحب بلدهم، تجد حتى أنهم يحدثونك عن بلدهم عليك أن تحب البلد، وكل هذا من الشر إياك، هذا يحدث هذا من الشر ومن اليهودية ولذلك هم خلطوا الدين بعنصريهم، بشعبهم، بأمتهم، فالتغت الشريعة أو ضعف أمرها، وبقي ماذا؟ بقي ما التحق بها من النسب ومن العشيرة ومن الشعب ومن العنصرية إلى غير ذلك، فلنحذر من هذه، هذه لفتات وهذه معاني يخلطها الناس، يخلطه بعضهم بعضًا فيها، وتجد اليوم الكثير ممن يتبع هذه الطريقة، فإذا جاء داعي إلى الله، موحدًا من غير طريقهم لم يلتفتوا له ولم يقيموا له شأنًا؛ لأنه لم يسلك مسالك وطنهم وبلدهم وعشيرتهم.

وتأكيداً لهذا المعنى في أن إعراض اليهود عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لا علاقة له بضعف البينات، ولا بالشبه التي يطلقونها على هذا النبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن بهذه السيرة:

شنشنة أعرفها من أخزم ... من يلق آساد الرجال يكلم

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)﴾ [البقرة: ٩٢]، من الذي جاءهم؟ موسى عليه السلام بالبينات، ما هي البينات؟ أي الآيات العظيمة، المقصود البينة

أي الآية العظيمة، وموسى عليه السلام أتى ببيناتٍ عظيمة، تسع آيات بينات ذكرها القرآن واختلفوا في عددها واتفقوا على أمور واختلفوا على أمور، لكن من أعظمها ما رآه اليهود معه من الآيات البينات على صدق نبوته، وعلى صدق دعوته وعلى صدق التوراة، فلما جاءهم بالبينات على صدق ما يدعوهم إليه من الحق، وآمنوا به وتحقق النصر والخروج من الذِلة والهوان الذي عاشوه على يده، وهذا أعظم دليلٍ على النبوة، ما هو أعظم دليل صدق النبوة؟ -القرآن هذا يذكره- ما هو أعظم دليل صدق النبوة؟ وبالتالي ما هو أعظم دليل صدق طائفة الحق؟ أن ينصرها الله عز وجل، مع عدم وجود الأسباب الموجبة للنصر في عالم الأسباب، في عالم الأسباب لا يتحقق.

مثلاً: لما أنت تدخل الآن -وأرجو أن نتأمل هذا المعنى- أنت إذا دخلت يوم الجمعة أو قبل أيام كان الناس يعيشون أيام الحج، انظر هذه الملايين العجيبة التي تحج، ولولا وجود القيود لحج أضعافها، هذه كيف حصلت في هذا الوجود، هذه الملايين التي تغدو إلى المساجد وتملأ المساجد في أيام الجمعة وفي أوقات الصلوات، هذا الأذان المرفوع في السماء في مشرق الأرض ومغاربها، لا يوجد قطعة أرض ليس فيها ساجدٌ لله عز وجل وعابدٌ لله عز وجل، وهو يردد ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ [الشرح: ٤]، «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»، كيف تحققت هذه؟ كيف تحقق هذا المعنى من نصرة الله عز وجل لهذا النبي صلى الله عليه وسلم بأن رفع الله ذكره وهو الرجل اليتيم الذي نشأ يتيماً ولا يملك شيئاً، وأين؟ لم يأتي إلى بلادٍ قد استقرت فيها القوة وغلب فيها السلاح واتبعته الجنود واتبعته الدول، وليس ملكاً ليسير الجنود من أجل دعوته، بدأ بالكلمة، ثلاثة عشر سنة وهو في مكة يدعو إلى التوحيد، من ينظر إليه يرى أن دعوته لن تنتصر، وفي المدينة في عشر سنوات لم يخرج خارج الجزيرة العربية، وبقيت الجزيرة العربية يعني في زمانه بعضها لم يدخل الإسلام والكثير منها دخل الإسلام، لكن لم ينتشر الدين خارج الجزيرة العربية، والجزيرة العربية ليست مكان سطوة في العالم، لا تملك أسباب السيطرة على العالم كما هو شأن الإمبراطوريات!

فكيف نصر الله هذا الرجل؟! ليس هناك تفسير إلا لأن هذا الرجل صادق وأنه له علاقة خاصة مع الله عز وجل الذي بيده كل شيء، والذي يقول للشيء: كن فيكون، فأعظم دليل صدقٍ لمحمد صلى الله عليه وسلم هو نصرة الله عز وجل له، هو انتشار دينه على بقية الأديان، وهذا الدين من ميزاته لا يوجد دين في الأرض حورب وعودي كما عودي هذا الدين وحورب، ولم يخلو وقتٌ من الأوقات من وجود كيد في الليل

أو النهار ضد هذا الدين، لا يوجد إلى يومنا هذا، والأعجب ما في هذا الدين أنه ينتصر في زمن ضعفه، الآن الدين يعني ليس حاكماً وليس عنده جنود تحميه، وليس له ممالك تتبناه وتدافع عنه، ومع ذلك هذا الدين ينتصر وينتشر، يسري في الناس، فهذا من أعظم الأدلة على صدق النبي صلى الله عليه وسام، وبالتالي هذا المعنى يسري في أتباع هذا الدين، أتباع الحق، في هذا العصر الحديث كم حورب أتباع هذا الدين؟ كم قُتلوا؟ ومع ذلك هذا الدين ينتصر، ونفس الطريق الذي يعذب به الناس يعودون إليه مرة أخرى لا يتركونه، يعني الذين يقفون أمام الطواغيت ويريدون تحكيم الشريعة هم أكثر الناس بلاءً، وأكثر الناس عذاباً، ومع ذلك إذا فتحت الطريق أكثر الناس دخولاً من الطرق المعروضة الدخول من هذا الطريق، هذه قاعدة القرآن ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ومن دلائل هذه الآية أنه إذا ذهب قوم، أتى آخرون، إذا ذهبوا استبدالاً وإذا ذهبوا فناءً، فيأتي غيرهم، وهكذا، هذا من أدلة صدق القرآن.

فموسى عليه السلام جاء بالبينات لبني إسرائيل، وأعظم البينة جاء بها أن الله نصره، وأن الله أعز بني إسرائيل فيه، واستخفهم في الأرض، وخرج من حكم فرعون، طاغية فرعون قد وصل إلى درجة أن يعلن بصراحة ألوهيته على قومه، قال تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤)﴾ [النازعات: ٢٤]، وصار يتمثل بصفات هذه الربوبية، قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١)﴾ [الزخرف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)﴾ [الزخرف: ٥٣]، هذه الأولى هي التي عاشها وهي ﴿أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾، هذه الأسورة التي كان يحملها والعرش الذي كان على رأسه.

ولذلك لما علق ابن تيمية رحمه الله على حديث مسند أحمد رحمه الله، أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على موسى في حادثة المعراج، فمر عليه فجعل موسى عليه السلام يصرخ ويحتج أن هذا الرجل الذي جاء من بعدي له أتباع أكثر مني ويصرخ، قال ابن تيمية: فلما رد جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم لما سأله: (من هذا)؟ قال: هذا موسى وقد اعتدنا عليه، يعني هذه طريقته في شدة الغضب عليه السلام، فقال ابن تيمية تعليقًا على الحديث: وصل يعني لهذه المرتبة في العفو عنه والتدله، ذلك لعظم ما قام به وأعظم ما قام به هو أنه واجه فرعون، رجل يقف هذا الموقف أمام طاغية البشرية فرعون، فهذا النبي عظيم عند الله عز وجل، بذل نفسه لله عز وجل، فأعظم ما جاء به ومع ذلك ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: ٩٢]،

فخرجوا بعد أن رأوا هذا النصر وأهلك الله عز وجل عدوهم فرعون، فما خرجوا من ذلك حتى عبدوا العجل، ذهب من أجل خيرهم، ومن أجل فضلهم ومن أجل أن يعرفوا العلم اللائق بهم من إقامة الشرائع فذهب فأحضر الألواح، فرجع وقد عبدوا العجل، ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)﴾ [البقرة: ٩٢]، أي من بعد ما خرج من عندكم إلى تلقي الألواح من الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٢]، يعني ماذا اتخذتموه؟ اتخذتموه إلها، اتخذتموه ربًا، اتخذتموه معبودًا، فهم عبدوه على القصة المذكورة في سورة «الأعراف»، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، والقصد هنا ﴿ظَالِمُونَ﴾ أي وأنتم مشركون، ذلك بأن الشرك ظلمٌ عظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣]، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أي بالشرك، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣].

فقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي تعليل ما فعلتم من هذا الفعل من أتخاذكم العجل أنكم ظلمة، وذكر الظلم هنا مكان الشرك لتذكيرهم بظلمهم بما هو حالهم عليه، يعني لماذا قال هنا ربنا عز وجل: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، لماذا ذكر الظلم هنا؟ لأن حالهم مع النبي هو الظلم، أنهم ظلموا هذا النبي باتهامه وبتكذيبه وعدم اتباعه فهم ظالمون.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)﴾ [البقرة: ٩٣]، هنا تذكير مرة أخرى وإعادة لما تقدم وتنبيهٌ لما تقدم، من أجل تكرار لحالهم لما هم فيه، فقال سبحانه وتعالى ما زيادة: ﴿وَاسْمَعُوا﴾، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي أخذنا عليكم المواثيق والعهود، عندما رفع الله عز وجل عليهم الطور وتقدم أن الطور هو الجبل العظيم، والطور إذا قيل الجبل عندما يميز بينهما فالطور هو الجبل الذي عليه الشجر، لغةً الطور والذي أقسم الله عز وجل به ﴿وَالطُّورِ (١)﴾ [الطور: ١]، فإما أن يكون هو مكان الطور، طور سيناء، وإما أن يقصد أي جبل عظيم، لأن الجبال قد أقسم بها الله عز وجل وقال: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)﴾ [النبأ: ٧] فالله عز وجل أقسم بالجبال لعظمها.

فالجبال عظيمة، ودائماً تخص بالذكر عند ذكر خلقه لعظمتها، من عدة أبواب من جهة عظمة خلقها ومن جهة عظمة مهمتها، قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)﴾ [النبأ: ٧]، وتد، وهي وتد شاملة على معنيين: المعنى الأول: الصورة، والمعنى الثاني: المهمة، ما هو الوتد؟ الوتد يكون أغلبه في الأسفل، أغلبه تقريبًا أربع أضعاف يكونوا في الأسفل أو ثلاث أضعاف، وجزءه يكون في الأعلى، والجبل كذلك، فهذه صورة الوتد، ومهمة الوتد أن يحمي أن يمنع الانزلاق إلا قليلا، الوتد حتى لو ربطت به فإنه إذا تحركت به الدابة أو تحركت الخيمة فإنها تتحرك جزئياً، قليل تتحرك، يحدث هذا الانزلاق الخفيف، وما هو عمله؟ هو أنها تمنع ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ [النحل: ١٥]، ﴿رَوَاسِيَ﴾ من المرساة، ورسا الشيء يعني استقر، فهي رواسي تمنع الحركة، ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وهذه مهمة الجبال، وهذه الحقيقة لم تعرف إلا في أوقات متأخرة، كيف نظروا إلى الجبل؟ كيف تكوينه يكون على شكل الوتد؟ ومهمته في هذه الأرض هو عمل الوتد.

القصد من ذلك: قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، وهم ينظرون إلى الطور كانوا يؤمنون، يقول بعض أهل التفسير: كانوا إذا نظروا إلى الطور آمنوا وإذا نظروا إلى التوراة كفروا، إذا نظروا إلى الطور خافوا العذاب فآمنوا وإذا نظروا إلى الشرائع أعرضوا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، المواثيق، العهود، الإيّمان المغلظة، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، وهذا هو شأن الدين، هذا الدين لا ينفع معه إلا الأخذ بقوة، ولا يقوم به حق القيام إلا من أخذه بقوة، هذا الدين لا ينفع معه أنصاف الحلول أن تأخذه أخذاً ضعيفاً، هذا الدين مهمة عظيمة، والذي يأخذه أخذاً خفيفاً لابد أن يأتي عليه اليوم لابد لأن يمتحن، ما في مجال.

فبعض الناس يأخذه أخذاً خفيفاً فتقع عليه المحن والابتلاءات، فإما أن يسير إلى جانب الدين فيأخذه أخذاً قوياً، وإما أن يسير إلى جانب الهوى فيضعف وينتهي أمره في نسبته لهذا الدين، ولذلك من رحمة الله عز وجل وجود البلاء، لأنه يفصل الناس، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فالطيب هو من أخذ الدين بقوة، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، والمقصود أن يأخذ المرء أمر الله عز وجل على جهة الجد، وجهة الجد مُكلفة ليست هينة، قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾، ما المقصود بـ ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾؟ المقصود بها الشرائع، الأوامر، قال تعالى: ﴿بِقُوَّةٍ

وَاسْمَعُوا﴾ والمقصود هنا السماع هو الامتثال، فلان لا يسمع الكلام ليس المقصود أنه لا يقع في أذنه لصمٍ أصابه لا، ولا المقصود أنه لا يفهم، المقصود أنه لا يتبع، ولما كان الاتباع لا يقع إلا بعد السماع فقد انقطع من أوله فلا قيمة، يعني لماذا عبر هنا عن الاتباع بالسماع؟ لأنه لا قيمة للسماع من غير أن يقع الفهم ولا قيمة للفهم من غير أن يقع الاتباع والعمل والامتثال، فعبر عن النهاية بالبداية كأنها غير موجود البداية لا قيمة لها، وهذا أمرٌ مهم أن قيمة البدايات في تحقيق النهايات.

ولما النبي صلى الله عليه وسلم لما ضرب مثلاً بنفسه، وأنه خاتم النبوة، قال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ مَثَلِي ومَثَلَ الأنْبياءِ مِن قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فأحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ، إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِن زاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ به، ويَعْجَبُونَ له، ويقولونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذِه اللَّبِنَةُ؟ قالَ: فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتِمُ النَّبِيِّينَ)، كان يدخلون البيت فيقولون: ما أجمل هذا البيت لولا هذا المكان، وأنا هذه اللبنة، انظر البيت كامل لكن ناقص للبنة الأخيرة وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فلو أن رجلاً آمن بكل هذا البيت دون هذه اللبنة لا يصلح له إيمان، ولذلك أخذ الله عز وجل الميثاق على الأنبياء أنه إذا جاءهم رسول مصدق لما معه من الحق أن يتبعوه، أخذ عليهم الميثاق، فالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم شرطٌ لإيمان جميع الأنبياء، وشرط لإيمان جميع أتباعهم، فالنهايات هي المهمة، لا قيمة للبدايات أن لم تحصل النهايات.

أنا أضرب لكم مثالاً: لو أن رجلاً قدر ثمناً لشيء مئة دينار، وعلى أن يأتي بهذه المئة دينار في كل شهر دينار فأحضر تسعة وتسعين دينار وقصر في الأخير، هل هناك قيمة لهذه الأموال؟ لا قيمة، يصبح هذا الدينار الأخير كأنه يعدل كل المال المتقدم، الدينار الأخير ما قيمته في هذا الحساب؟ يعدل كل ما تقدم لأنه لم يحصل فلا قيمة له، ولذلك في الحديث: (اسقه عسلاً)، الكمية الأخيرة وإن لم يكن حصولها تامٌ إلا بوجود أولها ولكن لا قيمة لأولها ما لم تحصل هي، فلذلك لابد من هذا الأمر، ولذلك عبر القرآن بقوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾، أي أطيعوا وامتثلوا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، كل هذا خطابٌ مباشر لهم تنبيهاً لهم وتعظيماً لما يخاطب به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾، وهنا ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، أي انتبهوا له على

صفة الجد واسمعوه على جهة الامتثال، قال تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، هل قالوا هذا الكلام حقيقةً أم أن واقعهم؟ العلماء على قولين، وأصوب الأقوال إنه شاملٌ للأمرين، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فكيف يجرؤون على قولهم ﴿وَعَصَيْنَا﴾؟ يجرؤون بطرق كثيرة من التأويل، لما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم أمر مخالفتهم لمنع ربنا عز وجل لهم من أكل شحوم الدواب، ماذا فعلوا؟ أتوا إلى الشحم فأذابوه فصار سمناً فباعوه، ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وهكذا تحايلهم في هذا الباب كثير جداً، فيمكن أن يقولوا: سمعنا وعصينا يمكن أن يقولوا هذا، ويردونه كما فعلوا مع موسى عليه السلام ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٤]، وهنا قالوا: عصينا قالوها بألسنتهم، وواقع أمرهم أنهم قالوا: سمعنا، واقتصر قولهم على سمعنا أي فهمنا مرادك، سمعوا فهموا أدركوا ما يريد وفهموا ما يريد ثم بعد ذلك عصوا على جهة عدم امتثال الأمر، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، إخواني العقوبات الإلهية للعاصي لا تقع مرةً واحدة، يعني في سورة «الأعراف» لما قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأعراف: ١٦٥] نسوا، وهنا النسيان ليس المقصود به عدم التذكر، المقصود به أعرضوا عنه حتى كأنه لم يوجد، لأن النسيان عدم وجود الشيء في الذهن، فإما أن يكون لعدم التذكر، وإما أن يكون لعدم الاهتمام به فكلاهما على معنى واحد، قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأعراف: ١٦٥]، أولاً: وقع منهم النسيان أي بتركهم للأمر حتى كأنهم لا يذكرونه، فوقع العقاب بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وجاءت مرحلة أخرى هذه لم تكن كافية، فازداد عتوهم وكفرهم، هم عذبوا، ولكن ازداد كفرهم وعتوهم، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾ [الأعراف: ١٦٦]، فقول ربنا عز وجل: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾، لم يحصل أولاً، إنما حصل هناك عذاب ومقدمات تنذرهم بأن العذاب الكبير قادم، لم يرتدعوا، فزاد عتوهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾، والعتو هو زيادة المعصية وزيادة الإجرام، فزادوا، فالله عز وجل يعذب الناس بعذابٍ يرقى أمرهم بدرجة كفرهم وبعدهم، فالأول يذكرهم يقيم عليهم الحجج بالذكرى والكلمة ووجود الدعاء إلى الله عز وجل ووجود العلماء وهكذا،

فتزداد معصيتهم فيزداد العذاب وهكذا، حتى ينتهي بهم الأمر إلى ما هو أشد من ذلك، ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾.

وهذا الأمر الذي ذكرناه فيه فائدتان، الفائدة الأولى: أن الذكرى تنفع من تذكر، من هو الذي ينتفع بهذا المعنى؟ الذي يراقب حركة الوجود من خلال التقوى، ومن الذي لا ينتفع به؟ الذي ينظر إليها على أن الله عز وجل قد نسيه ولا قيمة لما أفعل فلو كان ما عندي من المعاصي لعذبني الله، يعني كيف؟ الرجل عندما يعصي لما يُحدث في التاريخ، رجل خرج من بيته فرأى امرأةً فنظر إليها، رجع إلى بيته من رحمة الله عليه، وجد ابنه مريضاً، ماذا يفعل؟ يربط المعصية بالعقوبة، عصى الله عز وجل في أمرٍ من الأمور فتجارته خسرت، وقد لا يقع هذا الأمر ومما ذكره العلماء وهو من فهم العاقل والتقي لسنة الله عز وجل، أنه قد تؤخر العقوبة لكنه يربطها. لما البرامكة نزل عليهم العذاب الشديد فاجتمع الأب مع ابنه في السجن قال يا بني: لما كنا فيه والآن صرنا إلى هذا الذي صرنا إليه، يعني كنا نملك الأرض وتنفذ كلماتنا في الدنيا وفي الأموال، ولكن صرنا إلى هذا السجن، مطين عليهم، فأبوه قال له وكان حكيماً، قال: لعلها دعوة مظلوم غفلنا عنها ولم يغفل عنها الله عز وجل، ولم ينساها الله عز وجل، فبعض الناس لا يتذكر لماذا وقع به هذا الأمر، لكن من رحمة الله أن يعجل له العقوبة فيرتدع، الصالح يستغفر الله ويتوب فيعود إلى مجراه ويعاقبه الله عز وجل بالعقوبات القدرية ليرجع إلى الشرع، هذه من رحمة الله عز وجل به، وتحدث مع غيره فلا يلتفت لا ينتبه، وربما تؤخر فماذا يقع؟ فينسى ويزداد عتوًا.

فالآن من ينتفع من كلمة الشيخ -أي شيخ الآن موجود في منابر المسلمين- من ينتفع من التهديد القرآني بعذاب الله عز وجل لآكل الربا، قال تعالى: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، الحرب من الله هو ماذا؟ بشرعه أن يحاربهم وبقدره أن يعذبهم وبرسوله بشرعه أن يعذبهم وأن يقاتلهم، والآن أول كلمة تخطر على بال الناس اليوم، كل الناس هؤلاء يأكلون الربا ولا يعاقبون فأين العقاب؟ الآن يقول الناس: إذا كان الله يحارب أكلة الربا هذه البنوك المفتوحة حتى في مكة والمدينة، ومفتوحة في كل بلاد المسلمين وفي القرى وأكلت الربا في القرى، وفي الفقراء والمساكين فأين العذاب؟ لكن لو سئلوا أموجود عذاب أم غير موجود؟ هذه الأمة تعيش في عذاب أو لا تعيش؟ هذا البلاء الذي تعيشه الأمة، هذا البلاء

كله، فإما أن يرتدع الصالح ويتوب هذا المراقب لحركة الوجود ويلاحظ العقوبات القدرية لما يتحقق من مخالفات شرعية، وإما أن يعتوا، لكن خاتمة الأمر ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾، يأتيهم العذاب.

والآن الغرب أكلت الربا، كم خضة اقتصادية وقعت عليهم بسبب الربا؟ الكثير نجوا منها هذه زادتهم عتواً، تسأل الخبير تقول له: ماذا أفادتك الخضات، يقول: أفادتني على أن النظام الاقتصادي عندنا قادر أن يخرج من محنته كلما وقع فيها، لكن هذا الصالح مؤذنا بالخضة الكبرى التي يتم بها العذاب والهلاك، فلو أنت تحدثت الآن وقلت: هذه المعاصي مؤذنة بعذاب، يقول لك: وقعت بلايا وبلاءات ومع ذلك خرج الناس منها.

القصد: -نرجع إلى ما نحن فيه- لما قال الله عز وجل: بأن العاقبة هي الأشد، قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، جعل أعظم عذابٍ عليهم، قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، وهنا شربوا حب العجل، وهذا يصدق عليه قول الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فهؤلاء اليهود لما عبدوا العجل تزين لهم حتى دخل حب العجل في قلوبهم، كما يدخل الماء في ثنايا البدن، لم يقل طعاماً لماذا؟ لأن الطعام يبقى بينه وبين البدن فاصل، ماذا قال الله عن أكلة الربا؟ ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، ﴿يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ عبر، وهذا أشد أنواع العذاب لهذا الأمر، أن يكون المرء ليس في النار، لكن أن تكون النار في داخله.

وهنا إشارة إلى أن هذه المعصية وهذا الشرك الذي حصل منهم قد دخل وتغلغل في قلوبهم فأُشربوا سقاهم، الشراب السقي، سقاهم هذا الشرك وتغلغل في قلوبهم، ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾، وهذا أعظم أنواع العذاب وهو أن يصل المرء إلى درجة الحب لدينه الباطل والشغف بدينه الباطل وأن يُشرب قلبه حب المعصية بهذا المستوى وبهذا الحال، هذا مما يخاف منه، فانتبه إليه، ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾، هي منتهى، لأنه إذا أُشرب القلب حب شيء صَعُب الخروج منه، انتهى.

قَـــد تَخَلَّـــتَ مَســـلَكَ الـــروحِ مِـــنّي وَلِـــذا سُمِّـــيَ الخَلـــيلُ خَلـــيلا

والله عز وجل قال: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾، وهنا لابد من تقدير شيءٍ محذوف وهو حب العجل، ولكن هذا للتقبيح لهم، لتقبيح ما هم فيه، أن القلب بدل من يستقر فيه حب الله عز وجل، بدل

أن يستقر فيه التوحيد، استقر فيه الشرك، حب الشرك، وانظر الآن كيف يعبدون آلهتهم الباطلة، الذي يعبد الأصنام والذي يعبد الطواغيت، أنت إذا تحدثت معه يجن، إذا سببت إلهه، مع أنه إلهٌ باطل ربما تجده أن دينه ما بين الفأر وبين الحجر وبين الصنم وبين الوثن وبين البشر، مع ذلك يدافع عنه وهو عبدٌ له، ويقاتل دونه، فقال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾.

وبعض أهل العلم -والآية ترد عليه- وهي موجودة في روايات بعض أهل العلم: بأن موسى عليه السلام لما حرق العجل وسفه ورماه في النهر أمرهم بأن يشربوا من النهر فشربوا، فأشربوا، والقرآن يقول: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾، في قلوبهم، فالكلام ليس كلاماً عن مادة، الكلام عن حب؛ لأن القلب هذا محله، فلو شربوا على معنى الشرب الحقيقي لكان في بطونهم، ولكن هذا الكلام عن قلوبهم.

قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، انظر، الله عز وجل قال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، فجعل الله عز وجل من العقوبة عليهم أن يكون منهم عبد الطاغوت، فجعل عقوبة كفرهم أن أُشربوا ما عبدوه حباً، انتبه هذه تدل على أن العقوبة في موضوع العقائد هي أشد أنواع العقوبات؛ لأنها بعد ذلك تكون تبعاً لها، كما سنبين فيما سنذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾ [الجمعة: ٧]، سنرى أنه جاء التغليظ للعاقبة لأنها أشد مع أن الأولى هي السبب، فالله عز وجل جعل العاقبة العذاب أن أشربوا في قلوبهم العجل.

ومن هنا يأتي التحذير فكيف يكون الحب في القلب، أنه أشرب حب شيء عبده من دون الله عز وجل أن يكون عقوبة؟ لأن بعد ذلك كل العقوبات الوجود تلحق هذه المعصية فهي سبب، ما سبب دخول النار؟ ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، وهكذا.

قال تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)﴾ [البقرة: ٩٣]، هم كما تقدم ينسبون أن كل ما يفعلونه هو من دينهم، وينسبون مع كل ما فعلوه مع وجود الإيمان، اليهود ينسبون كل أفعالهم إلى إيمانهم أن هذا هو أمر الله، وينسبون كل ما يفعلون مع وجود الإيمان، أي يريدون دخول الجنة ويزعمون أنهم هم أهل الجنة مع كفرهم، ويزعمون أنهم مؤمنون، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] يعني نحن مؤمنون، كل ما يفعلونه إما ينسبونه إلى أن الإيمان هو الذي يأمرهم، ولذلك قال

تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾، وإما أن ينسبونه مع وجود الإيمان، أن هذا نفعله مع وجود الإيمان لا يضر، قال تعالى: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١]، هم يصفون كل شيء من خلال ما يريدون من أهواء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا﴾ [البقرة: ٩٣]، تقدم في قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا﴾ [البقرة: ٩٠]، بئس هذه الدالة على ذم وعلى مطلق الذم وعلى كثرة الذم، بئس، والعلماء كما تقدم الكلام منهم من يجعلوها فعلاً ومنهم من يجعلها اسماً، والصواب أنها فعل ويقابلها نعمة الدالة على المدح العظيم، نعمة، وهنا ﴿بِئْسَمَا﴾ بالرغم هي بئس وما ومع ذلك في الرسم القرآني كما نرى أنها صارت كلمةً واحدة، فلا يجوز الوقوف على بئس، لأنها رسمت رسماً واحداً مع ما، ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ﴾، الله يقبح فعلهم وهو ذمٌ لهم، بئسما أي إيمانٍ هذا؟ هذا إيمانٌ مذموم، وذلك ليس هو الإيمان الممدوح الذي يأمر به الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)﴾، هذا دليل على أنه ليس من الإيمان في شيء، وأن هذا الإيمان المزعوم هو ايمان مكذوب ومخلوط وليس صالحاً ولا ينفع، كما تقدم يأخذون بعضه ويكفرون ببعض، هذا إيمانٌ لا ينفع، ولذلك بعض الناس إيمانهم لا قيمة له، لماذا؟ لأنه ينقضه، وبعض الناس ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾، يدعون الإيمان وهم ليسوا كذلك، الإيمان مُختلط عندهم وليس من الإيمان في شيء، والكثير من الناس يرفع الشعارات الصحيحة على المعاني الباطلة، يعني أي اسم الجهاد، يرفع على غير حقيقته، كم من هناك من كفر يعادى به دين الله ويقاتل الناس دين الله ويسمون أفعالهم جهاداً، وكم من الناس ينفق الأموال ويسمون أموالهم زكاة التي ينفقونها، وكم من الناس يعملون أعمالاً ليست من الإيمان في شيء، ولكن يطلقون عليها أسماءً إيمانية، فقال سبحانه وتعالى: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾، ومع ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هذا، وإنما القرآن ينفي عنهم الإيمان الصحيح ويثبت لهم الدعاوى الكاذبة.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ

يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦]، الآن القرآن يرد على دعوة من دعاوى اليهود، ودعاوى اليهود كثيرة جداً، ويعتمدون إما على النص وإما على التاريخ وإما إلى غير ذلك من الأهواء، ويزعمون أن الأنبياء قالوا لهم هذا، فكان مما ادعوه أن الجنة محرمة إلا عليهم أو على من كان من معانيهم، فلذلك قالوا: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، خالصة، هذه لا يدخل فيها غيرهم، وأما بقية أتباع الأنبياء فهؤلاء ليسوا من أهل الجنة، فالجنة خالصةٌ لهم وهذه دعواهم، فقال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، ما المقصود بالدار الآخرة؟ المقصود بها الجنة، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ١٠٩]، المقصود بها الجنة، وهو تسمية الشيء بالحال الذي هو فيه، وهذا معروف في اللغة، أين تكون الجنة؟ في الدار الآخرة، فسميت الشيء بالحال الذي هو فيه.

فقال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾، والخلوص هو الانتهاء إلى الشيء، وعادةً لا ينتهي الحال إلى شيء إلا وقد استحقه، يعني لو تسابق رجلان فأحدهما وصل والآخر لم يصل، فيقال: فلان خلص إلى النهاية، وفلان لم يخلص، الذي خلص استحقه، فلم يكن عنده معارض على الوصول إلى هدفه، لم يكن فيه معارض، ومن هنا سمي الإخلاص بهذا المعنى أي عدم وجود المعارض للوصول إلى المبتغى، فحين يخلص المرء في عمله يعني لم يختلط عمله بما يفسده الذي يمنعه من الوصول إلى المبتغى، هذا معنى الإخلاص، خلُص إلى الشيء أي وصل إليه أصابه، وإذا أصابه دل على أنه بلغه، وبلوغ الشيء يدل على استحقاقه له، واستحقاقه له يدل على أنه لم يأتي ما يمانعه عنده، ما في مانع، فمن هنا سمي الإخلاص إخلاصاً، ولذلك نحن أخذنا خلاصة الشيء بمعنى ما صفى فيه وزال عنه كدره صفا، فهم قالوا: عن الجنة، عن الدار الآخرة أنها لهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، ولماذا جاءت كلمة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ عز وجل، لتدل على شرعية ما قالوا، أول شيء هذا لفضلها، ولذلك مما اشتهر في كلام الأقدمين، أين في القرآن مثل ما قالت العرب: «الجار قبل الدار»، عندما دعت امرأة فرعون ربها، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، فطلبت القرب قبل أن تطلب الدار، فهؤلاء لفضل قربها من الله عز وجل ولذلك ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، فدل على أن الدار الآخرة عند الله المقصود بها المدح، لأنها لا تنسب جهنم عند الله عز وجل، وهذا دليلٌ كذلك عند أهل السنة على أن الجنة أقرب ما تكون إلى نهاية

الكون بخلاف النار فإنها في أسفل سافلين، فالكون له نهاية وسقف نهاية هذا الكون هو عرش الرحمن، وعرش الرحمن هو سقف الجنة، فالجنة عند الله عز وجل وبالتالي هم يرون ربهم، يطلع عليهم الله عز وجل فيرونه، وأما النار فهي في أسفل السافلين، فقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٤]، دل هذا يريدون مدح ما يستقرون عليه، ويريدون كذلك أن يجعلوا أمرهم أنهم أقرب إلى الله عز وجل وأحب إلى الله عز وجل من غيره، ولذلك قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، يعني إذن نكون عنده في الدار الآخرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، والدار الآخرة لأنها آخرة أي آخر ما يكون فيه الأمر، وأما الدنيا فسميت الدنيا ولم تقال: الأولى، ونسبت إما لقربها من الإنسان وإما لدناءتها، وأما الآخرة فلأنها آخر ما يستقر عليه البشر وهي الدار الآخرة، أي التي يستقر فيها الناس بحسب أحوالهم.

قال تعالى: ﴿خَالِصَةً﴾، على ما تقدم، ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾، وهنا الناس عندهم على معنى الذم، هنا الناس من دون الناس على معنى الذم؛ لأنهم لا يرون الناس شيئاً، فلماذا خلق الله عز وجل الناس عند اليهود؟ نحن، لماذا خلق الله عز وجل الدواب عندنا، عند أهل السنة عند المسلمين، لماذا خلق الله عز وجل الدواب؟ لخدمتنا، لماذا خلق الله عز وجل الشجر؟ لخدمتنا تسخيراً لنا، إذن لماذا خلق الله عز وجل بقية البشر عند اليهود لماذا؟ خُدام وعبيد لهم، الله خلق البشر عبيداً لليهود ولذلك عقيدة اليهود هم شعب الله المختار، ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، والأرض ملك لهم، الله أعطاهم الأرض والبشر بهائم خلقوا لخدمتهم، فلذلك من دون الناس، الناس لن يدخلوا الجنة، هؤلاء مع البهائم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾ [البقرة: ٩٤]، نقف إلى هنا لكثرة ما في هذا الموطن من مباحث نأتي إليها في الدرس القادم إن شاء الله وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس السبعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس السبعون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وعند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].

قبل كل شيء أريد أن أنبه أننا نرى معالجةً مهمةً جداً لقضية اليهود، وهي أشبه بالمناظرة كما نرى من هذا السياق الطويل في الحديث عن بني إسرائيل، فإن القرآن يرد عليهم، يذكرهم، ينبئهم، ويرد عليهم، ويكشف عن خبايا نفوسهم، ولذلك هذا الحوار العظيم القرآني في كشف حالة اليهود لليهود أنفسهم أولاً: من أجل إقامة الحجة عليهم، وثانياً: من أجل تعليم المسلمين حال هؤلاء القوم، وما هم عليه.

لكن ما يهم فهنا قضايا متعددة أهم قضية هي قضية المناظرة، على ماذا أعتمد القرآن هنا في حديثه مع اليهود، وكشف أخطائهم وكشف واقعهم وكشف تناقضهم، على ماذا أعتمد القرآن؟ أعتمد أولاً على الخبر، أعتمد على الواقع، مثلاً: لما جاء القرآن إلى قضيته أخذ الميثاق بأن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجون أنفسهم من ديارهم، فإنه بيّن مناقضة الخبر للعهد والميثاق، فإذن الوقائع أولاً: يجب أن تكون محكمة في الحديث والحوار والمناظرة، والوقائع لا ينكرها الناس إلا من سفه نفسه وإلا من كان مجادلاً بيّن الخطأ في جداله ومناظرته، الأخبار والوقائع لا يجادل فيها الناس لأنها يقينية، السُنن الكونية البينة الواضحة القدرية لا

يجادل فيها الناس، كونك أنت حياً لا يناقض فيها إلا السفسطائي إلا الغبي، إلا الذي يريد أن يضيع الوقت ويفسد على الناس أوقاتهم.

فالقرآن أولاً في الرد عليهم أعتمد على الوقائع الكونية السُننية الواقعة عليهم، فأخبر بأخبار تُنبئ بخطأ منهجهم، هذه قضية مهمة.

النقطة الثانية التي أعتمدها القرآن: هو التناقض الداخلي عندهم، القرآن هنا في حواره معهم، استقر على أن ما جاءهم من عند موسى عليه السلام هو الحق، فهذه قضية مُسلمة، فانطلق منها القرآن، أنتم سلمتم أن الحق الذي جاء به موسى عليه السلام هو الحق، فعرض الأمر على هذه الْمُسلمة على قضيتين:

القضية الأولى: مخالفة هذا الواقع الذي مارسوه لما استقر عليه هذا الحق في نفوسهم، متناقض.

القضية الثانية: في تناقضهم مع الحق في قضية قبول بعضه ورد بعضه.

فإذن ناظرهم من خلال هاتين المسألتين:

أولاً: أن الواقع عندهم مضطرب في حالتين على جهة نظرتهم للواقع وتعاملهم معه فلما قال القرآن عنهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

ثم ثانياً: في التناقض مع التعامل مع الحق الواحد، الذي جاء به موسى عليه السلام أمنتم به ومع ذلك وقع منكم أن قتلتم الأنبياء وخالفتموهم، ولما جاء القرآن إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩١]، أي أنتم قتلتم الأنبياء السابقين الذين جاءوا بما تؤمنون به من شروط، وثانياً أنه جاء إلى اعتقادهم لما هم فيه، فبين تناقضهم فيه، الداخلي، على هذه النقطة التي نحن فيها، بمعنى أن موسى عليه السلام جاء بالحق فأمنتم به وجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالحق فكفرتم به، إذن ما هو معيار قبولكم؟ القرآن كشف معيارهم وأن المسألة تتعلق بأنه جاء إلينا أو جاء من طريقٍ نحن نريده وهذا من تمام الباطل.

هذه طريقةٌ قرآنية في تعلم طرق المناظرة، وأنها تبيّن أن القرآن جاء بأعظم الطرق الهادية إلى كشف حقيقة المخالف الذي يكون على الباطل، هذا شيءٌ مهم.

الأمر الثاني: هل القرآن فيما رأينا يرتب المناقشة معهم أم يسوقها على جهة الغزارة؟ أي هل عندما ينتهي القرآن من قضية يأتي إلى قضية أخرى فتكون القضية الثانية مرتبة على الأولى؟ يعني هنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]، ثم جاء القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)﴾ [البقرة: ٩٢]، وثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، والآن جاء إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٩٤]، فهل طريقة القرآن أنها تبني في التعامل مع اليهود بناءً أولياً ثم ترقى، وترقى في النقاش ولا يمكن الوصول إلى الحالة الثانية إلا بالمرور بالحالة الأولى؟ هل هذه حالة مرتبة؟ أم أن القرآن يعتمد على قضية الغزارة أن يغزوهم هذا الغزو أن يأتي لهم مرةً من هنا، ومرةً من هنا، مرةً معالجةً لنفوسهم، مرةً معالجةً لتاريخهم، مرةً معالجةً لقضية تناقضهم مع الحق الذي هو من معِينٍ واحد، ومن عينٍ واحدة؟ هذا يمكن، أهل التفسير قل ما خاضوا في هذا، فبعض أهل التفسير خاض في هذا أنه حاول أن يرتب الأدلة، أنه بعد أن فرغ من هذا الدليل أتى إلى الدليل الذي يليه، وهذا صعب جداً.

مثلاً: صاحب التحرير والتنوير ابن عاشور حاول أن يفعل هذا، ولكن أغلب المفسرين لم يسيروا على هذا النسق، إنما نظروا إلى المعنى الثاني الذي ذكرناه، أن القرآن أستخدم طرق الهجوم المتنوع، من كل الجهات بغض النظر أن النقطة الثانية مرتبة على الأولى أو غير مرتبة ليس مهماً، وهذا الذي يميل القلب إليه، وحين نعتذر للعلماء الذين نفوا المناسبة، يعني هناك سؤال: لماذا يأتي عالمٌ جليل كالعز بن عبد السلام فينفي المناسبة، علم المناسبة؟ ويقول: يمكن أن نفهم المناسبة في السور القصيرة، وأما المناسبة في السور الطويلة والآيات فمن الصعب.

فيأتي السائل ويقول: كيف لهؤلاء الكبار العظماء كالعز بن عبد السلام في جلالته وعلمه في التفسير – وله تفسير مطبوع– فكيف يغفل عن علم المناسبة؟ ونرى أن علماء على الأهمية ما كان يحاولون الربط بين هذه الجمل القرآنية في السور الطويلة كما هي بين أيدينا في سورة «البقرة»، فيمكن أن يعتذر عنهم بهذا المعنى، أن النظر إلى التناسب على معنى أن كل فقرة فيما تحدث القرآن عن بني إسرائيل مرتبة على الأولى ترتيباً علمياً أو تصاعدياً أو تراتبياً، أن المعنى الثاني لا يستقيم إلا بالمعنى الأول، وأن المعنى الثاني لابد أن يكون مبنياً على المعنى الأول فلا يرون هذا، ويرون أن القرآن لم يهتم في قضية –مثلاً فيما بين أيدينا– في

قضية الهجوم على بني إسرائيل وكشف حقائقهم وبيان فسادهم أنه لم يبنى على هذا المعنى، فيقول: ليس ضرورة أن يكون هناك ثمة مناسبة فرعية بين كل آيةٍ والتي تليها، يمكن أن نجد المناسبة بين مطلع السورة وبين فاصلتها، يمكن أن نجد مناسبةٍ بين آيةٍ وأخرى فيما هي استئنافٌ لها، فيما هي تابعة لها، أما بين المواضيع المختلفة، كيف نتكلف هذا التكلف في قضية علم المناسبة؟

فيمكن أن يعتذر عن هؤلاء العلماء الذين نفوا علم المناسبة في السور الطويلة كسورة «البقرة» التي بين أيدينا على هذا المعنى، وهو أن القرآن يأتي على هذا المعنى في أنه يهاجم المخالف من كل الجهات أو يوجه المؤمن إلى كل جوانب الإيمان، بغض النظر عن الربط الدقيق الذي يحاوله البعض في قضية السور.

فعندما نأتي إلى سورة «آل عمران» لماذا يفصل القرآن في قضية سياق قصة أُحد، في قضية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، لماذا؟ هل هناك مناسبة دقيقة؟ أم هو بيان لحال البناء الايماني بأنكم وأنتم تقاتلون عدواً خارجياً، فانتبهوا إلى أعدائكم الداخليين في قضية الربا؟ هذا المعنى لا ينفي من نفى علم المناسبة، إنما الذي ينفي علم المناسبة في مثل هذه السور الطويلة هو الذي يريد أن يربط الآية التي قبلها بالآية التي بعدها على معنى خاص بها وليس على معنى السياق العام الذي نحن فيه، فيمكن أن يعتذر عن هؤلاء العلماء بهذا المعنى، وهذا لم أجده لأحدٍ من أهل العلم في هذا الباب، لكن التفكر في علم الأوائل الذين نفوا علم المناسبة لا يمكن أن نعتذر عنهم إلا بهذا المعنى، لا يمكن، وإلا فلا أحد يأتي ويقول: أنه لا يوجد ربط بين آيةٍ وأخرى على المعنى الكلي والمعنى الجزئي، لا يمكن، وإلا لكان القرآن بهذا المعنى غير مترابط، ولا يمكن أن يقوله، وإحكام القرآن ينفيه، والقرآن محكم، فلا يمكن.

هاتان النقطتان: النقطة الأولى: في أن هذا السياق القرآني في موضوع الحديث عن بني إسرائيل علمنا طرق المناظرة وإلزام الخصم، لكنه في هذه النقطة –وعودة إليها عودة يسيرة– إياك أن تظن أنه مهما بلغت درجة قوة دليلك أنك تقطع حجة الخصم، أو أنك تنتهي منه، يكفي أنك تعلم أنك قد ألزمته في نفسك، لأن حجته انتهت، لأن صاحب الهوى لو أتيته بمليون دليل لا يتبعك، ولذلك القرآن بعد أن فرغ من هذا كله في الحديث عن بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، فلذلك بعض الضعاف من الناس يأتون إلى كلام أهل العلم ويقول: كلامك لم تستطع أن تقم

به الحجة على الخصم، وكأنه يتوقع أنه في كل مناظرة يجب أن يخرج الخصم مستسلماً منتهياً، هذا لا يمكن، والقرآن لم يحدثنا أن المخاصم لنا أعرض وتولى مستسلماً في النقاش مُتبعاً أو رافعًا راية أنا لا أتبع إلا الهوى، القرآن لم يحكي لنا هذا الأمر، القرآن حكى لنا الحجج التي أقامها عليهم، وانتهى الموضوع، أما هل تنتهي أهوائهم عن إيجاد المسوغات التي يسميها الناس تبريرات -وهي في اللغة ليست موجودة، «تبرير» غير موجود في لغة العرب ونبهنا عنها في درسٍ سابق- هذه التسويغيات لن تنتهي، صاحب الهوى في كل يومٍ يحضر لك حجة، فيكفي أن تكون الحجة قائمة، يكفي، وإلا فاليهود خلاص الله أعطانا أمراً أن لا نتبع إلا نبي من بني إسرائيل، من أين أتيتم بهذا؟! هذا لا يهمك، هذا أمرٌ عندنا وانتهى الموضوع أسكت، وهكذا، وقد يأتي بنصٍ مؤول والتأويل بابٌ لا ينتهي، هذا أمر مهم جداً في هذا الباب.

وقفنا عند قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾ [البقرة: ٩٤]، في الدرس الفائت وقفنا عندها، في هذا الجزء من الآية فيه مسائل، والعلماء وقفوا عنده مواقف متعددة، الموقف الأول وسنفصل فيه تفصيلاً مهماً، لنرى طرق معالجة القرآن عند علمائنا، وأن العلم الذي يقوله العلماء إنما هو حقٌ في نفسه، ولكن أن يصيب فرعه أو لا فهذه مسألةٌ أخرى، ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾:

الجهة الأولى: نظرت إلى أن الله عز وجل تحداهم أن يتمنوا الموت، القسم الأول من العلماء قالوا: هذا على ظاهره، هذه الآية على ظاهرها، وهذا دليلٌ على أن القرآن من عند الله عز وجل، وأقاموا عليه من المعاني الدالة على هذا المعنى، أن الله عز وجل علم أنه لن يتمنوا الموت لا ظاهراً ولا باطناً، فقالوا: كيف تعلمون أنهم لما يتمنوا باطلاً؟ فقالوا: لما كان هذا الكلام على جهة المناظرة والإلزام وقطع الحجة، فلو كانوا قد تمنوه في باطنهم لأظهروه على ألسنتهم، المقام ليس مقام إخفاء، يعني هنا مناظرة فكيف لواحد من هؤلاء اليهود يكون قد تمناه في باطنه مع أنه مُتحدّى في الظاهر لأبطال دينه ولأبطال دعواه ولأبطال زعمه ثم هذا الأمر الذي به يتم قطع حجة الخصم يبقيه في باطنه ولا يظهره؟! ما هو هذا اليهودي الذي هو في محل ومقام الحجة والمناظرة؟!

فقال: فلما لم يظهروه دل على أنه لم يكن في الباطن، ورتبوا على هذا أن هذا من أدلة أن القرآن من عند الله عز وجل، فلو كان من عند غير الله ووقعت هذه الخصومة لرجع اليهودي وقال: أنا أتمنى الموت،

هذا هو القسم الأول من كلام أهل العلم، وهذا اختار ابن جرير الطبري ومن المواطن التي لم يقبلها ابن كثير كلام ابن جرير هذا الموطن.

وهناك قول منتشر عند بعضهم: أن تفسير ابن كثير هو خلاصة تفسير الطبري وهو ليس كذلك، هو يأخذ من الطبري كثيراً وينقل عنه كثيراً، ولكنه كذلك يأخذه مأخذ العالم الذي يأخذ ويرد ويناقش ومنه هذه المسألة، وكذلك تقدم في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، ابن كثير لم يقبل كلام ابن جرير الطبري في أن المثلين المثل المائي والناري هو مثلٌ لحالةٍ واحدة، وقال: لا، إنما المثل الناري لحالة تختلف عن المثل المائي في واقعها، وهنا لم يقبل كما سيأتي ابن كثير هذا القول، هذا بأن القرآن طلب منهم أن يتمنوا الموت، طبعًا بلا شك أن العلماء وأن أي طالب علم سيقولون: أنهم لو تمنوا الموت ماذا سيكون الأمر؟ سيميتهم، لأن الموطن موطن تحدي وما دام أنه تحدي لنبي الذي يخبر عن ربه فسيميتهم، ولذلك صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لو تمنوا الموت لغُصة أفواههم بريقهم فماتوا»، لو تمنوا لماتوا.

وهذا الكلام عند من يرفض هذا الكلام عليهم محترزات:

المحترز الأول: أنه ثبت أن كل أحدٍ في الوجود يكره الموت حتى المؤمن، في الحديث (ما ترددت في شيء ترددي من قبض عبدي المؤمن، يكره الموت)، المؤمن يكره الموت، فهذا ليس خاصًا باليهود أن يكرهوا الموت، وهذا كله قاله من رفض هذا التفسير وهو ابن كثير، إمام هذا الرد والقول بغيره هو ابن كثير، فإذن قالوا: أن قضية التمني دالة على أنه لا يحب لقاء الله عز وجل أو ليس متيقناً بأنه من أهل الجنة، والدليل هذا أنه (يكره الموت).

وفي الحديث أن عائشة رضي الله تعالى عنها لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله –يعني كره الموت– كره الله لقاءه، قالت يا رسول الله: كلنا يكره الموت، فعائشة تخبر عن نفسها وتخبر عن بني جنسها من الإنسان المسلم والمؤمن أن كلهم يكرهون الموت، فإذن ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾ [البقرة: ٩٤]، فهذه ليست قاطعة بأن من يكره الموت هو ليس جازماً من أنه من أهل الجنة، فكل الناس يكرهونه، فالنبي صلى الله عليه وسلم فسر لعائشة أنه إذا جاء الموت فرأى المؤمن موطنه من الجنة أحب لقاء الله والكافر عندما يأتيه الموت –خلاص ما في مجال– فيرى

موطنه من النار فيكره الموت، المؤمن يحب الموت لما رأى موطنه من الجنة، يراه خلاص، فحين يرى المرء موطنه من الجنة، الجار خير من الجار والدار خير من الدار والأهل خير من الأهل والمال خير من المال؛ فيحب أن يرحل إليه، كما هو حال الشهداء لما استشهدوا فماتوا، والله عز وجل قال: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)﴾ [آل عمران: ١٤٣]، هذه الآية في دلالتها تدل على أنهم لما رأوا الموت ما أحبوه في الأول تمنوه فدل على أنهم كرهوه لما رأوه، لما رأوا الموت وعذابه لكن لما رأى أهل الجنة من الشهداء ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)﴾ [آل عمران: ١٧٠]، فهم دخلوا الجنة ورأوها فصاروا يتمنون أن يأتي أهلهم وأقاربهم وأصحابهم إلى المكان الذي هم فيه.

القصد من هذا: أن هذا لمن قال بهذا القول، بأنه اعترض عليه بأن هذا ليس من قواطع إثبات أنهم لا يحبون لقاء الله، لأنهم يكرهون الموت.

المحترز الثاني: أن كراهية الموت مبغوضة ومكروهة في شريعتنا، قال صلى الله عليه وسلم: (لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍ أصابه)، النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تمني الموت، فهؤلاء الشارع يقول لهم: تمنوا الموت، والشارع نهى عن تمني الموت، فكيف يطلب منهم ما نهى عنه الشارع؟ ومن هنا بسبب هذه المحترزات المعترضة على هذا المعنى فجاء تفسيرٌ رواه محمد بن إسحاق وذكر سنده ابن كثير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن المقصود به هنا مباهلةٌ من نوعٍ آخر غير المباهلة التي في سورة «آل عمران»، ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ [آل عمران: ٦١]، هذه مباهلة وهذه مباهلة، أنه قال لهم صلى الله عليه وسلم: تعالوا ليتمنى كل واحدٍ على الآخر الموت إن كان صادق أو أن كان كاذباً، فهي من النوع المباهلة، وليس من نوع تمني الموت، الذي هو على ظاهره فيما ذكر، وقال ابن كثير رحمه الله وذكر كلام ابن جرير الطبري رحمه الله في هذا الباب وقال: والخروج من هذه المعترضات وهذه التكليفات -هذا هو التفسير الصحيح وهو تفسير ابن عباس رضي الله عنه- هو أن تحدث بينهما مباهلة، بينهم على هذا المعنى وهي مباهلةٌ أخرى.

أنا أعتقد بأن هذا القول الأول له حظٌ من الصحة كبير ليس على الوجه الذي نفاه ابن كثير رحمه الله، وهذه المحترزات ليست بشيء، يعني لا يمنع أن تحدث مناظرة، تعالوا لنقف، فيتمنى كل واحدٍ الموت للآخر إن كان على الباطل، ويتمنى على نفسه الموت إن على الباطل، وكما قال الله عز وجل: ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧)﴾ [النور: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)﴾ [النور: ٩]، فهذا يقع، فإذن كيف تفسر هذا التمني؟ أولاً هذا الأمر على جهة التحدي، وجهة التحدي أمرٌ آخر يختلف عن الشارع، يعني هل يجوز للمرء أن يشرب السم هكذا؟ بغير وجه التحدي؟ لا يجوز، بل إذا شربه فمات كان قاتلاً لنفسه، وفي الحديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يقتل المرء نفسه، قال صلى الله عليه وسلم: (مَن تَرَدَّى مِن جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهو في نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فيه خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَن تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَن قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ في يَدِهِ يَجَأُ بِهَا في بَطْنِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا).

ولكن لو وقع شرب السم على معنى التحدي وهذا ورد عن بعض الصحابة رضي الله عنهم كما ورد عن خالد رضي الله عنه في معركة اليرموك ورد أنه أنتم على الحق وأنكم اهل الحق فأشرب هذا السم فشربه على وجه التحدي، إذن ما يقع على وجه التحدي غير ما يقع على وجه الاعتياد من غير تحدي، فعلى غير وجه التحدي فلا يجوز للمرء أن يتمنى الموت، خاصةً أننا علمنا أن تمني الموت هنا مفسر لسببٍ غير محبوب عند الله عز وجل، وهو (لضرٍ أصابه)، يعني هو جزعاً من البلاء الذي هو فيه وعدم الصبر، فقتل نفسه.

لكن هل يجوز في شريعتنا أن يتمنى المرء الموت لغير هذا المعنى من الأسباب الحسنة؟ الجواب: نعم، ولذلك الكثير من أهل العلم تمنى الموت، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من نبي يقبض حتى يستأذن، وهذا فيه معنى الرغبة بالدار الآخرة، الرغبة في ترك الدنيا والرغبة فيها، عمر رضي الله عنه تمنى الموت، لكن ليس لضرٍ أصابه، بل مخافةً الفتنة، الإمام البخاري تمنى الموت ليس لضرٍ أصابه ولكن مخافة الفتنة، فالمرء إذا تمنى الموت لسببٍ شرعي حاله كحال من رمى نفسه للموت من أجل الشهادة، هل هذا مقبول ولا غير مقبول؟ الذي يرمي نفسه في وسط الكفار طلباً للموت وإظهاراً كما قال ابن قدامة رحمه الله في المغني: «لو أن رجلاً مسلماً رمى نفسه في وسط الكفار طلبًا لإظهار أن المسلمين يحبون الموت» –انظر

مسألة تحدي- قال: «استحب له ذلك»، رمى نفسه هذا غير النكاية، ينكى فيهم أو لا ينكى هذا موضوع ثاني، هذا رمى نفسه من غير أن يُنكي فيهم هذا لا يرمي نفسه، فإذا كان في رميه بنفسه لوسطهم، وحدث هذا أن بعض الصحابة رضي الله عنهم رمى نفسه كما البراء بن مالك رضي الله عنه لما رمى نفسه، وكما قال عمر رضي الله عنه: «لا تستعملوا البراء على جيش، فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم»، فحملوه على ترس ورموه في الحديقة في قتالهم للمرتدين، في حديقة مسيلمة، فرمى نفسه، ليس لإظهار الإيمان ولكن من أجل النكاية فيهم لأن هذه الحديقة قد استعصت وقتل كثير من القراء، فأراد أن يفتحها، فهذا معنى آخر.

أما المعنى الآخر الذي التفت إليه العلماء وهو أن يرمي المرء نفسه في وسط الكفار إظهاراً أن هؤلاء القوم يحبون الموت ويحبون لقاء الله، هذا المعنى، فهذا في معنى التحدي، إذن ما نهى عنه الشارع هو هذا المعنى.

الاحتراز الأول الذي احترز به، بأنه كيف يعني كلنا يكره الموت؟ نحن رأينا في الحالات التي ذكرناها أن هناك من يحب الموت ويحب لقاء الله، وعائشة رضي الله عنها قالت: «كلنا يكره الموت»، ولكن المرء إذا كان في نفسه هذا المعنى كما أحب لقاء الله، يريد لقاء الله، أنه سيفرح بلقاء الله، إذا كان هذا المعنى، هذا لا يغيب عن أحد من أهل الإيمان، فلذلك تلك المحترزات، التي قالوها لإبطال هذا المعنى الظاهري في ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾، فيما قاله ابن كثير قال: «وبهذا القول تكثر الاعتراضات، والقول الصواب هو قول ابن عباس رضي الله عنهما في أن المقصود به المباهلة» على هذا المعنى نقول هذا القول فيه معنى حقيقي، وأصلاً ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾، فيها معنى المباهلة، تعالوا لتتمنوا الموت، فإذا مثل هذا وجب أن يقف المؤمن مناظراً لهم في هذا الباب، نعم أنا أتمنى الموت، هل تتمنى الموت؟ نعم أتمناه وعلى ثقة، وهذا يقع، ووقع الكثير من الصور في أن يقف المؤمن أمام الكافر يقول أنت تفعل كذا؟ نعم، أنا أفعل كذا، فمن فعل كذا فيكون هو على الحق، ويكون الأمر لو وقع على معنى السعة لا يجوز.

مثال ذلك: ما وقع لكثير من أهل الصلاح والتقوى أنهم وقفوا أمام الكفار في قضية التحدي فيمن هو على الحق ومن على الباطل، مثل قضية الدعاء، فيحدث بعض الصالحين بأنه هو والنصارى في قرية تحدوا

بعضهم من على الحق ومن على الباطل؟ فقال: هذه قرية لم تمطر منذ سنوات، فجاء الدعاة المسلمون إلى هذه القرية فدعوهم إلى الله عز وجل، فقال أهل القرية: إذا دعوتم الله فأنزل الله المطر فنتبع دينكم، فهذا المعنى لا يجزم به أحد لكن المؤمن يقبل به، لأنه على معنى التحدي، ثقةً، ليس بنفسه أن دعاؤه مستجاب، ولكن ثقةً بأن الحق الذي يناظر عليه ويحارب عليه هو الحق، لو نظر لنفسه لخاف هو لا يقسم على الله هذا الإقسام، لكن حين تكون المناظرة يكون لها معنى إثبات الحق الذي يحبه الله عز وجل.

فنكون قد فرغنا وبينا في أن تمني الموت لغير ضرٍ أصابه جزعاً وقلة صبر هذا منهيٌ عنه، ولكن العلماء أجازوا أن يتمنى المرء الموت لأسبابٍ أخرى، منها الخوف من الفتن كما ذكرنا، ويهرب من بلدٍ إلى بلد يهرب منها، مع أن الرسول نهى عن الهرب من الطاعون لكن يهرب من أجل دينه ليس من الطاعون، يهرب لدينه كما أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نهرب من الدجال مخافة أن نفتن.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾، نحن تكلمنا أن كلمة الناس في القرآن تأتي على معاني، وذكرناها عند قوله تعالى: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣]، فقلنا هنا أن كلمة الناس كلمةٌ مدحية وتعني أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي الذي يليق بإنسانية الإنسان، فإيمانهم صحيح وهذا هو المعنى كذلك من دون الناس يعني من دون بقية المؤمنين الذين اتبعوا هذا الرسول، لأن الموطن هنا هو موطن اختصاص دخول الجنة دون بقية الناس، من الناس الذين يستحقون دخول الجنة حين حصول المناظرة؟ ليس هناك مؤمن زمن موسى عليه السلام إلا بنو إسرائيل فبقية الناس كفار، لكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم هناك مؤمنون يدخلون الجنة غير اليهود إن كان فيهم مؤمن إلا الصحابة رضي الله عنهم.

فذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾، هنا المقصود به الناس كلمةٌ مدحية، يُعنى بها في الصحابة ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾، أي من بقية الذين آمنوا بهذا النبي، ﴿فَتَمَنَّوُا﴾ على المعنى المبالغ، فتعالوا تمنوا الموت، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فلما أعرضوا علم الناس أنهم كذبة، وأنهم ما تمنوه ولو كانوا على الحق والصدق لقالوا: نعم نتمنى الموت، وهنا الأمر الذي يثبت ما تقدم من الكلام، فلو كانوا على الحق لعلموا أن الله معهم ولن يميتهم، نحن نتمنى الموت، فيتمنى الموت هل هذا شرطٌ لحصوله؟ عندما يكون المرء على الحق، ولكنهم علموا

أنهم سيكذبون، فكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لشرقت بها أرواحهم أو لغصت بها حلوقهم فماتوا»، قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي صادقين في أن الجنة لكم خالصة من دون الناس.

قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)﴾ [البقرة: ٩٥]، وها هنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، ﴿وَلَنْ﴾ هذه المعتزلة يرونها تأبيدية في الدنيا والآخرة عندهم، لماذا؟ لأن الله عز وجل قال: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فرأوا أنها نافيةٌ في المطلق والمقيد، المطلق في الدنيا والآخرة والمقيد في الدنيا، ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ إي لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن ﴿لَنْ﴾ ليست بمعنى التأبيدية فقط في الدنيا ولكنها تأبيديةٌ في الآخرة، فإذا وقعت دلت على النفي المطلق الذي لا يكون.

هذه الآية تكذيبٌ للمعتزلة، الله قال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، وهنا لم يقتصر ربنا في قوله ولن يتمنوه، بل أكدها بـ ﴿أَبَدًا﴾، ما قال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ فقط، فلو صح دين المعتزلة وقول المعتزلة في هذا الباب لكفى أن يقول: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾، فكيف إذا أكدت بـ ﴿أَبَدًا﴾، فدل على أن قولهم الصحيح، مع أنه في الحقيقة لو كانت كافية لكانت ﴿أَبَدًا﴾ هي زيادة تأكيد أو لا ضرورة لها، ولكن القرآن بين أنهم سيتمنون الموت، مع أنه قال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، لكنه ذكر أنهم يتمنون الموت، أين تمنى هؤلاء الكفرة الموت؟ هو ﴿أَبَدًا﴾، المعتزلة قالوا: لا في الدنيا ولا في الآخرة، لن يتمنه على قاعدة ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، لا في الدنيا ولا في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧)﴾ [الزخرف: ٧٧]، فإذن الكفار في جهنم تمنوا الموت، مع أن ﴿وَلَنْ﴾ هنا جاءت بما يؤكد هذا، وهو قوله: ﴿أَبَدًا﴾، فدل قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، يعني في الدنيا وليس في الآخرة، وبهذا بطلت حجة المعتزلة، فلما قال سبحانه: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني في الدنيا، هذه هي المسألة الأولى.

المسألة الثانية: هذه وقعت هنا ولا يتمنوه أبدا في سورة الجمعة قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧)﴾ [الجمعة: ٦-٧]، هنا فقط في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة:

٩٥]، لأن ﴿لَنْ﴾ هنا ناصبة كما تعلمون فنصبت الفعل المضارع بحذف النون، فقال تعالى هنا: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥]، وهناك قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ [الجمعة: ٧]، ﴿لَا﴾ هناك نافية.

لكن ما يهم لماذا قال سبحانه وتعالى هنا: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، وقال تعالى هناك: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾ [الجمعة: ٧]، فما الفرق بينهما؟ هل هناك فرق بين استخدام حرف «لن» وحرف «لا» هذه المسألة الثانية بعد الأولى، للعلماء مذاهب في هذه المسألة هناك من قال: هذا على جهة التأنق ولا فرق بينهما «لا» و«لن» كل واحدة تقوم مقام الآخر بمعنى هذا من وجوه التعبير يتغير لئلا يقع على معنى واحد فيقع الملال، وإنما هو ينوع الخطاب بألفاظ متعددة مع المعنى الواحد هذا مال إليه مثلاً صاحب «البحر المحيط» أبو حيان الأندلسي ومال إليه الآلوسي في تفسيره، مالو إلى هذا المعنى، وقالوا: ما في ضرورة البحث في أنه لماذا استخدموا هنا، فهذا من قبيل التأنق وتعدد الخطاب في ألفاظه المتعددة وعلى المعنى الواحد، أهل البلاغة في وجوههم العُليا لا يقبلون هذا الكلام، لا يرون بأن لفظاً يختلف في اللفظ عن أخر، ويقوم مقامه في المعنى التام، لابد أن يروا هناك ثمة خلاف، الآن انتهينا من الذين قالوا: هذا كله واحد.

نأتي إلى الذين اختلفوا، الوجه الأول: قال بعضهم: ما أقوى «لن» أم «لا»؟ فالذي عليه الزمخشري طبعاً والمتابعون له هم البيضاوي وأبو السعود يتابعون الزمخشري في هذه المسائل البلاغية، فجعلوا «لن» أقوى، قالوا: «لن» أقوى من «لا»، فإنها تستخدم للتأبيد أكثر مما تستخدم «لا»، وهذا بالنسبة للزمخشري ملائم لمذهبه، ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، «لن» ملائمة أنها تأبيدٌ نهائي، نحن ما تحدثنا عن لن وما يقوله أهل العلم في المعاني ماذا يقولون فيها، يكفي ما تقدم من الكلام في أن «لن» إما يقصد بها التأبيد الدنيوي فقط وينقطع بعد ذلك هذا، كما رأينا أنهم تمنوا الموت يوم القيامة ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، أي أمتنا، فتمنوا الموت، ويكفي هذا.

فعند هؤلاء أن «لن» أقوى فلماذا قويت لن في هذه الآية هنا واستخدمت «لا» الأضعف عند هؤلاء، «لا» أضعف في سورة «الجمعة»، لماذا؟ فقالوا: السبب أن المطلب هنا أشد، المطلب هنا الجنة، وأما المطلب في سورة «الجمعة» هو مطلب سبيل الجنة فما هو الأعظم؟ سبيل الشيء أم الشيء؟ هنا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ [البقرة: ٩٤]، فالمسألة هي الجنة، المطلب الآخر،

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ﴾ [الجمعة: ٦]، فما هو الأعظم ولاية الله عز وجل أم الجنة؟ ولاية الله عز وجل هي سبيل الجنة، فلذلك الجنة أعظم مطلبًا فاستخدمت كلمة لن لأنها أثقل وأقوى، فالله عز وجل نفى بلن الأقوى لمطلبهم الأقوى وأتى بلا فيما هو المطلب الأدنى نافياً ما تمنوا، ولا يتمنونه، فالمطلب الأعظم أستخدم له لفظٌ أعظم، والمطلب الأدنى أستخدم له لفظٌ وحرف أدنى من الأعظم، وهذا وجههم.

الوجه الآخر قال: لا، بعضهم قال: «لا» هي الأقوى، بالرغم من أن سيبويه رحمه الله قال: «لن» هي مجموعة من «لا» و«أن»، فقال بعضهم: الوجه الأقوى أن «لا» أقوى، والدليل أن الله عز وجل استخدمها فيما هو يقينيٌ في عدم وجوده البتة وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ولكن لما ذكر عن الرؤية؛ قال تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فلما نفى حدوث الشيء مطلقاً قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾، أي لا في الدنيا ولا في الآخرة وهذه ليست نافية لرؤية الله عز وجل في الجنة، وإنما نافية للإدراك، الإدراك فوق البصر، فقلبوا، فبعضهم قلب وقال: لا، «لا» هي الأقوى ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾ [الجمعة: ٧]، قال: وإن كان المقصد أعظم، وإنما الوسيلة هي التي أوصلتك إلى الجنة جزاء، ما هو الأعظم الجزاء أم الفعل؟ ما هو الأجّل؟ الأجّل هو الفعل أعظم من الجزاء؛ أن يكون المرء ولياً لله هو الأعظم من أن يدخل الجنة، وواجبٌ على المرء أن يكون ولياً لله عز وجل ولو لم يدخل الجنة، هذا وجهٌ آخر.

وابن الزبير الغرناطي له وجهٌ آخر وقال: المتعلقة في المستقبلي وغير المستقبل، فلما كان أمر الولاية هو حدوث أمرٍ في الدنيا، زعم الولاية أمرٌ أين؟ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦)﴾ [الجمعة: ٦]، فهو أمرٌ حادثٌ في الدنيا، وأما أمر دخول الجنة فمستقبلي، فجاءت «لن» لتدل على المستقبل، و«لا» لتدل على الحاضر، و«لا» الأبلغ -نشتق الآن من قضية الأبلغ- «لن» لما هو أتي -هذه زيادة التي سأقولها عما قالها ابن الزبير الغرناطي هكذا هو قال، وقف ها هنا وقال: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] مستقبلاً ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، وهنا ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥] لأن الأمر الذي عليه الخلاف وهو أمر دخول الجنة، فلما كانت المقدمة تتعلق بأمرٍ مستقبلي أستخدم لها النفي المستقبلي، ولما كان في سورة «الجمعة» الأمر يتعلق بأمرٍ حاضرٍ وماضٍ فاستخدم له لفظٌ لنفيه لفظٌ غير مستقبلي وهو «لا».

الآن نرجع الطائفة الثانية قالت: «لا» أقوى من «لن»، هنا استخدموها هنا، هذه ما استخدمها ابن الزبير الغرناطي لكن بعضهم قالها، ماذا قال؟ «لا» أبلغ هنا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ﴾ [الجمعة: ٦]، انظر وهنا قال تعالى: قل إن كانت انتبه في سورة الجمعة قال تعالى: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ﴾، قال: دخول الفعل بعد إن يدل على التكرار بخلاف قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ﴾، فإنها تدل على الماضي مرة وانتهى الأمر، فـ ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ﴾، معناها كلما زعمتم، كلما، فلما كان زعمهم متكرراً، ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾، فاحتاج النفي إلى ما هو أعظم وهو «لا» على قاعدة أن ««لا» أبلغ في النفي من «لن»»، بخلاف ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، هو حدثٌ واحد لا يتكرر بخلاف ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ﴾ فكلما حدث أمرٌ سيزعمون مرةً بعد مرة، فـ﴿إِنْ﴾ دخلت على الفعل فدلت على التكرار بخلاف دخولها على ﴿كَانَتْ﴾ فهي تدل على حدثٍ واحد فقط، ولا تدل على التكرار، فلما كان الأمر كذلك – نرجع إلى ما قلنا فيه– ممن قال: بأن «لا» أبلغ لأنها تحتاج إلى نفي شيء متكرر بخلاف «لن»، هذه مسألة ثانية في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿أَبَدًا﴾ وهذه على ما تقدم فإنها تدل على طول الأمد الذي لا ينتهي بحسبه، أي في الدنيا ينتهي بحسبه، قال تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وممن قالها الإمام البغوي رحمه الله ومن لفتاته و«معالم التنزيل» للإمام البغوي عليه رحمة الله من الكتب التي حض عليها أهل العلم منهم شيخ الإسلام وقال: «بأن ما فيه إنما هو أقوال أهل السنة بخلاف كثير من كتب التفسير اختلطت بالبدعة»، وحض على تفسير البغوي الذي يسمى «معالم التنزيل في التفسير والتأويل» للإمام البغوي المشهور من علماء أهل السنة، فقال: ها هنا لماذا قال تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، مع أن الأفعال باليد وغيرها، لماذا؟ لأن أعظم ما يفعله الإنسان يكون بيديه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

قال جل في علاه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، هنا لماذا قال ﴿بِالظَّالِمِينَ (٧)﴾؟ تقدم أنه وصفهم بالفسق ووصفهم بالكفر، ووصفهم بالتناقض ولكن هنا لماذا وصفهم بأنهم ظالمون؟ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، هذا لأن مقياسهم باطل، المقياس الذي قاسوا فيه البشرية باطل، عندما قالوا: الجنة لنا من دون الناس، ما هذا؟ هذا ظلم، والظلم كذلك حين يزعم المرء حقاً له ولم يأتي بدليله، وهنا قالوا الجنة لنا من

دون الناس ولم يأتوا بدليله، فهذا هو الظلم، ولذلك تناسق قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، مع مقدمات ما فعلوه من الظلم، فهو إشارة لهم أنهم من أهل الظلم، واله عز وجل عليمٌ بهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، دائماً هذه قاعدة شرحت بعضها وهي قاعدة لابد أن نستدل عليها بكثير من الأدلة وهي قاعدة: «التكميل والتعديل»، هذه شرحناها في الأسماء والصفات، ننبه عليها إشارةً لنفس المعنى، لأننا نتحدث عن كتاب الله عز وجل سواء في الأسماء والصفات، ونتحدث عن المعنى في كتاب الله عز وجل مباشرة.

قاعدة «التكميل والتعديل» ما هي؟ أن القرآن إذا أتى بقضيةٍ ثم ألحق بها معنى آخر فهو إما لتكميلها، لتكميل هذا المعنى ليأتي بمعاني عظيمة أخرى، غير ما هو قاصر عليه المعنى الذي أتى باللفظ، وإما لتعديل شيءٍ يحدث في نفس القارئ فيعدل هذا الذي يحدث في نفسه، هذه قاعدة مهمة جداً، يعني الناس يسألون لماذا أتى هنا، فلابد أن تفهم هذا شرحنا بعض صوره مثل قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، لماذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾، قلنا هنا: من أجل التعديل، ما هو التعديل؟ أن المرء حين يتوكل يقول: أريد النصرة الآن، فالقرآن يقول: لا، لا تشترط هذا الشرط ستنتصر ولكن لكل أجلٍ كتاب، لأن بعض الناس يقول: توكلت على الله، أين النصر؟! فأنت ربما يكون عندك المرض فتشرب حبة الدواء اليوم لمدة شهر حتى يأتيك الشفاء، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾، يعني سينصرك، ولكن حين يأتي الوقت الذي ينصرك فيه فلا تشترط أن يكون حالاً، وفي الآيات ذكرناها، قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، قد يأتي على النفس أو على العقل، المعنى أنه لا يُرى أو أنه ليس له صفات، وهو أثبت له صفة، لكن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فكأنه هذا ينفي نسبة الصفة له فأثبت له الصفة، فهذه قاعدة «التكميل».

ومما سنذكره في قضية اسم الرحمن أن كلمة الرحمن لكمالها هذه نذكرها إن شاء الله في «شرح الأسماء والصفات»، لكن أعجل الكلمة فيها أن كلمة الرحمن في القرآن لم تأتي قط إلا مع صفة الرحيم، بخلاف الرحيم أتت مع العزيز أتت مع العليم، هذا على ماذا يدل؟ على أن صفة الرحمن لا تحتاج إلى تعديل فهي

جميلةٌ من كل وجه، ولكنها صفةٌ للنفس فماذا تحتاج إلى أن تكون صفة للفعل في غيرها فقال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، فهذه قاعدة نحفظها مع القرآن لنفسره، قاعدة «التعديل والتكميل».

هنا قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾، هذه ينطبق عليها هذه القاعدة «التعديل والتكميل»، يعني القرآن يريد أن يقول: لستم أنتم كأحدٍ من الناس في عدم تمني الموت لبطلانه، يوجد هناك أناس كثر لا يتمنون الموت، بسبب كفرهم، أو بعدم إيمانهم باليوم الآخر، كثر ولكنكم أنتم على صفةٍ خاصة من هذا، قد يقول اليهود بعد ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: فقط نحن، لسنا نحن فقط في عدم تمني الموت فنحن كبقية الناس، القرآن يقول: أنتم حالة خاصة، فهنا يريد القرآن أن يجردهم من كونهم على نفس النسق من الكافرين، لوجود هذا المعنى الذي يطرأ على نفس أحد الناس، يقول: لماذا أنتم تهتمون باليهود في هذا الباب، وبقيت الناس والكفار لا يتمنون الموت؟ فالقرآن جاء ليعدل هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾، الحال الذي هم فيه من عدم تمني الموت لمحبتهم في الدنيا، أنهم أحرص الناس على حياة، لا يوجد مثيل لهم في هذا الباب في تمني البقاء في الحياة الدنيا، يحبون الدنيا حباً لا يحبه أحدٌ مثلهم، وهذا على معنى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٩٦]، يعني أنتم تحبون الحياة أكثر من الذين أشركوا، هذا معنى من المعاني.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾، انتقل الخطاب فرأينا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، هو خطابٌ لليهود، الآن الخطاب لمن؟ للنبي صلى الله عليه وسلم، أولاً: هو خطاب لأمته، في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾، لأن الخطاب لهم قد انتهى يعني انتهى بقطع حجتهم، وانتهى الموضوع ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ انتهى، والآن جاء الخطاب لك أنت من أجل أن تعلم كيف تتعامل معهم، الآن الخطاب لك الفائدة لك، هذه الفائدة كيف؟ لتتعامل معهم، ففي جهادك معهم ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ﴾ [الحشر: ١٤]، ذكر القرآن كيفية قتال اليهود وهذا الذي حدث، في كل قتال النبي صلى الله عليه وسلم لليهود لم يحصل قتالٌ كما حصل بينه وبين المشركين، انظر إلى قتال النبي صلى الله عليه وسلم في حنين، هو جابه أقواماً كالجن، انظر إلى قتال النبي صلى الله عليه وسلم مع قريش، الذين لما غلب النبي صلى الله عليه وسلم قريشاً في بدر جعلت اليهود

تظهر نفاقها وتظهر كفرها وتظهر عداوتها بأن قتالها ليست كقتال هؤلاء الأوباش العرب، فإذا قاتلتنا ستجد منها أشياء، لم يحصل قط بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود قتال، لم يحصل.

وقد يقول قائل: فلماذا في العصر الحديث يقاتلون؟ من قال لك أنهم يقاتلون؟ من قال لك أولاً أن اليهود يقاتلون؟ في عام «١٩٤٨ م» الذي يظن أن اليهود قاتلوا، وهذه كلمة يهودي اسمه «آفي شلايم» في كتابه اقرؤوه اسمه «تواطؤ عبر الأردن»، وهو باللغة الإنجليزية، وهناك كتابان بهذا الاسم حتى لا يختلط الأمر، كتاب لصحفيين أمريكيين يعني أجنبيين وهناك كتاب لهذا اليهودي اسمه آفي شلايم، يقرر أنه لم يكن هناك ثنائية في القتال كان هناك ثلاثية في القتال، يعني الذي هزم العرب هم العرب، ولا أقول هزم المسلمين الذي هزم العرب هم العرب هو الخيانة، أعطني موقعةً واحدة في فلسطين موقعة واحدة انتصر فيها اليهود على العرب أو على المسلمين، وإنما هاجر الناس للسمعة، وهاجروا ليعودوا، مساكين أهل القرى المساكين، فقراء لا يعرفون شيئاً عن السياسة وماذا يدار لهم، القرى الفلسطينية التي لا يعرف أحد عن أحد إلا بالمسير الرجلي له، ولما خرجت قضية دير ياسين، الناس مساكين خافوا على أعراضهم، فكانوا يقاتلون وكان الناس يرابطون حول القرى ببواريدهم الخربة والعتيقة والمشترى من ذهب نسائهم، فلما سمعوا بدير ياسين خافوا على أعراضهم فذهبوا ليرسلوا نساءهم في مناطق الأمان، وكانت الخطة مبيته، ومع أن هذه قصة دير ياسين والدعايات على قضية الأعراض واغتصاب النساء قصة مكذوبة وضخمها العرب عملاء اليهود، من أجل أن يتحقق قيام دولة يهود، لم يقاتلوا لم يحصل.

وفي عام «١٩٦٧ م» من قال لك: أنه حدث قتال؟ أوامر بالانسحاب على كل الجبهات، والأماكن التي حصل فيها قتال بقية تبقى أماكن يسيرة جداً أوقفوا اليهود حتى فنيت هذه الفئة القليلة التي كانت تجابه بأعظم أنواع الأسلحة، فمن قال لك: أن هناك قتال؟ الحقيقة اليهود لا يقاتلون، ولذلك لما انتقل الخطاب في هذه الآية من خطابٍ لليهود لإلزامهم بباطلهم أراد أن يُعرفنا هذا المعنى فيهم لنستخدمهم فيهم، لنعرف كيف يتحركون، لنعرف ما هو أمر حياتهم وشؤونهم ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، ومما ينبه عليها أهل العلم أنه هنا كلمة ﴿حَيَاةٍ﴾ جاءت منكرة لتدل على ما يحصل به معنى الحياة أي حياة، هم لا يهتمون بأن يكونوا أحياء أعزة لا يهتمون بهذا، ومن أدلة ذلك أن اليهود لا يمكن أن يستقلوا بالفعل إما أن يستخدموا غيرهم وإما أن يقبلوا أن يدخلوا تحت حماية الكبراء والأغنياء والأقوياء، التحالف

مع الكبار من أجل تنفيذ المآرب أو العمل بالجاسوسية، يدخلون رجالهم يدخلون أبناءهم يسمونهم بغير أسماء يدخلونهم يهوداً، والآن لا ضرورة لأن يكون الرجل يهودي النسب، يكفي أن يكون المرء يهودي الهوى تابعاً لهم، وتتنفذ مآرب اليهود اليوم بيد غيرهم، فقط من أجل إرضائهم وتبعاً لهم، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ هذا خطاب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾، هو تنبيهٌ للوقائع القادمة بين النبي صلى الله عليه وسلم أو بين أمته وبين اليهود، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ هو تنبيهٌ لما سيأتي من التعامل معهم، انتبه، ولذلك بنو قينقاع خرجوا من غير قتال، بنو النظير خرجوا من غير قتال، بنو قريظة خرجوا من غير قتال، أهل خيبر خرجوا من غير قتال، عمر رضي الله عنه بعد ذلك أخرجهم، لما تصالح النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود وعملوا في المزارعة عنده، فجاء عمر رضي الله عنه وأخرجهم من غير قتال، فهم ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ في كل أحوالك معهم يا محمد صلى الله عليه وسلم وخطاباً لأمته ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾، أي الدنيا لا يريدون شيئاً آخر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٩٦]، اختصارًا هناك من أهل العلم قال: أي هؤلاء أحرص الناس على حياة من كل مشرك، هذا القول الأول، هؤلاء اليهود أحرص الناس على حياة من كل مشرك، ومقارنة اليهود بالمشركين شأنٌ قرآني، في أن المشركين مع أنهم لا كتاب لهم ولا أنبياء عندهم يعظونهم، لكنهم أفضل من اليهود، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، بعدها قال تعالى: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٣٠]، في كفرهم اليهود هم أشد كفراً ممن لا كتاب عندهم، يقارن الله عز وجل اليهود الذين عندهم الكتاب، وحصلت فيهم النبوة وقال فيهم المواعظ مع ذلك هم أشد كفراً من الذين كفروا، من غير أهل الكتاب، وهنا هذا المعنى يطابق الذي ذكر هذا المعنى.

ومعنى آخر أن الله عز وجل ذكر أقواماً من الذين أشركوا على معنى اليهود، هناك قومٌ وليس كل المشركين، ولكن هناك نوع من المشركين على معنى ما عليه اليهود، وذكر أهل العلم بعض الأقوام وأغلب أهل التفسير عندما جاءوا لهذا المعنى ذكروا المجوس، قال: لأن المجوس –وهذا اعتبره من التفسير بالمثال– قال: لأن المجوس إذا عطس الواحد منهم، قالوا له: بعمر ألف عام، إذا عطس المجوسي عند المجوسي فكيف

يشمته، يقول له: يعني أدعوا لك بأن يكون عمرك ألف عام، فقال: -هذا المعنى الثاني- أن هناك من المشركين ما يدعو لنفسه أن يعيش ألف عام، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، نكمل أن شاء الله في الدرس القادم.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الواحد والسبعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الحادي والسبعون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع فاصلة قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [البقرة: ٩٦].

تقدم الكلام في مناسبة هذه الآية مع ما قبلها، وأن قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، هو تفسيرٌ لقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾، فهم من حرصهم على الحياة يريدون العيش فيها زمنًا لا نوعا، ينبه القرآن على أنهم يحبون العيش في الحياة زمنًا لا نوعًا، فذكر طول الزمن قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، ولكن لما ذكر نوع الحياة أطلقها فدل على أنهم يريدون الحياة من غير نوع من أنواعها ولا شك أن هذا من الأخلاق السيئة التي لا ترضاها النفوس علاوة على أنه لا يرضاها المؤمن، فتجد الشجعان لا يرضون الحياة في ظل الجبن والخنوع، فهم يموتون ولا يقبلون هذه الحياة، فهم يريدون حياة خاصة، الصادقون والعقلاء يريدون حياة خاصة، المؤمنون يريدون حياة إيمانية، وكل أحد يريد حياةً خاصة مما يعقل ويهتم.

وأما هؤلاء اليهود فيريدون أي حياة ولذلك يرضون دائمًا الذلة، يرضون دائمًا أن يعيشوا في الأقبية، يرضون دائمًا أن يعيشوا بعيدًا عن مهمات الحياة، فإذا قيل فكيف يسيطرون؟ قيل بحبلٍ من الله وحبل من الناس، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وهو التحالف مع الأقوياء، يظهر أمرهم ويظهر شأنهم حين يتحالفون مع الأقوياء، ويدفعون الأقوياء

لحمايتهم فيظهرون كقاعدة الإنجليز التي يقولونها: «إن القزم حين يركب على كتف العملاق يصبح أطول منه» وهكذا هم يستخدمون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ﴾، مزحزح أي مبعده، فقط هذه ننبه عليها ولكن الزحزحة لا تكون لإبعاد لما هو سهل، وإنما لإبعاد ما هو ثقيل، وما في ذلك مشقة، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ﴾، ذلك لأن العذاب عليه مقيم، فلذلك زحزحته تحتاج إلى شيءٍ كبير، فما هو بمزحزحه، لن يزحزح ولو جاء الأمر العظيم ليزيحه فلم يستطيع، ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾، أي عمره الطويل لا يمنع عنه وصول العذاب إليه، ولذلك لا يغتر بهذه الحياة مهما طال أمرها.

وأدرك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن طول الحياة في النهاية، الموت، وفي ذلك في قصة قبض روح موسى عليه السلام، لما جاء ملك الموت ليقبض روحه فاستأذنه لأن الأنبياء لا يموتون حتى يستأذنون، وذلك مقامًا لهم وتشريفًا لهم، أن الله عز وجل لا يريد أن يكدر عليهم شيئًا يحبونه تطبيقًا للحديث (ما ترددت في شيءٍ ترددي في قبض نفس أو روح عبدي المؤمن)، لحبه لهم لا يريد أن يقبض روحهم إلا برضاهم، فجاء ملك الموت لموسى عليه السلام يستأذنه فلطمه، ففقأ عينه، فرجع إلى الله عز وجل وشكى له، فقال ارجع إليه وخيره أن يعيش في هذه الحياة الدنيا بأن يضع يده على جلد كبشٍ كبير وكل شعرة من هذه من هذا الكبش أصابت يده فمقابل هذه الشعرة سنة، فلما أخبر موسى عليه السلام، قال فماذا بعد؟ قال: الموت، قال: إذن الآن.

فالعاقل هو من ينظر إلى هذا المعنى، والله عز وجل قال: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، القرآن عالج قضية الموت معالجةً مهمة، يجب أن نقرأها لأن الناس يخافون من الموت، ويعتبرونه انتهاء، وهو غير صحيح، الموت لا يُخاف منه إلا بما يحدث فيه لا لكون الموت مخيفًا انتبهوا لهذا، ووطنوا أنفسكم على هذا المعنى، الموت لا يخيف، ليس في الموت خوف، وإنما المخيف فيه ما يحدث فيه. الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يخافون الموت، ولا الصالحون يخافون الموت، ولكن يخافون ما يحدث فيه، من سكراته، من دخول القبر وما يحدث فيه، من لقاء الله عز وجل، من البعث والمحشر، هذا

هو الأمر العظيم، ولكن الموت ليس كما يتخيله الصغار أنه دخول غرفة مظلمة، هذه الظلمة تصنع الخوف كما تصنع الخوف في الصغار، الموت ليس كذلك.

ولذلك إذا علمت أن الموت أتيك على كل حال، وأن سبيل الموت ليس هو الذي يقدم العمر أو يؤخره، بمعنى أنك ستموت في لحظة من اللحظات، فعليك أن تطلب الموت بطريقةٍ يحبها الله عز وجل، وأفضل طريقةٍ لبلوغ الموت على الوجه الذي يحبه الله عز وجل هو الشهادة، ولذلك قد يخاف المرء أن يرفع يديه سائلاً ربه الشهادة، مخافةً أن يكون في دعاءه هذا تعجيلاً بأمر الموت، كأنه يدعو على نفسه بالموت، الأمر ليس كذلك، الأمر أن الموت سيأتيك على كل حال، وإنما تسأل الله عز وجل أن يأتيك الموت الذي هو مقدر لا يقدمه لا الدعاء ولا غير الدعاء، ولذلك لما دعت أم حبيبة رضي الله عنها بطول العمر لأخيها ولأبيها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكِ سَأَلْتِ اللَّهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَآثَارٍ مَوْطُوءَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لا يُعَجِّلُ شيئًا منها قَبْلَ حِلِّهِ، وَلَا يُؤَخِّرُ منها شيئًا بَعْدَ حِلِّهِ)، فلذلك لا ينفع شيئًا أن تدعو الله بطول العمر، لأن العمر أمرٌ محسوم، أمرٌ منتهي، فأنت ادعو فيما ينفعك، ادعو أن تموت على نوعٍ معينٍ من الميتة، وهو أن تموت شهيدًا، أعظم ما يقربك الله عز وجل أن شهيدًا، فإن لم تصب الشهادة بقدر الله عز وجل الذي قدره أن لا تموت شهيدًا في حقيقة الأمر فأنت تبلغ منازل الشهداء، وهذا امرٌ مهم، أكثر من الدعاء بينك وبين الله عز وجل أن تموت شهيدًا.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ﴾، لم يأت هناك شيء يزيح هذا الثقل المقيم عليك.

فالقصد من ذلك: أن تمني الحياة الطويلة ليس من شيم أهل الصلاح، فسبيل الأنبياء خلاص يقولون، وقد تقدم في علاج مسألةٍ سبقت أن المنهي عنه تمني الموت لضرٍ أصابه، لكن لخوف الفتنة لو أنه خاف الفتنة، فهذا لا، لا ينهى عن الموت في هذا الباب أن يخاف الفتنة، وإقدام المرء على الموت، هذا من سبيل المؤمنين، «جئتك بقومٍ يحبون الموت» كما تحب فارس الخمر.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، هناك مسألتان، سأتكلم في هذا اللقاء عن مسألةٍ واحدة، وثم نؤجل الكلام عن المسألة الثانية لما يأتي مناسبتها في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾ [آل عمران: ١٥٣] أو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)﴾ [النساء: ٩٤]، أو مع شابه ذلك من

الآيات الدالة على إثبات صفة الخبير لله عز وجل، وهذه أول آية تتحدث عن صفة بصر الله عز وجل وفعله، تتحدث عن فعل ربنا عز وجل أنه بصير ومن أسمائه البصير، وأما اجتماعها مع صفاتٍ أخرى كالسميع البصير، فسيأتي الحديث عنها، إن شاء الله نتحدث عنها في شرح الأسماء والصفات فهو أليق بها.

ولكن ما ينبغي أن نقف عنده هذه الآية ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [البقرة: ٩٦]، فهي أول آية في القرآن تتحدث عن صفة البصر لله عز وجل والآية التي تليها في رسم المصحف الذي بين أيدينا، وعند قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾ [البقرة: ١١٠]، ونحن فقط لن نتحدث إلا عن هاتين الآيتين؛ لأنهما دلتا على أمثالهما في القرآن الكريم، لماذا يقدم الله عز وجل العمل قبل الصفة؟ أو لماذا يقدم الصفة قبل العمل؟ والعلماء يهتمون بالتقديم وتأخير، وأول من تكلم عنه الإمام سيبويه رحمه الله في كتابه «الكتاب»، وقال: «إن العرب لا يقدمون في كلامهم إلا من هو أليق، ومن هو أجلى ومن هو أقرب»، وهذه قاعدة مهمة جدًا أن التقدمة لأمرٍ ما، فيقدم العربي كلمةً على كلمة لإمرٍ ما، وشرح هذا بتوسع.

ونعود إلى التفريق بين تقدمة العمل على صفة البصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾ [البقرة: ١١٠]، وبين تقديم صفة البصر على العمل في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [البقرة: ٩٦]، ومع قراءة أخرى معروفة ومشهورة ومتواترة: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [البقرة: ٩٦]، ونقول بما تقدم بأن أول كتابٍ جمع فيه أساليب العرب من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ هو كتاب «الكتاب» للإمام سيبويه رحمة الله عليه، وقال بهذه القاعدة وهي قضية النظر إلى ما يقدم، وهذه قضية قرآنية بلاغية يتحدث عنها العلماء كثيرًا حين يرون التقديم والتأخير لماذا يقدم هنا؟ ولماذا أخر هنا؟ هذه قضية مليئة بالمعاني العلمية في علم البلاغة، ومنها ما نحن بصدده هنا.

فعندما يكون الحديث عن العمل وأهميته، وأن العمل مهم، والله عز وجل ينظر إليه لأهمية هذا العمل، يقدم الله سبحانه وتعالى العمل على الصفة، ومن ذلك ما ذكر في الآية التي تلي هذه الآية، قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا﴾، انظر الحديث عن الأعمال وعن قيمتها، وأن الأعمال لها أهمية، فقال الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾ [البقرة: ١١٠]، فقدم العمل على الصفة، لأنها هي المقصودة، والله عز وجل يحض على هذه الأعمال، أو ينبه إلى أهميتها، قد يكون قبولاً وقد يكون على معنًا آخر، لكن هنا الحديث عن العلم الإلهي وعن البصر الإلهي، الحديث هنا ليس عن قيمة العمل، ولكن الحديث عن مراقبة الله لهم وعلمه بهم، فلما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٩٦]، يحدث ربنا عز وجل عن علمه بما في قلوبهم وعن علمه بما يعملون، فالحديث عن علم الله عز وجل، ليس لأهمية ما يعملون، ولكن لأهمية مراقبة الله عز وجل لما يعملون وما سيعاقبهم عليه، فكانت الأهمية أن يقدم الصفة، لما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، الله عز وجل يتحدث عن علمه بهم وبصره بهم، وليس على أهمية العمل ولا قيمته، ولذلك قدم الله عز وجل هنا صفة البصر على العمل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ أو ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، على القراءتين، وهذا أمرٌ تجده كثيرًا في القرآن، وإن شاء الله إذا جئنا إلى الآيات نبيّن هذا، واحدة، واحدة، ولكن يكفي أن نمر على هاتين الآيتين المختلفتين صياغةً على المعنى الذي ما تقدم ذكره ها هنا.

وتبقى قضية لماذا يقول ربنا عز وجل: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)﴾ [البقرة: ٢٣٤]، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فهذه إن شاء الله يأتي ذكرها عندما يأتي خبر علم الله عز وجل بأنه خبير، يقدم صفة الخبير سبحانه وتعالى.

ومما لا شك فيه: أن البصر هو إدراك ما يبصر، وهذه تطلق على معنيين في القرآن: تطلق على البصر الظاهر وهو الرؤية والنظر، وتطلق على العلم حين يكون علمًا قلبيًا والتي يقال عنها: البصيرة، أي أن البصر يطلق على ما هو ظاهر، والبصيرة تطلق عما هو علمي.

ومما لا شك فيه: أن خبير هو إدراك البواطن وبصير هو إدراك الظواهر، ولذلك حين يكون الحديث في القرآن –كما سيأتي وهذا تعجلة له– حين يكون الحديث عن أمرٍ ظاهرٍ بيّن يتحدث عن البصر، وحين يكون الحديث عن أمرٍ خفيٍ فيه الخبرة لباطنه يكون الحديث عن ذكر الخبير، ومن صفات الله عز وجل أنه بصير جاءت على صفة الفعل كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾، وجاءت ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فدل على أن الله عز وجل له اسم البصير وأنه سبحانه وتعالى من أفعاله البصر لما يبصر جل في علاه.

ومما لا شك فيه: أن الله عز وجل بصيرٌ لكل شيءٍ.

بعد هذا الذي تقدم ذكره، وهذه آيات بيّنة في خسة هؤلاء القوم اليهود، وأنهم على حالتهم هذه، يعني إذا أردنا أن نبحث كما يفعل كثيرًا أصحاب المناسبات الذين يبحثون عن المناسبة، ويدققون في المناسبات، فدعنا نمشي على إثرهم في هذا الباب.

مثال ذلك: عندما تحدث الله عز وجل عن اليهود أنهم من أحرص الناس على الحياة، ما هو الواجب في ذلك؟ الواجب عليهم حين يكون حرصهم على هذه الحياة بهذه الدرجة أن يتجنبوا أسباب الموت والدمار، يعني هذا هو المطلوب منهم، المطلوب من اليهود أنهم حين يكون حرصهم على الحياة لهذه الدرجة أن يبتعدوا عن مواطن الهلكة، ومما يدل على تناقضهم -هذا هو جانب- مما يدل على تناقضهم في ذلك؛ أنهم أتوا أسباب الهلكة، والذي يحدث الهلكة في الأمم بسبب معاصيهم هو جبريل عليه السلام، فالواجب اجتناب هذه الأسباب، هذا واحد، وهذا المعنى الذي ذكرته دندنة حوله وحام حوله الإمام البقاعي في تناسب الآيات والسور

الشيء الثاني: المعنى الآخر هذا معنى محتمل وكل أسباب المناسبة هي من الاجتهاد هي من أبواب الاجتهاد والنظر فيمكن أن يقال: أن الأقرب في ذكر المناسبة ليس هذا، وإنما شيءٌ آخر، وهذا الشيء الآخر على عكس ما نحن فيه، وهو أنهم لحرصهم على الحياة يكرهون ما يحقق لهم الهلكة، فالذي يأتي لهم بالهلكة هو جبريل عليه السلام، فلحرصهم على الحياة الدنيا؛ كرهوا جبريل عليه السلام الذي يأتيهم بالعذب، ولذلك السبب الذي يذكره أهل التفسير لنزول هذه الآية في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]، أن اليهود سألوا من ينزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن، فأخبر أنه جبريل عليه السلام فكره ولم يؤمنوا كراهةً بجبريل عليه الذي يأتي بالعذاب، فلو كان الذي يأتي بالطعام والشراب والماء كميكائيل عليه السلام لاتبعوه، فلذلك من حرصهم على الحياة كرهوا من يأتي لهم بالموت وهو جبريل عليه السلام، فهذا وجهٌ آخر يمكن أن يقال وهو الأقرب والله تعالى أعلم.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)﴾ [البقرة: ٩٧]، الله عز وجل يخبر في هذه الآية بأمور متعددة أولاً: أن هؤلاء القوم

يعادون جبريل عليه السلام، والإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان، لا يصح إيمان المرء إلا به، وأول درجات الإيمان بالملائكة أنهم موجودون، لكن هذا لا يكفي الايمان به، فبعض المشركين يؤمنون بوجود الملائكة، مثل أهل مصر القِبط الذي نزل عندهم يوسف عليه السلام ماذا قالت النسوة؟ ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ [يوسف: ٣١]، فإذن كان في ثقافة هؤلاء القوم المشركين أن الملائكة كرام وأنهم على الجمال الكبير بخلاف ما عليه البشر، فيمكن.

لكن من أركان الإيمان بالملائكة بعد الإيمان بهم هو محبتهم، فوجب محبة الملائكة، لماذا مع أنهم أخفياء؟ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم. لأنهم؛ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، لما أكرم الله عز وجل الملائكة من خصوصية الطاعة فيجب الإيمان بهم، فيجب على المرء أن يحبهم، فمحبة الملائكة ركنٌ من أركان الإيمان بالملائكة، ومن كره ملكًا من الملائكة فقد كفر بهذا الملك وبالتالي كفر بكل الملائكة وبالتالي كفر بالله عز وجل، كما يكفر بنبيٍ واحد من الأنبياء الذين ذكروا في كتاب الله وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم، من أبغض نبيا من انبياء الله كفر بكل الأنبياء، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ولم يكذبوا إلا نوح عليه السلام، ولكن لما كان تكذيب نوح عليه السلام لأنه رسول فدل هذا على أن كل رسولٍ جاء من عند الله عز وجل هو مُكذبٌ عندهم، أي لو جاء غير نوح عليه السلام لكذبوه؛ لتكذيبهم بالرسالة فكذبوا الأنبياء ومنهم نوح عليه السلام، وكيف إذا كان البغض متوجهًا إلى أعظم ملك وأكرم ملك وهو الذي اختصه الله عز وجل بأجّل الأعمال وهي: الأمانة على رسالة السماء إلى الأرض، وهو حمل رسالة السماء، أن يحملها ويكون أمينًا عليها ولذلك هو الروح الأمين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ﴾، هذه أداة شرط، لكن انظر إلى جواب الشرط، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، فإذن الذي يكره جبريل عليه السلام هو يكره ما أتى به؛ فكراهية جبريل عليه لسلام أدت إلى كره الرسالة وهذا الذي وقع منهم، الذي وقع منهم أنهم كرهوا جبريل عليه السلام فكرهوا الرسالة التي أتى بها، ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، وجبريل عليه السلام كما تقدم في كلامٍ سابق هو أعظم ملائكة السماء وهو اسمٌ عربي، وله صيغ متعددة ذكرها القرطبي وأخذها عنه الكثيرون، كيف

ينطق هذا الاسم؟ والذي عليه القرآن جبريل عليه السلام، و«إيل» هي كلمة عربية كما تقدم «إله»، والجبر معناها القوة، فكأنه قوة الله عز وجلن كما نقول: بيت الله، أي خلق فيه القوة العظيمة الهائلة.

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يرى جبريل إلا مرتين فقط في حياته على خلقته التي خلقها الله عز وجل، عظمه، ولم رأه قد سد الأفق عليه السلام، والملائكة هم مخلوقون من نور فهم مكرمون عند الله عز وجل، وهناك خلاف بين أهل الإسلام من أكرم الملائكة أم الأنبياء، والذي عليه أهل السنة أن الأنبياء أكرم من الملائكة وإن كانت الخلقة أكرم، أي أن الملائكة خلقوا من نور، البشر خلقوا من طين، فأصل الخلقة مختلفة، فالذي يخلق من نور غير من طين، لكن لما كان نظر ربي عز وجل لهذا الإنسان على معنى مختلف عما عليه الملائكة، ومن الإيمان بهم هناك أمور كثيرة منها: أنهم لا يعصون الله عز وجل ما أمرهم، وأن أحوالهم مختلفة، أولاً: في هيكلهم، ثانيًا: في أعمالهم، فهناك ملائكة فقط للذكر، هناك ملائكة لحفظ الإنسان، هناك ملائكة للاستغفار للإنسان، وهكذا، فملائكة لهم أعمال كثيرة جدًا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ﴾، أي يا محمد، ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، وكأن هذا حديثٌ للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يبغض النبي صلى الله عليه وسلم من أبغض جبريل عليه السلام، أي عليك أن تبغض من أبغض الذي نزل القرآن على قلبك.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، العلماء يقولون: ما الفرق بيّن نزل وأنزل؟ هذا بابٌ واسع، ولكن يكفي أن ينظر إلى انه استخدم كلمة نزل في القرآن وأنزل للكتب السابقة، ولذلك في أول سورة «آل عمران» قال تعالى: ﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣)﴾ [آل عمران: ١-٣]. فقال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، أي نزل القرآن، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣)﴾، هذا فقط في هذا الباب وإلا هناك أبوابٌ أخرى ذكر فيها كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)﴾ [القدر: ١]، فاستخدم، ولكن الجملة إذا جاء ذكر القرآن مع الكتب السابقة جاء بهذه الصيغة، نزل القرآن وأنزل الكتب السابقة، ونزل هي من صيغ المبالغة، التضعيف، نزل القرآن، فقالوا لإنزال القرآن على دفعات فجاء بهذا اللفظ، لكن لما كان إنزال الكتب السابقة مرةً واحدة، الله عز وجل أنزل التوراة مرةً واحدة، جاء بها موسى عليه السلام

مرة واحدة لبني إسرائيل، والإنجيل نزل مرةً واحدة على عيسى عليه السلام، فجاء بهذا اللفظ، ونقف عند هذا التمايز عندما يأتي موطنه إن شاء الله عز وجل لكن هذا الذي عليه الأكثر من أهل العلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، وذكر الله عز وجل الفعل بدل الشرف، وذكر أعظم الفعل ليدل على أعظم الشرف، أي ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾، هذا أن يذكر من هو جبريل في عظمته، فذكر فعله ولما ذكر الفعل ذكر أعظم الفعل ليدل على شرفه، فكيف يبغض هذا؟ ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، فعلم أن مقام جبريل هو مقام ما أتى به من فعل، وهذا تنبيهٌ لمن أراد أن يقدم أحدًا لا يقدمه بنسبه ولا يقدمه بخلقته ولا يقدمه بعظم جسمه، إنما يقدمه بفعله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، ولما ذكر العداوة أتى بالاسم، ولما ذكر الشرف أتى باللقب، ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾، فلما ذكر العداوة ذكر اسمه، لكن لما ذكر الشرف ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾، ما قال: قل نزله جبريل، وإنما أتى بلقبه، الدال على شرفه.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، وانظر إلى أول شيء مقام المنزل ومن أتى به حاملاً وإلى مكان النزول، مكان النزول القلب، ذلك لأن القلب هو محط إرادات البشر، وأعظم ما في الإنسان إذا صلح، والنبي صلى الله عليه وسلم هو أصلح الخلق وأكرم الخلق، فإن قلبه هو أطهر القلوب وأجلى القلوب وأفضل القلوب، فلذلك ذكر الله عز وجل أن جبريل عليه السلام ينزل على القلب، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، دل هذا على أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون إلا ما يؤمرون، فهذا شرفٌ لهم، هناك مقامات الفعل ما تكون عظيمة إذا استقل بها الفاعل، وهناك مقاماتٌ عظيمة لا تكون إلا لامتثالها للآمر، كيف يعرف؟ هناك مقامات إذا قيل للرجل من أين أتى بهذه الحكمة؟ قال: من جهة نفسه ما تعلمها من أحد ولكن هو أدركها بنفسه، فهذه يُمدح بها المرء، ولكن يُمدح المرء لقيامه بفعلٍ أمر به، على أي وجهٍ يمدح في هذه الصفة؟ يُمدح على هذه الصفة:

أولاً: إذا كان المقام الذي هو فيه عظيم، المقام الذي أتى به عظيم، ومن أين تعرف عظمة المقام؟ إذا عُرف من يمتثل، فلما قال تعالى: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، دل على أنه يمتثل أمر الله عز وجل، فعرفت عظمته لامتثال أمر الله عز وجل، لأنه لا يأتي من جهة نفسه، ولكنه أتى.

ثانيًا: يُمدح لأن الأمر الذي أتى به عظيم، لو ترك الإنسان لأتى بأشياء يقدر عليها على جهة العادة، لكن إذا جاءه الأمر على جهة العظمة، والذي إذا نظر إليه الناظر دل على أنه أمرٌ عظيمٌ جدًا، حينئذٍ يُمدح أنه امتثل، مثلاً: حين الملك يأمر وزيره بأمرٍ عظيمٍ جليل، فينفذه؛ فيكون في ذلك مدحٌ للوزير.

فهذا الأمر عظيم:

أولاً: لمقام الآمر وهو الله عز وجل.

ثانيًا: لمقام هذ الفعل أن يحمل أن يحمل هذه الرسالة العظيمة التي لو أنزلها الله عز وجل على جبل ﴿لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

ثالثًا: ثم ينزل على أشرف المقامات والأمكنة وهو قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

وهنا الأمر جاء خاصٌ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو عامٌ لأمته، قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، كذلك أنزله على أمته، على هذه الأمة، فالواجب أن تحب الأمة هذا النبي لأنه أتاها بهذا الكتاب التي شرفت به.

قوله تعالى: ﴿عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وفي ذلك تذكير، كم مرة وردت ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؟ هذا من إثبات الصدق ولإثبات قضية تاريخية بأن الذي جاء به، جاء به الأنبياء فهو ليس بالشيء الْمُبدَع الجديد، إنما هو جاء على سَنن الأنبياء وطريقة الأنبياء، قال سبحانه وتعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، المقصود بالتوراة والإنجيل.

قال سبحانه وتعالى في صفة هذا الكتاب بعد بيان مقامه في نفسه، العظمة في نفسه، فبيّن أثره في الوجود وقال: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)﴾، وهذه طريقةٌ نبهت عليها في عدة مواطن وهو أن الأمر ينبغي أن يذكر على صفاتٍ متعددة:

أولاً: أن يُنظر إلى نفس الشيء.

ثانيًا: أن يُنظر إلى من صدر منه أو تعامل معه أو فعله.

ثالثًا: يُنظر إلى واقعه في العمل.

وذلك مأخوذٌ من قوله تعالى في آخر سورة «البقرة» عندما ذكر الكتاب: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، هذه الطريقة القرآنية، الطريقة القرآنية هو أنها ذكرت الأمر كما هو عند الله عز وجل، هنا الأمر الأول: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، لأن المقام هو مقام تشريف فالأمر يذكر كما هو، عندما يذكر كما هو، ما هو هذا حق أم باطل؟ الصدق في ذاته جميل، يذكر الصدق في ذاته جميل، فلما جاء الأمر بالكتابة جعل الله عز وجل مقامها في نسبتها؛ لأن الله عز وجل ينظر إليها أنها ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، ثم ذكر حقها في نفسها كما هي، فقال تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾، كما هي، ثم لما ذكر أثرها في الناس، قال تعالى: ﴿وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾، والآثار المترتبة عليها.

فلما ذكر أمر القرآن على هذه العظمة ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾، وقد يقول قائل: دائمًا ضمير الغائب لابد له من مرجع، يسمونه مرجع الضمير، الضمير هذا يرجع، ضمير المخاطب لا يحتاج إلى مرجع؛ لأن المتكلم به هو مرجعه فلا يُسأل من الذي تكلم، يقول: أنا فعلت، فلا يقال: من أنت؟ هو الذي يتكلم، وإذا كان الضمير للمخاطب فلا يُسأل عن المرجع، أنا تكلمت وأنت سمعت، «ارفع تاء نفسك وانصب تاء غيرك»، أنتَ ضربتَ، أنا ضربتُ، هذه مما يصيغنها للتعليم، ومما يصيغونه للتعليم قال: «لا تكسر الصُندوق ولا تفتح الخِزانة»، تقول: الصُندوق وليس الصِندوق، ولا تفتح الخِزانة تقول: خِزانة، ولا تقول: خَزانة، هذا من طرق تعليمهم للصغار، ونحن ما زلنا صغارًا، كما تعلمون.

المهم فقوله تعالى هنا: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾، هذا ضمير الغائب، أين يعود؟ ارجع إليه، غير موجود في السياق، يعني هو المقصود به القرآن إجماعًا، ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾، هو القرآن، لكن أين ذكر القرآن؟ فدل هذا على حضوره في نفس السامع لعظمته في أنه إذا أطلق هذا الضمير لم يقع إلا عليه وهذا من عظمة مرجع الضمير، لأنك تحتاج إلى مرجع الضمير حين يقع الاشتباه، تحتاج، تقول هذا هو، والضمير هنا تحتاج أن تسأل من هذا؟ الضمير يعود إلى من؟ حين يقع الاشتباه حين يكون هذا الضمير يمكن إعادته إلى متعدد، ولكن إذا لم يقع إلا على واحد في نفس المتكلم؛ فحينئذٍ لا يقع الإشكال، وليس هناك ثمة أهمية لذكره سابقًا، لكن متى يكون هذا الضمير لا يعود إلا إلى واحد مع عدم ذكر مرجعه؟ حين يكون عظيمًا.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص: ١]، هنا قدم الضمير، والضمير ينبغي أن يكون مرجعه متقدمًا في الذكر، إجماعًا، حين يكون الضمير الغائب مرجع الضمير يكون متقدمًا، لكن لحضوره، وهذا يمكن أن يُحتج به لكلام الشافعي في عودة ضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، الضمير هنا موجه إلى من؟ من المعضل هنا؟ الجمهور أن الإعضال يعود على الزوج، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، فالحديث عمن؟ الحديث عن الزوج، أي هذا لا يجوز للزوج كما كان يفعل الجاهليون، وبعضهم حين يطلق المرأة لغيرته يمنعها من الزواج من الثاني، يقول له: طلقتك لكن لا تتزوجي، الضمير واضح يعود إلى هذا الذي حوله الكلام والسياق.

لكن الشافعي رحمه الله قال: لا، العضلُ هنا للولي، قيل له: غير مذكور، المعضل هنا الزوج الذي تعنيه غير موجود، قال: هو حاضرٌ في الذهن، هذا مما يُحتج للإمام الشافعي رحمه الله فيه.

قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)﴾ [البقرة: ٩٧]، الموعظة القرآنية أو أي موعظة لابد أن تملك عاملين لصلاحيتها في العمل:

أولاً: أن تكون موصلة للمطلوب.

ثانيًا: مُعرِفة بهذا المطلوب.

فقوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ [البقرة: ٢١٣]، يعني طريقة، ولذلك سُمي الرأس هادي لأن بقية الجسم تتبعه فسميت الرؤوس هوادي؛ لأنها تُتبَع، ولأن الخِريت والخبير والمرشد يدل الناس على الآخرين فسمي هادي، ولذلك في الحديث لما سألوا أبا بكر رضي الله عنه في الهجرة من معك؟ قال: «هادٍ يهديني»، أي مرشدٌ يدلني على الطريق، فإذن هذا القرآن يرشد إلى الحق، وبعد ذلك يبيّن عند الوصول ما يحدث معه، فقال تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى﴾، هذا القرآن هدى وبشرى للمؤمنين.

وهنا لماذا جاء بهذين الأمرين ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى﴾، في سياق هذا الكلام الإلهي عن عداوة اليهود لجبريل عليه السلام؟ لماذا؟ قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)﴾، بعض العلماء يقولون: هذا من الاستطراد وهذا شيءٌ يوجد في

القرآن، وإن كان بعض أهل العلم كابن الأثير رفض كلمة استطراد، قال: لما فيها من نكار أن يقال استطراد، وأنا سميته فتح الأقواس تذكرون هذا تكلمت عنه سابقًا، ولكن هذا الذي أره أن ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى﴾، إنما هو لبيان الرد على من أتهم جبريل بأنه لا يأتي إلا بالعذاب، أنه أتى بشيءٍ فيه رحمة، فإذن جبريل عليه السلام أتى بشيءٍ هنا على خلاف ما أراده اليهود، فهو ردٌ على أمرٍ أرادته اليهود في نسبتهم إلى جبريل لكراهيتهم، فالقرآن يقول: إن جبريل لا يأتي فقط بما تريدون، ولا يأتي فقط بما تظنون وما تكرهون ولكنه يأتي بأمرٍ آخر على قلوب المؤمنين وهو ﴿وَهُدًى﴾ يهديهم إلى طريق الحق، ﴿وَبُشْرَى﴾ ليبين لهم سعادتهم في الآخرة وما سيصيبون في الآخرة.

يقول سبحانه وتعالى مستأنفًا الحديث بانيًا على ما تقدم: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾ [البقرة: ٩٨]، هذه الآية تبيّن أن عداء الله عز وجل هو عداء، وأنهم كفار هذا مما لا شك فيه، وأن عداوة الملائكة هو كفرٌ بالله عز وجل، وأن عداوة الرسل هو عداوة لله عز وجل وأنه كفر، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾، سماهم كفارًا وتوعدهم أنه عدو لهم، هنا الله عز وجل قال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾، تقدم الكلام عن الملائكة وما هم فيه، قال تعالى: ﴿وَرُسُلِهِ﴾، وهذا حديثٌ عن جميع الرسل عليهم السلام، فلا يجوز لأحدٍ يؤمن بالله عز وجل أن يعادي رسولاً من الرسل، ولذلك من كفر برسول فكأنما كفر بجميع الرسل، وهذا من عظمة هذا الدين، وهذا دليلٌ على أن الأديان التي أتى بها جبريل كلها واحدة، وأن جميع الأنبياء جاءوا بعقيدةٍ واحدة، هو أن الله عز وجل أمر جميع الرسل السابقين بأن يدعوا إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ودعا أمة محمد أن تؤمن بجميع الأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى، وهذا مختوم بهذه السورة كما تعلمون في سورة «البقرة»، قال تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾، وطبعًا ميكال تقدم الكلام عنه أنه الموكل بالقطر ونبت الأرض وغيرها من المكاييل، فقد يقول قائل: أليس جبريل وميكال هما من الملائكة؟ الجواب: نعم، هما من الملائكة ولكن قد اختص بهما المقام لعظمتهما، لأن الحديث عن جبريل فاختص الحديث عنه، وكذلك لعظمة ميكائيل وأهميته وهذا من بيان ذكر الخاص بعد العام لأهميته ولضرورة الحديث

عنه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا﴾، فكأن الله عز وجل يقول: فمن كان عدوًا لله فإن الله عدوه وهو من الكافرين.

وهنا ندخل في مسألة مهمة الواجب الاهتمام بها، وهي أن الله سبحانه وتعالى أحب أقوامًا؛ فوجبت محبتهم، وأن الله عز وجل كلف أقوامًا بمهمات فقاموا بها؛ فوجب محبة هؤلاء الأقوام لقيامهم بحق الله عز وجل، وهذا هو مقتضى هذا الدين، فلا يقول أحد: أنا فقط علاقتي مع الله عز وجل وليس لي بالبشر!! لا، البشر منهم المؤمن ومنهم الكافر؛ فيجب أن تحب المؤمن ويجب أن تبغض الكافر، الخلق فيه عدوٌ لله عز وجل وفيه محبٌ لله عز وجل، فيجب أن تكره عدو الله عز وجل وهذا يقتضي أن تعرف من هو العدو، وهذا يقتضي أن تكفر أقوامًا وأن تعلن أنهم أعداء لله عز وجل، فهذا يعطي شرعية لكل إنسان في الدنيا أن يحكم على الآخرين، الذي يريده الزنادقة اليوم هو منع هذه القضية ومحاربتها، أنه ليس من حقك أن تحكم على الآخرين، كيف تعرف المؤمن؟ كيف تعرف الكافر؟ كيف تعرف من هو عدوٌ لله عز وجل؟ وكيف تعرف من هو المؤمن بالله عز وجل؟ ومن هو محب لله.؟ عليك أن تعرف، فلذلك أقام الله عز وجل واجبًا علينا بأن نقيم في قلوبنا وعلى ألسنتنا الحكم على الناس:

أولاً: على جهة الإجمال بأن هناك مؤمن وهناك كافر، فنبغض كل كافر ونحب كل مؤمن بإيمانه وهذا بكفره.

ثانيًا: كذلك أن نعلم ذلك حين الاضطرار إليه.

يعني أنت حين يأتيك أحد ليتزوج ابنتك فيجب أن تعرفه، من هو؟ أهو عدوٌ لله عز وجل؟ أم هو ولي من أولياء الله عز وجل؟ أهو مسلمٌ أم كافر؟ حين يحكمك أحد، يحكمك يصبح إمامًا لك حاكمًا لك، هل تطيع أم تعصي؟ فيجب أن تعرفه، أطاغوتٌ هو معبودٌ من دون الله عز وجل؟ أم أنه مؤمن بالله عز وجل يطيع ربه فوجبت طاعته ووجب الدخول في إمامته وفي بيعته، ولذلك الذين يدعون إلى تجريد المسلم من هذه الأحكام، إنما يدعون لتعطيل الدين، ليعطل الناس دينهم ليبقى الدين قضية لا وجود لها، نهايتها لا وجود لها، ما أهميتها؟! عندما تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، من هؤلاء؟ هل هم مجرد مُثل في ذهنك بلا واقع وبلا أسماء وبلا

شخوص؟ إذا كان القرآن يذكر لنا أقوامًا وأسماءً فيجب علينا أن ندخلها في هذين الحدين الإيمان والكفر، فرعون ندخله في الكافرين، ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، الأنبياء الصالحون الذين ذكرت أسماؤهم صاحب ياسين، مؤمن آل فرعون، فهؤلاء ندخلهم في خانة الإيمان فنحبهم لإيمانهم، ونبغض من يبغضهم، هذا جملةً، فالقرآن أقام لنا هذا.

وكذلك في حياة النبي صلى الله عليه وسلم هناك أقوام دافعوا عن النبي صلى الله عليه وسلم وعاشوا معه وحموه وقدموا أرواحهم في سبيل الدفاع عنه وإقامة الدين فهؤلاء علينا أن نحبهم، من علمنا من أسمائهم كالصحابة رضي الله عنهم علينا أن نحبهم، وأن نبغض من يبغضهم، بل علينا إذا كرههم أحدٌ لدينهم علينا أن نكفره، وأنا أقول: لدينهم، لماذا؟ لأن الصحابة رضي الله عنهم حصل بينهم خصومات فحصل البغض والكره والسب فيما بينهم، ولكن ليس لدينهم، حصلت خصومات بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولكن ليس لأن أبا بكر كره دين عمر، وليس لأن عمر كره دين أبي بكر رضي الله عنهما، لا، لا، هذه خصومات تحدث بين الناس، حصلت خصومات بينهم، قاتل عليٌ معاوية، وقاتل طلحة والزبير عليا رضي الله عنهم، وقاتل الصحابة رضي الله عنهم بعضهم بعضًا لكن لم يقاتل أحدهم الآخر لدينه، اليوم الذي يأتينا ويبغض أبا بكر رضي الله عنه، لماذا تبغضه؟ ما الذي بينك وبينه من الخصومات الدنيوية لتبغضه؟ فأنت لا تبغضه إلا لدينه، أو لدينٍ أنت فرضته كذبته على الله عز وجل، وزعمت أن أبا بكر رضي الله عنه قد خالفه، يعني واحد يأتي يقول: أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كفر بالله عز وجل، لماذا؟ قال: لأنه كفر بإمامة عليّ رضي الله عنه، من الذي جاء بإمامة عليّ رضي الله عنه وجعلها ركنًا من أركان الدين؟! أنت وديانتك الباطلة، فأنت فرضت شيئًا في الدين فكفرت بهذا.

ولذلك من سب أبا بكر رضي الله عنه في زمننا فهو كافر، ومن سب عمر رضي الله عنه فهو كافر، هؤلاء الذين شهدت لهم الأمة وشهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم، فوجب الإيمان بهؤلاء، وهذا كذلك ينزل إلى قضية العلماء في كل وقتٍ يقيم الله عز وجل من الأولياء، ما يكون هؤلاء الأولياء حبهم وبغضهم فتنة، بها تعرف علامات الناس أهُم من أهل الإيمان أم من أهل النفاق؟ أهُم من أهل الإيمان أم من أهل الزندقة؟ في كل وقت، كان حب أحمد في زمنٍ من الأزمنة هو دليله السنة، الله أقامه، قد يقول قائل: هل أحمد بن حنبل رحمه الله موجود في الكتاب والسنة؟ لا، أحمد بن حنبل رحمه الله ليس موجود في الكتاب

باسمه، لكن موجودٌ بصفته أنه أقام الحق فوجبت محبته، ليس لذاته وليس لمذهبه وليس ...لا، ولكن صار عند الجميع يحبونه، كذلك الشافعي رحمه الله في وقتٍ من الأوقات سموه ناصر السنة وصارت محبته دليل على اتباع الناس السنة وعلى اتباع العلم الصحيح، (لكلِّ قرنٍ من أُمَّتِي سابِقُونَ) كما في الحديث الذي روية في «الحلية» مع كلامٍ، فهذا الدين بهذا المعنى وفي زمانك هذا يجب عليك أن تبغض أشخاصًا بأسمائهم، وأن تلعن أشخاصًا بأسمائهم اشتهروا بالكفر واللعن والعداوة، كما أُشتهر بوش وبلير وكما أُشتهر السيسي في زماننا.

فأن يأتي شيخ ضال فيقول: بأن حاكم أمريكا هو من دعاة السلام، ويرى ما يفعل بالمسلمين، هذا كله نقضٌ لهذا المعنى الذي تقدم ذكره.

فالقصد أيها الإخوة الأحبة: بأن الله عز وجل يقيم أشخاصًا ورجالاً يجعلهم موازين كذلك للحق وابتلاءً للحق، لا يجوز لأحد أن يقول: أنا أحب الله عز وجل وهو يبغض من يعبد الله عز وجل، أنا أحب الله عز وجل وهو يبغض الدعاة إلى الله عز وجل، لا، هذا لا يمكن، كيف تحب الله عز وجل؟ هذه محبةٌ كاذبة، هذه محبة مشوبةٌ بالهوى.

فقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾:

الأمر الأول: أثبت أن الله عز وجل عدو لهؤلاء، لا يقول أحد: أنا لم أعاديك فكيف تعاديني؟! لا، الذي يعادي هؤلاء يعاديني، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَن أطاعَنِي فقَدْ أطاعَ اللَّهَ، ومَن عَصانِي فقَدْ عَصَى اللَّهَ، ومَن أطاعَ أمِيرِي فقَدْ أطاعَنِي، ومَن عَصَى أمِيرِي فقَدْ عَصانِي)، ومن أطاع هؤلاء فقد أطاع الله، ومن أحبهم فقد أحب الله عز وجل، هذه قضيةٌ كلية.

الأمر الثاني: هو إثبات الكفر لمن عادى هؤلاء، وعداوة الله عز وجل تقتضي العذاب، هذا لماذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾؟ لأن ما يفعله جبريل عليه السلام من الأعمال التي كرهها اليهود ليست من فعله هو تنبيه بإذن الله عز وجل، يعني عندما كره اليهود جبريل عليه السلام لأنه ينزل بالعذاب على الأمم حين تعصي ومنهم النزول عليهم، هل هو ينزل من جهة نفسه أم أنه ينفذ أمر الله عز وجل؟

فلذلك هو نزل القرآن على قلبك بإذن الله عز وجل، وهو لا ينزل إلى الأرض إلا بإذن الله عز وجل لا ينزل بأمر نفسه، لأنه لا يعصي الله ما أمره.

الأمر الثالث: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾، لأن هؤلاء عادوا ما جاء به الرسل، فالله عدوٌ لهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾، تنبيهٌ على أن ما نزل به جبريل من عذاب، فصار عدوًا لهم، إنما هذا العذاب لماذا؟ لأن الله عز وجل عدو لهؤلاء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾ [البقرة: ٩٩]، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني والسبعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الثاني والسبعون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾ [البقرة: ٩٩-١٠١].

بعد أن ذكر الله عز وجل حال اليهود مع الملائكة، وكأن في ذكر حال اليهود مع الملائكة، تسليةً لقلب النبي صلى الله عليه وسلم بما يفعله اليهود معه، فإذا كان اليهود يكرهون الملائكة الذين هم من الخير المطلق، والذين لا يخطئون أبدًا؛ لأنهم لا يفعلون إلا ما أمرهم الله عز وجل به ويفعلون ما يؤمرون، ولا يعصون الله ما أمرهم، وهؤلاء مطهرون، وليس لهم غرضٌ نفسي ما للبشر من أغراض أو غرض أهواء ما للبشر من أهواء، فإذا كان حال اليهود مع الملائكة هذا يكرهون بحسب أمزجتهم، وهم يعلمون أن هذا الفعل لا يصدر منهم إلا من الله عز وجل، فمن باب أولى أن يكرهون الرسول صلى الله عليه وسلم.

فهذا تسلية لما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾، فهذه تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم أنك إذا عاداك اليهود فقد عادوا من هو مبرءٌ مما يتهمونك به وهم يعلمون أنهم مبرؤون، وخاصةً أن اليهود هم أهل كتاب، وما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من أركان الإيمان وأمرت أمته، أمر به اليهود، كالإيمان بالله وملائكته، فاليهود قد طلب منهم أن يؤمنوا بملائكة الله عز وجل وأن يعظموهم، وأن يحمدون لهم أفعالهم ويحبونهم، فلذلك هذا الأمر كله هو تسليةٌ لقلب النبي صلى الله عليه وسلم.

وكذلك فيما نحن في ما ذكره الله عز وجل من ذكر الأنبياء السابقين وحال أعدائهم معهم، هو تسلية للمؤمنين، يعني عندما نرى أن اليهود قد عادوا النبي صلى الله عليه وسلم، فعلينا أن نتسلى بهذا العداء حين يعادون المؤمنين في أي زمانٍ من الأزمنة، فهذا تسلية، ولذلك بعد هذا بيّن على أن اليهود لا يكرهون الملائكة إلا بسبب الهوى، وبسبب أنهم لا يرون إلا من يقدم لهم الخير، حتى لو كانوا على معصية، بدل أن يعيبوا أنفسهم، أن الملائكة نزلوا عليهم بالعذاب وأن جبريل نزل عليهم الأذى بسبب معاصيهم، فيعيبون أنفسهم بهذا الفعل، جاءوا وعابوا الملائكة، فإذن أنت على الحق، وعداء هؤلاء القوم من أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم من أهل الكتاب لا يعني أن عندك شيء مما يستوجب عداء أهل الحق لك، ولو كان عنده بعض الحق لاتبعك.

ولذلك قال الله عز وجل بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾ [البقرة: ٩٩]، إذا نظرنا إلى السياق فقط ومناسبة هذه الآية لما تقدم فهذا معناه، ما تقدم ذكره وهو أنك على الحق، وأنهم حين عادوا الملائكة عادوهم على الحق فأنت على الحق، ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾، فكما أن الملائكة على النور وعلى البيان التام من الحق فعاد اليهود هؤلاء الملائكة فأنت كذلك على الحق التام الذي عليه الملائكة بلا مثنوية، بلا استثناء، فقد عادوا الملائكة فسيعادونك على ما أنت عليه من الحق المبين، هذا إذا نظرنا إلى المناسبة من جهة النظر، ومن جهة الاجتهاد.

وأما ما يذكره أهل التفسير فإنهم يقولون: أن بعض اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما قالته الأمم السابقة لأنبيائهم، كما قال أعداء هود، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ [هود: ٥٣]، ما في عندك دليل كل ما تقوله ليس فيه بينة، وانظر إلى هذا الحمق وهذا الضلال، وهذه طرق يستخدمها أهل الباطل، فقد تأتي بالبينات الكبار والآيات العظيمة الدالة على صدق ما تقول، فيأتيك الآخر ويقول: ما جئت بشيء، فقط، يأتي إلى كلامك ولا ينقضه نقداً علمياً ولا يرد عليه من جهة النظر الصحيح، ولكن يكفي أن يقول: أنت على الباطل وخلاص، ويدير ظهره وينصرف، وهذا يفعله البعض ويفعله المخالفون ويتعلمه بعض الخبثاء في دوائر الاستخبارات، وفي دوائر التعليم الباطل، أنك فقط أنت تسبه هكذا، ومن ذلك كذلك ما يطلقونه من إشاعات، هم يعلمون كذبها لكنها تؤثر لمدى مطلوب، حتى

لو أكتشف بعد ذلك أنها إشاعة وكاذبة وأنها موضوعة عليك من أجل الإساءة إليك مع كذبها فإنها تأخذ فعلها في وقت من الأوقات وهذا هو المطلوب، فهم في وقت قادم سيحضرون لك تهمةً جديدة وكذبةً جديدة وإشاعةً جديدة، وهكذا، تبقى أنت أسيراً لهذا الأمر، فلذلك على الناس أن ينتبهوا لهذا.

فلذلك قال بعض اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم: ما جئتنا ببينة، ليس هناك عندك دليل على ما تقول، مع أن كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم هو مصدقٌ لما معهم، ومع أنهم في أنفسهم يعلمون أنه الرسول صلى الله عليه وسلم، يعلمون، لكن هذا هو شأن اللسان، هذا هو شأن الكذب، يعني لا تطلب من عدوك أن يعترف لك بالحق، بعض الناس وهذه قطعها ربنا عز وجل من نفس النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]، لا تتعب نفسك، وقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾ [البقرة: ٧٥]، أقطع انتهى، لا تهتم بأن تجهد نفسك إجهاداً عظيماً لتقنعهم ظاناً أن سبب عدم قناعتهم بك أنهم لم يستبينوا الحق بعد، إياك أن تظن هذا.

للأسف بعض الدعاة اليوم يقعون في هذا الأسر، يقعون في هذا الأمر، وهو الظن بأن سبب ضلال الكفار هو أننا لم نقدم لهم الإسلام الصحيح، بل إن البعض يتهم أهل الجهاد مثلاً: أنهم سبب تنفير الناس من الإسلام، كأن المشركين من اليهود والنصارى كانوا على عتبة الدخول بالإسلام، وأرادوا الدخول في الدين فجاء المجاهدون فأساءوا لسمعة الإسلام فترك هؤلاء الدخول في الإسلام، وهذا جهل هم يعرفون دين الله عز وجل ويكرهونه.

وكذلك بعض المسلمين يتخلى عن الحق الذي عنده موافقةً لما عليه الكفار والأغيار، لماذا لا يريدون الإسلام؟ قال: يكرهون الإسلام لأنه لا يعدل مع المرأة، فتعالوا لنغير أحكام الإسلام لتوافق العدل في نظر هؤلاء القوم، فيغيرون الدين موافقةً لهؤلاء، بعض المشايخ كتب كتاباً في جواز الغِنى، ولا بأس هو يريد أن يحل الغِنى لأدلةٍ عنده فلا بأس هو حر، لكن أن يجعل المنفذ لحل الغِنى هو من أجل أن يصنع ديناً يوافق الغرب الذي يحب الغناء فأنه لا يسلم بسبب حرمة الغناء، فيحل له الغناء، لماذا قال كيف نريد أن نقدم الإسلام لأمةٍ تعشق الغناء وتأتي الغناء في كل حال، في فرحها وفرحها في سلوكها في حركتها في ذهابها في

إيابها؟ ولذلك إذا كان سبب عدم دخولهم الإسلام هو حبهم للغناء فلنبح لهم الغناء، هذا منطلقٌ شرير وبدعةُ ضالة وليس من دين الله في شيء، لا يجوز لك أن تغير أحكام الله عز وجل من أجل مثلاً طمع الآخر، الله عز وجل لو أراد بهم الخير لأتوا، والذي يهديه الله عز وجل لا يهتم أن الله أباح الغناء أم حرمه، هو دخل الدين ليكون عبداً لله، فحيث قال الله عز وجل له: هذا حلال، فيقول: هو حلال، هذا هو أساس الدين، وحيث يقول الله عز وجل له: هذا حرام، فهذا حرام.

فلذلك قالوا: ما جئتنا ببينة، ما في دليل على ما جئت عليه، فأنت عليك ألا تهتز، عليك ألا تهتم بهذا كله، عليك أن تبقى قوياً في ثقتك بما معك، وإلا تكون عرضة لتلك القذائف التي تطلق عليك قصفاً لعقلك، ولثقتك بالدين لا تهتم، هذه قضية مهمة جداً والقرآن في أكبر قضاياه مع النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، في قضية مده الثقة بهذا الدين، وبما هو عليه، أن لا تهتز، المرء عرضة للتأثر من الكلام، الإنسان ليس جلمود صخرٍ لا يتأثر من الكلام، لا الإنسان مشاعر، له أذنٌ تسمع وله مشاعر وله نفسيةٌ تتأثر من الكلام، المرء إذا مُدح يتأثر وإذا ذُم يتأثر، ومهما كانت درجة عبوديته لله فالإنسان يتأثر بالمحيط الذي حوله، فما هو المطلوب؟ المطلوب هو أن تملأ نفسك ثقةً بما عندك من الحق فلا تتأثر، وهذه قضية ذكرتها أكثر من مرة، كلما كنت صلباً في طرح قضيتك وقوياً في مصادمة خصمك؛ كلما كان لكلمتك الأثر في هذه الحياة، أما أن تطرح كلمتك ضعيفةً رثة فيها نسبية الحق؛ فلا يقبلها الناس.

والناس لهم مشاعر قوية، قرون استشعار قوية جداً، يتأملون قوة كلماتك في نفسك من خلال قوة طرحك، إذا طرحت دينك على أنه دينٌ من بعض الأديان التي لو تدينت بها لجاز لك ذلك، كما يفعله بعض الزنادقة من المشايخ وأصحاب اللفات، كمن مدح دين البوذية، أو من يأبى أن يكفر اليهود والنصارى، فهؤلاء كلماتهم دالة عما في نفوسهم من عدم الثقة بما معهم من الحق، وعدم الثقة بما معك من الحق يؤدي إلى عدم ثقة السامعين لك بكلماتك وبما معك من الحق، قوتك في طرح الحق الذي عندك تعطي السامع أن هذا الذي تطرحه هو الحق، أطرح ما معك من القوة، ولذلك عليك أن تأخذ هذا الدين بقوة، وأن تتمسك به بقوة وحين تقول به أن تقذفه حقاً كقذيفة ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ [الأنبياء: ١٨]، قذيفة.

ولذلك هم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: لم تأتنا ببينة، فرد الله عز وجل عليهم بقوله لرسولنا صلى الله عليه وسلم وليس خطاباً لهم، هم أسفه من أن يخاطبوا؛ لأن الله عز وجل يعلم بأن ما أنكروه هو على جهةٍ نفسية وليس على جهةٍ علمية، والذي تأملته في القرآن أيها الإخوة الأحبة أن أعظم ما يتحدث عنه القرآن هو الحالة النفسية، القضايا العلمية تطرح مرةً أو مرتين، ولكن أعظم ما يُبنى من داخل القرآن وأعظم ما يتوجه إليه القرآن تعليماً وبناءً وقوةً هو الحالة النفسية، والحالة النفسية تصنع صناعة، الحالة العلمية تستقر فتصبح رقماً، مثلاً: كمن لديه معلومة من المعلومات تدخل في ذهنه، معلومة من المعلومات أي معلومة كأن يقول: واحد زائد واحد يساوي اثنين، هذه معلومة، لكن حتى تستقر في نفسه علماً وعملاً وتأثراً وجهاداً وتأثيراً ودعوة وأن يموت من أجلها هذا بناءٌ نفسي والبناء النفسي يحتاج إلى زمن، إلى عامل التكرار والزمن، أن يتكرر هذا، أن يكرره القرآن من أجل ماذا؟ لا من أجل أن يُنشئ علماً لم يكن في نفس السامع ولكن من أجل أن يثبت هذا العلم في نفس السامع أن يثبته.

فالقرآن يهتم بالحالة النفسية، بل إن القرآن يبين أن سبب ضلال البشرية من عدم اتباع الحق هو الهوى، الحالة النفسية، قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠)﴾ [النازعات: ٤٠]، فإياك أن تظن أن خصم الإسلام إنما خاصمه لقضية علمية، هذا الحق يوافق الفطرة ويوافق العقل ويوافق الإنسان السوي السليم، هذا الدين يوافق كل نفسٍ سوية وكل فطرةٍ لم تبدل ولم تغير، ولذلك الذين يكرمهم الله عز وجل بهذا الدين بمجرد أن يسمعوه يتبعوه، فإن تلكأوا إنما يتلكؤون لأسبابٍ نفسية، فعليك أن تعالج هذا من نفسك.

ولذلك هناك مسألة ينبغي أن نعرفها ما هي عوامل موانع اتباع الحق بعد العلم به، بعد أن تعلمه هناك موانع، وأعظمه الهوى، فقال سبحانه وتعالى لرسولنا صلى الله عليه وسلم مخاطباً إياه بعد سماعه لهؤلاء: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا﴾، وانظر إلى هذا التأكيد ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا﴾، لام المؤكدة وقد المحققة، ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا﴾ وجاء ذكر الإنزال بصيغة العظمة، ما قال: ولقد أنزلت، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، والآية هي الدليل، بل والآية لا تكون آية إلا وهي عظيمة، الآية هي الدليل، هي أمرٌ ظاهر على شيءٍ باطن، وكلما كانت الآية بيّنة كلما كانت الخصومة حول ما أرادته من العلم كان ظاهراً، كلما كانت الآية بينة -أي على

شيء- فكلما كانت هذه الآية عظيمة كانت ما تدل عليه من الأمر المراد كان عظيماً، والآيات هنا المقصود بها الآيات التشريعية، وأن جاز أن تكون هي الآيات التكوينية.

أما الآيات التشريعية فقد كرر القرآن أن ما جِئت به يا محمد صلى الله عليه وسلم من الحق من القرآن هذه الآيات ولذلك سميت في القرآن آية، لما فيها من عظمة من العلم، لما فيها من خير، فالآية هي الشيء العظيم، فلا تقال: آية إلا لشيءٍ حصل بي الإقرار، وحصل به طمس الخلاف فهي آية، فما جئت به يا محمد صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن كل آية فيه وكل كلمةٍ فيه دالة على صدق ما جئت به وأنك رسول الله، وبالنسبة لليهود إن كل آيةٍ فيه دالة على صدق ما عندهم، فقد أمنتم بموسى عليه السلام، فعليكم أن تأمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الذي جاء بهذا هو من نفس المشكاة التي جاء بها موسى عليه السلام، إن المشكاة التي أعطت النبوة لموسى عليه السلام هي المشكاة التي أعطت النبوة والآيات لمحمد صلى الله عليه وسلم.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: ٩٩]، وآية بيّنة، ولكن هذا كقوله سبحانه وتعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، هذا التوكيد بيّنة ظاهرة، وهذه الآيات تقطع الحجة ليس في هذه الدنيا، الحجة في هذه الدنيا لا تُقطع؛ لأن الناس إما يملكون طرق التلاعب بالخلاف كما يريدون، وإما أن يعرضوا كما قال وأعطى كلمة ما جئتنا ببينة، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣]، ما جئت بشيء، أو أن يعرض ويقول: لا أريد أن أسمع لك، كلامك لا يعجبني وليس فيه شيء، وبعض الناس للأسف يغتر بهذا، وخاصة حين يكون المعرض فيه شيءٌ من النسبة إلى العلم، يعني اليهود عند العرب وعند كل أحد، يعني الناس ينسبون لهم العلم عندهم علم الكتاب فلو يأتي واحدٌ من علماء بني إسرائيل فيقول للناس الذين ينتظرون قوله باعتباره عالماً يقول له: ما رأيك، يقول: ما جاء بدليل، فالناس يظنون أنه ناقش المسألة وأنه درسها بحيادية وقوة نظر ووصل إلى هذه النتيجة، والحق ليس كذلك، ولذلك تكون الفتنة أشد، ومن هنا عذابه أشد، فتنته أشد فعذابه أشد.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، وهذا تأكيد لما قاله الله عز وجل في الآية التي قبلها ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وهنا قال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة:

٩٩]، فالمعرض عنها ما شأنه؟ هل أعرض عنها المعرض لعدم بيانها؟ هل أعرض عنها المعرض لعدم حجيتها؟ فماذا قال ربنا سبحانه وتعالى؟ ما دام هذه الآيات بينات فالمعرض ما شأنه؟ قال تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾، والكفر هنا الجحود، ما كفر بهذه الآيات البينات وما أعرض عنها إلا من فسق، والفسق هو الخروج عن الحد، وأشبه معنى للفسق هو الفجور، ومن هنا أخذت تفجر الأنهار أخذ فجر الماء، ومنه أخذ الفجر، لماذا؟ لأنه حين يتفجر الماء حين يعني يكسر السد ويخرج عنه، يقل: تفجر الماء أي خرج عن حده الذي هو حُد له بسدٍ أو بحجارة أو بمانع، والفجر لأن الليل يكتمه وهو الستر، فيأتي الفجر فيفجر هذا ويخرج عما حُد له، وكذلك الفسق، وكذلك الفجور، حُد لك ألا تتجاوز هذا الأمر فتجاوزه، والفسق حُد لك هذا ولا تخرج عنه ففسق.

وهذه الآية ككثير من الآيات الدالة على أن الكفر يحوي كل أنواع الأحكام التي أطلقت على غير الكافر، هذه الآية ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾، دل هذا على أن كل كافرٍ فاسق وليس العكس، أي بمعنى ليس كل فاسقٍ كافر، فقد يفسق المرء بإتيانه الكبائر ولا يكفر، ولكن كل من كفر فسق أي خرج عن الحد الذي حُد له من الطاعة، ومن ذلك الإيمان، وقال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ماذا قال بعدها؟ ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)﴾ [البقرة: ٢٥٤]، فكل كافرٍ ظالم، ظالمٍ لنفسه، ظالم لحق الله عليه، فهو ظالم، ولكن ليس كل ظالم كافر، فقد يظلم المرء ابنه ولا يكفر.

وكذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)﴾ [التوبة: ٦٧]، فكل منافقٍ فاسق، وليس كل فاسقٍ منافق، كل منافق فسق عن أمر الله عز وجل، خرج عن الحد الذي حده الله عز وجل بأنه يبطل الكفر، ويبطل النفاق ويظهر ما لا يبطل، فكل منافقٍ فاسق، لكن هناك من بعض الفاسقين من يشرب الخمر هذا ليس منافق، الذي يشرب الخمر فاسق وليس منافق الذي يسب أباه فاسق وليس بمنافق وهكذا.

وهنا نأتي إلى أن الفسق الكامل هو الكفر، الفسق الكلي هو الكفر، من فسق فسقاً تاماً من كل جوانب الفسق فهو كافر، ولكن ليس كل نوعٍ من أنواع الفسق وليس كل فردٍ من أفراد الفسق هو كفر، ولكن من أتى الفسوق كله، على هذا المعنى يكون كافراً، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فسقٌ دون فسق، وظلمٌ دون ظلم»، لهذا الذي نحن فيه، ففسق دون فسق أي هناك فسقٌ يؤدي إلى خروج المرء من الإيمان ولكنه يبقى مسلماً، أدنى، ولكنه حين يأتي يدخل في الفسق دخولاً كلياً يكون قد كفر، وحين يدخل في الظلم دخولاً كلياً يكون قد كفر، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، بماذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم هنا الظلم؟ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣].

وأهل السنة يثبتون الفسق الأصغر، والناس على خلاف بعد ذلك، الخوارج يقولون: إن كل فسقٍ هو كفر، والمعتزلة ومن معهم يقولون: هو في الدنيا فاسق وفي الآخرة كافر، فسموا منزلة بين المنزلتين، ولا ضرورة لتطويل الشرح في هذا الباب فهو بيّنٌ في بابه ولطلبة العلم.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾ [البقرة: ٩٩]، وقلنا: إن الآيات المعنى الأول لها تصح أن تطلق على الآيات التشريعية التي تدل على وحدة المصدر والمشكاة، وقد يجوز على المعنى الآيات الكونية، ومن ذلك شكله، فعندما جاء اليهود ليتوثقوا منه فكيف توثقوا؟ توثقوا من آياتٍ فيه، والإنزال هو الحركة من الأعلى إلى الأدنى، لا يصح إطلاق الإنزال إلا على هذا المعنى، وكل كلمةٍ في القرآن فيها كلمة إنزال تدل من الأعلى إلى الأدنى كلها، ولشيخ الإسلام رسالة في هذا الباب يرجع إليها، رسالة يسيرة في هذا الباب يستعرض فيها كل كلمةٍ فيها إنزال في القرآن دالة على الحركة، الإنزال هي حركة من الأعلى إلى الأدنى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾ [البقرة: ٩٩]، ما هو الأقوى؟ المقصود الآيات الكونية أم الآيات التشريعية في القرآن؟ الأقوى أنها الآيات التشريعية لأن الحديث يدور حولها باعتبارها هي التي يدور حولها الخلاف.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾ [البقرة: ١٠٠]، إما أن هذه الآية تتمة –كما قال بعض أهل العلم– تتمة لما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، إما أنها تتمة وإما أنها مستقلة، فإذا كانت تتمة فهي دالة على أن هؤلاء لما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾، أي قد أخذ الله عز وجل عليهم العهد أنه إذا جاءتهم هذه الآيات أن يتبعوه فهذا معنى، أن الله عز وجل أخذ على اليهود أنه إذا جاءتهم هذه الآيات وهذا الرسول بهذه الآيات أن يتبعوه، ولذلك حصل منهم هذا ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾.

وقال بعض أهل التفسير: لا علاقة لها بالآية المتقدمة، وإنما قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾، ذلك لأنهم عاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم مرات، فنبذوا هذا وقطعوا هذا العهد الذي بينهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ وللعلماء في هذه الواو مذاهب، سيبويه يقول: هي واو العطف، وهذا الذي عليه الأكثر ونصره كثير من أهل التفسير كابن عطية والقرطبي وأبو حيان الأندلسي وغيرهم، نسبوا أن الواو هنا عاطفة ﴿أَوَكُلَّمَا﴾، والهمزة هي همزة الاستفهام، وقال بعضهم: الواو هنا الزائدة، وبعضهم قال: هي كلمةٌ واحدة مثل أو كلما ولكنها حركت الواو بعضهم قال: على معنى بل، بل كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم للإضراب، والذي عليه الأكثر كما قلنا: أن الواو هنا عاطفة، والهمزة للاستفهام.

قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ﴾، العهد تقدم الكلام عليه وهو أنه الميثاق، وأنه ما يوثق به من العقود، العهد هو عقدٌ موثق، وقد يكون العقد على أمرٍ معنوي وعلى أمرٍ مادي، والحديث هنا كله على موضوع الإيمان وهو أمرٌ معنوي.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ﴾، والنبذ هو الإبعاد والطرد والإلقاء، ومنه أخذ اللقيط، كما يقول أهل التفسير: اللقيط هو يسمى المنبوذ لأن أهله قد نبذوه، اللقيط هو أهله نبذوه فأخذه الناس فيقال: منبوذ، ومنه أخذ النبيذ، لماذا يسمى النبيذ؟ لأن التمرة والعنب يُنبذ، يعني يبعث فيوضع في فناء البيت أو في جانب البيت، قال تعالى: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، هل هؤلاء الفريق هو من تقدم؟ ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾، أم غيره؟ على خلاف كما ذكر الإمام الطبري رحمة الله عليه في تفسيره

وقال: والأقرب من ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، هو أنه نفس الحديث عن الفريق نفسه.

والآن نحن رأينا أنه لو أخذنا على المعنى الثاني وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم عاهدهم كثيرًا فنبذوا العهد، فرأينا أن الفريق الذي ينبذه يتبعه الجميع، يعني عندما حصل الخلاف بين اليهود في بني قريظة، جاء بعضهم ليحرض اليهود على النبذ فاختلفوا، أينبذون العهد أم لا ينبذونه، ثم نبذه فريقٌ منهم فماذا فعل البقية؟ تابعوهم، فدل هذا أن هذا الأمر فيهم، طيب لو كان هذا فريقٌ منهم على معنى القِلة التي لا يتبعها بعد ذلك الكثرة أو لا يتبعها بعد ذلك البقية؟ لأسلم بعض اليهود، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث: ٠لو أسلم عشرة من اليهود أسلمت يهود)، فدل هذا على أن البقية تتبع هذه القِلة وإنما رئيسهم السفيه، وإنما مقدمهم العدو، فقال سبحانه وتعالى: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، أي نبذوا ماذا؟ يعود الضمير نبذه أي ماذا؟ نبذوا العهد، ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ﴾، نبذه أي نبذوا العهد، ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، إما أنه نتيجة لما تم النبذ وإما أنه تفسير لسبب النبذ، ما هو سبب النبذ؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فعلق سبب النبذ هو الإيمان، ويمكن أن يحمل قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أنه لما نبتوه كانوا غير مؤمنين، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، يقوي ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، أن العهد هو العهد الذي أخذ عليهم من قبل أنبيائهم أنه إذا جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم اتبعوه، يقوي هذا، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾ [البقرة: ١٠١]، لما ذكر الله عز وجل فيما تقدم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة: ٨٩]، فذكر أمرهم مع الكتاب، وذكر شأنهم مع الكتاب، والآن يذكر ربنا سبحانه وتعالى شأنهم مع هذا الرسول صلى الله عليه وسلم، وهنا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، فجاء نعته أنه رسول من عند الله عز وجل، لأن الرسول قد

يكون من عند غير الله، فجاء نعته أنه من عند الله عز وجل، وأعظم صفاته أنه مرسل من قبل الله عز أنه رسول، وحمل الرسالة لأنه النبي، وقال سبحانه وتعالى أول صفة له أنه من عند الله، هذا دليل الحق الذي جاء به، ودليل الصدق الذي جاء به، فهذا دليلٌ ممن أرسله، الله عز وجل يقرر أنا أرسلته، وهو من عندي، ثم بعد ذلك جعل له الدليل عند الذي أرسل إليه، فعند الْمُرسَل إليه عنده ميزان وعنده معيار ليعرف الحق من الباطل في من جاءه، الْمُرسِل قال: أنا أرسلته، والآخر عنده المعيار وعنده الميزان ليحكم على الآتي إليه، ما هو هذا؟ قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾.

فإذن هو من عند الله عز وجل، يحكم الله عز وجل إنه هو الذي أرسله، وإذا عارض المخاصم وعارض الآخر، فعندك المعيار لتحكم عليه، وهو أنه جاء بما يصدق ما عندك من الحق، وخاصةً أن هؤلاء اليهود عندهم الإيمان بما عندهم، يعني هم يؤمنون بما عندهم من التوراة.

ومن هنا في حوارٍ لي مع أحد النصارى، قلت له: الحوار مع المشرك قد يكتنفه شيء من الصعوبة، لماذا؟ لأن المشرك قد لا يؤمن بالرسالة أصلاً، والمشرك قد لا يؤمن بالله أصلاً، أي تأتي للملحد فهو أصلاً لا يؤمن بالله، وقد يكون صاحب هوى وقد يكون هكذا عنده شبه أو نشأ في بيئةٍ تنبذ هذا الإيمان، فأنت حتى تصل إليه إلى صدق بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، لا بد مراحل، أن تدعوه إذا كان كافراً بالله أن تبيّن له الإيمان بالله، ثم بعد ذلك تبيّن له سبب وجوده ومن هو، ثم بعد ذلك تبيّن أن البشرية محتاجة إلى الرسالة، قبل أن تثبت له أن هذا هو رسول الله، عليك أن تبيّن له أن البشرية تحتاج إلى رسالة، فأنت حتى تصل إليه إلى إثبات صدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تحتاج إلى طريق تحتاج إلى وسيلة طويلة.

لكن من آمن بموسى عليه السلام، فهو يؤمن بالله عز وجل، ويؤمن بالرسالة ويؤمن بالرسول، فإذًا ما دورك؟ الدور عنده هو فقط أن يقيس رسالة هذا النبي بما معه من الإيمان برسالة النبي موسى عليه السلام، فإذا وجد اتحاد الأمر وسلامته ومطابقته لما معه؛ عليه أن يتبعه، فلذلك كفر اليهود والنصارى أشد من كفر المشركين، قد يقول قائل: فكيف هذا يجتمع في كيفية التعامل معهم؟ أن الله عز وجل عامل أهل الكتاب بمعاملات؟ هذا لسبب ما عندهم من الشريعة، أي لماذا يعامل ربنا سبحانه وتعالى أهل الكتابين أرقى مما

يعامل المشركين؟ وذلك بالزواج منهما وأكل طعامهما، لماذا؟ لأن الشريعة عندهم، فإذا تغير هذا ارتفع الحكم.

مثال ذلك: الناس يسألون الآن يقولون: هل يجوز الزواج من النصرانية الأوروبية؟ الجواب: لا يجوز، لماذا؟ لأنهن لسن محصنات، يعني المشركة قد لا تتورع من النجاسة، اليهودية عندها الطهارة، المشركة قد لا ترى حرمة الزنا، والنصرانية المؤمنة بدينها ترى حرمة الزنا، ملعونة الزانية في الكتاب، في شريعة اليهود في سِفر «التثنية» الزانية لها عقوبة شديدة، لكن اليوم هؤلاء النسوة خرجن عن هذا الحد فلا يجوز الزواج منهم، فإذا خرجنا عما شرع لهن في دينهن لم يعدن كذلك، ولذلك الله عز وجل أجاز لنا ذلك.

قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، أي المقصود الرسالة من عند الله عز وجل، الوصف ليس للشخص بأنه أرسل من عند الله، ولكن ما جاء به من الرسالة من عند الله عز وجل، ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾، أي الرسالة، ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، لما جاءهم ما عندهم من الحق، ماذا نبذوا؟ هل نبذوا المعيار أم نبذوا الآتي؟ ما هو الأقرب؟ نعيد السؤال، ما هو الأقرب أنهم نبذوا المعيار الذي عندهم الذي يعرفون بالحق فنبذوه فلم يعترفوا به؟ أم أقروا بهذا المعيار، ولكن جعلوا الآتي إليهم ليس على هذا المعيار فنبذوه؟ تأمل الآية معي في قوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، أي الذين أوتوا التوراة والإنجيل، وخاصةً التوراة فالحديث عن اليهود، قال تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾، أنبذوا كتاب الله أي التوراة الذي عندهم معيار الحق، أم ما جاءهم من الحق فلم يجعلوه معياراً، ما هو الأقرب؟ هذا يحتمل وهذا يحتمل، ولكن الأقرب أنهم نبذوا ما عندهم من العلم، والنبذ هو الستر، الطرد، فهذا المعيار الذي عندهم، قالوا: أنت تريد أن تلزمنا به فلا نفعله، كما تريد أن تلزم رجلاً بقانونه فتقول له: قانونك يقول هذا، فيقول لك ما أريد هذا القانون، وهكذا هم، أتريد أن تلزمني بهذا؟ لا أريده هذا، ولذلك اتباع هذا كله من بيّان ما عليه هؤلاء القوم من حقد على النبي صلى الله عليه وسلم، وما عليه من تصلبٍ في الباطل، وأنه لا ينفع معهم الجدال، فقال سبحانه وتعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، أي كما تقول: أترك هذا وراءك، أي لا تهتم له ولا تقم له شأنه، ذلك لأن الإنسان اذا جعل شيئاً أمامه اعتنى به وجعله إماماً، فالذي يكون في الأمام هو الإمام، الذي يكون في الأمام هو المحترم، الذي يكون في الأمام هو المقدر، فمن جعلته أمامك جعلت له قيمة، فإما أن يكون أمامك لأنه إمامك وإما أن يكون أمامك لأنك تريد أن تعتني به، وإما أن يكون أمامك لأنك تقيم له الشأن الأعظم، فأنت لا تجعل شيئاً أمامك إلا وأنت تقدره، أنت تحترمه، ولكن إذا رميته وراء ظهرك؛ دل هذا على الاحتقار، فقال تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾،

قال سبحانه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾، وللتفريق بينها في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾ [البقرة: ١٠٠]، فيما ذكرنا هل هو علة لما فعلوا، أم هو عاقبة لما فعلوه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)﴾، وهنا ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾ [البقرة: ١٠١]، أي حالهم في عدم اتباع الحق مع أنهم يعلمون الحق، فعندهم معيار اتباع الحق، فحالهم كمن لم يستفد شيئاً فيما أعطي له، فالمرء قد يكون جاهلاً لا يعرف الحق، فيُعّرف به، فلأنه لا يعرف الحق ولا يعرف معياره فيرده لجهله به، ولكن أن يكون عنده المعيار وأن يكون عنده العلم، الذي به يستطيع أن يحكُم على ما يعطى له من الحق والباطل فيتركوه، فحاله كحال من؟ مع أنه أرقى في الابتداء إلا أنه في ذلك كأن حاله حال من جهل، فكأن الله عز وجل يجرد اليهود.

وهذه مسألةٌ مهمة في تجريد خصوم القرآن، هم يزعمون أنهم أسعد بالعلم من غيرهم من المشركين العرب، ولذلك كان العرب يعودون إليهم ويسألونهم، أديننا خير أم دين محمد؟ وتقدم هذا الحديث عنه، فأنتم حالكم هو أشقى من حال من لم يعرف شيئاً، فلذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾، حالهم هو حال من لم يعلم شيئًا، فجردهم من معيار الحق الذي عندهم، جردهم من العلم السابق؛ لأنهم لم ينتفعوا به، فجردهم منه، ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من أجل أن يجردهم، ولكن لماذا قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾، من أجل أن يبقي، كأنهم، أي هم أشبه في حالٍ في هؤلاء لكن هناك بقي حالٌ لا يشبه به حال غيرهم، ما هو؟ المعاقبة على ما عندهم من العلم، فـ ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في تجريدهم من المقام، الذي يفتخرون به على أهل الجاهلية من العرب الذين ليس عندهم الكتاب، فجردهم من هذا المقام ولكنه أبقى ما ينبغي أن يُحكم عليهم فيه وهو أنهم يعرفون الحق فلا

يتبعونه، وهذا أشد ممن جهل الحق جهلاً تاماً وإن كان في الحكم سواء ولكنه في المقام يختلف، فقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فجردهم من المقام مع إبقاء الحكم عليهم، وذلك بالعقوبة الشاقة عليهم.

ثم جاء ربنا سبحانه وتعالى إلى قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، بيّن القرآن ابتداءً أنهم لم يتبعوا الحق الذي عندهم، ولم يتبعوا الحق الذي جاء مصدقاً لما معهم، وهنا ماذا اتبع اليهود في هذه الآيات؟ يبيّن القرآن أنهم اتبعوا شيئاً آخر في حياتهم السابقة وفي حياتهم اللاحقة وفي حياتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو اتباع السحر وهذا ما سنتحدث عنه إن شاء الله في الدرس القادم بتوسع في الحديث عن السحر وما قاله أهل العلم في هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وللعلماء مذاهب ومسالك في هذا، كثيرة التباين والاختلاف فيما بينهم، ذلك لأن هنا أن السحر أنزل على الملكين، والملائكة نعرف أنهم لا يعصون الله؛ فوقع عندهم التباين الشديد في هذه الآية العظيمة التي بين أيدينا، لكنها دالةٌ في الابتداء على أن اتباع السحر هو خروج عن طاعة الله عز وجل وخروج عن الكتاب الذي يوحيه الله عز وجل لأنبيائه، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم والحمد لله رب العالمين.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث والسبعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الثالث والسبعون من دروس التفسير، وما زلنا مع سورة «البقرة»، ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾ [البقرة: ١٠٢].

يقول بعض أهل العلم: ما وقفت أمام آيةٍ لم أنهي فيها القول وأصل فيها إلى ما يطمئن إليه القلب، كما وقفت عند هذه الآية، وهذا قول بعض المعاصرين من أهل العلم ومن أهل اللغة وهو الأستاذ تقي الدين الهلالي على ما عُرف من اعتنائه باللغة وبالتفسير وبالشرع وبالحديث كذلك، هذه الآية فيها مطالب:

المطلب الأول: أن علاقتها مع الآية التي تقدمت في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠١]، والنبذ هو الترك، فإذن تركوا ما جاءهم عند الله عز وجل، مع وجود الأدلة الدالة على صدقه، وهو أنه ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، أي مصدقًا لما معهم، والمرء لا يمكن أن يكون خالياً، الفراغ في الوجود لا وجود له، لا في الأمر القدري ولا في الأمر الشرعي، وأما في الأمر القدري فمفهوم لا يوجد الفراغ، لا تترك أمة القيادة إلا وجاءت أمة غيرها ملأت هذه القيادة، الفراغ في الكون لا وجود له، إذا رميت حجرًا في الهواء يأخذ

مساحته من الهواء، فإذا خرج هذا الشيء من الفراغ جاء الهواء ليسد مكانه، فهذا في الأقدار لا وجود للفراغ.

وكذلك في التاريخ الأمم يتبع بعضها بعضًا، فإذا هلكت أمة جاءت أمةٌ غيرها، حتى إذا أراد الله عز وجل أن يهلك الكون جاء الفراغ، وكذلك في الشرع، ما خلق الله عز وجل البشر إلا على معنى العبودية والاتباع، فلو خلا العبد أي المخلوق من عبوديته لله عز وجل؛ فلابد أن يعبد غير الله، لا فراغ، لا يمكن أن يكون سالماً من العبودية، وكذلك الاتباع لا يمكن للمرء أن يكون خالياً من إمامٍ له يتبعه لا يمكن، لا يمكن أن نقول: هذا المرء لا يعبد الله ولا يعبد غيره، هذا لا وجود له، وكذلك لا يمكن أن يكون المرء غير مُتبع، حتى النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، حتى النبي صلى الله عليه وسلم جعل أئمة قبله ليقتدي بهم، فهكذا لا بد للمرء من إمامٍ يتبعه، فأن يقول قائل: أنا لا أتبع أحداً!! هذا لا وجود له.

فهؤلاء نبذوا كتاب الله عز وجل، نبذوا ما جاءهم من الحق، نبذوا اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فالله عز وجل بيّن أنه بعد النبذ ماذا أخذوا، ما هو البديل عما نبذوه من الحق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾، دل هذا على أن ما سيأتي هو أمرٌ يتعلق بالاتباع، يتعلق بالتشريع، يتعلق بالأحكام، وكذلك يتبع باتباع الحق، فهذا الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم يخالف ما اتبعوه، لأن السياق إنما جاء لبيان حال اليهود في تركهم الحق واتباعهم الباطل، فقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، دل هذا على أن هذا باطل.

ولذلك الله عز وجل سمى غير ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، قال: جاءت به الشياطين، فبدل أن يتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم اتبعوا الشياطين، وهذه الآية في هذا المطلب الأول، وهو مناسبة هذه الآية لما قبلها، فلما نبذوا اتبعوا؛ لأن الاتباع هو ضد النبذ، والنبذ ضد الاتباع كذلك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ من هم؟ اليهود أو علماؤهم، والاولى أن يقال في العلماء؛ لأنه إذا قيل: اتبع علماؤهم الشياطين فدل هذا على أن من وراءهم من الاتباع سيتبعونه، وإذا ذُم الإمام ذُم المتبوع، فإذا كان علماؤهم الكبار اتبعوا الشياطين، فمن باب أولى أن يكون الصغار فيهم، وأن يكون البهائم فيهم وأن يكون المقلدون فيهم

أن يكونوا تبعاً لهؤلاء العلماء، فقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي علماء اليهود أو اليهود، وهذا كله ضمن سياق ذم هؤلاء اليهود.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾، هنا ﴿مَا تَتْلُو﴾، كما نراه هو فعلٌ مضارع، ولكن المقصود به الماضي، والقرآن يقول بهذا، ولكن لابد من حكمة، أي أن يستخدم صيغة المضارع من أجل الماضي ليدل على الاستمرار، ﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، ملك سليمان ذهب، فإذن كان الشياطين يتلون على ملك سليمان، فلماذا جاء بصيغة المضارع، ليدل الدوام على أنهم ما زالوا على السحر الذي كما سيأتي ذكره مما ادعوه على ملك سليمان، إما على ملكه حال حياته وإما ادعائهم على ذلك بعد أو تلاوتهم بعد وفاته عليه السلام.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، والشياطين معروف أنه وصف، وصار علماً على كل من ابتعد عن رحمة الله؛ لأنها أخذت من الشط أي البعد، شط أي بعُد، فأخذت كلمة الشياطين وصارت وصفاً لهؤلاء لابتعادهم عن رحمة الله، لكن هل المقصود بها شياطين الجن أم شياطين الإنس أم كليهما؟ الأغلب في كلمة الشيطان أنها إذا أطلقت دلت على الجني، وشياطين الجن في الإغواء لهم قدرة ما ليس للإنسان، وذلك أنه يوسوس في القلب، (يجري الشيطان من ابن آدم مجرى الدم)، ولذلك عنده القدرة في هذا الباب، ولكن القرآن قدم شياطين الإنس في الإيحاء إلى أولياؤهم على شياطين الجن، فقال تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فقدم القرآن الإنسي في الشيطنة على الجني، فدل على أن الإنسي عنده من المكر ما ليس عند الجني.

ولذلك في العلم يقدم الإنسي على الجني، الإنسي أعلم من الجني، لما قارن الله عز وجل بين الإنس والجن في سورة «النمل» فجعل العفريت من الجن يأتي بعرش بلقيس في وقتٍ طويل وهو ما بين جلوس سليمان وقيامه من جلوسه للحكم عليه السلام، وكان يجلس من صلاة الفجر أو من شروق الشمس إلى الظهيرة، وأما الذي عنده علمٌ من الكتاب أي الإنسي فقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، فدل على أن العلم في الفعل أقوى من القدرة، ونحن نرى

اليوم يمكن للإنسان أن يتدرب عشر سنين فيأتي رجل عالم بذكائه بسكين أو بمسدس يقتله، يعني بما غلب الغرب علينا؟ بالبارود، ليس لشجاعتهم مع أنهم شجعان ولا شك، وفي الحروب الصليبية ما أثبت علماء الإسلام ومؤرخو الإسلام شجاعتهم في القتال، ذكروا عنهم أشياء عجيبة، ولكن لم يحصل لهم الغلبة على غيرهم إلا بالبارود، أي بالعلم، البارود حسم مسألة العدد أنهاها.

فالقصد من ذلك: أن شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض، فقدم الإنس لعلمه.

ولماذا الجني هو الأغلب عليه وصف الشياطين؟ لأنه الأصل، هو الابتداء الذي حدث به، فأول غواية حدثت من إبليس لآدم، فهو أصل الغواية فهو الأكثر، ولأن الأغلب في أتباعه ليس لهم عمل إلا هذا، هنا لما قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾، هل هؤلاء شياطين الجن أم الإنس أم كليهما؟ الصواب أنهم شياطين الجن والإنس، كانوا يتلون هذه التلاوة التي سيأتي ذكرها، أنهم شياطين الإنس والجن.

والشياطين لا تطلق إلا على كفرة الجن لأن الجن، ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن: ١٤-١٥]، فإذن الجن فيهم المؤمن وفيهم الكافر، فيهم الصالح وفيهم الطالح، والأغلب فيهم الفجور والجهل كما يقول علماؤنا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، إما أنهم يتلون على ملكه أيام حياته، وإما أنهم يتلون على ملكه أي على ما ورث من ملك، إما أنهم كانوا يتلون عليه حال حياته، على ما ملك، واختص سليمان عليه السلام في هذا الأمر لما هو معروف عندنا، بأن الله عز وجل جعل له القدرة على أمورٍ لم تكن ولم تحدث لأحدٍ بعده، سأل الله عز وجل ملكاً لم يؤتيه أحد من قبله ولن يؤتيه أحد من بعده، ومن ذلك أن سخر الله عز وجل له الجن، فكان شياطين الإنس يوحون إلى أولياؤهم وإلى الناس بأن سيطرة سليمان عليه السلام على الجن إنما هي بسبب سحره، وبسبب مخاريق، بسبب كلمات يتلوها هي السحر أدت إلى هذه القدرة لديه للسيطرة على الجن، وبالتالي حدث ما حدث، فكانوا هكذا يزعمون يتلون على أولياؤهم، وإما أنهم بعد ملكه صاروا يقولون هذه الكلمة عن سبب سليمان، وفي ذلك كلامٌ طويل لأهل العلم في دعواهم.

مثلاً: بعض أهل العلم قال: بأن سليمان عليه السلام كان يُعاقب من يأتي بمثل هذا الكلام بأن يأخذ كلامه ويضعه في صندوق لئلا ينتشر هذا الشرك وهذا الكفر، يقولون، كما كان يقول ابن سبأ: كما قال لعلي: أنت الله، أنت هو، فكان شياطين الجن والإنس يقولون هذا الكلام عنه، فيأخذ كلماتهم وما يزعمونه من سحر، فيأخذ صحائفهم وأوراقهم ويضع هذه الأوراق في الصندوق، ويضعها تحت رأسه أماناً لها من أن تنتشر بين الناس، هكذا قالوا، ثم بعد وفاته أخرجوها للناس، خرجوا للناس وقالوا: كان يسيطر عليكم سليمان بهذه الأوراق وهذه النرجيلات وهذه الكلمات التي موجودة في هذه الأوراق فأخرجوها وقالوا: كان يسيطر عليكم بالسحر، هذه بعض ما تصوره الرواة وربما هو مأخوذ من أهل الكتاب لكن في هذا كله فيما نحن بين أيدينا سنتركه كل روايةٍ لم يشهد لها الكتاب باللفظ ولم تشهد لها السنة بصحة السند، وإلا فهذه الآية الأمر فيها طويل وكثير وسنذكر بعض وجوهها وهذه الوجوه لها روايات، وأغلبها إسرائيلي أو مأخوذٌ من أهل الكتاب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، والمعلوم أن سليمان عليه السلام اجتمع فيه النبوة والملك، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾، والملك أول ما حصل لداوود عليه السلام، وسليمان وداوود من بني إسرائيل، وحدث أن ظهر داود عليه السلام في القصة المعروفة في كتاب الله في سورة «البقرة»، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ثم قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فورث بعد ذلك سليمان داوود عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾ [ص: ٣٥-٣٦]، أي حيث علم، وإلا هو لم تسخر له كل الريح في الأرض، لأنه كان هناك ثمة أرض لا يعلم وجودها ولا أهلها ومن ذلك قول الهدهد له: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل: ٢٢]، فلو كان سليمان عليه السلام يحيط بكل الأرض، بكل ما فيها من رياح وبكل ما فيها من جن، وبكل ما فيها من بشر، لما كان عنه هذا غائباً، وهي قطعاً في العالم القديم نتحدث عن العالم القديم ليس في أمريكا وليس في أستراليا وفي غيرها وإنما في أرض النبوة وعلى الأغلب أن القضية كانت بين بلاد الشام وبين اليمن كما هو معروف، فإذن ملك سليمان هذا له خصوصية في الذكر.

قدم الله عز وجل قبل أن يذكر أمر الكفر الذي أتوا به برأ الله سليمان وهذه تقدمةٌ حسنة، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، السياق الذي ينبغي أن يكون من غير هذه التقدمة أن يقال: ﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، وكانت تلاوتهم كفراً وزعموا زعماً أن هذا من سليمان ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، فرد الكفر عن سليمان إنما يكون بعد سياق، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ سيكون بعد قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، أي الكفر، فقدم الله تبرئة النبي، من أجل أن لا يخطر في البال وتعظيماً للنبي، وتعظيمًا له من أن ينسب إليه ما نسبوا إليه، كما قال الله عز وجل: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وإنما الأمر ذكر سبب ثم ذكر العاقبة، لم أذنت لهم، عفا الله عنك، لكن ليطمئن القلب وليعرف مقام المخاطب، فقال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾، حتى لا يقع فيه الاضطراب فتقدم العفو، وهنا ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، حتى لا يخطر في البال لمجرد ذكر هذا فيما يزعمونه سليمان أنه من سليمان، فقال الله عز وجل ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، فقدم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، لأن سليمان عليه السلام نبي، وتقدم التفصيل في قضية أن الله عز وجل عظيم ويعظم من ينتسب إليه فجعل الإيمان بالملائكة وجعل الإيمان بالكتب وجعل الإيمان بالأنبياء والرسل، وتقدم قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾ [البقرة: ٩٨]، فمن سب ملكاً من الملائكة كفر، تقدم ذكر تعظيم الملائكة، لماذا؟ لأن الله عز وجل أمرنا بالإيمان بهم وطهرهم عن المعاصي، فأخبرنا بذلك وهم في عبادتهم قد صاروا أولياء لله عز وجل؛ فوجب الإيمان بهم، لأن الله عز وجل أخبرنا بهم، ووجب تقديرهم وإعزازهم واحترامهم ومحبتهم، لماذا؟ لأن الله عز وجل يحبهم؛ لأنهم في مقام العبودية، فالله عز وجل أمرنا بالإيمان بهم وبمحبتهم وبغض ملك هو كفرٌ بالله، حتى لو آمن بوجوده، فاليهود يؤمنون بوجود جبرائيل، أنه يوجد، فليس الكلام عن الإيمان بالرسل فقط بوجودهم، ولكنهم كفروا بعد إيمانهم بوجودهم بعدم محبتهم.

وهنا نفس الشيء، السياق هنا في ذكر نبي من الأنبياء سبته اليهود، إما أنهم سبوه بقولهم: إنه لم يكن نبياً وكان ساحرا، وهذا ذكره بعض أهل التفسير وأن سبب هذه الآية أن اليهود قالوا: إن هذا الرجل يعظم ساحرًا ويحترمه ويعزره، وهو سليمان، فكانوا يعدونه ساحراً وليس بنبي، وإما أنهم جعلوه خالطاً بين النبوة

وبين السحر، أو أنه خاضعٌ للسحر على معنى خضوعه أي طاعته له، وهذا كله كفر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، فإن الله برأ سليمان عليه السلام من الكفر، وبالتالي برأه مما نسب إليه من السحر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، سليمان عليه السلام لم يكفر، وهو رسول الله عليه السلام، والإيمان به واجب، فمن الذي كفر؟ في اتباع هؤلاء اليهود من اتبعوا؟ هل اتبعوا سليمان عليه السلام؟ إنما هم اتباع للشياطين، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، بماذا كفروا؟ قال تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، إذن الذي يعلم السحر للناس هم الشياطين، وهذا أول تنبيه على أن السحر مذموم، ولذلك يقول علماؤنا: إذا أطلقت كلمة السحر لا يمكن إلا أن تكون مذمومة، فإذا قُيدت نُظر إلى سياق الكلام، ولذلك كقوله صلى الله عليه وسلم: (أن من البيان لسحرا)، السحر عند أهل العلم إنما هو الاشتباه، ومنه أخذ السِحر قالوا: من السَحر؛ لأن وقت السَحر هو وقت اختلاط الفجر بالليل، فيشتبه الأمر أهو فجرٌ أم ليل، فهذا الاشتباه سمي بالسَحر، ومنه أخذ السحر، لماذا؟ لخفته ودقته واشتباهه فسمي السِحر بهذا المعنى، ولماذا سمي البيان سحرا، لهذا المعنى الذي قلناه، ورأينا أن السحر بمعنى الخفاء، فسمي البيان سحرا، إما لتخفيه في وصوله إلى مراده، وإما أنه لإظهاره لأن السحر هو خفاء، وهذا البيان سحرا أي أظهر ما كان خفيًا، وبعضهم قال: إنما سمي السحر سِحرًا لقدرته لخفائه على أن يقلب الحق باطلاً ويقلب الباطل حقا، عنده هذه القدرة لخفائه لأنه خفي، فيتغلغل، كما هو شأن السحر في قضية الإخفاء على العيون كما سيأتي من بعض صوره ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦)﴾ [طه: ٦٦]، هذا هو المبحث الأول في السِحر.

المبحث الثاني في السحر: أن الله عز وجل يقرر في هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، الشياطين كفروا لماذا؟ لأنهم يعلمون الناس السحر، فدل ذلك على أن السحر كُفر، وهذا ستؤيده بقية الآية، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فدل هذا على أن السحر كُفر، ولا يمكن لأحدٍ أن يتعلم السحر الوارد في هذه الآية إلا أن يكفر، فهل هناك سحرٌ بغير كفر؟ الجواب: نعم، ويطلق الناس عليه السحر، ولكن نتكلم عن السحر في هذه الآية، كيف يكون السحر غير كفر؟ وهو الذي يسمى بخفة اليد، خفة اليد هذه التي يتعاطاها كثير من الناس في أن يصنعوا أو يتلاعبوا بصور وخيالات بسبب الضوء مثلاً، أو بسبب المرايا، أو بسبب خفة اليد، أو بسبب

ثنائية الأشخاص، رجل يدخل في بئر فيخرج في المكان الآخر ويكونان اثنان، فهذه من الخفة، فهذا لا يكفر به المرء.

والإمام الشافعي رحمه الله هو أكثر من فصل في هذا الباب، وجعل هناك من السحر ما هو كفر أي الذي يُتلقى عن هذا الطريق المذكور في هذه الآية، فيكفر المرء به، وما هو حده؟ الأغلب من أهل العلم على أن حد الكافر ضربةٌ بالسيف، وهذا من حديث جابر مرفوع، والأغلب أن هذا الحديث موقوف وليس مرفوعٌ للنبي صلى الله عليه وسلم، وعمر رضي الله عنه أرسل إلى ولاته في الأمصار أن اقتلوا كل ساحرٍ وساحرة، والمقصود هؤلاء، وليس المقصود الحواة ولا الذين يلعبون بالحيات بطرق معينة، هؤلاء حواة، لهم طرق من الطب يستخدمون بعض أنواع من الطب، بعض أنواع من الخفاء، بعض أنواع من الحيوانات والناس لا يعرفون، فهذا ليس من السحر الذي يكفر به المرء.

وإنما السحر الذي يكفر به المرء هو الذي يتعلمه عن طريق الجن، ولا يمكن أن يتعلمه إلا أن يكفر، ولذلك لا يجوز القول بأن القول المنتشر منسوباً للنبي صلى الله عليه كذباً تعلموا السحر ولا تعملوا به، هذا كلام باطل، على هذا المعنى لا يجوز، لأنه لا يمكن للمرء أن يتعلم السحر حتى يكفر.

فما هو السحر، وما هي حقيقته؟ الأغلب من أهل السنة يثبتون حقيقته، له حقيقة ماذا يقصد بهذه الحقيقة؟ هم يضطربون في هذا المورد من إثبات حقيقة السحر، والأغلب من المعتزلة يقولون على المعنى الذي ذكرناه، ما هو السحر؟ هو مجرد مهارات، على ما ذكرنا مهارات متعددة الناس في هذا الباب لا تنتهي ألاعيبهم، فقديماً ما كان الضوء بمثل هذه الأيام، فالضوء يستخدم الآن في قضية الظل، في قضية المرايا، في قضية الثنائية كما ذكرت، في قضية خفة اليد، هذه لا تنتهي.

فما ما هي حقيقة السحر التي يثبتها القرآن؟ القرآن يثبت أنه ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ﴾ [طه: ٦٦]، إذن السحر له سيطرة على الخيال، على الذهن، على النظر، المجمع عليه مع وجود خلافٍ لا قيمة له بأن السحر يغير حقائق الأشياء، وهذا من جهل بعضهم عندما رأى أن أهل السنة يثبتون حقائق للسحر أن السحر له حقيقة، فظنوا أن معنى حقيقة السحر أنه يغير حقيقة الأشياء، وهذا لا يجوز اعتقاده، فإن الفارق بين أكبر السحرة في الوجود وهم سحرة فرعون، وبين معجزة موسى عليه السلام أن موسى عليه السلام

قلبت عصاه إلى حية حقيقية، وأما هم فسحرهم لم يتعدى إلا أن خيل للناس أن عصيهم وأن حبالهم تسعى وتتحرك وأنها أفاعي، خيل إليهم، فهذا الفرق، إذن لا يمكن لأحد أن يغير طبائع الأشياء، وهذا مما شرحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «النبوات».

وعندما ذكر الفرق بين المعجزة وبين ما يسمى بالإهانة أو ما يسمى بالاستدراج، وقف كثير من أهل العلم هذا الموقف وأخذوا كلام الباقلاني، أغلب الأشاعرة ومن كتب في كتب التوحيد، أخذوا الفرق بين المعجزة وبين الاستدراج على هذا المعنى، أن المعجزة مقترنة بدعوى الرسالة، بدعوى النبوة فقط، ولم ينظر إلى حقيقة الفعلين ما هما؟ وما هو الاستدراج، الاستدراج أن تظهر المعجزة بين قوسين يعني أن يظهر خارق العادة على يد الكافر والفاجر، فهذا يستدرج، قال: يستدرجه الله عز وجل بهذا الفعل من أجل أن يوقعه في شر أعماله على قاعدة (إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلت)، هذا استدراج، وما المعجزة؟ قال: المعجزة هي خرقٌ للعادة مع دعوى النبوة، فجعلوا الفارق هو الدعوة.

شيخ الإسلام رحمه الله رد هذا تماماً وقال: بأن المعجز لا يتصور فعلها لا بقوة موجودة في عالم الغيب ولا في عالم الشهادة، المعجزة هو حدوث تغيرٍ في الأشياء أو حدوث شيء خارق للعادة لا تتصور قوته وقدرته لا في عالم الغيب ولا في عالم الشهادة، كيف؟ ليس هناك ثمة أحد لا في عالم الغيب من الملائكة والجن، ولا أرواح المؤمنين إن أجزنا وجود عالم للأرواح لهم تأثير في هذه الدنيا، عندهم القدرة بأن يأتوا إلى أصابع أحد فينبت منه أو ينبع منه الماء، لا يوجد، الملائكة لا تستطيع، هذا خلق، هذا إيجاد ولا يقدر عليه إلا الله عز وجل، لا أحد يستطيع أن يفعله إلا الله عز وجل، لا في عالم الغيب ولا عالم الشهادة، الجن هل تستطيع أن تخرج الماء من بين أصابع الرجل؟ لا يستطيعون، هذا فعل الله عز وجل.

ولو أننا رأينا رجلاً كافراً يخرج منه الماء، حينئذٍ نقول: هذا شيء حدث بمعونة شياطين الغيب، شياطين الجن، في عالم الغيب، بأن تحضر الماء وتدفقه على يديه، بخلاف، ما الفرق بينهما؟ الفرق أن المعجزة هي إحداث الشيء من غير شيء، وأما الإهانة كما يسمونها هو تدخل عالم الغيب أو ما لا نراه في الدنيا بأن يتدخل في عالم الشهادة.

مثلاً: مذكور على الحلاج أنه كان يضرب يده هكذا فيأتي بفاكهة الصيف في الشتاء، كيف تفسر هذه؟ لو كانت لنبيه لكان خلقاً، هذا خلق جديد يأتي به، وقد حدث أن صحابياً شرب من ماء الغيب، يعني جاءه ماء من الغيب فشربه فلم يعطش بعد ذلك، وحدث هذا فيما أظن مع أم سلمة في هجرتها، أنها شربت من ماء فلم تعطش بعد ذلك، لكن كيف يحضر هذا صاحب المخاريق، الممخرق، كيف يحدث هذا؟ هذا بإحضار الجن له، فهو استعان بشيءٍ من عالم الغيب فأعانته، الجن أعانوه، قال: مثلاً الطيران في الهواء، ممكن بأن تطير به الجن، الجن تحمله فتطير به، فهذا من عالم السحر فيحدث له، لكن أن يسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة في هذا الوقت ويعرج به إلى السماء، هذا لا يمكن أن يفعله إلا الله سبحانه وتعالى، فهنا الفرق بين هذا وهذا.

نرجع إلى قضية السحر، كيف للسحر حقيقة كما يقول أهل السنة؟ لأن له تأثيرات، لكن المشكلة في عقول الناس في مقدار السحر، بعض الناس يتصور أنه ساحر فممكن أن يحول الجبل من مكان إلى مكان، بعضهم يقول: السحر يمكن له وهو جالس هنا يسحر فيحرق بلدًا من البلاد، أهل السنة يقولون: كل هذا لا وجود له، السحر ليس له أي تأثير في عالم المادة فيما يذكر الناس من تحول الجبال، تحول البلاد، تحريك الريح، كل هذا لا وجود له، أعظم السحر في وصفه، قال: «وأعظم السحر هو ما فعله اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم»، أعظم السحر الذي يفعله الساحر وأئمة السحر هم اليهود، ولما أرادوا أعظم السحر عندهم ضد عدوهم محمد صلى الله عليه وسلم فلم يفعلوا إلا أنه كان يخيل له أنه يأتي أهله ولا يأتيهم، هذا هو أعظم ما يحدث في السحر، إذن السحر له تأثير فقط في نفسية المرء، في النفسية ولا يستطيع غير ذلك.

وقال بعضهم: وأعظم السحر هذا ما يفرق به بين المرء وزوجه، يعني يحصل له تخيلات، أليس هؤلاء سحروا أعين الناس، سحرة فرعون، سحروا أعين الناس، فصاروا يرون أشياء على غير حقيقتها مع بقائها على حقيقتها، فيمكن للمرء أن تسحر عينه فيرى الأشياء على غير حقيقتها مع عدم تغيرها، وهذا رأيناه، كيف؟ المرء حين ينظر لزوجه فيراها أقبح الناس ويراها أسوء الناس، بل أن بعضهم –أخبرني أحدهم– يقول: أني كنت أشم لزوجي أسوء وأقذر أنواع الروائح، فلما بحثوا؛ وجدوا سحرًا قد كتبه بعض أقارب الزوجة، إذن ما هو السحر الذي له حقيقة؟ هذا المقصود، وبعضهم لم يفهم هذا فقال: السحر لا حقيقة له، أخذًا بالمعتزلة على قاعدة أنه لا يستطيع أن يغير حقائق الأشياء، يعني المرء لما ينظر لزوجه هي تكون

ربما من أجمل الناس، أو تكون جميلة، ولكن يراها على صورةٍ على غير صورتها، فهذا يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

ثانياً: يفرقوا به بين المرء وزوجه، يؤثر في نفسيته في البغض والحب، ومن هنا جاءت النُشرة، ما هي النُشرة؟ هو أن يكتب الرجل السحر من أجل أن يفرق بين المرء وزوجه، انتهينا المسألة الأولى، فلما يقول أهل السنة السحر له حقيقة هذا الذي يقصدونه، أي الساحر حين يكتب كتابةً ما أو ينفث نفثةً ما فإنه يؤثر هذا التأثير الذي ذكرناه، وليس أكثر من ذلك، قد يقول قائل: ربما نرى أن بعض البيوت تحرق، ربما أنا لا أنفي هذا ولكن ليس لهذا علاقة بالسحر، هذا له علاقة بالجن، أن أجزنا وجود هذا، والأمر يعني فيه مقال، ولكن ولا شك أن الجن يتشكلون، وفي ذلك أحاديث، ماذا يتشكلون؟ حين نراهم على غير حقيقتهم، أما بقاء الجن على حقيقتهم أي الساحر، يعني المقصود من الذي يتلاعب من الجن بالإنس هم سحرة الجن، وهؤلاء الذين يسميهم علماؤنا القدماء بالغيلان، وفي ذلك حديث رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن عمر رضي الله تعالى عنه: (إذا تغولت الغيلان فكبروا)، من هي الغيلان؟ هي سحرة الجن، أليس عند الإنس سحرة، والجن عندهم سحرة، فسحرة الجن هم الغيلان، فهذا هو الغول، هذا إن أثبتنا وجوده وهو موجود على هذا المعنى، وغير ذلك لا تزد.

فهل الجن عندهم قدرة على التشكل؟ الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، يعني إبليس، فهو يرانا ونحن لا نراه، لكن هذا إذا بقي على حقيقته، كذلك الملك وهو مخلوق من نور، فلا نراه إلا إذا تشكل، فكان جبريل يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على صورة دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه، ودخل يومًا رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، فقال صلى الله عليه وسلم: (هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم)، ومن الأدلة على أن الجن إذا تشكلوا رآهم الناس، أحاديث من ذلك الحديث في صحيح مسلم: الرجل الذي بنى بأهله في غزوة الأحزاب، الخندق، وكان يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم لأنه بنى جديداً على زوجه متزوج عريس جديد، فيذهب إلى بيته، فرجع يوماً فوجد زوجته على الباب واقفة فظن بها الشر، فاخترطها بالسيف، فقالت: انظر من بالبيت: أي لا تسيء الظن، انظر من في البيت فدخل فوجد أفعى كبيرة جالس على فراشه فاخترطها بالسيف فقتلها -والحديث في صحيح مسلم- قالت المرأة: «فلا أدري أيهما أسرع موتاً، الرجل -أي زوجها- أم الأفعى».

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم بيّن ما السبب بعد ذلك، قال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ بالمَدِينَةِ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ قدْ أسْلَمُوا)، بعض أهل الجن في المدينة أسلموا وأقاموا ليتعلموا الدين، فقال صلى الله عليه وسلم: (فمَن رَأَى شيئًا مِن هذِه العَوامِرِ فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلاثًا، فإنْ بَدا له بَعْدُ فَلْيَقْتُلْهُ، فإنَّه شيطانٌ)، ينذر هذه الأفعى ثلاثًا، فالسبب أن هذه أسلمت فجلست في المدينة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تُستأذن، واختلفوا بعد ذلك في هذا الحديث وهو حديثٌ صحيح، أي أن ينذرها ثلاثة، قالوا: ثلاث مرات أم ثلاث أيام؟ وقبلها اختلفوا هل هو خاص بجن المدينة أم بغيرها؟ ثم اختلفوا من قالوا بالمدينة: أخاصة بزمن النبي صلى الله عليه وسلم أم هي عامة؟ على خلافٍ طويل، فبعضهم قال: هذه خاصة لمن رأى من الأفاعي زمن النبي صلى الله عليه وسلم وليس في كل الأزمنة في المدينة، وبعضهم قال: هي في المدينة ولكن في كل وقت، وقال بعضهم: هي في المدينة وغيرها، وثم اختلفوا هل يُنذرها ثلاثًا أي ثلاث مرات أم ثلاث أيام؟ والقلب يميل إلى المعنى الأول، وهو أن هذا خاص بالمدينة زمن النبوية النبي صلى الله عليه وسلم لوجود النبي صلى الله عليه وسلم لإقامتهم في المدينة، هذا له معنى؛ أنهم يقيمون في المدينة، فهذا حديث دال على ذلك.

ومن الأدلة على أن الجن إذا تشكلوا رآهم الناس جاز للناس أن يروهم على غير خلقتهم التي خلقوا عليها، أن شيطانًا جاء للنبي صلى الله عليه وسلم ومعه شهاب النار وهو قائمٌ يصلي فأراد أن يحرقه فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم من رقبته حتى حس ببرد لسانه على يده، وقال صلى الله عليه وسلم: (لولا دعوة أخي سليمان ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾، لربطته بهذه السارية وتلاعب به صبيان المدينة)، فدل على أنه جاز هذا الأمر.

والمرء يتساءل كيف يحدث هذا؟ بلا شك أن هذا من عالم السنن ولكن ليس كل السنن يدركها الناس، الكثير من السنن لا يعرفونها إلا من جهة الشرع، فإذا علمت من جهة الشرع، لم يعلموا كيفيتها من جهة السُنن المادية، هم لا يعرفون من السنن الى المادية، يعني الرجل لا يستطيع أن يقتل رجلاً بصوته، أي أن يقول له: مت فيموت، لا يستطيع في هذه الدنيا، هكذا يرى الناس السُنن، لكن هناك سُنن من عالم الغيب لها أثرٌ في عالم الشهادة، ومن ذلك أنه إذا سُمع صوت الحمار عَلمت أنه رأى شيطانًا، فعليك أن تستعذ بالله من الشيطان الرجيم، فالحمار يرى الشيطان وأنت لا تراه، وهو موجود وهو مادة الحيوان، لكن دل

على أن في الحمار قوة إبصار ليست في الإنسان، وكذلك الديك إذا رأى ملكًا؛ صاح، فعليك أن تسبح الله عز وجل، فدل على أن في الديك قوة إبصار ليست في الإنسان، فإذن هناك أثر.

العين ماذا؟ بعض علماءنا القدماء مساكين قالوا هو شعاعٌ ينبثق من عين المرء لسوء قلبه وسوء نفسه من شدة السوء في داخله ينبعث شعاع من عينه إلى المصاب فيهلكه!! هذا كلام لا صحة له لا وجود له، هذا شيءٌ من عالم الغيب يؤثر في عالم الشهادة ولا نعرفه إلا من جهة الخبر، فالعين حق، والسحر حق، كيف؟ لا ندري كيف، ومن هنا فإن بعض ما يفعله المشعوذ على هذا المعنى، وبعضهم على معنى ما ذكرناه من الكهانة والكذب والسوء مثل قضية الدخول في النار والمشي على الجمر، فالآن الناس يمشون على الجمر ومن الكفار، ويفسرونها تفسيرات علمية فيزيائية هم أبصر بها.

لكن هناك كذلك من المخاريق ما يفعله المشعوذون، وهذه لها تأثير، يكتبون كتابات شركية، هذه الكتابات الشركية يستعين بها بالجن يؤثرون بها في عالم المادة على ما ذكر، من قضية التأثير على ما ذكر ومن قضية التأثير على نفسيته في الحب والبغض كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فهل يجوز علاج النُشرة بالنُشرة؟ النُشرة قلنا: وهي الكتابة التي بها يتم التفريق بين الزوجين، فكيف نعالج هذا؟ بعضهم يقول: يجوز استخدام السحر، هذا لا يجوز، نحن لم نجز العلم بالسحر، هذا علم لا يمكن أن يأخذه المرء إلا بالكفر، ويجوز أن نقول: لا يعطيه الله عز وجل إلا أن يكفر على قاعدة ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فلا يجوز لأحد أن يتعلم السحر؛ لأنه لا يمكن أن يتعلمه إلا بدخول بابه وما هو بابه؟ أولاً: هو أن يكفر، كيف يكفر هذه قضية طويلة؟ أصحاب الخبرات يذكرون الأشياء الكثيرة مما لا نريد أن نقذر مجلسنا بذكره، كيف يكفرون؟ هذه لها سبل كثيرة يعرفها الناس والكثير منها يتداوله الناس بينهم في الحديث. فالنُشرة إذن هل تجوز؟ الجواب: العلم بالسحر لا يجوز فكيف يستخدمه؟!! ولذلك في الحديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النشرة وإن كان في الحديث مقال، وفي الحديث سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن النشرة، فقال: (هذا من الشيطان)، وإذا

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التداوي بالخمر لأنه نجس ولأنه داء وليس دواء فمن باب أولى ما هو أعظم منه من الكفر فلا يجوز.

فهل هناك طرق لرد السحر؟ ما فعله بالنبي صلى الله عليه وسلم، النبي صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهم، فعلم المكان فذهب إلى البئر الذي فعل به لبيد بن الأعصم اليهودي أنه سحرة النبي صلى الله عليه وسلم بِمُشُطٍ وَمُشَاقَةٍ، أي أخذ شيئًا من شعر النبي صلى الله عليه وسلم، فعقد عليه عقدًا مع النفث الشركي، فالنبي صلى الله عليه وسلم صار يخيل له هذا، قد يقول قائل: أليس هذا طعنًا بالنبوة؟ الجواب: لا، هذا مرض، وهل المرض متصور وممكن في النبي صلى الله عليه وسلم أم غير ممكن؟ ممكن، هو لا يغير شيئًا لا في رسالته ولا في عبادته ولا في صدقه ولا في إخباره، وإنما يقع منه ما وقع منه صلى الله عليه وسلم لما حدثت حادثة الإفك حتى سأل الناس مع يقينه بصدقها، فقد يقع في نفس الولي هذا، وقد يقع في نفس النبي هذا وليس هذا طعنًا في النبوة، ولذلك الذين ردوا هذا الحديث لم يصيبوا، ومن المعاصرين وغيرهم ردوا حديث سحر النبي صلى الله عليه وسلم.

ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فدل على أن تعليم الناس السحر كفر، فلا يمكن أن يكون الساحر إلا كافرًا، وهل يمكن للمرء أن يكون كافرًا ويكون عابدًا؟ فهناك سؤال دائمًا ما يتوجه، يقول: كيف أفرق بين الشيخ الساحر وبين الشيخ الغير الساحر؟ أولاً: وبلا شك من النظر إلى عبادته ولكن هذا ليس بعلةٍ حاكمةٍ في الباب، أي هل يمكن للمرء أن يكون كافرًا مصليًا؟ نعم، ممكن، وممكن أن يكون كافرًا حاجًا؟ الجواب: نعم، وهؤلاء كثر في زماننا من أولياء الطاغوت من الطواغيت يحجون وهم كفرة، وهل يمكن للمرء أن يصلي وهو كافر؟ الكثير يصلون وهم كفار يشركون بالله عز وجل، فليس هذا بضابط وإن كان حال المرء يدل على خبره وعلى ما في داخله، خبر المرء والتزامه بالدين والسنة وإلخ، ولكن لابد من النظر إلى ما يقول ويفعل.

ومن هنا أخذ للرقية شروط عند أهل العلم جمعها الإمام السيوطي، ما هي شروط الرقية الصحيحة لتعرف أنه ساحر أو غير ساحر؟ أن تكون بلغة تفهمها إذا كُنت عربي تكون بالغة عربية، ألا يكون فيها الشرك، لا يكون فيها كلمات شركية أن يكون تكون مفهومة، أن تكون من الكتاب والسنة؛ لأنه لا يوجد

رقية أفضل من الكتاب والسنة، ما هي أفضل رقيةٍ في الدنيا؟ ما هي أفضل رقية لمن أصيب بالسحر؟ أفضل رقية سورة «الفاتحة»، أفضل رقية المعوذتين، فالآن لو رجل كتب -وهو صالح- كتب كلمات طيبة فيها الدعاء أو قرأ كلمات طيبات فيها الدعاء على المسحور وعلى المريض، فهل تبلغ كلماته من الخير ما تبلغه آيات الله عز وجل وكلمات الله عز وجل هل يمكن؟! لا، فلذلك هذه كلها دالة على شيءٍ واحد:

أولاً: تكون بلغة عربية ومفهومة.

ثانيًا: أن تكون من القرآن الكريم.

وثالثًا ألا يكون فيها شرك، وكلها على معنى واحد.

ولذلك أعظم ما يرد به السحر وترد به العين هو الرقية، كان النبي صلى الله عليه وسلم يرقي الحسن والحسين بكلماتٍ فيها الاستعاذة بالله، فلما نزلت المعوذتين أخذ بهما وترك ما سواهما.

ونحن دخلنا في موضوع الرقية لأهميته لأن الناس يسألون عنه كثيرًا، هل يجوز النفث على الماء وشربه؟ وهل يجوز كتابة الآيات على الورق، ورق ما أو على ورق الشجر ووضعه في الماء وشربه؟ الجمهور على جوازه وإن كان بعضهم ينهى عنه، ولكن ليس هذا من باب العقائد، أي لا يجوز لأحد أن يجعل حمل التعويذ التي فيها القرآن شركًا، إذا كان فيها شروط الرقية الشرعية، أن يكون فيها قرآن ويكون فيها الاستغاثة بالله ألا يكون فيها طلاسم وعقد وغير ذلك من الشركيات، فهل يجوز؟ الجواب: يجوز، ما في حرج، وكان يفعل بعض الصحابة رضي الله عنهم هذا، وإن كان بعض الصحابة رضي الله عنهم نهى عن ذلك، فإذا اختلف الصحابة رضي الله عنهم في هذا الباب فالأقرب قبوله؛ لأنه هذا من باب التوحيد ولا يتصور في الصحابة رضي الله عنهم البدعة، وهذه قاعد من القواعد «لا يتصور في الصحابة رضي الله عنهم البدعة» إلا إذا خالف مخالفةً واضحةً صريحة، بعض أهل العلم يقول: لا يوجد بدعة فعلها الصحابة رضي الله عنهم قط، واختلفوا مع ذلك في التعريف عن ابن عباس، تعريف يوم عرفة أن يجمع الناس ويقرأ لهم بعد الصلاة ويدعو بهم ويذاكرهم في الذكر اختلفوا فيها، ولكن لا يقال: بأن هناك صحابي فعل بدعة من البدع، هذه لا تتصور في الصحابة رضي الله عنهم.

وبعض المسائل الخاصة بهذا الباب في قضية رقية السحر ودفعه:

هل يجوز تعليق الآيات على الحيطان؟ الجواب: لا يجوز، لأن هذا لا أهمية له، فهذا من تزيين الحوائط، وقد نهي عن ذلك، نهي عن إضاعة المال في هذا الباب، فبعض الناس يسأل تعليق الآيات في البيوت وغير ذلك؟ إذا اشتريت ووضعت للتزيين ولما يظن بعض الناس أن وجودها يرد العين أو يرد السحر، هذه لا ترد ولا غيره.

ولكن اختلفوا هل قراءة القرآن مثلاً: النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أن الشيطان لا يقرب البيت الذي تقرأ فيه سورة «البقرة»، ورد في ذلك أحاديث أخرى فيها ضعف، أنه لا يقربها ثلاثة أيام، وبعضهم يقول: سبعة أيام لا يقربها، فوضع القرآن في الراديو مثلاً يقرأ سورة «البقرة» هل تقوم بمقام ذلك؟ بعض أهل العلم يقول: لا، والصواب جوازه، يعني لو إنسان وضع الشريط ليقرأ سورة «البقرة» في بيت يصح هذا وهي تطرد الشيطان؛ لأن الشيطان هو يسمع، وليس المقصود به هنا إلا القراءة، بخلاف الآذان بالصوت والآذان بالمسجل فهذا تعبدٌ لا يجوز أن تقوم به الآلة، نكتفي بهذا اليوم إن شاء الله نتابع معكم في الدروس القادمة نسأل الله أن يغفر لنا وأن يرحمنا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة:

السائل: ذكرت تدخل عالم الغيب بعالم الشهادة لا يعد معجزة، لكنك ذكرت معجزة الإسراء والمعراج من أن فيها تدخل الملائكة كجبريل عليه السلام؟

الشيخ: في الإسراء يوجد استخدام البراق، والبراق كان يضع حافره حيث ينتهي بصره، فهذا سبب وحدث، لكن المعراج إلى السماء؟ فليس هناك ثمة وسيلة، وهذه المسافة الطويلة بين السماء والأرض دلت على أن جسد النبي صلى الله عليه وسلم قد تحول جسدٍ آخر لحظتها، كيف مشى بهذه السرعة العجيبة حتى اخترق السماوات واخترق طبقت الأرض واخترق السماوات السبع حتى انتهى، فدل هذا على أنه أمرٌ معجز بمعنى أنه ليس خاضعًا لقوانين عالم الشهادة، وعالم الغيب المقصود به غير الله عز وجل من الملائكة ومن الجن، فدل على أن المعراج معجزة ليس باستخدام قوة، ولكن في المعراج بلا شك أنه استخدم وسيلةً من وسائل القدرة في عالم الغيب.

السائل: الملحد الآن لما ما يتبع شيئًا هل يتبع فراغ؟

الشيخ: قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، هل الملحد لا يعبد شيئًا؟ الجواب: نعم، هو يعبد نفسه، هو يعبد هواه، وها أنت ترى الملحدين في هذا الزمان لهم أئمة، تسأله: من إمامك؟ يقول: لك جيفارا!! من إمامك؟ يقول لك: ماو تسي تونغ!! يقول لك: لينين!! تجد الملحد يضع صورة هؤلاء ويعبدوها من دون الله ويرى عظمةً فيها أكثر مما يرى المؤمن في رسولنا صلى الله عليه وسلم، فهم يتبعون، ما في أحد يخلو.

السائل: شيخنا لم أفهم رد شيخ الإسلام على الباقلاني في التمييز بين الاستدراج والمعجزة؟

الشيخ: هذا ذكرته، الباقلاني قال: الفرق بين الاستدراج وبين المعجزة في الدعوة، دعوة النبوة، وشيخ الإسلام يقول: لا الفارق بينهما في حقيقة الفعل وليس بالدعوة، حقيقة الفعل مختلفة، فالمعجزة ليست خاضعة لقوة مخلوق لا في عالم الغيب ولا في عالم الشهادة، ما أحد يستطيعها، لو جاءت كل الملائكة

بقواهم لا يستطيعون أن يخلقوا الماء خلقًا من غير شيء ويخرج من أصابع رجلٍ نبي وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق، لا يستطيعون ذلك لا الملائكة ولا غيرهم، لكن قال: هم ينظرون إلى أن الكافر حين تظهر منه المخاريق لا ينظرون إلى استخدامه لبعض قوى ما لا يعرفه الناس، يستخدم قوة الجن، ومن ذلك ما يحصل من الإبصار والإخبار، يعني نحن لا نعرف إلى الآن القوة التي تفعلها قوى عالم الغيب فينا، لا ندري، ومن ذلك ما نراه من السحر، كيف يقع السحر؟! يعني لو سألت أحدًا: كيف يقع السحر؟ بقراءة سنن المادة التي نعيشها ونتعامل معها هل نستطيع أن نعرف؟!

والعين لو أردت أن تفسر العين تفسيرًا ماديًا، رجل ينظر إلى رجل فيحسده ويؤذيه حتى يؤدي به إلى موته، العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر، فكيف هذا؟ فسره لي في عالم المادة؟! فإذن هي استخدام لشيء في عالم الغيب، سنن في عالم الغيب يستخدمها من خلال الشياطين والجن، ومن هنا فكثير من الناس يسأل عما تفعله بعض الفرق الضالة كالرفاعية، من أكلهم للنار أو ضربهم الشيش، لا يوجد عندنا تفسير، فيأتي الرجل يقول لك: أنا امسك سكين طويل كالسيف وأضعها في بطني وحتى تخرج من ظهره، هل يفعل هذا؟ الجواب: نعم يفعلون هذا، ولكن هذا لا يمكن أن يفعلوه إلا بمعونة الجن، كيف؟ هذا خاصٌ بقدرة عالم الجن فينا، كما في قدرة عالم الجن فينا في قضية العين والسحر، هذا هو والله تعالى أعلم.

السائل: العين هل يتكفل الجن فيها بالإضرار؟

الشيخ: ولا شك أن العين فيها معونة من عالم الغيب بالجن وغيره أو لقوى نحن لا نعرفها في الإنسي، لكنها ليست مما نعرفه في عالم المادة، الله عز وجل لما قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهذا قول الجمهور بخلاف ما ادعاه ابن القيم رحمه الله في أن الروح هنا هي جبريل، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، لماذا لم يعرفنا ربنا سبحانه وتعالى الروح على معنى الروح التي هي قسيم البدن التي هي مع اجتماعها مع البدن يتم بها الإنسان، فلماذا ذلك؟ لأن عالم الروح من عالم الغيب، فلو شُرحت لا يوجد ما يقربها إلا أنها روح فقط، لا يوجد ما يقربها مما يقرب معناها إلى الذهن لا يوجد، حتى لما ذكر الجنة وما فيها ذكر الأسماء، لكن كيف هي؟ لا أحد يدري، لماذا؟ لأن الأشياء إما أن تعرف بنموذجها وإما بمثالها، أي إما أن يؤتى بمثال، وإما أن يؤتى بالتقريب بما يعرف فيقرب

له، حتى إذا قلت: كتاب، قلت: مثل هذا، حتى إذا وصفت دابةً، قلت: هي دابة، إذا أردت أن تسمي اسمًا لا تعرف ما هو، قلت: هو دابة، فيعرف أنها تمشي على أربع، ويبقى يصف لك حتى يقترب لك المعنى الذهني من المعنى الواقعي مع استخدام المعنى اللغوي الذي به استخدام الألفاظ.

لكن حين يكون هذا الغائب لا مثيل له في الوجود، فكيف تعرفه؟ لا يمكن أن تعرفه إلا بأن تراه، فإذا رأيته علمته، لماذا هذه الطريقة الوحيدة؟ لعدم وجود مثيل له في عالم الدنيا، لا يوجد، فالروح لا وجود لمثلها، ماذا يقول لك عن الروح؟ لا يوجد مثيل لها في الدنيا، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، هي من خلقه جل في علاه، فاقطع الأمل بمعرفة حقيقتها، ومع هذا الأمر فإن علماء الكلام وعلماء التفسير خاضوا فيما هي الروح وجعلوا يصفونها ما هي، هي شيءٌ نعرفه بأنها قسيم البدن الذي يتكون به الإنسان إذا اجتمعا فقط غير هيك لا نعرف، قالوا: هي شيءٌ لطيف، لطيف هذا شيء معروف، لكن الحديث عما يقاربها لتتصور وجودها.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع والسبعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الرابع والسبعون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]... الآية، تقدم الكلام عن بعض ما يلزم في تفسير هذه الآية العظيمة ولابد من الوقوف وقفة يسيرة عما كانت تتلو الشياطين، والمتفق عليه أن ما تتلوه الشياطين هو كفر، وأنه يناقض ما كان يتلوه سليمان عليه السلام –بصفته نبي من الأنبياء– ما كان يتلوه على الناس، إذن هم يتلون شيئاً آخر يخالف ما كان يتلوه سليمان عليه السلام، والآية تبين أن ما تتلوه الشياطين على ملك سليمان إنما كان من السحر.

لكن السؤال كيف يتم الإغواء؟ المعروف كما يبيّن لنا القرآن أن الشياطين كانت قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم تسترق السمع من السماء، ويوحون إلى أوليائهم، ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩)﴾ [الجن: ٩]، فكانوا يستمعون وفي آيات كثيرة غير هذه الآية من سورة «الجن»، فيسمعون ويأخذون هذا الذي يسمعونه فيلقونه إلى أوليائهم، وهذا الذي يجعل للساحر قبولاً في أنه يقول بعض الحق، لأن ما يسترقه الشيطان من السماء يوحيه إلى أوليائه، فوليه من الإنس يلقيه على الناس فيكذب هذه الكاذبات، ومع هذه الكذبات يكون هناك شيءٌ من الحق، وبعد النبي صلى الله عليه وسلم صار هناك موانع من حصول هذا يسترقون ولكن تلقى إليهم الشهب فتقتلهم وتحرقهم وبالتالي لا ينجو منهم إلا القليل مما يلقونه إلى أوليائهم.

لكن كيف يتم الخداع؟ هذه من صور خداع الشياطين للإنس، ولكن القرآن ينبه عن قضيةٍ أخرى تتعلق بالوحي، هذه لا تتعلق لها بالوحي، في أغلبها وفي عمومها، إنما تعلق بما يجري من السماء في حديث

السماء، بين الملائكة وبين الأقدار، الملائكة تنزل بالأقدار، ومن الملائكة ميكائيل هو الذي ينزل بالقطر، المرء لا ينزل من بطن أمه إلا على جناحين ملك، ميكائيل يأتي بالنبت وجبرائيل يأتي بالهلاك والعذاب، فلا يجري أمرٌ في هذه الدنيا إلا بإجراء حركة الملائكة فيها، ومن ذلك أنهم يحمون بني آدم، تنزل الملائكة لحماية بني آدم، لو أن الشياطين أرادوا هلاك إنسان لإيمانه كما أرادت أن تهلك النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي، فالله عز وجل سلط النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الشيطان فأخذه بيده، لكن هذا لا يحدث لبني آدم من غير الأنبياء، فإذا أرادت الشياطين أن تهلك إنساناً لسببٍ من الأسباب الله عز وجل أرسل الملائكة لحمايته، فإذن هذا جانب يتعلق بالمقادير وبالأقدار الذي تسمعه الشياطين، مما تسمعه الملائكة من بعضها البعض لما سيقع من الأقدار هذا جانب.

لكن هناك جانب آخر، لا نعرف عنه الكثير ولكن نعرف عنوانه الكبير، لا نعرف الكثير عنه لا نستطيع أن نتكلم الكثير عنه، لأننا لا نعرفه، كما أننا نؤمن بالسحر ولكن لا نعرف كيفيته، المشكلة أن عالم الغيب نعرف عنه أنه يجري، هناك أمور تجري ولكن لا نعرف كيفيتها، أي نحن نعرف أن هناك الجن ولكن كيف يتحركون؟ كيف يتزاوجون؟ عالم البرزخ نؤمن به ولكننا لا نعرف سننه، ولا يمكن للإنسان أن يعرف الشيء إلا بالمثال، مهما بلغت درجة عبقريته لا يمكن أن يعرف إلا بالمثال، وإلا فيبقى الخيال بعيداً عن الصواب مع إنه يتصور الأشياء على جهةٍ ما.

مثال ذلك: رؤوس الشياطين، كما في قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات: ٦٥]، الناس لم يروا الشياطين، لكن كما يقول الشيخ الشعراوي وهذه من بلاغاته ومن إبداعاته، يقول: الأوائل ردوا على الملحدين والزنادقة كابن الرواندي وقالوا كيف يمثل الله عز وجل بشيءٍ لم نعرفه؟ فردوا عليهم بأبيات شعرية «كأنياب أهوال» مما قاله امرؤ القيس وغيره، فردوا، ولكن الشعراوي له كلمة رائعة في هذا الباب، قال: وأطلق الله عز وجل ذلك لأن الناس يتصورون الشياطين على مسالك وعلى صور غريبة جداً، فأطلقها ليتصور كل واحدٍ القبح بالصورة التي يتخيلها، فقال: أطلقها على هذا المعنى، هذا كلام جيد رائع كما نرى، ولكن لا يمكن للمرء أن يصيب، ولكنه يتخيل أنه قبيح، فيمكن أن يرسمه على صورة ما، ولكن هذه كلها مقاربات لا يمكن أن يدعي أحدٌ أنها الحقيقة، إلا أن يراه.

فإذن لا يمكن لشيء أن تعريف حقيقته حتى يقترب من شيء تعرفه من الدنيا، فإذا قيل لك: الدابة، فأنت عرفت ما الدابة، تعرف الفرس، تعرف الحمار، تعرف البغل، فأنت تتخيل، لكن لو أنه جاء شيءٌ آخر فأنت لا تعرفه، إلا إذا قارنته بمثال، ولذلك العلماء يقولون: «التعريف بالمثال هو خيرٌ من التعريف بالحد»، رداً على المناطقة الذي زعموا أنه لا يمكن تصور الأشياء إلا بالحد، لأنهم قالوا: التصورات تعرف بالحدود، والتصديقات بالخبر، وهذا تقسيمهم.

فما أعطانا الله عز وجل من جهة المقادير أن للشياطين دورٌ في استراق أخبار الأقدار التي ستقع، وكذلك أخبرنا القرآن أن هناك ثمة تدخل من الشياطين في عالم الوحي، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ [الحج: ٥٢]، فهذه الآية من سورة «الحج» تبيّن أن هناك ثمة تدخل للشياطين في عالم الوحي، لكنه ليس في عالم تبليغ النبي لأمته ما قبل ذلك، في عالمٍ نحن لا نراه، لكن هناك ثمة شيء يحدث.

وهناك روايات باطلة على هذا قيلت مثل: «وتلك الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترتجى»، هذه أحاديث باطلة لا تلتفت إليها، ومن كان على شاكلتها بأن الشياطين ألقوا فقالوا كلاماً عن لسان النبي صلى الله عليه وسلم فبين له فتراجع، كل هذه لا قيمة لها، هذه لا قيمة لها، لأنها تنقض أساس صدق النبوة وأساس عصمة الأنبياء، فلا تقبل لكن هذا حديثٌ عن أمرٍ غيبي، أن الشياطين لها دور فيما يوحى، في المقادير فهمناها، تستمع تكذب كذا ... إلخ، يلقى إليها شهب، عرفنا ماذا يجري بمقدار ما يمكن أن نتصوره وجاءت به النصوص.

ولكن هذا العنوان الكبير ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، التمني هنا عند بعض أهل العلم، بعضهم أراد أن يحمله على معنى الدعاء، على معنى الطلب، والأكثرون حملوه على معنى التمني على معنى القراءة، وهذا بين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، كما تقدم تفسيرها في سورة «البقرة» أي إلا قراءة، أن الأغلب من أهل العلم على أن ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ يعني إلا قراءة، فقبل أن يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم على الناس قبل أن يقرأه النبي صلى الله عليه وسلم على الناس هناك عملية إلقاء على القلب، وهذا الإلقاء قراءة، إلقاء عالم الغيب، الملاك جبريل يلقيه على

قلب النبي صلى الله عليه وسلم هذه قراءة، فـ ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، هناك تدخل للشيطان، هذا التدخل هو الأقرب لتفسير هذه الآية، أن الشياطين كانت تلقي وهذا فيه بعض الروايات، يمكن أن يستأنس بها مع أنها كلها من الإسرائيليات لا يصح فيها شيءٌ مرفوع يثق به القلب ولكن نحن نقارب في إدراك كيف تلقي الشياطين على ملك سليمان؟ أنها كانت إذا وقع الوحي على قلب سليمان عليه السلام في شيء ألقت الشياطين.

والذي أتصوره أن الشياطين كان لها نشاطٌ شديد جداً وصراع شديد جداً مع سليمان ومن معه من الجن، يعني سخر له الجن، لكن هناك صراع، هناك حرب تدور بين مؤمنين وبين كافرين بين حق وبين باطل، هناك شيءٌ كبير كان يدور، وبلا شك أن سليمان عليه السلام كان مجاهداً وأنه ملك، وقصة جهاده في القرآن مذكورة وخاصة في قضية بلقيس، ومن الجهاد الذي يقع هو جهاد الجني مع الإنس، وجهاد الجن مع الجن، وجهاد الإنس مع الجني هو الوسواس، وما يمكن أن يلحق به، ولكن جهاد الجن مع الجن هو جهاد، فمما كان يقع هذا المعنى، أنه إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فماذا يقع؟ فينسخ، والنسخ هنا هو الرفع وليس رفع الحكم، ولكن بيان ضلاله وانحرافه يزيله الله عزو جل من قلب النبي فيبقى في بيانه ما عليه الشياطين، فينسخ الله عزو جل ما تقوله الشياطين، وعند الإلقاء يتدخل الشيطان فيلقي الشر، فماذا يفعل ربنا سبحانه وتعالى؟ ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، أي يرفع ما يقع على قلبه من إيحاء الشيطان وكأنه لم يكن في قلبه ليلقيه على الناس الحق تاماً بلا تغير وبلا زيادة ولا نقصان.

ولكن الشياطين تبقى في هذا الإلقاء، هذا الإلقاء الزائد هو الذي يحق فيه قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، والأكثرون كما تقدم في الدرس الفائت على ﴿مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، أي على عهده، على وقته، مما يتعلق به، فقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، كيف كانت تتلو الشياطين؟ هذا هو، فما كانت تلقيه هذا اتبعوه، وماذا تلقي الشياطين؟ الشرك والكفر، ومما كانوا يلقونه ما تعلق، ولعل أن الله عز وجل مع ما أعطاه القدرة على السيطرة على الجن كان لذلك مفاتيح يمكن أن يقال هذا، نحن لا نعرف، لكن يمكن للمرء أن يقوله ولا يمكن لأحدٍ أن ينفيه أو أنه يثبته، يعني كما أن هناك ثمة خطاب بين الإنسي وبين الجن ليفهمه، كان هناك ثمة خطاب من سليمان عليه السلام إلى الجني يقع بهذا الخطاب السيطرة لسليمان عليه السلام عليهم، لا نعرفه، لكن الله عز وجل سخر له

الريح، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾ [ص: ٣٦]، وسخر له الجن، إذن كان هناك ثمة خطاب لغة يقولها سليمان عليه السلام يحصل بها هذا، ونحن في عالم الغيب نقف حائرين فقط أمام الكلمة.

مثلاً: ماذا يمكن لأحد أن يقول عن كلمة السامري، قال تعالى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)﴾ [طه: ٩٦]، بعضهم قال: إنه رأى أثر رجل البراق، إن صح هذا، وبعضهم قال: إنما رأى أثر الجناح عندما أتى موسى عليه السلام، جناح الملك حيث وضع على الأرض صار لهذه الأرض التي مسها معنا من المعاني فقبضها وألقها، فهو أحدث سحراً، يقال هذا، هذا عالم من الغيب لا نريد أن نتوسع فيه لدرجة أن نجعل له وجوداً في حياتنا على طريقة البعض كأنه هو الذي يسيطر علينا وأن هناك ثمة سحر يستخدمه الكفرة يسيطرون به علينا وو ... إلخ، كل هذا غير صحيح ولا ينبغي الاستطراد فيه.

لكنها ألفاظٌ في الحديث عن عالم الغيب نثبتها كما هي ولا نعرف كيفيتها، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾، من هو هذا الرسول؟ هو جبريل عليه السلام عند الأكثرين، ما هي القبضة من أثره؟ وهذه القبضة من أثره ما الذي أحدثت في هذه المادة من التراب التي أخذها السامري فألقاها فصار لهذا العجل خوار؟ وهنا الحديث ليس عن أمرٍ طبيعي، حتى يقال: إنه صنع -كما يقول بعضهم- إنه صنع من حلية القوم، لأنه هو صنع من حلية القوم التي سرقت التي أخذوها، سرقت على المعنى اللغوي وليس على المعنى الشرعي، وإلا فالله عز وجل هذا سماها ملكهم أنها لهم، ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء: ٥٩]، فهذا إرثٌ شرعي، بنو إسرائيل لما أخذوا الذهب من القبطيين أخذوه على وجهٍ شرعي، المهم فصنع هذا العجل، البعض يقول: صنعه فوضعه في مسير الهواء، فكان إذا دخل في جوفه وخرج من دبره صنع الخوار، وهذا غير صحيح، هذا لا يسمى خوار للريح، خوار هناك خوار، حدث شيء مما يصح عليه لفظ الخوار وهو صوت البقرة أو العجل أو ما شابه ذلك.

القصد من هذا: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، هو هذا الجانب ما كانت تلقيه الشياطين عند الايحاء فيما يتعلق في قدرته على تسيير الجن وو...، فكانت الجن تلقي هذه

الكلمات، فكيف أخذوها؟ العلماء ذكروا أموراً مما تتعلق بفهمها من سنن الحياة، أن سليمان عليه السلام كان يأخذها فيكتبها ويرميها من أجل أن يبين فسادهم وو ... إلخ، فهذه من أمور الحياة، ولكن يمكن أن يقال غير ذلك: بأن هؤلاء الشياطين من الإنس يتلقون كما يتلقون من عالم الجني، الشيطان الجني مما يلقيه عليه الجني الشيطان على الكاهن، يعني كيف يقع كلام الكاهن في أمور الغيب؟ إنما يقع من خلال الايحاء إليه فيلقيه إلى أذنه فيتكلم به الكاهن، فهذا يمكن أن يقع على هذا المعنى أن هؤلاء الشياطين، لما يأخذوا هذه الكلمات يعطونها إلى أولياءهم من الإنس، فهؤلاء الأولياء من الإنس اتبعهم بنو إسرائيل؛ فحصل لهم هذا السحر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، قاربنا المعنى محاولة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، يعني سليمان كان بريئاً مما يفعله الجني من هذا الإلقاء الذي يصاحب عملية الوحي سواء كان من أمور المقادير أو من أمور التشريع كما بيّنا، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، أي بكلامهم هذا، ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، هذا الذي تلقيه الشياطين على ملك سليمان، هذا هو السحر، وهي كلماتٌ لا نستطيع إلا أن نقولها كما هي، ويحاول المرء أن يقارب فلا يصل لأكثر مما قالته الآيات فقط في قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، بهذه الكلمات التي كانت تلقيها الشياطين عند إلقاء ما تلقيه الملائكة على سليمان عليه السلام من الوحي فيما يتعلق من قدرته ويتعلق من التشريع الذي يقلى عليه، هذا له قوة عند الشياطين وعند أوليائهم ليحدثوا السحر، كما أن القبضة من أثر الرسول أحدثت السحر، كيف؟ هذا عالم الغيب، نسكت عنه ونرويه كما هو.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، هذه الآية للعلماء فيها مسلكان:

المسلك الأول: أن ﴿وَمَا﴾ نافية بمعنى أنه لم يُنّزل شيءٌ من السحر على ما تزعمه اليهود في أن هذا أنزل على الملكين، يعني هذا السحر الذي تدعيه اليهود يجعلون له صيغةً مقبولة، وأن هذا السحر لم ينزل على الشياطين، وإنما أنزل على الملكين، فإذا نزل على الملكين فمعنى أنه طيبٌ وطاهرٌ وحسن وعلمٌ صحيح، فالقرآن يقول: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ فيما تزعمه اليهود أن هذا السحر أنزل الملكين، لا، ﴿وَمَا أَنْزَلَ﴾، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾، فالواو

عاطفة على ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، فهو منفي، هذا قول جهابذة من أهل العلم، هذا قول الطبري وهو قول القرطبي، قالوا: لا، ما أنزل هذا ننفيه تماماً، والأكثرون على أن ﴿وَمَا﴾ هنا صلة، يعني والذي أنزل على الملكين، يعني هناك السحر يتخذ من الطريقة التي قللناها، والسحر يؤخذ من طريقةٍ أخرى وهي ليس فقط ما تلقيه الشياطين على ملك سليمان من تعلم السحر وتعليم السحر لأوليائهم، ولكن كذلك أنزل علم السحر ﴿عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾، والأكثرون على هذا القول.

وهناك أحاديث لم يصح منها شيء أسلمها حديث الذي رواه الإمام أحمد ورواه ابن حبان في صحيحه تصحيحًا له: أن هذه الملائكة نزلت فعصت الله عز وجل بالزنا مع امرأةٍ هي الزهرة التي هي النجم في السماء، ورويت في ذلك أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الزهرة لعنها، ابن عمر إذا رأى الزهرة لعنها، وهذا أسلم الأحاديث وهذا حديثٌ يصححه البعض كالسيوطي وابن حجر وكثير من بعض أهل العلم المتأخرين.

المسلك الثاني: ولكن الأكثر على رد هذا الحديث وتعليله وتضعيفه، والإمام ابن كثير رحمه الله من هؤلاء الذين قالوا: بأن هذا الحديث أشبه بالإسرائيليات، وهذا الأقرب الحديث لا يصح، هذا الحديث وهو أن الملائكة لم تعترض ولكنها ذكرت ما أحدث الله عز وجل من الفضل لبني آدم مع عصيانه فقال لهم الله عز وجل: اختاروا ملكين منكما لينزلهما ويفتنا كما يفتن بني آدم، فنزل الملكان فجاءهم الشيطان وعرض عليهما الكفر فرفضا وقالا: لا نكفر، فعرض عليهم الزنا فلم يقبلا فرفضا، ثم عرض عليهم الخمر فشربا الخمر فلما شربا زانيا ثم كفرا بسبب الخمر وضياع العقل، هذا مجمل الحديث في هذا الباب وهذا لا يصح.

وهذا الكلام بعض أهل العلم كفر قائله، أي قالوا من قال بهذا أن الملائكة تعصي الله عز وجل، قال: هذا قولٌ كفر؛ لأنه يخالف الصريح المنصوص عليه في القرآن، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم: ٦]، لا يعصون الله عز وجل فكيف يفعلوا هذا؟! ولذلك العلماء وقفوا عند هذا النص على ما تقدم من القولين بعضهما نفى ذلك كلياً وأنه لم يحدث وأن هذا من قول اليهود، وبعضهم قال: لا هذا حدث، فإذا حدث فبعضهم حمله على المعنى أن الملكين قد نزلا فحدثت منهما المعصية على الرواية التي ذكرت، وبعضهم قال: لا، وهذا قول الأكثر وهذا اختيار ابن كثير مثلاً، قال: إن الله عز وجل قد جعل

هذين الملكين فتنةً للناس، أنزلهما فتنة، ليجعلا ذلك وهو أن يكون لهما مقام تعليم السحر، ولا يعلمان من أحدٍ لصلاحهما وتقواهما، ويقولا: هذا باب كفر، لا نعلمك، لا ندخلك هذا الباب أبدًا إلا أن تكفر فإياك أن تكفر، فجُعلا من أجل الفتنة، الله عز وجل أقامها من أجل الفتنة، هكذا يقول هؤلاء من أهل العلم قال تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وهناك قول وهو بعيد اختاره البعض لقراءة ابن عباس بدل ﴿الْمَلَكَيْنِ﴾، ﴿الْمَلِكَيْنِ﴾، أي ناس بشر، ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فإذا كانا ملِكين أي من البشر يكون كل واحدٍ منهما مَلِك وليس من الملائكة، وليس مَلَك، فأين هم؟ طبعاً مما رد على حديث الزهرة التي زنيا فيها كما يذكرون، أن الزهرة منذ أن خلق الله عز وجل وهي موجودة، ولم يحصل أن ترقت من أن تكون إنسية يزنى بها، وأن تتحول إلى نجم تلعن، هذا ليس بأمرٍ حادث وإنما الزهرة أمرٌ قديم، فعلى المرء أن يتكلم بما يعقل وما هو موافق للقدر الإلهي، وهنا كذلك في هذا الباب يقال مما رد على هؤلاء: بأن هنا جمع مَلَك وليس مِلِك، ومثنى مَلَك وليس مِلِك، ولذلك الملَكين وليس الملِكين، ذلك لأن السحر بقي يعلم من قبل هؤلاء، فإن كان ملِكين فأين هما.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾، أي من هذا السحر على هذا المعنى أن الله عز وجل أنزلهما إلى الأرض فتنةً للناس، فمن أراد الذهاب إليهما والتعلم منهما، كيف يقع هذا؟ في الحقيقة الناس ربما يتكلمون عن عالمٍ قديم وهناك ثمة أخبار تروى في كتب التفسير ليس لها زمام ولا خطام في هذا الباب أن هناك من ذهب إلى بابل ورأى هذين الملكين، بل بعض الناس زعم أنه رآهما قد دليا من شعورهما عذابًا من الله عز وجل، وكل ذلك لا يصح.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿بِبَابِلَ﴾، فهذه معروفة في أرض العراق، والحديث هنا ﴿بِبَابِلَ﴾ عن مسألةٍ أرضية وجغرافية الأرض وبابل في العراق، ولها شأنٌ في التوراة، شأنها في التوراة أن الله عز وجل لما أنجى نوح عليه السلام ومن معه المؤمنين فوقعت بلبلة الألسنة في بابل فسميت بابل، التوراة توقع أسماء البلاد على ما حدث فيها من أحداث، فلماذا سميت بابل؟ كما في نص التوراة وكل هذا من التاريخ الذي لا يوثق به، فقد ثبت أن التوراة في هذا الباب من أبعد الكتب عن الحقائق في ذكر التاريخ، فلا يلتفت إليها، فقال:

سميت بابل لأن فيها بلبلت ألسنة الناس، يعني تفرقت واختلفت، والحقيقة أن موضوع اختلاف الناس والألسن ليس بهذه السذاجة، لماذا تفترق ألسنة الناس في مكانٍ يجتمعون فيه ويحتاجون للغةٍ واحدة؟! إنما قيل هذا عذاب من الله عز وجل، والصواب: أن الألسن حدثت باتساع الناس والألسن تتغير، يكون فيها الأصل ثم تتغير؛ لما يحدث فيها من رقي من بعض الناس كما العربية، كان هناك العروبية فدخل إسماعيل عليه السلام ففتق لسانه بالعربية كرامة من الله عز وجل.

وورد هناك حديث عند أبي داود من حديث عليّ رضي الله تعالى عنه، قال: «نهاني حبيبي صلى الله عليه وسلم أن أصلي في المقبرة وفي بابل»، وهذا حديث لا يصح، وكما قال الإمام الخطابي: هذا حديثٌ في نهي الصلاة عن بابل لم يأخذ به أحدٌ من أهل الفقه، المقبرة أخذ به العلماء، لهذا الحديث ولغيره من الأحاديث، هناك أحاديث أخرى في هذا الباب، ولكن هذا الحديث في النهي عن الصلاة في بابل لم يصح فيه القول.

قوله تعالى: ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾، كما هو إنما هي أسماء بدل لقوله تعالى: ﴿الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾، وهنا النصب لأنه ممنوعان من الصرف، فهذان الملكان ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾، أي يطلب منهما تعلم السحر ﴿حَتَّى يَقُولَا﴾، أي يقولا الاثنان له ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، باب ما نعلمك إياه فتنة، والفتنة هنا بمعنى الابتلاء من الله عز وجل في هذا الباب الذي يطلبه الناس، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي اليهود ومن شايعهم ممن يريدون السحر، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾، هذا بعض أثار السحر بل قال بعض أهل العلم: هو أقوى أنواع السحر، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.

وقال بعض أهل العلم: هذا أقصى وأقوى ما يحدث السحر وهذا يدل على قضيةٍ مهمة وهو أن التفريق بين المرء وزوجه لا يقع إلا من الشياطين، إما من شياطين الإنس وإما شياطين الجن، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (ملعونٌ من خبب امرأةً على زوجها)، خبب يعني أفسد، الخب هو الفاسد، «لست بالخب ولا الخب يخدعني»، أي الفاسد الذي يمشي الناس فيفسد ما بينهم، فقال: «لست بالخب» أي مخادع، فخبب أي خدع في الكلام الزوجين حتى انفصلا وهذا من أعظم الشر الذي يقع في هذه الدنيا في موضوع الحياة الاجتماعية، ولذلك الشيطان يرسل رسله وجنوده في كل ليلة ثم يأتي كل واحدٍ منهم بخبر، من هذه الجنود

الشيطانية يرجع إليه ببيان وخلاصة ما أحدث، فيسألهم: ماذا أحدثت؟ ماذا أحدثت؟ حتى وكل واحدٍ يبين له أنه ليس بالأمر الكبير الذي أحدث، فالعاصي يتوب والغافل يتذكر، حتى جاء أحد الشياطين وقال: لم أزل بهما حتى فرقت بين المرء وزوجه، فيقول الشيطان: أنت، أنت، ويأخذ التاج ويضعه على رأس هذا الشيطان، أعظم ما يقع من مفاسد اجتماعية هو تفريق بين المرء وزوجه.

ومن الأمور المعاصرة التي يقع فيها التفريق بين المرء وزوجه هو إعطاء حق الطلاق للمرأة، هذا من أعظم فتح الأبواب للتفريق وتدمير الحياة الزوجية والأسرية، كيف؟ الله عز وجل سلب الطلاق من المرأة لعلمه جل في علاه أنها لا تصلح في هذا الباب، أعطاها حق قبول الزوج وعدمه، لابد من أستأذن المرأة، على طرقٍ نعرف منها رضاها، وأما زواج المرأة بالإكراه فلا يصح ويجب أن يفسخ، فلها الحق أن تقبل أو أن ترفض، ولكن الطلاق ليس بيديها، إنما بيد الزوج، والمجتمعات التي أعطيت فيها المرأة حق الطلاق انتشر الطلاق فيها، لا يكاد بيت يتم ويسلم حتى ينتهي صاحبه إلى الموت، لا يكاد يوجد هذا البيت، فهذا من التفريق بين المرء وزوجه، فكل من يفرق بين المرء وزوجه هو على هذا المعنى من الضلال والشيطنة، فيجب على المرء أن يحذر في هذا الباب، كالآباء مع أبنائهم، وخاصةً الآباء والأمهات في موضوع التفريق.

ولذلك إذا سأل المرء، وكثيراً ما يسأل: أن أبي طلب مني أو أمي طلبت مني أن أفارق زوجتي، الجواب: لا تطعهما، لو أن والدك طلب منك أن تطلق زوجتك لا تطعه، ولو طلبت أمك أن تطلق زوجتك لا تطعها، فإن قال لك قائل -كما سئل الإمام أحمد-: ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عبد الرحمن بن عوف أن يطع أباه أبا بكر في تطليق زوجته التي أحبها، إذا كان سبب الطلب، أي طلب أن تطلق زوجتك لطلب أبيك وكان السبب دينياً كما كان شأن طلب أبي بكر، فاستجب، لماذا طلب أبو بكر من ابنه أن يطلق زوجته؟ لأنه انشغل بها عن الطاعة، مفتون فيها مشغول خرج إلى الصلاة فلم يخرج زوجها إلى الصلاة، مفتون بها وذكرت ذلك عائشة رضي الله تعالى عنها، في أخبارٍ لها كيف كان أخوها قد فتن بزوجته، فكان سبب طلب أبي بكر رضي الله عنه هو سببٌ ديني، واليوم هل ترى الأب يطلب من ابنه أن يطلق زوجته لسببٍ ديني، إن كان السبب كذلك لأن ابنه لا يريد أن يخرج إلى الجهاد، لأن ابنه لا يصلي الفجر لأن زوجته تعينه على الطاعة، ولأنه يأكل الربا بطلب زوجته منه، فهذه أسباب دينية طلقها، حتى لو لم يطلب منك أبوك ذلك طلقها حتى تتخلص من الشر.

مثلاً: المرأة التي تطلب من زوجها أن يسرق من أجل أن يقدم لها المطالب من دنيا من بيت من عفش إلخ، هذه نعم طلقها، أما أن تطلق للأسباب الخصومات الحادثة بينهم لأن أمك لا تحبها أو أبوك لا يحبها، هذا لا تطعه، ولذلك بقاء حياة الأسرة هذا مهم.

يستفاد من ذلك: أن الطلاق وإن لم يأتي نص بكراهته إلا أن الشارع لا يحض عليه، والحديث المنسوب للنبي صلى الله عليه وسلم: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» هذا حديثٌ لا يصح، ولكن هذه الآية تدل على أن التفرقة ليست أساس الحياة الزوجية في الإسلام، أن التفرقة ليست من أسس الحياة الزوجية، بل أساس الحياة الزوجية هي الدوام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (انظر إليها –إلى زوجته التي يريد أن يتزوجها– قال: انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكم)، ومن معانيها أن يدوم الزواج بينكم، أن تحصل المحبة ليدوم الزواج، ومن هنا فالزواج بنية الطلاق الذي يفتيه بعض المشايخ هذا لا يجوز، الزواج بنية الطلاق أن ينوي، هذا زواجٌ إذا جرى على معنى العادة هذا زواجٌ باطل وفاسد ولا يجوز للمرء أن يقوم به، وإذا فعله المرء يعصي الله عز وجل، وإذا وافقه الشهود على هذا المعنى وقد علموا لا يجوز لهم ذلك، هذا باتفاق إذا كان هناك الاتفاق فهذا المتعة، الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن حتى لو وجد في نفسه فلا يجوز، لا يجوز للمرء أن يتزوج إلا أن يكون في نيته أن يدوم الزواج، وقد لا يدوم حينئذٍ يأتي الطلاق، أما أن يقع الطلاق للتلذذ هذا مما ينهى عنه، فإنه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، دل أن التفريق ليس من أسس الإسلام، وأن الخيار داخل الإسلام هو بقاء الزواج وعدم هدم هذا الكيان وهذه الأسرة.

قول تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، وكيف يفرقون؟ بحصول البغض، أي ليس عند الشياطين قوة للتفريق بينهم بإبعاد هذا في بيت وهذا في بيت أو هذا في دار وهذا في دار، ليس هذا هو المعني وإنما بوضع أسباب الفرقة في قلبيهما أو في قلب أحدهما، قال تعالى: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، هنا القرآن بعد أن ذكر هذه القدرة على عادة القرآن لأن الله عز وجل هو المتكبر ولأن الله عز وجل هو العزيز، فإن الله سبحانه وتعالى في كل فعلٍ يقع من الإنسان لابد أن ينسب الأذن إليه، لأنه لا يقع إلا بإذنه، فدل على أن هذا الأذن هو أذنٌ قدري، في الجملة هو سُنةٌ قدرية ولا يحدث حالها إلا بإذنٍ خاصٍ فيها، هذه قضية مهمة جداً، المعتزلة وبعض من تأثر بهم من المسلمين، وبعض من شذ عن الإسلام

مما يسمون بالطبائعيين قديماً، مع إثباتهم -هؤلاء- مع إثباتهم أن الكون مخلوق، لكنهم قالوا: إن الله عز وجل لما خلق الكون أجرى فيه السنن، ثم هذه السنن تجري أحادها على ما وضع الله عز وجل من القدر الأول، وهذا باطل، بمعنى الله عز وجل جعل في الماء الري، ولا يمكن أن يقع الري في أحاد هذا الماء عند شربه إلا بإذنٍ خاصٍ فيه، وليس فقط في الأمر الأول، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

فالله عز وجل جعل السحر سبباً من أسباب ما ذُكر، أنه يحدث فيه السحر، والسحر له أثاره في الدنيا على ما ذكر القرآن وما جاءت به السنة، وما رأى الناس من الوقائع من غير تهويلٍ؛ لأننا نعرف الوقائع إما بإخبار القرآن والسنة وإما بالوقائع، كيف يكتشف الطب؟ من خلال التجربة ومن خلال المشاهدة والمراقبة والمتابعة والخبرة، ولكن لا يقع شيءٌ من أحاد هذا إلا بإذن الله، فيريد الله عز وجل أن يطمئننا، ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فلا يقع الضرر بالسحر إلا بإذن الله عز وجل في أصل وجوده ليس خروجاً عن الأمر الإلهي، الله عز وجل خلقه وهو من السنة التي خلقها، وهذا دال على أن الله عز وجل خلق السحر، ثم لا يقع أحاد هذا السحر إلا بإذن خاصٍ فيها، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وهذا دليلٌ أيها الإخوة الأحبة على أن الإذن الإلهي على الإذن القدري، فالإذن الإلهي يقع على ما هو معصية ويقع عما هو طاعة، وهذا ردٌ على من زعم من المعتزلة في هذه الآية، أنه لا يقع شيء من الشر إلا خلاف الإرادة الإلهية الكونية، زعمت المعتزلة بأن المعاصي لا تقع بإذن الله، في ذلك رد عليهم ومن ذلك هذه الآية ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، هذا الضرر وهو معصية لم يقع إلا بإذن الله، المقصود به إذن الله الكوني وليس الشرعي.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾، أي هؤلاء الذين يطلبون تعلم السحر من الملكين، يتعلمون ما يضرهم وهذا ضررٌ لهم، فمن ضرره يكفي أنه شرك، لا يتعلمه المرء حتى يشرك، ولا يمكن أن يقوم به خير، ولذلك لا يوجد في السحر خير، ومن هنا نؤكد ما قلناه في الدرس الفائت بأنه لا يجوز استخدام السحر لفك السحر لأنه ضرر، وهو كحال الخمر عندما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن

الاستشفاء بالخمر فقال صلى الله عليه وسلم: (إنها داءٌ وليست دواء)، أي هذه الخمر ليس دواء بل هي داء، وهذا رد على من يزعم بأنه يمكن استخدام النجاسات كالخمر المحرم في إزالة ضررٍ أكبر منه، قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾، الله عز وجل نفى النفع، لا يقع بالسحر النفع أبدًا، وكيف يقع من الكفر الخير!!

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾، أي هؤلاء القوم لم يقع منهم هذا الفعل بجهالة وهذا تأكيدٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، هذا لا يقع بجهالةٍ منهم، هذا يقع بعلمٍ منهم، ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾، أي لمن فعل هذا الفعل وتلبس به أنه ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، الله عز وجل يذكر لنا حال هذا الفعل في الدنيا، وأنه يضرهم ولا ينفعهم وأنه كذا وكذا وأنه يفرق بين المرء وزوجه يعني فساد، ولكن كذلك هنا ينقلنا إلى حكمه وحاله في الآخرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، وقوله تعلى: ﴿مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠)﴾، مطلقة دل على أنه ليس في الآخرة نصيبٌ من الخير، لن يصيب هذا الذي يقع في هذه المعصية نصيباً من الخير في الآخرة، قوله تعالى: ﴿مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠)﴾، فهذه مطلقة، فدلت على نفيه جميع أجزائها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾، أي هؤلاء اليهود أو هؤلاء الذين يتعلمون السحر، ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي ليس له في الآخرة نصيب، فدل على أنه خالد في جهنم خالداً فيها أبدا.

قال تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾ [البقرة: ١٠٢]، الله يبيّن مع علمهم بكل هذا إلا أنهم جهلة بمقدار ما سيلاقون، هذا من أحد معانيها أنهم جهلة بما سيلاقون يوم القيامة، جهلة بمقدار ما سيعذبون به، اليهود على قاعدة قول: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، هذه قواعدهم، فالله عز وجل ينفيها، ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا﴾، ولبئس تقابلها ولا نعمة، ولا بئس لا تقال إلا على ما هو شر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾، أي ما أرادوه لأنفسهم من الخير فلم يصيبوا شيئاً، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾ [البقرة: ١٠٣]، الطريقة القرآنية واضحة وبينة في هذا الباب أنها لا تبيّن الخير دون أن تبيّن الشر، ولا تبيّن

الشر دون أن تبيّن الخير، هذه قضية تقدمت في ذكرها لما ذكر الله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [البقرة: ٦٢] لما تكلمنا عنها، فلما ذكر الله عز وجل حال اليهود وما هم فيه، لم يقطع بأن جميعهم على هذه الحال بل هناك ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [البقرة: ٦٢]، بعد أن بيّن حال اليهود، القرآن لا يقطع ذكر الخير حتى لا يقع اليأس في القلوب عند ذكر الشر.

فانظروا في سورة المعارج ماذا قال الله عز وجل: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)﴾ [البروج: ٤-٩]، بعد ذلك فتح باب التوبة، مع ما فعلوا فتح باب التوبة ولم يغلقها عليهم، وهنا سبحانه وتعالى يفتح باب التوبة في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [البقرة: ١٠٣]، فجعل كل أفاعيلهم في ترك ما ذكروا، واتباع ما ذكر سبحانه وتعالى من الكفر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، فدل على أن هذا كفرٌ بالله وتركٌ للتقوى.

قال تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾، والمثوبة هي العودة، ثاب عاد، ويؤخذ منه الثوب لأسباب، بعض أهل العلم قال: سمي الثوب ثوباً لأنه يطوى، وسميت الكعبة ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، لماذا مثابة؟ لأن الناس يعودون إليها مرةً بعد مرة، يثوبون إليه يذهبون عنها ويعودون إليها ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾، وسمي الثوب ثوبًا، قالوا: إما لأنه يطوى فكل طبقة توضع فوق طبقة، وقال بعضهم: لأنه يعادي لبسه، لأنه مرةً بعد المرة تأتي إليه فتثوب إليه وتعود إليه فسمي ثوباً، سمي هذا اللباس ثوباً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، أي لأعطاهم، ثاب يعني عادة، فلما أنت تأتي للمرء بخير، ما هو المقابل؟ يثوب يعود عليك بما فعلت من الخير بالخير، وإذا أتيت بالشر فيثوب أي يعود عليك الشر بالشر، ولذلك سمي العطاء الإلهي ثواباً، لماذا؟ لأنه إعادة لما تفعله، أنت تفعل الخير فيثوب إليك الخير أي يعود إليك من خلال فعله.

فقال تعالى: رولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة}، لكان جواب والعودة على فعلك، لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، ولكن هؤلاء، قال تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ١٠٣]، وأطلاقها يدل على اتساعها، فقال تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ ولم يقل الخير، فدل على أنه خيرٌ

عظيم لم يقيد، وهذا عطاء الله عز وجل قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾، تأكيداً لما تقدم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾ [البقرة: ١٠٤]، أقول قولي هذا واستغفر الله وإن شاء الله نتابع معكم في الدرس القادم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والسبعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الخامس والسبعون من دروس التفسير، وما زلنا مع سورة «البقرة»، ومع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾ [البقرة: ١٠٣-١٠٦].

تقدم الحديث عن موضوع اليهود مع السحر وأنهم اتخذوا الشرك والسحر سبيلاً في تعاملهم مع حقائق هذه الدنيا، وسمى الله عز وجل كل ما خالفه ضلالة وكلما نقض ما أتى به شركاً وكفرًا، فبعد أن تقدم هذا الذكر ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾، بعض أهل العلم أشار إلى أن هذا الآية هي إشارة للآيات القرآنية التي فيها العطاء الإلهي في التعامل مع السحر، فيها إشارة لذلك، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، لما يحصل لهم من الخير في التعامل مع آيات الله عز وجل في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، جعل العلم هو المؤدي إلى العمل هو الذي به يتم اتباع الحق والصرف عن الباطل.

فبعد ذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾ [البقرة: ١٠٤]، هنا فائدة في مناسبة هذه الآية لما قبلها، نبه عليه الطاهر بن عاشور رحمة الله عليه في «التحرير والتنوير»، وهي فائدة جليلة، ما هو الرابط بين هذه الآية وما قبلها من السحر؟ علينا أن

نتفكر، وهذه من مفردات كلام الطاهر، قال: إن السبب لأن السحر فيه تمويه على النظر، وبالتالي تمويه على العقل، وهنا أريد أن أنبه في موضوع السحر أنه من ضمن أحكام الله عز وجل على عباده بعدم التزوير في الحقائق، أي الله عز وجل أمرنا ألا نغير الخلقة إبقاءً لها على ما فطر الله عز وجل، علامة أن ما خلق الله عز وجل هو الحق، وأن ما خلق الله عز وجل هو الجمال، أي تغيير للخلقة الإلهية من جهة الفعل فيها أو من جهة النظر إليها ممنوعٌ شرعاً، أما الأول فهو تغيير لخلقة الله عز وجل، فأمر الشارع بإبقاء الخلقة على ما هي عليه، وكان من سبيل الشيطان ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]، فأمر الشارع بإثبات الوجود على ما هو عليه لأنه تمام الوجود، ولأنه تمام الخلقة.

لو قال قائل: فهناك أمور أمر الشارع بتغييرها، وبل هناك أمور الناس يفعلون بها على جهة التحسين لحياتهم ومنها الأطعمة، يعني الطعام أنت تأخذه فلا تأكله على ما هو عليه، اللحم إذا أخذته على ما هو عليه وأكلته أضرك، فأنت تغيره من أجل أن تأكله ويكون نافعاً لك في الأكل، وكذلك أمرنا الشارع من الأمور التي تؤدي إلى تحسين الخلقة منها حف الشارب، ومنها نتف الإبط ومنها حلق العانة وما شابه ذلك، فهذا كما نراه أنه تحسين للخلقة، الجواب على هذا بأن هذه الأمور التي نراها أولاً في موضوع الشارب وموضوع العانة والإبط، هذه أمورٌ طارئة وليست أصلية، أي تزيد، فالشارب إذا زاد فهو أمرًا طارئ عن الخلقة، وجعله الله عز وجل علاماتٍ لأمور كما جعل العانة علامات البلوغ إن فات ما هو أولى منها من الاحتلام، وكذلك أن يخرج الشارب وأن تخرج اللحية، وهكذا جعلها علامات ولكن هي في أصل خلقتها هذه الأمور في أصل خلقة الإنسان غير موجودة، فلذلك هي أمورٌ طارئة، هذا أمر واحد.

الأمر الآخر فيما يتعلق بالأطعمة أن هناك أمور أصل خلقتها تقوم على حال، فإذا حصل الانتفاع بها لابد من تغير حالها، اللحم الذي في الحيوان والدابة لا يتم نفعه إلا ما هو عليه من أصل الخلقة، ولكن ليكون نافعاً في شيءٍ آخر، ليس لما خلق له ابتداءً، فإنه يتم به التغيير، أي اللحم وضع في الدابة من أجل سُنتها من أجل حركتها من أجل حياتها، فلذلك فيه عوامل ما يحقق هذا المقصد الأول، فإذا تم تغيير المقصد فيه تغيرت الخلقة، وهذا غير حادثٍ فيما أمر الله عز وجل بإبقائه.

نتف الحاجب ما هو الفائدة منه، وهو أصل الخلقة هكذا أصل خلقته، فإذا طال طولاً فاحشاً جاز قصه، وورد عن الإمام أحمد أنه كان يأخذ من حاجبه إذا طال، يقرضه بالمقراض ورد هذا من مسائل العلماء له، فإذا طال طولاً فاحشاً وأما أصل الخلقة فينبغي تركها على ما هي عليه، إلا ما كانت الخلقة عند كثير من أهل العلم على غير أصلها مثل بروز أصبع سادس، فهذا جاز بعض العلماء قصه، وإن كان بعض العلماء لم يجوز إزالته كالطبري، الإمام الطبري لم يجز إزالته، هناك بعض العلماء قال: لا، هذا زائدٌ على أصل الخلقة، التي مفطور عليها، مثل خروج اللحية الكبيرة للمرأة، الإمام الطبري لا يجيزها، يقول هكذا هي أصل الخلقة، الكثير من العلماء كمحمد بن الحسن الشيباني فيما نص عنه أنه يجيز ذلك؛ لأنه ليس هو أصل الخلقة هذا أمرٌ زائد.

فالقصد: أن الأشياء في أصل خلقتها تبقى على ما هي عليه فإذا تغيرت مقاصدها من أجل منافع شرعية مقبولة يجوز دخول عليها الطارئ، ومع ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم، انظر النبي صلى الله عليه وسلم رأى أن لا تؤبر النخل، إبقاءً لها على أصل خلقتها على فطرتها، فلم تفلح فقال صلى الله عليه وسلم: (رأيٌ رأيته، وأنتم أعلم بأمور دنياكم)، فدل على أن هذا الشيء ليس له تعلق بأمر الشارع، وإنما تتغير الأشياء لتحقيق منفعتها ومقاصدها بحسبه، فإذا كان المقصد يضاد مقصد الله عز وجل في الوجود منع، إذا كان الشيء لا يتحقق إلا بالصنعة فيه، لا تتحقق منافعه الشرعية والتي أجازها الشارع، إذا كانت الصنعة تحقق المقصد الذي أجازه الشارع أجزنا الصنعة، لكن صِنعة الجمال هي منافسةٌ كما في هذا لأمر الله، لخلق الله، كأنه لم يعجبك الجمال الذي خلقك الله عز وجل به، وهذا بابٌ يؤدي إلى التنافس، وهذا لا بأس أن توسع فيه قليلاً، انظر الآن دخول مقاييس الجمال وكيف تتبدل والناس يتلاعبون بالبشر على هذا المعنى، من تغير مزاج الجمال، لماذا؟ أنت تريد أن تغيره طلباً للجمال، فهذا اعتراضٌ على خلقة الله عز وجل، من هنا منعه الشارع، أما ما جاز تحوله من أجل مقاصد للبشر كالأطعمة كالأبنية تأخذ التراب فيصنع منه شيء لمقاصد فهذا لا بأس به.

القصد من ذلك: أن الشارع منع تغيير حقائق الأشياء، ومن جهة ما هي عليه من حقائق ومن جهة كذلك فهم العقل لها، ومن هنا منع الشارع الخمر، والسحر أشبه بالخمر، لأن الخمر يُذهب العقل ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، الرجل لا يدري ما يقول، وينظر للأشياء فلا يبصرها على حقيقتها، إذا

شرب الخمر ربما زنا بمحارمه، ربما قتل معصوم الدم، وكذلك السحر يؤدي إلى تغيير الحقائق في الأشياء، من هنا كان محرماً على ما علم من زيادة بأنه لا يمكن تعلمه والدخول فيه عملاً إلا بالكفر.

وهنا نقطة في الحقيقة لابد من العودة إليها وجد البعض لا يفهم معناها، لأن السحر علم، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فالسحر علم، وهو علم مذموم، بعض الناس يقول: هل يجوز تعلم السحر؟ هذه نقطة أنا ذكرتها ولكن ننبه عليها هنا، فرق بين أن تعلمه ليعمل وفرق أن تعلمه بأنه لا يمكن حصول هذا إلا بهذا الطريق، لما الملكان يُعلمان الرجل طالب السحر يقولا: لا تفعل فإنك لا يمكن أن تدخل باب السحر لتكون متقناً له ساحراً حتى تكفر، فربما يسأل كيف الكفر؟ يقولا له: تفعل كذا وكذا هذا لا يحصل به الكفر، هذا العلم لا يحصل به الكفر، وهنا علينا أن نفرق بين نعلم ما هو السحر للناس، وبين أن نعلمه ليدخل فيه، هذا فرق بينهما.

فإذن الشارع كما أنه أمرنا ألا نغير الأشياء لئلا نفسدها، ولذلك لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير منار الأرض، لا يجوز لأنه يؤدي إلى المفاسد يؤدي إلى المظالم، ولا يجوز للناس أن يسموا الشرق غرب والغرب شرق لأنه يؤدي إلى تغيير الأحكام الشرعية، لا يجوز أن نسمي الفجر بغير اسمه لأن هذه المنارات الكونية جعلها الله عز وجل علائم لأحكامٍ شرعية، فتغيير هذه المنارات الكونية يؤدي إلى تغيير الحقائق الشرعية، فمنع الشارع ذلك، فهذا ما تقدم من أمر السحر وأطلنا فيه كثيراً.

وقال الطاهر ابن عاشور: فلما كان السحر تغييراً من باب التغيير أنه يغير، فجاء الشارع ليبيّن وجوب طاعة المؤمن في عدم تغيير الألفاظ عن معانيها الصحيحة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾، واضحة المناسبة؟ جميلة ورائعة، أن هذا من التغيير، اللفظ يكون لمعنى فيستخدمه الآخر لمعنى آخر ليس هو ما استقر عليه المصطلح بين الناس، هذا واحد.

الشيء الثاني المهم في هذا الباب: أننا نرى أن ﴿رَاعِنَا﴾ هي في المبنى والمعنى واحد لكلمة ﴿انْظُرْنَا﴾، ﴿رَاعِنَا﴾ يعني انتظرنا، لا تعجل علينا، من الرعاية، والرعاية أخذت من الراعي الذي يرعى الغنم والذي يرعى شؤون الناس، وكما في الحديث (كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِه)، أي يرعى الشيء ويعتني به ليقوم بحاجاته ومقاصده، يقوم على حاجاته فيراعيه فيقول: راعنا يعني انتظرنا لنؤدي الأمر على ما تحب ولا

تستعجل علينا فإن الاستعجال يؤدي إلى المشقة، وهي نفس كلمة ﴿انْظُرْنَا﴾ يعني راعنا انظرنا، ففي معناها واحد وفي مبناها واحد، حتى انظر الاختيار إلى أن الشارع اختار الكلمة التي تناسبها في المعنى بل كذلك تناسبها في اللفظ وفي مبنى في الحروف حتى لا تزد ولا تنقص، ليدل لنا الشارع أن العبرة ليس بما عليه أصل الكلمات، ولكن العبرة بما يستخدمها مستخدموها.

ومن هنا يأتي دور ما يسمى بالمصطلحات، فلا يجوز لأحد أن يبحث عن الأشياء باعتبار أصلها الوضعي وأصلها اللغوي، ولكن ينبغي أن يتعامل معه باللفظ الذي يتعامل به، ومن هنا جاءت قضية العرف في الشريعة، ليس العرف فقط في الأحكام ولكن العرف في الألفاظ، هذا المصطلحات العرفية المصطلحات الوضعية التي تعمل بالناس، سواء عرف عام أو عرف خاص فيجب اعتباره عند القضاء، فيقبل منه ما كان دال على معنًا صحيح، ويرفض منه ما كان دال على معنًا باطل، فاليهود كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ كلمة قبيحةٌ سب، كانوا يسبونه في الباطن فلا يستطيعون سبه في الظاهر، فلما سمعوا الصحابة رضي الله عنهم يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: «راعنا»، قالوا: راعنا، فأجازوا لأنفسهم السب هم يريدون السب في لغتهم، والصحابة رضي الله عنهم لا يعلمون إلا المعنى الصحيح في كلمتهم العربية، إلا بعض الصحابة رضي الله عنهم.

وقد روي عن سعد بن عبادة علم فكان من أحبار اليهود ويعرف لغتهم العبرانية، فلما سمعهم هددهم إن فعلتموها سأقتلكم، كما ذكر ذلك الطبري في تفسيره، وأما عامة الصحابة رضي الله عنهم فتعاملوا معها أنها ألفاظ صحيحة، فحتى نزل قوله تعالى فعلموا أن اليهود يريدون بكلمة راعنا السب للنبي صلى الله عليه وسلم، فإذن يجب تعامل الناس من خلال مصطلحات.

مثلاً: لو قال رجل لرجل كبير: يا ولد، فيعاب عليه، لأن كلمة ولد إنما تقال للصغير، فإذا قيلت للكبير عدت تحقيراً، فيقول: لماذا تحتقرني؟ يقول: أنا لا أحتقرك كل مولودٍ ولد، فهذا لا يجوز وهكذا.

فالألفاظ يجب أن ينظر إليها باعتبار مقاصد أصحابها، ومن هنا لا يبحث عن أصل وضعها اللغوي ولكن ينبغي النظر إلى ما استقرت عليه، ومن هنا يأتي دور العرف في هذه المصطلحات والتحاكم إليها، واعتبار أن الرجل يمدح أو يذم، باعتبار لغته وباعتبار كلامه وباعتبار ما جرى عليه الناس وما يفهمونه،

وكذلك هنا لابد من النظر إلى أن اليهود أرادوا السب في أنفسهم مع عدم علم الآخرين بها، فلذلك لا يقول: الناس لا يعرفون معناها، نعرفها من معنى كلامك أنت في لغتك، يعني اليهودي يقولها ليسمع اليهود، والناس الآخرون ومن الصحابة رضي الله عنهم يسمعونها فلا يعدونها سباً، فيقول: أنا قلتها على معنى ما يسمعون، لا، نقول: نعاملك ونحاكمك على معنى ما تقول لا ما يفهم الناس، لأن هذا من التلاعب من الخداع، فلذلك نهى الشارع أن يقول الصحابة رضي الله عنهم للنبي صلى الله عليه وسلم راعنا لأنها سب.

العلماء قالوا هل هذا الحكم قد انتهى؟ قالوا: نعم، هذا الحكم قد انتهى، وإنما هو حكمٌ خاصٌ في زمنٍ معين، وهذا يشير إلى ما يأتي من قضية ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، إلا أن هذا يقع فيه النسخ، لأنه جارٍ مجرى العرف، والعرف قد يتغير، العرف قد تطرأ عليه الأحكام ويطرأ عليه التغير فتتغير الأحكام بحسب الحسن والقبح الذي عليه الناس، ويتغير من مكان إلى مكان، ولكنه تأديب من الله عز وجل للناس أن لا يستخدموا الكلمات إلا ما كانت حقيقة.

ومن هنا كذلك يأتي بابٌ من الأبواب التي استنبطها العلماء في هذا الباب وهو سد الذرائع، سد الذرائع يعني عند العلماء له كلامٌ أصولي لكنه في المعنى العام مجمعٌ عليه، في المعنى العام ما من عالمٍ إلا أخذ به ولكن على المعنى الأصولي، والتفصيل هناك فرق مثلاً الشافعي رحمه الله لا يقول بسد الذرائع، وأوسع الأئمة في أخذ باب المصلحة وسد الذرائع هو الإمام مالك رحمه الله، كما يقول الأصوليون، قالوا: «وهذا من تمام فقهه»، ولكن على الجملة ما من عالمٍ إلا وينهى عن بابٍ من الأبواب التي بسببها سد الذرائع، بمعنى ماذا؟ بمعنى أن تكون الكلمة صحيحة تؤدي إلى فعلس باطل، وهذا كلمة راعنا صحيحة في لغة العرب لكنها بابٌ للسب فمنع الشارع منها، فلذلك هذا بابٌ من أبواب سد الذرائع.

الأمر الآخر هو قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾، طبعاً الأمر هنا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾، الأمر هنا لا يفيد الوجوب، لماذا؟ لأنه إقامة بدل، ومعروف أن البدل يأخذ حكم المبدل منه، فالناس عندما يقولون: راعنا، يقولون على جهة الاختيار والحاجة فهي مباحة، فحرمت فما جاء بعدها يكون حكمه حكم ما ذهب، الأول أن الناس ينادوا على بعضهم أو يهونوا بعضهم على بعض يقولوا: راعنا، هذا مباح، فلما حُرمت فجاء بدلٌ منها ما أصل حكمها، الأولى؟ الإباحة، فيبقى الحكم الذي أتى

على الإباحة، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا﴾، هذا من صوارف الأمر إلى الإباحة في بعض وجوهه من الوجوب إلى الإباحة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، وهذا قضية الأدب في الألفاظ، ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، هذا أدب في التعامل مع الكبار، وأدب كذلك في عدم الدخول في سبيل المجرمين ولو كان القليل، يعني الصحابة رضي الله عنهم عندما يتعاملون مع كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ يتعاملون بلغتهم، بلغتهم التي ليس فيها إلا المعنى اللغوي، اليهود فقط الذين يتعاملون مع هذا اللفظ على معنى الذم، انظر حين يخاطبوا الصحابة رضي الله عنهم النبي صلى الله عليه وسلم يخاطبونه بالمعنى اللغوي، ﴿انْظُرْنَا﴾، ولكن لأن هذه الكلمة يفهم منها عند الآخرين معنى الذم منعوا منها، مع أنها بينهم ليس فيها شيء، ومن هنا يجب على الناس أن يراعوا نظر البيئة التي هم فيها، ولا يكفي للمرء أن يكون هو يفهم هذا الأمر على وجهه بل لابد من مراعاة فهم الأخرين الحاضرين لهذا الكلام عند الحديث، هذا من الآداب التي ينبغي أن يفهمها الناس وأن يقيموا الشأن فيها، يقول: لا، هذه في لغتنا كذا، نقول: نعم في لغتك، ولكن هناك ثمة حضور يفهمونها على غير وجهها فلا تقولها، وهذا أدبٌ من أدب الألفاظ، لا يكفي أن تكون الكلمة عند مجموعة من الناس على معنى حسن، لابد من مراعاة من يسمعها من بقية الناس، وهذا من الأدب، وهذه درجةٌ راقية في قضية الألفاظ ومراعاتها واختيار أحسنها.

فالألفاظ وعاء للمعاني وهي ناقلةٌ للمشاعر، الكلمات ليست فقط تنقل المعنى ولكنها تنقل المشاعر، عندما يستخدم المرء الكلمة يجب أن يختار أحسن الكلمات لتوصل مشاعره، ومن هنا فإذا اتسعت مدارك المرء واتسعت مشاعر الناس كما يقول ابن تيمية رحمه الله وله كلمة عظيمة في هذا: «كلما اتسعت مدارك المرء اتسعت ألفاظه»، المدارك ليس المقصود فيها فقط العلمية المقصود فيها كذلك المشاعر، «كلما اتسعت مشاعر المرء كلما اتسعت ألفاظه»، وهذا من مهمات هذا القرآن بأن يرفع الذائقة اللغوية في الحديث بين الناس، أن يرفعها، أن يستخدم المرء في التعبير عن مشاعره ما يقارب.

والناس يظنون –وهذا من الأخطاء– يظنون أن الكلمات أكبر من المشاعر، ولذلك ينتشر بينهم قولهم: «أحسن الشعر أكذبه»، بمعنى أن الشعر يبالغ، ويظنون أن قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)﴾

[الشعراء: ٢٢٦]، من هذا المعنى، أغلب المرات الكلمات أعجز من المشاعر والمعاني، ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف سدرة المنتهى، قال: (ما لا يستطيع أحدٌ وصفها)، لما وصل الى سدرة المنتهى فرآها ورأى ما فيها من التهاويل ومن النور ومن العظمة، بيّن أن الناس يعجزون عن وصفها، ولما يقول ربنا عز وجل لنبينا صلى الله عليه وسلم: (يا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ) قبلها قال: (فيفتح الله عليه من المحامد ما لا يعرفه أحد)، أي لم يفتحه على أحدٍ قط قبله ولا بعده، ونحن لا نعرف، أبلغ الحمد أن نقول: «الحمد لله»، وما قاله الرجل: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه».

فإذن مرات حتى أمام الحقائق، فسدرة المنتهى ليست من عالم المشاعر، بل من عالم الحقائق والأشياء ومع ذلك لا تبلغ قدرة الكلمات على وصف هذه الشجرة، على ماذا يدل؟ يدل على أن الشعر هو عاجز عن الوصول إلى مدارك الحقائق ومدارك الأشخاص ومدارك الإنسان، لا يستطيع، لا يقدر أن يصف، الناس يعجزون عن أن يعبروا عن ألم أم يذبح ابنها في حجرها مثلاً، هم يعجزون، ماذا يقولون؟ ولذلك الحقائق أبلغ والمشاعر حقائق للذكر، المشاعر والمعاني القلبية حقائق وليست أوهماً، الكلمات أعجز من أن تصف، فالحقائق الوجودية بمعانيها الكونية الظاهرة ومعانيها الباطنة المعنوية أعظم من الكلمات، أعظم بكثير.

القصد من ذلك: كل هذا في قوله تعالى يعلمنا أدب اللفظ، الشارع لا يعلمنا فقط المشاعر الصحيحة في عدم الحسد عدم الغل عدم الحقد، لا يعلمنا فقط عدم الكذب، بل يأمرنا بهذا، ولكن كذلك يعلمنا في كيفية رقي الكلمة التي تصف الحقائق، رقي الكلمة، ورقي الكلمة ومعرفة أثر هذه الكلمة على النفوس، ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، هذه كلمة تعطي أجواء مع الجلوس تعطي أجواء غير مقبولة إيمانياً، غير مقبولة، فلذلك عليك إن تراعي الكلمة التي تريد أن تصنعها، الصحابي لما يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: انظرنا أو راعنا يريد بها الحق، لكنها تعطي عند الآخرين أجواء غير مقبولة فنهى الشارع عنها، كذلك أنت تريد أن توصل كلمة تهيئ بها الأجواء لقبول صلح خصومة بين الناس عليك أن تختار هذه الكلمات التي لا تثير الشحناء، لا تأتي إلى كلمات فتزيد الخصومة خصومة، حتى لو كانت مشاعرك صحيحة ومعانيك القلبية صحيحة عليك أن تختار الكلمات هذا رقي الكلمة، هذا من آداب الألفاظ، هذه مسألةٌ غير رقي المعاني.

مثلاً: احترام الأبوين تقديرهما، بر الوالدين، هذه معاني قلبية، منها ما هو سلوكي يترجم سلوكياً كتقبيل اليد، كاستجابة لأمره، كإعطائه المال والهدية، ومنها كذلك أن تقول له الكلمة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء: ٢٣]، كيف تخاطبه؟ كيف تقول له؟ عليك أن تختار الكلمات التي في ظروف الناس وفي أعراف أنها الجميلة وأنها الطيبة، فبعض الناس ربما نقول له: يا حجي يعتبره تحقير، بعض الناس لا، لا يرونها شيئاً بل يرونها من قبيل الاحترام، فعليك أن تختار ما تعرف من بيئتك، فأمرنا الله عز وجل بعدم متابعة اليهود في هذا الطعن.

وهذا من الجانب الآخر يدلنا على حقارة اليهود وسفالتهم، يعني كانوا يريدون فقط أي شيءٍ ليقتنصوا إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، وأي شيءٍ لإظهار عداوتهم، أي شيء، حتى لو كلمة وذلك لشدة بغضهم، ولكن كذلك يدل على حقارتهم، وعلى أنهم كانوا في كل وقتٍ مقموعين، كانوا مقموعين فلم يستطيعوا الإظهار، فيذهبوا إلى الخفاء، والله عز وجل يكشفهم ويبين للصحابة رضي الله عنهم طريق التعامل مع هذا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، خطابٌ للمؤمنين، ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾، وأما قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ بعد أن تقول أنت هذه الكلمة عليك أن تطيع أمره، وأنت تقول له: انظرني، فإذا أمرك يجب أن تستجيب، أنت عليك أن تقول، ثم بيّن موقفك مع حالتك مع النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ فإما أن تأتي بمعنى اسمعوا هذا الأمر جيداً وانتبهوا له وعوه، وإما بعد أن تقولوا: راعنا فعليكم أن تسمعوا أمره لأنه لا يُعنتكم، لأن هذا النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة: ١٢٨]، أي يعز عليه أن يتُعبكم، وأن يعنتكم أن يحملكم ما يتعبكم، هذا النبي رؤوف بكم، رؤوف رحيم، فإذا أمركم بأمر فإنما هو أمرٌ من مصلحتكم.

والمرء قد يقول: أنا أعرف مصلحتي، أقول: أنت طفوليٌ في الوجود، أنت طفلٌ في الوجود، مع أمر الله عز وجل أنت طفل، مع النبي صلى الله عليه وسلم أنت طفل لا تعرف مصلحتك، وكم من مرة مع الصحابة رضي الله عنهم وهم أعظم الناس إيماناً جهلوا رحمة الله عليهم، كما هو شأن الذهاب ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ

غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، ففي صلح الحديبية جهلوا، رحمة الله عليهم، والكثير وقع منهم كما لما عابوا على عائشة رضي الله عنها في غزوة ذات الرقاع في قضية التيمم، وقال أُبي: ما هذه بأول بركاتكم يا بيت أبي بكر، هم تعبوا ولكن كان فيها الرحمة، ولذلك أنت تقول: راعنا، يقول لك الشارع: الحق، كما في غزوته تبوك، هم يريدون النخيل يريدون الثمار يقول: الحق هناك خير أفضل، هناك أعظم من ذلك الحق وهكذا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾، وتنبيه في هذا أن المخالفة في هذا المعنى أنه إذا خالفتم فهذا حكمكم في قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أو أنه تنبيهٍ لأن يجتنب المؤمن مقام الكافر الذي سيعذب وهو قول اليهود ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾، انتبه إلى المقامات، اليهود تعلموا الألفاظ التي فيها السحر، وهي كفرٌ وشرك، مقام الكافر في عداوته لله عز وجل وإقامته المعصية في أعلى درجات الكفر، يقول الكفر والمؤمن يرقى إلى أن يراعي ألفاظه على هذا المعنى، انظر هذا المفارقة، الله عز وجل يبيّن حال الذين تركوا اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾، لأنهم أعرضوا ونبذوه وراء ظهورهم، نبذوا الحق فاتبعوا الشياطين فكانت أقولهم من أعلى درجات الفسق والفجور وهو الكفر والشرك، ثم جاء هذا لئلا يقع في نفس المؤمن أنا تركت هذا، ولم أصل للسحر الحمد لله، يقول الشارع: لا يطلب منك أن تترك السحر، لا يطلب منك فقط أن تخرج من الكفر إلى الإيمان ولكن يطلب منك أن تراعي مقامات الألفاظ لهذه الدرجة من الرقي الإيماني.

فلما نهى الرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكشف المرء عورته إلا على زوجه أو ما ملكت يمينه، قال: يكون الرجل عارياً، هذا مقام آخر، أولاً: هو حكم، وقد يكون الرجل عارياً، قال: (فالله أحق أن يستحيا منه)، هذه مقامات، هذه ليست مقامات الأحكام، هذه مقامات الحياء، ليس مقام الحكم بالحلال والحرام هذا مقام الحياء ومراقبة الله عز وجل (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فأنه يراك)، هذه المقامات العظيمة، فالله عز وجل هنا ينصب مقامات الأولياء، ويقول جل في علاه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، لا تتحدثوا عن قضية مقامات هجر السحر فقط، ولكن انظروا إلى مقاماتكم أنتم

﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾، راعوا هذه الألفاظ وهذه الدقة في هذا الباب، ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾.

ثم سبحانه وتعالى يبيّن لنا حال اليهود والمشركين من العطاء الإلهي، يعني لو أراد أحد أن يقول: ما هي المناسبة؟ المناسبة أن الله عز وجل رفع قدرك وأن الله عز وجل أقامك على مقام الإحسان وعلى مقام الذوق والأدب، يعني أنت تجاوزت مقام أن تدخل في الحقائق الإيمانية في أولها وبدايتها التي تنقلك من الكفر للإسلام، وأن تأخذ فقط بالشرائع على جهة الامتثال الأول، لا، أقامك الشارع مقامات عظيمة، وهذه المقامات العظيمة يحسدك عليها الخصوم، يعرفونها.

والله يا إخوة هذا الموضوع وهو حسد الكافرين للمؤمنين، الناس اليوم يظنون أن الغرب يحتقر ديننا، لما تسمع الآن مؤسسات حقوق الإنسان يتكلمون عن عدم احترام الإسلام للمرأة، يجيز الزواج عليها بأربع، لا يعطيها في المهر ما يعادل، يجلسها في البيت ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وهكذا، وهكذا يبدأ على أن بعض الناس من جهالاتهم بنفسية الغرب وواقعهم يظن أن الغرب يفعل هذا لأنه يحتقر هذه الأحكام، وهذا غير صحيح، والله إن الغرب أعظم ما يقع في قلبه من كل هذا الدين أنه يحسد هذه الأمة على هذا الدين وهذه الأحكام، يحسدنا، أنت لو جلست مع غربي وحدثته عن المرأة، لما كنت أحدثهم فقط عن وضع أمي مع أبي، وعن جدتي في البيت –هنا يقولوا: ستي– أنت أتعرف لما تقول له: ستي أو جدتي وأبناء وحفدة، وما معنى أن تدخل الجدة في البيت والكل يقبل يدها أو الكل يريد خدمتها والكل يريد أن يأخذ منها بسمة وهكذا، أتعرف ما تحدثه لكبار السن وتحدثه للناس؟ ينظرون كأننا مجانين!!

ولما نتحدث عن المرأة في البيت وأنها المتصرف في البيت وهي التي بعد ذلك يمكن تتعب في أول حياتها، بعدها هي كل شيء في البيت، الرجل يجلس هكذا كل شيء بيدها، هذا حال بيوت المسلمين في أغلبها، لما تتحدث عن قضية احترام الرجل والأبناء للأمهات، يصدموا يحسدونك!! يحسدوننا! فلا يظنن ظان بأن الغرب حين يعادي ديننا إنما يعاديه لأنه يحتقره لا والله، ولكن لأنه يحسدنا، الحسد، وهذا نعرفه في تعاملنا، فلو ذهبت للغرب ورأيتهم فهم يحسدوننا على هذا الدين لا يحبون، وأعظم ما يقهرهم ويملأ الغيظ قلوبهم أنهم يعلمون أننا نعتقد أنهم من أهل النار، يعني كل شيء يقبلون منك إلا أن تقول لهم: أنت في

جهنم، أنت اسمك كافر، أنت مشرك، أنت في جهنم خالدًا فيها أبدِا، هذه تقتلهم، هذه لا تبقي في رؤوسهم أي بقية من تفكر ونظر وعقل؛ أن تقول: أنت في جهنم بعد أن تموت لأنك لم تؤمن بالنبي أنت في جهنم، وبعضهم طبعاً وهم القلة القليلة الأفراد يسلم يخاف، والأكثرون يحقدون عليك، كما أنك تقول: أنت جاهل فيحقد عليك لأنك اتهمت بالجهل، أنت لا تتهمه بالجهل كذباً، إنما تتهمه على الحقيقة.

فبعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى ما أعطى المؤمنين من هذا المقام الذي هو فيه مقام الرفعة في الأدب مع الألفاظ، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾ [البقرة: ١٠٥]، هذا بيان أنهم لا يحبون العطاء الإلهي، وهذا ليس العطاء المتعلق بالنصرة والتأييد ولا بالكرامات الدنيوية وإنما متعلقٌ بالشرع، وأنا الآن تكلمت بما رأيت، ولكن على كل مؤمن لم يرى هذا أن يؤمن به، وهو قضية العطاء الإلهي بالتشريع، ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾، أي المقصود من تشريع، ويدل على أن هؤلاء لا يريدون أن ينزل عليكم من أي خير، ولو خير قليل، لا يحبون، والمشركون معروفون، واليهود يعتبرون هؤلاء العرب وهؤلاء المسلمين «غوييم» بهائم خلقوا لخدمتهم، والمشركون لأنهم يحسدون لأن الحسد في قلوبهم، وكلا الفريقين مبعثه في التعامل مع المؤمنين في هذا الباب هو الحسد وهو أعظم بابٍ يقتل فيه الرجل أخاه، فأول بابٍ حصل في الوجود في المعصية الحسد من إبليس لآدم ومن قابيل لهابيل.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَوَدُّ﴾ أي ما يريد، والود هو الحب، ﴿مَا يَوَدُّ﴾ أي لا يحب أحدهم ذلك، ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، والمقصود به أي كفروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ ممن خالفوا أمره، وأهل الكتاب فيهم المشرك الذي أشرك، وفيهم الكافر الذي لم يتبع بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وكل من لم يتبع النبي صلى الله عليه وسلم فهو كافرٌ ومشرك، قال تعالى: ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، انظر إلى هذا الجمع العظيم من الفضل الإلهي في تعامله مع المؤمنين، فقال تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، من خير أي قليل الخير، ولكن عظمته أنه خير والعظمة الأخرى أنه ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فهذه النسبة نسبة عظيمة، هم لا يريدون أي خير منكم ولكن عظمته مهما دق فإنه عظيمٌ لأنه من ربكم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ﴾ يعني من الأعلى إلى الأدنى، أي من السماء إلى الأرض، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وهذا تنبيهٌ على العطاء الإلهي لجميع الخلق في قوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ واختص هنا العطاء من ربكم أنتم لاختصاص الفضل لكم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، هناك العموم وهناك الخصوص، هناك ما هو عام وهو الذي يشمل الأغلب والأكثر وربما شمل الجميع، هناك خير من الله عز وجل يشمل جميع الخلق وهو أنه أوجدهم، من النعم العظيمة أنه أوجدهم، ومن النعم العظيمة بعد أن خلقهم أمدهم، أعطاهم، ما أعطاهم من أجساد جميلة وما أعطاهم من قوة في أجسادهم، وما أعطاهم من خيرات في هذه الدنيا سخر لهم ما في السماوات والأرض، فهذه رحمةٌ من الله عز وجل عمة جميع الخلق، وكذلك ما أعطاهم من عقول يميزون به بين مصلحتهم ومفسدتهم وهكذا، فالله عز وجل أعطى هذه النعم الكثيرة، وهذا كله من رحمة الله عز وجل فهو الرحمن الرحيم، وبعد ذلك المنان جل في علاه، وبعد ذلك الرؤوف وبعد ذلك سبحانه الحليم، فهذا عطاءه لجميع الخلق، ولكن هنا رحمةٌ مخصوصة والمقصود بها رحمة الهداية، وما بعد الهداية بعد أن هداهم للحق أعطاهم هدايات عظيمة، أعطاهم رحمات مخصوصة عظيمة، وهي الأجور على ذلك، النصر على أعدائهم، الشرائع التي تقربهم إلى الله عز وجل أكثر، أي بعد أن هداهم إلى الحق أعطاهم سبل الإمداد للعمل مع هذا الحق والوصول إلى ما أمر الله عز وجل به من الجنة عنده جل في علاه.

فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ﴾ [البقرة: ١٠٥]، بمعنى أنه هناك نِعم عامة لجميع الخلق، وهناك نِعم عامة لبعض الناس، وهناك نِعمٌ خاصة لبعض الناس، ونحن نقول بالنسبة لهذه النقطة ونكرر: بأن النِعم الإلهية لا تُعطى إلا لمستحقيها، وثانياً: يعطيها مع التكليف، هذان الأمران يجب على كل طالب علمٍ أن يتذكرهما عندما يرى نعمة الله عز وجل:

أولاً: أن هذه النعم لا تعطى إلا لمن يستحق، ولذلك النبوة ليست اجتهادًا وليست كسباً، النبوة عطاءٌ إلهي، وأعطاها لمن اختصه ومن اصطفاه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:

٧٥]، فإذن هو اصطفاء إلهي، هذا الاصطفاء مبنيٌ على الحكمة، ومبنيٌ على العلم، أنه يعلم أن هذا يستحق هذا العطاء، فإذا كان في دينه وإذا كان قد أتى به على الوجه الصحيح.

ثانيًا: وهو الذي لا ينتبه له الكثيرون وهو أن العطاء تكليف، لم يعطي الله عز وجل نعمةً لأحد إلا وقارنها بالتكليف يعني قرنها بالابتلاء، ما في نعمة، الآن النبوة أعظم نعمة أعطاها الله عز وجل وخص بها بعض الخلق دون بقية الخلق، هذه النعمة كم فيها من التكاليف، انظر إلى حال الأنبياء وجهادهم هل نتحمله نحن، هل يتحمله البشر في أحوالهم؟ انظر إلى عموم الناس الذين امتحنوا بعشر معشار ما امتحن به الأنبياء، كم ثبت منهم وكم سقط؟ والأنبياء هل كانوا يأخذون بالرخص؟ يعني هناك أناس علماء صالحون الله عز وجل أعطاهم؛ فاعتزلوا الناس وتركوهم على ما هم عليه وهربوا من الحكام، مثلاً: سفيان الثوري كان يهرب من الحكام، وهو من الصالحين والعلماء الأفذاذ، كانوا يهربون، هل هذا يليق في مقام موسى عليه السلام، يليق في مقام الأنبياء عليهم السلام، انظر إلى هذا التكليف أن الله عز وجل يعطيهم ويأمرهم بأن يخوضوا مع هذا الحق جهاداً ضد الأعداء، وأعظم الأعداء مع خلوهم من القدرة، انظر هذه العظمة وهذا الابتلاء، أعطى الله عز وجل موسى عليه السلام ما أعطاه وأذهبه إلى فرعون، هذا الطاغية الذي قال: أنا ربكم الأعلى، طاغية يذهب إليه.

الآن مساكين الناس فالعباد ربما يهربون من الشرطي يجتنبون شره، يعني أنا لا أريد أن أقول: يخضعون له، يهربون من شره، والله عز وجل يأمر موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون، الله عز وجل أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يأتي قريش في نواديها وفي أماكن تجمعها فيعلن لهم التوحيد، ويؤذى (وأذيت في الله ما لم يؤذ أحد)، درجة الإيذاء ما لم يؤذى أحد، فما أعطى الله عز وجل من الكرامات لأحاد الخلق إنما قرنها بالابتلاء.

تعال إلى غير النبوة والصلاح والتقوى، تعال إلى المال، الله عز وجل يبتليك به أعطاك إياه ليبتليك، وكلما زاد المال زاد التكليف ولذلك يوم القيامة يُسأل العبد عن ماله من أين كسبه؟ تكليف، هو أعطاه النعمة خصه بنعمة المال، من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟ فما من نعمةٍ تعطى للعبد إلا وقد حُمل من التكاليف معها، الله عز وجل يعطي المرء القرآن، كيف ينام عنه؟ ولذلك قال حذيفة رضي الله تعالى عنه

قال: «بئس حامل القرآن أنا؛ إن أوتيت من قبلي»، علم أن حمله القرآن يحمله تكاليف غيره، ولذلك عذاب العلماء يوم القيامة الذين يسكتون عن الحق غير عذاب العوام، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدور في النار كما يدور الحمار في الرحى وقد اندلعت أقتابه هذا من؟ هذا الذي كان يعظ الناس بالخير ولا يأتيه، ويعظ الناس بترك الشر ويأتيه، فالعطاء يتبعه تكاليف يتبعه سؤال أعظم، كذلك يُسأل يوم القيامة عن علمه ما عمل به؟ ولذلك الله عز وجل قال: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾.

ومن هنا فلو سأل سائل الله عز وجل أختص هذه الأمة من دون الأمم وكفى أن أعظم اختصاص أنها منسوبة لأعظم نبي وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فهل كلفت أكثر مما كلفت به الأمم السابقة؟ الجواب: نعم، هذه أمة كلفت بالجهاد، وجعلها إلى آخر الوجود، جعل لها أعداء يقومون بإيذائها، كلما كسلت سلط الله عز وجل عليها أعدائها، وكلفت من التكاليف ما لم تكلفه أممٌ سابقة، كلفت تكاليف عظيمة، وأعطاها الله عز وجل عطاءات عظيمة، ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)﴾ [القدر: ٣]، أعطاها، ولكن كُلفت بتكاليف أعظم مما كلفت به الأمم السابقة، فالله عز وجل أختصها بالعطاء واختصها بالتكليف كذلك، فهذا الاختصاص ضد العام الذي وقع على بقية الخلق.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾، فسمى عطاءه رحمة، وعلى هذا القياس فإن أوامر الله عز وجل رحمة، هذه نكررها ويجب أن نفهمها، ويجب أن نعيها، للأسف الناس يظنون أن كثرة التكليف هي مشقة ومتعبة، هذا الدين مُكلِّف، هو دين فيه التكاليف العظيمة، والأديان الأخرى ليس فيها شيء، ما وضعت التكاليف إلا رحمةً بك، الله عز وجل أمرك بأن لا تشرب الخمر، هذه رحمة من الله عز وجل، الله عز وجل أمرك أن تبر والديك، الله عز وجل أمرك بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنها سفينة، قال صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ القائِمِ علَى حُدُودِ اللَّهِ والواقِعِ فيها، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا علَى سَفِينَةٍ، فأصابَ بَعْضُهُمْ أعْلاها وبَعْضُهُمْ أسْفَلَها، فَكانَ الَّذِينَ في أسْفَلِها إذا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا علَى مَن فَوْقَهُمْ، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نَصِيبِنا خَرْقًا ولَمْ نُؤْذِ مَن فَوْقَنا، فإنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أرادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وإنْ أخَذُوا علَى أيْدِيهِمْ نَجَوْا، ونَجَوْا جَمِيعًا)، الله عز وجل أمرنا بالتكليف رحمةً بنا، لمقاصد الخلق في الدنيا ولمقاصد الخلق في الآخرة، ومقاصد الدنيا في حقيقتها مقاصدٌ أخروية، المقاصد الدنيوية التي أنت تتحصلها هي مقاصد أخروية، أنت حين لا تأتي إلا أهلك لك الأجر، وحين تبتعد عن الزنا فلك الأجر، فهو مقصد دنيوي ومقصد أخروي، وأنت

حين لا تقتل مقصد دنيوي، أنه لا يؤدي إلى الفساد والخصومات بين الناس ولا يؤدي إلى قتلك، مقصد دنيوي، وهو في الحقيقة كذلك، فكل مقاصد الدنيا هي مقاصد أخروية مع هذا الدين على شرط الإيماني والاحتساب.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف: ١٥٦]، هذه خاصة لهؤلاء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، هذا اختيارٌ إلهي، والمشيئة إياك أن يخطر على بالك أنها هكذا بلا تقديرٍ ولا حكمة، كلها مرتبطة بأسماء الله وصفاته، مرتبطة بعزته؛ فلا يسأل، مرتبطة بحكمته فإنها لها أسبابها وعللها وهكذا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾ [البقرة: ١٠٥]، هذا اسمٌ من أسماء الله عز وجل غفل عنه الكثيرون، هذا اسمٌ وهو ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، اسم من أسماء الله عز وجل تكرر في القرآن كثيراً، تكرر هنا في سورة «البقرة»، عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)﴾ [البقرة: ٢٤٣]، تكرر فضل الله، كذلك تكرر في سورة «آل عمران»، وتكرر في سورة «الجمعة» وتكرر في سورة «الحديد» مرتين، فتقريباً ورد أكثر من عشر مرات ذكر فضل الله أنه ﴿ذُو الْفَضْلِ﴾، و﴿ذُو﴾ أي أنه صاحب الفضل سبحانه وتعالى، وما هو الفضل؟ الفضل العطاء بغير استحقاق، رجلٌ يؤدي لرجلٍ أجرته هذا ليس فضل، رجلٌ يؤدي زكاة ماله هذا ليس فضل، رجلٌ يؤدي الدين الذي عليه ولا يزيد هذا ليس فضل هذا حق، فإذا أعطى فوق ذلك كان هذا فضل، لأن الفضل هو الزيادة، معنى الفضل الزيادة، ولذلك أخذت منه فضلة الطعام، أي البقية منه الزيادة، فإذا أعطى فوق ما يستحق عليه وما يلزمه كان فضل.

ولذلك انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ما الذي ناسبها؟ ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، فناسب اختصاص ربنا عز وجل برحمته أقواماً –المقصود به هذه الأمة– وتنبيهاً على حسدهم ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ليس بيدكم

وليس بيدهم، لو مقادير الله عز وجل أعطيت بيد الخلق؛ لجاع الناس، ما أطعم أحدهم أحد، لماذا؟ لبخلهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، لو أن المال بيد الناس لحبسوه عن بعضهم البعض بخلاً، فهذا الذي اختصه الله عز وجل يناسبه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، اختص فأعطى فضله لمن يستحق ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وكلها وردت ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾ [آل عمران: ١٥٢]، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)﴾ [البقرة: ١٠٥] فكلها وردت في هذه الصيغة إلا في مرة واحدة ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾ [آل عمران: ١٧٤]، من غير «ال» التعريف، قال تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾ [آل عمران: ١٧٤]، فلماذا؟ لأن كل الآيات فيها العطاء إلا هذه الآية فيها عدم العطاء ولكن فيها الفرار وعدم مساس الشر، ما أصابوا من عدوهم، ما انتصفوا منهم، ما أخذوا منهم لا غنائم ولا أصابوا منهم، فما الذي أصابوه؟ ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ انقلبوا، أي رجعوا من غير أن يمسسهم سوء، فقط في هذا الموطن، ولذلك لم يكن فيه عطاء، إنما كان فيه خروج من البلاء، ففرقٌ بينهما، لأن الحسنة لها قوتان، والعطاء الإلهي له قوتان، القوة الأولى أنها أخرجتك من الشر ما لم يعطك، كالحسنة، الحسنة فيها قوتان، أنك خرجت من السيئة ما لو تُحصل الحسنة، لأنها تكون السيئة، وثانياً: أنك تحصل الحسنة، فأنت عندما تنتصر أنت خرجت بنعمتين النعمة الأولى: أنك لم تهزم، النعمة الثانية: أنك حصلت النصر.

فكما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾ [الأنفال: ٢٩]، فإذن لما يذكر الله عز وجل عطاءه يذكر الفضل، ولكن لما جاء عدم ذكر العطاء وإنما ذكر الهروب من البلاء، اقتصر على قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وأعجب لمن جمع أسماء الله الحسنى وجعل الله ذو الجلال والإكرام ذو ونسبه ولم يجعل الله ذو الفضل العظيم، الله عز وجل ذو الفضل العظيم بمعنى أن عطاءه جل في علاه عظيم، وأن إكرامه لما يعطيه للعباد أكثر مما يستحقون، وأنا دائماً أقول للناس: تفكروا، وكل واحدٍ منا ليتفكر، ماذا كان يحلم في هذه الدنيا؟ تجد أن أحلامه صغيرة، ما في أحد منا إلا وأعطاه الله عز وجل فوق ما يحتاج فوق ما يريد، هو كان يحتاج إلى غرفة من أجل أن يسكن فيها فأعطاه الله عز وجل بيتاً فيه غرف

كثيرة، ويقول: يا رب ولد، ثم أعطاه الله الأولاد، وكان يحتاج إلى درهم ليقضي حاجته من طعام وشراب، الله أعطاه الدراهم، ولذلك الله عز وجل يعطي فوق ما يحتاجه الإنسان وأكثر.

ولذلك أنا أنتقد كلمة حسن البنا رحمة الله عليه، لما قال: «الواجبات أكثر من الأوقات» هذه كلمة غير صحيحة، ومخالفة لأصول الشرع، أصول الفقه تقول: بأن الشرع لا يكلف ما لا يطيق، فلما يقول: الواجبات أكثر من الأوقات، علامة أن المرء ليس لديه وقت، فالواجبات تكليف وأنها أكثر من وسعه، نعم هو أراد معنى صحيح، أن ما ينتظرنا من مهمات في الوجود كثيرة جداً لا تستطيع أن تقوم بها، فلابد من إخوانك، ولكن هي بصياغتها خطأ، بهذه الصياغة خطأ، الواجبات ليست أكثر من الأوقات، الواجبات أقل بكثير من الأوقات، الله عز وجل ترك لك من الأوقات الكثيرة ما تؤدي بها غير الواجبات بعد الانتهاء منها.

ولذلك من أسمائه جل في علاه أنه سبحانه ﴿ذُو الْفَضْلِ﴾، وهي أكثر من قوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ في القرآن، نقف ها هنا ونصل إلى قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾ [البقرة: ١٠٦]، جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس والسبعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس السادس والسبعون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة»، وكنا مع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾ [البقرة: ١٠٤].

ننبه فقط تنبيهاً على أن هذا هو أول نداءٍ في القرآن بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، هذا أول نداء، وقد كثر هذا النداء في القرآن، كثر كثيراً وأول نداء في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾، في الحقيقة لو أردنا أن نجمع بشيء من النظر بين هذه الآية وبين أول آية أنزلت في القرآن ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، سنرى أن العلاقة وثيقة بينهما، العلاقة أن القرآن في أول آيةٍ أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالقراءة، والقراءة لابد من وجود مقروء، لابد من وجود كتابة، لابد من وجد قلم، ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾ [القلم: ١]، ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن: ١-٢]، فمن أسماء كتابه القرآن لأنه يقرأ ومن أسماءه الكتاب لأنه يكتب، فالكتابة هي الفعل المتقدم على القراءة أو الفعل التالي للقراءة إذا تم النقل.

ومع هذه الآية يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾، فهي علاقة الكلمة، هناك يتكلم ربنا سبحانه وتعالى ويأمرنا بأن نقرأ من أجل أن نتعلم، وهنا يأمرنا بأن نختار الألفاظ اللائقة الموصلة للمطلوب، ومراعاة المعاني التي يختارها المرء والتي يجتنبها المرء، هذه على علاقة واضحة في هذا الباب، وابن عباس رضي الله تعالى عنه تنبيها لهذا النداء الرباني، بأنه قال: «إذا سمعت قوله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك أو فأوعيها سمعك»، هكذا وردت وهكذا وردت، لعل الخطأ من النساخ أو من الضابطين «فأرعها سمعك أو فأوعيها سمعك، فإما أنها خيرٌ تؤمر به أو شرٌ تنهى عنه».

وهذا النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فيه إكرامٌ رباني للمؤمنين، فيه إكرامٌ رباني للمخاطبين، فإنه خاطبهم بأحسن ما يوصف به المرء وهو الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ذلك لأن قاعدة الخطاب والتكليف هي الإيمان، كل تكليفٍ إلهي، كل خيرٍ يؤمر به المرء وكل شرٍ ينهى عنه المرء، قاعدة قبوله الإيمان، إن قالها: فقد صدق، ولا يصح قبول العمل إلا بهذا الشرط وهو الإيمان بالله عز وجل، فلذلك خاطبهم بهذا النداء الذي به يقع بعد ذلك الاستجابة، يقول لهم: أنتم مؤمنون؛ فهذا هو أمري فاستجيبوا له، وهذا من إكرام الله عز وجل لهذه الأمة.

وقد ذكر بعض التابعين بأن النداء الذي كانت عليه الكتب السابقة «يا أيها المساكين» ذكر ذلك جماعة من أهل المصنفات كعبد الرزاق وغيره وذكر بعض ذلك اهل المسانيد كعبد ابن حميد وبعض أهل التفسير، فذكروا هذا القول: بأن النداء الذي كان ينادي الله عز وجل به أهل الكتب السابقة «يا أيها المساكين»، وهنا رفع الله عز وجل كرامة الخطاب، بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وهناك علاقة بين هذا الابتداء بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في قوله: ﴿رَاعِنَا﴾، مع الفضل الذي أعطيته هذه الأمة في هذا المقام، يعني تقدمت العلاقة بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في أول نداءٍ قرآني مع ﴿اقْرَأْ﴾، كله يتعلق بالكلمة، أن تقرأ، ويتعلق بالكلمة فيما تقرأ ويتعلق بالكلمة فيما تنادي وفيما تخاطب وفيما تتكلم له علاقة بالكلمة، كذلك أن يكون هذا النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، في أن يكون أول نداءٍ قرآني في القرآن بحسب ما تم ترتيبه، وترتيب القرآن، ترتيب آياته وترتيب سوره على الصحيح أنه توقيفي، الصواب أنه توقيفي، فما هي هذه الفائدة؟ الفائدة أن الله عز وجل رفع درجة هذه الأمة عن بقية الأمم، الأمم السابقة إن صح ما قيل بأنهم نودوا بيا أيها المساكين، وأول نداءٍ هنا يقول ربنا عز وجل لهذه الأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، في معرض ذكر الفضل الإلهي الذي أعطيته هذه الأمة، ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فلا يريدون أي خير، الله عز وجل يريد أن يقول بعد ذلك: سأعطيكم ليس ما أعطيته هذه الأمم السابقة من الخير، ولكن سأعطيكم فضلاً أعظم

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، وقلنا: سابقاً في الدرس الفائت الفضل هو العطاء من غير استحقاق من غير لزوم، ما لزمك لا يكون فضلاً، يكون واجب، وأما الفضل فهو الزيادة بعد ذلك اللزوم.

فالله عز وجل أعطى هذه الأمة ما يحصل بها الدخول في نعمته، ولكن زاد على العطاء بأن جعل لها الأفضلية على بقية الأمم، انظروا إلى هذا الوجه في أنه نادها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، في أول نداء فيما يتعلق بفضل هذه الامة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ﴾، أي إني أريد أن أخص هذه الأمة بفضلٍ على بقية الأمم، وهذه الأمة فضلت على بقية الأمم بأمورٍ متعددة، وأعظم ما فضلت به هذه الأمة على الأمم السابقة وهو فضل نبيها صلى الله عليه وسلم، وإنما الأمم تفضل بفضل إمامها، فلما كان أعظم الأنبياء هو محمد صلى الله عليه وسلم كانت أعظم أمة هي الأمة التابعة له هذا تفضيلاً له، كيف يفضل النبي ولا تفضل أمته من بعده، فبأي فضلٍ غير فضله هو على بقية الأنبياء، بأي أمرٍ يفضل فيما هو خارج نفسه من الفضل أن تفضل أمته، فتفضيل الله عز وجل أمته هو تفضيلٌ لرسولنا صلى الله عليه وسلم، ولفضل رسولنا صلى الله عليه وسلم فضلت هذه الأمة، الله اختصها بالفضل.

ومما اختصها بالفضل غير ذلك أنه اختصها بأكمل الشرائع وأتمها فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]، انظر ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الذي تدينون به فتدخلون عليّ دخولاً كاملاً في العبودية، لكن انظر ما بعدها ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، وهذا لا ندري هل أتم على الأمم السابقة أم لم يتم؟ وخاصةً حين نعلم أن كثيراً مما حرمه الله عز وجل على الأمم السابقة إنما كان عقوبةً لهم، وهذه الأمة رفع الله عز وجل الأغلال والإصر عنها، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفي كل قراءةٍ يقول الله عز وجل: قد أعطيت، قد قبلت، ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والله عز وجل يقول: قبلت، ما أحد يقرأ هذه الآيات من سورة «البقرة» إلا والله عز وجل يعطيه إياه، وقد قرأها رسول الله فأعطاه الله عز وجل والأغلال التي كانت عليهم.

فالله عز وجل اختص هذه الأمة بأكمل الشرائع، وأتم النعم، واختصها بأفضل كتاب، ومن عظمة هذا الكتاب أن منع التحريف فيه والنقص والزيادة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾

[الحجر: ٩]، فأكرمها بأكرم نبيٍ إمام، وأكرمها بأكرم خطاب، وأكرمها بأكمل الشرائع، وبعد ذلك هناك فضائل عظيمة كثيرة، بعد ذلك هذه الأمة أكرمت بهذه الكرامات فوق ما أكرمته الأمم السابقة، وهذا مما ينبغي الاعتناء به.

فبعد أن قال الله عز وجل: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، هم لا يريدون أي خير، أراد الله عز وجل أن يبكتهم وأن يرفع شأن هذه الأمة فذكر أن فيها من الفضائل ما لم يقع عليهم هم، ما يقع على هؤلاء الكارهين، فلذلك ذكر هذا النسخ، هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، مناسبتها مع ما تقدم، أي ما نسخت لكم من الشرائع أو ما أثبته إنما هو الكمال فإذا هم حسدوكم من نوع خير فقد أعطيتكم كل خير، لقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، فما جاءكم من الخير إما أنه يعادل ما كانوا عليه، وإما أنه يكون فيه زيادة خيرٍ عما جاءهم، هم كرهوا ﴿مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، الله عز وجل قال: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، فالمناسبة واضحة.

وابن القيم رحمه الله في «بدائع الفوائد»، يقول: «إن من طريقة القرآن التمهيد»، القرآن يمهد للأمور حتى تأتي على وجهٍ من القبول، وهذا الكلام منه يمكن أن يحتج به بأمور كثيرة، عندي مما يحتج به أن الله عز وجل مهد لقبول أمره بعداوة الشيطان والخوف منه ما جرى في السماء، فلماذا جرى ما جرى في السماء من عداء إبليس لأبينا آدم عليه السلام؟ من أجل أن يكون في ذلك تمهيد للقبول، حتى يروا هذا العدو، حتى يرونه، ومما نراه في القرآن من تنبيهٍ للشرائع أن الله عز وجل ما ذكر قصة عيسى عليه السلام بأنه ولد من أم بغير أب إلا ويمهد لها بقصة زكريا عليه السلام وولادة يحيى عليه السلام، إن الله عز وجل جعل ولادة عيسى عليه السلام بلا أب كانت عقب أن رأى الناس بأم أعينهم كيف ولدت هذه المرأة العجوز، وولادة المرأة العجوز لا تهمة فيها، هذه العجوز وهي زوج زكريا عليه السلام، هذه لا يمكن أن تتهم، ليس هناك تهمة، ولدت أمامهم امرأة عجوز وفي ذلك معجزة، وفي ذلك خروج عن الإلف والسنن الجارية، وفي ذلك خرقٌ للعادة، فلما رأوا هذا كان ينبغي أن يفهموا أنه يمكن أن يقع شيءٌ على خلاف العادة، وما وقع بعد ذلك عن هذا المعنى من خرقٍ العادة في الولادة.

فالله عز وجل مهد حتى لا يفاجئ الناس من رحمته، مع أنه لا يسأل عما يفعل جل في علاه، لكن لما كان ربي على صراط مستقيم كان لا يجري الأمر إلا على وفق ما خلق من حكمة، والإنسان جاري في عقله على مجرى الحكمة، إن تفكر ولم يدخل الهوى والزيغ ولا التغيير والتبديل، فلذلك يجري الله سبحانه وتعالى الأمور على هذا المجرى من الحكمة مع إنه جل في علاه لا يُسأل عما يفعل هو الرب جل في علاه، لكن من حكمته أن أجرى الأمور على مجرى السنن، فقال ابن القيم رحمه الله: ومما مهده الله عز وجل لقبول ما سيأتي ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، ما مهده قال: هذه الآية.

يعني انظر هذه الآية التي ذكرها ربنا سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦] ثم بعد ذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، هذا تمهيدٌ آخر ذكر قصة بناء إبراهيم عليه السلام للبيت وأمر الله عز وجل له وما فيه هذا البيت من كرامة ليكون هذا مقبولاً، فأولاً قال: أنا سأنسخ وسيقع النسخ للأحكام، وسيأتي الفرق، المقصود به هنا نسخ الأحكام الأوامر والنواهي، ولا يجوز نسخ العقائد ولا الأخبار، فمهد لهذا ثم بيّن أن الله عز وجل المهم أن تتوجه إليه بقلبك وإنما الأماكن للتعظيم ومن أجل امتثال الأمر؛ فذكر سبحانه وتعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، وأن المساجد كلها لله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤]، كل هذا إشارة، ثم بعد ذلك بيّن عظمة هذا البيت، والعرب تعرفه، ولكن ليس فقط من جهة تعظيم العربي لما عظم عندهم ولكن من جهةٍ حقيقية عندما بناه على هذه الصفة من البلاء، والصفة من الكرامة بأن يقوم عليه أبو الأنبياء وابنه إسماعيل عليهما السلام، وقال: «هذا من التمهيد».

ومن المسائل في هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، النسخ هنا يأتي بمعنى الرفع، والرفع إما يقع به الإزالة لما رفع منه وإما مع بقاء الأصل ويرفع إلى مكانٍ آخر، صورته، ولذلك يقال عندما تنسخ من هذا الكتاب الى كتابٍ آخر: هذا نسخ، رفعته من هذه الصورة إلى صورةٍ أخرى، ولكن من غير إزالةٍ للصورة الأولى، وإما أن يكون النسخ فيه الإزالة كما يقولون ويمثلون بقول العرب: نسخت الشمس الظل، نسخته أي إزالته، تخرج الشمس فتزيل الظل، أزال الشيب الشباب، نسخ الشيب الشباب أي أزاله،

فإذن النسخ هو الإزالة هنا، أن الله عز وجل يزيل، وهذا النسخ له أنواع سنأتي إلى ذكرها، والنسخ في القرآن له معاني وعند الأصوليين له معاني نأتي إليها إن شاء الله.

وأما قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، بعض أهل العلم قالوا: ﴿نُنْسِهَا﴾ أي نزيلها، أي ننسها من قلوب السامعين لها والحافظين لها، ومثلوا بأحاديث أن الصحابة رضي الله عنهم كانت عندهم سورة فقاموا ليقرؤوها فلم يذكروا منها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ولم يجدوا شيئاً فشكوا للنبي صلى الله عليه وسلم فأخبرهم أنه هذه السورة مما أُنسيتموها، فأنساهم الله إياها، وقالوا: بأن الأحزاب كانت تعدل البقرة، لكن نسيها الصحابة رضي الله عنهم، هذا من النسيان، وقال: ﴿نُنْسِهَا﴾، يعني نؤجلها، نؤجل أحكامها، لما يأتي قدره، ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، أي نؤجل قدرها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾، نرجع إلى قضية النسخ، ما هو النسخ الذي وقع؟ وقع النسخ في الأحكام الأوامر والنواهي، وهناك ما هو بيّن في القرآن أنه منسوخٌ في أحكامه، الله عز وجل جعل الوصية للوالدين والأقربين ثم نسخت آية المواريث هذه الوصية، فلا تجوز وصيةٌ لوارث، بماذا نُسخت آية الوصية هذه ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، نسختها آية المواريث، وهكذا الله عز وجل نسخ ما في القتال كان الأمر بأن يقابل الواحد عشرة، العشرة يقابلون المئة والمئة تقابل ألفا، علم الله عز وجل أن فيهم ضعف فنسخها أن يقابل الرجل رجلين، هذا نسخ، نُسخت الآية التي في سورة «النساء» في الحبس ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٥]، هذه نُسخت، لأن الله فتح هذا الباب لقوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥)﴾ [النساء: ١٥]، فهذه آيةٌ نُسخت.

وكتبت مرةً وأنبه عليها أن هذا النسخ ليس كلياً، يعني هذه الآيات عند العلماء نسخ أحكامها مع بقاء ألفاظها وكتابتها ورسمها في القرآن، هذه صفة النسخ في هذا الباب الذي ذكرناه، وهو أنه تنسخ الآية من جهة أحكامها مع بقاء تلاوتها، بهذا المعنى لهذا الإطلاق عليه محترزات، إذن هي ما فائدة بقاء ذكر الآية؟ أن نتعبد الله عز وجل بها، فقط أن نتعبد بها بالتلاوة من غير عمل، هذا قالوه، فلماذا بقيت؟ ذكر من حكم بقائها من أجل بيان رحمة الله عز وجل بنا، من أجل بيان الرحمة، وأنا أعتبر أن هذا فيه نقص، هذه

الحكمة التي ذكروها فيها نقص، كيف نستدركها؟ نستدركها بالنظر إلى واقع هذه المنسوخات، وأن النسخ لم يكن كاملاً بل بقي بعضه، أي لا يوجد آية في القرآن منسوخة نسخاً كلياً، بل ما نُسخت آية في القرآن إلا وبقي بعض أحكامها، فمثال ذلك: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥]، ما جعل الله عز وجل من التغريب، بمعنى التغريب، وهكذا.

فما جاءت آية والشارع أزال حكمها بالكل إلا وأبقى أثرها، من أجل أن تبقى لهذه الآيات صورتها العملية التي تتوافق مع تلاوتنا لها، ليس مجرد فقط أن نتلوها لنتعبد، هذا المعنى عظيم، ولكن كذلك أن نتلوها لنتعبد في معانيها فوق التعبد بقراءتها، هذا الحكم قاله ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة»، لكن على غير هذا الوجه، قال: نعم، لا يوجد آية في القرآن نُسخ حكمها نسخاً كلياً فلم يبق حظ العبد منها إلا التلاوة، وهذا ليس من حكمة الله عز وجل، وبل جعل يعدد هذه الآيات المذكورة في هذا الباب، فهذا النسخ، هذا نسخ الحكم مع بقاء التلاوة هذه صورته.

النسخ الثاني: الواقع، وهو نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، ويمثلون له أمثلة في الحقيقة كلها عليها مراجعات وكلها فيها نظر، مثال ذلك: بقاء حكم الرجم مع نسخ الآية في القراءة، وهذا في الحقيقة عليه كلام، (الشيخُ والشيخَةُ إذا زنَيَا فارْجُموهُمَا البتَةَ)، قالوا: كانت هذه آية، كثير من أهل العلم وكلامهم فيه قوة بأن هذه ليست من القرآن ولا يُعبّر عن المحصن بالشيخ، فقد يكون محصن شاب عمره ثلاثة عشر سنة، فلماذا يقال: شيخ وشيخه؟! فلذلك كثير من أهل العلم يقولون هذا النوع من النسخ لا يوجد، وهو نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

ومن ذلك أنه نسخ التلاوة المتعلقة بعدد الرضعات، كان مما أنزل من القرآن تقول عائشة رضي الله عنها، والعلماء حملوها على الأحكام، كقوله صلى الله عليه وسلم: (كل شرطٍ ليس في كتاب الله فهو باطل)، طيب هو ليس في كتاب الله وليس في سنة رسول الله يعني، المقصود فيه ليس في حكم الله، كل شرط ليس في حكم الله، وليس المقصود به القرآن، ولكنهم يذكرونه في كتب الأصول ومحله هناك.

إذن بينا هنا:

النسخ الأول: نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، وقلنا: بأن هذا النسخ لم يقع على وجهٍ كلي.

النسخ الثاني: وهو نسخ التلاوة من بقاء الحكم، وهذا في الحقيقة كل ما مثل له يحتاج إلى تدبر وإعادة نظر.

النسخ الثالث: وهو نسخ الأحكام مع نسخ التلاوة، نسخ الحكم مع نسخ التلاوة، رفع، وهذا يمثلون له إن حمل على معنى التلاوة ما بُلغه النبي صلى الله عليه وسلم مما قاله أهل بئر معونة، بلغ عنا رسولنا فكانوا يقرؤونها في القرآن فنسخت، فهذه إذا حملت على الحكم.

والنسخ الذي يستخدمه السلف في كلمة النسخ وهو يأتي بمعنى مرات التخصيص، وليس بمعنى النسخ الكلي كما يحمله الأصوليون، فالأصوليون النسخ عندهم هو رفع حكمٍ شرعي سابق بحكمٍ شرعي لاحق، وقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، هذه حجةٌ عند كثير من أهل العلم على أن الآيات تتفاضل وعلى أن كلام الله عز وجل يتفاضل، هناك من العلماء وهذا لازم قولهم كالأشاعرة الذين يقولون: القرآن هو المعنى النفسي القديم، هو معنى واحد عندهم معنى نفسي معنى واحد لا يتعدد، هروباً عندهم من حلول الحوادث بذات الله إلى غير ذلك مما هو معروف في بابه، فيقولون: بأن الصفات لا تتفاضل، وفي الحقيقة صفات الله عز وجل تتفاضل، ومن ذلك (إن رحمتي سبقت غضبي)، يعني صفات الله عز وجل القائمة في ذاته جل في علاه تتفاضل، وبالتالي ما يخرج منه جل في علاه من كلام يتفاضل، والدليل قوله صلى الله عليه وسلم: (﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن)، فصفات الله تتفاضل وكلمات الله عز وجل تتفاضل وأحكام الله عز وجل تتفاضل، فقال تعالى: ﴿بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، فهذا دليل على أن الآيات تتفاضل، فقال: ﴿بِخَيْرٍ﴾، دل على أن هناك آية خيرٌ من آية.

وهنا ليس فقط التعلق في الحكم، ولكن كذلك بالآية التي حملت الحكم، وليس فقط في الحكم، فالأحكام تتفاضل، والآيات التي حملت الأحكام تتفاضل.

الأمر الثاني احتج بها من احتج بها من أهل العلم، وهذا هو الصواب على أنه لا يجوز أن يُنسخ القرآن بشيءٍ من دونه، وهذا قول الشافعي رحمه الله في «الأم»، وإحدى المرويات عن أحمد رحمه الله ولا أتصور أنه يقول بغيرها، لكن هكذا المروي أن الحنابلة لهم قولان في هذه المسألة، فهذا قول الشافعي، فلذلك عندهم لا يجوز أن يُنسخ الأعلى بالأدنى لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، فما جاء بالسنة لا يعادلها، فإما

خير منها وإما مثلها والسنة ليست مثل القرآن، ولذلك الشافعي نفى، هو لم يقع، والذين أجازوا من الحنفية والمالكية بعض المتكلمين والأصوليين من الحنفية والمالكية أجازوا، أن يُنسخ القرآن بالسنة ومع ذلك لم يجدوا لذلك مثالاً، فعادوا إلى القول: يجوز النسخ عقلاً، ولكن لم يقع واقعاً، وهذا يمكن أن تدخل في باب الخلاف اللفظي، وإن في الحقيقة الأورع في هذا هو القول الأول، ما دام نحن لسنا مختلفين على حادثة معينة نقول وقعت أو لم تقع، فالأولى حلها على المعنى الأول، وخاصةً أن ظاهر القرآن يقول بهذا.

الأمر الآخر في هذا قلنا: بأن هناك من منع النسخ، هل هناك من أهل الإسلام من منع نسخ؟ نعم، وذلك لزعمهم بأن النسخ بدا، ما هو البداء؟ بدا أخذت من كلمتهم حين كانوا الذين ينفون أخبار القرآن وخاصةً ما تعلق بفضل الصحابة رضي الله عنهم يراجعون، يقولوا: بدا لربنا أن يغير رأيه، فالله عز وجل قال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، فأهل الشجرة مرضي عنهم منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم، فماذا يقول الرافضة؟ بدا لربنا أن يغير قوله، من هنا سمي البداء أي بدا له، ظهر له دافعٌ آخر وقضية أخرى وعلمٌ آخر ليغير رأيه، وهذا اعتقاده في حق الله عز وجل كفر، وتنقيصٌ لربنا عز وجل، فالقائل بهذا القول ينسب لربنا النقص لأنه كان على قولٍ فغيره من جهة علمه بالشيء، ولذلك لا يجود نسخٌ في الأخبار، الله عز وجل أخبر بخبر لا يغيره، لأن الخبر إما صدقٌ وإما كذب، ومن الكذب الوهم وإن كان يدخل في معنى الكذب، يعني في المآل وليس بمعنى الكذب بمعنى معناه الصريح، يدخل بمعنى الكذب على لغة قريش يعني الخطأ.

فأن يخبر المرء بخبر ثم يغير الخبر إما أنه كذب به أو أخطأ فيه، وكلاهما ممنوعٌ في حق الله عز وجل، ولذلك الأخبار في القرآن والسنة لا تتغير، فلا تنسخ، ما ترفع، تقول: كان الخبر هكذا وكان الخبر هكذا لا يجوز، وكذلك من الأخبار العقائد في الحقيقة فيمكن أن نفردها بقولنا: ولا يجوز النسخ كذلك في العقائد، كما لا يجوز النسخ في الأخبار فلا يجوز في العقائد؛ لأن العقائد ما هي؟ أخبار، يعني الله عز وجل له صفات كذا وكذا هذا إخبار عنه، الله أخبرنا أن الغيب فيه ملائكة وفيه جنة، ومن الغيب الحساب ومن الغيب عذاب القبر وو ... إلخ، هذه أخبار، فهذه عقائد، هذه كذلك على نفس المعنى الأول لا تتغير ولا تتبدل، فلذلك البداء هو تنقيصٌ لربنا عز وجل فلا يقع.

إذن ما هو النسخ؟ النسخ هو رفع الأحكام المتعلقة بالأمر والنهي، وما نتحدث هنا من النسخ إنما نتحدث من جهة الأمة، يعني من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وما وقع بعد بعثته، يعني الله عز وجل حكم بحكم مثل قضية أنهم كانوا يصلون لبيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم أمر الله عز وجل بأن يتوجهوا، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، أي إلى المسجد الحرام، فهذا حكمٌ يتعلق بالشريعة نفسها، وإن كان الكلام في أصله هو حديثٌ عن نسخ الشريعة المحمدية للكتب السابقة، لأن السياق هو خطابٌ وخصومةٌ بين أهل الملة الإسلامية المحمدية وبين خصومها من أتباع الأديان أو الأمم السابقة وأتباع الأنبياء السابقين صدقاً أو كذبا، فالله عز وجل يريد أن يقول: هذا الدين ناسخٌ لما أنتم عليه.

والنسخ لا يقع إلا على جهة التفضيل، قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي هذا القرآن مهيمن على الكتب السابقة، وما هي الهيمنة؟ الهيمنة هي العلو، لا تقع الهيمنة إلا من علو ومن السلطة، القوة، له القدرة على غيره، مهيمن على الشيء أي له السلطة عليه، وهذا لا يقع إلا باستعلاء لا يقع إلا بعلو وترفع، فيريد أن يقول ربنا سبحانه وتعالى لهم: أن هذا الكتاب نسخ كتبكم السابقة فهو مهيمنٌ عليها، وهذا من فضل هذه الأمة على الأمم السابقة، ولذلك أنتم ترون أن أولي العزم من الرسل أغلبهم في الأمم التالية، ثلاثة من أولي العزم من الرسل من هم؟ محمد صلى الله عليه وسلم وموسى وعيسى عليهما السلام، آخر الأنبياء، فالأمم التالية لها من الشرائع إلا ما يقع عقوبة، لها من الشرائع أعظم مما وقع للأمم الأولى، ويكون التخفف في الأمم الأولى، لكن تكثر الشرائع والأحكام علمناها في الأمم التالية، بل مثلاً: الجهاد لا يعرف إلا مع أمة موسى عليه السلام.

فقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، وإن كان لها تعلقٌ بالإحكام في داخل هذه الأمة وما يجري فيها من تغير الأحكام في داخلها، لكنها في السياق تعلقٌ بنسخ هذا الكتاب للكتب السابقة.

بقيت من مسائل النسخ في الأصول بابٌ عظيم، لكن ننبه إن بعض أهل العلم وهذا يعرف عن الإمام الطحاوي، الطحاوي يفعله، وهو أنه يسمي ابتداء الأحكام نسخاً لما كانت عليه، ولكن هذا خلاف

الأصول بسبب أن هذا من من الاصطلاحات، اصطلاحات العلماء، كل عالم عليك أن تعرف مصطلحاته، لئلا تخطئ.

مثال: يعني الإمام الطحاوي يسمي تحريم الخمر نسخاً، مع أنه لم يكن مباحاً إلا على جهة الأصل، أي لم يأتي حل الخمر فجاء بعد ذلك نسخه، كان الناس يشربون الخمر على أصل الحل، ثم حرم عليهم، فلا يقال: هذا نسخ، ولكن الطحاوي يسميه نسخاً وهذا مشهور في كتبه، ككتاب «مُشكل الآثار» وكتاب «شرح معاني الآثار»، فهذا من النسخ.

ومن القضايا المتعلقة بالنسخ أن السلف يستخدمون النسخ على المعنى الجزئي، وليس على المعنى الكلي، قلنا: بأن النسخ معناه هو رفع حكم، الحكم يرفع بالكلية، ولكن تخصيص الحكم إذا كان عاماً فجاء تخصيصه لجهةٍ دون جهة، فهل هذا نسخ؟ الأصوليون لا يسمونه نسخاً في كتبٍ متأخرة لكن السلف يستخدمونه، ولذلك تجد ابن عباس رضي الله عنهم يقول: «إن آية السيف نسخت كذا وكذا آية في القرآن»، كل آيةٍ فيها العفو، ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ [البقرة: ١٠٩]، هذه نسختها آية السيف، هذا ليس نسخاً، هذا رفعٌ لبعض حكمه ولكن تبقى بعض أحكامه الأخرى موجودة، ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، هل لا يجوز العفو بالكلية، رفع هذا العفو؟ لا، ولكن أجازت حكماً آخر في التعامل معه، مع بقاء العفو والصفح.

وجدنا للأسف هذا الاستخدام لقضية النسخ والنسئ من بعض المعاصرين على وجهٍ باطل، طبعاً وجد من نفى النسخ بالكلية، لكن وجدنا من جعل الأحكام التي فيها تعلق بالعفو والصفح، قال: أنسئت بمعنى أجل حكمها لما سيأتي، وهذا في الحقيقة وإن كان قد أخذوه من كلام صاحب «البرهان» وهو الزركشي، قال: هذه آيات أنسئت يعني أجلت أحكامها، ما قصده؟ نعرف أن الأحكام إما مربوطةٌ بمآلاتها بالقدرة عليها أو بعللها، يعني إذا وجدت العلة وجد الحكم، غابت العلة غاب الحكم، لأن الأحكام مربوطةٌ بعللها، ثانياً: الأحكام مربوطة بالقدرة، ولما تكون القدرة غائبة؛ لا يفوت الحكم بالكلية –على ما قدمنا من قضية النسخ– لا يفوت الحكم بالكلية، تبقى المسألة بين حدين إما حد العزيمة وإما حد الرخصة، وهذه إحدى وجوه الرخصة في الأصول.

ما هي إحدى وجوه الرخصة في الأصول؟ هناك رخصة هذه يجب أن تحرر لأن الرخصة ليست على معنى واحد، والعزيمة ليست على معنى واحد، يعني بعض الناس يريد تصورها على معنى واحد وهذا غير صحيح، مثال: عند عدم وجود الماء نتيمم فهذه رخصةٌ لا بديل عنها، ولا تقع في العزيمة والرخصة، لعدم وجود بديلٍ عنها، فلا يوجد غير هذه؛ فرخص وإن كان بعض أهل العلم ليرفض أن تكون الرخصة في هذا الباب لأن الرخصة اختيار بين شيئين.

ولو أن رجل كان يتعب ويشق عليه القيام في صلاة الفريضة، خروجاً من الخلاف في أن الجلوس في صلاة النافلة أيقع عليه حكم أن له نصف القائم، هذا خلاف بين أهل العلم، أي لو أن رجلاً صلى النافلة جالساً، هل له نصف صلاة القائم؟ هذا خلاف بين أهل العلم، ورجح ابن دقيق وذكر المسألة ابن دقيق عليه رحمة الله ومال كما مال بعده ابن تيمية على أن تنصيف ليس في صلاة النافلة وإنما فقط في صلاة الفريضة، فقط خروج من هذا الباب.

فنقول: رجل يتعب ويشق عليه إن صلى قائماً في صلاة الفريضة، فما الأفضل له؟ هنا الخيار بين أمرين إما الرخصة صلي قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب، وتأتي هنا العزيمة، ما هي العزيمة؟ أن يقوم كما كان يفعل الصحابة رضي الله عنهم لما سمعوا الأمر وسمعوا الخبر بالتنصيف كانوا يشقون على أنفسهم في القيام، طلباً للعزيمة، كذلك المرء يسعه أن يتقي ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، هنا رخصة أن يتقي من عدوٍ يريد قتله؛ فيسر إسلامه، يجوز له ذلك هذه رخصة، وإذا فعل العزيمة فلا ينكر عليه.

والآن أمر الشارع بالعفو والصفح هذه حالة، حالة كان موجود ضابطها وهو أنهم في الضعف، كانوا في حالة ضعف، فيسر ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، أتركه، سب دينك أتركه لأن الحالة الضعف، لكن هل ما جاء في الحكم النهائي رفع؟ والحكم النهائي ما هو؟ آية السيف، فهل هذا إذا وجدت الحالة الأولى التي كانت حكمها العفو والصفح –الحالة– هل تعطل الحكم الذي استقرت عليه الشريعة، أم أنه جعله الشارع في باب العزيمة أي بخيرٍ منها باب العزيمة؟ كان العفو والصفح فجاء باب الجهاد وهو أعظم منه، فإذن المرء بين العزيمة والرخصة.

وهو ماذا قال الإمام الزركشي حتى مع موافقته هذا قال: ﴿نُنْسِهَا﴾ أي أجّلت، أُجّل العمل بها لماذا؟ لوجود سببها، ولكن هذا الرفع هل هو رفعٌ كلي؟ أم جاء حكمٌ يمكن أن تدخل فيه؟ وهو باب العزيمة، – هذا الذي أردته– يعني أن الشرع بعد وجود الحكم التالي أي الناسخ أوجد لك مرتبةً أعظم وهي مرتبة العزيمة، أقام لك هذا الحكم في لحظةٍ، فجاء حكمٌ آخر بعد أن تغير الحال فأمرك بالجهاد، فلو عاد الحال على ما كان عليه الحكم سابقاً، فليس المطلوب ترجع للحكم الأول وجوباً، لا، أنت بين حدين إما العزيمة وإما الرخصة، هذا الذي قاله، إذن أنسئت أُجّلت لإمكانية العمل بها فيما تقدم، هذا الذي قالوه انتبهوا إلى أن بعض الأقوال يحملها البعض على معاني، حين تطّرد تخرج من الملة دون الشعور، هذا من اللوازم أنا أتكلم هذا ليس من القول الذي لا يلتزمه صاحبه، ولكن من لوازم القول، ما هذا القول؟ بأنه في آيات في القرآن أجلت أحكامها لأوقاتٍ قادمة هذا لازم قوله، وهذا ألف بعض السلفيين كتبوا فيها بأن الجهاد الآن معطل لماذا؟ لأنها داخلة في قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، أنساها ربنا عز وجل، أجّلها، هذا القول كيف يضبط رده على من زعم أن في القرآن أحكاماً لم تُفعّل وبقيت أوقاتها لما سيأتي؟ كيف يردون عليهم؟ هل هذا القول تظنونه غير موجود؟

أحد فلاسفة المغرب من يزعم أنه فيلسوف إسلامي –لا أقصد به طه عبد الرحمن حتى لا يظن أحد أنه هو– يقول: إن الله عز وجل جعل في القرآن آيات خفية حتى إذا جاء وقتها يُعّمل بها، أعطنا مثال يا شيخ، ﴿نُنْسِهَا﴾، بمعنى أنساها أجلها، أعطنا مثال، قال مثال ذلك: –انظر الفلسفة انظر الكلام ما أجمله وإلى أين يؤدي، جميل يؤدي إلى الكفر– يقول: لماذا سورة «الكهف» نقرأها في كل أسبوع وحض الشارع على قراءتها ليلة الجمعة على خلاف هل الحديث صحيح؟ هل حديث غير صحيح؟ ليس هذا المهم، ولكن كل أسبوع، هل يوم الجمعة أو كل أسبوع هذه مسألة ثانية لمن أثبتها.

ففي سورة «الكهف» ذكرت لنا معالم الآخرة في قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾ [الكهف: ٩٨]، فجعل أمر الآخرة مذكور فيما ذكره في سورة «الكهف»، قال: ومما أخفي –الرابط الآن فيها ذكر الآخرة– ومما ذكر فيها من أحكام أن الله عز وجل أعطى ملوك ذلك الزمان أو هذا الزمان الذي هو آخر الأزمنة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الحق في التشريع فيما يقولونه من جهة أنفسهم، من أين جئت الكلام الكفري هذا؟ قال: من قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ

وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾ [الكهف: ٨٦]، الله قال له: أفعل ما تشاء، قال هذا حكمٌ خفيٌ في القرآن لم يعرفه الصحابة رضي الله عنهم لعدم وجود سببه وإنما بقي إلى أخر الزمان ليتوافق مع هذه السورة التي فيها علامات آخر الزمان!! هذا الذي يجعل هؤلاء يزعمون أنهم اهتدوا إلى أمور لم يعرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني هذا شحرور هذا معنى أنه أنا أعرف أموراً في القرآن لم يعرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر هذا القول لهذا الإنساء على هذا المعنى الذي قالوه من أجل ماذا؟ من أجل أن يبطلوا الجهاد، زعلانين من الجهاد، فالآن وقت التربية ووقت التصفية ووقت كذا فعليكم ترك الجهاد، من أين نتركه، قال هذا من الأحكام التي أنسئت والدليل ما قاله الزركشي في «البرهان» أن هذه الآيات من الآيات التي أنسئت، هذا الخروج عن حد العلم يوصل بهذا للرد على المخالف.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، الله عز وجل قال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١]، بعض أهل العلم جعل هذه الآية رداً عليهم وقد يصح في الأخبار هذا وقد لا يصح، ولكن ولا شك أن تلك آية أنها في المعنى سابقة، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾، أنت كل يوم تُعطينا حكم! فأنت غير مستقر، ولذلك زعم النصارى خاصةً عند مناظرتهم للمسلمين أن النسخ لا يجوز أن يكون، كلمة الله قيلت فلا تنسخ، ويحتجون بكلمات من الإنجيل «أنه لزوال السماوات والأرض يعني أهون من أن تزول كلمات الله»، فكلمات الله لا تزول، ومن هنا زعموا أن الشريعة المحمدية باطلة في قولهم لأنها جاءت بما ينسخ والأصل عدم النسخ، وهذه من المسائل التي اهتم بها علماؤنا في ردهم على النصارى وأن النسخ موجودٌ في داخل الأديان، فعندهم عيسى عليه السلام نسخ بعض الأحكام عليهم.

وبل الملعون شاوول الذي يسمونه بول بالإنجليزية ونحن نقول: بولس، أسقط كل الأحكام التي في «التثنية» من الأسفار الخمسة التي يقولون بها والأسفار الخمسة هي أسفار موسى الأولى، ومنها سفر «التثنية»، كل هذه الأحكام جاء بولس وقال لهم: ساقطة، انتهت!! كيف هذه الأحكام ساقطة يا بولس؟ وهي كلها أحكام الكثير منها يشبه ما جاء به القرآن، وهي دالة على أن ما جاء بالقرآن مصدقاً لما بين يديه، فقال: لأن هذه الأحكام إنما فرضها الله عقوبةً عليهم بسبب خطيئة أبيهم، فلما جاء الابن وفديت البشرية بذبح وصلب هذا الابن تطهرت البشرية فسقطت الأحكام، ما في شيء نجس كله طاهر، ما في

شيء حرام كله حلال، وإنما كان الحرام والحلال لنجاسة الإنسان بسبب خطيئة أبيه التي سرت فيه إلى ابنه، وكل أبنائه!! والآن تخلصنا حصل الخلاص بعد الصلب، فقال: خلاص ما في أحكام، من هنا عندهم ما في حرام، ما في شيء حرام، ولا خلقة الإنسان لا يجوز تغيير خلقته عندهم وهكذا، وما رد عليه بعض النصارى لم يطيعوه فيه، النصارى السبتيون قالوا: كذاب هذا بولس وبقوا على شرائع التوراة في سفر «التثنية».

فالقصد: قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾، هذا ردٌ عليه، أن الله عز وجل له حق الأمر والنهي، ولذلك ختمها الله عز وجل بقوله جل في علاه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، والخيرية أين؟ على المعنين، ﴿بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أي أجر أعظم أو من جهة التفضيل.

وهنا وقع الأصوليون في مسألة، هل الأحكام التي تأتي ناسخة، هل هي أعلى في الأمر أم أهون في الأمر؟ يعني هل هي من أجل التسهيل أم من أجل المشقة؟ والحقيقة لا ضابط لها، فيمكن أن تكون فيها مشقة من أجل الأجر، وإما أن يكون فيها تسهيل كما في قوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦]، يعني قد يكون الأمر هذا وهذا وليس مشقة زائدة وليس مقصود فوق الكلفة، فوق الطاقة الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا وسعها، لكن قد يكون فيها تكليف أكثر من هذا فيقع هذا، وهذه مسألة من مسائل الأصول، بعضهم قال هذا القول وبعضهم هذا القول، والصواب هذا والله تعالى أعلم.

فقوله تعالى: ﴿بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ إذن الخيرية إما أن تكون من جهة الأجر وإما أن تكون من جهة الفضل الآية التي هي حملت هذا الأمر هي الأفضل، فهذه الخيرية تكون في الأجر وتكون كذلك بما يُقرء بها هذه الآية، قال سبحانه وتعالى: ﴿بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، قوله تعالى: ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾، المقصود مثلها في الأجر، حكم جديد ولكن مثله في الأجر وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١]، قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾، مختومة هذه الآية بها، مختومة هنا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾ [البقرة: ١٠٦]، أي أنا أعلم بما يصلحكم، أعلم بما هو الأحسن والأكمل لكم، وأعلم

بما هو تمام الشرائع ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾ [البقرة: ١٠٦] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١]، أن الله عز وجل هو الحاكم، فأنت تريد أن تقيد ربنا عز وجل!! تريد أن تمنعه!! هذا ملكه يحكم به، يحل ما يريد ويحرم ما يريد، ويحل بحسب الحكمة ويحرم بحسب الحكمة، وهكذا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى له هذا الحق في النسخ والرفع وهو الذي خلق فقدر فحكم جل في علاه، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ وهذا السؤال هو سؤال تقريري، أي هو يعلم أن الله عز وجل على كل شيءٍ قدير، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم إن شاء الله نتابع الدرس القادم، ما يجلي السورة أكثر بإذن الله عز وجل.

الدرس السابع والسبعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة في الدرس السابع والسبعون من دروس تفسير وما زلنا مع سورة «البقرة»، وكنا قد تكلمنا عن قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾ [البقرة: ١٠٦]، وتقدم ما وفقنا إليه من الكلام عن النسخ والنسيان أو النسئ أي التأجيل، ووقفنا إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾.

ابتداءً سمعت البعض يتكلم خاصةً أن هذا الكلام يتردد كثيراً، ولكن سمعته في الأسبوع الفائت على لسان أحدهم يقول: إن المفسرين القدماء الذين اعتنوا بالتفسير لم يربطوا الآيات ببعضها البعض بما يسمى بعلم المناسبة سواء كان بما يتعلق بالفاصل القرآنية أي العلاقة بين مطلع السورة وبين بدايتها وبين خاتمتها أي الفاصلة، أو بين الآيات بعضها البعض، وقولهم هذا غلط بلا شك ومبعثه عدم معرفة طرائق العلماء في كيفية صياغة علومهم، هذه قضية ما زلنا نعاني منها كثيراً في هذه الأيام، ما زالت الأمة تعاني في كيفية قراءة تراث أئمتها، كيف كان يكتب العلماء؟ وهذه تكلمت عنها في مواطن متعددة، ولكن لا بأس أن أمر عليها سريعاً ربما تبدوا لبعض من يسمع الكثير مني أو يسمع دائماً لي أنه يراها مكرورة وأنها قديمة لكن لا بأس.

القدماء كانوا يكتبون للعلماء، وكانت الكتابة لأمثالهم الذين يعرفون مراتب العلم ويعرفون العلوم ويذكرون ما يذكرون على جهة التخصص أي على جهة التميز، فإن ما يذكرون من العلوم ما يتميزون به عن غيرهم، ولم يكن أهل العلم بهذا المعنى أي العلماء حين يكتبون لأمثالهم من العلماء، لم يكونوا يضعون الإشارات الكبيرة والعناوين المنبهة إلى ما سيقولون، لأن هذا ليس من أدب العلم، ليس من أدب العلم

عندهم أن يأتي العالم فيقول: وانظر فأنا أريد أن أربط هذه الآية بهذه الآية كما يفعل المتأخرون، الأوائل كانوا يجملون العبارة أي يصيغونها صياغةً محكمةً قصيرة على وجه من وجوه الحكمة، وأصل الحكمة الاختصار، الحكمة ليست هي العبارة الكبيرة، الحكمة هي العبارة القصيرة، فيصيغون كلامهم على وجهٍ من وجوه الحكمة، أي الذي لا يرفع الإشارات الكثيرة ولكن يعطي الإشارات اللماحة، الحكمة هي الكلمة الدالة، الإشارة الدالة، اللمحة الدالة، ويفهمها العالم فيعرف أن الرجل هنا قد أعطي حكمة.

ولذلك هذه الكلمة التي يقولها الكثيرون تدل على أنهم لا خبرة لهم بكلام أهل العلم ولا بكيفية صياغته، فلو رجعنا في هذا الموطن هذا مثال من الأمثلة هنا يعني السؤال هذا الأسبوع وأنا استغله في هذا الموطن، ما هو الرابط بين هذا المطلع في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾، فلو جئت إلى تفسير الطبري وهو ليس من التفسير بالمأثور فقط كما يظن البعض، هذا لمن قرأ تفسير الطبري يعلم أنه قد أتى فيه ببدائع الأقوال من جهة نفسه، وليس فقط ما روي عن الآخرين، وكان يأخذ أقوال الآخرين ويناقشها، وربما أخذ أقوال معاصرين له فيناقشها ويردها ويبطلها، وهذا موطن تستطيع أن ترجع فيه إلى تفسير الطبري، فتجد فيه هذا المعنى، وربما نضطر إلى قراءته تنبيهاً إلى طريقة الطبري على وجهٍ من وجوه اللمس، وليس فقط أن نطلق الكلمات الكبيرة هكذا، ولكن أن ندقق فيها وأن نعلمها من خلال أفرادها في داخل تفسيره.

نرجع إلى النقطة التي نحن فيها، عندما أتى الإمام الطبري رحمه الله وأعود وأقول فإن الطبري ليس من صنف التفسير بالمأثور فقط كذلك هو من صنف التفسير بالرأي المحمود كذلك، بمعنى أنه يعمل عقله ويختار بين الأقوال ويرجح وربما أتى ببدائع لم يذكرها على جهة الرواية من قبل، لم يأت بها من الآخرين ولكن هو يبدع في إيصالها وفي صياغتها.

وفي الحقيقة أنا ما زلت مُشكلاً في هذه الآية وعندما كنت أمر عليها دائماً استشكل ذكرى القدرة مع ذكر النسخ، والنسخ أمرٌ علمي يتعلق بالعلم والشريعة، ويتعلق بحكمة الشرع، فما هو وجه ذكر القدرة هنا، يعني عندما يقول ربنا عز وجل ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾، هناك حديثٌ عن العلم، وحديثٌ عن مراتب الحكمة، في أنه يأتي بالأمر على وجهٍ من وجوه الترتيب الموافق للحكمة، فهو علم

وحكمة، فلماذا تذكر القدرة هنا، لماذا تختم هذه الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾، فمثلاً: يمر عليها ويذكر هذا السبب دون أن يقول لنا الطبري أنا أريد أن أذكر لكم حكمة هذه الفاصلة القرآنية في هذه الآية، يأتي بها ويقول: بأن الله عز وجل ما دام أنه قادرٌ على كل شيء، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي لا يعجزه شيء، فمن حقه جل في علاه أن يقول ما يقول، وأن ما يقوله جل في علاه يجب أن يطاع لأنه على كل شيء قدير، هو لا يقول هذه لكنه يأتي بها، ومن قرأ في تفسير الطبري وجدها جليةً في هذا الباب، حتى عندما أتى إلى الآية التي بعدها ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، كذلك مر على هذا المعنى، مر على هذا المعنى الذي ذكرناه وهو أن من هو على كل شيء قدير وهو الله عز وجل، فلا يوجد أحد يستحق هذه الصفة أنه على كل شيء قدير إلا الله عز وجل، فمن كانت هذه صفته أنه على كل شيء قدير له الحق أن يحكم ما يريد، القادر هو الذي له الحق أن يحكم، هذا هو الوجه، فهذا وجهٌ جيد ورده بعده كذلك على طريقته ابن كثير في تفسيره.

كذلك هذا تنبيه على أن الناس حين يقرأون ابن كثير عليهم أن يقرؤونه من خلال قواعد العلم، لا من خلال فقط البحث عن تفسير الكلمة، لكن يقرؤون كيف يصيغ العلوم ليعرفوا أين هذا العالم في قضية صياغة كتابه، ما هي ميزة كتابه عن بقية الكتب، في الحقيقة هذا القول الذي قالوه يعني ممتعٌ وطيب، بأن الذي يملك القدرة التامة له حق التشريع التام؛ فيفعل في عبيده ما يشاء، على وجهٍ من وجوه الحكمة ولا شك، ولكن بقي في نفس الشيء حتى مع قول هؤلاء بقي في نفس شيء، هل هذا الذي قالوه يعني يجيب الإجابة التامة التي ترضي القارئ؟

وبقي هذا الأمر حتى وجدت كلاماً طيباً لمحمد الخضر حسين وهكذا تكون في السواقي ما لا تكون في البحار، يعني محمد الخضر الحسين متأخر، لكنه قال كلمةً فيها إشارة إلى معاني جديدة غير ما قالها العلماء في هذا المعنى الذي تقدم، وهذا الذي قاله الطبري تردد في أغلب كتب التفسير، قبله إلا أنني وجدت محمد الخضر حسين في تفسيره، مجموعته الكاملة التي بدأها بالتفسير يشير إلى معنى جليل وطيب، وهو أن القادر -يعني أريد أن أفسر كلامه وإلا فكلامه لا يعدو النصف سطر في هذا الباب أو السطر الواحد، لكن نفسر كلامه بما فهمته منه- يقول: بأن القادر تتنوع صفات مخلوقاته، وتتنوع أحوال مخلوقاته -وهذا حق، هذا من تفسير كلامه وليس من ألفاظه- أن القادر تتنوع أوصاف مخلوقاته، يخلق من الأقدار ما هي من وجوه

التنوع، تتنوع هذه المخلوقات والأقدار تتنوع، فتنوع الأقدار يناسب تنوع الأحكام، هذه رأيتها فيها خصيصة زائدة عما قاله السابقون، بمعنى أنه قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، إذن هناك حكمٌ تقدم هناك حكم تغير، هناك أحكام تتغير، وقول ربنا عز وجل: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي أن الله عز وجل قدرته التامة نوعت خلقه ومنها القدر وتنوع الأقدار، فتنوع القدر يناسب تنوع الأحكام، هذه كلمة نراها جميلة وفيها منفذٌ طيب، فهذا هو الوجه، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾، فناسب هذا الختم بهذه الآية ما تقدم من مطلعها.

ومما يرتبط بهذا المعنى ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وما تقدم من هذا التفسير فناسبه كذلك، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، إذا كان هناك ثمة شيءٌ جديد وفتح نذكره، إما إذا كانت الكلمة للسابقين لابد أن نعزوها إلى أصحابها لما في ذلك من الخير، يقول أبو حيان الأندلسي في تفسيره في هذا الموطن، وهذه التي قالها على وجهٍ من وجوه ما ذكرناه كثيراً في التفسير هنا، وما شرحته كثيراً في الأسماء والصفات، «أن الآيات والأحكام والصفات تأتي على وجهٍ من وجوه التكميل والتعديل»، دائماً نحن نقول هذه، وهذه قضية مهمة جداً في القرآن، أي أن الله عز وجل يذكر شيئاً فحتى لا يأتي المعنى الضعيف فيعدله، وهذا المعنى يكون عظيماً ولكن هناك ما هو أعظم منه فيأتي ما يكمله.

فعندما نقول –وهذه أكررها، نكرر الصفة لمن لم يعرف المسألة من قبل– لما نقول: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فلماذا تقترن العزة مع الحكمة؟ ربما عزةٌ بلا حكمة، فيأتي الحكيم ليعدل العزة بأنها لا تتصرف بمنطق العزة التي فيها الظلم، والتي فيها السفه نعوذ بالله، بل تأتي العزة مقترنة بالحكمة، فاقتران العزة بالحكمة تصنع تعديلاً لصفة العزة وما يطرأ عليها من معاني وتكملها في المعاني، هذه قضيةٌ قرآنية، فمما قاله على هذا المعنى أبو حيان قال: قد يكون الموصوف قديرًا قدرةً مطلقة ولكنه لا يملك ما يقدر عليه، في المعنى قادر لكن لا يملكه، هناك الكثير من الملوك يستطيعون أن يملكوا أشياء ولكن لا يملكونها على الحقيقة، ولكن هذا المعنى غير موجودٍ في حق الله عز وجل، فإن الله عز وجل على كل شيءٍ قدير ويملك كل شيء، فاكتملت القدرة مع الْمُلك، فهو قادرٌ على كل شيء وهو سبحانه وتعالى مالك كل شيء.

وقد تأتي هذه زيادةٌ أخرى نقولها: أن القادر قد تأتي صفة لقضية القدرة في الخلق والايجاد، ثم ينفلت هذا المقدور عليه بالخلقة، ينفلت بعد ذلك، أي هو خالق ولكن ينفلت خلقه منه بعد ذلك، فهو قادرٌ على كل شيء فيما يتعلق بالخلق، ولكنه لا يملكه لانفلات هذا المملوك منه، فالله عز وجل يقول: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فله الملك، فلم يفلت شيءٌ من ملكه وهو قادرٌ عليه، لم يفلت شيء من ملكه، كل ما في السماوات وما في الأرض هو في ملك الله سبحانه وتعالى، فهو قادرٌ عليه إيجاداً وإمدادًا ومالكٌ له من كل وجه، إحياءً وإماتةً وعطاءً ومنعاً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وانظر لبعض العلماء جمالٌ في الكلام، فلما جاءوا إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾ ذكروا كلاماً من الجمال ما تفتن به، من حكمة النظر، انظر ﴿مَا نَنْسَخْ﴾، حديثٌ عن نفسه جل في علاه، ﴿مَا نَنْسَخْ﴾، من الذي يفعل؟ هو الله عز وجل، ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، حديثٌ عن النفس، الله عز وجل يتحدث عن نفسه، ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، ثم انقلب الحديث وصار فيه الالتفات إلى حديث ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾، فصار الالتفات إلى حديثٍ عن الغير، فهذا يسمى التفات، كان يتحدث عن نفسه، وهو ما زال الحديث عن نفسه، لماذا لم يقل: ألم تعلم إني على كل شيء قدير؟ لأنه يقول: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾، لماذا يقول ألم تعلم أننا على كل شيء قدير، أو ألم تعلم إني على كل شيء قدير، صار التفات، لهم في هذا الموطن جمال عجيب.

وهناك من أهل العلم وهذه لا تقبل وهذه سأتي إليها عند قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾ [البقرة: ١٠٧]، سأتي إليها لأنه ذكرها هنا أبو حيان وفيها مقال.

وهنا لماذا تم الالتفات، فقال بعض أهل العلم: تم الالتفات لأن الحديث ﴿مَا نَنْسَخْ﴾، هو حديثٌ عنه جل في علاه، ولكن لما جاء أمر القدرة فإن الحديث على وجه الحديث عن الآخر فيه تعظيمٌ أكثر من الحديث عن الذات، مع أن الله عز وجل لما تكلم عن نفسه كان عظيماً، ولكن لما يكون الحديث عن الآخر يكون في ذلك تعظيمٌ أشد، أي لما قال ربنا عز وجل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، يتحدث عن نفسه جل في علاه، فلما جاء إلى أمرٍ عظيمٍ مهول لا نهاية له؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، ليكون الحديث

عن الآخر فيه تعظيم، وكذلك لمعنى آخر جميل وهو القدرة على استعمال هذا اللفظ دون الحاجة إلى مقدماته.

مثلاً: الآن الخطيب أو المدرس نسمعه يقول من غير أن يذكر مقدمة الآية، ما في حاجة أن يقول ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾، إذا أراد أن يدلل على قدرة الله عز وجل التامة الشاملة لكل شيء، ما يحتاج، لكنه لو قال: ألم تعلم أننا؛ لاحتاج إليها، لاحتاج لمقدمة ليعرف لمن يعود الضمير، فلما أراد الله عز وجل من هذه الجملة القرآنية أن تكون حكمةً جاريةً بذاتها باستقلالٍ عما تقدم لوجود عظمة ما فيها، ولإمكانية استخدامها كحكمةٍ مستقلة؛ ذكرها بتمام الجملة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾، فذكرت هذه لاستقلال هذه الجملة القرآنية في الدلالة على المراد وعند الخطاب وعند التضمين، عندما تضمنها في داخل خطبتك، في داخل درسك في داخل حكمتك والحديث عنك.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، قلنا: بأن الله عز وجل بعد أن ذكر القدرة جل في علاه ذكر العلم، ثم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ﴾، فذكر الملك، وبلا شك ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن الله له ملك السماوات والأرض، فلماذا خاطبه بهذا الخطاب التقريري؟ هذا الخطاب الذي بدأ بحرف الاستفهام ألف، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، لماذا؟ هنا لفتةٌ عظيمة لابن جرير الطبري رحمة الله عليه، ولابد أن نفهم أننا في النهاية إنما ندور في حلقات هؤلاء العلماء، وقد يؤتى في هذا الباب بشيءٍ جديد، ولكنه في النهاية خوضٌ فيما قال العلماء.

ابن جرير رحمه الله أراد أن يقول: ألم تعلم هذا خطابٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه في الحقيقة خطابٌ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول: إن دخول هذه الاستفهامية على لام الجحود لا يمكن أن تكون لطريق الإثبات، وأما هي إما للنفي المحض أنها نفي، وإما للاستثبات أي أن يحاول أن يستفهم من السائل، قال: وهذا ممتنعٌ في حق النبي صلى الله عليه وسلم، أما ورود الهمزة الاستفهامية مع لام حرف الجحود فإنها لم تسرد أبدًا على جهة تثبيت، فقال: والدليل أنها خطابٌ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم انظر إلى الخاتمة، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

(١٠٧)﴾ [البقرة: ١٠٧]، ولذلك قال: هذا ما زال خطابٌ لأمة محمد صلى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾ [البقرة: ١٠٤]، فهذه ليست خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم، هذه خطابٌ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك يقع في ذلك ألم تعلموا أن الله له ملك السماوات والأرض، وهذا ارتباطها بالنسخ واضح فإذا كانت بينة ارتباط النسخ بقدرة الله عز وجل، فارتباطه بملكه واضح، أبيّن وأوضح، لأنه هو الذي يملك فله الحق أن يشرع، أنت عبدي والأشياء لي ملكي، فأنا لي الحق أن أحلل وأحرم وأقدم وأحسن وأقبح وارتب الأمور بحسب منافعها هذا الحسن وهذا الأحسن بخيرٍ منها، من الذي يقدر هذا كله؟ الله عز وجل، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، فهذا لله عز وجل وليس لغيره.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وما زال على نفس المعنى الذي تقدم، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ﴾، لم يقل: ألم تعلم أن له ملك السماوات لما تقدم من المعاني، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ويقول أهل العلم: بأن الله عز وجل يختص بهذا لشمول المملوكات فيما يعلم الإنسان، فإنها حاوية لما هو من عالمٍ علوي وما هو من عالمٍ سفلي، العالم العلوي هي السماوات والعالم السفلي هو الأرض، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فأنا لي الحق في أن أحلل وأحرم لأني أنا أملك السماوات والأرض وما فيهن.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، المناسبة أن الناس إنما يطلبون الشرائع من أجل مصلحتهم، إما لدفع مضرةٍ عنهم وإما لجلب مصلحةٍ لهم، ماذا يريد الناس من الشرائع؟ يقولون: هذا حلال وهذا حرام، لماذا يحرمون؟ لما فيه من مضرة، لماذا يحلون ويوجبون؟ لما فيه من منفعة، فالناس يحلون ويحرمون ويقدمون ويؤخرون ويحسنون ويقبحون بحسب المصلحة، وبحسب المفسدة، فلذلك إما أن تتبع رب الأشياء الذي هو جل في علاه جعل فيها المفسدة والمصلحة، هو الذي جعل، من الذي خلق الأشياء؟ الله عز وجل، من الذي جعل فيها الصفات؟ الله عز وجل، فمن الصفات أنها تنفع وتضر، منفعتها ومضرتها بيد الله عز وجل، هو الذي وضعها في الأشياء، فحين تريد منفعةً فإنما تطلبها من ولي، وحين تريد دفع مضرةٍ فإنما تطلبها من نصير، فقال سبحانه وتعالى: إذا أردتم أنتم المنفعة وأردتم درء المفسدة فلا تأخذوها إلا من الله، لماذا؟ لأنه ليس لكم من دون الله من ولي ولا نصير، ليس لكم سوى الله ناصرًا ووليًا، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ

دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، سبحانه وتعالى هو الذي يعطي الأشياء منافعها وهو الذي يعطي الأشياء مضراتها، فإذا أراد سبحانه وتعالى أن يقلب النافع ضار أو الضار نافع بيده كل شيء، وهو الذي يرث من الأشياء خصائصها بيده كل شيء، فأنتم حين ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أنتم تريدون المنفعة؟ فبيد الله عز وجل، وأنا لا أعطيكم إلا ما هو خير سواء كان في الابتداء وإذا أعطيتكم في العاقبة إما أعطيكم الخير مثلها وإما أعطيكم ما هو أفضل منها وهو خيرٌ منها.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو الذي يعطيكم المضرة وهو الذي يصرف عنكم، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، من دون الله يعني سوى الله ما لكم غير الله، ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾، ماذا الولي؟ الولي الذي يعطيكم المنفعة، الولي من الولاية، والولاية ممن؟ ممن تبعك حافظاً لك فأدركك فجاوزك، هذا الولي، وهي صيغة مبالغة.

وفي كل القرآن وردت ﴿وَلِيَ﴾، ولم ترد ﴿وَالٍ﴾ إلا في آيةٍ واحدة وردت على غير صيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)﴾ [الرعد: ١١]، لماذا؟ يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)﴾ [الرعد: ١١]، هنا نأتي إلى كلمة الإمام أبي حيان الأندلسي عليه رحمة الله في «البحر المحيط» قال: وإنما قيلت على جهة الخاتمة في الآيات لأن الآيات كلها تجري على حرف اللام، فلم تجري «ومن دونه من ولي»، فإنما جرت على هذا المعنى، وهذا أهل البلاغة لا يرضونه، يعني ليس على صيغة لخاتمة الآية، كما قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢)﴾ [التين: ١-٢]، وهي سيناء وإنما كما قال الإمام السيوطي: وقيلت ﴿سِينِينَ﴾، من أجل أن تأتي على خواتم الآية على فاصلة الآية ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢)﴾، لو قال سيناء، قال: تختلف بعد ذلك، هذا لا يرضونه أهل البلاغية لابد أن يبحثوا عن أمرٍ آخر فوق صياغة الآية وخاتمة الآية وإنما يأتون إلى معاني بلاغية.

ففي سورة الرعد يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)﴾ [الرعد: ١١]، الآن الحديث هنا ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾ [البقرة: ١٠٧]،

ضد من؟ ضد أعدائكم، الحديث عن العداء بينكم وبين أعدائكم وليس بينكم وبين الله عز وجل، أي لا يصح أن يقال: ليس لكم من دون الله ولي يحميكم من دون الله، وإنما هو ولي يحميكم من أعدائكم، فلذلك كانت صفةٌ لربنا أنه يعطيكم الولاية التامة في دفع أعدائكم، لكن الحديث في سورة «الرعد» حديثٌ فيه دفعٌ عن أمر الله عز وجل، فيقول الله عز وجل: إن من ترجونه في دفع مضرتي لكم لا يملك مثقال ذرة من ولاية، أو أقل أنواع الولاية، هذا وجهها والله تعالى أعلم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، قلنا: الولي هو الذي يقدم لك الخيرات والنصير هو الذي يناصرك، في ماذا يناصرك؟ في دفع المضرة، وهذا هو تمام ما يتحقق في الشرائع تحقيق المصالح ودفع المضار.

قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾ [البقرة: ١٠٨]، ما هو الذي يريدون أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أغلب أهل العلم إنما يتكلمون عن السؤال على ما طلب المشركون، طلبوا منه أن يجعل لهم بطحاء مكة رغداً وأنهاراً وأشجاراً وثماراً، طلبوا هذا كما في أواخر سورة «الإسراء»، والمشركون طلبوا طلبات كثيرة، فبعض أهل العلم حملها ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾، أي أسئلة على معنى القدرية، والكثيرون يقول: لا، ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾، على ما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)﴾ [المائدة: ١٠١-١٠٢]، فقال: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾، لأن الحديث إنما يجري على معنى الشرائع هنا، الحديث يجري على موضوع الشرائع وليس على غيرها، يعني حديث النسخ هنا مع أن بعض المتأخرين حمل النسخ بمعنى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي آية كونية، أي يغيروا في الأقدار الكونية، وهذا مخالف لإجماع ما قاله المفسرون القدماء، بأن المقصود بقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، النسخ؛ لأن الحديث عن اليهود، فاليهود هم الذين أنكروا النسخ والنصارى أنكروا النسخ لزعمهم أنه مخالف للعقل وهو البداء، لدعواهم أن النسخ فيه البداء أو لدعواهم أن هذا موجود عندهم بنصوصٍ من التوراة التي زعمت أن كلمة الله لا تنسخ، فالحديث إذن يدور حول الآيات الشرعية.

فإذن ما الذي يريدونه؟ ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ ما الذي سُئله موسى عليه السلام؟ مثال مما سئل أنهم سألوا أن يروا الله جهرا، سألوه أسئلة كثيرة اليهود، وكذلك رفضوا شرعه بأن يدخلوا الأرض المقدسة، ﴿لَنْ نَدْخُلَهَا﴾ [المائدة: ٢٢]، فهذا سؤالٌ على معنى آخر وهو طلب تغيير الحكم لأنه أمرهم ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، فهم رفضوا، فهذا تغيير وتبديل لما طلبوا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا﴾، هذا مطلعٌ فيه التقريع والتوبيخ والإنكار، ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا﴾، هنا تقريع وتوبيخ وإنكار أن فعلتم هذا وهو لم يقع، وهذا ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾، ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾، دل هذا على أنه لم يقع، دل هذا أن السؤال للنبي صلى الله عليه وسلم كما سئل موسى عليه السلام من قبل قومه لم يقع، على ماذا يدل هذا؟ دل هذا على مرتبة وعظمة الصحابة رضي الله عنهم، دل هذا على أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم آمنوا إيمان الغيب دون أن يطلبوا لا آيات كونية على وجهٍ من وجوه التفسير ولم يطلبوا تغيير الشرع قط، ولذلك لما جاءوا للنبي صلى الله عليه وسلم يشكونه خاتمة سورة «البقرة»، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ، فقالوا: يا رسول الله حملنا ما لا نطيق والآن نحمل ما لا نطيق، قال: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين سمعنا وعصينا، قولوا سمعنا وأطعنا)، فماذا كانت مرتبتهم؟ قال: (فذلت بها ألسنتهم، قالوا: سمعنا واطعنا)، فلما ذلت ألسنتهم رفع الله عز وجل رحمة بهم، نسخ ما وقع في قلوبهم من معنى، هذا هو المعنى الصحيح كما سيأتي، نسخ الله عز وجل ما وقع في قلوبهم من هذا المعنى فلم يحاسب المرء ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فالصحابة رضي الله عنهم لشدة إيمانهم ويقينهم على الله لم يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أي آية كونية أبدًا، وإنما كانوا يسألونه الدعاء أن يدعوا الله عز وجل من أمورٌ فيها المصلحة لنصرة الإسلام والمسلمين، وليس على معنى التعنت وطلب الإيمان الزائد، يعني من ذلك لما كانوا في تبوك فجاع الصحابة رضي الله عنهم وعطشوا فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذبح رواحلهم، فقاموا عليها ليذبحوها فأتى عمر رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله، إن ذبحوا الرواحل هلكوا، كيف يستطيعون المشي والوصول إلى المدينة؟ فقال: قد عودنا الله بك خيراً، أنك إذا دعوته أجاب، فلم يسأله على معنى

التعنت وعلى معنى اطمئنان الإيمان وزيادة الإيمان، لم يسألوه على هذا المعنى، سألوه على معنى ما يحقق المصلحة للإسلام وهو الجهاد ومصلحة الإسلام، فقام النبي صلى الله عليه وسلم ودعا ربه وجمع بقية الطعام وحصلت بركة زيادة الطعام وكذلك نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم.

فالصحابة رضي الله عنهم من فضلهم ومن كرامتهم لم يسألوه، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ مِن إبْرَاهِيمَ إذْ قالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠])، قال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث: لو وقع الشك في قلب إبراهيم عليه السلام لكان هذا حري بأن يقع في قلوبنا وهذا إحدى وجوه تفسير هذا الحديث، المهم أن الصحابة لم يسألوه، فقال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾، توبيخ أن يقع وإنكار أن يقع منكم هذا، ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾، فهنا نسب النبي صلى الله عليه وسلم نسب الرسالة إليه أنه رسولٌ إليكم وأنه منسوب إليكم وهذا كذلك وجهٌ من وجوه التعظيم والتبجيل له، هذا رسولكم انتبهوا له، أم تريدون أن تسألوه طلباً إما لزيادة الإيمان وإما تعنيتًا على وجه ما فعلته اليهود، فقال تعالى: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾، وموسى سُئل أسئلة كثيرة ولكن مع ذلك ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، الاطمئنان لم يزدهم والجواب لم يزدهم شيئًا في الإيمان.

قال: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾ [البقرة: ١٠٨]، ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾، فالإيمان هو المستبدل والكفر هو المأخوذ، فهل تريدون أن تأخذوا الكفر بعد الإيمان وفي ذلك إثباتٌ لإيمان الصحابة رضي الله عنهم، لأنه يقول: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾، فدل على أن الإيمان موجود، وهذا مدحٌ لهم، هذه الآية فيها مدحٌ للصحابة رضي الله تعالى عنهم، مع ما فيها من وجوه بيان فساد اليهود ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾، فدل هذا على أن الإيمان عندهم ودل هذا على أن النكارة والتحذير من الوقوع في الكفر بعد الإيمان، ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ﴾ أي يجعل الكفر بديلاً عن الإيمان الذي في قلبه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

الراغب الأصفهاني له لفتة رائعة في هذا الموطن، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾، أصلاً هو هذا هو الفساد، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، فهذا هو الفساد، فكيف يكون فقد ضل سواء السبيل بعد أن استبدل الكفر بالإيمان؟ قال: وجهها أنه من فقد سواء السبيل، ما معنى سواء السبيل؟ سواء الشيء أوسطه وأعظمه، كما في قوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥)﴾ [الصافات: ٥٥]، أي عظمتها يعني وسطها وتأتي ثواب سواء عدل، بمعنى مساوي، فهنا أتت سواء لأن هذه الجهة من هذه الجهة تساوي بعضها البعض فهو في وسطها، في وسط السبيل، والسبيل المقصود به الطريق وسميت الشريعة لأن الحديث عن الأحكام الشرعية، الحديث عن النسخ، فإذن ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، أي السبيل الموصل إلى رضا الله عز وجل، السبيل الموصل إلى جنة الله عز وجل، وأين سواءه؟ في وسطه؛ لأن الذي في وسط الشيء يأمن غائلة الخطأ، لو أنه على طرفه لكان كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ولكن مشى في وسطه فأمن أن يقع في هذا الحد أو هذا الحد، حد الإفراط أو التفريط، فالسبيل سمي بهذا المعنى وسواءه وسطه، ووسط الشيء عادةً هو أعظمه، وسط الشيء يكون أعظمه لأن هذا طرف وهذا طرف فيكون قليل فوسطه أعظمه، ولذلك سمي سواء السبيل أي أعظمه وأجله.

نرجع إلى ما قال الراغب، قال: هذا ترتيبها أنه من ضل سواء السبيل بأن خالف شِرعة الإسلام بعد بيان أحكام الشريعة وما استقرت عليه، فإنما يؤدي به إلى الكفر وهذا هو كفر المآل، فقد ضل سواء السبيل، أي الذي يترك شرعة الإسلام، فيما استقرت من أحكام فقد ضل سواء السبيل وإذا ضل فنهايته أن يكون الكفر والخروج من الإسلام، هذا وجه ما قال، وهو وجهٌ جميلٌ ورائعٌ منه عليه رحمة الله وتفسيره جميلٌ على هذا المعنى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾، فإذا اعتبرنا أن هنا ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ هي العاقبة وليس كما قال الراغب، ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾، فدل هذا على أن تبديل الشرائع كفر، لأن الحديث عن الشريعة، ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾، فمن بدل شريعة الله عز وجل بعد استقرار الأحكام عليها أو من رفض حكم الله الذي أتى به فهذا أتى الكفر، ودل هذا على أن تبديل الشريعة كفر، أنك إذا بدلت شريعةً بدل شريعة فقد كفرت، وبعد هذا الكفر ماذا؟ قال: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، بهذا المعنى أي بعد أن صار كافراً بتبديل الشريعة

وخرج منها، خرج عن سواء السبيل الموصل إلى مصلحته، وهذا المعنى الثاني يتعادل مع ماذا؟ أن ضلال سواء السبيل، إنما هو عاقبةٌ للكفر يتوافق مع قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾، يتعادل مع هذا لأنه يضل سواء السبيل أي يوصله إلى غير مراده ويؤدي إلى هلكته، هذا ما يتعلق بهذه الآيات.

الله جل في علاه يقول: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾ [البقرة: ١٠٩]، انظر القرآن له طرقٌ في بيان وفي دفع المؤمن إلى الحق له طرق متعددة، من ذلك هذا الذي نراه الآن، ماذا قال؟ أول شيء بيّن أن الحق هو الذي يأتي من عند الله عز وجل، وأن هذا الحق يأتي من عند الله عز وجل لأن الله عز وجل له الحق في أنه خلق كل شيء وأنه مَلَكَ كل شيء، بماذا يكتسب الحق هذه الصفة؟ لأنه صدر عن الله عز وجل، فمن الذي جعل هذا الحق يكتسب هذه الصفة في نسبته إلى الله عز وجل؟ ذلك لأن الله عز وجل خلق كل شيء، وهو مالك كل شيء، وهو القادر على كل شيء، فانظر كيف اكتسب الحق الصفة، انظر كيف القرآن مهد لنا وعلل لنا وفسر لنا أن نعرف الحق في الشرائع، لأنه صدر من الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٧]، فبعد أن بيّن الحق مصدره وعلة كون هذا المصدر هو مصدر الحق الذي له سلطان الحكم والتشريع بعد أن بيّن هذا قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾ [البقرة: ١٠٧]، إياكم أن تسلكوا السبيل الآخر فلن يكون لكم ولي ينصركم على ما تريدونه، ويوصلكم إلى المصالح التي تريدونه لن يكون لكم، لن يكون معكم أحد حينئذٍ يعطيكم ما تريدونه من الخير، ولن يستطيع أحد أن يدفع عنكم الشر بهذا الشرائع التي اتخذتموها من دون الله، هذا ترغيبٌ وتعظيمٌ لشأن الأخذ.

وهنا صفةٌ أخرى عجيبة في بيان مبررات أو مسوغات على الصحيح، هنا بيانٌ زائد لمسوغات أخذ الشريعة من عند الله عز وجل، عندما أراد الله عز وجل أن يقرر لنا عدم اتباع الشيطان ماذا قال؟ عدو، قال

تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، فلما أراد الله عز وجل أن يبيّن حق ما أتانا من الشرائع وفساد ما يدعون إليه الخصوم ذكر لنا ما هو شأن الخصم في كراهيته لما عندك من الحق يريد أن يرغبك، فأنت إن كنت بين أناس تملك شيئاً وهم لا يعدونه ذا قيمة، ما قيمته؟ إن لم تشعر بأن الأخر يحسدك على معنى حسن وعلى معنى سيئ، يعني يتمنى أن يكون هذا الشيء عنده كما هو عندك، أنت ملكت شيئاً لا يوجد أحد على الأرض يعرف قيمته، ما قيمته إذن؟ ليس له قيمة، إنما تكون قيمة الشيء برغبة الناس فيه، أي لو أنك عرضته للبيع لتدافع الناس إلى شرائه، أو لتمنوا شراءه إذا لم يقدروا عليه، تمنوا فحينئذٍ له قيمة، يعني قيمة الشيء ليس في كونه فقط أنه ثمين، قيمة الشيء في أنه مطلوب وأنه محسود بين يديك، هكذا تعرف الأمور.

فكيف إذا علمت أن عدوك يتمنى زوال هذا الشيء، وكانت عداوة عدوك له أشد ما تكون، العداوة لك بسبب وجوده عندك، ماذا يكون شأنك في التعامل مع هذا الثمين الذي بين يديك؟ يكون الأمر عظيماً، ولذلك قال القرآن هذا ما أعطيكم من الشرائع، وما أبيّن لكم من الخير كما تقدم قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٥]، لا يحبون لكم، فقال هنا: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]، فدل هذا على أن تحرصوا عليه، كما قال اليهودي عن آية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]: لو نزلت علينا لجعلنا يومها عيداً، فهذا شيء عظيم، الكفار وأعدائكم يحسدونكم، فأحرصوا عليه، هذه طريقة القرآن، أحرص عليه، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾، انتبه خصمك ينتظر ويحب منك ذلك.

وحين تكون المنافسة بين قومين ماذا يوصي الناس أبنائهم؟ إياك وهذه القبيلة إياك وهذه الجماعة أن تضحك عليك أو أن تصيب منك غرة أو تصيب منك مفسدة إياك فالقرآن يقول: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾، انتبهوا إلى ما عندكم من الخير أنتم محسودون عليه، لأنكم تملكون أمراً عظيماً هم يعرفون قيمتهم، وهذا البناء النفسي في القرآن للمؤمن شيءٌ مهمٌ جداً، أهم قضية في القرآن بعد البناء المعرفي الذي لا يحتاج إلا لمجرد المعرفة فقط، القرآن حين يكرر من أجل أن يبني المعاني النفسية وليس فقط المعاني العلمية، المعاني العلمية تعطي المعلومة مرةً واحدة وينتهي خلاص، أقم الصلوات وآتي الزكاة، لكن هو يريد

ماذا؟ يريد أن يبني لهذه المعلومة بيئةً نفسية راغبة بها، فلذلك القرآن هنا يبني معرفةً نفسية، يبني بناءً نفسياً، انتبه أنت محسود، وأعداؤك يحسدونك.

فلو كانت هذه النفسية موجودة عند المسلمين هل يتركون ما هو عندهم من الدين؟! عندما يأتي الكافر ويحتقر دينك، ويبيّنه على وجهٍ من وجوه التحقير له، القرآن يكشف لك هو ليس بحقير عنده هو يحقره في يدك لترميه، من أجل أن تكون أنت وإياه سواء على درجة إبليس أنا وإياك سندخل النار، أنا ومن عظمته سأدخله النار، هو يريد أن يجعلك سواء، أن يجعلك وإياه في حالةٍ واحدة، وإلا فهو يعرف قيمة ما عندك من الدين.

ووالله كنت أقولها وكتبتها أكثر من مرة، والله لا يعرف حرمة الزنا وأثارها السيئة لا يعرفه أحد في الدنيا كما يعرفها المشرك، الذي يحل الزنا، ووالله لا يعرف ضلالة وفساد الربا كمن يمارسه، هو يعرفه، الخمر من الذي يعرف أضرار الخمر؟ من الذي يعرفه؟ نحن نأخذها على جهة التسليم، لا نعرف أثاره لا نعرف إلا بالصورة الظاهرة إذا سكر خرب البيت، وأما الأضرار العظيمة له من الذي يعرفها أكثر؟ الذي يمارسها، فلما تأتي أنت وتقول له الخمر حرام، فإن كان عادلاً سيطأطئ رأسه ويقول: صدقت، أنا أعرف ما معنى الخمر حرام، ولو قلت لهذا الرجل الذي يرى الأضرار الطبية والاجتماعية والمالية، لقال لك: نعم والله هذا الإسلام حق بتحريمه هذه الأمور، إن كان منصفاً، فلذلك هم يحتقرون هذا الدين من أجل ماذا؟ لا من أجل أنه حقيرٌ في نفوسهم، ولكن لأنه عظيمٌ في نفوسهم فيتمنوا أن تخسره، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي اليهود هنا؛ لأن الحديث ما زال عنهم، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ هذا ما تقدم، وقال تعالى قبلها: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾، فأثبت للصحابة رضي الله عنهم الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾، ﴿يَرُدُّونَكُمْ﴾ يصيرونكم أو يرجعونكم إلى ما كنتم عليه لأن الله سبحانه وتعالى قال عنهم، ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ٩٤]، أي كنتم أولاد مشركين أو مشركين، فيردونكم إلى ما كنتم عليه، ولكن بعض أهل العلم قال: يصيرونكم فلا يشترط أن يكون رجل كافراً ويسلم لتنطبق عليه هذه الآية، كقول يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧]، ولم يكن يومٌ من الأيام يوسف كافرًا بالله ولا باليوم الآخر، فقال يوسف عليه

السلام لأصحابه في السجن: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، هل كان عليها ليتركها؟ الجواب: لا، يعني لا يشترط ترك الشيء أن تكون مالكه وتتركه، إنما يكون معروضاً عليك فتتركه، معروض وهو مؤمن والكفر معروضٌ عليه لأنه يعيش بين أهله، فهو معروضٌ عليه، فترك الذهاب إليه، إني تركت الذهاب إليه.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾، أي لا يشترط أن تكونوا أنتم كفار لتعودوا إليه، ولكن على ما تقدم معناه، قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾، ﴿يَرُدُّونَكُمْ﴾ فيها إثبات الإيمان ثم جاء التقرير الذي فيه التأكيد قال تعالى: ﴿يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾، كافية، كافية أن يقول: ود كثير من أهل كتاب لو يردونكم كفارا حسدا، لكن قال: ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾، ليؤكد أن ما أنتم عليه هو الحق وأنكم على طريقةٍ من الهدى الصحيح.

قال تعالى: ﴿يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾، يمكن لأحد أن يقول مع أن هذا المعنى غير موجود، لكن يمكن أن يقول: ذلك لأن اليهود يعتقدون أن ما عليه هم أنه الحق، يعني يمكن لأحد يقول: اليهود يتمنون أن تصبحوا يهودًا ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فيمكن أن يقول قائل: اليهود يتمنون أن يصبح المسلمون يهوداً لأنهم يعتقدون أن ما هم عليه اليهود هو الحق، القرآن نفى هذا المعنى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾، قال: ﴿كُفَّارًا﴾، فقد يكون ﴿كُفَّارًا﴾ وصف ربنا عز وجل وقد يكون هو معرفتهم أن هذا كفر، ولكن لما جاء قوله تعالى: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، دل هذا على أنهم يعرفون عظمة ما عليه المؤمنون، فقال تعالى: ﴿حَسَدًا﴾، والحسد قلقٌ في النفس، منه ما هو ممدوح ومنه ما هو مذموم، أما الممدوح فهو أن تتمنى أن يكون عندك من الخير ما عند الآخر دون أن تتمنى أن يزول هذا الخير من عنده، هذا يسمى بالغِبطة، كقوله صلى الله عليه وسلم: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهو يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)، فهذا حسدٌ محمود.

وكذلك من الحسد المحمود أن تتمنى زوال الخير عن الكافر لئلا يستعمله في الشر، هذا وإن كان الحسد من وجهٍ كما الحسد بمعنى الغبطة من وجه، هذا كذلك حسد أن تتمنى أن يزول الخير عن فلان لمعصيته بالمال الذي بين يديه أو بالنعمة التي بين يديه، تتمنى تقول: أسأل الله أن يزيلها من بين يديه، وهذا مأخوذٌ

من قوله سبحانه وتعالى في دعوة موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس: ٨٨]، الله عز وجل قال: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، وللعلماء لفتة هنا، الذي دعا موسى عليه السلام ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ﴾ [يونس: ٨٨]، ما ذكر هارون عليه السلام، فلماذا جاءت الصيغة بعد ذلك إجابة لكليهما، ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، قال: كان موسى عليه السلام يدعو وهارون عليه السلام يؤمن، فكلاهما كان يدعو، المهم من ذلك أن موسى عليه السلام دعا على بني إسرائيل بهلاك أموالهم وإفساد ما بين أيديهم، وهذا ما دعا به محمد صلى الله عليه وسلم عن قريش قال: (اللهم سنين كسنين يوسف)، دعا عليهم سنين من الجفاف والجوع كما أصاب أهل مصر في زمن يوسف عليه السلام، فإذن هذا الحسد المحمود.

أما الحسد المذموم وهو أن تتمنى أن يكون عندك وأن يزول من الآخر، هذا حسدٌ ومبعثه قلق النفس وتعبها في كون الشيء بين يدي غيرك، قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾، فأثبت القرآن أن هذا التمني كفر، وبهذا نعلم أن من تمنى زوال الإيمان عن مؤمن فهو كافر، يتمنى هذا يكفر بعد إسلامه فهذا يكفر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾، أي تصبحون كفارًا بما تنتقلون إليه، ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، أي لم يأمر به الله عز وجل وإنما هذا ما ركبت عليه نفوسهم، قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، هذا تأكيد أنهم يعلمون أين الحق، هؤلاء اليهود يعلمون أين الحق، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، أي بأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق، قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ [البقرة: ١٠٩]، هذه تحتاج إلى وقفة طويلة نكتفي إلى هنا في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩]، لأن لها تعلق كذلك بالنسخ ولها تعلق بقضية متى يكون العفو واجباً، ومتى لا يكون جائزاً، ومتى يكون مستحباً إلى غير ذلك مما سنبينه إن شاء الله في الدرس القادم، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

جزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾، هل الذين سئلوا موسى عليه السلام أرنا الله جهرا وأسئلة أخرى، كفروا؟ وهل الآية ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾، تشير إلى هذه الأسئلة؟

الشيخ: الأسئلة أن تسأل الرسول وهذه نفصلها إن شاء الله لأنها لحديث ذي أنواط، ذكرني في هذا السؤال في الدرس القادم لطوله، وذكرني بها لأنها مهمة جداً في قضية متى يكون السؤال كفراً ومتى لا يكون كفرًا، والله تعالى أعلم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والسبعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الثامن والسبعون من دروس التفسير وما زلنا مع قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾ [البقرة: ١٠٩].

تقدم الكلام النسخ وما ترتب عليه من ضرورة العلم بأن الله عز وجل له حق الأحكام كما جل في علاه هو الذي له حق الخلق والقدرة التامة فله حق العلم التام والإحاطة التامة التي تعطيه جل في علاه حق التشريع بتسمية الشيء حلالاً أو بتسميته حرامًا أو بتحسينه أو بتقبيحه، وما ترتب على ذلك من خطاب الله عز وجل للمؤمنين في ردعهم وفي زجرهم أن يأتوا ما آتى بنو إسرائيل من الموبقات ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨]، ويتكرر ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ تكرر مع قوله تعالى: ﴿يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾، فدل هذا على أن استبدال الشريعة وعدم متابعة الأمر الإلهي هو كفرٌ وردة، فمن آتى الأمر الأول الذي أمر الله عز وجل به آمن، فإذا جاء الأمر الثاني ولم يتبعه كفر، كما كفرت الأمم السابقة بعدم إيمانهم بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا ردعٌ من أن لا يستجيب العبيد لأمر الله سبحانه وتعالى.

وتقدم قوله سبحانه وتعالى: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، وذلك للرد على ما يطرأ في الذهن من دعوة أو احتمال بأن ما يفعله اليهود من دعوة المسلمين لأن يدخلوا في دينهم لعلمهم أي اليهود بأنهم على الحق، فنفى ذلك ربنا سبحانه وتعالى، فقال: هم يعلمون الحق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، والحسد لا ينشأ إلا من وجود الرفعة في المحسود، وشعور الحاسد أنه أدنى مرتبة ممن حسده، فلا

يمكن للمرء عظيم الشأن والملك أن يحسد مثلاً الخفير أو الوزير، كيف يحسده وهو أعلى منه مرتبة؟! فلما علم اليهود أن المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم أعظم درجة مما هم عليه حسدوهم، فالمسلمون أعلى درجة في نفوس اليهود من اليهود أنفسهم، في أنفسهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾.

قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾. هنا هذه الآية بينة للسني أن الكفر يكون من عناد، وهذا تقريبًا مجمعٌ عليه عند أهل السنة، حتى الذين ينسبون إلى الإرجاء لا يخالفون فيه، بأن هناك ثمة كفر عناد وهو كفر إبليس، ﴿أَبَى﴾ هذا هو ﴿أَبَى﴾ وهو يعلم أمر الله ولكنه أباه ورفضه استكبارًا على الأمر وحسدًا لآدم عليه السلام، فهذا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، فالقرآن يقرر بأن الكفر ليس هو الجهل فقط، وليس هو الرد عن عدم العلم والاقتناع، وليس هو الرد لعجز الدليل والبرهان عن أن يقوم مقام المعلوم الذي يقوم حوله الخلاف، لا، وإنما عامة كفر الكافرين إنما يكون عن عناد، فقال سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، فاليهود علموا أن الحق مع النبي صلى الله عليه وسلم وأنه رسول الله وأن ما يدعوهم إليه هو ما جاء به الأنبياء من قبل لا فرق، وأنه مصدق لما بين يديه ولما بين يديهم، وأن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفس المشكاة التي جاء بها الأنبياء من قبل، فهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

لكن نجد أن لوثة الإرجاء قد تطغى على بعض من يتكلم، وفي هذا ينبغي الحذر من بعض مزالق كتب التفسير في هذا الباب، فقبل كتب التفسير عندما نأتي إلى تفسير ابن حجر رحمه الله وشرحه لحديث هرقل بعد أن أرسل النبي صلى الله عليه وسلم رسالته لهرقل يعوه إلى الإسلام، فدعى أبا سفيان وسأله ... الحديث المشهور، فوقف ابن حجر في بيان هرقل قد آمن قلبيًا ولم يؤمن بالمتابعة، فمرات لعدم وضوح هذه المسألة العلمية في نفس الشارح يقع في التخليط.

من هنا سأضرب لكم مثالاً لما قاله بعض أهل العلم مع أنهم من أجلة العلماء وتفاسيرهم من أجلة التفاسير ومن أعظمها ومما لا يستغني عنها طالب علم حتى على ما فيها من أخطاء، وكيف يقع العلماء في هذا الخطأ؟ موضوع كفر العناد البعض دار حوله دورانًا غير سديد، بحيث تصور أنه ما زال في شك، أنه على درجة اليقين بأن ما جاء به رسولنا صلى الله عليه وسلم هو الحق، وما ذلك عانده حسدًا وعانده كِبرًا

وعانده إباءً؛ فيقع فيه نفسية تردد في هذا المعنى، وسبب ذلك أن الإيمان عندهم هو التصديق، والتصديق أمرٌ قلبي، فإذن وقع وصفه حد الإيمان في قلب الْمُكلف، وهو أنه صدق، فيقع هنا الإشكال.

من هنا مثلاً: انظروا إلى ما قاله صاحب «المحرر الوجيز» ابن عطية رحمة الله عليه، وهذا من الكتب التي لا يستغني عنها طالب علم، ابن عطية له لفتات رائعة وله إبداعات عظيمة في التفسير، لكنه في هذا الباب يُخطئ كما يُخطئ الكثيرون ممن لم يتبيّنوا عقيدة السلف في هذا الباب، انظر إلى قوله رحمه الله، يقول: والحق أي ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، في تفسيره كلمة الحق، والحق هذه كلمة إما أن تكون على المعنويات، وإما أن تكون على الماديات، فوصف الشيء في الماديات على ما هو عليه هو الحق، والإخبار بالحقيقة هو الحق، ومن هنا بعض المتكلمين أراد أن يفرق بين كلمة الحق والحقيقة، فجعل الحق على ما هو معنوي، وجعل الحقيقة على ما هو مادي، ولكن كذلك الإخبار عن الوقائع المادية كذلك هو الحق، فالإخبار بالحقيقة هو الحق، فالإخبار عن الشيء على ما هو عليه فقد أتيت على وجهه الصحيح فأخبرت بالحق، ووصفت الأمر على ما هو عليه فهو الحقيقة.

وكذلك الحق فيما هو من الأمور المعنوية هو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وما أمرنا الله عز وجل به من أمور معنوية عظيمة، من أمرنا بالصدق والعدل والاستقامة والبر والإحسان وو ... إلخ، كل هذا هو الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فـ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، أي هنا تطابق قوله صلى الله عليه وسلم مع الحقيقة التي في نفوسهم، تطابق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مع الحقيقة التي في نفوسهم؛ فعلموا الحق أن ما يقوله هذا النبي هو الصواب.

نرجع إلى ما شرعنا فيه، يقول ابن عطية: «المراد به في هذه الآية نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة ما المسلمون عليه، وهذه الآية من الظواهر في صحة الكفر عنادا»، أي هذه الآية تبيّن أن هناك من الكفر ما هو عناد، فقوله: «وهذه الآية من الظواهر في صحة الكفر»، أي في إثبات أن هناك من الكفر ما هو عناد، «واختلاف –وهذا الحقيقة ليس فيه خلاف– واختلف أهل السنة في جواز ذلك» أي يمكن أن يقع الكفر على العناد؟ وفي الحقيقة أن أصل الكفر هو العناد، وأما كفر الجهل فقليل مع أنه موجود ولكنه قليل بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وبلوغ الرسالة للناس فعامة من كفر إنما كفروا عنادًا، وعدم قيام البرهان

على الحق في نفوسهم عجزٌ في البرهان، وهذا لم يقع، والقرآن لم يلتفت لهذا قط، القرآن كله لم يلتفت إلى قضية الجهل في نفوس المخاطبين بعد وصولهم البلاغ، ما تكلم، ما ذكر أنكم جهلتم في هذا وأنكم لم تقتنعوا فهذا دليلٌ جديد، لم يخاطب القرآن بهذه الطريقة قط، إنما كان يبيّن أنهم على معرفةٍ بصواب ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فيقيم عليهم الحجة.

قال ابن عطية: «واختلف أهل السنة في جواز ذلك»، والصحيح عندي جوازه، هنا هذه الطبعة التي عندي سقيمة، لكن طبع «المحرر الوجيز» بعد ذلك طبعات جيدة، «والصحيح عندي جوازه عقلا وبعده وقوعا»، تصور ابن عطية الأندلسي رحمه الله يقول: أن كفر العناد يصح عقلاً، ولكن لا يجوّز وقوعه قدرًا، طيب هو القرآن يقرر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، فماذا يقول بعد ذلك؟ يقول: «ويترتب في كل آيةٍ – انتبه هذا تفسيره– ويترتب في كل آيةٍ تقتضي» يعني في كل آيةٍ في القرآن أنهم جحدوا مع علمهم بصحتها ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام: ٣٣]، ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، قال: «ويترتب في كل آيةٍ تقتضي هذا المعنى، أن المعرفة تسلب في ثاني حالٍ من العناد»، هكذا أخرجها، قال في بداية الأمر: يعرفون الحق فإذا لم يتابعوه يُسلبوا هذه المعرفة ويُسلبوا هذا التصديق فلا يبقى في قلوبهم إلا التكذيب جهلاً.

الجواب: كثير هذا، من أين أتيت به؟ ولماذا لا يقع؟ أقول لكم لماذا لا يجوزون وقوعه قدرًا؟ السبب في ذلك لأنهم أخطأوا في تفسير الإيمان، لأنهم تصوروا التصديق، فمن صدّق بقلبه خلاص، فهذا إذن لا يتصور فكيف يكفر؟ كيف يكفر الإنسان؟ قال: كفر بلسانه للتدليل عن تكذيبه ما في القلب، الكفر عندهم باللسان هو دليلٌ لما حصل من الإنكار في القلب من المعرفة، أما أن يكون في القلب المعرفة والتصديق وبعد ذلك الإرادة تنبعث لسببٍ من أسباب الدنيا والهوى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، وذلك بأنهم أرادوا الدنيا والمال وما شابه ذلك، فقال: لا، هذا لا يقع، وهذا يعني معرفة المرء بحقيقة الإنسان أن الكثير من الناس يذهب إلى المحكمة، شاهد الزور من هو شاهد الزور؟ أو صاحب اليمين الغموس، من هو صاحب اليمين الغموس؟ صاحب اليمين الغموس هو الذي يعلم أن ما سيحلف عليه هو مضاد لما هو صحيح في قلبه، وما هو حقيقي من معلوماته، المعاصي كلها تنشأ بهذا.

وإذا نشأت المعاصي بغير هذا فبابٌ كبير من أبواب الإعذار الرباني، الجهل عذر، يوجد أبواب كثيرة من الشريعة، عدم العلم، عدم اليقين، كيف يعاقب ربنا سبحانه وتعالى رجلاً لم يثبت لديه أن هذا هو الحق، كيف؟ إنما يعاقبه لأنه علم الحق وأعرض عنه، فذلك انظر إليه قال: وكل آيةٍ تقتضي هذا المعنى من كفر العناد فإنها دالة على أنه علم الحق في الابتداء ثم سُلب هذا العلم، فتوافق عندهم -كما يقولون- توافق كفر الظاهر مع كفر الباطن، والمقصود بكفر الباطن التصديق ليس كفر الباطن هو الإعراض، لأن الصواب أنه لا يقع كفرٌ في الظاهر إلا ويقع كفرٌ بالباطن، ولكن كفر الباطن ليس مقتصرًا على التصديق الذي يضاده التكذيب، فكفر الباطن يقع بإرادةٍ من إرادات الكفر، تدافع الإرادات.

فالإنسان كل وقتٍ فيه هو تدافع الإرادات، تنام يأتيك دافع للعمل قم، فإما أن تأتي إرادة الكسل وإما أن تأتي إرادة العمل، تتصارعان، من الذي يغلب؟ الذي يغلب قوة الدافع، فالرجل الذي له تطلع إلى المعالي، تطلع إلى المال، تطلع إلى قضاء الحاجات؛ تندفع نفسه، والرجل صاحب الكسل والخور والجبن نفسه ذا قوة الدافع تدفعه إلى الجبن، تدفعه إلى الكسل، تدفعه إلى النوم، فالقضية في القلب هي تصارع إرادات، كلاهما معروض عليه، ويعلم أن هذا يمكن وهذا يمكن ويعلم ما هو الصواب، وإذا سُئل ما الأفضل أن تنام أم أن تقوم؟ يقول: أن أقوم لكن لا أريد أن أقوم، ويعلم أنه إذا قام تحصل المنافع أكثر من نومه، وهكذا يعلم أنه إذا أسلم سيدخل الجنة يعلم، يمكن يقول لك: الجنة بعيدة والنار بعيدة أمرهما من أمور الغيب، الدنيا الآن نصارع في الدنيا، فيستحب الحياة الدنيا على الآخرة، فالقضية إرادات.

من ذلك وضوح العلم، يقع في جوانب كثيرة وضوح العلم، قوة العلم في القلب وجلاؤه ودافعه، تقع، ولكن الإيمان في القلب إرادة اتباع الشريعة ومحبة الآخرة وإرضاء الله عز وجل، الكفر هو إرادة اتباع الهوى والعاجلة وعدم حضور معنى النار في قلبه مع علمه بوجودها، لا تحضر، ولذلك يقرر الإمام ابن عطية رحمه الله هنا هذه القضية على معنى من الوجوه عنده، يقول: بأن الكفر إذا استقر فهو لا يكون إلا كفر الجهل، ويمكن في الابتداء أن يقع كفر العناد، وإلا فالأصل عندهم الكفر هو الجهل الذي يضاد التصديق، هذه أحببت أن أبيّنها.

ثم يقول: «والعفو: ترك العقوبة وهو من عفت الآثار، والصَفْحُ: الإعْراضُ عَنِ المذْنِبِ كَأنَّهُ يُوَلِّي صَفْحَةَ العُنُقِ» نأتي إليها إن شاء الله.

نرجع إلى قوله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، فتبين لهم الحق بماذا؟ بأدلته، لا، الحق لا يبيّن من نفس المرء إلا بوجود الأدلة، عندما تقوم الأدلة، فإذن حصلت عندهم الأدلة والبراهين على صدق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، قال بعدها جل في علاه: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، والعفو تقدم وهو من أسمائه جل في علاه أنه العفو، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾ [الحج: ٦٠] والعفو هو محو الشيء، ويقال: عفت النار الشيء يعني أحرقته حتى أذهبته، فالعفو كأنه إزالة كل شيء، لم يبقى لها أثر، فالله عز وجل يأمر الصحابة رضي الله عنهم في التعامل مع هؤلاء اليهود بالعفو عنهم، قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، العفو لا تعاقبهم، أترك هذا أعرض عنه، والصفح هو الإعراض عما قالوه، العفو هو نسيانه كأن لم يكن وترك معاقبة فاعله، والصفح مأخوذٌ من صفحة العنق؛ ذلك لأن المرء حين يعرض يدعي الغفلة أو يحمل نفسه على الغفلة عما قيل، فيقال: صفح، فأمرنا القرآن بأن لا نعاقبهم وأن نعرض عنهم، أمرنا القرآن بأن لا نعاقبهم وذلك بقوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا﴾، وأمرنا أن نعرض عنهم وأن لا نجالسهم وكأن لم يكن.

وهذه كما ترون داعيةٌ إلى ما يسمى بالتغافل، هذه خصلةٌ ينبغي على المرء أن يتعلمها، اليوم لانتشار الافتخار ولقلة التربية الإيمانية، المرء يدقق حتى يدعي ما ليس في الوجود، من أجل ماذا؟ من أجل أن يخبر بأمورٍ هو مختص بها، وادعاءه بأنه يعلم ما لا يعلمه الآخر فيؤدي به إلى الكذب، لا يخبر ما يعلمه فقط، هو يزيد عما يعلمه من الحقائق، لماذا؟ ليحصل له الاختصاص بأنه يعلم هذه الأمور دون غيره، وخير خُلُق المرء التغافل أو التغابي من خير أخلاق الناس في التعامل فيما بينهم هو التغابي والتغابي هو ادعاء الغباء، فكما قال ابن حزم: إذا علم الناس منك الذكاء عادوك، فدعوة التغابي بمعنى أنك لا تعلم وبمعنى أنك لم تسمع، وهذه خصلةٌ عظيمة تليق بالكبار، هم من أذكى الناس وأعلم الناس بما في النفوس من خلال ملاحظة كلامهم، ملاحظة سلوكهم، ملاحظة تصرفاتهم، لكن يعرضوا عنهم.

وهنا كلمة رائعة في قضية لماذا هنا قال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ [البقرة: ١٠٩]، ولم يأمرهم بما أمر الله رسوله من الصفح الجميل كما في سورة «الحجر»، قال تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)﴾ [الحجر: ٨٥]، أمره بالصفح الجميل؟ قال: لأن المقام هو مقام التعظيم لرسوله فطلب منه أعظم مما طلب من المؤمنين، طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أعظم مما طلب من المؤمنين؛ فأمره بمرتبةٍ تليق به، فأمره بالصفح الجميل وهنا أمرهم بمطلق الصفح والإعراض.

وهذه ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، عند أهل العلم منسوخة، وهي بعد آية النسخ أول آيةٍ منسوخة، بعد قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، هي أول نسخٍ يذكر بعدها، وبما نُسخت؟ نسخت بآيات الجهاد التي جاءت بعدها، فإن الله سبحانه وتعالى أمر في هذه الآيات وفي أمثالها كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾ [آل عمران: ١٨٦]، فأمرهم بالصبر، وهنا أمرهم بالعفوي والصفح، فبعد ذلك هذه الآيات التي فيها هذه المعاني نُسخت، وأول نسخٍ لها هو قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)﴾ [الحج: ٣٩]، فأذن للمؤمنين أن يقاتلوا وكان ممنوع عليهم، ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]، فبعد ذلك أمر الله عز وجل المؤمنين بأن يقاتلوا، ثم قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠].

وبعض الناس من المعاصرين لنفي الأمر بجهاد الطلب وجهاد الدعوة قالوا: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾، هذا لا ينسخ؛ لان العدوان ظلم، فالله عز وجل يقول ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾، فهل هذه الآية تُنسخ؟ هل يجوز أن يُنسخ عدم العدوان؟ يعني هنا الله عز وجل سمى مقاتلة غير الذي يقاتلنا، عدوانًا، والعدوان مذمومٌ من كل وجه، وما دام أنه عدوان فعلى الشارع ألا ينسخه؛ لأن العدوان ظلم، فهذا مما استدلوا به، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾ [البقرة: ١٩٠]، فقال بعضهم هذه من الآيات التي لا يجوز أن تنسخ، وهي محكمة، والنهي على العدوان الذي يؤدي إلى مقاتلة غير المقاتل، ماذا يرد عليهم؟ يرد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: وهو قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾، ليس الأمر كما قالوا في موضوع الاعتداء، وهو الاعتداء عليهم ولكن أمر بعدم الاعتداء عما قرره الشارع، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ عما أمرتكم به هنا، أنا أمرتكم فقط أن تقاتلوا الذين قاتلوكم ولم أمركم بمقاتلة من لم يقاتلكم، فإن تعديتم هذا كنتم معتدين، أي إذا تعديتم أمري، ليتم ماذا؟ ليتم التوفيق بين هذه الآيات والآيات التي فيها أمر، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وآية السيف، قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، خلاص، كل مشركٍ قد أمر الشارع بقتاله، ما دام أنه محارب ولم يكن له عهدٌ ولا أمانٌ ولا ذمة ... إلخ، ومما نهى عنه الشارع من الأطفال والنساء بغير الصيغة التي أمر الشارع بها القتال، فإذن هذا معنى ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾، أي لا تتعدوا هذا الأمر الذي أمرتكم به، هذا قول.

الوجه الثاني: وهو قول الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، قالوا: قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، قال: الذين هم من شأنهم أن يقاتلوكم، وهم المحاربة، أفسرها: قال: المقصود هنا ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، أي قاتلوا ما من شأنه، وليس شرط أن يقاتل، ما من شأنه أن يقاتل؛ ذلك لأن الشارع سمى كل كافرٍ ليس بينه وبين المسلمين عهد ولا أمان ولا ذمة سماه محارب، وهذا بالإجماع، كل كافرٍ ليس بينه وبين المسلمين عهد وأمان ولا داخل في عقد الذمة فهو محارب فهو من شأنه أن يقاتل، فتسمية المقاتل والمحارب لا باعتبار اللغة ولكن باعتبار وضع الشارع، فلذلك قال: ما من شأنه أن يقاتلكم، وهذا القول الذي ذكرته رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب «أضواء البيان» في كتابه «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، وقال: وهذا أقوى.

قال أهل العلم: الشارع بدأ بهذا العفو والصفح وبعد ذلك أذن بالقتال ثم أمر بقتال المقاتلة وثم أمر بقتال كل الكفار.

سؤال الأمر الشرعي ما هو وجهه؟ يعني الإسلام ما هو وجهه؟ أول شيء الإسلام والجهاد عندنا هو قتال المحاربين بمعنى قتال القوم الذين لهم السطوة والقوة، لا يجوز في الإسلام بقاء أحدٍ في الأرض له سلطان كفري على البشر، لا يجوز، الشارع لا يأمر كل كافر بأن يسلم، بل أعطى حرية الإسلام والكفر لكل

أحد، إلا أنه منع الردة، حتى القول الصواب يجوز للمرء أن ينتقل من دينٍ كفر إلى دين كفري، وإن كان في المسألة خلاف، أي بمعنى لا يجوز عند بعضهم أن ينتقل المرء من دينٍ كفريٍ أعلى إلى دينٍ كفريٍ أدنى، بعض أهل العلم يقول: لا يجوز للنصراني أن يصبح بوذيًا أو مجوسيًا، لأن دينه خير من الدين الذي انتقل إليه، لكن هذه في الحقيقة ليس هناك ثمة أدلة على ذلك، الدليل يجوز للناس أن ينتقلوا من أديان الكفر إلى أديان الكفر أو من أديان الكفر إلى دين الإسلام، لكن ممنوع (من بدل دينه فاقتلوه).

والله عز وجل قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] قرر، فمن الذي نقاتل إذًا؟ نقاتل الأنظمة الكفرية على البشر جميعًا، هذه الأنظمة هي التي تُقاتل؛ ليبقى الناس تحت سلطة الإسلام قدرًا وتحت سلطة الإسلام شرعًا، وبعد ذلك لهم الاختيار.

الأمر الثاني: وهو المهم جدًا في الباب أن هذا الحكم الشرعي يتوافق مع الحكم القدري في الحقيقة، القرآن قرر حقيقة الكافرين، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، بعض الناس يريد أن يصنع وهمًا جديدًا وهو ما يسمى بالسلام في العالم، وهذا لا وجود له، ما دام في كفر فهو مُبغض للحق، والقرآن يقرر إن أقرب الناس إلينا هم حاسدون لنا، والكفر لا يقبل المجاورة، الكفر لا يقبل للطيب أن يجاوره، ولذلك حالة الصراع بين الجاهلية والإسلام حالةٌ قدرية، فلما واحد يأتي ويقول: خلاص نحن لا نقاتل من لا يقاتلنا، أين هذا من الوجود؟! في التاريخ الإنساني أعطني هذه الصفة!! قد توجد من فرق صغيرة هنا وهناك منسلخين عن الدنيا وفيهم ابتعاد عن صراعات الدنيا وهم يعيشون كأحوالهم، هؤلاء ليسوا هم الأغلب، والقاعدة تجري على الأغلب وليس على النادر، ولكن في تاريخ البشرية كل كفرٍ يسعى إلى السيطرة على الآخر إلى إزالة الآخر، وبالتالي يُعطي المسلمون هذه الصلاحية لتعالج الواقع.

ولذلك لما ذكرت في قضية الخوارج في قوله صلى الله عليه وسلم: (لأقتلنهم قتل عاد)، وتأملت لماذا لم يفعل هذا عليّ رضي الله عنه؟ علي رض الله عنه لماذا لم يبتدئ الخوارج بالقتال؟ -وكتبت هذا- لماذا؟ لم يبتدئ الخوارج بالقتال لقوله بعد ذلك لن نمنعهم مساجد المسلمين لن نمنعهم فيء المسلمين، قال: إلا أن يقاتلونا وسيقاتلوننا. يعني في النهاية الخارجي حمية التكفير في قلبه وبغضه للمسلمين سيقاتلهم في يوم من

الأيام، هذه العقيدة لا يمكن أن ترضى السكون ولا الانعزال، سيكون شأنها دائمًا التحريض، فالقرآن يقرر لك قاتلهم على حقيقة ما هم عليه، وهكذا الكفر، الكفر لا يمكن أن يكون مسالما، لا يمكن، يقرر لك: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، يقرر لك: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣]، قريش ما الذي ينقمها؟ لماذا ينقمون؟! النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمنى أن تخلي قريش بينه وبين الناس، لماذا لم يخلوا بينه وبين الناس؟ لأن هذه طبيعة الكفر.

والذي يتحدث عن السلم العالمي الآن هذا ليس جاهلاً في الشرع، الجاهل في الشرع كثير هذه الأيام لا يعاتب عليها المرء كثيرًا لكثرتها، هذا جاهل بالقدر، هذا جاهل بما تنتصب بمثله وهو أكثر انتصابًا في الوجود من الجبال واحد لا يرى الجبال ماذا نفعل له؟ ماذا نصنع له؟ فالكفر الآن لا يسكت هو لا يتركك هو يسلب أرضك، هو يسرق مالك، هو يغير دينك، يسعى إلى تغيير دينك، يحاربك، فمن جاء الشارع بأن تبدؤوهم أنتم هذه حقيقة.

ومرةً أعجبني أحد الشباب يناظر شيخًا بأنه لا يوجد إلا جهاد الدفع، قال له الشيخ: لا يوجد إلا جهاد الدفع، قال الشاب: ألا يوجد جهاد الطلب؟ قال له: لا، قال الشاب: أفهمني الإسلام انتشر من المدينة منورة حتى دخل الأندلس ووصل إلى الصين كل هذا دفع؟ الشيخ قال له: نعم، كله دفع، هو صدق كله دفع هو في الحقيقة دفع، لأن الكفار لا يسكتون، في كل مرةٍ الكفار هم الذين يبدءون، ولكن بلا شك أن هذا قولٌ جاهل، نحن لا نتقيد بهذه الأمور، نحن نثق بديننا أنه يقول الحق وأن الله عز وجل يعلمنا ما هو مصلحة لنا في ديننا ودنيانا.

المهم انتهى الأمر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، من نقطة الثالثة هل هذه الآية نسخت بمعنى أنه لا يجوز العمل بها؟ هل يجوز لأحد مثلاً أنه إذا عجز يومًا أن يصلي إلى الكعبة أن يصلي بيت المقدس؟ هل هذا على نفس المعنى في هذه الآية؟ الجواب: لا، ولا شك، هذا يفترق عن هذا، لكن في مرات للمرء إذا عجز عن التوجه للكعبة أن يتوجه إلى حيث شاء، قال تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، اسقط الشارع حكم التوجه إلى جهة الكعبة عند العجز، بل عند كثيرٍ من العلماء أسقط التوجه إلى الكعبة ليس عند العجز، لكن في مرات يقع فيها معنى

صلاة الاستحباب مثل الصلاة على الدابة، بعض أهل العلم يقول: لابد عند التكبير أن تكون متوجهًا إلى الكعبة، كما هو مذهب الشافعي، والأقوى أنه يجوز له أن يصليها على الدابة حيث توجهت به الدابة ولا يشترط أن يتوجه إلى الكعبة، يعني الشرع جاز هذا، فهذا من هذا النوع.

بمعنى عند العجز عن مقاتلتهم عند العجز عن إظهار دينك لما يفعلون فيجوز لك أن تعمل بهذه الآية ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، وبهذا لا يقال هذه أنسئت كما قال بعضهم، كما قال صاحب «البرهان» الزركشي وأخذها بعض المعاصرين، وجعلها آيةً ملزمة، المشكلة في هؤلاء جعلوا معنى الإنساء في هذا الباب آية ملزمة، بأنه إذا حضر وقت الضعف؛ وجب العفو والصفح، ونحن قلنا سابقًا من غير تفصيل: بأن ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة» عندما أتى إلى نفي النسخ الكامل، الكلي، قال: أبقى بعض أحكامها، ومن ذلك هذا، قال: الشارع نسخ التوجه إلى بيت المقدس، لكن أبقى بعض الآثار، ما هي؟ (لا تشد الرحال)، جعل لها بقاء القيمة، لأنها مهمة، فقال: أبقى بعض الأحكام، وهكذا، جرى على هذا المعنى في هذا الباب.

فالقول: بأنه هذا واجب، يجب المصير إليه كما زعموا، لأنهم أرادوا أن يقولوا: بأن العفو والصفح أنسئ بمعنى حضر وقته فوجب العمل به، فحينئذٍ يكون القتال حرامًا، نقول: هو بقي على معنى من المعاني، وليس المعنى التام، فهل معنى ذلك أنه حين يعجز المرء عن التوجه إلى الكعبة، يحرم عليه التوجه إليها؟! من قال هذا؟! حين رفع الشارع وجوب التوجه إلى الكعبة عند العجز، فلو توجه إليها المرء واجتهد جاهدًا ليقع التوجه إليها، هل اجتهاده هذا منهيٌ عنه؟! ولذلك قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، هو بابٌ من أبواب الرحمة الإلهية في بقائها، لتعمل بها عند مقتضاها، ولكن ليس على الوجه الذي يلغي العزيمة التي استقر عليها الحكم، فلو قام أحدهم فقاتل هؤلاء لما عُد هذا إلا أخذًا بالعزيمة، لأحاديث كثيرة، للأخذ بالعزيمة أحاديث كثيرة، خاصةً حين يتعين بيان الحق، خاصةً حين يتعين عليه فحينئذٍ لا يجوز له الأخذ بالرخصة.

هذا الشيء الثاني: فقوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، هذه إشارة إلى قضية تعلق هذا الحكم وعدم بقائه، قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، فيريد أن يقول هناك أمرٌ قادم لله عز وجل يلغي هذا الموقف الذي أنتم فيه، وقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِ﴾، هو بحكمه، وحكمه ماذا؟ يعني النصرة، يعني

نصرته؛ لأن قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، إنما هو لمناسبة الحال الذي هم عليه، فلما تغير الحال تغير الحكم، وما هو تغير الحال؟ أي يصبح لكم يد القوة، اليد التي بها بسط السلطان والقدرة على عقوبتهم، وهذا ما حدث بعد بدر فإن اليهود لم يكونوا يفصحون ويظهرون كراهيتهم للإسلام إلا بعد بدر، فإنهم أظهروها فأمر الله عز وجل بقتالهم، فقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، هذا يعطي المؤمن الترقب لما سيأتي، فقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، أي بحكمه الآخر، وكذلك بقدره الموافق لحكمه الآخر؛ لأن الأحكام تبعٌ للوقائع كما تعلمون.

قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، هذه إشارةٌ إلى النصرة الإلهية، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾، يعني سيغير الحال إلى أحسن مما أنتم فيه؛ فيقع النصر الإلهي، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقد تكرر هنا هذا القول الإلهي كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾ [البقرة: ١٠٦]، وتكرر هنا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾ [البقرة: ١٠٩]، جل في علاه، فهو الأقدار بيده والأحوال بيده، وإنما تجري الأحوال فتنةً للناس، تجري الأحوال والتغيرات مرةً في عزة ومرةً في ذلة ومرةً في قوة ومرةً في ضعف، كل هذا من أجل ابتلاء الناس وأن يكون الناس على أحوالٍ متعددة من أجل أن يقع الابتلاء الإلهي لينظر كيف يعملون في وقت العزة؟ في وقت الذلة في وقت الضعف؟ في وقت الغلبة؟ هذا امتحان للناس، فالله عز وجل يغير الأحوال ابتلاءً للناس، فقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، وانظر هذا الله عز وجل الذي يأتي بالأمر، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كل شيءٍ هو بيده جل في علاه.

وبعد أن انتهى الخطاب في قضية التعامل مع الآخرين في هذا الباب، أول شيء انظر ماذا قدمت لنا الآيات السابقة؟ قدمت لنا امتلاءً إيمانيًا أنكم على الحق، وقدمت لنا امتلاءً نفسيًا، امتلاء على حقيقة العلم إيماني وامتلاءً نفسي بأن الله ناصرهم، هو يخوض في أمر الله فهذا امتلاء نفسي هذا، الآيات قدمت أنك على الحق، وامتلاء نفسي بأن الله عز وجل سينصرك، وبيّنت حقيقة الخصم ما هو عليه وكيف يفكر؟

وأنا دائمًا أقول وأكرر: إن أعظم ما في القرآن أنه يكشف حقيقة مخالفينه، وما خطأ المخطئين في هذا الزمان وفي كل وقتٍ في التعامل والسوء في التعامل مع الكفار والسقوط في الذلة والسقوط في الخطأ إلا

بسبب جهلنا بخصومنا، لا نعرف خصومنا! لا نعرفهم! ومحاولة التبرير لهم وإسباغ المسوغات على أفعالهم هذه أكبر جريمة يقع فيها المسلمون بعيدًا عن القرآن، يخالفون كتاب الله عز وجل في كشف حقائقهم ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، كيف؟ فيكشف هذا كله ثم يأتي شيخ ويقول: هم جهلة، هم لا يعرفون، اعذرهم بسبب عدم قيام الحجة عليهم، وتبدأ مثل هذه الكلمات الغبية الجاهلة التي فيها الانحراف عن منهج الله عز وجل.

فبعد أن علمنا الله عز وجل حالنا مع أعدائنا وحال أعدائنا معنا أمرنا أن نلتفت لأنفسنا، انظر هذا الحديث الطويل عن أعدائنا في تعاملنا معهم يُنسي المرء بأن ينظر لنفسه في تربيتها وفي تقويمها وفي إصلاحها وفي العناية بها، ينسى المرء، فجاءت هذه الآيات التي بعدها، من أجل ان تأمرك أن تعتني بنفسك، لأن الاعتناء بنفسك هو مادة النصر التي تحقق غلبتك على أعدائك، فمن غير التفاتٍ لنفسك لا قيمة حتى لو أدركت عقلاً من هو عدوك، حتى لو أدركت خصومة عدوك لك، فانظر إلى التفات إلى أن الله عز وجل أعطاكم من النعم التي بها تتقوى نفوسكم وتصلحون بها حالكم، وهذه طريقةٌ قرآنية، حين تتحدث عن الواقع وما فيه إياك أن تشير إلى الناس أنهم جزءٌ من الواقع، وأن المفاسد التي في الواقع إنما هي بسببكم، حين تتحدث عن خصومة الأعداء وما يمكرون بالأمة وما يتأمرون عليها إياك أن تنسى بأن تحدث أن الامة كذلك بسبب ما هم فيه ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، لا تنسى هذا، وهكذا كذلك لما تتحدث عن تربية الأمة لنفسها يجب أن تبيّن أن صلاحها في التربية لا يكون إلا بمجابهة أعدائها، هذان أمران متلازمان.

وللأسف الناس يغفلون هناك جماعات ربما تبقى الليل والنهار تتحدث عن غفلة الناس المسلمين وعن تربيتهم لأنفسهم، ولا يتحدثون عن حال الكفار معهم، ويقول: اتركوا الكفار ما لنا وما لهم، انشغلوا بأنفسكم لا تنشغلوا بأعدائكم، وهذا ضد القرآن، وهذا ضد منهج كتاب ربنا سبحانه وتعالى، والذي يأتي ويقول: المشكلة في أعدائنا وينسى في أن يحول نظره إلى تربيته للأمة كذلك هذا مُخطئ ويقع في أخطاء كبيرة، ولذلك بعد أن انتهى هذا الخطاب القرآني في حديثه عن الكافرين وحال المؤمنين معهم وحال الكفار معهم، قال جل في علاه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١١٠]، انتبهوا، قوموا أنفسكم بهذا، ولا بأس

أن نشير بأن القرآن هو الذي يجعل التقويم، ليس ما يفعله الناس ليس ما يقوله المشايخ وليس ما تقوله الجماعات كيف نقوم أنفسنا؟ علموا الناس وأقيموا الصلاة، علموهم،

وأحدهم يقول: أن تتكلم فقط أن الصلاح في كتاب الله؟ أنا أسألكم: لو أن رجلاً أتى لكتاب «إحياء علوم الدين» أليس هو كتاب تربوي؟ نريد أن نقارن بأفضل كتاب تربوي منتشر بين أيدي الناس قديمًا وحديثًا، ولا يغفل المرء عن منافعه، وهذا ليس حديث عن منافعه وعدم منافعه، لا، هناك إقرار بأن له المنافع العظيمة، لو قرأت فيه ساعة، وقرأت في كتاب الله ساعة، غير متدبر، لكن قرأته متعبدًا، تقرأ في القرآن ساعة تقرأ جزئين ثلاثة فبعض الناس يمكن أن يقرأ بالساعة ثلاثة أجزاء وبعضهم يقرأ جزئين، فبين الجزئين والثلاثة في ساعة من الزمن، فمن الذي يتحصل التربية؟ لا أتكلم هنا عن أن تعمل بالقرآن، ولا قبله على أن تدبير فيه، فقط أن تتعبد، من الذي يحصل في قلبه الصلاح أكثر من قرأ في هذا الكتاب أم من قرأ في كتاب الله؟ فعندما نقول: يا رجل هذا قرأ ساعة في كتاب الله هذه تربية.

فلما نقول: الصلاح والتربية بكتاب ربنا، وهذا يقول: يعني هو كيف؟ نحتاج إلى كتب أخرى، أنا لا اشكك. ولا أنهى عن القراءة في الكتب الأخرى، ولكن أنا أقول: انتبه إلى كتاب الله عز وجل هو الذي فيه الصلاح، وأول الصلاح أن تقرأه، لو أن الذين يتحدثون عن الصلاح هم أنفسهم يقرأون في كل يومٍ ساعة في كتاب الله، يحصل لهم الخير العظيم من التربية، مع كثرة القراءة يحصل لهم العلم والتدبر ويحصل لهم البكاء والخشية والمراجعة والنظر إلى غير ذلك، وكذلك نأتي إلى بعضهم من الجهالة يقول: كيف يؤمر العامي بالتدبر؟! أليس في القرآن كلام عن القيامة يفهمه العامي العالم؟ أليس به الأمر بالصلاة يعلمه العالم والعامي، ولكن هناك مراتب بلا شك، لكن هناك كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: التفسير على أربعة أقسام، أوله لا يجهله أحد، العامي يعلمه، فإذا قرأه فهمه وعلم ما فيه هذه المرتبة الأولى من الفهم.

فلذلك لما يقول ربنا عز وجل في القرآن: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أهذه التربية؟ هذه تربية، حين يقيم الصلاة يقرأ القرآن، حين يقيم الصلاة يقوم الليل، حين يقيم الصلاة يصلي الضحى، حين يقيم الصلاة يصلي اثنتي

عشرة في كل يوم فيبنى له بيتٌ في الجنة [١]، حين يصاب بالبلاء، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، يدرئ هذا البلاء بالصبر وبالصلاة، وحين تأتيه الاختيارات التي لا يعرف الخير فيها يقوم إلى صلاة الاستخارة، فصلاح الأمة علمهم الصلاة، لماذا يتم التحقير لهذه الأوامر القرآنية من خلال تعظيم القراءة في الكتب الاخرى ليتم الصلاح؟ أقيم الصلاة، لو أن الناس يقيمون الصلاة على وجهها الحقيقي، (خير الصلاة طول القنوت)، أن يطيل، كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في كل ليلة إحدى عشرة ركعة، أقيموا الصلاة هذه هي التربية تحصل بها التربية، يستقيم حال المرء بالصلاة.

قال تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، فهذه زكاة البدن وهذه المال، ولا شك أن هذه الزكاة تصلح القلب وتعلمه الشجاعة وتعلمه الكرم وتعلمه الرحمة على الأمة وتعلمه الإحساس بالآخرين، هكذا تقام وشائج المحبة في قلبه، بهذا العمل العظيم بالزكاة يتصدق، وجعل الله عز وجل لها حدين، الحد الأول: غير محدد، أنه ينفق من غير أن يحدد، والحد الثاني: أن ينفقه بطريقة محددة وهي الزكاة، الأولى الصدقة المطلقة والثانية الزكاة، قال سبحانه وتعالى منبهًا إلى أن نقوم بأمرنا وللاعتناء بأنفسنا في طاعته لأن هذا الصراع كله هو صراعٌ ديني، يتعلق بحق الله عز وجل في الوجود، أنت عبدٌ لله عز وجل فيجب عليك أن تقاتل وأن تعادي وأن تقوم بما يتعلق بحق الله.

وأنا هنا أمام نقطة مهمة جدًا وهي مهمةٌ جدًا، أعظم ما يفيد قارئ القرآن أنه يجذبك إلى قضاياه، انتبهوا إلى هذه –هذه مهمة جدًا– والذي لا يعتني بها تموت حياته وتنتهي وهو يعتني بشهوات ويعتني بخصومات لا قيمة لها، أنت في هذا اليوم ربما تختلف مع زوجك، تختلف مع ابنك، تختلف مع جارك، تختلف مع صاحب المحل مع البائع، تختلف مع صاحب المصلحة مع المعلم مع المدير، فلك قضايا، هذه تشغلك، وأنت فجأة تذهب من هذا كله، هذه نعم لها أحوالها ولها مستوياتها من الحل والتعامل معها، ولكن الأعجب لما أنت تذهب إلى القرآن فيشدك إلى قضاياه، يعني تصور أن رجلاً –قبل أن نأتي إلى هذا– تخاصم مع زوجته في موضوع البيت والمال وما شابه ذلك فجاء إلى القرآن ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾،

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم: (ما من عبدٍ مسلمٍ يصلّي للهِ تعالى في كلِّ يومٍ ثِنْتي عشرةَ ركعةً تطوُّعًا غيرَ فريضةٍ إلا بنى اللهُ تعالى له بيتًا في الجنَّةِ، أو: إلا بُنِيَ له بيتٌ في الجنَّةِ: أربعًا قبلَ الظهرِ، وركعتَين بعدَها، وركعتَين بعد المغربِ، وركعتَين بعد العشاءِ، وركعتَين قبلَ صلاةِ الغَداةِ)، أخرجه مسلم.

هناك قضية قرآنية، انظر ماذا يصنع القرآن يشدك إلى قضاياه، يشدك إلى صراعك مع الكبار، مع أعدائك، مع اليهود، عندما يقول ربنا جل في علاه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، هناك صراع أعظم، اختصمت أنت وجارك اختصمت على دينار دينارين، فيأتي القرآن ليرفع درجة نظرك في الخصومات إلى ما يتعلق بالجنة والنار، إلى ما يتعلق بأعدائك، ويربطها بالدين وبالله وبحق الله في الوجود.

يمكن لأحدهم أن يقول: يمكن أن جريدة أو أقرأ كتابًا فأعرف ماذا يتآمر علينا الكفار!! هذا الخبر في الجريدة أو الكتاب لا يصنع هذه الخصومة في الله، عندما تقرأها في القرآن هذه الخصومة تكون في الله، هذا أمرٌ عظيم أنت بحاجة إليه، ليس فقط على مستوى الاطمئنان عندما تقرأ القرآن فتنزل السكينة ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد: ٢٨]، وأعظم الذكر هو قراءة القرآن، لكن من أعظم ما يحصل هو أن القرآن يشدك إلى قضاياه، يشدك إلى القضايا العظمى التي تحتاجها في دينك ودنياك، ثم هو يربط هذه القضايا العظيمة بالله عز وجل والدار الآخرة، من هنا تربية القرآن الخاصة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، ثم بعد ذلك بيّن عظمة هذا الأمر، فقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، انظر، نبهك إلى عظم هذه الأعمال بأن الله عز وجل ليس محتاجًا لها، الله عز وجل لا يريدها لنفسه، هذه لك، والقرآن كرر هذا كثيرًا، بأن كل ما تفعله إنما يعود عليك أنت ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾، قليل أو صغير، لو حسنة (تبسمك في وجه أخيك صدقة)، الحرف في القرآن بعشر حسنات، ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، تصور، فأطلقها، فقال ربنا عز وجل: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾، أي قليل وكثير، ودل على القليل ليأتي الكثير من باب الأولى.

قال تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، انتبه هنا إلى الخطاب القرآني كلمة ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، تعطي للمؤمن الاطمئنان، لأنه عند عظيم وعند من يبارك فيه، وعند من يكرمه، فلو كان عند غير الله لاحتمل النقصان، لاحتمل السرقة، احتمل عدم النماء، لا ينمو، فالله عز وجل نبه إلى عِظَم هذه الأعمال أنها تحفظ عند الله عز وجل، هي عظيمة لكرامتها في أنها عند الله عز وجل، فالله عز وجل لا يكون عنده إلا الخير، وإلا فإن النفس الخبيثة تحرم من الصعود إلى السماء، ما الذي يصعد إلى السماء؟ العمل الصالح يرفعه والسيء لا يرفعه بل ينبذه والروح الخبيثة لا تدخله لا تلج السماء لا تلج باب السماء، فالخبيث لا يلج ولا يكون عند

الله عز وجل، فلذلك قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾، قال: اطمئن، ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، فدل على أن الخير عظيم لأنه عند الله عز وجل، والله عز وجل ليس عنده إلا الخير، ودل على أنه ينميه ودل على أنه يبارك فيه ودل على أنه مأمون وأنه مبارك فيه، وهذا كله تعظيم لشأن كلمة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، هذه يجب أن ننتبه لها وأن نتعامل معها تعامل العاطفة والشغف.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وتعلُق ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾ [البقرة: ١١٠]، ليست بحاجة إلى أن ترفع العمل تسجل عليه وتقدمه إلى الله، لا تحتاج، فإنك قد تعطي الشيء من المال وتضعه عند الآخر وتنبهه أنك وضعته عنده، الله عز وجل لا يحتاج لذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، دل ذلك على أن كل شيءٍ عند الله عز وجل مسجل وأنه يعلمه حتى ما يجري في نفسك من أحاديث، بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، اي أنه سبحانه وتعالى على كل شيءٍ بصير، كل ما يبصر في الوجود الله عز وجل يحيط به ومطلع عليه ولا يفوته جل في علاه، وهذا -انتبه- في أن كل حديثٍ في الوجود، كل حديث، كل خبرٍ في السماء وفي الأرض، كل حدث يجب أن تربطه بالله عز وجل، وهذا هو منتهى التعبد ومنتهى الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع والسبعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس التاسع والسبعون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾ [البقرة: ١١١-١١٢]، هذه من جملة دعاوى اليهود وكذلك من تبعهم من النصارى بل دعاوى الفريقين في قضيةٍ من أعظم القضايا التي يتحدث عنها الأنبياء جميعاً وهي العاقبة، الأنبياء جاءوا ليبيّنوا الحق ويبيّنوا مصدره ويبيّنوا سبل معرفته، ومعرفة ما يضاده، وكذلك لمعرفة أين مقر كل فريق.

فبعد أن تحدث القرآن عن دعواهم في قضية الحق، وأنهم حسدوا الصحابة رضي الله عنهم على الحق الذي ينزل عليهم وما خص الله عز وجل هذه الأمة من الفضل، وبين الحق كما هو، جاء ليتحدث عن العاقبة، كيف نظرة هؤلاء القوم أي اليهود والنصارى إلى العاقبة؟ كيف يتعاملون معها؟ القرآن بيّن أنهم تركوا اتباع الأنبياء، ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وكرهوا ما أنزل من الفضل الإلهي على محمد صلى الله عليه وسلم، وبيّن أن اليهود يحبون أن يَضل هؤلاء القوم ويخرجوا عن الجادة إلى الباطل، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فبعد هذا جاء ليبين لنا دعوة جديدة من دعاوى هؤلاء القوم الفاسدين وهي في كيفية نظرتهم إلى الجنة والنار، فقال سبحانه وتعالى في هذا الموطن: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، هم ادعوا قبل ذلك أنهم لن تمسهم النار إلا أيام معدودة، وبالتالي هم حكموا على أنفسهم أنهم في عاقبة الأمر

إلى الجنة، وكذلك الله عز وجل بيّن في مواطن أخرى أنهم ادعوا أنهم أبناء الله وأحبائه، ولذلك هم لن يعذبوا والله لا يعذبهم لأنهم أحباء الله ولأنهم أبناؤه، ولذلك يشفق ويرفق الأب على أبنائه وبالتالي هم من أهل الجنة، الآن هم قصروا الجنة على أنفسهم.

والجنة هي اسمٌ لمستقر المؤمنين يوم القيامة، وسميت الجنة لكثرة ما فيها من ثمار، وكثرة ما فيها من خيرات، وحرف الجيم كما يقول العلماء أهل اللغة، حرف الجيم إذا جاء مع النون في أي كلمةٍ دل على الستر، كالجن فهم لا نراهم، مقابل ما نراه، وكذلك جن الليل أي ستر الليل، ويقال: الجنون كذلك لأنه يستر العقل يذهبه، ويقال هنا: الجنة، الجنة لماذا؟ لأن كثرة ثمارها وأشجارها تؤدي إلى ستر ما في داخلها، ثمارها كثيرة ومدلاة على أهلها ومترامية وعالية وكثيرة وكثيفة فلذلك تستر ما تحتها، فلذلك هي جنة، وقيل غير ذلك، قيل: أنها جنة لأنها مستورة عن أعين الناس اليوم فهي من عالم الغيب، مستورة، وقيل غير ذلك، المهم أن هذه الجنة هي وعد الله عز وجل للمؤمنين بعملهم، فقال تعالى: قالت اليهود والنصارى ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾، أجزموا أنها ممنوعة هذه الجنة إلا على صنفهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وجود هنا ﴿أَوْ﴾ الدالة على التفريق وليس الجمع، دل هذا على أن كل واحدٍ منهما يقول: بأن الجنة له، ولا يعني هذا أن اليهود يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ونصرانيًا، ولا يمكن أن يقال كذلك: بأن النصارى قالوا: إن الجنة لن يدخلها إلا من كان يهوديًا أو نصرانيًا لا يمكن أن يقولوا هذا، لماذا؟ لافتراق العقائد فلابد من افتراق الأقوال، افتراق الحال يدل على افتراق الأقوال، وهذا من الاختصار القرآني ويسمى اللف عند أهل العلم من أهل البلاغة بمعنى أنه جمع الأمرين بإيجازٍ على معنى واحد، اعتمادًا على فهم السامع وتفريقه، يعني لا يمكن للسامع أن يفهم أن اليهود يقولون: بأن الجنة لن يدخلها إلا من كان يهوديًا أو نصرانيًا لا يمكن، اليهودي يجعل الخيار بينه وبين اليهودي وهو يلعنه في أنه لا يدخل الجنة إلا من هو، كان هو أي يهوديًا ومن كان نصرانياً لا يمكن، وكذلك النصراني الذي يرى أن اليهودي قد كفر بنبيه أو بإلهه كما يقولون، فإنه لا يمكن أن يجعل احتمال دخول الجنة له، فاعتماد المتكلم على ذهن السامع وتفريقه جمع بينهما ولماذا؟ لاختصار حتى لا يقول: وقالت اليهود: لا يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا ما كان من كان نصرانياً اختصاراً لهذا.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، ﴿هُودًا﴾ يعني بمعنى اليهود، أي إلا من كان يهودًا أو نصارى، وقالوا أزيلت «ي» هنا لتسهيل، وقال بعضهم: المقصود ﴿هُودًا﴾ أي هنا بمعنى الاتباع أي اهتدوا أو بمعنى اتبعوا، أو بمعنى ساروا، واليهود والنصارى كلمتان لم يطلقهما القرآن على المؤمنين، وإنما لما مدح أتباع عيسى عليه السلام سماهم أنصار الله، وأما كلمة النصارى فلم يطلقها إلا النصارى على أنفسهم، وكذلك اليهود هم أطلقوها ولم يطلقها القرآن عليهم وإنما كان يسمي القرآن أتباع الأنبياء بالمسلمين، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨]، يعني أتباع كل نبي لم يسميهم ربنا عز وجل إلا المسلمين هذا هو الاسم الذي ارتضاه لجميع أتباع الأنبياء، ولكن اليهود سموا أنفسهم هذا، ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي اتبعناك، سرنا وراءك، كأنك أنت هديتنا فمشينا وراء، والنصارى كذلك هم قالوا: نحن نصارى، فلذلك هو اسمٌ اختص كل قوم أنفسهم به، فقصروا الجنة على هذا الاسم الذي قصروه.

والقرآن رد عليهم بأمرٍ هم يعلمونه في كتبهم: بأن القرآن لم يتكلم عن هذا قط، لم يقل لأن اليهودي حتى لو كان على الحق فهو اسمٌ لا يدخل فيه من كان من أتباع الأنبياء السابقين، يعني يوسف عليه السلام لا يقال عن أتباعه يهود، وأتباع نوح عليه السلام لا يقول أحد أبدا عنهم، حتى اليهود لا يقولون عنهم: أنهم يهود، وأتباع هود عليه السلام لا يقل: اليهود عنهم ولا هم يقولون عن أنفسهم: أننا يهود، فإذن هذا يدل جزمًا على أن القرآن لم يخبر اليهود بهذا، وكذلك النصارى حتى لو صح هذا الاسم على جهة المدح، فإنما هم أنصارٌ لعيسى عليه السلام، عندما كفر به بنو إسرائيل، ولم يدخل النصارى أتباع نوح عليه السلام بهذا الاسم، فلذلك كل قومٍ خصوا أنفسهم بهذه الاسماء قالوا: نحن يهود، والنصارى قالوا: نحن نصارى، ولما خصوا أنفسهم بهذه الألقاب التي ليست من القرآن، المقصود ليس مما قرأوه في كتبهم، ليس من التوراة وليس من الإنجيل وإنما هي أسماء رضوا لأنفسهم فيها على حال من الأحوال إما المدح أو الذم، فإن كلمة اليهود هدنا إليك أي اتبعناك، والنصارى من الأنصار خذوها على هذا المعنى لا نريد أن نقف عندها.

فلذلك أنتم خصصتم أنفسكم بهذه الأسماء ثم قصرتم الجنة على أنفسكم من غير برهان من القرآن، والقرآن لا يقول هذا، القرآن الذي بين أيدينا كما التوراة التي بين أيديهم كما الإنجيل الذي بين أيديهم، لا

يقول: بأن أتباع هذا النبي فقط هم الذين يدخلون الجنة، لم يقل القرآن هذا، ولا قال لأهل الإنجيل: لن يدخل الجنة إلا من اتبع عيسى عليه السلام، وإنما يقول: الذي يدخل الجنة هم المسلمون هم المؤمنون، وجعل شروطاً للإيمان وجعل شروطاً للإسلام وجعل شروطاً للإحسان.

ولذلك ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾، دل على أن هذا كذب وافتراء ليس من الكتاب في شيء ليس من التوراة، ليس في التوراة أنه لن يدخل الجنة إلا ما كان يهودياً، وليس في الإنجيل لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، وبحمد الله هذه الأمة ليس لها اسم إلا الإسلام، لم يتسموا بغير هذا الاسم، وحاول المستشرقون في كتابتهم أن يسموا هذه الأمة بالمحمديين، حاولوا تسمية لهم بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم وهذا اسمٌ تشريفي، ومع ذلك لما يدخلوا في هذا المعنى القرآني المخالف لقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾، لن يرضى المسلمون هذا، المسلمون لم يقبلوا هذا الاسم، ولا تعاملوا معه، ومات هذا الاسم هم يتعاملون فيما بينهن ولكن الإسلام لا يقبله، اليهود لما أطلقوا هذا الاسم على معنى من معاني الباطل في أنفسهم قبلوا ومشى عليهم ورتبوا عليه أحكاماً منها هذا الحكم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتهم ودينهم، والنصارى عندما أطلقوا هذا الاسم عليهم لم يطلقه القرآن عليهم ولا الأنبياء أطلقوا هذا، أي عيسى عليه السلام لم يطلق هذا الاسم عليهم -أنا أقصد بالقرآن يعني ما يقرأ، أعود وأكرر- فليس في الإنجيل هذا، فهم رتبوا عليه الأحكام.

وهنا نأتي إلى مسألة مهمة وهو أن معنى الأسماء اصطلاحية ومعنى المصطلحات عرفية إلا أنه لا يجوز أن نصطلح على أسماء نرتب عليها أحكاماً خاصة بها، لا يجوز، الاسم لا يكون على المصطلح الحادث، الاسم يكون على العمل، الحكم الشرعي يكون مترتب على علة على عمل، وليس على مصطلح، فلا يجوز لأناس أو قوم أن يصطلحوا على لقب من الألقاب ثم يرتبوا على هذا اللقب أحكاماً قرآنية.

ومثال ذلك: مثال أهل العدل والتوحيد من المعتزلة، سموا أنفسهم بهذا الاسم ورتبوا عليه حكماً بأنهم هما أهل التوحيد دون غيرهم، وأنهم هم أهل العدل وغيرهم أهل الظلم في قضية الإلهيات دون غيرهم، وهكذا اتباعهم.

فلا يجوز لأحد أن يبتدع اسمًا وحتى لو كانت الأسماء اصطلاحية أي مما يجوز أن يُتعارف عليها إلا إذا خالفت، فتكون باطلة إذا ترتب عليها حكمٌ لم يأت به القرآن والسنة، وهذا من أعظمه؛ أنهم ابتدعوا أسماء حتى لو كانت حقاً في نفسها إلا أنها باطل باعتبار ما رُتب عليها من أحكام، يعني قد يكون الشيء حقًا –وهذا تكلمنا عنه– ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، رتب عليه ماذا؟ معنى باطل مكروه في نفس متكلمه أو سامعه، قد يكون متكلمه مصيب، ولكن سامعه يفهمه على معنى باطل فاتركه لئلا يحدث اللبس.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، القرآن رد عليهم وبيّن أولاً أن هذه دعوة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، الأماني من الأماني، والأماني هي شيءٌ باطل ما ليست مبنية على حقيقة، الأماني من الباطل ليس بأمانيكم، الأماني قضيةٌ نفسية لا يترتب عليها حكم ولا يترتب عليها تغيير ولا يترتب عليها طاعة ولا يترتب عليها حسنة ولا يترتب عليها سيئة، أماني، أنت تتمنى (وتمنى على الله الأماني)، رجل كسول ويتمنى ورجلٌ يزعم بلا دليل فهذه أمانيه، ولو كانت الحياة تقوم على الأماني لكان أقوى الناس وأغنى الناس وأغلب الناس هم الكُسالى لأنهم أكثر الناس أماني، أكثر الناس تمنيًا من؟ الإنسان العملي يعلم أن أمنيته بمقدار عمله، فلذلك تكون أمنيته، قريبة لنقل، القريبة تكون بمقدار ما يعلم من أن هذا العمل يؤدي إلى هذا، لكن الكسول يظن أنه بمجرد الأماني يفتح البلاد ويغتني ويصبح من أغنى الناس، فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، نفاها حتى عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤]، فقط فالعمل هو الذي يترتب عليه الحكم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، بمعنى هذا مما هم تمنوه في أنفسهم أن تكون الجنة قاصرة عليهم دون غيرهم، وهذا أعظم ما يبيّن من ظلم هؤلاء النفوس وحسدها، قال تعالى: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، هذا من الحسد وهذا من الظلم، هذه الأماني التي بها قطع الخير عن الآخر فقط لنفسك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، فهذه الأماني ليس لها أي برهان فهذا أول نقضٍ لها، إذن هي مبنيةٌ على الخيال، مبنيةٌ على المزاج، أماني مبنيةٌ على الهوى، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، ثم بعد ذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، هذا هو منهج القرآن، بعض أهل العلم يقول: لا يوجد كتابٌ في الوجود يدعو من كتب

الأديان، كتب النصارى أول ما تدخل فيها يقول لك: ديننا لا يقوم على العقل، اليهودية دينٌ كله باطل لأنه قائمٌ على تعظيم الجنس دون سبب لمجرد النفحة الإلهية فيهم دون غيرهم، فقط بدون سبب، هم يذكرون عن أنفسهم اليهود في كتبهم -أي التوراة- فيها من ذكر معايب اليهود ما تنوء به الجبال، معايبهم، يعني معايب اليهود في التوراة لا يمكن أن تتصور، لا يوجد أمة تذكر معايب نفسها كما يذكر اليهود عن معايبهم مع أنبيائهم، فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يدعوا هذه الأماني؟!!

قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، فالكتاب عند اليهود ليس فيه أي برهان على ما هو عليه، لماذا اختصكم؟! من غير برهان، النصارى لماذا أنتم صارت لكم الخصوصية؟! من غير برهان، حتى العقيدة التي تقوم عليها الديانة النصرانية ليس لها برهان! اذهبوا إلى البوذية لا يوجد برهان! القرآن هو كتابٌ سماوي والكتاب الذي له تعلق باسم الدين وحقيقة الدين الذي يطلبه هذا المعنى، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، ونحن نعلم وتقدم الكلام كثيراً في الآيات السابقة على أن البرهان يملك قوته من جهتين من جهة مصدره ومن جهة دلالة العقل الفطري عليه، كيف يُعرف البرهان أنه حق؟ من جهة مصدره إذ صدر من صاحب الأمر، فالله عز وجل إذا جاء الكلام منه فهو الذي ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، هذا يكفي لأنه من الله عز وجل، ليس لهكذا، ولكن لعلمنا أن الله عز وجل هو الحق المبين، الصفة التي لا يمكن أن تقوم بها الربوبية وأن تقوم بها الألوهية هي صفة الحق، وذلك من أسمائه الحق، من أسماء الله عز وجل الحق لأن الربوبية والألوهية لا تقومان إلا على هذه الصفة، أول صفة تقوم عليها أنه الحق، ولذلك إذا جاء الكلام منه دل على أنه حق وهو البرهان.

الصفة الثانية للبرهان: وهو أن يتلاءم على العقل الفطري إذا خوطب به آمن به وصدقه، والقرآن في ذكر ما تقدم من خطابه مع اليهود ما ترك حُجةٌ إلا وألزمهم بها أنها باطلة من جهة دعواهم ومن جهة قولهم، ببرهانٍ عظيم، والبرهان عند أهل العلم: يقال عن البيان، ويقال عن الدليل، ويقال عن الحجة، وهذه عندما يكتبها أهل العلم على هذه التراتبية البيان، ما هو البرهان؟ يقولوا: البيان، ما هو البرهان؟ يقولوا: الدليل، ما هو البرهان؟ يقولوا: الحجة، هذه على صفةٍ تراتبية، لا يمكن أن يقوم البرهان أولاً إلا بأن يكون متناسقاً في نفسه بيناً واضحاً إذا خطب المرء به، وإلا لا يكون برهاناً، لا يمكن أن يكون الكلام برهاناً حتى يكون الكلام بيناً بين السامع وبين المتكلم، فإذا تكلم المرء كلاماً غير واضح قيل له: بيّن، فإذا بيّنه فبان

معناه، هذا أول مراتب البرهان، فإذا سُئل عن بيّنة هذا البيان أي دليله، دليل صوابه، جاء بالدليل، فإذا قطع به حُجة الخصم كان هو الحجة، فما هو البرهان؟ عندما ترى في كلام أهل العلم، ترى في كتب التفسير يمرون عليها هكذا، لكنها واضحة في أنفسهم، يمرون عليها هكذا يعني مجرد الكلام، لا، هي لأنها واضحة، يقولون: «البرهان هو البيان والدليل والحجة»، إذن من أقوى؟ الحجة، الحجة: تقطع كلام الخصم، خلاص تلزمه، والدليل: أن تقيم على صوابه، لكن إلى الآن لم تقطع برهان الخصم ولم تقطع كلام الخصم، وقبل أن يتم الدليل لابد من بيانه، أن يكون الكلام متناسقاً في نفسه، رجل يتكلم كلامًا ينقض بعضه بعضاً لا يكون بيانًا، لا يبيّن، بيانًا حقيقيًا عن نفس الموضوع.

قال سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، ﴿تِلْكَ﴾ هذه كما ترون اسم إشارة يعود إلى ما تقدم، ما هي ﴿تِلْكَ﴾؟ ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، هذه أمنية، فقال: ﴿قُلْ﴾، يا محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿قُلْ﴾ دائماً حين يأتي الكلام عن أي شيءٍ في مثل هذه القضايا، وهي قضايا الغيب، فقضية الجنة والنار ومن يدخلها هذه غيب، فهذه من الذي يملك أن يتكلم فيها، الله عز وجل فقط، لا أحد لا نبي مرسل ولا ملك مقرب لا يستطيع أحد، فقال تعالى: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، في دعواكم هذه التي دعوتموها، وهنا المقصود ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾، في دعواكم.

ثم قال سبحانه وتعالى مجيبًا بإثبات ما نفوا، هذه ﴿بَلَى﴾ يصدر بها الجواب لإثبات ما نفاه المتكلم، ماذا قال عنهم؟ ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ﴾، ولذلك انظر إلى هذا التلاءم العظيم، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ﴾، ﴿بَلَى﴾، أي نفيٌ لكلامك الذي نفيته وإثباتٌ لخلافه، هي تصدير الجواب بالإثبات لما نُفي سابقاً، في الكلام السابق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، تقدم الكلام، الكلام عن صفات، يستطيع القرآن يقول بلى من أسلم لله، بلى من كان مسلماً يدخل الجنة، ولكن هذه ليس فيها التفصيل الذي يلائم هذه الدعوة العريضة، لو قال لكفى عند أهل الإيمان يعلمون من هو المسلم في القرآن، ولكن جاء إلى الصفات من أجل أن يكون هناك التفصيل لما نُفي، التفصيل في رد ما زعمه هؤلاء المشركون من اليهود والنصارى، فقال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ﴾.

وكما يقول هنا بعض أهل العلم ولهم كلامٌ جميل في هذا، قال: هو إشارةٌ إلى أن هؤلاء ليس فيهم هذه الصفة، أي قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، كأنه يشير لهم إلى أنهم لم تحصل فيهم هذه الصفة لم يسلموا وجوههم لله ولم يحسنوا في هذا الإسلام، في حال، حال الإسلام أن تكون محسناً، هي إشارةٌ إلى أنهم لم يلتزموا بها، فيها جوابٌ بحقيقة من يستحق دخول الجنة، انظر هذا الخطاب القرآني ماذا استوفى؟ استوفى أن فيها بيان من الذي يستحق، ليس على جهة الاسم، ولكن على جهة الصفة، فمفتاح الجنة هذا هو، ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، هذا مفتاح الجنة، ففيها ردٌ عليهم، وفيها بيان صفة من يستحق، وفيها إشارةٌ بأنهم ليسوا من أهل هذه الصفات، فقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي أخلص لله، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾ [البقرة: ١٣١]، ولما المرء يسلم فقد استسلم يعني لم يبقى له خيارٌ في إرادته، لم يبق له شيءٌ من نفسه، خلص من نفسه وفي قيادته لنفسه إلى تسليم نفسه إلى غيره، فهذا هو الإسلام، والإسلام هو الاستسلام لله عز وجل، ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، فالإسلام هو أن تخرج من نفسك، تخرج من إرادتك، تخرج من قدرتك، تخرج من توكلك على ذاتك، تخرج من اعتمادك على عقلك في التشريع والهوى، تخرج من اختياراتك إلى أن تسلم وجهك لله عز وجل، وهذا هو أعظم ما ينبغي أن يكون عليه العبد وهو التوكل على الله، يسلم له قياده بأن لا يأخذ الحق إلا منه، وأن لا يفعل إلا له وأن لا يتوكل إلا عليه، وألا يسأل إلا هو، وأن لا يرجو فضل أحدٍ إلا هو جل في علاه، فهذا هو الإخلاص، ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾.

وهنا أهل العلم يكادوا على إجماع من أهل التفسير أن ذكر الوجه هنا لشرفه، ما قال: أسلم بدنه مع أن البدن دالٌ على الوجه، ودالٌ على القلب ودالٌ على السمع ودالٌ على البصر ودالٌ على اليدين وعلى الرجلين، لكن هنا ذكر أشرف ما في البدن، والذي إذا تحقق به الاستسلام لله تحقق بقية استسلام البدن قلباً وقالبًا له، فقال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، أي كله وإنما ذكر الوجه تشريفاً وتعظيماً لأنه هو الدال على بقية الحال.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، أسلم وجهه لله وحده فدل على أن ما يناقض ذلك، من أسلم وجهه خرج من مع الظلمات إلى النور أشرك مع الله يعبد مع الله إلها غيره، أن هذا ليس من أهل الجنة، وشرط الجنة ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾، هذا هو الإسلام، أن تسلم المقصود به الإخلاص، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، والإحسان هو أن تأتي بالعمل على وجهه، ما هو الإحسان؟ قال صلى الله عليه وسلم: (إذا قتلتم فاحسنوا القتلة)، يعني ائتي بالعمل على أحسن وجه، ائتي بالعمل على وجهه الصحيح، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أن تأتي بالعمل على وجهه الصحيح، فإذن هنا دلت هذه الآية على أن شرطي قبول العمل لدخول الجنة: أن يكون مخلصاً لله وأن يكون تابعاً للنبي صلى الله عليه وسلم، لأن لا أحد يستطيع أن يعرف ماذا يحب الله عز وجل وكيفية أداء العمل على الوجه الذي يحبه الله عز وجل إلا الله عز وجل الذي أوحى بذلك لرسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، أن لا تعبد إلا الله وأن لا تعمل العمل إلا اتباعاً لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

وبعض المجرمين أتوا إلى ذلك قالوا: هذا يدل على أنه يمكن لليهودي والنصراني أن يكون قد أسلموا وجهه لله وهو محسن، ولم يقل كما تقدم، قال: لم يقل ربنا عز وجل: بلى من كان مسلماً، قال: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾، هل النصراني قد أسلم وجهه لله؟! هل النصراني أتى بالعمل على وجهه الذي يحبه الله وهو محسن؟! تقدم الإشارة إلى أن هذه الآية فيها إشارة لماذا؟ ﴿بَلَى﴾، نافية لما يقولون ومثبتة لخلاف ما يقولون، هم نفوا فهي أثبتت الوجود، أثبتت أن غيرهم هو الذي سيدخل الجنة لا هم، وفيها إشارة أنهم لم يأتوا بهذا، فلذلك تعلق بعض المجرمين من الزنادقة اليوم على أن هذا يمكن أن يقع اليوم على يهودي أو نصراني هذا من الجهل، وهذا من الضلل بل هو زندقة، أين هذا من النصراني هذا اليوم؟! هل أسلم وجهه لله؟! هل أسلم وجهه لله بأنه انقاد للنبي صلى الله عليه؟! هل أسلم وجهه لله بأنه جعل العبادة له وحده جل في علاه ولم يجعلها لعيسى؟! هل اليهود أسلموا وجوههم لله بأن جعلوا الدين لله وليس لعرقهم ولا على ما فيهم من الفجور والكفر وأنهم مع ذلك يدخلون الجنة؟! أين هذا الإسلام؟! ولذلك هذه الآية لا تنطبق إلا على المسلمين، الذين آمنوا محمد بعد بعثته، هذا بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، لكنها تشمل كل أحد قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فيما بلغه من الحق واتبعه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، وهنا بيان عظمة العمل، الأجر هو الثواب، لكن لماذا جاءت كلمة الأجر هنا ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾؟ دل هذا على أن العمل عظيم، كل هذا الباب من أجل بيان تعظيم العمل الذي به يدخل الناس الجنة، فجاء من ذكر تعظيم هذا العمل أنه جعل له أجراً، هذا العمل لعظمته أن جعل الله له أجراً، سمى الثواب أجراً بيّاناً لعظمة العمل أنه يستحق هذا الأجر، هذا مع عِلمنا بأنه لا يدخل الأحد الجنة بعمله، لكن هنا عظم ربنا سبحانه وتعالى العمل بأن جعل الجنة أجر لهذا العمل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

وقوله جل في علاه ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾، هذا لمقام التشريف والتعظيم، من أجل أن يدل على الكثرة والبركة والخيرية فيه، الله عز وجل من صفاته أنه الكريم، من صفاته أنه الجواد، ومن صفاته أنه سبحانه وتعالى خزائنه ملأة، لا تغيض، ويمناه جل في علاه سحّاء لا تغيض، فلذلك لما يقول ربنا عز وجل: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، ماذا تطلق هذه في النفس من تصورات؟ ألا انتهاء، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾، لو أن الكلام فقط على قضية فقط الأجر لكان فيه انتهاء، دائماً نقول قاعدة التعديل والتكميل، هذه قاعدة نتذكرها، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾، العمل عمل خمس دقائق وأعطيه خمس دقائق تتمتع مقابلها بخمس دقائق، أحسنت وأطعت ستين سنة عابداً لربك عشرين سنة أربعين سنة، فأنا أمتعك أربعين سنة فهذا أجره، لكن لما قال تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾، دل على أن العطاء غير متعلق بما عملت، ولكن متعلق بكرم الكريم، وأن هذا العمل إنما معناه ومستواه وقيمته أنه عند ربه، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، فهذا إطلاق لنفسه أن لا تنتهي ولا تنقضي من ذكر ما سيعطيه الله عز وجل لهذا العبد.

قال تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، تقدم الكلام، الخوف لما سيأتي والحزن لما سيذهب، فلا تخف عما سيأتيك، لا تخف أنت في أمان واطمئنان، قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت: ٣٠]، فلا تخاف، ولا تحزن عما فاتك، من الذي لما يرى هذه الخيرات يحزن عما فاته؟! فلا تخف ولا تحزن فتأمن له أمران ألا يخاف وألا يحزن، والخوف لما سيأتي، دائماً الناس يخافون الذي يأتي عنده المال يخاف أن يذهب عنه، عنده القوة يخاف أن تذهب، عنده الأمان يخاف أن يذهب عنه، وهو حزن لأنه ذهب عنه الولد كان عنده ولد فذهب عنه، كان عنده المال فذهب عنه، لما ذهب، كان يخاف، لكن لما ذهب حزن عليه وهنا لا يخاف ولا يحزن.

والعلماء تنبهوا إلى هذا الاختلاف في صيغة الخطاب، انظروا أن صيغة الخطاب هي صيغة الفرد في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ﴾، الكلام عن واحد، ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، قال تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾، الحديث عن واحد، قال تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، صار الكلام عن جماعة، ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ الكلام عن واحد، والكلام ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، الحديث يدور حول الوحد، فجاء الجواب على صيغة ما تقدم به النفي، أن أثبت خلافه، فقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، هذا موافق لما تقدم من الحديث عن الواحد، ثم جاء على الجماعة، قال تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، هنا صارت صيغة الجمع، فلماذا؟ ابن جرير الطبري عليه رحمة الله وجرى عليه من بعده من المفسرين أخذاً من هذا: بأنه لما كان الخطاب لواحد جاء الجواب عن واحد، وهذا موافقة اللفظ للفظ، اللفظ يوافق اللفظ ولكن في الذهن يدور المعنى عن واحد أم عن جماعة؟ لما قال: ﴿إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، الآن هذا حديث عمن كان هودا حديث عن ماذا؟ هذه الشرطية من كان هوداً شرطية فدل على العموم، فاللفظ يجري على الواحد، والمعنى ﴿مَنْ كَانَ هُودًا﴾ يجري على الجمع، فجاء الخطاب ليجمع الأمرين، هذا كلام ابن جرير، قال: قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، هو ليوافق اللفظ في الحديث عن واحد، وقوله تعالى:﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، جاء الخطاب للمعنى، فقوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، موافقٌ للفظ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، موافقٌ للمعنى.

وهذا المعنى لماذا وقع في تنوع هذا الخطاب أنه أجراه على معنى الواحد ثم أجراه على معنى الجماعة؟ الطاهر بن عاشور عليه رحمة الله، قال: هذا مخافة التكرار الذي يحدث به السآمة، قال: تكرار يحدث به سآمة، يعني يتكرر الكلام يبقى على هذا المنوال فحتى تخرج السآمة، هذا كلام بعض البلاغيين، ولكن الأغلب يرفضون هذا المعنى، أن هذا كلامٌ من أجل دلالة الخطاب بالنسبة للسامع، السامع يخاف منه السآمة ولكن لا تنظر إلى هذا المعنى أنه كيف يتعامل السامع مع الخطاب، ولكن انظر إلى حقيقة الخطاب كيف تنوع، ولماذا تنوع في داخله، قال: مخافة السآمة هذا حديث عمن؟ حديث عن الناظر، وكأن المعنى في ذاته لا فرق بينهما، بين هذا وهذا لا فرق، ولكن مخافة النظر للسامع السآمة فأهل البلاغة لا يرون هذا، أهل البلاغة يقولون: لابد من النحت والنقر والاستنباط في ذات الأمر لنرى لماذا هذا التنوع؟

فلماذا وقع هذا التنوع؟ التنوع وقع، الحديث عن الجواب موافقٌ للحديث عن الفرد، الذي تقدم به الخطاب، ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ﴾، يتوافق معه، ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾، ولما كان الإسلام الوجه لله عز وجل، إسلام الوجه لله إنما بالنظر إليك وحدك، لأن الحديث عن إسلام الوجه الله، لا يضرك الآخرون جاءوا معك أو لم يأتوا معك، فالحديث عن عملك أنت والحديث عند اليهود إنما يدور حول اليهود والنصارى عن جماعة، الحديث عند اليهود يدور حول الجماعة ﴿مَنْ كَانَ هُودًا﴾ جماعة، ﴿مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، كما يقولون مجرد يهودي أأدخل، القرآن يرفضه يقول: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ﴾، كل واحد سينظر إليه ليس باعتبار نسبته الجماعية، ولكن بالنسبة إلى فرده ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾، أنت لوحدك ستدخل بغض النظر عن الجماعة التي انتسبت إليها على جهة الاصطلاح، فجاء الخطاب للفرد، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، هذا الحديث عن الفرد ويوم القيامة يدعى الناس فرداً فردا كل أحد.

وعندما جاء إلى الجزاء هنا تنوع الجواب، هنا حصل التنوع، الأولة مفهومة لماذا حصل الفرد في الجواب بعد ﴿بَلَى﴾، فلما جاء الجواب وقع على أمرين فقال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ﴾، فوقع على واحد، وقال تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، مراتب الناس بحسب هذا الإسلام لله مع الإحسان في هذا الإسلام، مراتب الناس بحسب جماعتهم أم بحسب أفرادهم، الأجر؟ بحسب فردي، يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم يحق فيها هذا الوصف، أنها أسلمت، أمة محمد صلى الله عليه وسلم أسلمت وجهها لله وهي محسنة، فلما دخلت الجنة لم تدخل الجنة في مرتبةٍ واحدة، وكل واحدٍ دخلت بمرتبته، فقال تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، ففي مرتبة الأجر والدخول في مرتبته كانت بحسب كل فردٍ بحسبه، انتبه الأجر أمرٌ إيجابي، وقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إزالةٌ لأمرٍ سلبي، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾، الأجر: أمر إيجابي، أعطاه، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أمنه طمأنه، فهو أمر سلبي، فالناس يتفاوتون في مراتب ما يجب لهم من مراتب، يتفاوتون لكنهم عند ذهاب ما هو سلبي كلهم في المرتبة سواء.

يعني هل يتفاوت أهل الجنة في ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)﴾؟ هل يتفاوت أهل الجنة؟ كلهم في مرتبةٍ واحدة لأنها سلبية، الشيء إذا زال على معنى واحد، لكن حين يأتي يتفاوت الناس أعطيتك مالاً فهذا المال متفاوت لأنه أمرٌ إيجابي، يتفاوت فيه الناس، والمال نفسه يتفاوت، فرق بين مئة دينار وألف

دينار ومليون دينار فرق، لكن لما تقول: سلبتك المال كله في المرتبة سواء، فالسلوب مرتبةٌ واحدة، والوجوب مراتب بحسبها، فلذلك وقع هذا التنوع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، ثم قال تعالى بعد ذلك كلهم في مرتبة واحدة: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)﴾، أما في الأجر فكل واحدٍ في مرتبته مع توافق في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، ﴿أَسْلَمَ﴾ فالقضية قضية توحيد فحينئذٍ ينظر إلى مرتبتك في هذا الباب.

فلما فرغ جل في علاه في رده على اليهود في هذه الدعوة الجديدة أنهم وقفوا باب الجنة يُدخلون فيها من يشاؤون ويخرجون منها من يشاؤون، بعد دعواهم في قضية الحق وما هو هنا، بعد أن فرغ من قضية هذا الأمر فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾ [البقرة: ١١٣]، بعد هذه الدعاوى التي تقدمت بين القرآن للخصوم هذه وقالت اليهود والنصارى مع أنها لن يدخل فيها خصومة انتبهوا ولما قالوا، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فيها خصومة اليهودي مع النصراني، لكنها في أساسها خصومة معاً في اتحاد، اتحدوا في أمرٍ واحد وهو الخصومة مع المسلمين، أي هم قالوا: نحن ندخل، والمسلمين لا يدخلوا، فاتحدوا على عدم دخول المسلمين الجنة، على عدم دخول اتباع محمد صلى الله عليه وسلم الجنة، جزموا بها، ثم اختلفوا بعد ذلك، والقرآن يريد أن يبين أن اختلافهم حتى من جهة أنفسهم أشد وأشد في هذا الباب، يعني هؤلاء هم أهل حسد وهؤلاء هم أهل الشر في تعاملهم في هذا الباب في قضية الحق وغيره، ولا ينتبهون إلى ما عندهم من الحق.

لننظر إلى ماذا يقولون؟ يقول تعالى: ﴿وَقَالَتْ﴾، وهذا عطفٌ لما تقدم من أحوال اليهود في فسادهم في الدعاوى، باب الدعاوى عند اليهود أمرٌ لا ينتهي، وكله قائمٌ على الباطل، وليس له دليل لا من كتاب ولا من سنة وليس له دليل لا من توراة ولا من كلام أنبيائهم ولا من إنجيل ولا من كلام عيسى عليه السلام، ليس له دليل من عند أنفسهم، هذا من زياداتهم وتحريفهم لأديانهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾، العلماء على مذهبين في بيان صوابهما أو باطلهما، بمعنى هل اليهود كان عندهم بعض الشيء فنفاه النصارى، وهل كان عند النصارى بعض شيءٍ

يعني من الحق، المقصود ليسوا على شيء يعني على حق، هل يعني هذا أن اليهود كان عندهم بعض الحق فأنكره النصارى؟ وكان عند النصارى بعض الحق فأنكره اليهود؟ فحينئذٍ إذا كان هذا المعنى وهذا قاله بعض أهل العلم كقتادة رحمه الله قال: نعم، في بداية الأمر كان عند اليهودي بعض الحق بعض الشيء، فأنكره النصارى، وكان عند النصارى بعض الحق فأنكره اليهود، قال: في بداية الأمر كانوا على هذا الأمر، صحيح في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ليس عندهم شيءٌ من الحق، خلاص، لأنه في ديننا إذا نُقض ركن فلا قيمة لبقية الأركان، فلما نقضوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم نقضوا كل الحق الذي عندهم، ما بقي عندهم شيء من الحق.

أم أن المعنى آخر؟ بأن اليهود ليس عندهم شيءٌ من الحق، فقالت النصارى: ليس عندهم شيء من الحق، فأصابوا، فأين الخطأ إذًا؟ أن اليهود قالوا: عن النصارى ليس عندهم شيء من الحق، وهذا صحيح، هذا القول الثاني والنصارى حقيقة ليس عندهم شيءٌ من الحق، وقال النصارى عن اليهود ليس عندهم شيءٌ من الحق وقد أصابوا فليس عند اليهود شيءٌ من الحق، إذًا أين الباطل؟ لماذا يذكره القرآن على جهة الذم؟

القول الأول: بيّن ضلالهم فيه، القول الأول: أنه عند اليهود بعض الحق فأنكره النصارى، وعند النصارى بعض الحق فأنكره اليهود، هذا في بداية الأمر، كما قال بعض المفسرين هذا هو إحدى وجوه التفسير، وأن يكون حينئذٍ قد قالوا كذباً وأنكروا الحق عند كل طائفة وكان ينبغي العدل، ولا ينفوا هذا النفي المطلق بقولهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾، لا، عندهم بعض الحق لماذا أنكرتموه سابقاً؟! ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾، فكان عندهم بعض الشيء، لماذا انكرتموه؟! فحينئذٍ هذا ذمٌ بيّنٌ واضح من القرآن لهم.

القول الثاني: أنه حقيقة أن اليهود ليس عندهم شيء من الحق، والنصارى ليس عندهم شيء من الحق، فقالت اليهود قولاً مصيباً في النصارى، وقالت النصارى قولاً مصيباً في اليهود، فأين الباطل؟ قال: أنهم قالوا هذا مع علمهم بغير ما قالوه، يعني تظن اليهود أن عند النصارى بعض الحق فأنكروه، مع أنه في الحقيقة ليس عندهم شيء من الحق، وأن النصارى ليس عندهم شيء من الحق، لكنهم يظنون أن عندهم بعض

الحق فانكروه، إذًا أين العيب؟ في القول الثاني أنهم كذبوا مع علمهم بأنهم يكذبون، مع أنهم أصابوا، اليهود قالت: ليست النصارى على شيء، أصابوا، فأين العيب؟ أنهم كانوا يظنون أن عند النصارى بعض الحق فأنكروه، فهذا يدل على أنهم أخبروا بخلاف ما في نفوسهم مع أنهم أصابوا الحق، ماذا يكون شأنهم في ذلك؟ الكذب، أنهم كذابون لأن من شأن المرء أن يقول عما علمه حتى لو أخطأ، لأنه من شأن الصادق أن يخبر بما يعلم حتى لو أخطأ، وإذا أخطأ في هذا الباب وكان خطأه مما يعفى عنه يكون معذورًا.

والآن ما هي أكبر صورةٍ ليمين اللغو الذي قال الله عز وجل عنه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، فما هي الصورة؟ قال: أجلى صور اللغو -كما يقول الإمام النووي رحمه الله- هو أن يحلف المرء على شيء ظانًا أنه الحق فيكون على خلاف ظنه، رجل رأى سوادًا في الليل هو وآخر، الآخر قال: والله هذا فلان، قال: لا والله هذا فلان، قطعاً أن أحدهما مخطئ، لا يمكن أن يكون هذا الشخص قد أصاب في هذا وهذا، الذي أخطأ نسمي هذا من اللغو، الله لا يعاقبه ولا يحمل عليه إثماً وليس عليه شيء، لماذا؟ لأنه أخبر بما ظن أنه الحق فمعفو عنه، جاء رجل وحلف يمين على شيء ظانًا أنه هكذا جرى، ثم تبيّن أن ظنه مخطئ، فالله عز وجل لا يحاسبه، لكن قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يعني فيه ضعاف معروف: (من تكلم في القرآن برأيه فقد أخطأ وإن أصاب)، أخطأ وإن أصاب في نفس الأمر هو مصيب ولكنه آثم لماذا؟ لأنه سلك سبيل إثبات هذا بغير الوجه الصحيح، رجل جاء وأقسم أن فلاناً قد وقع منه كذلك ولم يره ولم يسمع منه ولم يشهده، ماذا يكون يمينه؟ كذب، لماذا؟ لأنه أخبر بشيءٍ لم يقع عليه على الوجه الصحيح.

ولذلك قال الله عز وجل: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ [النور: ١٣]، ما قال: إن كذبوا أو أصابوا، بمجرد أن أتوا فحلفوا بغير الشهادة، قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣)﴾ [النور: ١٣]، مع أنهم قد يكونوا قد أخبروا بالحق لكن لما لم يأتوا بالحق أو إلى الحق على وجهه المعتاد عدهم الله كذابين عنده، ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، فإذن اليهود قالوا عن النصارى ليسوا على شيء وقد أصابوا لكنهم في نفوسهم يظنون أن النصارى على شيء، فدل هذا على أنه لا يجوز للمرء أن يكذب وهو أن يخبر بخلاف ما يعلم، هذه قضية متفق عليها، رجل يخبر بأمرٍ وهو يعلم خلافه هذا كذاب، وإذا حلف يمين غموس وإذا شهادة عند القاضي تكون شهادة زور، لكن رجل يقول الحق وهو لم يأتي إليه من وجهه الصحيح، ولكن

قاله من وجه الاحتمال، «يقول: يمكن تظبط، فلما ظبطت على معنى ما يقوله العوام يقول لك: شفت أنا نجوت»، هو لم ينجو هو كذاب وعند الله كذاب، ومعاقب على الكذب لأنه أخبر عن الشيء بغير وجهه الصحيح، أتاه من غير وجهه الصحيح، هذا مهمٌ جداً في الباب.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾، أبطل كل واحدٍ دين الآخر، لكن هم أصابوا في هذا على المعنى الثاني أصابوا، ولكن القرآن يعيب عليهم ذلك، ولذلك بعض الناس يلغز، يقول: كل واحدٍ قال في الآخر كلامًا أصاب به وهو كذاب، فيلغز بهذه الآية، هو قال كلامًا في الآخر أصاب فيه وهو كذاب.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، ما معنى يتلون الكتاب، قال: أي يعلمون الحق في ذلك، على ما تقدم الكلام عليه، إما أنهم يعلمون خلافه فأخبروا به، أخبروا بخلافه على المعنى الأول، وإما أنهم قالوه مع معرفتهم بغير هذا، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، المقصود بالكتاب أن كل واحد يتلوا كتابه، أن كتابه لا يقول له هذا، وقال ابن جرير هنا ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، قال: وهذا فيه كلمة عظيمة، قال: وهذا فيه بيان جرم الإخبار بخلاف ما يعلم، لو أخبر بالباطل وهو يعلم بخلافه فإن جرمه أعظم من أن يخبر بالشيء جاهلاً وإن أخطأ، أي رجل يعلم الحق فيخبر بخلافه فهذا الجرم أعظم ممن يخبر بالجهل وهو لا يعلم.

قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، ما المقصود بالكتاب، أي كتاب كل واحدٍ منهم، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، ما المقصود بهؤلاء، بعضهم قال من أهل التفسير: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي النصارى، ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، أي مثل قول اليهود، فردوا على هذا المعنى أي قالوا مثل هذا القول فيهم، هذه الآية لها ثلاث أقول عند أهل العلم:

القول الأول: هذا المعنى الأول أن النصارى قالت مثل قول اليهود.

القول الثاني: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، هذا قول مشركي قريش، أن هؤلاء اليهود والنصارى قالوا عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا، فكذلك قال المشركون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ليس على شيء.

القول الثالث: قال بعضهم: هذا قولٌ قديم قالته بعض الأمم عن اليهود والنصارى، ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي أقوامٌ قدماء قالوه عن اليهود والنصارى، أي بعض الأقوام الآخرين قالوا عن اليهود ليسوا على شيء وقالوا عن النصارى ليسوا على شيء، أو قالوا عن اليهود والنصارى ليسوا بشيء، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾ [البقرة: ١١٣]، هذه فقط فيها من أعظم الفوائد، لو تعلمها المرء في حياته وبالنظر إلى المخالفين تعلمها ووضعها في قلبه وتعامل بها ورقق قلبه لها لسعد وارتاح، كيف؟ الله عز وجل ما قال: وأنا سأعطيك البرهان الذي سيسكتهم، بل أرجئ الأمر إليه، ذلك لأن أمر الجدال لا ينتهي، وما من بدعةٍ في الدنيا ينتهي أصحابها من ذكر أدلةٍ جديدة لها، الأدلة المقصود كلام أي كلام، ما في باطل له أدلة بالمعنى التي يقوم به الحق، ولكن لا يمكن أن تنتهي تمحلات وأوهام وخداعات أهل الباطل في باطلهم، لا يمكن، ولم ينتهي قط كم تناظر النصارى مع اليهود، وكم تناظر اليهود مع النصارى، الإنجيل الذي بين أيدي الناس وهو ليس الإنجيل في شيء مما نزل على عيسى عليه السلام، ليس فيه كلمة إلا من المواعظ التي نقلت عنه في الأناجيل الموجودة وربما مأخوذة من الإنجيل الذي نزل عليه، أما الإنجيل المنقول ليس مثل التوراة، فرق بين الإنجيل المعاصر والتوراة، فكم ناظر عيسى عليه السلام اليهود، كم ناظرهم؟ وكم امتحنوه فثبت صدقه؟ ومع ذلك بقوا يتمحلون ويكذبون ويتوهمون ويثيرون العجاج ويثيرون الحجج الباطلة ضده، لم ينتهي، كم تناظر أهل الإسلام مع اليهود والنصارى كم؟ كم المناظرات قامت بين أهل العلم في التاريخ؟ كم الكتب التي ألفت بين أهل البدع وبين أهل الإسلام، بين أهل الزندقة وبين أهل الإسلام؟ انظروا الآن هل جاء إلا القليل ولكن على الأكثر والأغلب هل هذه الحجج أنهت أوهام الباطل إلا في نفس التقي وفي نفس العادل وفي نفس المنصف، وأما هي فلا تنتهي، ولذلك في مثل موضوع الأفكار وفي موضوع العقول أرجائه الله عز وجل إليه يوم القيامة، فالله عز وجل يحكم بينهم يوم القيامة.

أما في الدنيا في الحقيقة هناك بعض الناس عندما يتكلم لا يصلح معه إلا أحد حالين، غير ذلك تكون مُخطئاً، إياك أن تناظره، ولذلك العلماء نهوا عن مناظرة الحسود، قال فإنه يستفيد منك ويجحد، يعني يجلس هو يتكلم وأنت تكون مسكين تعبان عرقان تطلعه على كلام أهل العلم وتقول له، هو يأخذ منك حتى

يصبح بما تقوله له عالماً، فيستفيد منك ويأخذ منك ويجحد ويقول لك: كلامك ليس صحيح، لكن هو يبني عليه، بعدها تجده في مجلس آخر يأخذ كلامك وينقله ويستفيد منه، فلذلك العلماء نهوا عن مجادلة الحسود، ونهوا عن مجادلة المقلد، وهذه الآية ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، فيما تقدم هي أعظم دليل على نقد التقليد وعلى نقد كل قول ليس له برهان لا يجوز، لا يجوز لأحد أن يبني ديناً بلا برهان، وكلٌ بحسب، البرهان بحسبه، بعيداً عن ما زعمه المتكلمون من منطق وعلم كلام في إثبات الأديان وأوجبوا على العامي أن يعلمها فأوجبوا على المرء النظر أو الطريق إلى النظر أو الشك أو ما شابه ذلك كل هذه أوهام باطلة، فالمهم حصول اليقين، العامي في قلبه اليقين، وحصل عنده اليقين بالطريقة الملائمة لقلبه من الأدلة والناس يقصرون الأدلة.

أعجبني أحد المشايخ جزاه الله خيراً في أنه جعل من أدلة الحق هو استجابة الله الدعاء، هذا كلام رائع، لما قرأته حمدته لصاحبه، من أدلة الحق وهذا مذكور في دلائل النبوة أن يدعو النبي ربه فيستجيب له، هذا من دلائل النبوة، طيب هذا التكرار الذي يحصل من العابدين والداعين فيستجيب الله لدعائهم، هذا دليل على أن الله حق وأن الشريعة وأن النبي صلى الله عليه وسلم فيما بلغ عن ربه حق.

القصد: أن البرهان لا يجوز لأحد أن يقصره على وجهه من الوجوه، العامي لا تطلب منه البرهان لما يعلم كما تطلب من غيره من البرهان، العامي يكفي اطمئنان قلبه وما يحس في قلبه من صدق ما يدعو إليه، قد يقول هذا منتشر في الناس، لا، قد يقول: النصراني مطمئن إلى قلبه، والبوذي مطمئن إلى قلبه، نقول: انظر إليه عند حدوث العقيدة عنده، عند حدوثها وليس بعد ذلك، ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] عند الاستمتاع، قبلها ماذا يحدث من اضطراب العقل والقلب له، يلغي العقل ويلغي القلب ويتبع أباءه وأجداده، فإذا جاءه الحق فزع مما عنده من الباطل لكنه يساير، ويبقى حتى تغلق عليه الأبواب فيقفل على قلبه.

القصد: أن البرهان هذا أمرٌ واسعٌ بحسب الناس.

نرجع إلى قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، إياك أن تظن في يوم من الأيام أنك قادر على حسم المعركة بالجدال مع خصومك، هذا مع المنصف، مع العادل، مع الذي يعني يتقي ربه، مع الذي يرجو

الدار الآخرة، مع الذي يحب الحق وليس عنده موانع اتباع الحق من الهوى ومن اتباع الأباء والأجداد ومن محبي الجدال وعدم قبول الهزيمة في المناظرة، فالله عز وجل أرجئ هذه الخصومة وقال: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ولذلك من أعظم الآيات التي فيها ذكر طريقة الحِجاج وهذه إذا وصلنا إليها نشرحها ذكر هذا ابن كثير في الحقيقة هذا الموطن للذكر أنا أنصح طلبة العلم في هذا الموطن، فإن ابن كثير أبدع من قوله ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ١١١] إلى أن انتهى ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، هنا لابن كثير إبداع من أعظم ما يكون، وسنبين بعض ما اتفق فيه وبعض ما اختلف فيه عن ابن جرير فيما يأتي من التفسير، ولكن هنا أبدع ابن كثير إبداعاً لا تجده في غير تفسيره، في هذا الموطن أنا أنصح بالعودة إليه في هذا الباب ليقرأه المرء وينتفع به.

فالقصد أيها الإخوة الأحبة: عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢]، هنا وقف ابن كثير موقف عظيم في تفسير كيف يُجادل أهل الكتاب، ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، فجاء بعدها ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)﴾ [الكهف: ٢٢]، وهكذا وقف عندها هنا ابن كثير في بيان آداب المناظرة موقفاً عظيماً نسأل الله أن يعيننا على بيانه، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وأعاننا الله وإياكم على بقية الدروس.

جزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]، هل داخلة في الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه؟

الشيخ: هنا الإحسان إتقان العمل وإسلام الوجه لله هو الإحسان، بمفهوم المصطلح، لأنه ما هو الإحسان؟ هو أن تتقن العمل وأعلى درجات إتقان العمل هو ماذا؟ أعلى درجات العمل أن تعبد الله كأنك تراه، أعلى درجات إتقان العمل ما هو، أعلى درجات الأعمال الشرعية من الصلاة والصيام؟ أن تعبد الله كأنك تراه، لكن مقصود الإحسان هنا ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، إتقان العمل والإتيان به على وجهه الصحيح، وأما الإحسان بمعناه الاصطلاحي في الحديث فهو داخل في قوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثمانون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الثمانون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» وكنا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾ [البقرة: ١١٣-١١٥].

تقدم بعض الكلام في الآية الأولى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾، وننبه إلى قضيتين:

القضية الأولى: هو أنه من باب كما قال ابن كثير رحمه الله من باب الإشارة والإيماء إلى أن اليهود والنصارى يقولون ما لا يعلمون، ويدعون بلا حجةٍ ولا بيّنة، ولذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، فالذين لا يعلمون قالوا مثل قول هؤلاء فدل على أن هؤلاء أي اليهود والنصارى يقولون ما لا يعلمون، وهذا من أبطل الباطل.

والله عز وجل لما ذكر مراتب المعصية في الوجود في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ [الأعراف: ٣٣]، جعل القول على الله أعظم درجات المعاصي، فإنه بدأ بالأقل وارتفعت درجة المعصية بالتتابع إلى الأعلى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ

تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، فهل هناك أعظم من الشرك؟ قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾، لأن القول على الله عز وجل بغير علم يتضمن الشرك، كل من نسب إلى الله عز وجل ما لم يقوله فقد كفر، لأنه عَبّد الناس بما لم يشرعه الله، فكذب على الله فهو كفر، الكذب على الله كفر.

ولذلك على صحيح أن الكاذب في الحديث كافر لأنه يشرع دينا، إلا إذا أخذنا باستثناء فهو أنه يكذب فيما شرع ولم يشرع شيئاً جديد، ومع ذلك ففي كلامه هذا حتى لو لم يشرع شيئاً جديداً وكذب في باب الفضائل وفي باب الترغيب والترهيب فإنه كذلك هو يشرع شيئاً، يأتي بشريعة، يأتي بشيءٍ يحسنه على جهة نفسه أو يحسن الشيء المحسن من جهة نفسه، من جهة حسنةٍ جديدة لم يثبتها الشارع، وينسبها إلى الله ويكذب على الله، فلذلك القول على الله بلا علم، هو أعلى درجات الشرك وأعلى درجات المعصية والخروج من طاعة الله عز وجل، وهذا مع أنه ظلمٌ لصاحبه أي أن يقول الرجل على الله ما لا يعلم، هذا ظلمٌ لمن يقول، وهي كذلك في افتراءاتها تدخل الناس في دينٍ لم يرضها الله، فلذلك فساده متعداً وليس إلى واحد وخاصةً إذا كان متبوعا، فإنه يتبعه كل أتباعه، يتبعه أتباعه جميعاً في هذا الضلال والشرك وهذا من تمام المعاصي.

والبدع في ديننا أي القول على الله ما لا نعلم هي من أشد ما تفسد في الوجود، ولو قارنا بين العقل الفطري أي الذي بقي على سلامته دون أن يدخل فيه (فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ)، أي دون أن يدخل عليه شيءٌ من مسمى العقل الفاسد، فإنه أسلم من البدع، أي إن العقل الفطري أسلم من البدعة، البدعة جريمة تفسد الدنيا والدين، العقل الفطري ربما لا يتعبد المرء فيه لربه ولكن تحسن به حياته، الكثير من العقلاء لم يشربوا الخمر، لأنهم رأوا في الخمر بفطرتهم وبعقلهم الفطري أنها تذهب العقل وهم يحتاجون إلى عقولهم في كل وقت، البشرية جمعاء تكره الزنا، الكثير من العقلاء يرون أن الربا مفسدة عظيمة ومدمرة لاقتصاد المجتمعات، فالعقل الفطري يؤدي بصاحبه إلى محاسن الوجود، والذي يخسره هو الآخرة إن لم يكن مخلصاً لله عز وجل، لكن البدع تفسد الدنيا والدين.

ومن هنا إذا رأيت في مسيرة التاريخ الإسلامي تجد أن العقل الفطري عند الغربيين يغلب البدعة التي يتلبس بها المسلمون، البدعة حين يظنون أنه بمجرد الالتجاء إلى المساجد وقراءة صحيح البخاري يُدفع عنهم

الضرر، كان إذا جاء الصليبيون والمستعمرون الكفرة إلى بلاد المسلمين وغزوها يرسل سلطان المسلمين لبعض البلاد ولبعض المشايخ مالاً ليوزعه على الناس وعلى الفقراء وعلى المشايخ من أجل أن يلتجئوا إلى المساجد ليقرؤوا صحيح البخاري من أجل أن يدفعوا الضر عن بلاد المسلمين، هذه بدعة لم يشرعها الشارع، شرع بالدعاء نعم، على وجهٍ من وجوه التعبد الصحيح.

أحمد عرابي لما قام بثورته وكان صوفياً فلما قام بالثورة كان أتباعه الدراويش أو الكثير من جنوده من الدراويش، وليلة المعركة قاموا كلهم بالرقص، يرقصون طيلة الليل على طريقة الصوفية تعبداً من أجل إنزال النصر من السماء، هذه الطرق بدعية، الكفار يبرؤون منها ويصيبون المقتل من المسلمين ويهزمون المسلمين بعقلهم الفطري السليم السنني ضد هذه البدع، وبعد ذلك يقولون: الدين لم ينجينا!! الدين لم يأمر بهذا ولم يعلق على هذه الأسباب أي نتائج وأي أثار لم يعلق عليها.

فلذلك القول على الله عز وجل بلا علم هذه جريمة بشرية، وجريمة الأديان التي مصدرها السماء، مصدرها الأنبياء، فإنه بعد أن يذهب الحواريون وتذهب الفترات الأولى من نقاء الإسلام الذي جاء الأنبياء، تتلبس الأجيال بعد ذلك ببدع الأقوال التي يظهرها الناس، لا يحبون السنن ويستقلون شأنها فيذهبون إلى البدع، ويظنون أن البدع تنجيهم.

وهنا أنبه على نقطةٍ مهمة: إن كثيراً من الناس يهتمون بالبدع الفردية التعبدية، ولا يقيمون شأنًا لبدع الأمة، البدع المتعلقة بالأمة، البدع المتعلقة بالفكر الذي لم ينزل ربنا عز وجل به سلطانا، وهذا أغلب ما يحدث اليوم، اليوم يقول قائل: أين البدع في المسلمين في المساجد؟! نقول لك: نعم، قليلة، القليل من البدع في بلاد المسلمين ويوجد طوائف صوفية منحازة في زوايا ومعتزلة ولا قيمة لها، ويوجد بدع يسيرة في المساجد، نعم القليل والبعض يقيم لها الشأن الأكبر وهم مخطئون يعني، لكن المصيبة في بدع الأفكار والأذهان والسنن والتعامل مع الكون، وينسبونها للدين، انظر إلى طرائق الناس في عزة الأمة، كم يبتدعون من بدع ويلبسونها القرآن والسنة، هذه بدع الأمم هذه يجب أن يهتم لها، وهي أعظم خطراً على الأمة من البدع الفردية في التعبد في الصلوات، هذه بدع عظيمة ولكنها ليست بأقل مرتبة من هذا.

القضية الثانية في الآية: لماذا عبر القرآن جاء بلفظ ﴿شَيْءٍ﴾، قد يكون الشيء حقاً وقد يكون باطلاً، الشيء هو الوجود، مع اختلاف بين المعتزلة وبين أهل السنة، فأهل السنة يجعلون الشيء لما هو موجود، وغيرهم كما ذكر هذا صاحب الكشاف يجعلون الشيء لما هو معدوم وما هو موجود، والصواب أن الشيء لا يكون إذا كان الحديث عن المقدرات والكونيات فلا بد أن يكون موجوداً، وقد يكون الشيء يطلق على ما هو ذهني، إذا جاز هذا من عبارات الناس، إذا جاز، وإن كان لا يطلق في العربية هذا النوع من المعاني، فهذا هو المقصود ولكن الشيء للمعدوم لما لا يوجد هذا لا يعرف في لغة العرب.

لكن الشيء يطلق عما هو حق وعما هو باطل، يعني ليس من معاني الوجود، لأن الشيء هو الموجود ليس من معانيه هو أن يكون حقاً، فقد يكون الشيء الموجود باطلاً، فلماذا هنا جاء بهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لماذا؟ لم أرى لأحدٍ من أهل العلم كلاماً فيها وإذا وجد أرجو أن أكون قد وافقت قولهم في هذا، ذلك بأن الشيء الْمُخاطَب به هو نفس عين الشيء الْمُخاطِبُ به، يعني هنا بما يلزم اليهودي النصراني؟ وبما يلزم النصراني اليهودي؟ هل بمجرد الوجود أم أنهما يتفقان اليهود والنصارى على أن الشيء لا يكون إلا حقًا، ولا يكون حقًا إلا من مصدرٍ معلوم؟ اليهود يقولون: ديننا صحيح لأنه جاء به نبي، والنصارى يقولون: ديننا صحيح لأنه جاء به من السماء ابنه جاء به نبيه بحسب قولهم، فإذن اليهود والنصارى يتفقان على أن الشيء لا يكون حقًا إلا إذا جاء من مصدر السماء، فلذلك لما يقول اليهودي للنصراني لست على شيء يقصد به ماذا؟ عنده، وهو المتفق عند الْمُخاطَب كذلك، كما أنه على لسان الْمُخاطِب له معنى، فعلى لسان الْمُخاطَب نفس المعنى، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾، كأن يقول: لست أنت على شيء، أي لست على شيء مما اتفقنا عليه أنه الحق.

ثم بعد أن أنهى الله عز وجل هذا القول لهم بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، فبين ارتباط النفي إذا كان اليهود كل واحدٍ ينفي دين الآخر، مع ارتباط النصارى، ترون النصارى يرتبطون بدين اليهودية، وحتى النصارى اليوم كثير منهم يرى أن التوراة هي من دينه، وبعضهم أصلاً يُنكر تغيير بولس لديانة النصارى، ولذلك يسموا بالنصارى السبتيين، واليهود يرون أن عيسى عليه السلام مُبشرٌ به في كتابهم مذكور، فإذا كان هذا الإنكار لما تقارب من أديانهم، فما بالكم إذا جاء مما

تباعد عن أديانهم؟ فعيسى عليه السلام من بني إسرائيل وهو مرسلٌ إلى بني إسرائيل، وأما محمد صلى الله عليه وسلم فهو عربي، ومن فرعٍ آخر من بني إسرائيل، فرع آخر غير إسرائيل عليه السلام، من جهة إسماعيل فمن باب أولى أن ينكرونه، على ما في دينهم من تقبيح لسلوك إسماعيل وأنه وحشي يده على كل شيء، ويد كل شيءٍ عليه، يقبحونه عليهم من الله ما يستحقون، فكيف يعترف هؤلاء بدين محمد صلى الله عليه وسلم بما بعد؟ ولذلك الله عز وجل طمأن النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم إن لم يتبع أحدهم ديانة بعض، فمن باب أولى أن لا يتبعوا ديانتك.

وبعد ذلك الله عز وجل قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾، الحديث هنا عن المساجد هو حديثٌ عن سلوكهم مع بعضهم البعض، عند كثيرٍ من أهل العلم، فالقرآن يذكر حالهم مع المتعبدين، أي يذكروا حال النصارى مع اليهود فيما يعملون في مساجدهم، وهذا قول ورجحه ابن جرير والعلماء لهم أقوال، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، من المقصود من هذا الذي يمنع المساجد؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، وهنا يقول ربنا عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ هذه جاءت على صيغة الخبر ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي أنه ظلم ظلماً كثيراً، وهذا من باب السؤال التقريري، سؤال تقرير أنه من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه فهو ظالمٌ ظلماً شديدًا، بحيث لا يوجد من هو أكثر ظلماً منه، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، أي من أكثر ظلماً، وهذا شيءٌ مقرر أن المساجد لا تمنع.

والعلماء لهم أقوال:

القول الأول: أن هذا المقصود به منع النصارى اليهود من أن يعبدوا في بيت المقدس، وهذا شيءٌ مشاهد لما دخل عمر رضي الله تعالى عنه بيت المقدس وأراد أن يبني المسجد الأقصى جاء إلى الصخرة فوجدها مليئا بأوساخ وقاذورات النصارى، كانت ملابس الحيض وأوساخها والقاذورات والأوساخ والزبالة تحمل وتلقى على الصخرة تقذيراً لمكان عبادة اليهود، النصارى يفعلون بهم هذا، هذا قول.

القول الثاني: وقد أخطأ هنا إن فهمنا كلامه فهماً صحيحاً أخطأ في القول الثاني ابن كثير رحمه الله حيث جعل أن هذا ليس من فعل النصارى في حال بعثة النبي صلى الله عليه وسلم من غلبة النصارى على

بيت المقدس، لكنه جعله من ممالأة النصارى لبُختنصر لما دمر مملكة يهود وهدم الهيكل كما يقولون، وهذا غريبٌ من ابن جرير والسبب أن بختنصر ليس بعد عيسى عليه السلام أي ليس بعد حدوث النصرانية حتى يعاون النصارى، وإنما بختنصر قبل الميلاد، من هو بختنصر؟ يقولون مع أن الحفريات والتنقيب الأثري لم يثبت شيئاً من هذا بأن مملكة يهود أزيلت على يد بختنصر الفارسي، جاء فهدم مملكتهم وهدم بيت المقدس، أي مكان العبادة الذي بناه سليمان عليه السلام ودمره وساق اليهود في السبي البابلي المشهور، ساقهم إلى بابل وهناك بنى الحدائق المعلقة ولم يرجعهم إلا كورش بعد أن أحب يهوديةً فتزوجها فاستخدمها أحد أنبياء اليهود من أجل أن تلين قلبه ليعيد اليهود إلى بيت المقدس، فهذا بختنصر كان قبل النصارى فكيف يذكره؟! ولذلك لما جاء ابن كثير إلى هذا القول جرده من قول أن النصارى أعانوا بختنصر وكأنه علم هذا، يعني ذكر ابن كثير قول ابن جرير دون أن يذكر ذكر أنه من فعل بختنصر ومنع مساجد الله ودمر بيت المقدس، دمر المسجد الأقصى، ولم يذكر النصارى كأنه شعر بهذا أن هذا غريب،

القول الثالث: وهو أنهم العرب، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾، قال: هم العرب الذين منعوا تعمير المسجد الحرام بعبادة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وذلك أعظم ما تحقق المنع في صلح الحديبية لأن الآيات مدنية، ذلك أنهم أرادوا العمرة في الحديبية وتعمير بيت الله بالذكر والعبادة والطواف والسعي فمنعتهم قريش، فهذا هو المقصود.

وابن جرير يرجح الأول وهو أن المقصود بذلك النصارى، ويحتج على هذا بحجج أول الرواية عن كثير من المفسرين بأن المقصود بهم النصارى، والدليل الثاني المقصود السياق، يقول: السياق ليس فيه ذكر العرب، الدليل الثالث لابن جرير وقال: ولا يعلم أن العرب أفسدت المسجد بمعنى منعت عمارته، وإنما كانت تعظمه على ما ورد عندهم من ميراثهم من إسماعيل عليه السلام، كانوا يعظمونه، فهذه أدلة ابن جرير في هذا القول، الدليل الأول: النصي الرواية، الدليل الثاني: سياق الآيات، الدليل الثالث: النظر إلى تاريخية الفعل، الفعل هل وقع أو لم يقع.

جاء ابن كثير رحمه إلى أقوال ابن جرير ونفى ومع اتفاقه مع قول ابن جرير بأن الآية في معناها شاملة لهؤلاء جميعاً، لكن الحديث عن سبب النزول، الحديث عن سبب النزول وترجيحه، ومع أن الآية شاملة

تشمل كل من ذكر لأنهم منعوا عمارة المسجد الحرام على معنى من المعاني، وإن كانت قريش لم تمنع العمارة المادية ولكنها منعت العمارة المعنوية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)﴾ [التوبة: ١٨]، فالعمارة بنص القرآن إنما هي العمارة المعنوية.

فلما جاء ابن كثير رحمه الله إلى هذه الآية، ووافق أن الآية شاملة في نصها لكل ما تقدم، لكنه رد على ابن جرير، ورجح أن مقصود الآية هم العرب، قريش، واحتج بالمأثور في قولٍ لابن عباس رضي الله تعالى عنهما بأنه قال: بأن المقصود بهذه الآية العرب قريش، عندما منعت النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية من أن يتعبد، ورد على ابن جرير رحمه الله بأن من هناك من هو أظلم من قريش التي منعت عمارة المسجد الحرام من عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، من أن يعبد الله في المسجد، وأفاض ابن كثير في الرد في هذا الباب.

والذي عندي أن قول ابن جرير عليه رحمة الله هو الأقوى، لأنه هو المناسب للسياق ومعه الرواية، والمقصود هنا ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾، أنه خربها، وهذا الأقرب لما هو عليه هو فعل من هدم البيت ورمى به الأوساخ وأفسد على العابدين عبادته، خاصةً أن السياق هو حديثٌ عن اليهود والنصارى، ومع ذلك فيكفينا قول الاثنين من العلماء بأن الآية شاملة لهذا كله وهذا من باب التنافس على الصواب في الحق.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، المساجد هو مكان السجود، كما تقال: منازل نزل ومقاعد مكان القعود، وعند بعض أهل العلم يجوز أن يطلق على المسجد الواحد مساجد لأن المسجد يكون فيه أماكن سجود متعددة فيصح، وإن كان الأغلب على المساجد هي جمع مسجد، والمساجد هي أن ينسب مكان التعبد إلى عملٍ من أعمال التعبد دل على أنه أشرف أنواع التعبد وهذا بيّن، يعني المساجد يقرأ فيها القرآن، المساجد يركع فيها، المساجد يقام فيها، ولكن لما كان أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فنسبت المساجد إلى أشرف حالةٍ يكون عليها المتعبد، والناس يقولون: جوامع وإنما هو أخذ من المسجد الجامع أي الذي يصلي فيه الناس ويجمعون فيه صلاة يوم الجمعة.

وهذه النسبة –مساجد– هذه النسبة هي نسبة تشريف، نسبة ملكٍ وتشريف، يعني المساجد لمن؟ لله عز وجل، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فهذه الأرض لله عز وجل، فمنسوبة له، لكن لماذا نسبت له؟ نسبت له على معنى التشريف، كأن يقول العظيم هذا لي، وإنما ينسبه، لا ينسب العظيم شيئاً حقيراً سخيفاً له وإنما ينسب الشيء العظيم، فنسبت المساجد له ذلك لتشريفها، لذلك قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، فلما اختص فيها ذكر الله دون غيره نسبت إليه، فإذا ذكر فيها غير الله لم يكن العلماء يعتبرونها على هذا المعنى.

ولذلك ورد عن كثير من السلف أنه إذا قام الخطيب فخطب فترك الكتاب والسنة، أي ما ذكر لا القرآن ولا السنة ولا ما تعلق بهما من المعاني، اشتغلوا بالحديث ويتركون استماعهم للخطبة، فإذا زجروا، (إذا قال العبد لصاحبه والإمام يخطب صه فقد لَغى ومن لَغى فلا جمعة له)، أي لا تلغوا، فقال: ليس لمثل هؤلاء أمرنا أن نسمع، ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، أليس هذا السعي إلى ذكر الله؟! قال: ليس هذا من ذكر الله.

ولذلك كان من اختيار ابن حزم أنه إذا اشتغل الخطيب بغير ذكر الله في الخطبة جاز للمستمعين له أن ينشغلوا بالحديث مع بعضهم البعض، لأنه ليس لهذا أمروا أن يسمعوا ولا أن ينصتوا، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)﴾ [الجن: ١٨]، فإذا دعي غير الله لم تنسب إليه، لا يجوز أن تنسب إليه، لأنه دُعي فيها غير الله عز وجل.

فماذا منع المساجد؟ قالوا: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، ولذلك من أعظم ما أقيمت له المساجد أن يذكر فيها اسم الله، وأعظم ذكرٍ هو أن يتلى فيها القرآن، أعظم ما ينبغي أن تقام وهي المقصد الأول في المساجد، المقصد الأول لإقامة المساجد هو أن يذكر الله، وهذا مما يحبه الله عز وجل، ولذلك موسى ماذا قال؟ ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤)﴾ [طه: ٢٩-٣٤]، والملائكة تقدم قولهم: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ولذلك ذكر الله عز وجل من أعظم الطاعات وأعظم الذكر أن يُقرأ كتابه وأعظم حالةٌ يُقرأ فيها

القرآن في الصلاة، فلذلك أعظم العبادات في ديننا هو قراءة القرآن في الصلاة، أعظم العبادات، وهذا ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولذلك هذا المكان شُرف بأن يكون لله عز وجل.

والمساجد تعمر بأمرين، تعمر بالبناء وعلى صفةٍ معينة، تعمر على صفة معينة، قال صلى الله عليه وسلم: (مَن بنى للهِ مسجِدًا ولو كمَفْحَصِ قَطاةٍ بنى اللهُ له بيتًا في الجنَّةِ)، المكان الصغير لو بنى له، وأن عمر رضي الله عنه نهى أن تصفر وأن تحمر المساجد، أي أن تزين، ولذلك إذا الناس انشغلوا بعمارة المساجد على معنى التزيين دون أن يعمروها على معنى العبادة فهذا دلال على هلكتهم، وفي ذلك حديث (إذا زين الناس مصاحفهم وزخرفوا مساجدهم فالطامة عليهم أو فالهلاك عليهم، أو فالدمار عليهم)، فالمطلوب هو كما قال صلى الله عليه وسلم لما أمر ببناء المسجد: (عريشٌ كعريش موسى)، أراد أن يكون المسجد عريشاً كعريش موسى عليه السلام.

وفي هذا دليل على أن سنن الأنبياء في بناء البيوت كان على التواضع، وفي هذا ردٌ على اليهود الذين زعموا ما زعموا من الهيكل، لأن الهيكل من الذي بناه؟ بناه سليمان عليه السلام، لماذا؟ من أجل أن يتعبد الله عز وجل فيه، ليتعبد به بنو إسرائيل فيه، من أجل العبادة، فإذن هل كانت سنة الأنبياء زخرفة المساجد؟!! لا، ماذا كانت سنة الأنبياء؟ (عريش كعريش موسى)، وهكذا كان بناء سليمان عليه السلام، ولذلك في كل حفرياتهم لو اتفقنا ولم نتفق، بأن هذا المكان من المسجد الأقصى هو المكان الذي بني فيه هيكل سليمان كما يزعمون فإنه لم يكن على الصفة التي يذكرونها، والدليل أنه لا يوجد فيه الحفريات أي دليل على أعمدة ولا على حجارة عظيمة ولا على ما يذكرون، ولا شك أن هذا المسجد الأقصى هو المسجد الذي بناه سليمان عليه السلام للحديث، لا شك في هذا، وليست العبرة بالتاريخ العبرة بالدين، فمن أولى الناس بسليمان؟ محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه على دينه وليس هؤلاء اليهود.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي هذا ظلمه عظيم، ﴿مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، أن يذكر فيها اسم الله عز وجل، لأن من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فمساجد الله يذكر فيها اسمه فهي منسوبةٌ إليه، قال تعالى: ﴿وَسَعَى﴾، منع الناس أن يقوموا بالحق فيما أمروا فيه ولم يكتفوا بذلك بل ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾، والخراب هنا إما أن يكون تفسيراً في ترك ذكر الله والانشغال بغيره وإما أن

يكون الخراب المادي الهلكة، أن يهلكها، وأن يدمرها، وهذا شأن الأعداء، إما هذا وإما هذا وإما أن يجتمع الأمران، يعني من اجتماع الأمرين في تهديم المساجد، لما قام أتاتورك عليه من الله ما يستحق، لما دمر المساجد وجاء إلى أية صوفيا التي فتحها المسلمون في إسلام بول في إسطنبول، لما حولها إلى مسجد جاء وحولها إلى متحف، ومنع إقامة الأذان بل جعل الأذان بالتركية، ولذلك لما سمع المسلمون في أول مرة زمن عدنان مندريس الأذان بالعربية بكوا من شدة فرحهم بعودة الأذان بالعربية، وإلا فقد منع أن يذكر فيها اسمه بالعربية، ومنع في أية صوفيا الصلاة فيها وحولها إلى متحف، قال: هذه خصومة بين المسلمين والنصارى وأصلها كنيسة وحولوها المسلمون إلى مسجد، لا نريد أن نجعلها لا كنيسة ولا مسجد وحولها إلى متحف، هذا من الدمار والفساد.

وكم هدم الشيوعيون من المساجد فيما يسمى بالجمهوريات الإسلامية في طاجكستان في الشيشان؟ دمروا المساجد، وحولوا المساجد إلى اسطبلات، واليهود لما دخلوا فلسطين إلى الآن مسجد السلطان حسن في عكا إلى الآن خمارة، جعلوا المسجد مكاناً للرقص والعهر، ومن تخريب المساجد أنهم أخذوا المساجد ويريدوا أن يجعلوها مكاناً لشركهم، الآن التنازع على المسجد الأقصى، هو أن يجعلوا فيه مكان ليدخل اليهود ويمارسون فيه دينهم، فتقسيم المكاني ثم يريدون تقسيم زماني يعني يدخل كما في الحرم الذي يسمى الحرم الإبراهيمي مسجد إبراهيم الخليل، هناك وقت يدخل فيه اليهود ولا يدخل فيه المسلمون، يمنعون فيه إقامة الذكر، لهم وقت ولهم مكان، وهكذا فعل القرامطة قديماً لما دخلوا إلى المسجد الحرام، القرامطة، الإسماعيليون دخلوا المسجد الحرام في أيام مِنى فقتلوا كل من فيها، قتلوا الحجيج جميعاً قتلوهم، وقلعوا الحجر الأسود وحملوه على جمل إلى أن ذهبوا به إلى البحرين، إلى مكان إقامتهم، وبقي هناك سنين طويلة، حتى استرده المسلمون بدفع الذهب أكياس وحمائل الذهب لهم، حتى عاد الحجر الأسود إلى مكانه، هذه كلها من الصور، وفي إثيوبيا هذا «هيلا سيلاسي» الملعون كم هدم المساجد ومنع المساجد؟ وهكذا منع المساجد هذه جريمة.

وكذلك من المنع المعنوي أن يمنع أن تقام فيها الدروس العلمية، هذا من المنع، المساجد هي مكان العلم، والناس للأسف الآن في كثير من بلاد المسلمين لا تقام الدروس في المساجد كما كانت قديماً، المساجد هي مكان الدروس لا يعرف المسلمون مكانًا للدروس إلا المساجد، وما أقاموا من المدارس، وإلا

فالمساجد هي أماكن الدرس التي يعمر فيها ذكر الله عز وجل، يذهب إلى المسجد فيقرأ هكذا بدأ، اليوم يمنعون، تقفل المساجد وتمنع منها الذكر وتمنع منها العبادات ويمنع منها الاعتكاف، وبعضها يمكن تبريره لئلا يدخل فيها الفاسدون، ينام فيها اللصوص ويسرقها اللصوص والسراق، ولكن الكثير منها مبني على تعطيل المسجد، لأنه مكانٌ عظيمٌ ومكانٌ مهم بالنسبة للمسلمين، ولذلك من أعظم الافتراءات هو أن تعطل هذه البيوت، وأول ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة وتشرفت بقدومه، أن بنى المسجد.

قال سبحانه وتعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، فلو صح عن المشركين فهم منعوا مسجداً واحداً وهو المسجد الحرام، ولو صح عن أولئك فالمقصود به المسجد الأقصى، فلماذا يقال: المساجد ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، الذي يفسد مسجداً عنده النية بأن يفسد كل المساجد والذي يدمر مسجداً لو استطاع لدمر كل المساجد، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ [الشعراء: ١٠٥]، هم كذبوا نوح عليه السلام، لكن بتكذيبهم نوح عليه السلام كذبوا جميع المرسلين، وهنا الذي يدمر مسجداً كأنه دمر المساجد جميعًا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾، منع وسعى في خرابها، ﴿مَنَعَ﴾ المنع هو حالة بأن يمنع الذاهب إليه، ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾، هذه كلمة السعي تدل على التتابع، ﴿مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، منع أن يذكر فيها اسمه فقطع الذكر، لكن ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾، كل من منع أن تبنى المساجد سعى في خرابها حتى لو لم توجد، فيدخل في ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ حتى الذي منع إقامتها، أي لو أراد أناس أن يبنوا مسجداً فمنعهم كان هذا المنع سعياً في خرابها، ولذلك هو يسعى هذا السعي يدل على الدوام ويدل على المتابعة ويدل على الصيرورة على دوامها، سيرة مُتبعة، فلذلك الذي يسعى في خرابها أي ينقضها حجراً، حجراً، أو يمنع إقامتها أو إقامة الخير فيها.

قال تعالى: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾، ماذا لهم هؤلاء؟ ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، هذا ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، وإن جاء على صيغة الخبر ولكنه أمر، أن يدخلوا المساجد إلا خائفين، هذا الخبر متى يقع؟ قال بعض العلماء: وقع، فإن الله سبحانه وتعالى نصر المسلمين على النصارى في بيت المقدس –لمن قال بأن المقصود بها هذا– فإنه لمنعهم ولذلك ما صار النصارى يدخلوها إلا

على هذا المعنى من عزة الإسلام وخوفهم من أن يدخلوها، ولا يدخلوها إلا على خوف أو تستر ولا يدخلونها بإرادة المسلمين، فهذا خبرٌ تحقق.

وهناك من قال: لا، هذا الذي حدث لما دخل المسلمون المسجد الحرام وأقاموا فيه الحق فصار دخول المشركين فيه على خوفٍ منهم، ومنعوا حتى منعهم الله عز وجل، قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١)﴾ [التوبة: ١]، ألا يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)﴾ [التوبة: ٢٨]، فمُنعوا هذا خبر.

وبعضهم قال: هذا يقع عند المهدي، وبعض المفسرين قال: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، والمقصود عند المهدي ذلك لما يعود المسجد الأقصى إلى المسلمين مرةً أخرى أخذاً من اليهود، هذا قول لمن يقول به، وكلها على معاني واحدة وينطبق عليها هذا المعنى، ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾، أي المساجد ﴿إِلَّا خَائِفِينَ﴾.

وهذا الخبر على معنى الأمر كذلك بأن على المسلمين أن يمنعوا هؤلاء من دخول المساجد، والعلماء على خلاف في دخول المشركين المساجد فهناك من أجاز الدخول على معنى الاستثناء، كما كان يدخل الأسرى في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، يدخل المشركون المسجد، وهناك من منع كليةً بأن لا يجوز أن يدخلوا، وهناك من فرق بين المسجد الحرام وبين غيره، وهذا قول الشافعي رحمه الله، الشافعي رحمه الله يفرق بين المسجد الحرام وغيره بأنه لا يجوز أن يدخل المسجد الحرام المشرك، وأما بقية المساجد فيجوز أن يدخلوا فيها على خلافٍ بينهم، وهناك من أهل العلم منع أن يدخل المشركون المساجد إلا للضرورة والحاجة لأنهم نجس.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، هذا في الدنيا، وأما كذلك فلهم حكمٌ آخر في الدنيا والآخرة فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، أي يلقي ربنا عز وجل عليهم الخزي وعلى ما تقدم مما ذكر من أن الله أخزاهم بنصرة المؤمنين أو أخزاهم بنصرة المؤمنين في بيت المقدس بدخولهم أو أخزاهم بدخول النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه رضي الله عنهم إلى المسجد الحرام ... إلخ، والخزي هو

ضد الكرامة، والخزي ضد الاحترام، وهذا شيءٌ بيّن فيما معنى الخزي، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فهذا تأجيلٌ لحالهم يوم القيامة أنه سيكون كذلك لهم عذاب يوم القيامة على ما فعلوا في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾، العلماء قالوا: إن أول نسخٍ وقع في القرآن هو نسخ القبلة، والمعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في بداية الأمر يحب أن يوافق اليهود طمعاً في إسلامهم، وليبيّن لهم أنه من المشكاة التي جاء بها أنبيائهم، من نفس المكان، من نفس القضية، والذي دعا إليه أنبياء بني إسرائيل هو يدعوا إليه، تقريباً لهم، فلما حسم الأمر وتبيّن أنهم لن يؤمنوا ولن يدخلوا في الدين، فالله عز وجل جعل من دينه مخالفتهم، ولذلك «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، صار من قواعد هذا أن مخالفة اليهود والنصارى هو الهدى، ليس فيما جاءت به الشريعة عندهم في أغلبه ولكن ما اختاروه لأنفسهم، مثل السبت والجمعة وهكذا.

فلذلك لما كان النبي صلى الله عليه وسلم في بداية الأمر بعد أن فرضت الصلاة كان يتوجه بالصلاة إلى بيت المقدس فصاروا اليهود يقولون: هذه أخذها من عندنا، هذه نحن الذين هديناه إليها، وبقي على هذا ستة عشر شهراً قريبًا من سبعة عشر شهرًا، ثم جاءه الأمر بالتحول أن الله عز وجل أمرهم بأن يتحول بالصلاة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وقيل: بأن هذا نزل وهو في صلاة العصر، نزل وهو يصلي صلاة العصر فجاءه الأمر بالتحول، قيل هذا وإن كان الصواب أنه نزل عليه التحول قبل الصلاة، ولكن هذا التحول خلال الصلاة وقع لبعض الصحابة رضي الله عنهم فيما يسمى اليوم، فيما يسمونه والله أعلم إن صح بمسجد القبلتين، فإذن الله عز وجل أمره أن يحول.

وهذا تقدم أنه من قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦]، قال ابن القيم هذه توطئة لما ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، توطئة لقضية تحويل القبلة، والتوطئة الثانية تحويل القبلة هذا هو، وهو أن الأمر لله عز وجل، ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، وإنما يكون التوجه للمكان تعظيماً له، والصواب من أكثر تعظيماً؟ المسجد الحرام أم المسجد الأقصى؟ المسجد الأقصى معظم وهو عظيم، وبارك الله حوله، وهو بناء نبيٍ من الأنبياء، ولكن المسجد الحرام أعظم، ولذلك اختار الله لهذه الأمة ولنبيها من قبلها أن تكون

الجهة التي يتوجهون إليها أعظم من الجهة التي توجه إليها بقية الأنبياء، أو التي توجه إليها اليهود والنصارى، ومما لا شك فيه أن كثير من الأنبياء كان يتوجهون في صلاتهم إلى المسجد الحرام بلا شك في هذا، فالله عز وجل مهد هذا بأن جعل قلوب المسلمين بأن كل الجهات هي له وإنما العبرة بالطاعة، العبرة أنكم تطيعون الله عز وجل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، أي لله عز وجل ما في المشرق ولله ما في المغرب، ولله جهة المشرق ولله جهة المغرب، وهذه النسبة هي نسبة الملك أنه يملكها، وليس في ذلك تشريف كما تقدم من مساجد الله، وإنما هي ملكٌ عام، وإنما الإمكان التي يتوجه إليها العبد فيها تعظيم وتشريف.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، بلا شك أنه في كل يوم هناك مشرق، أي مكان تشرق منه الشمس، ومشرق الشمس يتحول من مكان إلى مكان، ومغرب الشمس يتحول من مكان إلى مكان، وإن كان في الجهة، وإن كان هذا من جهة المشرق ولكن مكان خروجه يختلف، وهذا مكان غروب الشمس يختلف، فالله المشارق والمغارب، وكذلك من معاني المشارق والمغارب أنه حيث كان مشرقاً لقوم كان مغربًا عن قوم، ففي كل وقتٍ مشرق ومغرب، ففي كل مشرق هو مغربٍ لآخرين وفي كل مغرب هو مشرقٍ لآخرين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وفيما يمكن إعمالها لهذه الآية؟ هل هي مما نسخت؟ بعض أهل العلم ذكرها من المنسوخ، والمعلوم أن المنسوخ على المعنى الاصطلاحي لا يصح في هذا الباب وهو رفع الحكم، لأن هذه الآية بقيت بعض أحكامها، فيما سنذكر، أي لم ترفع بالكلية بقيت بعض أحكامها، فالنسخ هو رفع حكمٍ كلي أن يرفع بالكلية، وهنا لم يرفع الحكم، متى تعمل إذن هذه الآية؟ لكن ما هو الشيء المنسوخ فيها، أي بعض المنسوخ فيها؟ في ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يكون المرء قِبالة الكعبة، فلا يجوز أن يصلي إلى أي جهةٍ أخرى، بل لا يجوز له أن يصلي إلا إلى عينها، فلو أراد الجهة دون أن يصيب العين وهو ينظر إليها لم تصح صلاته، يعني حين يرى المرء الكعبة ماذا يجب؟ أن يصلي إلى عينها، فإذا ابتعد عن العين صلى إلى جهتها، فإذا التبس عليه أمر

الجهة جاز له أن يصلي حيث اجتهد أصاب أم أخطأ، في مكان لم يعرف الشرق ولا الغرب، فحينئذٍ جاز له أن يصلي، وورد في ذلك أحاديث مع الإشارة إلى ضعفها ولكنها تدل على هذا المعنى، فإذن عند عدم القدرة على تحديد جهاتها، هذا يمكن ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، خلاص أنت تصلي.

الحالة الثانية: الأمر الثاني الذي يجوز فيه عند عدم القدرة على التوجه لها، ما عندك قدرة مثل ماذا؟ مثل صلاة المسايفة، المريض الذي لا يستطيع أن يتوجه مربوط مقيد لا يستطيع، وما هي صلاة المسايفة؟ أي أن يكون الرجل في حالة قتال أو في حالة هروب، ولا يستطيع أن يقيم الصلاة إلى القبلة، فيصلي حيث توجه وجهه فهو مربوط بمكان يصلي حيث ما كان عليه، وإذا كان في حالة مسايفة قتال ومتجه إلى جهة ولا يستطيع أن يرجع عنها وأن يقيم وجهه إلى القبلة صلى، صلاة المسايفة سميت بالمسايفة أي وهو يقاتل بالسيف، واليوم لا يوجد سيف لو يقاتل على أي جهة يصح في هذا المعنى.

الحالة الثالثة لها: وهو صلاة التطوع على الدابة على خلافٍ في الإقامة والسفر، ولا نريد أن نتوسع فيها ولكن أمر عليها سريعاً، يعني لو أن رجلاً فوق الدابة أراد أن يتنفل، يجوز له أن يتنفل على دابته باتفاق إذا كان في السفر خارج المصر، مع ابتداء صلاته متوجهًا للقبلة ثم حيث توجهت به دابته، هذا اتفقوا عليه، واختلفوا فيما سوا ذلك، ما القدر المتفق عليه أن تكون الصلاة على الدابة أولاً خارج المسجد في السفر، وابتداء الصلاة أن يتوجه إلى الكعبة، ثم بعد ذلك حيث توجهت به ما في مشكلة هذا متفق عليه، واختلفوا بعد ذلك.

وهل تجوز هذه الصلاة على المعنى الذي تقدم ولكن في داخل المصر؟ اختلف أهل العلم والصواب جوازها، يعني يجوز بل ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على دابته وهو في المدينة، تنفل على دابته وهو في المدينة إلى غير القبلة، لكن هل ابتدأ صلاته متوجهًا إلى القبلة ثم انحرف ترك دابته تمشي حيث صارت، أم أنه يجوز له أن يبتدأ الصلاة على غير القبلة؟ هذا كذلك وقع فيه خلاف، والصواب والذي عليه الأحاديث أنه يجوز للمرء أن يصلي على الدابة النافلة في المصر سواء كان افتتحها وهو على القبلة أو على غير القبلة، يجوز له اليوم بالسيارة لكن لا يجوز صلاة الفريضة على هذا المعنى لا يجوز، لا يجوز للمرء أن يصلي على الدابة قادرًا أن ينزل عنها لا يجوز إلا أن يقوم قائماً في الصلاة متوجهًا إلى القبلة، في الحضر

والسفر لا يجوز، الفريضة، وإذا لم يستطع؟ حينئذٍ عندك قياس صلاة المسايفة، رجل يكون في الطيارة لا يستطيع أن يتوجه إلى القبلة؟ له ذلك، لكن أن استطاع أن يتوجه إلى القبلة قائماً في الطائرة لا يجوز له، ولا في الباص إذا استطاع قائماً وإذا استطاع أن يوقف الباص فينزل فيصلي قائماً إلى القبلة فلا يجوز له أن يصلي في الباص جالساً، صلاة الفريضة لا تصح إلا بقيام مع التوجه إلى القبلة، شرطها القيام بخلاف صلاة النافلة.

إذن الصواب في صلاة النافلة يجوز للمتعبد أن يصلي على دابته متوجهٍ إلى غير القبلة عند التكبيرة أو في أثناء الصلاة، إذن هذه حالات التي بقي حكمها في هذه الآية ويعمل به ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ أي في صلاتكم، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ ما المقصود هنا؟ لماذا لم تذكر الصلاة؟ لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن، صحيح غير مذكور فيما تقدم إلا في قولهم، ﴿مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، وأعظم الذكر هو الصلاة، ولذلك المقصود ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ أي قائمين في صلاتكم ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، أي حيث هو يكون وجه الله، ما معنى كلمة ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾؟ العلماء على قولين، ذكرهما ابن جرير وكلاهما صحيح ولا خلاف بينهما:

المعنى الأول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فثم قبلة الله أي القبلة التي هي لكم، وهذا دليل على أن الشيء قد يكون له حقيقة في نفسه، وحقيقة عند فاعله، يعني ما هو وقت الصلاة على الصحيح؟ المعروف أوقاتها، لكن من نام عن صلاةٍ أو نسيها ما هو وقت الصلاة بالنسبة إليه هو، دون الأصل؟ هو حيث قام أو حيث تذكر، ما هو وقت الصلاة لو أن رجل نام حتى خرج وقت الصلاة؟ نام العصر حتى خرج وقت صلاة العصر إلى المغرب أو نام الفجر حتى خرج وقت صلاة الفجر، أشرقت الشمس، متى وقت الصلاة بالنسبة إليه هو؟ وقت الصلاة معروف، صلاة الفجر يمتد من بزوغ الفجر إلى شروق الشمس، لكن بالنسبة إليه فإنه عليه أن يصليها متى قام من نومه متى استيقظ، فهذا وقت الصلاة بالنسبة إليه، إذن أصحاب الأعذار لهم أحكامهم الخاصة بهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، هذا لمن بقي له هذا الحكم ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي قبلة الله، المقصود أين يتجه، ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، أي فثم الجهة التي بها يصيب حكم الله في القبلة، هذا قول.

القول الثاني: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، أي فثم الله، وهي صفة من صفات الله عز وجل الوجه، وكلاهما أي هذان المعنيان اللذان ذكرهما عن السلف ابن جرير كلاهما حق في هذه الآية وهذا ما سنشرحه إن شاء الله في الدرس القادم، متوسعين في هذا الباب قليلاً بما يناسب الحال في موضوع أسماء الله وصفاته والرد على أهل البدع، بما يناسب إن شاء الله مع هذه الدروس لأن ليس المقصود هذا وإن كان فيه بعض الاختصاص فيما بين يدينا ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيرًا، الحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، الآن القول الأول النصارى هم منعوا اليهود؟ واليهود يعني عبادتهم باطلة والآية تقول: ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾؟

الشيخ: يعني السؤال كيف يكون هذا مدحاً؟ بلا شك أن اليهود ليسوا من الشرك في هذا الباب، أماكن اليهود في العبادة حين يقرأون أو يذكرون الله ليس في ذلك الشرك، وإنما يقرأون دينهم ويذكرون أسماء الله على ما علموا من دينهم، هذا هو المقرر في هذا، وهذا يقوي حينئذٍ قول ابن كثير رحمه الله، على أساس أن اليهود لا يذكرون اسم الله على الجهة التي أمر الله أن يذكر فيها اسمه من دينهم، فإذا صح المعنى وكان على اليهود فيكون اليهود في ذكرهم لله في ما منعه النصارى على المعنى الصحيح، يكون اليهود في ذكرهم لله في أماكن عبادتهم في وقت منع النصارى لهم كانوا يذكرون الله ذكراً صحيحاً على الوجه الذي أمرهم الله عز وجل به، يكون هذا، فإن لم يكن هذا وكان هو قول أنهم العرب فالأمر بيّن في أن النبي صلى الله عليه وسلم مُنعَ من مساجد الله أن يذكر فيها اسمه.

السائل: هل يجوز أنه لم يتمكن من عبادة الله وهو ساجد؟

الشيخ: إذا كانوا يسجدون فيها وإن كانت تسمى أماكن عبادتهم بالبياع، اليهود البياع والنصارى بالكنائس، وهذه التسميات محدثة، ولذلك كل الأنبياء كانوا يسجدون لله لأن السجود هو أعظم مظاهر العبادة، يسجدون لله، والسجود هو أعظم درجات التعظيم عند الناس جميعاً قبل الإسلام وبعد الإسلام، السجود تعظيم، مما لا شك فيه أن اليهود كانوا يسجدون، والنصارى كانوا يسجدون يأمرون بالسجود، ثم غيروا وبدلوا هذا ما يعرف عنهم، بل الديانات التي ليس لها أساس غيبي عندهم السجود، البوذيون عندما يأتون إلى أماكن عبادتهم يرتمون على الأرض سجوداً هم طبعًا السجود عندهم ارتماء كامل ليس على الطريقة المسلمة ولكن يسجدون يرتمون لسجود، فالسجود هو أعظم درجات التعظيم عند الناس جميعاً، وهذا المعنى يقرب قول ابن كثير مع أن المناسب للسياق هو الحديث عن اليهود والنصارى.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الواحد والثمانون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

هذه هو الدرس الحادي والثمانون من دروس التفسير، وما زلنا مع سورة «البقرة» وعند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾ [البقرة: ١١٥].

قبل أن نتكلم عن هذه الصفة الجليلة لربنا وهي صفة الوجه جل في علاه، التي ربما نفرغ منها اليوم ونتحدث عن قواعد التشريع قبلاً وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، من المعلوم أن العلاقة بين المخلوق والخالق هي علاقة المعبود لعابده والمسلم للمستسلم له جل في علاه وهو الإله، ولذلك جل في علاه لا يُسأل عما يفعل، له الحق لأنه الرب، لأنه الخالق، لأنه الرزاق، لأنه المميت، فلا خالق سواه وهو الحق، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، ولا خالق جل في علاه للمخلوقات سواه، فله حق الأمر، وهذا الحق لله عز وجل فيشرع ما يشاء، فليس للعبد إلا أن يطيع، هذه القاعدة متفق عليها بين القائلين بالعلة أو النافين لها أو القائلين بالقياس والنافين له، بأننا إنما نمتثل أمر الله عز وجل، قبل أن نعرف لماذا؟ وكيف أن نعرف خصائص هذا التشريع قبل أن نعرفه، علينا أن نطيع الله سبحانه وتعالى وأن نمتثل أمره ولا نسأل كيف؟ ولا نسأل لماذا؟ أي لماذا هذا الأمر؟ لا نسأل.

وإنما المرتبة التي طلبها الله عز وجل من عبيده أنه إذا خوطبوا بأمره قالوا: سمعنا وأطعنا، سمعنا هذه بيان حاله الأول بالنسبة للعبد وهو أن يلتزم ما أمر الله عز وجل به، وأطعنا هي مرتبة العمل، الالتزام أولاً وهذه مرتبةٌ لا يقبل فيها التبعيض، فعدم الالتزام هو الكفر والردة، وأطعنا إنما هي مراتب بحسب نوع الطاعة وبحسب درجاتها وكمالها في ذاتها في نفس العبد، فالطاعة هي بنفسها قد تكون واجبة ولكن يقوم بها العبد على درجة الإسلام من الظاهر وعلى درجة الإيمان من الإحسان فيها أو على درجة الإحسان فيها بأن

يعبد الله عز وجل فيها كأنه يراه، هذه هي المرتبة التي يعني يتفق عليها أهل الإسلام ولا يختلف عليها المسلمون، وهذه المرتبة تكون قبل كل شيء والتي تمثل بها الصديق رضي الله تعالى عنه أبو بكر «إن قالها فقد صدق»، خلاص، إن كانت قد صدرت من النبي صلى الله عليه وسلم من الرسول الصادق المبلغ عن الله عز وجل فهي الصدق؛ لأنها من جهة الخبر، وأما إذا جاءت على جهة الامتثال فسمعنا واطعنا.

فالله عز وجل برر نقول سوغ لأن كلمة برر في الحقيقة ليست من اللغة، نقول: إنما أعطى لنفسه جل في علاه الحق أنه لا يُسأل عما يفعل بأن له المشرق والمغرب هذا ملكي، أنتم عبيدي أنا الذي خلقتكم والأماكن كلها أنا خلقتها فأنا أمركم فعليكم أن تطيعوا، المشرق لي فحيث قلت لكم أجعلوا المشرق قبلة عليكم أن تمتثلوا، وحيث قلت لكم أن المغرب قبلة عليكم أن تمتثلوا، وقبل أن تسألوا لماذا، فلا يجوز لكم أن تسألوا لماذا، فإن شققتم على أنفسكم لماذا تقدم الحال، وهو حال أهل الذين أمروا بذبح بقرة، حيث كلما سألوا شددوا على أنفسهم بحيث أن يشدد الله عز وجل عليهم ويضيق عليهم مسالك الأمر حتى يجعلوه ضيقاً، وهذا الأمر كذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما بين المشرق والمغرب قبلة)، فالمطلوب من العبد أن يتوجه إلى جهة القبلة.

والناس قد يشقوا على أنفسهم فيسألون كيف؟ كيف؟ وجعل بين المشرق والمغرب قبلة، هذه مساحةٌ واسعة فيها الإعذار للعبد بأن يبحث أقل البحث على جهة إجراء الشريعة لعموم الناس دون الخواص، لذلك هنا أنبه على قضية سيأتي التفصيل فيها، وهو استخدام البوصلة من قبل البعض وإجبار الناس عليها، فهذه ليست من الشريعة، لأنها مخالفة لوضع الشريعة أنها وضعت على جهة قوله صلى الله عليه وسلم: (نحن أمةٌ أمية)، فإذن التسويغ للأمر هو أن الله عز وجل له المشرق والمغرب.

ثم تأتي المرتبة الثانية: أن الله سبحانه وتعالى لا يجعل القبلة إلا على معنى حسن في ذاته، الله عز وجعل يأمر فعليك أن تطيعه، لكن هذا الأمر لا يصدر من ربنا جل في علاه إلا على معنى من معاني الحكمة، وعلى معنى من معاني التعليل، هو خلق الشيء وخلق علته، وهو جعل الشيء على وجهٍ من وجوه الحسن عندما خلقه فلما كان خلقه على وجهٍ من وجوه الحسن أمر به، والله عز وجل خلق أشياء على جهة ما

تُستكره مما يبغضها كما يبغض الكذب ويبغض الظلم، فحيث خلقت هذه الأشياء على معنى القبح نهى الله عز وجل عنها.

فأولاً: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ثانياً: تأتي قاعدةٌ مهمة وهي بيان فضيلة هذا وعلة هذا الحكم الشرعي، وهذا مما أستخدمه القرآن فيما نحن فيه، الأولى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، الثانية ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦]، ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)﴾ [آل عمران: ٦]، لا يفعل شيئاً ولا يأمر بشيءٍ إلا على جهة الحكمة، التي هو يعلمها جل في علاه، والتي هي متناهيةٌ في الحكمة والتقدير، وهذا ما وقع هنا في قضية القبلة، فالله عز وجل لما قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، فهذه القاعدة الأولى.

القاعدة الثانية: في بيان فضيلة هذا البيت الذي أمروا بالتوجه إليه، فهذا سيأتي، عندما بين الله عز وجل ماذا فعل بإبراهيم عليه السلام وكيف بني هذا البيت إلخ، وكيف بني على معنى من معاني الطاعة فأسس على التقوى من أول يوم، وبناه أبو الأنبياء عليه السلام ومن أولي العزم من الرسل، وهو مكانٌ مقدسٌ بذاته، الله عز وجل من رحمته ومن حكمته ومن قيوميته على خلقه أنه لم يأمر بلا حكمة، ولكنه أمر بحكمة وأنه أقام هذه الحكمة علامةً في نفوس الخلق يعرفون وجهها، فإذا أرادت نفوسهم أو أراد سائل مخالف أن يسأل: لم فعلتم هذا؟ أجابوا بجوابين:

الجواب الأول: لأن الله أمرنا، وكان الجواب الثاني هذه الحكمة، أن هذا بيتٌ معظم ومكرم وهذا تاريخه وهذا أمره وهذا شأنه وهذه بركته، انظر إلى زمزم في المسجد الحرام، انظر إلى بركتها وإلى سرها، فلو نظر إليها الناظر العاقل الباحث لوجد فيها معنى من معاني الوجود الخلقية ما تدل على هذه الفضيلة الشرعية التي أتت بها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فهذه قضية ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، هذه هي القاعدة الأولى، أن لا تسألوا، هذا لي وأنتم عبيدي عليكم أن تطيعوا، فهذه مرتبة يسلم بها الخلق، وهذه قد تكون في كل أمرٍ لواحد من الناس، فالإنسان العامي لا يعرف حكمة الخلق في شيء ولكنه يستسلم لله عز وجل، وقد يعرف بعض الحكم لو قيل له لما حرمت الخمر؟ يقول: تحافظ على عقلي، يعرف حكمتها حتى العامي، ولكن هناك من الأحكام ما لا يعلمه أكبر العلماء والحكماء، فتبقى سراً بين الله عز وجل وبين من

يحب من خلقه من الأنبياء ولا تسري في بقية الخلق، وهناك من الأقدار ما يجريها الله عز وجل ما هي فتنة للأنبياء أنفسهم لا يعرفون وجهها فيستسلمون لها، هناك أقدار الله عز وجل استأثر بها واستأثر بحكمتها عنده ابتلاء بالخلق.

ومن هنا قالوا علماؤنا: إن الله عز وجل لا يُشرع ما هو مخالف لفطرة الخلق، لكنه يشرع أمرًا على جهةٍ لا يدرك الخلق حكمتها، هذا فرق، الفرق بين الأول أن الله عز وجل لا يُشرع على خلاف الفطرة، على خلاف العقل الفطري الذي سماه علماؤنا بالصريح، ولكن يشرع ربنا بشرائع لا يُدرك العبد حكمتها، ولا أحدٌ من الخلق حكمتها، ومسيرة والأنبياء في النصر كلها دالةٌ على هذا، لم يعرف لوط عليه السلام أن النصر بين يديه، حكمة لم يعرف وجهها، والصحابة رضي الله عنهم في صلح الحديبية لم يعرفوا وجه هذا القدر الذي وقع لهم، هناك من الشرائع ما لا يعرفه الناس حكمتها في زمان فتأتي حكمتها في زمانٍ قادم يعرف الناس أن هذا شرعٌ عظيم، ومن هنا فهناك من الأحكام الشرعية ما لا يعرف الناس حكمتها إلا عند وقوع تأويلها يعرفونها وجهها، وهناك من الحِكم ما لا يعلمها أحد حتى يلاقي الناس ربهم فيعلمونها في الغيب لأن من أعظم فضائل الجنة أن الناس يعرفون الحقائق، من أعظم نعم الجنة إن الحقائق التي كانوا يسألون عنها ويعيشون بالبحث عنها تنكشف لهم، وأعظم غيبٍ ينكشف لهم هو وجه الله عز وجل، وأعظم غيبٍ ينكشف للخلق هو وجه الله عز وجل، وهو أعظم الغيب وأجله وأكرمه، فالله عز وجل يكشفه ويرى العبيد المؤمنون وجه ربهم يوم القيامة، وهي من أعظم النعم.

فمن أعظم النعم يوم القيامة هو كشف الحقائق، الحقائق تكشف الناس يعرفون منازلهم والله كما ستر على أقوام في الدنيا يستر في الآخرة، وهكذا تجري الآخرة كلها على مجرى إظهار الحقائق فلا يخفى شيء على الناس يومها، يعرفون مقاماتهم، يعرفون مقامات الناس، يعرفون أحوالهم، ويعرفون الأجوبة، ومن كان في هذه الدنيا ساعياً إلى لذة من لذائذ العلم، خفيت عليه فإذا كان من المؤمنين سيراها يوم القيامة ويتمتع بهذا العلم، وأعظم المتع في هذا الوجود هو العلم كما تعلمون، هذه قضية يعني كان لابد من الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، هذه هي العلة، العلة أنكم عبيد لله، وأن هذا الكون كله لله فحيث أمركم عليكم أن تمتثلوا ولكن من رحمته بعد ذلك أن بيّن مقام هذه القبلة عندما خلقها وأوجدها.

النقطة التي وقفنا عندها في الدرس الفائت، وهي صفة من صفات الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، هنا في الحقيقة المرء يسير بين حدين، بين حد أن يستغرق في المسائل الكلامية التي يمكن للناس أن يدركوا يتفاوتوا فيها بل سيقع التفاوت في إدراك حتى في الألفاظ التي يجريها المرء في كلامه في الرد على المخالف، فتقع النفرة من بعض العوام، ويقولون: العوام في قلوبهم من التعظيم وفي قلوبهم من التصديق ما لا يوجد عند أهل البدع من المتكلمين، هذه قضية مهمة جداً، هذه التي طلبها المتكلمون، وعندما أعيتهم الحيل الكلامية والطرق الكلامية في الوصول إلى الحقائق تمنوا عند موتهم أن يموتوا على دين العجائز، هذا ليس تعظيماً ولا تكريماً لدين العجائز انتبهوا، دين العجائز يكون جيداً مقابل البدع، لكنه يكون مفضولاً، يعني هناك ما هو أفضل منه وهو دين العلماء الذين يعلمون الحق من خلال الكتاب والسنة.

وهذه الكلمة «ليتني أموت على دين عجائز نيسابور» أو «على دين العجائز»، هذه كلمة تبيّن لنا قضية مهمة تكلمت عنها في أكثر من موطن وهنا أنبه عليها لأهميتها، تكلمت عنها كثيراً وربما في لقاءات قريبة، أقول: بأن دين العجائز هو الدين الفطري، حيث تنصبغ في قلوب هؤلاء المتدينين من العجائز أي من العوام في صلواتهم، في قرأتهم للقرآن، في ذكرهم، في تفكرهم الملائم لهم، في نظرهم إلى يد الله عز وجل التي ترفع وتعز وتذل وتعطي وتمنع، يرونها يد الله عز وجل، فيقع في قلوبهم من العلم ما هو أعظم مما يقع في قلوب أهل البدع، ومن هنا فالعقل الفطري، القلب الفطري، العلم الفطري هذا الذي تتحدث عنه الذي لم يستنر إلا بما هو من أركان الدين وهو أنه أمره أن يصلي فصلى، وأمره أن يزكي فزكى وأمره أن يذكر فذكر، وليس وراء ذلك لا يعرف من هذه الطرق الكلامية ولا المباحث المنطقية التي تدور بين الناس في قضايا الإلهيات وقضايا الغيبيات، فهو مطمئنٌ لما هو فيه ويموت مطمئناً مرتاحاً وهو على ما هو عليه، أي يموت مطمئناً في قلبه ويموت مطمئناً كذلك وهو في حاله بأن يفسح له في قبره مد البصر ويصبح له القبر روضة من رياض الجنة.

هذا الدين الفطري خيرٌ من البدعة، البدعة شرها أنها في نفسها غلط، البدعة شرها الأول أنها غلط، لا يمكن للبدعة أن تكون هي الحق، كون البدعة على هذا المعنى مما نهى الشارع عنه، البدع الشرعية التي نهى الشارع عنها فقال: (كل بدعةٍ ضلالة)، نتكلم في موضوع العقائد ليس في موضوع السلوكيات والعبادات نتكلم في العقائد والأفكار والتصورات، فهذه البدع العقلية أول ضلالها أنها خطأ، المصيبة الطامة الكبرى

التي تمنع إصلاح هذا الخطأ أنها لا تخضع عند قائلها للتجربة، ولا للامتحان ولا للرد والمناقشة والمناظرة، ولكنها ثابتةٌ عنده لأنه يتدين بهذه البدعة، هذه المصيبة الطامة الكبرى.

الطامة الأولى أنها باطلة في ذاتها البدعة.

الطامة الثانية: أن هذه البدعة تنتسب للدين فيتلبس بها المرء ولا يتوب بخلاف المعصية، غير المبتدع لو كان على الخطأ الذي عليه المبتدع لكانت التجربة داعية له إلى التغير، يعني الإنسان الذي لا يتدين بأمر من الأمور عنده تصور لأمرٍ ما أن وجهه هذا هو، فيسلك هذا الوجه، فيمشي في هذه الطريق وهو أدى إليه اجتهاده أن هذا الطريق هو الصواب، فسلكه حيث تبيّن له أن هذا الطريق مسدود رجع وسلك طريقاً آخر؛ لأن مبنى خطأه على العقل، لكن المبتدع يسلك الطريق فيرى فيه الأفاعي ويرى فيه العقارب ثم يصل إلى طريقٍ مسدود ومع ذلك يبني هذا على أن هذا محنة وأن هذا ابتلاء وهكذا يبدأ بتفسيره على وجهٍ من وجوه الباطل، وهذه التجربة المؤلمة تمنعه من أن ينتفع بها؛ لأنها عند هذا الفعل لأنها عنده دينٌ من الأديان يتدين لله عز وجل به.

ولذلك نحن نرى لإثبات هذا الكلام واقعياً نرى أن الكفار الذين لا يؤمنون بالله، ولكن يسلكون في حياتهم مسالك العقل، لا يقولون: نسلك هذا المسلك مسلك الدين نسلك فيه مسلك العقل والتجربة والبحث والنظر، فإنهم يصلون إلى مرادهم ما لا يصل إليه المبتدع المتدين، وإن كان مسلماً، الشعار لا يكفي من أجل الإجابة على الأسئلة الفرعية في السلوك والعمل والاختيار، أي لا يكفي أن تقول: أنا مسلم من أجل أن تكون كل أفعالك موافقة للكتاب والسنة، فالكثير يقولون: أنا مسلم ومع ذلك يسلكون مسالكًا لا توافق الكتاب والسنة، إنما هي أوهام أقوال مشايخهم أئمتهم زعمائهم أمرائهم ما أدى إليه اجتهادهم نظراً فيسلكون الطرق، ولأنهم يتعبدون فيصابون بالمصائب فلا يرجعون، العاقل المجرب يبحث فيكتشف الخطأ فيعود عنه.

ومن هنا لنصل لهذه الكلمة المبتدع لا يهتدي لا يتوب لأنه يتدين، والعقل الفطري السليم السديد دين العجائز خيرٌ منه، ولكن هذا لا ينبغي أن يقال حين يعلم العلماء تلاميذهم والناس الدين الحق، مثلاً: عندما نشرح آية من كتاب الله، فيقول يكفيني دين العجائز خلاص، لا هذا لا ينفع، بما فضلوا العلماء؟ لو

كان دين العجائز هو الكافي في مسالك الحياة لما فضل العلماء ولما أمر الله عز وجل بالتعلم والتفقه، فلذلك دين العجائز يصلح لهم مقابل البدعة، ولكنه لا ينفع في مسالك الحياة ولا يجيب على أسئلة الوجود ولا يحصل به الصلاح في هذه الدنيا، أن يصلح أمر الدنيا على أساس الدين، هذا يقوم به العلماء والفقهاء، يقوم به الذين يعرفون الدين على وجهه التفصيلي الفرعي المجيب لكل أسئلة الحياة.

فالعامي يعرف فلو قيل له: وجه الله، لو اطلعت على قلبه لأنه ربما هذا العامي وهنا مسألة من مسائل العلم أن المرء ربما يعرف الحق ويراه في قلبه جلياً ولكنه لا يستطيع أن يعبر عنه، لأن التعبير مرتبة من مراتب العلم، وهي مرتبةٌ عظيمة، والناس ربما تكون العلوم لديهم واحدة وتتفاوت لديهم الألفاظ في الإبانة عنها، فواحد يبيّن إبانة جلية واضحة وواحد ضعيف، ولذلك ماذا سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل ماذا؟ ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)﴾ [طه: ٢٥-٢٨]، طلب موسى عليه السلام أن يحل الله عز وجل عقدة لسانه ليبين، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم وما ليس لغيره، فالناس تتفاوت مراتبهم في الإبانة، والإبانة درجةٌ علميةٌ عظيمة، وهذا سنتكلم عنها في موضوع الكلام، عندما نأتي إلى صفة من صفات الله عز وجل.

المهم أن العوام تحصل لديهم من المعاني عند تعبدهم لربهم وسماعهم لكلام ربهم فيما يتعلق بهذه العقائد ما يحصل بها العلم العظيم، ولا يحصل عند المتكلم، لكن لو سألت العامي وقلت له: أبن عما في نفسك لا يستطيع الإبانة، ومن ذلك اذهبوا إلى جداتكم اذهبوا إلى العجائز في القرى واسألوهم، لما تقول: وجه الله، فهو يثبت لله وجهاً، لما تقول: يد الله، يقول: نعم يد الله، لما تقول له: ارحموا من في الأرض هو يجيبك يرحمكم من في السماء، وهو يجيب باعتقاد القرآن الذي سمعه، ولا يحتاج إلى تفصيلٍ للرد على البدع، ولكن تنشأ عند العالم معالم وتفصيلات الرد على المبتدعة لوجوبها في حقهم، لإنه إذا ظهرت البدع يجب الرد عليها، لا يجوز السكوت عن البدع ولا الهروب منها حين تظهر يجب أن ترد عليها بأسلوبها وهذه طريقة العلماء.

فلو قال قائل: لما لم يكن الإمام أحمد يرد على المبتدعة بهذا؟ لإنه يرد عليهم بما استقر إجماعاً بينهما وهو أن المرجع فيما بيننا هو الكتاب والسنة، لو كان غير مقيدٍ بالكتاب والسنة لجاز الرد عليه بمنطقه وعقله

وأسلوبه، وأما المعتزلة في زمن الإمام أحمد، ابن أبي دؤاد وغيره وبشر المريسي هؤلاء كانوا يقرون بالشريعة يقرون بالكتاب، ولذلك حين يناظرهم السني يقول لهم: ائتوني بما اجتمعنا على أنه الدليل في هذه المسألة، أحضروا لي الدليل لأقول بما تقول، والدليل عندهم هو القرآن، والقرآن وما يفسره من القرآن ويفسره من السنة ويفسره من كلام العرب، ائتوني بالدليل هذا هو المقصود، ودعوني مما ينشأ في عقولكم من أوهام ومسائل عندكم.

فلذلك العامي في هذه المسائل ومسائل التصورات فيما يتصور هي منتهى ما يريده القرآن، يعني العامي ماذا يفهم أن هذا هو كلام الله، عندما العامي يقول: أنا أقرأ كلام الله، فهو يعلم أنه يردده ويتلو بصوته ولسانه وحنجرته يقرأ كلام الله الذي تكلم الله به ويعلم ما معنى في نفسه، يعلم هذا المعنى على معنى فطريٍ صحيح سليم كافي، قد يقول قائل: لماذا لا يقول كذا وكذا؟ نقول: قال كذا وكذا العلماء للرد على البدع، عندما نقول نحن كلام الله بحرفٍ وصوت هو هذا مستقر في نفس العامي لكن نقوله نحن ونفصل فيه لماذا هذا التفصيل نشأ؟ من أجل الرد على أهل البدع، مثل موضوع كلمة الإيمان، الإيمان هو قولٌ وعمل، الإيمان هو ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخبر والأمر، الخبر يجب أن تصدقه والأمر يجب أن تلتزمه، هذا فهمٌ كافي، لكن بعد ذلك بدأ العلماء يفصلون قولٌ بالقلب واللسان وعملٌ بالجوارح والقلب وبدأوا يفصلون، فالتفصيلات، ثم بعد ذلك لم يكفيهم أن يقولوا هذا فقالوا: عملٌ موافق للسنة، وقولٌ موافق للسنة وليس مجرد كل قول، وبدأوا يفصلون بحسب ظهور البدع في هذه المسائل، وأما العامي فيفهم هذا.

ولذلك المرء هل يمر عليها كما يمر السلف؟ ويقول: نمرها كما جاءت، ما معنى كما جاءت؟ نمرها بما جاءت أي بما انصبغ قلب الصحابي عندما سمعها، لما تأتون إلى هذه الصفات في الكتاب والسنة في كلام السلف، فقال: نمرها كما جاءت، ما معنى وجه الله؟ هذا معناها انصبغ في ذهن الصحابي أمرٌ ما، فهذا الذي نمرها كما جاءت، هذا المعنى الذي ذكرناه نمرها كما جاءت هو المطلوب هو المنتهى الوصول إليه، ولكن ما الذي حدث في هذه الصفات الإلهية؟ الله عز وجل في كتابه تحدث جل في علاه عن نفسه، تحدث عن صفاته وفصل جل في علاه ما يلزم العبد من طرق التعبد، وهذه شرحناها في الأسماء والصفات، أي بمعنى أن العبد في نفسه من موارد التعبد في نفسه، من منافذ التعبد كثيرة جداً، هذه الكثيرة جداً ملأها الله عز وجل بأسمائه وصفاته، كل منفذ من منافذ التعبد في نفس العابد عليها اسمٌ من أسمائه تصلح هذا

المنفذ لتوصله إلى المراد في التعبد في تعظيم الله عز وجل والإخبات له وتوحيده والإقرار له بالوحدانية جل في علاه، فهكذا فهم الصحابة رضي الله عنهم وهكذا علموا، وكانوا يعظمون الآيات التي تنزل فيها صفات الله عز وجل، ويعظمون السور التي تتحدث عن ذات الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص: ١]، يعظمونها ويحبونها لأنها تتحدث عن الله عز وجل، هذا المعنى هو المطلوب، هو الذي ينبغي أن نقف عنده.

والمتكلمون لم يقبلوا هذا، المتكلمون نشأت في أذهانهم بسبب قراءاتهم لكتب الأغيار، وبسبب أز الشيطان لهم نشأت عندهم اعتراضات على هذه المعاني ظانين أن هذه الاعتراضات تحقق المراد الإلهي من التنزيه، فلذلك صار اعتراضهم على ما ورد من ذات الله عز وجل وما ورد في كتاب الله عن صفات الله عز وجل، والعلماء يقسمون التوحيد إلى قسمين:

التوحيد الطلبي الإرادي: أي ما طلبه الله من العبد وهو الذي سمي بتوحيد الإلهية.

التوحيد العلمي الخبري: وله تعلقٌ بالتصور، علمي خبري، أي بمعنى أن الله عز وجل أخبر عن ذاته وأخبر عن صفاته وأخبر عن أفعاله في الكتاب فيجب على المؤمن أن يؤمن بها، وهذه سميت بتوحيد الربوبية، التي بعد ذلك أشتق منها توحيد الأسماء والصفات، وإلا فتوحيد الأسماء والصفات له علاقة في الأول له علاقةٌ في أصله بتوحيد الربوبية، ولكن في قضية الإيمان به أن يؤمن العبد به هو داخلٌ في توحيد الإلهية لأنه مأمورٌ به أن يؤمن العبد به في قلبه ويقر له به.

فما الذي حدث؟ عند الناس هناك خالقٌ ومخلوق، والخالق غير المخلوق، وأن هذا الخالق أعظم من أن تحتويه الأشياء، وكل هذا يقرره القرآن تقريراً بيناً واضحاً جلياً وأن هذا الخالق لا يُشبهه شيءٌ من مخلوقاته، ولا يشبه شيء من مخلوقاته، وأن هذه المخلوقات لا تكون فيه وهو لا يكون فيها، هذا مقرر عندهم، ويثبتون لهذه الذات وجوداً عظيماً يليق به جل في علاه، وهناك أسماء هي دالةٌ على هذا المعنى، الله عز وجل هو العلي الكبير، الله عز وجل سبوح، الله عز وجل قدوس، الله عز وجل الجميل، الله عز وجل العظيم، وهكذا فهذه صفات لله عز وجل أبانت لدى كل سامعٍ لها أنها تفرق بين الخالق والمخلوق، تفرق بينه في الصفات وتفرق بينه كذلك في الذات، ما معنى في الذات؟ بمعنى أنه لا يشبهها ولا تكون فيه ولا يكون

فيها، فالله أعظم من أن يحتويه مخلوق، والله عز وجل خالق لا يمكن أن يدخل فيه مخلوق أن يكون حالاً في ذاته، هذا مفهوم نحن لا نشرح عبارات الناس يعرفونها.

فكل واحدٍ لو قيل له: إنسان، وقالوا له: هذا عمر وهذا علي وهذا خالد، فيعلم أن هذا له وجودٌ مستقل وهذا له وجودٌ مستقل، هذا له صفاتٌ يختص بها وهذا له صفاتٌ يختص بها مع اتفاقهما في مسمى الإنسان، لكن ليس وجود عمر كوجود علي وليس وجود خالد كوجود عمرو، لا هذا له وجود وهذا له وجود، فوجود الخالق جل في علاه له صفاتٌ تميز بها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى: ١١]، وذكر الله صفاته، وثم هناك صفات لله عز وجل هذه الصفات اتفق الناس عليها، مفوضة غير مفوضة اتفق الناس، هذه الصفات التي سماها الله عز وجل لنفسه في القرآن، سمى الله عز وجل لنفسه صفاتاً، هذه الصفات علم الناس أن هذه الصفات ما قيل في الذات قيل في الصفات، متفق عليها، وأن هذه الصفات لا تشبه صفات المخلوقين وأنها أعظم من أن يُحاط بها ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فحيث لا يدرك ولا يحاط بذاته لا يحاط بصفاته جل في علاه (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)، يعلم الناس هذا تماماً، ولا يفرقون بين صفةٍ وصفة.

ففي أذهان الصحابة رضي الله عنهم لا نجد إلا أنهم يمرونها على معنى واحد كما يمرون الذات يمرون الصفات، ولا يفرقون بين صفةٍ وصفة، لأن كل اعتراض يعترضه المعترض من المبتدعة الذين حدثوا بعد ذلك، كل صفةٍ ينفونها عن الله عز وجل خوفاً من أن تشابه المخلوق، فعلى معنى من المعاني ينفونها فإن هذا النفي يمكن اطّراده إلى بقية الصفات فيؤدي إلى النفي، وبعد ذلك هذا النفي الذي يتوهمه المتوهم أنه أقامه للتنزيه فنفى صفة، قلنا: يطّرد هذا النفي إلى ماذا؟ لبقية الصفات ثم يطّرد إلى الذات، فيؤدي إلى النفي، انتبهوا إلى العبارات، أي الذي ينفي صفة من صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، أو يجري عليها أي إجراء مما يسمونه التأويل، لماذا؟ ما هو دافعه لفعل لهذا؟ دافعه الزعم أنه يريد أن لا يقع في ذهن السامع خطأ بإثبات هذه الصفة على الوجه الواردة عليه من ظاهرها، هذا المعنى من الخوف يقع في كل الصفات، يعني يؤدي إلى النفي، أي نفي هذه الصفة، ثم يؤدي إلى نفي كل الصفات، ثم هذا المعترض باعتراضه هذا يصح أن يعترض على الذات نفسها، فيؤدي إلى النفي المطلق، هذه النهايات ليست وهمية.

هذه النهايات التي نقولها بأن الابتداء أن الناس درجات في موضوع التعامل، الصحابة رضي الله عنهم يقرؤونها فيقع في قلوبهم ما يقع في قلب كل قارئٍ لهذا القرآن بحسب درجته، العامي حين يقرأه يقع ما يكفيه من الإيمان المنجي له في الآخرة، ويصح تعبده ويتفاعل معه تفاعل المتعبد، تجد العامي حين يسمع ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، يبكي ويهتز قلبه ويخاف، وعندما يسمع أن الله الكبير المتعال فيعلم منها من المعاني ما تنجيه، وبعد ذلك يرتقي الناس في مراتب هذا العلم، مع اتفاقهم على هذه القاعدة التي عليها من؟ التي عليها العامي، هذه متفق عليها هذا القدر متفق عليه، الآخرون لم يعجبهم هذا، فبدأوا يبحثون أن هذه الصفات الواردة في الكتاب يجب أن نمايز بينها هنا وقعت البدعة، هناك من قال: بدأ الناس المراتب هنا، قال بعض الناس: هناك صفات يمكن أن نفهمها على وجهها الحقيقي، وهناك صفات لا يمكن أن نقدر على إجراءها على معناها الحقيقي التي يسمونها الظاهر، فالصحابة رضي الله عنهم أثبتوها كلها على معنى واحد الذات والصفات على ما تكلمنا.

الآخرون بدؤوا قال بعضهم: نثبت لله صفات يمكن أن نتصورها على معنى التنزيه، ولكن هناك صفات لا يمكن أن نتصورها على صفة التنزيه فحينئذٍ علينا أن نُعمل فيها عملاً يُبعد هذا المعترض على التنزيه، والآخرون قالوا: إن ما أثبتموه هو يعترضه عين ما نفيتموه، وبالتالي عليكم أن تعترضوا، فبدأت هكذا كل جماعةٍ تنفي جزءاً من الصفات أو تؤولها على معنى من المعاني، ثم انتهى الأمر إلى الزنادقة كما هو شأن الإسماعيلية، كما هو شأن الموحدين من أتباع المهدي بن تومرت وهو شأن إخوان الصفا أنهم نفوا أن نُثبت للذات حقائق، يعني عندهم لا يجوز أن نقول إن الله موجود، حتى هذه الكلمة لا يصح أن نثبتها لله عز وجل، هل نقول لله ذات؟ يقول: لا يجوز، لماذا؟! لأن تصورنا لكلمة الذات يشبه أنها تؤدي إلى التشبيه لأدوات المخلوقين، وبالتالي لا يجوز أن نقول هذه الكلمة، فأدى بهم في ذهن السامع الآن دعك من العوام، نحن نتكلم عن علمائهم، هذا الذي يجلس طوال الليل يتفكر ماذا أفعل؟ فينتهي إلى الحيرة أنه إذا قال كذا أدى إلى كذا، طيب لا يجوز أئمتنا لا يقولونه، نمر بعضها، الآخر يأتي ويقف أمام الطابور يقول: مررني أنا كذلك مثلها، فلا تمر لديه ويبقى في حيرة في طيلة الليل فينتهي به إلى النفي المحض المطلق أن الله عز وجل لا يجوز أن يتصل بصفة والعقل يوجب عند نفي الصفات نفي الذات لأن العقل لا يتخيل ذاتاً بلا صفات، فنفوا.

ولذلك تجد سلفنا يقولون: هذا مما تقرر في العقول، أن وجود الله ليس هو وجود المخلوقين هذا الذي يسموه الحد، يعني يسموه التعريف الذي بعد ذلك المتأخرون بدأوا يجهلون هذه الكلمات ويوهمون أنها تؤدي إلى حصر ربنا وإلى تقييده، وهكذا إبعاداً عن تعظيمه المطلق جل في علاه، يعني أنه له حد أي ليس في شيء من مخلوقاته، وليس في مخلوقاته شيءٌ منه، لا يشبه شيء من مخلوقاته ولا مخلوقاته تشبه شيء منه، هذا هو جعله حقيقة مستقلة، هذه التي عبر عنها سلفنا بأنه بائنٌ عن خلقه، ليس فيه شيءٌ من خلقه ولا في خلقه شيءٌ منه، هذا الكلام عند بعضهم منفي، بأن مجرد إثبات الإبانة أو عدم الإبانة، قالوا: لو قلنا: بأن الله بائنٌ عن خلقه أو قلنا: بأن الله ليس بائن تؤدي إلى التشبيه لأن هذا نقوله في حق المخلوق، فنفوا الحد، نفي الحد لا يمكن أن يؤدي إلى إثبات الوجود، هذا أدى إلى نفي الذات، تصوروا ذاتاً على معنى من معاني لا يمكن للعقل أن يتخيلها في بعدها الكلي، والعقل يتخيل كليات، ولذلك المجاز العقلي أوسع بكثير من المجازر القدري الواقعي لأن العقل له تصوراتٌ أبعد، فعندما نقول: كلمة حديد، هذه لها تصور عقلي ولكن التصور الوجودي لابد أن يقع على أفراده، يعني لا يوجد شيء اسمه كلام إلا عندما يتفكر في الواقع يجد له أفراده، ففي الواقع يوجد أفراده ولكن في الذهن له تصور كلي فالذهن له تصوراته الكلية التي تفيض وتزيد عن التصور الوجودي.

الآن أين المشكلة في قضية الأسماء والصفات؟ بعضهم أتى إلى موضوع الأسماء والصفات فنفاها كلها، على معنى من المعاني لا أريد أن نقف عندهم لأنهم ذهبوا اليوم إلا قلة قليلة توجد ممن ينتسب للمعتزلة، قالوا: أن هذه الصفات كلها هي عين الذات، لا فرق بين العلم ولا بين السمع ولا البصر كلها تدل على الذات، فنفوها في النهاية لا يمكن أن نتصور أن العلم هو عين السمع، ولا هو عين السميع ولا العليم البصير القدير، العلم غير، فقالوا: لا كلها تدل على ذاتٍ واحدة، هذا يؤدي إلى النفي، هذا معناه النفي، نفيت صفة العلم ونفيت صفة القدرة وأثبت فقط الذات التي إذا أثبت لها، ما هي؟ قال: لا نثبت لها الصفات لأن هذه الصفات تتعدد فإذا تعددت؛ تعددت الألهة، وهم يقولون: إن أخص خصائص الربوبية هو القدم فحيث أثبت صفات متعددة، أثبتت وجودات متعددة يعني أثبت أرباباً متعددة، المعتزلة موجودين في التاريخ اتركوهم ما لنا فيه، لكن هذا هو وجه قولهم، وأنتم ترون أن هذه المسألة في أساسها تعود إلى ما بنيناه من قضية الإيمان الفطري عندما يخاطب العامي فيعرف الوجه الصحيح في أساسه في قواعده.

الطوائف الأخرى أكثرت الكلام وبدأت وهذه الطوائف وإن سموا بالمتكلمين تحت بابٍ واحد، وإن سموا بعد ذلك بالأشاعرة تحت اسمٍ واحد، ولكن هؤلاء ليسوا على نهجٍ واحد في موضوع ما اثبتوا ونفوه، فقالوا: هناك صفات نسميها بصفات المعاني، لأنها تكون قائمة في الذات، هذه الصفات، ما معنى صفات معاني؟ لما نقول: معنى، هو معنى يطلق على شيئين، إما لدلالة على الشيء معنى الشيء يعني تفسيره، وإما معنى الشيء أي الشيء القائم في الذات في داخله نقول هذا: معنى.

وهذه المعاني، قالوا: نثبت صفات المعاني، وهناك صفات تسمى بالصفات الخبرية، ما الفرق بينها وبين صفات المعاني؟ قالوا: صفات المعاني علمناها من جهتين من جهة الخبر والعقل، ولكن جهة الخبرية هذه الأخرى لن نعلمها إلا من جهة النقل، هذا تفريق عندهم وسيأتي هذا كله من اختلافاتهم وتضاربهم، أنا الآن أتكلم عما هم عليه لنثبت أن تضاربهم يسقط بعضهم بعضاً، وليس لهم قولٌ ثابت في هذه المسألة، كل واحد يتكلم عن الآخر بما يثبت قوله هو ويرد على الآخر، وفي النهاية كل ردودهم هي ردود أهل السنة عليهم كلهم، ردود بعضهم على بعض هي ردود أهل السنة في إبطال كلامهم، صفات المعاني بمعنى أنها لا يمكن أن تتصور قياماً بذاتها، إنما هي قائمةٌ بالذات، الآن هذه الصفات جعلوها في الأغلب جعلوها سبعة، وهي بالنظر إليها، انظروا إليها لنرى كيف أن إثبات هذه الصفات صفات المعاني يبطل ما نفوه من بقية الصفات، ما هي صفات المعاني؟ نراها منقسمة إلى ثلاثة أقسام، –ربما يمل البعض ولكن لا بأس نمر عليها مسرعين حتى نرجع إلى الأمر الذي نريده–:

القسم الأول: هي الصفات الكاشفة، مثل العلم والسمع والبصر، العلم كاشفٌ للشيء، السمع كاشفٌ لما يسمع، لكنه لا يصح أن يكون كاشفاً لما يرى، فالسمع غير البصر، والبصر كاشفٌ لما يُبصر ويرى.

القسم الثاني منها: وهي الصفات المؤثرة في الغير، كالقدرة والإرادة، القدرة والإرادة مؤثرة في الغير.

والقسم الثالث من صفات المعاني: هي الصفة الدالة على مراد هذه الذات وهي الكلام، صفة دالة تدل على مراده هذه الذات.

فإذن هذه الصفات، الآن هذه الصفات الثلاثة هل هي صفاتٌ واحدة، هل هذه الصفات كلها تعود إلى أمرٍ واحد أم مختلفة؟ السمع غير البصر، غير العلم، غير الإرادة، غير الكلام، هل الكلام هو عين العلم؟

قالوا: لا، الكلام غير العلم، وهل الكلام هو عين السمع؟ قالوا: لا، هذه صفة، إذن هنا أثبتوا أبعاضاً متعددين في ذات الله عز وجل، أبعاض متعددة في الذات، انتبه لماذا نقول هذه الكلمة، أثبتوا أبعاضاً متعددة في هذه الذات وهم في إثباتهم هذا التعدد، يبطل قولهم في إثبات التبعض كما يزعمون في صفات الأعيان، ما الذي تنفونه بعد ذلك؟ ثم بعد ذلك اختلفوا في هذه الصفات الخبرية القادمة، والصفات الخبرية تقسم إلى قسمين، صفاتٌ تتعلق بالفعل بالإرادة هذه بعضهم نفاها وبعضهم أثبت بعضها ونفى بعضها، وكلها تدور على هذا المعنى مما قاله المعتزلة من المشابهة ومن تعدد القدماء، هذه قاعدة المعتزلة الأولى، أثبتوها اطّرادًا، لا نقول بين قوسين (ارتاحوا)، لا ولكن كانوا أوضح في الإبانة عن معتقدهم واطّراده فيما وصلوا إليه وهناك من زواد عليهم فوصل إلى الزندقة، وليس هذا من الخير في شيء.

أما الآخرون فوقعوا في الاضطراب جاءوا إلى الصفات الخبرية، بما تقدم الفرق بين الصفات الخبرية عندهم وصفات المعاني، وقالوا: هناك صفات فعلٍ تشبه صفات المخلوقين فيجب أن نغيرها مثل: النزول، مثل: الاستواء، فهذه صفاتٌ عندهم تشبه صفات المخلوق لماذا تشبه صفات المخلوق؟ قال: لأنها حين ننظر إلى معناها فإنها تدل على معاني في أذهاننا لا يمكن إلا أن تقع على المخلوق، هو نفس ما قالوه في الأولى تقع على المخلوق، وقالوا هذه تؤدي إلى تغير الذات من حالٍ إلى حال، والتغير يعني معنى ذلك حلول الحوادث في ذات الله، أن تحل الحوادث في ذات الله، هذا موجود فيه ما يتعلق بالمخلوق، يتعلق بالإرادة والخلق، يتعلق بالإرادة والفعل، أنه يفعل، أنه قدير، أثبتوا لله صفة الإرادة، الإرادة لا يمكن أن تكون قديمة، لابد أن يكون فيها بعض أفرادها، لا ننظر للتأويل الذي تأوله ولكن ننظر إلى مراد اللفظ حيث يقع كما هو في الكتاب والسنة، وكذلك القدرة، القدرة هناك الله موصوف بصفة القدرة ولكن فعل القدرة لابد أن يكون حادثاً، يعني عندما يريد الرب يفعل ويخلق بحسب قدرته.

فإذن جاءوا إلى هذه الصفات الفعل فنفوها وأولوها وجاءوا إلى صفاتٍ أخرى وهي ما يسمونه بمقابل صفات المعاني إلى ما يسمى بصفات الأعيان، وهي التي عندهم لا كما يقول أهل السنة تفيد التبعيض والتجزئة والتركيب والتشيؤ، بمعنى هناك صفات لله عز وجل وهذه التي منها وجه الله، يد الله جل في علاه، عين الله ووجه الله هذه صفات نفوها مع أن الخبر جاء بها، كما جاء بصفات المعاني وزعموا أنها غير مرادة لذاتها ولا يجوز أن تنسب إلى الله تحت ماذا؟ تحت باب الخوف من التشبيه ولأنها تفيد التبعيض والتجزؤ،

نحن رأينا في صفات المعاني ماذا أفادت؟ أفادت التبعيض، أنها اختلفت هذه الصفة غير هذه الصفة غير هذه الصفة تعددت، المعتزلة نفوها فلم تقع إلا على معنى واحد وهو الذات، والبقية لا عندهم ذات ولها صفات متعددة فتفيد التبعيض، وهنا تفيد الأعيان والأبعاض المختلفة عندهم.

فما قالوه –هنا انتهي إلى هذه القضية بالنسبة للمتكلمين– فما قاله هؤلاء من النفي في حق الأسماء والصفات إنما يعود على الذات أولاً، وما قالوه من الأسماء والصفات من محترزات منعوا إثباتها لله تقال على بقية الصفات التي أثبتوها، واحدة بواحدة، ولذلك قال علماؤنا: القول في الصفات كالقول في الذات، وقالوا: القول في كل صفة هو كالقول في كل صفةٍ أخرى، القول في صفةٍ من الصفات هو كالقول في بقية الصفات، ولذلك هذه ننتهي منها في هذا الباب ويكفي أن يعلم المسلم ذلك وهذه الكليات التي ذكرتها كل ما تسمعونه من الكلام في موضوع الأسماء والصفات وخلاف أهل الملة عليها من المسلمين الذين ينتسبون للإسلام من معتزلة ومن أشعرية متكلمة ومن غيرهم ومن أهل السنة كلها تدور هذا الذي ذكرناه.

بقيت مسألة التي بها هذا الأمر الذي بين يدينا وجه الله قلنا في افتتاح الكلام في الدرس الفائت لهذا الموضوع أن ابن جرير الطبري رحمة الله عليه أثبت تفسيرين للسلفيين في قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وجاء في آيات متعددة إثبات وجهه جل في علاه، هنا في هذا الحال قال: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، يعني فثم قبلة الله، أنه قبلته في صلاته، هذا المعنى لا يوجد مثلاً في آياتٍ أخرى تتعلق بوجه الله، انتبه هنا الذي أريد أن أقوله.

والقول الثاني: أن وجه الله يعني صفة من صفاته، هو في الحقيقة وجه الله ثبت في الحديث أن له وجه، لا يمكن أن يطلق على هذه التي أطلقت عليها المعنى الأول لأن المعنى الأول لا يمكن أن يطّرد في كل آيةٍ فيها وجه الله، كيف؟ مثال ذلك: في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، هل يصح أن يقول قبلة الله، لا يصح، إذن هنا وجه الله أثبتنا الوجه ولكن حين تراها يبتغي وجه الله يعني يبتغي رضا الله، يفسرها المفسر على المعنى أنها صفة لله عز وجل والمراد بها ابتغاء رضا الله، اختلف إذن هنا، الوجه اختلف معناه، فلا يصح أن يطّرد هذا إلا بحسب موقعه من المراد من الجملة من الآية لابد أن ننظر ما المراد منها، هذا لماذا نقوله لما سيأتي من الكلام.

لما يأتي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٨]، كما يريدون رضاه، وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] جل في علاه، فهنا الوجه ليس هو رضاه، وليس هو القبلة، وإنما يراد به هنا الله ذاته جل في علاه، إذن كلمة الوجه يمكن أن نفسرها بهذه التفسيرات المتعددة، ولكنها صفة لله عز وجل أن الله عز وجل له وجه، لماذا؟ هذه الآيات التي سنبين أنها لا تختلف عن قبلة الله ومراد الله ورضا الله وذات الله، لا تختلف كلها على معنى واحد وأنها مشيرة في الأصل إلى أنها صفة لله عز وجل.

فعندما يقول النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح يقول: (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات -فأثبت للوجه سبحات- لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)، إذن في يوم القيامة كم من حديث ثبت أنهم يرون الله يرون وجه الله وأثبت أن هذه الرؤيا تقع على محسوس، وهذا ضابطٌ مهم، ما الفرق بين صفات المعاني التي قالوها من الصفات السبعة، الصفاتية قالوا: الحياة، العلم، السمع، البصر، القدرة، الإرادة، الكلام أثبتوا لله صفات سبعة، فهذه صفات معاني وصفات الأعيان هذه التي سموها بصفات الأعيان ما هي المقصود بها؟ أي صفاتٌ تقوم بذاتها ولكن لها تعلق بالذات، على وجهٍ الوجوه، لا يمكن الوجه، فوجه الله غير يد الله، وجه الله غير عين الله عز وجل، الله عز وجل خلق آدم بيديه، فاليدين لا يمكن أن نضع هنا الوجه، فإذن الوجه له تعلقٌ بصفاتٍ غير صفات اليد، غير صفات العين، ما الفرق بينها؟ العلماء قالوا: صفات الأعيان لا يشتق منها أسماء، الوجه ما بصير تقول الوجه لما تقول العين، بمعنى العظيم لا يمكن أن تقول هذا، ولكن صفات المعاني يشتق منها أسماء، كما أن صفات المعاني لا يمكن أن تقوم بذاتها بخلاف صفات الأعيان.

فكيف نأتي إلى التفريق قد يقول قائل: هذا التفريق فرقتم فيه بين صفة الملك والتشريف وبين الصفات الذاتية؟ يعني ما الفرق بين مسجد الله، وبين يد الله أو بين علم الله أنه يمكن تخيل قيام المضاف بدون المضاف إليه يمكن تخيل قيامه، بخلاف علم الله فإنه لا يمكن القيام بدون القيام بالذات، لا يمكن تخيلها قائمةً بذاتها، فكيف جعلتم صفات الأعيان قائمةً بذاتها؟ قلنا هنا: قائمة بذاتها يمكن أن تنسب لغيره وأن تكون في وجودها، مسجد الله في وجوده هل هو شيءٌ واحد أم وجودان مختلفان، المسجد وجود مختلف عما أكرم وشرف بالنسبة إليه، الله له وجودٌ مستقل عن وجود المسجد، لكن لما نقول يد، لا يمكن أن

نتخيلها وجوداً مستقلاً عن وجود الله عز وجل، فهي صفة له، لا يمكن أن نتخيل اليد قائمة بذاتها إلا على المعنى الأول وأما المعنى الثاني فباطل وهو تخيل وجودها قائمة بفعلها بعيداً عن الذات منفصلة عنه.

نرجع إلى الموضوع الذي بين يدينا، انتهينا إلى أن هذه هي الصفات، صفات الذات جل في علاه يد الله، وجه الله، هذه صفات أعيانٍ لربنا، ما معناه؟ معنى ذلك يمكن أن تدرك بذاتها مستقلة، ولكنها لا يمكن أن تكون إلا قائمة إلا مع الذات، لا يمكن أن تقوم إلا بهذا الوجه.

وفقط من أجل أن نصل إلى قضية ذكرتها، وهي القضية التالية، كيف أن القولين اللذين ذكرهما ابن جرير الطبري هما شيءٌ واحد؟ عندما جاء إلى هذه الآية ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، قال: إما أنها تعني قبلة الله ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، القبلة التي أمرنا الله عز وجل بها، وإما أنها صفة، قلنا إن هذين المعنيين شيءٌ واحد، ذلك لأن هذه الصفات لا تكون حسنةً إلا بما يقع فيها من الفعل، ما معنى أن نثبت الله صفة اليد من غير أن تكون هذه اليد مما يكون لها المقتضى، وهو ماذا مما يختص بها من الفعل، ماذا يختص باليد من الفعل؟ القدرة، فإذا أجزنا أن ننسب هذه الصفة بما تعلق بها من فعل، هذا شيءٌ في العربية مقبول وممدوح، مع عدم إلغاء وجودها على الحقيقة، مع عدم إلغاء إثبات حقيقتها كما نقول في بقية الصفات، هذا انتهينا منه، القول في الوجه كالقول في العلم كالقول في النزول، نقوله هذه قاعدة لا يمكن، فإذا أثبتم هذه الصفة جرى عليها من المعاني الباطلة فيجب أن تردوها، نقول: كل صفةٍ تقولونها يجري عليها هذا المعنى، حتى الذات يجري عليها من المعاني ما لو نفيتموه مخافة التشبيه لأدى إلى نفي الذات، هذه انتهينا منها فنبقى على هذه القضية.

إذن خلاصة الأمر عندما تقرأ للعلماء ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ما المقصود بها؟ بقوة، عندما تقول: (يد الله ملآى)، يعني الكرم العطاء، مقصود ذلك أن الله عز وجل كريم، هذا معنى صحيح لا يختلف عليه أحد من أهل الملة، لكن هذا لا يمكن أن يقوم إلا بعد إثبات الصفة الحقيقية لله عز وجل، ولا يمكن مدح هذه الصفة في حق الله إلا بوجود فعلها، لا يمكن أن تكون ممدوحة، العين لا يمكن أن تكون ممدوحة من غير إبصار، العين لأنها كاشفة لما يبصر ويرى، لا يمكن عين بلا رؤية وبلا إبصار كيف تمدح؟! فإذا فسر الشيء بعمله جاز في العربية وليس فيه شيء، بل هو الممدوح، بل هو يدل على أن هذه الصفة ممدوحة في حق من وصف بها، هذا ما نقف عنده ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾

[البقرة: ١١٥]، إذن نثبت لله عز وجل ما أثبت لنفسه ونمرها على ما يمرها كل قارئٍ لكتاب الله قبل أن يتلبس بالبدع أي بدع المتأخرين، من غير تطويلٍ في موضوع التفويض وغيره، وثم ختم ربنا عز وجل هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾، وهذا له إن شاء الله مقامٌ آخر في درس قادمٍ إن شاء الله تعالى.

وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني والثمانون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الثاني والثمانون من دروس التفسير، وما زلنا مع سورة «البقرة» وكنا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾ [البقرة: ١١٥]، ووقفنا في الدرس الفائت على إثبات صفة الوجه لله عز وجل، وبيّنا ما يجب اعتقاده في مثل ما ورد في الكتاب والسنة في صفات الله وأسمائه وأنها كلها تجري على قاعدة أن القول في الصفات هو القول في الذات وأن القول في صفة هو القول في بقية الصفات وأن أي اعتراضٍ على صفة إنما يُعترض فيه على الصفة الأخرى التي يثبتها المنكر، وأي إنكارٍ أو أي تشكيكٍ أو أي تأويلٍ يعود على صفة من الصفات الإلهية يعود على التأويل الذي هو في حقيقته الإبطال والتعطيل في الذات، هذا انتهينا منه.

ولكن ننبه إلى أن بعض أهل العلم وهذه نقلها أبو حيان الأندلسي في تفسيره «البحر المحيط» عن شيخه ابن الزبير صاحب كتاب «ملاك التأويل» المشهور، أن صاحب العلوم ينبغي أن يقتصر على علمه، بمعنى أن لا يتكلم في علمٍ ما هو في معرض الحديث فيه على بقية العلوم فربما يقول ما دخل التفسير في باب الاعتقاد وما يقوله المتكلمون، وما يقوله أصحاب العقائد المختلفون، فنقول: بأن أعظم ما نفسر به كتاب الله أن نعرف صفاته، وأن أعظم تفسير هو تفسير توحيد الله عز وجل كما ورد في الكتاب والسنة، على كل حال هذا مما ينبغي أن يقال في هذا الباب.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، تقدم الكلام فيها والآن إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾، في هذه الفاصلة القرآنية إثباتٌ لصفة الله عز وحل وتتلاءم مع ما تقدم ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، الله عز وجل هو يملك المشرق ويملك المغرب، وبعض أهل العلم قال: لماذا تذكر مرةً المشرق

والمغرب ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، ومرةً تذكر ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، هنا المشارق والمغارب للتكثير لتدل على عظمة الله عز وجل، ولكن هنا لو كُثرت لضيقت، هنا لو ذكرت المشارق والمغارب لضيقت فأن يكون الجهة التي يُطلب من العبد التوجه إليها بين المشرق والمغرب هذا فيه سعى، لأن الحدين قد تباعدا، حد المشرق بعيد عن حد المغرب، لكن لو بين المشارق والمغارب فإنها تضيق لكثرة المذكورات فتضيق إذا كُثر وهي حالةٌ واحدة المشرق المغرب تعود إلى الأرض، فلو كُثرت التعاريف لضاقت، فلما كان المراد التعظيم كُثرت، لأنها في الحقيقة كثيرة، ولما أريد بها الرحمة وسّعت، فالمشرق والمغرب هذا توسيع، ولذلك (بين المشرق والمغرب قبلة)، هكذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم والحديث يعني ضعفه أهل العلم وقالوا: والأصوب وقفه كما قال أبو حاتم الرازي في العلل، ابن أبي حاتم عن أبيه قال: بأن الصحيح وقفه على عمر رضي الله تعالى عنه، ولكن حكمه صحيح (بين المشرق والمغرب قبلة)، وتكلمنا عن مما تفييده هذه الآية من أحكامٍ في الصلاة مع الخلافة عند أهل العلم بين إثباتها وبين أحكامها وبين نسخها.

القصد: بأن هاتين الصفتين ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، تتلاءم مع ما تقدم، فإن الله سبحانه وتعالى أمرنا ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، وقلنا: بأن القول ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي حينئذٍ يكون وجه الله، أو حيث توليت فهو وجه الله، فدل هذا على اتساع ربنا عز وجل، فهذه الصفة ﴿وَاسِعٌ﴾ صفة لله عز وجل، هي الصفة لذاته وهي صفة لصفاته وهي صفة لأفعاله.

– أما صفة لذاته فقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، مع أنهم يرونه لكن لا يدركونه لماذا؟ لاتساعه جل في علاه، والواسع هو الذي لا يقيد، فلما كانت صفاته مطلقة لا تقييد فيها كانت ذاته سبحانه وتعالى لا يمكن حصرها،

– وأما وصف السعة للعلم فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فالله عز وجل وصف رحمته أنها واسعة لكل شيء، وورد سبع مرات في القرآن صفة الواسع مع اقترانها بالعليم، ووردت مرة واحدة في سورة «النساء» ﴿وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)﴾ [النساء: ١٣٠]، فوردت على سعة العلم لأنه سبحانه وتعالى واسعٌ لا يحيط به أحد، وأنه سبحانه وتعالى كبير لا يحيط به أحد ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا

(١١٠)﴾ [طه: ١١٠]، علمهم علاوة على أحاسيسهم الأخرى الضيقة، فالعلم أوسع من الرؤية، العلم أوسع من السمع، العلم أوسع، ولذلك فإذا كان العبد لا يحيط علمه بالله عز فكيف تحيط به بقية الحواس؟! فلا تحيط به بقية الحواس، فالله عز وجل واسع ورحمته واسعة جل في علاه، وخلقه واسع لا يستطيع الناس أن يقدروا خلق الله عز وجل الذي خلقهم وهم فيه، وهم في هذا الخلق، ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، هذا الاتساع في خلق الله عز وجل في كونه الذي هو منتهاه فوق تصور المرء.

فالناس يتحدثون الآن عن بعض النجوم وعن بعدها عن الأرض، وكم يبلغ بعدها حتى أنها تحتاج لملايين السنوات الضوئية من أجل أن تصل الأرض، بل بعضهم يقول: إن هناك ثمة أجرام والله أعلم ضوئها منذ أن انطلقت أن خلقت إلى الآن لم يصل ضوئها إلى الأرض، فما الذي يسع عقله هذا الخلق العظيم، فإذا كان العبد لا يسع عقله وعلمه هذه المقدرات المخلوقة المحدودة فكيف يسع هذا العقل وهذا العلم وهذا الإدراك كيف يسع رب هذه المخلوقات؟! ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠)﴾ [طه: ١١٠].

– وأما فالله عز وجل واسع في صفاته فرحمته واسعة وسعت كل شيء، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فالله عز وجل من رحمته عندما كل شيء خلقه هداه فهذه رحمة، عندما خلقه رحمه على جهة خلقه فالله عز وجل خلقه مرحوماً، الله عز وجل خلق العبد وخلق المخلوقات مرحوماً، حيث قدر لها أن تستطيع أن تأكل وأن تشرب وأن ترى وأن تعرف خيرها من شرها، هذه من رحمة الله عز وجل، فالله عز وجل خلق الخلق فعلمه اتسع لها وعلمه أوسع من خلقه، وواسع علمه جل في علاه وواسع خلقه وواسع رحمته وواسع تدبيره، واسع تدبيره الله عز وجل قائمٌ على كل نفس بما كسبت، فأنت الآن هذا النور الذي يمشي الله قائمٌ عليه، قائمٌ عليه بالخلق والإيجاد والامداد وإلا لانتهى، ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، الآن نفسك التي تتلجلج روحك وهواؤك ونفسك الذي يتلجلج الآن معك الله قائمٌ عليه، أقام عليه الملائكة وهو قائمٌ على الملائكة، الله عز وجل يجري الرياح ويعلم ذراتها، والله عز وجل خلق الماء، فسعة علمه جل في علاه لا يمكن أن يحيط بها الناس، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠)﴾ [طه: ١١٠]، لا يدركون ذاته ولا يحيطون بعلمه جل في علاه، فهو واسع.

ومناسبة ورودها هنا ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، حيث توجهت ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فالله عز وجل أين ما تتوجه أنت تطيع الله عز وجل وقلبك وبصرك متوجهٌ إلى الله سبحانه وتعالى، وهو بائنٌ عن خلقه ليس في داخل الخلق، الله عز وجل بائن بمعنى أنه ليس في داخل مخلوقاته، هو أعظم من أن يحيط به مخلوق، هو أجل من أن يحيط به مخلوق، المخلوق محدود وضعيف، فالله عز وجل أجل وهو العظيم لا يحيط به مخلوق، ولذلك معنى قولنا: في السماء ليس معناه في داخلها، يعني الله عز وجل فوقها، ومعنى السماء هنا بمعنى العلو المطلق، لأن السماء تطلق على المخلوق وهي الطبقات السماوات وتطلق السماء على العلو، ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنعام: ٩٩]، هذا علو، أي ليس من السماء المخلوقة كطبقة ولكن أنزل من السماء من العلو، فالعلو المطلق ينسب الله عز وجل خارج الكون، فالله عز وجل واسع، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾.

وهذا الاتساع جل في علاه له وهي صفة له كذلك علمه جل في علاه ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فمناسبة الواسع أنه ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، ومناسبة عليم هنا أنكم حيث توجهت قلوبكم يعلم إرادة طاعتكم لربكم، عليمٌ بكم، يعني العبد حين يتوجه إلى الكعبة فهو علم الله عز وجل منه أنه يريد أن يطيعه، وحيث كان يتوجه إلى بيت المقدس علم الله عز وجل أنه سيطيعه، ولما يقوم العبد -هذه عندما يقول بإحكامها- أنت عندما تقوم فتصلي لا تعرف المشرق من المغرب وتقوم وتصلي متحريًا أن تتوجه إلى الكعبة الله عز وجل يعلم هذا من قلبك، فقال تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، الله يعلم ما في قلوبكم وأنكم أردتم طاعته والتوجه إلى ما أمركم به، فهو ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ جل في علاه، واسعٌ لأن هذا يناسب الحكم، ثم بعد ذلك ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ يعلم من قلوبكم إرادة طاعتكم له، بغض النظر عما قمتم فيه على الحقيقة، حيث أنتم أين توجهتم؟ فربما توجه المرء إلى الشمال، ربما توجه المرء إلى الجنوب، وهو لا يدري وربما توجه إلى الشرق جهةً وإلى الغرب أو إلى الأعلى، فالله عز وجل يعلم أنه أراد طاعته وتحرى، والله قبل منه ذلك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾.

وتأمل هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ﴾، كيف تلقي على قلب العبد ظلالاً من عظمة الله وظلالاً من رحمة الله وظلالاً من عطاء الله وكرمه ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، كل شيءٍ بيده، هو سبحانه وتعالى الذي خلقه وهو يملكه، كيف تلقي هذه الكلمة من عظمة الله على قلب العبد حين يقرأها؟ ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾، كيف قدمها، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ ثم بررها ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾، هذه تلقي بظلال من عظمة الله عز وجل على القلب ومن رحمة الله عز وجل على القلب، أن الله عز وجل رحيم، فحين شرع لكم هذه الشرائع شرعها على جهة الرحمة، وهذه الشرائع قد شرعت عليكم على وجهٍ يتحقق بها رضا الله سبحانه وتعالى.

قال سبحانه وتعالى من بعدها: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾ [البقرة: ١١٦]، هنا الخطاب لمن توجه؟ هذا وصف من؟ وما هي مناسبة هذه الآية لما قبله؟ أجمل ما رأيته وأفضل ما رأيته في بيان مناسبة هذه الآية لما قبلها، بأن الله عز وجل ذكر من خصال اليهود فيما ذكر وتقدم ذكره الأمور العظيمة، ذكر عنهم مما تقدم لا نريد أن نعود إليها، ذكر عن أمر علاقتهم بالشريعة وتحريفهم للكلم وتحريفهم للأوامر وعدم اتباعهم لكل أمرٍ يأتيهم بل يتلاعبون به، فذكر أموراً كثيرة عن هؤلاء القوم، ثم أراد أن يقول ومع هذا كله فقد طلبوا أموراً من الشناعة أعظم مما تظنون وأعظم مما عُلمتم إياه، فقد جاءوا إلى أعظم طلب ذكره ختاماً لهم وكأنها كما يقال في لغة العوام «الضربة القاضية»، يعني أنه مهد هذه التمهيدات في قضية علاقة الشريعة والكلام والتحريف فيه والتعاون مع أمره جل في علاه، وتقييدهم الأمر إذا جاء إليهم وإذا جاء من غيرهم فلا يقبلونه إلى غير ذلك، فجاء إلى أعظم أمرٍ وخاتمته، ليدل على أن كل ما قالوه من الشر العظيم فهذا أعظم ما قالوا، هذا وجهٌ مما قاله أهل العلم، أعظم ما قالوه هذا، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾.

والشيء قد يُبدأ به بالعظيم وثم يبدأ بالتابع ولكن قد يبدأ بالقليل ليصل به إلى العظيم من أجل أن يمهد له، أو من أجل أن يقطع من نفس السامع أي أمل في المراد، لو بدأ بالكثير فإنه يصدمه صدمة ثم إذا بدأ بالقليل يبدأ بماذا؟ بالخفوت، لكنه إذا بدأ بالقليل ثم جاء الكبير لم يبقى في نفس السامع إلا الأمر العظيم، ومن هنا فكان خاتمة المقال في بيان شرهم وفسادهم هذا الذي قالوه، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، هذا بعض مناسباتها، من المخاطب بها؟ ذكر ابن جرير والبقية لم يجروا على ما جرى عليه، ابن جرير قال: بعضهم قال: اليهود وبعضهم: قال: النصارى، وبعضهم قال: المشركون أي العرب، والعلماء في أغلبهم يرون أن هذه الآية عامة، وأما فائدة من المقصود ومن التبع؟ لما سيأتي في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، فكأن هناك أول وهناك تالي، وإلا فكلهم قد قالوا.

فاليهود قالوا: عزير ابن الله بل قالوا عن أنفسهم نحن أبناء الله وأحباؤه، والنصارى قالوا عن المسيح ابن الله، ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤)﴾، والمشركون قالوا عن الملائكة الإناث: هم إناث الله، بنات الله، فكل طائفةٍ قالت هذه المقالة عن الله عز وجل، وهذا من أكبر الإجرام، وهذه قضيةٌ من أعظم قضايا العلوم، ما من باطلٍ قاله متكلمٌ في الوجود إلا وفي كلامه ما يبطله، وهذه الآية من أدلة ذلك، ما من مبطلٍ قال باطلاً إلا وتستطيع من خلال كلامه أن تبطل دعواه، وأن تبطل عقيدته وأن تبطل زعمه، فهذا، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، كل الآيات التي تلت ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، التي في سورة «الأنبياء» والتي في سورة «مريم» والتي في سورة «يونس» كلها ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، هنا فقط في هذه السورة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦].

ما يهمنا هنا أين بطلان كلامهم من كلامهم؟ بطلان كلامهم من عظمة الله وأن الله عز وجل ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم: ٩٢]، فإن الولد دليل النقص وهذا سنبينه، ولكن أين في كلامهم ما يدل على بطلان كلامهم، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ﴾ [البقرة: ١١٦]، كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]، أي صنعت يعني أوجدت، والولد لا يوجد، الولد يُستولد، أي لا يصح لأحد أن يأتي بواحد من الخارج يصنعه ويقول: هذا إبني، فإذا صنعه كان على معنى القيام عليه بغير معنى الولد، ولكن بمعنى التبع بمعنى العبودية، انظروا ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، أي عندهم قد اعترفوا بأنه كان مخلوقاً فأتخذه الله أي جعله ولدًا، ولم يقلوا: وولد الله ولدا، لم يقولوا هذا، ولم ينسب الله عز وجل لهم هذا القول أبدا، لأنهم لم يقولوه، وهم أعلم الناس بما يقولون عن أنفسهم، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، أي صنعه ثم جعله ولدًا، وهذه ليست طريقة الولد، ولا طريقة العلاقة بين الأب والابن فإن العلاقة بين الابن والأب هو الاستيلاد، والعلاقة بين الولد وأمه الاستيلاد، فإذا خلقه كان تابعاً له، كان عبداً له، كان خاضعاً لأمره، كان خاضعًا لسنته التي خلقها فيه، فقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ﴾، هذا مما يسمى عند العلماء بفساد الوضع، يعني بمعنى أنك اتخذت كلاماً ينقض أوله آخره أو ينقض آخره أوله، لأن ﴿اتَّخَذَ﴾ تتناقض مع كلمات الولد، ففي داخل كلامهم ما ينقضه، لا يصح أن يقول أحد أتخذ الله ولدا، لأنه حينئذٍ لا تكون هذه علاقة الوالد بولده.

ودليل هذا من داخل الكلام الذي قالوه، هذا مما يسمى عند العلماء بقلب الأدلة، ما معنى قلب الأدلة؟ يعني الدليل الذي قالوه والكلام الذي قالوه فيه بطلانه، وفيه فساده، من كلامهم باطل، ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ

وَلَدًا﴾، هذا باطل لا يصح، لأن الولد لا يُتخذ، لا يجنى من الخارج، لا يشترى الولد، الناس لا يعرفون هذا وإنما الولد من الاستيلاد، فإذن علاقة الولد التي تقوم على الرحمة مع الوالد فهذه ليست هذه طريقها أن يتخذ، فإذا أتخذ كان مخلوقاً له كما ﴿اتَّخَذَتْ﴾، أي صنعت، ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ عن العنكبوت.

الأمر الآخر: الولد تهمة، الولد علامة نقص لماذا؟ لأنه الذي يتخذ الولد لا يمكن إلا أن يكون مُستولدا، يعني لو أخذنا الولد على المعنى أنه يلده فإنه لا يقع هذا الاستيلاد إلا لأنه ليس هو الأول، يعني الذي له الولد لابد أن يكون هو كذلك في هذه الصفة، لأنها صفة تكون فيه بعلاقته مع الوالد إذن هو محتاج إلى أن يكون ولدا، فهو يكون ولداً لوالدٍ آخر، ولذلك بعدها قال سبحانه وتعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، هذه لابد أن تربطوها بمعنى ﴿بَدِيعُ﴾ الآن سيأتي، فإذن الولد بالنسبة للإنسان صفة مدح، وبالنسبة لله عز وجل صفة نقص، لماذا صفة مدح بالنسبة للإنسان؟ كما أن الغنى صفة مدحٍ للإنسان، لماذا هي صفة مدحٍ؟ لأنها سدت نقصاً فيه، الغنى مجيء المال سد نقصًا في الإنسان أن يكون للمرء مالاً، أكمل من أن يكون فقيراً لأنها سدت نقصًا فيه، فهذا الإنسان عندما يكون له الولد سدت نقصاً فيه ذلك لأن عمره ناقص، وهو يريد الدوام، فكيف يحصل له دوام الذكر ودوام ذكر النسب والإرث؟ بوجود الولد، فهو بحاجة له ليحصل له الدوام، فإذا كانت في حق الله عز وجل كانت نقصاً لأن الله عز وجل حينئذٍ يكون محتاجاً لغيره من أجل أن يحصل له الدوام، وعدم حصول الدوام دل على وجود الأولية بمعنى أنه مسبوق، فلذلك هذا أعظم ما قالوه.

ولذلك في الحديث الصحيح قال: (يشتمني عبدي وشتم عبدي لي أن يقول أن لي الولد)، من أعظم الشتم لله عز وجل أن يقول العبد عن ربه أن له الولد؛ لأن هذا نقص، هذا اتهام لله عز وجل أنه لا يكمل إلا به، هذا اتهام من العبد أن الله عز وجل بحاجة إلى من يتم نسبه، قالوا: «أنسب لنا ربك» فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص: ١]، أن نسبه سينقطع وبالتالي هي بحاجة إلى من يمدد له وأن يوصله لغيره، وهذا دليل على أنه ليس الأول، الذي ليس قبله شيء، فلذلك قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، فرد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾، هذا الذي قالوه هم من الدعاوى، والأصل أن الإخبار عن الله عز وجل وهو الغيب أن لا يكون إلا من الغيب، فمن أين أتوا بهذا؟ يعني الله عز وجل من عالم الغيب، فالأصل ألا يقال شيء عن عالم الغيب إلا بإخبار عالم الغيب

عن نفسه، لكن هذا من باب القياس، وهذا من باب دعوة التنزيه وهذه مداخل الشرك في الوجود، لما أرادوا تعظيم أناسٍ نسبوهم لله، لما أرادوا التعظيم، وهذا الذي يقع، فلا يقع الشرك إلا بالتعظيم، ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر أرادوا تعظيمها فجعلوها ألهة.

ولذلك باب التعظيم هو باب الشرك، حين يخرج التعظيم عن حده الذي قدره الله عز وجل شرك، أي أحد يُعظم فوق التعظيم يؤدي إلى الشرك، كيف حصل الشرك في النصارى عظموا بشرًا أرادوا أن يعظموه رأوا فيه هذه الصفات، فأرادوا أن يعظموه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَا تُطْرُونِي كما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فإنَّما أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولوا: عبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)، هذا الإطراء والتعظيم يوصل إلى الشرك فهذا هو التعظيم، تعظيم الشيء.

ثانياً: هو من قياس الغائب على الشاهد، الغائب لا يجوز أن تقيسه على الشاهد لأنه مختلف عنه، الله عز وجل رب فما ظننته من صفات الكمال هم أرادوا تعظيم الملائكة فقالوا: بنات الله، أرادوا أن يعظموا الملائكة فقالوا: هي بنات الله التعظيم، الباب الثاني: أنهم قاسوا الغائب على الشاهد، لما رأوا أن الشاهد لا يقوم إلا بالولد ولا يقع إلا بالولد فنسبوا ذلك إلى الله عز وجل، فهذا هو باب الشرك، أعظم أبواب الشرك كما قال العلماء: هو القياس والتأويل، القياس تقيس شيء على شيء، والتأويل أن يقع من اللفظ ما يحمل على الغلط وهذا من الباب الذي ذكر، ولذلك ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، فرد عليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي سبحانه أن يكون له ولد، وانظر إلى هذه الكلمة العظيمة ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم: ٩٢]، ما ينبغي للرحمن لأن صفة الربوبية المطلقة القائمة على كل نفسٍ بما كسبت وصفة الربوبية الخالصة في حق الله عز وجل تأبى أن يكون له الولد، فالولد نقص والربوبية كمال، فقال: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٩٢].

نظر هنا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم: ٩٢]، ولم يقل وما ينبغي لهم أن ينسبوا له الولد، فمنع نفسه جل في علاه وهو الذي يقول ما يريد وليس هناك من رادٍ لحكمه جل في علاه، ماذا قال؟ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم: ٩٢]، لا ينبغي، فمنع ذلك من جهة نفسه،

هذا تعظيم أشد من قوله: وما ينبغي لهم أن ينسبوا له الولد، هذا أشد ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم: ٩٢].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، فقال سبحانه وتعالى راداً عليهم: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، وتقدم الكلام عن سبحان الله عز وجل، فهذه كلمة يراد بها التنزيه، تنزيه الله عز وجل عما نسبوا له، أي سبحانه أن يكون له ولد جل في علاه، والتسبيح هو تنزيه الله عز وجل، ولذلك من أسمائه جل في علاه سبوح وتعني القدس، سبوح تعني أنه سبحان الله سبحانه يعني ليس له الولد، يُقدس أن ينسب له هذا النقص الذي نسبه هؤلاء.

ولا شك أن الإنجيل ذكر عن البشر جميعاً أنهم أبناء الله، وهذا كما في الحديث، والحديث تعرفون فيه كلامٌ شديد، وهو لا يصح، «الخلق عيال الله»، مع عدم صحة هذا اللفظ إلا أن معناه عند المسلمين صحيح، يعني أنه يعيلهم يطعمهم هذا معنى العيال، يطعمهم يسقيهم يقوم عليهم جل في علاه، فينبغي حين يقال: فلان ابن الله، ولا يصح هذا أن يقال ولا يجوز أن يقال حتى على جهة تكرمة هذا العبد، فإن أعظم ما يوصف به العبد أنه عبد، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ [الإسراء: ٣]، أعظم ما يوصف به العبد أنه عبد لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾، أي ننزهه أن يتخذ جل في علاه الولد، والله عز وجل هنا هو نزه نفسه وطلب من عبيده أن ينزهوه، فقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، هو قول الله عز وجل عن نفسه، الله عز وجل يسبح نفسه، والملائكة تسبحه والمؤمنون يسبحونه جل في علاه، فعليكم أن تفعلوا هذا، قدم التنزيه للنفي عما قالوه وأنه لا ينبغي له أن يكون له هذا بل سبحانه أن ينسب له الولد، العلاقة بين الخلق وبين الله عز وجل ليس ما قالوه، ليس هو الولد، ولا توجد هذه العلاقة قط بين أحدٍ من مخلوقاته وبينه لا توجد، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)﴾ [المائدة: ١٨].

فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾ [البقرة: ١١٦]، العلاقة هي علاقة ملك، أنتم مملوكون له وهو ربكم وأنتم عبيده، ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فالملائكة ما هم إلا له، والإنس ما هم إلا له أنه يملكهم، والجن كذلك وكل مخلوقاته، فلا يختص به أحد.

قال تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾، القنوت كما قال ابن جرير عن الربيع عليه رحمة الله بأن القنوت يأتي بمعنى العبادة والطاعة، طائعون، ويأتي بمعنى القيام كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (خير الصلاة القنوت)، أي القيام، ويأتي بمعنى السكوت وترك الكلام، هذا معنى القنوت، وكلها تدل على شيءٍ واحد، في الحقيقة مصدرها يعود إلى معنى واحد، فأعظم ما تكون الطاعة بالقيام، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقام له امتثالاً على ما يفعله اليهود والنصارى وعلى ما يفعله القيصريون وما يفعله الكسراويون من أهل فارس؛ لأن في ذلك التعظيم، أن يكون الرجل جالساً ويكون الناس حوله قيام هذا من التعظيم فهو طاعة، فالقيام للرجل احترامًا له، فإذا قاموا فوق ذلك كان امتثالاً وتعظيماً زائداً، فلذلك من الطاعة أن تقرأ القرآن وأنت قائم ونهى رسول الله أن يقرأ القرآن والمرء ساجداً أو المرء راكعاً، فإذن القيام هو امتثال وطاعة، والطاعة تقتضي أن لا تتكلم بحضرته إلا بإذنه، فلذلك القنوت هو الطاعة، قانتون أي طائعون، وقائمون له بأمره بالعبودية، وكذلك لا يتكلمون ولا يتحدثون ولا يسبقونه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]، لا يتكلمون إلا بإذنه وتحت أمره.

وهنا العلماء وقفوا وخاصةً ابن جرير عليه رحمة الله فقال: هل المقصود هنا ﴿قَانِتُونَ (١١٦)﴾ [البقرة: ١١٦]، أي عابدون بمعنى العبادة الشرعية، على أساس أن قانت هو عابد بالعبادة الشرعية؟ أم المقصود هنا العبادة القدرية؟ قال تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾، فهل المقصود أن المؤمن هو الذي يعبده وهو المقصود بذلك العبادة الشرعية؟ أم ﴿قَانِتُونَ﴾ الكل عابدٌ له على معنى من معنى العبادة؟ يقول ابن جرير: والتخصيص هنا بلا مخصص تكلف، وله كتاب قال وشرح ذلك في كتاب «البيان في أصول الأحكام»، كرره في هذا الموطن وقبله وبعده بصفحات كرر وشرح هذه القضية، وهي تخصيص العام بلا مخصص تكلفوا، وأنه إذا جاء اللفظ على صيغة العموم من غير أن يوجد ما يخصصه، والسياق لا يحتمل تخصيصه فيجب إجراءه على العموم.

فقال: القرآن يقول: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾ [البقرة: ١١٦]، و﴿كُلٌّ﴾ تعود على السماوات والأرض وما فيهما، ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فإذن أين التخصيص؟ فقال: والمقصود بالقنوط هنا الطاعة بمعناها القدر، يعني الله عز وجل قام له كل شيءٍ طائعاً له على معنى امتثالاً لأمره في الوجود وفي القدر، يمتثلون، قال: حتى اللسان هو يسبح بحمد الله، وهو لا يتحرك إلا بإذن الله عز وجل، وكذلك الله عز وجل خلق هذا البدن قائماً بطاعته، قائماً بعبوديته، العبودية القدرية، لا يخرج شيءٌ عن أمره، الله عز وجل محيطٌ بكل شيء في قدرته وإرادته الله عز وجل أراده أن يوجد فوجد، وخلقه على ما يريد الله عز وجل لا على ما يريده الإنسان، ويحييه على وفق إرادة الله عز وجل ومشيئته ويميته على وفق إرادة الله ومشيئته والمرء لا يختار، فالمرء مقهورٌ بربوبية الله عز وجل القدرية، مقهور لا مخرج له، وإنما العبد يطيع ويثاب فيما تعلق بعبوديته الشرعية، التي هي مناط إرادته أو إرادته مناط هذا الفعل.

فلذلك قال: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، أي المقصود كل ما في السماوات والأرض خاضعون لأمره ممتثلون لكلمته القدرية جل في علاه، وفي ذلك يمكن أن تتسع الشمس خاضعة لأمره، هل هي بهذا المعنى قانتة أم لا؟ الشمس قانتة فالله عز وجل يأمرها والأرض قانتة والقمر قانت والسماوات في قيامها بغير عمدٍ نراها كذلك قانتة، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣]، هذا من قنوتها لربها في طاعتها لأمره، حيث أمرها الله عز وجل، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت: ١١]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾، على هذا المعنى لأنها مطيعة له في قدره وأمره جل في علاه.

قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، تقدم الكلام على أن وجود الولد يعني وجود الأب، ما دام أنه هناك ولد، فالولد سيكون إلهًا وربًا، وبالتالي هذا يجعل الألهة والمرء لا يحتاج إلى الولد إلا لانقطاع نسبه، لماذا الناس يحتاجون للولد؟ لانقطاع نسبهم، لولا هذا النسب الذي ينقطع بسبب موتهم، ما احتاجوا الولد لأنهم يقومون بشأنهم، وإلا لصارعهم الأبناء على أموالهم، وإنما المرء يحب ابنه لأنه يديم ذكره في الوجود، يُنسئ له أثره في الوجود، فلما كان الله عز وجل الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء لم يكن له الولد، فوافق هذا أن الله عز وجل عندما خلق أي شيءٍ قد

خلقه، خلقه على غير مثالٍ سابق، فإذا كان هناك مثالٌ سابق لهذا المخلوق دل على أن هناك خالقٌ آخر، فما معنى بديع؟ يعني الله عز وجل أوجد كل شيءٍ عندما خلقه على غير مثالٍ سابق، المرء قد يخلق على معنى يوجد ولكن يوجده على مثالٍ سابق، يتعلم منه كيف هو موجود فيوجد ويصنع الصنعة على مثالٍ سابق.

ومن هنا البديع هو الذي يخلق الأشياء من غير مثالٍ سابق، فهذا حديثٌ عن المادة والصورة وليس فقط عن الصورة، البعض يظن أن بديع هي ما تعلق بصورة الأشياء أنها على غير مثالٍ سابق، الأشياء في وجودها كذلك على غير مثالٍ سابق، هذا الحديد عندما خلقه الله عز وجل قبل أن يكون له صورة هو بذاته مخلوقٌ على غير مثالٍ سابق، والله عز وجل خلق من المعادن ما لا نعلم، وخلق من عناصر الوجود ما لم نعلم، والله عنده من علم العناصر التي هي من المخلوقات ما لا نعلم، وما لم يخلقها، فالله عز وجل خلق الأشياء بمعانيها الذاتية على غير مثالٍ سابق، وأوجدها على هذه الصورة على غير مثالٍ سابق، ومن ذلك الإنسان، هذا اللحم وهذه الخلية الحيوانية، الله عز وجل خلقها على غير مثالٍ سابق، ولكن لما كون هذا الإنسان كونه على صورةٍ على غير مثالٍ سابق، فالأشياء في أصل وجودها ومادتها على غير مثالٍ سابق، مثالٍ سابق: أي لم يكن هناك قد سبقه شيء ليمشي عليه، أو ليسير على منواله أو ليخلق الأشياء على وفقه، فالله عز وجل خلق الأشياء على غير مثالٍ سابق لا ذاتاً ولا صفاتاً، فقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ومن هنا فالبدعة هو الإتيان بالأشياء على غير وجهٍ سابق، يقال: هذه بدعة، والبدعة كما تعلمون لأن الشرع لم يأتي بها (وكل بدعةٍ ضلالة)، يعني كل إحداثٍ في الدين لم يأت له دليلٌ سابق من كلام النبي صلى الله عليه وسلم فهو يسمى بدعة، أي ليس له من سبقه بهذا القول ممن يُقتدى به أي النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم، فمن هنا سميت البدعة بهذا الاسم بدعة، والناس يقولون: مبدع يعني أتى بأشياء لم يسبقه إليها أحد.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾، والبديع تتضمن الخالق، وقد تفارقها، فإذا أطلقت هنا ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾، دلت على أنه خالق وأوجدها على غير مثالٍ سابق، فإذا اجتمعت مع خالق، دلت

الخالق على أنه أوجد الأشياء، والبديع على صورةٍ لم تكن عليها من قبل، يعني الخلق والإبداع يجتمعان ويفترقان كما نرى.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾ [البقرة: ١١٧]، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾، دل على قدرته ودل على أنه سبحانه وتعالى له الحكمة البالغة، ودل ذلك على قدرته وعلى علمه، هذا العلم العظيم أن يوجد الأشياء على غير مثالٍ سابق، هذا دل على علمٍ عظيم ودل على حكمة، فإنه أوجدها على معنى ما يحقق بها مقاصدها في الوجود، ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، أي هداه ليحقق مقاصده في الوجود.

ثم سبحانه وتعالى وصف نفسه بأعظم وصفٍ في موضوع أرادته إذا توجهت للأشياء فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾، ﴿وَقَضَى﴾ بمعنى هنا أراد، ويأتي بمعنى الشرع ويأتي بمعنى القدر، لقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، هنا ما معنى قضى؟ يعني أمر على معنى الحتم فانتهى الأمر، وقضى بمعنى انتهى كما في قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، يعني مضى خلقهن على هذا العدد، قضاهن أي خلقهن، ويأتي هنا قضى بمعنى أراد، ﴿فَإِذَا قَضَى﴾ [غافر: ٦٨]، أي أراد، ونحن تكلمنا والعلماء تكلموا في الحقيقة وهو من كلام أهل العلم على أن القدر على أربع مراتب ما هي؟ «العلم، الكتابة، الإرادة، والخلق الإيجاد»، هذه مراتبه، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾، فالله عز وجل علم أنه سيكون، وكتبه أنه سيكون، فحين أراد وجوده لحظة إرادته وعلمه في المكان الذي يكون فيه، والوقت الذي يكون فيه توجهت إرادته إليه أن يكون، فبما خلق؟ توجهت إرادته أن يكون فبما خلق؟ بالكلمة، خُلق هذا المخلوق بالكلمة فقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾، وكن هنا هي أمرٌ كوني نفصله إن شاء الله في درسٍ قادم، بارك الله فيك وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: ما هي مراتب القدر على الترتيب؟

الشيخ: المرتبة الأولى هي مرتبة العلم، المرتبة الثانية هي مرتبة الكتابة، المرتبة الثالثة مرتبة الإرادة، المرتبة الرابعة هي مرتبة الخلق، هذه مراتب القدر.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث والثمانون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الثالث والثمانون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾ [البقرة: ١١٧]، هذا الأمر الإلهي في بيان كيفية خلقه جل في علاه للخلق، وذلك أن كلام الله عز وجل كما قلنا باختصارٍ سابق: أن الكلام يقسم إلى كلامٍ شرعي وهو أمره ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فهذا أمرٌ شرعي، والأمر الشرعي يتعلق بإرادة الإنسان قبولاً ورداً، أي يمكن للإنسان أن يمتثل أمر الله عز وجل فيطيعه ويمكن أن يخالف كلمة الله الشرعية فيعصيه، ومن الكلمات الشرعية هي القرآن، القرآن الكريم هو كلامه الشرعي أمر به العبيد وخلقهم وعلمهم إياه.

وكذلك هنا الكلمة المقصود بها الكلام ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨٢]، فهو القول الكوني وهذا هو المقصود في قوله صلى الله عليه وسلم: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، وقوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨)﴾ [مريم: ١٨]، وأعوذ بكلمات الله التامات المقصود بالكلمات الكونية، والمقصود بكلمات الكونية أي ما خلق الله عز وجل وما أمر ونهى من وجود الأقدار وعدمها، أي أعوذ بكلمات الله التي يأمر بها فتقيني هذه الكلمات بأمره القدري أن يقع علي الشر، وأن يمنع عني السوء، وأن يوقع علي الخير بأمره القدري.

فقوله تعالى هنا: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)﴾ [البقرة: ١١٧]، فهذا قوله القدري وهنا في الحقيقة مسألة أنبه عليها لأن كتب التفسير طافحةً بها وابتدأها الإمام نفسه ابن جرير الطبري في بيانها، ورد عليه من رد كابن عطية الأندلسي ونسخ كلامه كله الإمام القرطبي في تفسيره نسخاً من غير

تعليقٍ عليه، راداً على الإمام الطبري والسبب هو سبب الاعتقاد، السبب في رد ابن عطية على ابن جرير هو الاعتقاد وليس الموضوع اللغوي كما حمله إياه.

والمقصود بأن هذه الآية هي رادةٌ على من يقول بالكلام النفسي القديم القائم بالذات، هي رادة عليه، طبعاً هذه المسألة ربما لا تعني الإنسان العادي فهو يؤمن بأن الله عز وجل تكلم ويحمل على أن الله عز وجل يتكلم، وأن كلام الله عز وجل هو صفة من صفاته وخرج منه وإليه يعود كما يقول الإمام الطحاوي عليه رحمة الله كما في متن عقيدته «منه بدأ وإليه يعود»، فهو كلامه، والمقصود بالكلام النفسي أن الأشاعرة والكّرامية قبلهم والأشاعرة وراث لهذه المسألة في الكّرامية يقولون: بأن الكلام لا يكون متتابعاً لأن التتابع يعني الحدوث، وبالتالي قالوا: الله يتكلم كلاماً قديماً بمعنى أنه العلم في خلاصة الموضوع يقولوا: الكلام هو العلم، وإن كانوا ينفون بهذا الأمر وإنما هو معنى نفسي قديم قائم في ذات الله، فمتى حدث الكلام؟ ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، متى حدث الكلام؟ متى كلمه الله؟ لما جاء موسى، إذن حدث الكلام في زمنٍ من الأزمنة، حيث أراد الله عز وجل أن يتكلم تكلم، وحيث أراد ألا يتكلم لا يتكلم، وهذا من كماله جل في علاه، فهذه الآية ردٌ على الذين يقولون بالكلام النفسي.

فلما نظر بن عطية على الخصوص لما نظر إلى كلام ابن جرير، ابن جرير رحمه الله وقف موقفاً علمياً في هذه المسألة، وتكلم عن قضية تقدم الأمر على الوجود، ولكن ظاهر اللفظ أنه خطاب لموجود ونحن نعلم أن هذا الموجود غير موجود، أن هذا المخاطب المخترع غير موجود، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ﴾ [يس: ٨٢]، فكيف يقول له وهو معدوم؟! فإن كان معدوماً فكيف يقول له؟! يقول له وإن كان موجودًا فهذا لا يحمله الكلام لأنه يريد أن يكون موجوداً، فهذا هو مدار كلام ابن جرير رحمة الله عليه فقال كلاماً عظيماً جليلاً، قال: لا يتقدم الموجود على الأمر ولا يتأخر عنه، وهذا شرحٌ عظيم لقضية استجابة المخترع لمن أمره أن يوجد، هناك كلمة لأبي حيان الأندلسي رائعة في هذا الباب، قال: تقدم الكلام عن قضية الخلق فقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾ [البقرة: ١١٧]، فهذا كلام عن المخترع وأنه مخترعٌ من غير مثالٍ سابق، ثم جاء البيان في كيفية حدوث هذا المخترع، كيف حدث؟ فقال: بياناً لهذا الأمر في قضية سرعة استجابة وطاعة هذا المخترع للآمر وهو الله سبحانه وتعالى، هذا الذي يريد أن يبيّنه ربنا عز وجل في هذا الأمر وهو أن المخلوق المخترع يستجب لله عز وجل استجابةً تامة لا تأخر فيها، فاقترن لسرعة الاستجابة اقترن الأمر

بالوجود، فلم يتأخر الوجود عن الأمر ولم يتقدم عليه، لم يتأخر بل هو موافقٌ له ملازم له، حيث وقع القول الإلهي وقع الخلق الوجود، فهذا الذي أرى، فقال: فإذا علمنا الشيء موجود فلم يتقدم الأمر، وإذا علمنا أنه غير موجود فعلامة على عدم وجود الأمر، فالخلق والوجود لا يتأخر عن الأمر ولا يتقدم عليه، طبعاً لا يتقدم عليه متفق عليه، لكن التأخر، فلذلك قال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، فحيث كان الأمر كان الوجود، وهذا من كمال قدرة الله عز وجل وخضوع الخلق له.

أعود وأكرر لما وقف عندها ابن عطية قال: لا، هذا الكلام غير صحيح، وبدأ يجريها على معنى الأشاعرة فيما يقولون، لا أريد أن أقف عندها، لكن رد ابن عطية على ابن جرير في هذا الباب ليس مبناها ما علق عليه من كلام اللغة ولكن علقه لسببٍ اعتقادي، فقال بما يسمى بالإرادة الناجزة والإرادة القديمة، وهذا كلامٌ معروفٌ عند الأشاعرة والإرادة القديمة هم يثبتونها، والإرادة الناجزة ظهور الإرادة القديمة حيث قدر أن تكون، وهذا شيءٌ لا يتصور ولذلك مما قالوه في استبعاد فهم كلام الأشاعرة ومن معهم في موضوع الإرادة القدرية، يعني كيف تكون قديمة هناك إرادة قديمة لأن يكون الشيء كيف تأخر؟ لماذا تأخر هذا المراد عن المريد مع وجوده القديم، لماذا؟ وحيث وجد بأي إرادةٍ وجد؟! هل بإرادة قديمة أم بإرادة ناجزة؟! وكيف الإرادة القديمة تعطل أثرها ولم يوجد؟! والإرادة الناجزة كيف وجدت دون أن يكون لها زمان؟! ونحن نعلم أن الله عز وجل تكلم حيث خلق، فهذا الأمر.

وهذه الآية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨٢]، تكرر هذا البيان الإلهي في عدة مواطن، فقد ذكرت مرتين في سورة «آل عمران»، وذكرت في سورة «ياسين»، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)﴾ [النحل: ٤٠]، هناك حديث عن نفسه جل في علاه، وأقرب الآيات لها بخلاف فقط حرف هي سورة «غافر»، فهنا في هذه السورة قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ [البقرة: ١١٧] وفي سورة «غافر» قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ [غافر: ٦٨]، فوردت هنا مرة في سورة «البقرة» ووردت في سورة «النحل» مرة، ووردت في سورة «ياسين» مرة وفي سورة «آل عمران» مرتين، ووردت في سورة «غافر» مرة ووردت كذلك في سورة «الأنعام» سبع مرات وردت، ولا أريد أن أقف لماذا ذكرت هنا على هذا اللفظ وعلى هذا اللفظ، ولكنها كلها تدل على ما يدل عليه الأمر هنا.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ [البقرة: ١١٧]، والمقصود ﴿قَضَى﴾ هنا مفسر في آيةٍ أخرى، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ [النحل: ٤٠] فما معنى ﴿قَضَى﴾ هنا؟ مفسر في الآية الأخرى يعني الإرادة، إذا قضى يعني إذا أراد سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، فإذا أمر وأراده، والمقصود هنا ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ المقصود به الأمر الكوني بين هنا ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾، أي من الأمور الكونية، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وهذه الآية في بيان ماذا؟ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، فهذه الآية في بيان الرد على من زعم أن لله عز وجل ولدا، سواء من اليهود أو النصارى أو المشركين، على ما تقدم من ذكر هذا الأمر، فالعلاقة بينه وبين خلقه هي علاقة خالقٍ لمخلوق، فليس هناك ولد لله، الولد حاله مع الوالد هو الاستيلاد، وهنا الخلق؛ فلذلك المقام مقام العبودية، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم: ٩٢]، وكل شيءٍ هو مخلوقٌ له سبحانه وتعالى.

فلذلك الله عز وجل يرد عليهم يقول: الحال أنني أخلق والخلق بهذه الكلمات التي بيني وبينكم، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)﴾ [آل عمران: ٥٩]، فلذلك عيسى عليه السلام مخلوق بالكلمة، ولذلك عيسى عليه السلام سمي كلمة الله، تكريماً وتشريفاً، وإلا فكل شيءٍ مخلوق بالكلمة، لكن لماذا سمي عيسى عليه السلام كلمة الله؟ تشريفاً له وتكريماً له، وإلا فالله جل في علاه خلق الأشياء جل بكن فيكون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)﴾ [النحل: ٤٠]، فدل هذا على العموم، على أن كل شيء، ولذلك في بعض كلام المفسرين أن هناك أنه نوع خلقٍ آخر بغير الكلمة، لا، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ هنا جعل الحصر، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾، إذن الإرادة التي هي الإرادة الكونية لا يكون مقتضاها إلا بهذه الكلمة، بكلمة الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)﴾ [آل عمران: ٥٩]، فلا فرق في بين آدم وغيره ويريد ربنا عز وجل أن يبيّن أنه ليس ثمة خصوصية في قضية العلاقة بين عيسى عليه السلام وبينه جل في علاه، فالعلاقة بين عيسى عليه السلام وبين ربنا عز وجل هي كعلاقة آدم عليه السلام مع الله عز وجل، فآدم عليه السلام خلق من غير أب ولا أم، فهو أعجز، يعني مُعجز أكثر بياناً في الإعجاز من خلق رجلٍ من أمٍ بلا أب، ولذلك لما قال ربنا عز وجل في سورة «يس»: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ

إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨١-٨٢]، أي الله عز وجل خلق السماوات والأرض بكن، فما الذي يعجزه أن يقول للسماواتٍ أخرى: كن فتكون، ولذلك يدور هذا الخطاب الإلهي في قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)﴾، على مدارين، مدار الخطاب في الرد على قضية خلق عيسى ومدار قضية العود، في قضية إعادة خلق السماء، إعادتها بعد أن تبيد فأن يخلقها الله عز وجل أو إعادة الأبدان، والمعروف أن المشركين مما وقع منهم من شركهم أنهم نفوا أن تعود الأبدان وقد بادت وهلكت، ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾، فالذي خلق السماوات والأرض قادر وهكذا.

وفي سورة «النحل» لماذا رد عليهم؟ قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)﴾ [النحل: ٣٨-٤٠]، فرد عليهم في بيان طريقة الخلق الإلهي للوجود بهذه الكلمة رد عليهم في قضية إعادة الخلق، فإعادة الخلق يكون كما بدأ، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

بعد أن بين سبحانه وتعالى هذا الأمر، بعض أهل العلم لهم كلمات طيبة في الحقيقة تحتاج إلى كشف، نرى الإمام القرطبي رغم أنه عدو للصوفية وفي تفسيره الكثير من الإنكار عليهم، لكن مثلاً لما جاء لـ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، قال: الكاف للكينونة والنون للنور، أي كينونته ونوره فيقول: ﴿كُنْ﴾، يعني هذه الكلمات من الإشارات التي تحتاج إلى بيان وليس هذا مقامه.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾ [البقرة: ١١٨-١١٩]، في هذه الآيات العلماء وقفوا من المقصود بها؟ والحقيقة الكل مقصود بها اليهود والنصارى والمشركين كذلك، ولكن من المقصود أصالةً ومن المقصود تبعاً؟ هنا يقع الخلاف، ولكن الله عز وجل لما يأتي يقول: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فالكل في حالٍ سواء، أي الحديث عن اليهود هو الحديث عن المشركين هو الحديث عن النصارى، وهذا أهم ما يستفاد فيما نتكلم

عنه الآن وهو قضية ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، البشر أيها الإخوة الأحبة في قضية المعارف الخلقية والعقائد لا يرتقون، الارتقاء في القضايا الدنيوية، الارتقاء في القضايا المادية.

مثلاً: الناس اكتشفوا البرغي، فبعد ذلك رقوه وترقوا به، مثلاً: الناس اكتشفوا المسمار الذي يجمع بين الاثنين، الناس اكتشفوا الكمبيوتر بعد أن اكتشفوا مادة معينة، فارتقى، وما زال هذا العلم الكوني يرتقي حتى يصل الإنسان إلى قوله بأنه ملك الأرض ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ٢٤]، أن كل السنن خاضعة لهم وأنهم يغيرون السنن، كان الناس لا يستطيعون الطيران فطاروا بالطائرات، كان الناس لا يستطيعون الغوص في البحار فصنعوا الغواصات، فإذن هم استطاعوا تجاوز السنن، فهذا ﴿قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾، تجاوز السنن التي تجري يتجاوزوها ولم يدروا أنهم تجاوزوها بسننٍ أخرى، الله عز وجل أقام سنناً أخرى مع هذه السنن، فالناس لا يخرجون من السنن، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن: ٣٣]، فالناس لا يستطيعون أن يتجاوزوا سنن الله عز وجل إلا بما أعطى الله عز وجل من سنن ومن قدرة لهذا الإنسان، فتشابهت قلوبهم.

لكنه لما جاء إلى قضية المعارف الدينية وإلى المعارف الخلقية، القرآن تكلم عن الإنسان باعتباره شيئًا ثابتاً لا تغيير فيه، لما تحدث عن الإنسان كفور جهول لما تحدث عنه ظالم، لما تحدث عن الإنسان ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، تحدث عن الإنسان فهو لا يتحدث عن الإنسان في حقبة من الحقب قد بادت وانتهت، يتحدث عن الإنسان حيث وجد في كل وقت وفي كل زمان ومكان، ولذلك المعارف الدينية، المعارف الخلقية، المعارف الاجتماعية لا تترقى، ما لا يأتي واحد ويقول: الناس في هذا الزمان ترقت معارفهم الخلقية، هذا ليس صحيح، الناس هم الناس، بل في آخر الزمان في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بذِرَاعٍ، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قالَ: فَمَنْ)، بمعنى أن مساوئ الخليقة التي وقعت في الزمان السابق ستقع فيها هذه الأمة وتتجمع كل مساوئ الأمم السابقة في آخر الزمان في الناس، وهذا الذي نراه.

فلو ننظر إلى الغرب الآن ننظر إلى العالم كل مساوئ البشرية كما وقعت فيهم نراها واقعة اليوم، نرى عندهم الشرك، قد يقول قائل: هل يعبدون العجل؟ يعبدون العجل ويعبدون الأصنام، الأصنام موجودة في

بيوتهم في كبرائهم، تجد الرجل خبير في الكمبيوتر وخبير في ناسا وخبير في البحار ومع ذلك يعبد عجلاً، ومع ذلك يعبد صنماً يضع الصليب ويعبده ويتلمس منه البركة، فالمعارف الدينية لم تتغير، بل الإنسان يرتكس أكثر كلما ابتعد عن الهداية ارتكس أكثر، ونحن نرى أن المعاصي قد زادت وتجمعت، الناس كان عندهم اللواط، الآن ما هو أشد من اللواط، يعني لا يعرف نكاح المحرمات، الزنا في المحرمات، زنا المحارم، بما هو أكثر من هذه الأيام، إتيان الدواب والحيوانات، كل المعاصي، الربا الذي كان سبباً لإهلاك أمم موجود الآن، الظلم بغي بعضهم على بعض، هذا الذي يزعمونه زمن السلام هو أكثر الأزمنة في حصول طغيان البشري طغيان بعضها على بعض، فالبشرية لم تتغير والنفوس بقيت واحدة، المرء يلد فتكون نفسه كنفس غيره، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس: ٧-٨]، هذه النفس البشرية حيث توجد من أول وجودها هي كنفسية آدم عليه السلام، الفطرة، النبي صل الله عليه وسلم يقول: (كل مولود يولَدُ على الفطرةِ)، فالبشرية تخلق على معنى واحد، (كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه)، فهكذا البشرية المعارف الدينية لا تترقى، رقيها أعظم ما كانت البشرية رقياً أخلاقياً في زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك هي النموذج، الرقي الديني المعارف الدينية والمعارف في العبادة والتعامل مع الله عز وجل والرقي الأخلاقي والسلوكي كان أعظم ما يكون في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

فالله عز وجل يقرر ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، والله عز وجل يبيّن لنا في قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)﴾ [الذاريات: ٥٣]، كأن البشرية يوصي بعضهم بعضاً بهذا الأمر، وينصح بعضهم بعضاً وهكذا (فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه)، تمشي البشرية بهذا، وتعجب أن بعض الناس في هذه الأيام يعبدون ما يعبد الناس قبل آلاف السنين!! ويتخذون أئمة ربما بادوا في التاريخ ولم يعد لهم وجود!! فأحدهم حدث قال: كنت أتحدث في جماعة من الناس عن إبراهيم والنمرود فقال: واحد جالس غضب وقال: أنا أعبد النمرود كيف تسب عليه؟!! من الذي يذكر النمرود اليوم؟!! ولكن وجد من يعبده ووجد من يتبعه.

القصد: بأن البشرية واحدة ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾ [سبأ: ١٣]، والقليل هذه الأمة القليل في المشركين، والشكر الخاص ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ [الإسراء: ٣]، هذا الشكر قليل في الشاكرين من المسلمين، قليل، دائماً القليل هو كما يقول الشيخ عبد الله عزام عليه

رحمة الله «قليلٌ من القليل من القليل»، هذا القليل دائماً هو، فهذه البشرية هكذا تجري فلا يجوز لأحد أن يزعم أن البشرية قد تغيرت فتغيرت أحكامها إلى الأحسن هذه نقطة.

النقطة الثانية: هذا التشابه في الأحوال الواحدة والنفسيات الواحدة هو يقوي رأي من ينفي القياس من أهل العلم، مما ينبغي أن يعرف أن بعض الناس ظن أن الشريعة النبوية فقط جاءت للعمومات وتركت الخصوصيات لاجتهادات الناس، وهذا غير صحيح الشريعة بنصوصها مستوفية لكل أحوال الناس، لكن من يستطيع أن يعرف أن هذا الحدث الجديد يدخل في النص القديم، فربما يطرأ على ذهن المجتهد أن هذا الحدث الجديد فيه الزوائد تمنع دخوله في القديم، بالرغم أن العلة هي العلة، يعني رأينا إلى عقود الناس اليوم انظروا إلى العقود الموجودة في الدنيا اليوم، من أشياء جديدة، الناس أحدثوا من العقود العجائب، من البنوك والشركات والعاملون، عقود عجيبة بين الناس، لكن هل هذه العقود هل يوجد منها عقدٌ واحد لا تستطيع أن تدخله في نصٍ يتعلق به؟ لا يمكن، كل العقود المعاصرة ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، نحن نتكلم أن القلوب هي مرجل الإرادات، القلوب هي مرجل المعارف، فتشابهت قلوبهم.

الناس يحدثوا عقوداً ليس فيها أي شيءٍ جديد، نعم قد يخلطون عقداً في عقد، قد يظهرون عقداً ويخفون تحته عقداً آخر كما يسمى في البنوك اليوم بالإيجار المنتهي بالتمليك، عقد الإجارة معروف وعقد البيع معروف فهو يخفي هذا ويدخل هذا في هذا، وهذا بابٌ من أبواب الحيل الموجودة قديماً، الناس قديماً لهم من الحيل أكثر مما يعرف المعاصرون، العقود القديمة ربما لا يعرفها كثير من المعاصرين، ولا يستوعبون ذكاء الأقدمين في هذه الحيل، فلذلك القلوب ما دامت أنها متشابهة فهي تُحدث من الأمور الحياتية فيما يتعلق في حياتهم التي لها تعلق بالأحكام شيئاً واحداً لا فرق بينهم، ولذلك ليس هناك جديد، كما قال زهير: «كلامنا مكرور، الناس يكررون نفس الكلام، يتحدثون عن الشجاعة وهي شيءٌ واحد، ولكن كل واحد يتحدث عنها من جانب، الكرم شيءٌ واحد، والناس يتحدثون عن الكرم بصفات متعددة كذلك العقود، هناك عقد بيع، لكن الناس يسمونه بأسماء، هناك عقد شراكة يسمونه بأسماء.

فلذلك ما يحدث الناس من عقود ويحدث الناس من حوادث ومن نوازل لا يقولن أحد: هي جديدة، هي جديدة في شكلها ولكن العلة المؤثرة لإصدار الحكم الشرعي بالحل أو الحرم موجود، العلة واحدة، يعني

الناس الآن يتحدثون عن أنواع جديدة من أنواع الزواج كزواج المسيار، هل هذا زواج المسيار الموجود الآن العلة المؤثرة فيه غير موجودة في علة أنواع الزواج الموجودة قديماً، لكن هو صورة تكيفية جديدة عليها ظواهر لا تؤثر في الحكم وإنما العلة واحدة، بحيث الحكم بالحل أو الحرمة واحدة، فالذي يشتبه على الناس هو الصورة الظاهرة في التغيير، الصورة فقط، الربا له صورته الواحدة وربا النسيئة مثلاً لكنهم يلعبون به ألعاباً جديدة لتخفى من قبيل الحيلة على المجتهد والفقيه فيزعم أن هذا فعلٌ جديد يحتاج إلى حكمٍ جديد، لا، هو حقيقةٌ واحدة تعود إلى حقيقته، ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى حقيقةٍ واحدة، لا يوجد فعل إيماني في عصرنا هذا –أنا تكلمت هنا عن جانب الشر– في جانب الخير لا يوجد فعلٌ شرعيٌ إيمانيٌ في زماننا هذا إلا وهو داخلٌ في نصٍ خاص به من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، سواء كان من أعمال الجهاد سواء كان من أعمال البر والصدقة، الناس يُحدثون صوراً للعمل في جوهره الواحد، العمل في جوهره واحد ولكن يحدثون له صور، هذه صور لا تغير في الحكم الحقيقي في داخل العلة المؤثرة لهذا الفعل.

مثلاً: الآن واحد يقول: أنا أريد الزكاة أن أعمل جمعية وأجمع وهكذا يبدأ بجمعيات يقول: هذه غير موجودة في الزمان القديم، ما أدراك؟ لم يهتم علماؤنا بذكر كل صورةٍ من صور النوازل في زمانهم، لماذا؟ لأنهم يهتمون برواية الحكم الشرعي المتعلق بالعلة في زمانهم، وأما النوازل فكثيرة، فلذلك قال الله عز وجل: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، البشرية تتشابه قلوبها، المؤمن يشبه المؤمن، «الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض»، المؤمن يمشي وراء المؤمن، ما أنت يا أبا بكر إلا كعيسى، ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، هذا كان مثال أنك سرت على سلف على طريقة، وأما أنت يا عمر ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح: ٢٦]، فالمؤمن يمشي في سبيل المؤمنين، وهذا الطريق خطه أناسٌ كثر، والكافر يمشي في طريق الكفار، والفاسق يمشي في طريق الفاسق ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، «الناس كأسراب القطا يتبع بعضهم بعضا»، هناك كالفراش من يمشي إلى النار فيحرق نفسه، وهناك من يهتدي بالنور فيمشي حتى يصل إلى منتهاه ومستقره، وهناك من يشرب الخمر، والآن لو تحدثنا عن الخمر المسكر، الناس أحدثوا من المسكرات ما هو عجيب في الحياة، مسكرات كثيرة لكن هل هي تخرج عن الحكم؟ الصور تختلف، واحد يسكر بهذه الطريقة ولكنه مسكر، (كل مُسكرٍ خمر) وانتهى الموضوع.

الله عز وجل: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ لما تقدم من الخلاف في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، وقلنا: بعضهم قال: اليهود، وبعضهم قال: النصارى، وبعضهم قال: المشركين، هذا الخلاف الذي تقدم في الآية يعود إلى هنا، من الذين قالوا ومن الذين قبلهم؟ من الذين قالوا؟ الذي يميل إليه القلب وقال ابن جرير هنا لما تقدمت به الآية: المقصود به النصارى، أي النصارى قالوا مثل قول اليهود في أتخذ الله ولدا وطلبوا آية، كما أنهم هم الذين قالوا، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، أي مازال الخطاب لهم النصارى.

والذي يرجح ابن كثير ويسرد له الأدلة على عادته عليه رحمة الله في نصرة هذا القول خاصةً عندما يخالف إماماً كابن جرير، رأيت نفسًا في ابن كثير رحمه الله لما يخالف ابن جرير يُكثر الأدلة ويستفصل، وهذا يفيد طالب العلم، فيه إفادة، أنه إذا أختلف العلماء خرجت علومهم، وخرجت أفهامهم، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، هنا المشركون، وضرب لذلك الأدلة لهذا الأمر، ذلك لأن المشركين ساروا على سنن، المقصود بمشركي قريش، ساروا على سنن السابقين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فطلبوا، ثم قال تعالى بأنهم قالوا: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣]، بعد أن طلبوا المطالب العجيبة كما في سورة «الإسراء»، قال بعد كل هذا لا نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابًا نقرؤه، المقصود من هذا كان المشركون يطلبون ما طلبه وما حدث مع الأمم السابقة من اليهود والنصارى، لبلوغ مراتبهم.

فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي المشركون هنا ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، من قبلهم؟ اليهود والنصارى، والأقرب لهم هم النصارى، الأقرب زماناً والأقرب معرفة، المشركون أقرب معرفة لليهود من النصارى، يعرفون اليهود لأن الجزيرة العربية أقرب الناس إلى قريش ذكراً من أهل الكتابين هم اليهود، النصارى أبعد، وإن كانوا يعرفون دين النصارى، لكن الأقرب لهم اليهود في المدينة المنورة أو يثرب قبل المدينة، فلذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي المشركون، كما هو قول ابن كثير، ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

وهنا وقفة مهمة جداً مع القرآن ويعني تحتاج إلى شيء من البيان اليسير وهو أن كل الأمم طلبت آيات، والله عز وجل كان يعطيهم الآيات ولكن يجعل مع العطاء شرط الإيمان فإن لم يؤمنوا سحقهم

واستأصلهم وأبادهم، وهذا بيّن كما في طلب الحواريين، فإن الحواريين طلبوا أن يُنزّل الله عليهم مائدةً من السماء، قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾ [المائدة: ١١٤-١١٥]، اختلف أهل العلم في هذه الآية تقدمةً وإسراعًا لما نحن في الباب، هل أصروا عليها أم خافوا فلم تنزل؟ المائدة هل نزلت أو لم تنزل؟ فهناك من يرجح أنها لم تنزل وأنهم خافوا منها فقالوا: لا نريدها، وهذا رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في «أضواء البيان»، وهناك من قال: نزلت، ونأتي إليها إن شاء الله بالتفصيل عندما نأتي إلى الآية إذا أحيانا ربنا عز وجل ووفقنا.

فلذلك كان السابقون يطلبون الآيات، فإذا لم يهتدوا استأصلوا، هذا كما طلبوا الناقة، طلبوا آية من السماء فلما جاءتهم الناقة فقتلوها فالله عز وجل استأصلهم وأبادهم، فكان هؤلاء أهل قريش يطلبون الآيات، النبي صلى الله عليه وسلم لم يستجب لهم لتعليم الله عز وجل له، بأن هذا من التعنت، يعني كان يقع في قلب النبي صلى الله عليه وسلم كما يقع في قلب كل إنسان يحرص على إيمان قومه، أنهم لو طلبوا آية فهو من ظنه صلى الله عليه وسلم أنهم يطلبونها من أجل الإيمان، وأنهم علقوا الإيمان حقيقةً أنه لو جاءت آية لآمنوا، هكذا يقع في قلب كل مصدقٍ لكلامهم، فالله عز وجل علم النبي صلى الله عليه وسلم أن طلب الآيات إنما هو من باب التعنت، ومن باب الهروب من إلزام الحقائق، ولذلك نجد وهذا يحتاج إلى استقصاء ولقارئ أن يقرأ الآيات لكني سأكتفي ببعض الآيات في هذا الباب، كيف رد الله عز وجل على طلبهم الآيات، كيف كان يرد الله عز وجل؟ سأذكر مثالين، مثالاً من سورة «الأنعام» ومثالاً من سورة «الحجر»، وكل القرآن على ذلك في إجابته أي رده على قريش في طلبهم الآيات، هم كانوا يقولون أحضر لنا آية فنسلم، والقرآن يقول: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، أي لو فتح باب من السماء وصعدوا وخرجوا إليها فسيقع.

وسورة «الأنعام» في الحقيقة هي سورة التوحيد وسورة المناظرة، بيان ما عليه نفوس المشركين من أعظم سور القرآن في بيان التوحيد وبيان المناقضين له، وما يدور حول رفض الإيمان به وما يتعلق بشروط الإيمان

به أكثر سورة فصلت في هذا تفصيلاً خاصاً بعيداً عن الأحكام هي سورة «الأنعام»، ولذلك هي مرجعٌ قرآني، سورة «الأنعام» مرجع قرآني، بمعنى أن القرآن كان يعود إليها، مثلاً: في سورة «النحل» لما ذكر الله عز وجل قضية ماذا حرم على بني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النحل: ١١٨]، أين تجد هذا؟ في سورة «الأنعام»، فسورة «الأنعام» ركنٌ قرآني في هذه القضية.

القصد من هذا: بأن الكفار يطلبون الآيات، لو أنه جاء عند أناس وقالوا له: أذكر لنا آية ونحن نتبعك، القرآن يقول له: لا تصدقهم، فقد مضى الناس على هذا السبيل فكذبوا ومثل هؤلاء، مثلهم تشابهت قلوبهم سيكذبون، وإذا جاء وطلبوا الآيات ثم جاءت حينئذٍ ليس هناك إلا الهلاك، ولذلك كان الله عز وجل يطمئن النبي صلى الله عليه وسلم لا تهتم بهم، هؤلاء كذابون، لأن الإنسان قد يقع في قلبه شعور التقصير أنه مقصر حيث لم يستطع أن يقنع الخصم، يقع في قلبه ربما بتقصير مني، ربما لم أبلغ في الأداء، فالقرآن طمئن النبي صلى الله عليه وسلم، هؤلاء هم هذا شأنهم ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، هذا هو شأنهم يعني هذه هي البشرية، هكذا حدث مع الأنبياء من إخوانك السابقين، هكذا كان، فأنت أبلغت ولم يبق هناك لهم أي حجة، بل كما قال في سورة «الأنعام»، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، بمعنى أنهم لو وقفوا على النار يوم القيامة ورأوها ثم أصابت منهم ونفحتهم فعادوا إلى الدنيا سيعودون للكفر، هذا من الكبر والغرور والتعنت ما لا يمكن أن يتصوره المؤمن.

كشف القرآن لحقائق الكافرين هذه من أعظم مهمات القرآن، المشكلة فينا لم نهتدي بهذا النور الإلهي القرآني، نحن إلى الآن نشعر أن الكفار يمكن أن يكونوا معنا لأننا عجزنا في جوانب البيان والإيضاح لهم، هذا غير صحيح، أنت لعلك باخع نفسك، لا تهلك نفسك إن لم يؤمن هؤلاء القوم، لا تهلك نفسك بهذا.

نرجع إلى القضية، انظر كيف رد عليهم القرآن، وهذا الذي نذكره من المثالين شامل لكل مواطن ذكر طلب الآيات في القرآن، هذان المثالان مما سأذكرهما شاملٌ لكل آيات طلب الآيات، يدخل فيه ويتنوع طلب الآيات، ولكن الجواب يكون على طريقتين، غير الطريقة التي ذكرناها وهي طريقة أنهم كذابين لا

تطعهم، ولا تنتبه لهم، وكما ذكرنا قوله تعالى: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)﴾ [الحجر: ١٥]، خلاص لا تذهب نفسك عليهم حسرات.

الطريقة الأولى: هي التي كما في سورة «الأنعام» قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: ٣٧]، لما طلبوا الآيات ماذا قال الله؟ ماذا رد عليهم؟ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)﴾ [الأنعام: ٣٧-٣٨]، ما الذي يريده القرآن في مثل هذه الجمل بعد طلب الآيات، أن الآيات عند الله ثم بعد ذلك جاء بذكر هذه الآيات الكونية، يعني قوم عجزوا أن يروا هذه الشمس تشرق، من قدر أن يشرق الشمس من المشرق كل يوم هذه الآية العظيمة، وتغرب من المغرب يعني عاجز أن يجعلها تغرب من المغرب إلى الشرق، فمن عجز عن رؤية هذه الآية سيكون أعجز لما يقع من غيرها، سينكر.

فالقرآن يقول لهم: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ﴾، هذه الآيات ألا تكفي أن تدل على عظمة الله، ما هي الآية التي هي أعظم من ذلك؟ انظر، هذه الطيور التي تجري في السماء في تنوعها وهي خلاف ما تمشون به، يعني نحن نمشي على الأرض وهناك ما يشدنا إليها ولا نستطيع أن نطير، فخلق الله عز وجل ما يطير، وهو لو جرى على معنى منفرد واحداً لكان آية وإعجازاً، يعني لو أننا علمنا أن السنة الجارية أن لا يكون هناك ثمة خلق في الوجود إلا وهو يمشي على الأرض، فجأةً وإذ نطلب آية فيقول: الآية أن أجعل من يمشي على الأرض ولا يقدر أن يطير أن يجعله يطير، فحينئذٍ يكون الانفراد آية ومعجزة، فكيف لو جرى هذا على معنى طائرٍ كامل وخلقٍ كامل، هو آية أعظم، يعني ما الأعظم أن يجري على معنى أن يكون مرةً واحدة، أو على أن يجري على جريان السنن في ذلك؟ فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، فذكر سبحانه وتعالى تنوع الخلق، فهذه أعظم آية، ما الآية التي تطلبونها أكثر مما ترونه؟! أنتم تطلبون على خلاف ما تعلمون، والذي يجري معكم وفي النهاية هو شيءٌ يدل على قدرة الله عز وجل كما هو دالٌ على قدرة الله عز وجل عند وقوع الإعجاز، وعند وقوع الشيء الْمُعجز الذي لا يتكرر، فهذه طريقةٌ أولى، وهي التنبيه على الآيات الكونية التي تحضر على الإنسان وهي

دالة على عظمة الله عز وجل وقدرته، فمن عجز أن ينظر إلى هذه الآيات المطّردة في الخلق هو عاجر أن ينظر إلى الآية الواحدة.

الطريقة الثانية: وهي طريقة سورة «الحجر»، في سورة «الحجر» طلبوا أن ينزل عليهم آية، فماذا رد عليهم القرآن؟ رد عليهم القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر: ٩] في الأولى بيان لقضية قدرة الله عز وجل في الخلق والتكوين، وهذا بيانٌ لمعجزٍ عظيم وهو القرآن، ألا يكفيكم أننا أنزلنا هذا القرآن، ما هي الآية التي تطلبونها أعظم من أن ينزل مع النبي هذا القرآن ليدل على أنه صادق، ما الذي تطلبونه؟! هل هناك معجزةٌ كونية أعظم من هذا الإعجاز، أن ينزل كلام الله عز وجل عليه فيتلوه وأنتم تقرؤونه وأنتم أئمة البيان وأئمة الكلام وأصحاب سحر الكلام، وثم بين أيديكم مادته من الألفاظ، ألف لام ميم طاء سين ميم ثم تعجزون أن تأتوا بمثله، هذه آية.

فإذن كل المطالب التي وردت في القرآن من قبل المشركين لصدق الأنبياء تدور حوله، بيان أنه قد سلف أن أنزل عليكم هذا، فلم تهتدوا فهذا طلب أسيادكم وأمثالكم من البشرية وأنتم على سننهم تمشون وتسيرون، قد طلبوا فلم يهتدوا، وأما الأمر الثاني فتريدون الآيات، هذه الآيات الكونية بينكم، هذه الجبال هذه الشمس هذه القمر هذا إنزال الماء، هذه آيات تدل على عظمة الله عز وجل وقدرته، والثانية بيان هذه الآية المعجزة العظيمة، فأعظم معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ما هي؟ القرآن الكريم، فمن غفل عن رؤية القرآن الكريم وإعجازه سيكون غافلاً عن أكثر منه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، انظر، الإنكار وقع منهم على صور متعددة، أولاً: أرادوا ملكاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤)﴾ [الإسراء: ٩٤]، يريدون ملك، ولا يتم إقامة الحجة بالملك، لأنه لو جاء ملك سيقولون هذا ملك نحن نريد بشر كيف نفعل فعله؟ لو أن الملك جاء فصام وحج واعتمر وصلى، يقولوا: هذا ملك، خالٍ من الشهوات، فإقامة الحجة تكون بالبشر لا تكون بالملائكة، انظر إلى تعنتهم، والله عز وجل لم يستجب لهم، وبين أنهم كَذبة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا

عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)﴾ [الفرقان: ٢١]، انظر الرد الإلهي، ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، أي عند نزول الملائكة بالعذاب، حينئذٍ أنتم ترون الملائكة لكنكم ترونهم في اللحظة الأخيرة، التي يكون فيها الهلكة والعذاب وعدم قبول الإيمان، فهؤلاء ارتقوا في هذا كله وقالوا من مطالبهم أن يكلمهم الله، طلبوا أن يكلمهم الله مباشرة، لا يريدون وسائط، أن يكلمهم فيدعوهم إلى هذا الأمر.

والله عز وجل يمتحن العباد، الله عز وجل لم يخلق الخلق من أجل أن يؤمنوا بقدرةٍ قدريةٍ لا يردونها، الله عز وجل لم يجعل البشر على هذا المعنى، لو أراد هذا لاكتفى بالملائكة، لو أراد الله عز وجل عز وجل من البشرية أن تؤمن كلها بلا امتحان لخلق الملائكة فقط، والملائكة يطيعونه ولا يعصونه ويفعلون ما يؤمرون، فالله عز وجل أراد من هذا البشر أن يؤمن بالغيب، أراده أن يؤمن من خلال الدلائل على الإيمان لا بالرؤية والبصر، فهذا هو إيمان الابتلاء وإيمان الامتحان، فهم أرادوا إيماناً لا يتعلق، قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٨]، نريد أن نرى الله جهرة، ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، نريد أن يكلمنا الله ويخاطبنا مباشرة، سقط التكليف، التكليف إنما يكون بالابتلاء، أن يكون لك إما أن تتبع الحق الذي ظهرت دلائله، وإما أن تكفر بالحق بعد ظهور دلائله، فهذا النبي قد ظهرت دلائله أنه رسول الله فما الذي بقي لكم؟! قالوا: نريد أن نتكلم جهرة مع الله أن يكلمنا الله ونتكلم معه، فحينئذٍ لو وقع هذا لانتهت القضية، انتهت قضية الابتلاء، لِمَ يعطيك الجنة إذن؟! لِمَ تدخل الجنة؟! بأي شيء تدخل الجنة، ما الذي فعلته؟ ما الذي يتميز الناس فيه إذا رأوا بقرة؟ كلهم شهدوا أنهم رأوا بقرة، ما الذي يتمايز فيه، كلهم رأوها وكلهم شهدوها وكلهم شهدوا بهذه الرؤية، ما الذي ميز هذا عن هذا؟ ما الذي ميز هذا الإنسان عن الدابة، الدابة لو أخبرتها أن وراء هذا البيت يوجد برسيم اذهبي فكليه؟ هي لا تصدقك، هي لا تؤمن إلا بأن ترى البرسيم أمام ناظريها فتلغ فيه أكلة، فما الذي لا يفرق المؤمن عن الكافر إذن؟ المؤمن لأنه يؤمن بالغيب، الله عز وجل أخفى عنا أموراً في الغيب، وأقام لها دلائلها وأقام لها شواهدها وعلمنا أخباراً بها من أجل أن يبتلي قلوبنا بالتصديق أو التكذيب، من أجل أن تكون الجنة لها ثمن قد قدمه العبد، وهو نجاحه في الاختبار.

وانظر إلى وصف الله عز وجل بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهذا على جهلهم، وهؤلاء لا يعلمون عظمة الله عز وجل، هؤلاء لا يعلمون لما خلق الإنسان، ولا يعلمون مقصد خلق الله عز وجل في

الإنسان أنه للابتلاء، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، فقط للذكر من دلائل الاقتران هنا أن كليهما ممكن، كلام الله لعبده ممكن ولا غير ممكن؟ ممكن وقد كلم الله أنبياؤه أو بعض أنبيائه كلم موسى تكليما، ومحمد صلى الله عليه وسلم كلمه الله، لما أمره بأن يخبر أمته بالصلوات فكلمه جل في علاه، ولذلك هذا أن تأتي آية ممكنة، ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾، ممكن، كلاهما ممكن، ولكنه مناقضٌ لحكمة خلق الوجود الإنساني القائم على الابتلاء والامتحان بالإيمان بالغيب.

فقال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾، والأشبه لا يعلمون هو بهؤلاء ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ولذلك هي تؤيد كلمة ابن كثير ولو رأيتم لوجدتم فيها سراً أنها تعني ما قاله ابن كثير يعني بمن؟ بقريش، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ هي الأقرب إلى وصفه لهم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، هم جاءتهم الآية، فأكبر آية كتاب الله، ولكن هذا الذي وقع منهم، ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي من اليهود والنصارى، والأقرب أنهم اليهود والنصارى في هذا ويبينوا ما هم فيه، ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، طلبوا أن يكلمهم الله وطلبوا الآيات وهكذا وقع، فقال الله عز وجل: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، لما بيّن تشابه القلوب والحال الإنساني فدل على أن الحكم واحد، هو يريد أن يقول: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي بالشر، تابع هؤلاء بدل أن يقتدوا بمن هو حسن وأن يقتدوا بمن هو ممدوح في هذا الوجود من قبل الله ولكنهم تابعوا الباطل، ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، يريد أن يقول الله عز وجل هؤلاء السابقين في الشر فحكمهم حكمهم، ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الشر في متابعة الباطل بالباطل، قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ [الذاريات: ٥٣]، القرآن يقول لم يتواصوا به، أي مشركون قريش هل أوصاهم اليهود بأن يطلبوا هذه المطالب؟ لا، هكذا هو الإنسان، هذا هو تعنت الإنسان عندما يكفر ولا يتبع الحق.

قال تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾ [البقرة: ١١٨]، على ماذا يفيدك قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ على ماذا يفيدك؟ على ما تقدم؟ تفيد أن الآيات عظيمة، أن الله عز وجل أعطى هذه الآيات، هم يطلبون ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، هم طلبوا، والقرآن يقول: أعطيتكم الآيات على ما تقدم ذكره مما مثلنا له في سورة «الأنعام» وسورة «الحجر»، قد بيّنا الآيات، يعني أنتم أُعطيتم كل هذه الآيات، لكنها هذه الآيات لا ينتفع بها إلا الموقنون ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾، الآيات واضحة جيدة ولكن من يراها؟ ومن هنا لا يكفي أن يكون الشيء موجوداً ليكون حسناً من رآه

ولكن أن يؤمن به، وقد يكون الشيء موجوداً فلا يراه الناس فهذا يعود بالسيء على من لم يرى وليس على الشيء، الآيات بينة واضحة، ولكنها لا ينتفع بها إلا كما قال الله عز وجل: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾، واليقين هو شدة الإيمان وبصر المرء به.

وأما موقع هذه الكلمة ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾، واليقين ما هو؟ اليقين هو درجة من درجات الإيمان، وإذا علا الإيمان صار يقيناً، واليقين يقع إما كما قال علماؤنا: إما بعلم اليقين وإما بحق اليقين وإما بعين اليقين، وحق اليقين يكون فوق الرؤية، فهؤلاء ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، هذه الآيات رأوها في دلالتها شاهدة على أن الرسول حق وشاهد على أن الله عز وجل حق وعلى صفاته أنها حق، كأنهم ماذا؟ كأنهم رواؤها، فالشيء لا ينبغي فقط لتثبت وجوده أن تراه، فقد يكون أثره في الدلالة عليه أشد من رؤيته، قد تكون الآيات الدالة على الشيء معطي لمعاني أعظم من رؤيته، فالله عز وجل قال: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وقع منهم العلم بالآيات وبدلالة الآيات حتى وصل لدرجة اليقين كأنهم رأوا، وذلك ما يذكر عن علي رضي الله عنه، قال: «لو رأيت الغيب ما ازددت يقيناً»، قال تعال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أي أنهم رأوا الآيات فوقعت منهم هذه الرؤيا على معنى اليقين التام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾ [البقرة: ١١٩]، نقف هنا إن شاء الله إلى الدرس القادم بارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين وجزاكم الله خير الجزء.

الأسئلة

السائل: كيف نفسر هذه الآية للملحدين؟

الشيخ: أولاً أيها الإخوة الأحبة بلا شك نحن نتكلم عن إلحاد الذين ينكرون الله، هذا مفهوم الإلحاد المعاصر، وإن كان الإلحاد في المفهوم الشرعي واللغوي أوسع من ذلك، لكن هذا المصطلح اليوم يُطلق على من أنكر وجود الله، والحقيقة هؤلاء يكذبون على أنفسهم، واحتاجوا إلى زمنٍ طويل ليطوعوا أنفسهم لتقبل الإلحاد، يعني الإلحاد تنكره النفوس لأنه مخالفٌ للفطرة، ولذلك القرآن لم يتحدث عن وجود الله عز وجل، لأنها قضيةٌ فطرية لا يستطيع المرء دفعها، لا يستطيع، ولا يوجد أحد في الوجود أنكر هذا الإله، هذا الخالق لا يوجد، وكل من أنكره أثبت خالقاً أي إلهاً آخر وربًا آخر، فقضية إثبات الوجود الإلهي قضيةٌ فطريةٌ كامنةٌ في النفوس لا يستطيع المرء ردها، إذا قررنا هذا وفهمناه حينئذٍ نعرف كيف نتعامل معهم.

ومن هنا فالصواب أن الإلحاد هي ظاهرة مرضٍ نفسي ليس مسألة عقلية، أي ليس مبعث الإلحاد هو انحرافٌ في النظر والفكر والعقل، وليس هو لأنه قام بمقدمات خطأ فوصل إلى نتيجةٍ خطأ، لا، الصواب أن الإلحاد هو مسألةٌ نفسية، ولذلك بعض أهل العلم المعاصرين سماه خرافة الإلحاد، والأغلب أن الإلحاد المعاصر اليوم هو يقوم على موضة، خلاص موضة صارت، الناس كرهوا الدين ما يريدون الدين، فبدل أن ينسبوا لأنفسهم الضعف والجهل فذهبوا إلى هذه القفزة الكبيرة في إنكار وجود الله، مع ذلك مع هذه المقدمة المهمة في بيان عليك أن تعلم من الذي أمامك وكيف يفكر أنه رجلٌ معاند وأن مسألته نفسية لا تعود إلى خطأ عقلي.

أما قضية مناقشته في هذه الآية الأصل أن تبدأ معه بعيداً عن هذه الآية، لكن هذه الآية تفييدك، تكشف لك نفسيته وتكشف لك تعنته وتكشف لك أنك ستتعب معه إلى أن يهديه الله، ولكن الأصل أن تبدأ معه بالمقدمات، المقدمات في هذه القضية وهذه طرق علمية لها رجالها في قضية إثبات وجود الله عند المنكرين، ولا يوجد إلا طريقة واحدة هي طريقة العربي القديم، البعرة تدل على البعير، هذه هي أذهب انظر ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، يعني مهما بلغ الناس في عبقرية الأداء ضد الملحدين في النهاية سيقولون

ما قاله هذا العربي ولكن الأدوات تختلف، ذلك العربي مسكين نظره لهذا فقاله، اليوم نحن عندنا علم الذرة وعندنا علم الالكترونيات وعندنا علم الفلك، فنستخدم الآلات ولكن القاعدة واحدة، فهذا الذي نقوله، أما أن نبدأ معه في إثبات الآيات القرآنية قبل أن نثبت له الربوبية، ونثبت له الرسالة، فهذا شيءٌ لا يعرفه، خاصةً أن أعظم قضية أو أعظم معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم في إثبات صدقه هي القرآن، وللأسف اليوم الناس لا يعرفون اللغة ولا يحسون هذه الذائقة القرآنية في أنفسهم، وفي الحقيقة لو سلم المرء حتى الجاهل في العربية سلم نفسه لهذا القرآن سيحس ثقله وعظمته على قلبه وأثره وهذا مشهود له.

ولما ذكر السيد قطب رحمه الله لما كان مسافراً لأمريكا وهذه القصة نذكرها كثيراً وإن كان وقع أمثالها الألاف منها: أنه قام يخطب الجمعة اختاروه خطيباً، مسلمون في السفينة، فاختاروه خطيبًا فهو قام يخطب، فكان يخطب ويقرأ الآيات فجاءته امرأة لا تعرف العربية وأخبرته أن هناك فقرات فيما كنت تقول أحس فيها شيئاً عجيباً، فلما قرأ عليها وإذا هو القرآن، تحس بأثر القرآن في نفسها وهي لا تعرف العربية، شيءٌ يعرفه الناس، يعني الآن لما تقول: ﴿وَالْفَجْرِ (١)﴾ [الفجر: ١]، والآن أحضر لك شعرًا، وأنت لا تعرف البلاغة ولا تعرف اللغة، ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)﴾ [الفجر: ١-٣]، والآن نقرأ لك شعرًا، لو نقرأ مطلع هذه من قصائد المعلقات لزهير بن أبي سلمة:

أَمِـــــن أُمِّ أَوفى دِمنَـــــةٌ لَم تَكَلَّـــــمِ بِحَومانَـــــةِ الـــــدُرّاجِ فَـــــالمُتَثَلَّمِ

كيف تراه؟ أغمض عينيك وأسمع الآية وهذه:

قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)﴾ [الفجر: ١-٣].

وشعر امرؤ القيس

مِكـــــرٍّ مِفَـــــرٍّ مُقبِـــــلٍ مُـــــدْبِرٍ معًـــــا كجُلمـــودِ صـــخرٍ حطّـــه السـيلُ مـــن عـــلِ

ما رأيك؟ أنت فقط أغلق عينيك وانظر إلى ثقل هذه الكلمات على قلبك، على بدنك، على قشعريرة جلدك، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ١-٤]، انظر وأحضر كل شعر الشعراء وبلاغتهم وما قالوا، ولذلك دافع الناس عن قصيدة امرؤ القيس، عبد القاهر الجرجاني عليه رحمة الله، لما جاء إلى دلائل الإعجاز فجعل يقارن بين

الآيات وبين شعر أمرؤ القيس، فطبعاً فرق، فرق بين الثرى والثريا، وفضل كلام ربنا على كلام غيره كفضل ربنا عز وجل على خلقه، فضل الصفات كفضل الذات، طبعًا الشعر طلع ملل ولا قيمة له، فجاء الشعراء الذين ينتصرون للشعر العربي، وقالوا: ليست هكذا المقارنة، أنت بهذا أسقطت قيمة الشعر العربي جعلته تراباً لا قيمة له، لأن هذه معادلة لا تستقيم، فلذلك جاءوا ينتصرون لشعر امرؤ القيس أن الشعر العربي غني وعظيم، يعني أنهيت قيمته لما قارنته بالقرآن، فجعل يعدد مثالب الشعر حتى أسقطه، طبعاً مثالب الشعر مقابل الآية لا تستقيم، فقال له: هون على الناس، فانتقدوا هذه الطريقة منه، عليه رحمة الله.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع والثمانون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الرابع والثمانون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة»، ووصلنا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾ [البقرة: ١١٩].

المعروف أيها الإخوة الأحبة أن كل قراءة رواية، فهذه الآية فيها قراءتان، ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ على معنى الخبر ﴿وَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، بالأمر أن الله عز وجل يأمره، وهذه لها معنى وهذه لها معنى، ومعاني متعددة لا نقول مختلفة، نذكرها إن شاء الله في الذكر، لكن هذه الآية القرآنية ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، هذه تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم، النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أنه على الحق، ولكن التكرار مهم، وهذا الخطاب الجليل من الله عز وجل بضمير الْمُخاطب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يدل على تشريف قدر النبي صلى الله عليه وسلم، لم يقل له: إن الله أرسلك بالحق بشير ونذيرا، بل قال سبحانه وتعالى له: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾، فكأن الخطاب هو خطاب مشافهة، يشافهه ويكلمه، وهذا تعظيمٌ لشأن النبي صلى الله عليه وسلم، لأن المقام هو مقام تسلية كما سنبين، يسلي قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

والأمر الآخر أن الله سبحانه وتعالى خاطبه بخطاب العظمة، ضمير العظمة، ضمير الجمع، ما قال: أنا أرسلتك، بل قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾، فهذا خطاب العظمة الإلهية، فهو خطاب العظمة المبيّن لعظمة الْمُخاطِب وتبيّن شرف الْمُخاطَب، تبيّن هذه الآية بهذا الاستفتاح العظيم بعد أن ذكر قضايا اليهود وشأنهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وماذا يقولون وكيف أنهم يكفر بعضهم بعضًا ويلعن بعضهم بعضًا، ومن أجل ما يأتي في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى﴾، فقدم التسلية عن التيئيس، لأن الآية التي بعدها ﴿وَلَنْ تَرْضَى﴾،

هذه تيئيس، ولما كان المقام مقام تيئيس فلابد أن يمهد له في مقام التشريف والتعظيم والتأنيس، فقال له: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

وهذه الآية عند بعض أهل العلم هي مقدمة لما سيأتي كذلك من تغيير القبلة، وهذه تكلمنا عنها في دروسٍ سابقة بأن الله عز وجل يمهد للشأن الذي يريده إذا كان عظيمًا، فهنا ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾ هي عند بعض أهل العلم كما تقدم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، كلها مقدمات في قضية تغيير القبلة، وهذا يدل على أن قضية تغيير القبلة هي قضية عظيمة في دين الله عز وجل، ومنها أن الله عز وجل أراد لهذه الأمة الاستقلال وعدم المتابعة، والنبي صلى الله عليه وسلم في بداية الأمر كان يحب متابعة أهل الكتابين؛ من أجل أن يستدرج هؤلاء إلى الدين وللإيمان أن المشكاة واحدة، فلماذا لا تتبعوني؟ فالله عز وجل أراد أن يقطع هذا عنده، وهذا القطع ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾.

ولذلك قدم هذا التيئيس بالتأنيس، وهذا هو شأن القرآن معه، كما في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، انظر لم يبدأ بالعتاب، بدأ بالعفو، ليأنس القلب ثم يقع بعد ذلك العتاب، التأنيس أولاً وهذه من تعليمات القرآن وفقه القرآن أنك إذا كنت تحب المرء ولا تريد أن تفقده ولكن بينك وبينه من الأمور التي ينبغي فيها المراجعة والحديث، فقدم بين يدي نجواك كلاما طيباً، كما أمرنا الله عز وجل أن نقدم بين يدي نجوى النبي صلى الله عليه وسلم صدقة، فإذا أردت أن تحدث رجلاً حديثاً عن أمرٍ يتعلق بالحقوق وسيقع فيه المراجعة فقدم في حديثك من شأنه وفضله وليس هذا من النفاق، وليس هذا من غريب الفعل، بل هو من شأن القرآن ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾، انظر، آنسه ورفع عنه الإثم ورفع عنه الحرج، ثم قال ربنا جل في علاه: ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾، هذا هو شأن النبي صلى الله عليه وسلم عند الله سبحانه وتعالى.

ولذلك قبل أن يقول ربنا جل في علاه: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾، قال ربنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾، أولاً: هذا شأنٌ رباني، الله عز وجل هو الذي أرسلك لهم، وهذه العلاقة هي أنك تحمل الحق، فإياك أن تشك حين يأتي أهل الكتاب رادون عليك ولا يتبعونك؛ فيقع في قلبك الحزن، فمرات الحزن يؤدي إلى التردد، الحزن مرات على شيء يقع فيه التردد، يقع فيه المراجعة، فالله عز وجل أراد أن يثبت قلب النبي

صلى الله عليه وسلم وأراد أن يعطيه المدد من أجل تثبيته على ما سيأتي به من الخلاف الشديد بينه وبين أهل الكتاب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾.

وانظر إلى هذا التأكيد الإلهي في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾، وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، هذا القرآن جاء بالحق، ولا يكفي أن يكون الشيء في ذاته على هذه القوة من الحق، فلابد أن يكون كذلك طريقة حمله حق، طريقة أدائه حق، لا يكفي أن يكون الحق هكذا عارياً بلا قوائم، بل لا بد أن يكون كذلك معه الحق، ولذلك قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾، فبيّن أن طريقة إنزاله وبعد ذلك ما يتبعه من التبليغ، أنه حق محفوظ، ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾، فلذلك الله عز وجل قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، فأراد أن يثبته أن هذا هو تمام الحق الذي جاء به.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، هذه أعظم مهمةٍ للنبي صلى الله عليه وسلم، وللأسف هذه المهمة تجد من التصغير والتحقير من الناس، الآن الناس يهتمون بما يسمى بالفكر، وربما يتحدثون في الجوانب الهامشية عن موضوع الجنة والنار، وعن موضوع الحق، يعني كأننا نريد الآن أن نخجل من أن نقول: بأن الكفار في النار، وأن المؤمنين في الجنة، كأننا نريد أن نصل إلى هذه المرحلة، بل أن بعض المسلمين وصل إليها، ولذلك هم يخجلون من الحديث عن البشير والنذير، أعظم مهمة للنبي صلى الله عليه وسلم أنه بشير ونذير، وهذه تكررت في القرآن، تكررت كثيراً، لا نريد أن نأتي عليها، ولو أتينا عليها وقفنا طويلاً فيها، ولكن من راجع القرآن الكريم وراجع هذه اللفظة البشير والنذير لوجدها مكررةً كثيرًا وكأن مقصد النبي صلى الله عليه وسلم هو هذا، بل هو مقصد هذا، لأن الحديث عن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أجل ما حمله النبي صلى الله عليه وسلم أولاً: هو بيان الحق، ثم ثانياً: ما هي نتائج اتباع الحق والأعراض عنه، فلو أن المرء اتبع الحق أين سيكون؟ أين مصيره؟ وما هي النتائج المترتبة عليه؟ ما هي أعظم النتائج؟ ما هي أجل النتائج في اتباع الحق؟ وما هي أعظم الأمور التي تؤدي إلى عدم اتباع الحق؟ ولذلك قال تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

والبشارة هي الإخبار عن الجنة، والنذارة هي الإخبار عن النار، يعني مصائر الناس في تعاملهم مع الحق، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، ما هي بعد ذلك، هذا الحق ينزل فتخبر به الناس فيكون فمنكم كافر ومنكم

مؤمن، يكون من الناس الكافر فهذا له النذارة، أن تنذر أمره أنه إلى النار، وإذا آمن فتبشره، فالبشارة هي الإخبار عن الخبر الحسن، الإخبار عن الأمر الحسن، عن الحدث الحسن، تبشره، والنذارة هي الإخبار عن الأمر الذي تكرهه النفوس، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم أعظم مهمةٌ له هو بشير ونذير، يبشر وينذر.

والآن أجد حتى أني وجدتها لأناس يعني تعجب أنهم يتبعون الدليل وكذا ويحتقرون مآل المؤمنين!! مثلاً: بحجة أنهم ضعفاء، هل هؤلاء الضعفاء سيكونوا من أهل الجنة؟ نعم، سيكونون من أهل الجنة، هل هؤلاء الذين يتلقون الصناعات من الغرب، هذا الغرب العبقري كما يصورونه الذي اكتشف المصابيح الكهربائية، وصنع السيارات، وتمت الثورة الصناعية على يديه وصعد إلى القمر وصنع القنبلة الذرية، هؤلاء بعبقريتهم يدخلون النار، ويأتي رجلٌ عامي كما وصف بعض أهل الصحراء، بأنه البوال على عقبيه، فيؤمن ويتبع النبي صلى الله عليه وسلم ويكون في الصحراء ليس معه إلا الخيشة ومعه إلا الجمل، وهذا يدخل الجنة وهذا يدخل النار؟ الجواب: نعم.

وسبب كلام هؤلاء الجهلة وهؤلاء الضلال بل أن كلامهم لا يبعد عن الكفر، السبب هو تحقير قضية الإيمان، كأن قضية الإيمان لا قيمة لها، وعندهم أنه إذا كان المرء في نفسه -أنا أتحدث عن الفرد ولا أتحدث عن الجماعة- كأن المرء من شروطه في كونه مؤمنًا أن ينتصر، إما التبعة كالأرذلون، هذه كما تكررت في رد قوم نوح على نوح عليه السلام، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، هذه لا قيمة لها، هذه لا أهمية لها عندهم ولا يقرأون القرآن ولا يفقهون هذه القضية، فالنبي صلى الله عليه وسلم بشر كل مؤمنٍ بالجنة وأنذر كل كافرٍ بالنار.

فقبل أيام هناك واحد وإذ في كلمة له وهو يزعم أنه من أصحاب الفكر الإسلامي والعلم بالشريعة ويتحدث عن السنن الكونية ثم يقول: إذا كان هؤلاء الجهلة المسلمون سيدخلون الجنة وسيدخل هؤلاء العلماء الكفار فأنا أرضى بأن أكون من أهل الأعراف، يعني لا يكونوا مع الكافرين ولا مع المؤمنين، هذه كلمة كفر، هذه يجب أن يراجع نفسه فيها ويتوب إلى الله منها، لأن الإيمان أعظم من كل هذا الأمر، الصحابة رضي الله عنهم عاشوا بلا سيارات وبلا صعود إلى قمر، وبعض المؤمنين من القدماء أرذلون ليس لهم شأن وآمنوا، ومؤمن آل فرعون مستور ضعيف، وهؤلاء أهل الأخدود أُخذوا وقتلوا ولم يستطع أحد أن

يدافع عن نفسه ولا أن يرمي عدوه في النار، بل هو رُمي في النار، وهكذا تمضي محنة الإيمان، ولذلك يجب النظر إلى عظمة الإيمان، قال الله عز وجل: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥]، هذه الأموال ماذا يريد منها ربنا جل في علاه، لو جاء الناس كلهم يوم القيامة بأطنان الذهب، ماذا تنفعهم؟

وفي الصحيحين قال صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللَّهَ يقولُ لأهْوَنِ أهْلِ النَّارِ عَذابًا: لو أنَّ لكَ ما في الأرْضِ مِن شيءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: فقَدْ سَأَلْتُكَ ما هو أهْوَنُ مِن هذا وأَنْتَ في صُلْبِ آدَمَ، أنْ لا تُشْرِكَ بي، فأبَيْتَ إلَّا الشِّرْكَ)، طلبت منك أن تقول: لا إله إلا الله، أن توحدني، هذا مفتاح الجنة، إذا واحد مغرور بقليل من الأبنية وقليل من القوة وقليل من المكر في هذه الدنيا والانشغال، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨)﴾ [الإسراء: ١٨]، فهؤلاء أرادوا الدنيا أن يبلغوها، الله عز وجل هكذا كتب سنته، وقضت سنته أنه إذا أراد الدنيا أخذوها، ولا شك أن هذا من تقصير المسلمين، لكن هذا لا يخرجهم من الإيمان، وهذا من كيد الكافرين، لكن ضعفهم لا يخرجهم من الإيمان.

فلذلك أعظم مهمة للنبي صلى الله عليه وسلم البشارة والنذارة، الناس يحتقرون البشارة ويقولوا: تتكلم عن الجنة تتكلم عن النار، لماذا لا تجعل الحوار حضارياً هكذا يقولون!! يعني ماذا نقول للنصارى؟! أنقول لهم: الخلاف فكري!! ماذا نقول للملحدين؟ الخلاف فكري!! هكذا!! واختلاف وجهات نظر!! فقط هذا!! هذه نسبية الحق المجرمة التي سرت بين المسلمين في أن الحق يمكن أن يكون معهم، نسبية الحق، والله عز وجل هنا يقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، فدل على أنه لا يوجد في الوجود حق إلا ما جاء به رسولنا صلى الله عليه وسلم، لا يوجد، وكل حقٍ في الوجود بلغه نبينا صلى الله عليه وسلم لنا، كل حق، فهذا نفيٌ لقضية نسبية الحق، فلذلك من أعظم مهمات النبي صلى الله عليه وسلم ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أن يخبر الناس أين مقركم في الآخرة ومن لم يفعل ذلك فهو خائن للناس.

فالشيخ الذي يقف عند المشركين عند الآخرين من غير المسلمين فيهون عليهم ما هم فيه ولا يخبرهم بخطر مآلاتهم بعد الموت، هذا خائن لهؤلاء القوم، وهو قبل ذلك هو خائن لكتاب الله عز وجل لأنه لم يبلغه، فلذلك على الناس أن لا يتفلسفون، هذه الجنة والنار ليست بأيديكم، أنتم لستم خُزان للجنة على منوالكم، هذا رجل نعم كان مفكراً جيداً يدخل الجنة، هذا رجل كان بليداً يدخل النار، ليست بيدكم، مفتاح الجنة «لا إله إلا الله»، ومن لم يقلها إلى جهنم مهما كان شأنه، عبد الله بن جدعان التيمي سألت عنه عائشة رضي الله عنها، قالت رضي الله عنها: يا رَسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعانَ كانَ في الجاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ المِسْكِينَ، فَهلْ ذاكَ نافِعُهُ؟ قالَ: لا يَنْفَعُهُ، إنَّه لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لي خَطِيئَتي يَومَ الدِّينِ)، مع أنه كان يقري الضيف ويعين على نوائب الدهر وله مقامات من الإحسان للناس والمنفعة والعطاء والكرم، ما لم يبلغه هؤلاء، وهؤلاء يصنعون أجل أن يأخذوا الأموال، هم أرادوا الدنيا هم، لماذا صنعوا هذه الأشياء كلها؟ من أجل أن يشتروا الأموال، لم يريدوا الآخرة، فبالتالي كيف يعطونها!!

فلذلك ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، يجب علينا أن نتذكر هذه القضية، علينا أن نبشر الناس بما بشرهم الرسول صلى الله عليه وسلم، نبشر المصلي، نبشر المزكي، نبشر المجاهد، نبشر الحاج، نبشر الذاكر، نبشر الذي يقوم الليل، قائم الليل، صائم النهار، نبشر الذي يحسن لجاره، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]، هذه أتمنى من الخطباء أن يتفرغون لها، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)﴾ [الأنعام: ٥٤]، فكل من عمل صالحٍ يبشره النبي صلى الله عليه وسلم بشر أبا يحيى وقال: ربح البيع أبا يحيى، وبشر النبي صلى الله عليه وسلم أبو طلحة، وأصبحَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فدعا بلالًا فقالَ: (يا بلالُ بما سبقتَني إلى الجنَّةِ ؟ فما دخلتُ الجنَّةَ قطُّ إلَّا سَمِعْتُ خَشخَشَتَكَ)، وأمنا عائشة رضي الله عنها أخبر ماذا لها، وأمنا خديجة ضي الله عنها أخبر ماذا لها، كان يخبر العمل الصالح، والرجل الذي كان يفتتح قرأته في الصلاة بسورة الإخلاص، فقالَ صلى الله عليه وسلم له: (يا فُلانُ، ما يَمْنَعُكَ أنْ تَفْعَلَ ما يَأْمُرُكَ به أصْحابُكَ، وما يَحْمِلُكَ علَى لُزُومِ هذِه السُّورَةِ في كُلِّ رَكْعَةٍ) فقالَ: إنِّي أُحِبُّها، فقالَ: (حُبُّكَ إيَّاها أدْخَلَكَ الجَنَّةَ)، البشير.

والكفار أين أنتم؟ في النار، ولذلك سيأتي حتى عندما سئل عن أبيه، قال: هو في النار، للأسف والكثير من العلماء لا يرضون هذا وكأنهم تعجبوا أن يكون والد النبي صلى الله عليه وسلم في النار، قال أين أبي؟ قال: (في النار)، قال: وأبوك، قال: (في النار)، وكان يمر على قبور المشركين ويخبر أنها أشعلت نارًا وامتلأت نارًا وجمرًا على أصحابها، وهكذا كل كافر يجب أن تبشره، وفي الحديث (أينما مررت بقبر كافرٍ فبشره بالنار)، وقوله: (فبشره) على معنى الضدية.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، فبيّن ما جاء معه، وبين مآلات التعامل مع هذا الحق، وقدم سبحانه وتعالى هنا البشير على النذير، لِمَ؟ للفضل، لا للكثرة والقلة، فإن الذين يدخلون النار أكثر، فيقولُ اللَّهُ تَعالَى: (يا آدَمُ، فيَقولُ: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والخَيْرُ في يَدَيْكَ، فيَقولُ: أخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قالَ: وما بَعْثُ النَّارِ؟ قالَ: مِن كُلِّ ألْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وتِسْعَةً وتِسْعِينَ)، الذين يقع عليهم النذارة أكثر من الذين يقع عليهم البشارة، ولكن أنت عليك أن تكثر من البشارة، قال صلى الله عليه وسلم: (يَسِّرَا ولَا تُعَسِّرَا، وبَشِّرَا ولَا تُنَفِّرَا بشراً ولا تنفراً)، أن تكثر من ذكر الخيرات وخاصةً عند المؤمنين وللكافرين نبيّن لهم فضائل الإيمان.

ومما وجدته والله أكثر ما يُغضب الكفار أن تقول لهم: أنكم أنتم من أهل النار، إذا قلت هذه لكافر، خلاص، لو أنك جعلت تداريه وتكذب على الله على كتابه وعلى آخرته وعليه، هو يسكت، والمسألة بيننا ونحن على خلاف وهكذا ويعني دينكم قريب من ديننا وهكذا تقع هذه الكلمات فهو يسكت، لكن إذا أخبرته أنك إذا مت على هذا كنت من أهل النار، فهذا ليشتعل، وكما ترون الآن مما يحارب عليه أهل الإسلام هو الإخبار بارتباط الآيات الكونية بالموقف الشرعي، الذي يدل عليه القرآن أن كل من خالف شرعه عوقب بقدره، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، كل مصيبة تقع في هذه الدنيا بما كسبت أيديكم.

فمثلاً: يقع في بلد من البلدان فيضان ويموت الناس، فيقول المشايخ: اتقوا الله، فيغضبوا، وتجدهم يدافعون عنهم، يقولوا: لماذا تربط؟ الزلزال والبراكين والآيات الكونية يقولوا: انظر لا تقع في بلاد الكفار فقط تقع في بلاد المسلمين، نعم تقع في بلاد المسلمين ويقع البلاء على المؤمنين والناس يموتون ببلاء عظيم

ولكن يموتون شهداء، المبطون شهيد، المهدوم شهيد، المطعون شهيد، الذي يموت تحت الزلزال شهيد من شهداء الآخرة، الذي يهدم الزلزال عليه وينزل عليه سقف بيته يموت شهيداً، ولكن هؤلاء لا يحزن عليهم لأنهم مضوا إلى ربهم ولكن هؤلاء بما يموتون هذه البيوت التي عمروها وو...إلخ، فذهبت، فهذه عقوبة من الله عز وجل لهم، عند المؤمن الموت رحمة، المؤمن عندما يموت الموت له رحمة، لكن موت الكافر عذاب، ولذلك أنتم لماذا تحزنون المؤمنون يردون هذه على الأقدار إنا لله وإنا إليه راجعون، فيتألمون الألم ثم تمضي بهم الحياة، لكن أنتم تتألمون لماذا؟ لأنكم خسرتم كل شيء، أنتم لا تعرفون الآخرة، أنتم بنيتم هذه الدنيا وعمرتم هذه الدنيا وجعلتموها هي منتهى الطلب، ومنتهى الإرادة، فبعد ذلك خسرتموها.

فانظروا الآن يبدأ القصف على الدين وقصف الذين يقولون: اتقوا الله، هذا البلاء الذي يقع بكم وهنا، هذا بلاء من الله عز وجل؛ لتتوبوا، لتعلموا الحق، لترجعوا إلى الله عز وجل، لتغيروا مسلككم، لا يريدون، وهذه القضية وهي تفسير أحداث الوجود تفسيراً إيماني هي من أعظم قضايا القرآن، الله عز وجل ربط أحداث الوجود كلها ربطها بالإيمان، ارتفع الإيمان هذا تفسيره، وإذا نزل الإيمان يقع هكذا وهذا تفسيره، تفسير التاريخ هذه قضية مهمة أن يفسر التاريخ تفسيراً قرآنياً، هذه قضية العلماء وقضية العقلاء وقضية الحكماء من أهل الملة، لماذا تنتصر الأمة؟ لماذا تهزم الأمة؟ لماذا يقع البلاء القدر الإلهي وهكذا. وهذا كله داخل في قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وقلنا قال صلى الله عليه وسلم: بشرا ولا تنفرا، فبين المؤمنين يبشر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾ [البقرة: ١١٩]، على هذه القراءة كما قلنا: وهي خبر ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾، هذه تسليةٌ كذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذه تكلمنا عليها كثيراً، لكن لا بأس لأنها تتكرر في القرآن ولأننا بحاجة إلى التذكرة بها وإلى تكرارها حتى نفهمها فهماً صحيحاً، وهي أن الكافر هكذا هو ليس لتقصير الدعاة معه، وليس لمسالك المسلمين السيئة معه، بعض الناس ممن اتهم المجاهدين صور الصورة كالتالي يعني في حدث ما يقوم أهل الجهاد به، فيبدأ القصف الشيطاني ضد هؤلاء المجاهدين أنكم أسأتم لصورة الإسلام، أي إسلام حسن عند الكفار قبل ذلك؟!! الكفار والأوروبيون علاقتنا معهم منذ أن أُخذت الشام منهم فبكوا، وتقدم أهل الإسلام حتى أخذوا الأناضول وحتى دخلوا أوروبا وأخذوا ... إلخ، والأوروبيون يكرهون ديناً كرهاً قبل وبعد، قبل أن نخلق وبعد أن خُلقنا وسيبقى هذا

الكره إلى يوم القيامة، فمن أين جئتم بهذا الكلام الباطل في أن أفعالنا هي التي تبغض الناس بالإسلام؟!! هذا غير صحيح، هذا باطل، هم يكرهون الإسلام، هم يرون بصورة لو تقرؤونها في كتبهم وفي أفلامهم وفي حديثهم، يصورونا جماعة من الهمج، حتى التوراة، هذا كله من التوراة.

فلما وصف إسماعيل في التوراة ونحن ينسبوننا إليه وإلى دينه، فلما وصف إسماعيل، قال: «رجلٌ وحشي يده على كل شيء ويد كل شيءٍ عليه»، بمعنى أن يقيم نفسه من خلال الصراع مع الأشياء، «يده على كل شيء»، يعني يريد كل شيء هذا هو العربي أقصد المسلم، هذا هو التركي كذلك، فهم يسمون المسلمين بالأتراك، فيريد كل شيء، «ويد كل شيء عليه»، كل العالم يصارعه، هكذا تقول التوراة عن إسماعيل عليه السلام، فهم يصورنه أنه رجل وحشي، وحياته من الصيد وهكذا وكان يحب الصيد ولا شك إسماعيل عليه السلام.

القصد: يظهرون هذه الكلمات على معنى التحقير لهذه الأمة التي اتبعته واتبعت حفيده محمد صلى الله عليه وسلم، فهم يحتقرون هذه الأمة، فلذلك أنت لم تقصر، هل جهل أبو جهل أن الحق مع النبي صلى الله عليه وسلم؟! هل جهل أبو لهب أن الحق مع النبي صلى الله عليه وسلم؟! وهؤلاء أتظنون أنهم يجهلون أن الحق معنا؟! أنتم في غفلة، لم تفهموا القرآن، هؤلاء الذين يعذرون الكفار بكفرهم بسبب عدم بلاغ الإسلام لهم أو بعدم تقدمة صورة الإسلام لهم، هؤلاء جهلة هم يكرهون الحق.

ولذلك هذا الضعف النفسي الذي ينتج في قلوب المسلمين بسبب هذا الأمر يؤدي بهم إلى تغيير الشريعة، مثلاً: عندنا ليست من القضايا التي هي من أركان الدين لكنها أحكامٌ شرعية ثابتة بالكتاب، وبنصوص صريحة، مثل قضية التعدد، لماذا يا قوم تعتذرون عن هذا الحكم الشرعي؟!! تحدثون من أنتم؟! هل تحدثون أطهاراً من الرجال الواحد منهم له زوجة واحدة، ولا يعرف في الدنيا إلا هذه الزوجة؟! أم تحدثون كلاباً وتحدثون فجرة في عقولهم ونفوسهم، من تحدثون؟!! فلماذا تحاولون إثبات هذه القضية؟ أن احتقار المرأة، قضية المرأة دائماً ترفع، أين أنتم؟ ويبدأ الشيخ مسكين يعرق من أجل إثبات أن المرأة محترمة في الدين، وأن أحكامها الشرعية تنصفها، تتحدث عن المرأة عندهم؟!! عن أي شيءٍ من الخير تتحدث؟! لماذا أنت تهتم لهذه النفسية؟! أنت لم تقصر.

مثال: الآن من الذي أقام هذه الدولة المسخ دولة إسرائيل؟ من الذي شرد الشعوب؟ من الذي يقتل؟ من الذي أفنى ملايين الهنود الحمر؟ كانت تعطى الجوائز لكل من قتل هنديًا ثم صَعِبَ إحضار الجثث، فقالوا: أحضر رأسه، فصار إحضار رؤوس صعبًا، فصاروا يحضرون فروة الرأس، يقتلونه فيجزون فروة رأسه وتوضع لهم نقود الذهب لهم جزاء قتلهم لهذه الشعوب، الأرقام خيالية، لا يصدقها المرء لولا أنه يقرأها من كلامهم، مئة وخمسين مليون هندي أحمر من سكان أمريكا قتلته هذه الحضارة التي تطالب هذا الدين وأهله أن يقدموا أوراق اعتمادهم على طريقتهم ليقبلوها، فيبدأ التزوير.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ﴾، بعد أن أقام العلم قوم النفس، القرآن بعد أن أقام العلم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، هذا هو العلم، وبيّن طريقة أدائه ومنتهاه فقال تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، فأقام بعد ذلك ترتيب إدارة النفس المؤمنة، لا تهتم ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾ فأنت لم تقصر، ولا تلتفت إليهم آمنوا بك، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣] لماذا؟ لماذا هذا الحرص الشديد؟

ولذلك دائماً أقول من أخطاء بعض الجماعات وخاصةً جماعة التبليغ يلحقون الرجل تفضل صلي، هذا الحرص جيد ولكن تظهر أن الدين مُحتاج إليه، ليست هذه بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، النبي صلى الله عليه وسلم مضت حياته وهو يعرض الدين عرضًا رائعاً جميلاً، ولكنه لا يعرضه على معنى الذل ومعنى الإهانة، أن تلحقه، ولذلك انظر بدأ دعوته بقوله لقريش: (هل لك إلى خير)، ارجعوا يأتي إلى القوم: هل لكم إلى خير؟ يقول له: لا نريدك امشي، يقول: لا، لازم أن تسمعون لي، وفي آخر معركةٍ وهي غزوة تبوك، إن يرد الله به خيراً يأتي به، لو كفرت الأمة كلها ولن تفعل بفضل الله عز وجل ولن يكون لو كفر العالم كله، الله عز وجل غني عنهم، ولو ترك أهل الإسلام كلهم تركوا الإسلام، سيستبدل قوماً غيرهم، يأتي بأقوام لم يعرفوا الدين فينصر الله عز وجل بهم هذا الدين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾، بناه بناءً علمياً ثم بناه بناءً نفسياً، لا تهتم، أنت لن تُسأل ولن تراجع، فلا تلتفت، فقط اتبع ما يوحى إليك من ربك، من تبعكم ومن لم يتبعك هل جاء وكذا وتحزن إذا أعرض عنك معرض، لا، ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾، والجحيم إنما هي النار عندما تشتعل، يقال: حجمت النار أي اضطربت واشتعلت، فإن شدة النار حينئذٍ تكون الجحيم، هذه قراءة.

وقلنا: القراءة الثانية التي فيها معنى ﴿وَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾، إذا جاز لنا على طريقة الإمام بن جرير الطبري مع ما عليها من محترزات أن نفضل وليس أن نرجح بين القراءتين فالقراءة ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾، هي التي تلائم ما تكلمنا من الإيناس، أنها تؤنسه، الذين جعلوها أمرًا أي يا محمد ﴿وَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾، أي لا تَسأل عن أحد أين هو، وأين مقره، وهم جعلوها خاصةً في أكثر كتب التفسير أن النبي صلى الله عليه وسلم نُهي عن السؤال عن مقر أبيه، ولم يصح في ذلك حديث، روى ذلك ابن جرير وذكرها ابن كثير وأهل التفسير ذكروها، ومنهم من ردها على جهة السند كابن كثير بأن أحاديثها مرسلة ولا تصح، والأصوب أنها ضعيفة لا يلتفت إليها، أي يا محمد ﴿وَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾، سأله أين مقر أبيه، فقال: ﴿وَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾، يعني أنه من أصحاب الجحيم ولكن لا تَسأل، وهذا نهيٌ من الله عز وجل للنبي ولغيره أن يَسأل ما لم يُعّلم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)﴾ [المائدة: ١٠١]، اتركها لا تَسأل عنها.

وبعض أهل العلم وهذا من الكلام الجيد، قال: أنتم اتفقتم على أن هذه الآية إنما جاءت لإيناس قلب النبي صلى الله عليه وسلم، فالإخبار بمقام والده ليس من الإيناس، نعم، بعضهم ردها على جهة الخبر والسند وهذا بلا شك، وبعضهم ردها على جهة السياق وتتابعه، أي لو كان المقام كما قلتم مقام إيناس وهو لا شك مقام إيناس للنبي صلى الله عليه وسلم سواء باللفظ أو بالمعنى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، هذا رفعة للنبي صلى الله عليه وسلم يخاطبه الله عز وجل هذا الخطاب ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، فكيف يقول له: أن والدك من أصحاب الجحيم فهذا لا يقع، وهذا كلامٌ جيد.

ولكن الكلام عن والد النبي صلى الله عليه وسلم ليس هذا موطنه وإن كان البعض جزم بأن والد النبي صلى الله عليه وسلم في النار للحديث سأل رجلٌ النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه، فقال: (هو في النار)، قال: وأبوك، قال: (وأبي في النار)، فهذا الذي عليه الكثيرون وهناك من جزم بأن والد النبي صلى الله عليه وسلم من الناجين، وهناك من توقف، وسبب النجاة عندهم أنهم يتعلقون بأحاديث لا تصح بل لا أصل لها، أن الله عز وجل من أجل رفعة النبي صلى الله عليه وسلم ومقامه أحي والده فدعاه للإسلام فأسلم، هذا الحديث لا أصل له ولا يقال به، بل إن بعض التفاسير شنعت في الكلام على من جزم بكفر والد النبي

صلى الله عليه وسلم وأنه في الجحيم، حتى إن صاحب «روح المعاني» الآلوسي يعني معروف محمد علي القاري ممن جزم فقال: إن والد خيرٌ من محمد بن علي القاري، وكأنها يعني انتصار للنفس في هذا الباب، ولا ينبغي لأهل العلم أن يسلكوا هذا المسلك في الحوار العلمي.

المهم أن الله عز وجل أراد أن يؤنس النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾، أي لا تَسأل من كان معك ومن لم يكن معك، وهذا هو الذي عليه المعنى.

وبعد هذا الإيناس كما تقدم جاء حال الأمر بالخبر في حال هؤلاء، لأن النبي صلى الله ليه وسلم يطمع في إسلامهم، يطمع أولاً: لأن مقدمات الرسالة عند أهل الكتاب موجودة بخلاف مقدمات الرسالة عند المشركين، فالمشركون لا يقرون بأصل الرسالة أصلاً، ويرفضون الرسالة البشرية، وخطاب المشركين مع النبي في هذا الباب كثيرٌ في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤)﴾ [الإسراء: ٩٤]، فهناك مشكلة عند المشركين في قضية بشرية النبي، ثم عندهم مشاكل أخرى وهي قضية الغيب والآخرة، الكفر بالآخرة، فهذا العدو لما فت العظام أمام النبي صلى الله عليه وسلم، أهذه يعيدها الله؟! فيكفرون بالآخرة، إذن عندهم قضية الرسالة أصلاً قضية الرسالة الله يعطينا، ألم يقل المشرك للنبي صلى الله عليه وسلم: إن كنت رسولا فأنت أجّل من أن أكلمك وإن كنت كاذبًا فأنا أجّل من أن أكلمك، فعندهم كفر الإعراض ولا يؤمنون بالرسالة، ومشكلة الرسالة في قضية البشرية ومشكلة الغيب والآخرة ومشكلة اتباع التشريع، كل هذه القضايا لا توجد عند أهل الكتاب.

أي موضوع الرسالة والبشرية محسوم عند أهل الكتاب قد جاء موسى، يعرفونه، وهم يعلمون في قلوبهم أن عيسى عليه السلام هو رسول، ومع إنكارهم له أو مع دعواهم أنه ابن الله، ويعلمون أن هناك ثمة آخرة وغيب وأن هناك جنة ونار وأن هناك شريعة ثم يعلمون أن النسخ قد وقع، يعني موسى عليه السلام جاء بشريعة بخلاف الشريعة السابقة التي كانت قبله، وعيسى عليه السلام نسخ بعض الشرائع التي جاء بها موسى عليه السلام، فالقضية محسومة عندهم، إذن هم يعني المرء يحق له أن يطمع في إسلامهم، يحق له، وأنت لما ترى الرجل يقترب منك ويحاورك فأنت تقول: اقترب، فجاء القرآن ليحسم هذه القضية معهم،

فقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فهذا تيئيس كما تقدم في الآية الأولى، إيناسٌ لقلب النبي صلى الله عليه وسلم، هذا تيئيسٌ لقلب النبي صلى الله عليه وسلم أنه إياك أن تفعل أي فعل من أجل أن تظن، ويكون الدافع لك أن تظن أنهم بهذا الفعل يقتربون للإسلام، خلاص، انتهى، حسم الأمر ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ﴾، وجاء بـ «لَنْ» التأبيدية التي تقع في زمنه وتقع بعده، ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ فهذا تيئيسٌ لقلب النبي صلى الله عليه وسلم.

والقرآن في هذه الآية بيّن سبب لماذا لا يتبعون؟ ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، هذه كلمة أهواء هي الرد، الجماعة لماذا لا يتبعونك، هو ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، فما الذي عندهم؟ إذن هم يتبعون أهوائهم، ولذلك لما خاطب بالرد جعلهم ملة واحدة، ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، شيئًا واحدًا الملة وسنبين معنها، ولكن لما بيّن مشاربهم في أنفسهم فقال: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾، الملة واحدة ولكن الأهواء كثيرة ومتعددة، هنا الله عز وجل قال: ﴿وَلَنْ تَرْضَى﴾، انظر القرآن هنا في هذه الآية أبعد في التيئيس ما قال: ولن يتبعوك، ما قال: ولن يتبعك اليهود ولا النصارى؛ لأن الاتباع مرحلةٌ بعد الرضى، لا يكون اتباع النبي إلا بعد الرضى، فهو أبعد في التيئيس، ما قال: ولن يتبعك اليهود ولا النصارى، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ [البقرة: ١٢٠]، حتى الرضى القلبي لن يرضوا عنك، فيّأس قلب النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الباب، وقال: هؤلاء لا يرضون عنك، ومقابل الرضا ما هو؟ البغض، أن يرضى عنه وإما أن يبغضه، فدل هذا على أن ما في قلوب هؤلاء القوم هو الغضب عليه وهو الأعراض عنه وعدم اتباعه وعدم محبته، الرضى يعني الحب يعني الاتباع بعده، ولكن الله قال: ﴿وَلَنْ تَرْضَى﴾، لن يحبك هؤلاء القوم، وستأتي الآية بعد بيان تحول القبلة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢]، سيأتي.

فقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ [البقرة: ١٢٠]، القرآن يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: ٨٢]، مودة، فالقرآن يثبت أن النصارى يودون المسلمين، هذه الآية التي يستخدمها الجهلة في زمان هذا من أجل مدح النصارى في بابٍ الأبواب هي ضدهم، الآية كما في تمامها تتحدث عمن يتحول من النصرانية إلى الإيمان، ومن اليهودية إلى الإيمان، فالقرآن قطع الأمل أن أشد الناس عداوة هم اليهود، حين تقع المعركة أشد الناس عداوة هم اليهود، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: (لو أسلم عشرة لأسلمت

يهود)، وانظر إلى عدد اليهود الذين أسلموا في التاريخ الإسلامي، تجد القلة، لكن النصارى، هناك جموع من النصارى قد أسلمت، النصارى في مصر أغلب النصارى الموحدين من أتباع أريوس دخلوا الدين وأسلموا، وهناك نصارى بلاد الشام أسلموا ودخلوا في الدين، هذا واحد.

والدليل: هو أن الله عز وجل قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣]، فهو حديثٌ عمن آمن، وليس عمن استقر، وأما من رفض فهذا الذي تقع عليه الآية، ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾، فالآية التي في سورة «المائدة» هذه حديثٌ عمن آمن من النصارى، وليس عمن بقي من النصارى، ثم هذا الحديث ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾، الآن هذا المعنى من عزلة الدنيا وطلب التشوف إلى رضى الله عزو جل في النصارى، من هؤلاء اليوم؟ أين هم؟ حتى هؤلاء الذين يعتزلون في الأديرة اليوم، ترى الواحد منهم رقبته كرقبة البغل أكلاً وشربًا، وأما غيرهم فالمصائب في قضية إتيان الولدان والأخبار التي تأتي عنهم، ليس فيهم لا قسيسين ولا رهبان، الآن الرهبان الذين يعتزلون في الأديرة بغير ذكر ما يفعلون، تراهم أهل دنيا وأهل معاصي وفي أديرتهم الفسق والفجور والطامات الكبرى خلاف من كان سابقاً.

المهم: الله عز وجل أراد أن يمنع قلب النبي صلى الله عليه وسلم من أن يتابعهم، أو أن يفعل فعلاً فيه سعى من أجل ارضاءهم فقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

أنا أقول شيئاً هنا، شيئاً أخر: يتغلف مرات الدين بالقومية، والقومية بالدين، ولا شك هنا نقطة مهمة جداً يجب على كل طالب علم أن يفهمها، أن حركة الوجود مبنيةٌ على الاعتقاد، أي لا يتحرك الإنسان إلا باعتقاد، الاعتقاد هو الذي يحركه، لكن هذا الاعتقاد قد يصبح له أعمدة من القومية مثلاً، فمثلاً: الآن الدين النصراني عند الغرب ضعيف، لكن يتمسكون به باعتباره يمثل حضارتهم، وهم اتفقوا الآن وانتهى أمرهم على أن الحضارة الغربية إنما هي مشتركة بين اليهودية والنصرانية، والإسلام هو العدو، خلاص، منذ

أن صارت الصدمة الأولى بدخول عمر رضي الله تعالى عنه بيت المقدس، ومنذ أن فتحت القسطنطينية وهكذا، فالصراع الإسلامي الأوروبي قائم ولن ينتهي.

فيمكن أن يقوم العماد القومي وفي جوفه العماد العقائدي النصراني، أي عقائدي، النصراني، الإسلامي وهكذا، ويمكن أن يكون العكس، أن يكون هناك تبني للدين وتكون أرجله هي القومية، أقول هذا لأنه يمكن للمشرك أن يصبح يهوديًا ونصرانيًا ولا يرضون عنه، وهذا الواقع يشهد له، هل ترون الأوروبيين يرضون ووضعوا أنفسهم في مقام النصارى من المشركين في أفريقيا الذين دخلوا النصرانية؟ هل يرضون عنهم، كيف يعاملونهم؟ كما قال زعيمهم «توتو» رئيس الكنيسة في جنوب أفريقي، قال: ضحكوا علينا فأعطونا الإنجيل وأخذوا منا الأرض، والنصارى يحتقرونهم مع أنهم نصارى وعلى دينٍ واحد، وعلى مذهبٍ واحد وملةٍ واحدة ولكن يحتقرونهم، يعني الصراع الإسلامي الروماني الأوروبي القائم، هو الدين، المعارك دينية، هم لا يريدون الدين، لماذا؟ لأنهم يعتبرون الإسلام هو القوة الوحيدة القادرة على تحريك الأمة ضد هؤلاء الهمج الأوربيين.

ولكن هناك نقطة أخرى زائدة في الخصومة، أنهم يكرهون العرب لأنهم عرب، ولذلك النصراني العربي ليس بمحترم عندهم، يعتبرونه درجة ثانية وثالثة، لما تقدم من قضية أنه تكون العقيدة لها أرجل قومية من العشيرة والنسبة، وقد يكون العكس أن تكون القومية تتخذ العقيدة أرجلاً لها في تنفيذ مآربها، وهكذا التاريخ تمتزج العقيدة مع القبيلة، تمتزج، وهذا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فكان هناك قبيلة تكره قريش وهي خزاعة، لماذا؟ لأنها تعتبر أن قريش قد سرقت منها مكة، فمكة الزعامة فيها لمن؟ لخزاعة، فسرقها القريشيون بخمر ضحكوا على سيدها في قصة تاريخية قديمة، فهم يكرهون قريش وبنو بكر مع قريش وهم أبناء عمومة، خصومة بينهم فأحدهما لأنه خصم لقريش، بنو عمهم صاروا حلفاء لقريش لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وبنى المدينة، حتى المشركين من خزاعة مالوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، عشائريًا وقبل إسلامهم ثم أسلمت خزاعة وبنو بكر كلهم أسلموا، ولكنهم مالوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على جهة العشائرية، أي يمكن لهذا الجانب يكون موجودًا.

فلذلك الآن وحتى الآن لو أنك وافقت النصارى في دينهم فهناك إرثٌ تاريخي من الثأر بين هذه الأمة في وجود الجغرافي وبين الأوربيين في وجودهم الجغرافي، الآن الأمور زادت عن هذا، لكن في ذلك الوقت

النصارى عرب، واليهود عرب، اليهود حول المدينة من اليمن عرب، كعب بن الأشرف عربي، وأبناء عمومة ونسب مع الأوس والخزرج، فلذلك لا يوجد علاقة عشائرية ولا يوجد هناك خصومة تاريخية، إنما العلاقة دين، فلذلك ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، في هذا كفاية لأننا سنقف عند قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، فنأتي إليها في الدرس القادم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والثمانون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الخامس والثمانون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾ [البقرة: ١٢٠].

تقدم بعض الكلام عن هذه الآية، والله عز وجل يقطع الأمل ويُيأس النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده المسلمين من أن يرضى عنهم اليهود والنصارى، ولذلك عدم الرضا هو البغض والعداوة وعدم الإتباع، فالله عز وجل قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: عليك أن لا تسعى إلى إرضائهم في شيءٍ من الأشياء وعليك أن تتبع الحق الذي أنزل إليك، وهنا نرى في خطاب القرآن وفي وسائل خطاب القرآن بعض اللفتات المهمة في هذه الآية، أولاً: تكرر حرف النفي ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾، فلم يجمعهم الله عز وجل في سياقٍ واحد من النفي ولم يقل: ولن ترضى عنك اليهود والنصارى، بل جعل لكل طائفةٍ أداة نفي، فقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾، أي ولن ترضى عنك النصارى ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، فدل هذا على أن رضا اليهود يفارق رضى النصارى، فإنك لو أرضيت اليهود لن ترضي النصارى، ولو أرضيت النصارى فلن ترضي اليهود، فرضاهما ليسا شيئًا واحدًا، بل هو رضى مختلف، ولذلك لو كان رضاهما شيئًا واحدًا فلجمعهما بأداة نفيٍ واحدة وقال: ولن ترضى عنك اليهود والنصارى، ولكن لما كان رضى كل قومٍ مغاير لرضى الآخر، فجاء لكل قومٍ أداة نفيٍ خاصةٍ بهم.

ونحن نرى أن عقائد هؤلاء تختلف عن عقائد هؤلاء، يعني اليهود منك ديانةً تختلف عن ديانة النصارى، واليهود لا يرضون عن النصارى، والنصارى لا يرضون عن اليهود، اليهود يكذبون عيسى عليه السلام ويتهمونه بالاتهامات الباطلة المعلومة ويرون أن دينه باطل، والنصارى يقولون: بأن اليهود كذبوا ولم يتبعوا الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام، فكل واحدٍ له دينٌ مختلف، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾، يعني ولن ترضى عنك اليهود ولن ترضى عنك النصارى ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

وهنا جاء جل في علاه بإفراد الملة، وهذه الكلمة العلماء اخذوا منها بعض الأحكام الشرعية التي تقول: بأن ملة هؤلاء هي ملة هؤلاء بالنسبة للملة، وبلا شك أن الملل تختلف والأديان تختلف، وليسوا سواء، اليهود والنصارى ليسوا سواء، ونحن نعرف في تاريخ البشرية أن هؤلاء يختلفون عن هؤلاء، سواء كان في التعامل مع المسلمين بكثرة دخول النصارى في الإسلام وبعدم وجود هذا العدد من اليهود، وبأن أكثر الناس عداءً هم اليهود، ثم من تبع اليهود من النصارى، فنرى اليوم أن النصارى الذين غيروا دينهم وتقاربوا مع اليهود وصاروا يتلقون دينهم من اليهود حتى هناك جماعة من النصارى يسموا بالسبتيين، وهناك من النصارى الإنجيليين الذين يرون أن التوراة هي دينهم الذي يدينون به ويخضعون لليهود ويرون اليهود أسيادهم، استطاع اليهود أن يخترقوا النصارى، البروتستنتية والإصلاحية هذه اخترقت من قبل اليهود، مع أن الكنيسة الكاثوليكية كذلك ولكن اختراق البروتستنتية أشد وأكثر، فغيروا دينهم وصاروا يستخدمونهم من أجل خدمة اليهود، حتى بطريقة معاكسة.

مثلاً: ما يسمى بالنصارى الإنجيليين اليوم لإيمانهم بالملحمة الكبرى «هرمجدون» والتي يتم بها إفناء المشركين، يدعمون اليهود من أجل الوصول لهذه المرحلة من الحرب الكونية النهائية التي بها يتم تدمير الوثنيين وأعداء اليهود لمجيء الملك المخلص لهم من السماء، الملك اليهودي الذي يخلصهم من السماء، فهم يدعمون اليهود ليكثر الشر ويزيد الصراع بينهم وبين الوثنيين، يعني بينهم وبين المسلمين حتى يأتي المخلص، هكذا يعتقد النصارى، فنزول عيسى مرةً ثانية إلى الأرض مرهون بحصول الدمار لأعداء النصارى، فهم يدعمون اليهود ليصلوا إلى هذه المرتبة، انظر!! واليهود يفرحون لهذا المهم يدعمونهم ولا يهمهم لماذا يدعمونهم، ولا شك أن النصارى يرون اليهود هم أسيادهم وأئمتهم؛ فيعتبرون دينهم، ولذلك تجد الآن

النصارى الذين تهودوا أي يحملون دين النصارى من أجل أن يلائم دين اليهود ويتبعونهم تجدهم كاليهود تمامًا في نصرتهم السياسية، ولا شك أن النصارى في هذه الأيام هم دواب اليهود «الغوييم»، الدواب الذين يستخدمهم اليهود من أجل الوصول إلى غاياتهم على قاعدة اليهود في التحالف مع الأقوياء.

الله عز وجل قال: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، فجعل اليهود والنصارى ملةً واحدة في هذا الباب، سماها ملة، وإن غاير بعد ذلك ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، فسمى ملتهم أهواء وليس هوى واحد ولكنها أهواء، فبعض أهل العلم قال: اليهود والنصارى ملة واحدة، ولذلك عند هؤلاء العلماء الذين يقولون بهذا يجيزون أن يتوارث اليهود والنصارى، بمعنى لو احتكم إلينا اليهود والنصارى في ميراث يهودي من نصراني، مثلاً: تنصر ابن ليهودي، فهل يرث منه أم لا؟ بعض العلماء قال: لا يتوارثوا أهل ملتين شتى، بمعنى لو أنهم احتكموا إلينا فالشريعة تقول: لا نورث اليهود من النصراني، ولا النصراني من اليهودي؛ لأنه لا يتوارث أهل ملتين شتى، ولكن بعض أهل العلم يقول: إن اليهود والنصارى لهذه الآية ملة واحدة، ملتهم هي ملة واحدة؛ فلذلك يتوارث بعضهم من بعض، النصراني يرث اليهودي واليهودي يرث النصراني، وهذه المسألة من مسائل الفقه ولكن نمر عليها من أجل أن نبين كيفية استنباط أهل العلم لمثل هذه المسائل من الأحكام.

ومسألة التوريث أن يرث المسلم النصراني والنصراني المسلم، فالإجماع منعقد على أنه لا يجوز أن يرث الكافر المسلم، بمعنى إذا كان له ابن أو أب كافر مهما كان دينه نصراني يهودي مجوسي مشرك، فلا يجوز له أن يرث المسلم، ولكن وقع الخلاف في أن يرث المسلم المشرك، فجمهور العلم على عدم الجواز، لا يتوارثان، المسلم والمشرك لا يتوارثان قط، ويرى بعض أهل العلم وهذا مذهبٌ منسوب لمعاوية رضي الله عنه ولبعض السلف بأنه يجوز أن يرث المسلم الكافر، ولكن لا يرث الكافر المسلم، فقط هذه فائدة في قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

إذن الرضا الديني مربوطٌ بالاتباع ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، والملة هي الدين، هي الشرائع، أي حتى تتبع شريعتهم، تتبع دينهم، تتبع الهدي الذي يزعمون أنه موصلٌ إلى الهدى، الهدي هي الطريق، والهدى هو النور وهو الحق، فلا يجوز أن يقال: وخير الهدى هدى محمد، لأنه لا يوجد هدى إلا هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما في الحديث (وخير الهدي هدي محمد)، بمعنى خير ما يوعظ به هو وعظ النبي صلى الله عليه

وسلم وخير ما يرشد به هو إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم وخير الطرق لأن هناك طرق كثيرة وهناك إرشادات كثيرة وهناك مواعظ كثيرة ولكنها كلها باطلة إلا هدي محمد صلى الله عليه وسلم الموصل إلى الهدى، والهدى لا يتعدد فلا يجوز أن نقول: أن النصارى عندهم هدى، لا يجوز أن نقول: أن المشركين عندهم هدى، لكن عندهم هدي، أي يهديهم يبين لهم ويظن أنه يدعوهم إلى هذه الطريق، هذا الفرق بينهما.

ولذلك كلمة الملة إذا أفردت دلت على الشرائع والدين، قال تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، فجعل الله عز وجل الملة بدل للدين، الدين هو الملة، وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا أَصبَحَ يقولُ: (أَصبَحْنا على فِطرةِ الإسلامِ، وكَلِمةِ الإخلاصِ، ودِينِ نَبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعلى مِلَّةِ أبِينا إبراهيمَ، حَنيفًا مُسلِمًا، وما كان مِنَ المشرِكينَ)، فهنا في هذا الحديث فرق بين الملة والدين، إذن إذا أطلقت كلمة الملة شملت الدين وكان الدين هو المقصود، مع أن الملة أوسع، فإذا اجتمع هذان اللفظان الدين والملة على ماذا دل الدين؟ قال: (ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم)، إذن شريعته.

لما قال صلى الله عليه وسلم: (أَصبَحْنا على فِطرةِ الإسلامِ، وكَلِمةِ الإخلاصِ، ودِينِ نَبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ)، إذن المقصود ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، أي أنا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن ما المقصود (وعلى ملة أبينا إبراهيم)؟ هي عقيدته، هي توحيده، هو سبيله الذي سلكه في دعوته للتوحيد والبراء من الشرك إلى غير ذلك، فاختصت الملة هنا بالأمر الجامع وهو الإسلام العام، لأن المقصود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، الإسلام العام الذي جاء به جميع الرسل، ولكن لما يكون الإيمان الخاص أو الإيمان العام أو الإسلام العام والإسلام الخاص، فالإسلام العام وهو دين جميع الأنبياء، الإسلام الخاص هو ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقد يقول قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فإذن الصابئون مؤمنون!! منهم مؤمنون، واليهود منهم مؤمنون، فالمقصود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الإيمان الخاص، والآخر هو الإيمان العام، أي الإيمان الذي أمروا به في زمانهم من قبل أنبيائهم، وهنا ﴿إِنَّ

الَّذِينَ آمَنُوا﴾، في أول الآية هو الإيمان الخاص، أي أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فننتبه إلى هذا لأنه يقع في الخلط،

قال تعالى: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، أي تتبع شريعتهم، الله عز وجل أمره أن يقابل هذه الدعوة الباطلة التي قالوها بحقٍ يجابههم فيه، يناظرهم عليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، فدل هذا على أن مصدر الهدى من السماء وأنه لا يستطيع أحد أن يُكسب هديًا أنه الهدى إلا الله عز وجل وأنه لا يقع الهدى إلا بما ينزل من السماء وما يقع من الله عز وجل، دل قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، دل على أن ما دعا اليهود والنصارى رسولنا صلى الله عليه وسلم اليه إنما هو دين محرف وليس من الله عز وجل، هذا وجه.

ووجهٌ آخر إن الذي دعوا إليه أي اليهود والنصارى رسولنا صلى الله عليه وسلم هو من المبدّل، بمعنى الشرع المنسوخ، دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شرعٍ منسوخ، وإذا كان شرعًا منسوخًا فدل على أنه ليس هو من الله عز وجل، خلاص ارتفع حكمه، تكتسب قوته بأنه من الله سبحانه وتعالى، فإذا رفع حكمه لم يعد هو دين الله سبحانه وتعالى، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾، أي يا محمد، ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾، هذه قاعدة المسلم الحق لا ينزل إلا من السماء، الحق لا يُنتج من النفوس، الحق لا يُنتج من العقول، الحق لا يُنتج من تجارب الناس ولا من تراكم خبراتهم، نحن نتكلم هنا عن الجانب الحق بما يتعلق بجانب الغيب ويتعلق بجانب التشريع، جانب الغيب، ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم به عن عالم الغيب، هذا حقٌ لا يجوز لأحد أن يتكلم به إلا الله عز وجل، وجانب الأخلاق ما هو الحق في الأخلاق، وجانب التشريع، هذه كلها من الله عز وجل، وتكتسب قوتها أنها من الله عز وجل، فإذا علم أنها من الله عز وجل فدل على أنها هدى. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾.

هنا الله عز وجل بعد أن أثبت هذه الحقيقة بأنه لا يوجد هدى إلا ما جاء من الله عز وجل وأن غيره هو الأهواء، إذن هنا ما جاء عن غيره هو الأهواء، قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾ [النجم: ٢٣]، فالهدى يقابل أهواء النفوس وظنون العقول، الهدى يقضي على أهواء النفوس ما تعلق بالشهوات وعلى ظنون العقول ما تعلق بالشبهات، قال سبحانه وتعلى:

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، هذا ما تعلق بالشبهات، ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣] هذا ما تعلق بالشهوات، الهدى يعالج شبهات العقول وشهوات النفوس، فيصلح العقول بالعلوم ويصلح النفوس بالتزكية والتربية والأوامر والشرائع، يصلح العقول بما يأتي من أخبار ترد عنهم شبهات الباطل وأساطير الناس وتكلفاتهم التي يزعمونها ويأتونها من جهة أنفسهم، فيرد الشارع على هذه الشبهات العقلية مما يقوله الناس وعلى أي وجهٍ قالوه، ويصلح قلوبهم وما تهوى الأنفس، والهدى يصلح النفوس عن طريق الشرائع، بما يأتي من التزكية بما يأتي من الأوامر والذكر والعبادة وبما يأتي بالعلاقة مع الله عز وجل ويأتي بإصلاح ذات البين وبالإحسان، فالهدى ليس فقط ما يتعلق بالتزكية النفسية ولكن كذلك بما يتعلق بإرشاد العقل الذي فيه ردٌ على الشبهات.

ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، هذه الملة أهواء، قال تعالى: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولم يأتي بالتثنية أي لم يثني الأهواء لليهود والنصارى بل قال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، فدل على ان هذين الدينين قد إمتلاءا بأهواء أصحابها من الأحبار والرهبان والأكاذيب والمؤرخون وما وضعه الناس فيهما، فدل على أهواء ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، هذه أشياء تشتهيها أنفسهم فيضعونها ويزعمونها دينًا.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، لأنه هذا رد على ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، انظر الله عز وجل وصف ما جاءه أنه هو الهدى، ثم وصفه العلم، فهو الهدى مقابل الهوى، والعلم مقابل الظن، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، طبعًا هنا ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾، إما أن يكون أي جاءك بعض العلم لأنها لم تأتي الشريعة بكل العلم، وإما أن تكون «من» بيانية، أي جاءك العلم التام الذي تحتاج إليه، قال تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾، هذه الآية يعني الله لن يعطيك منه لا وليًا ولا نصيرًا، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾، أي لن يعطيك الله ﴿وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، ويصح ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾، أي ما لك ما يدفع عنك ما يريد الله عز وجل منك من العقوبة من ولي ولا نصير.

الوجه الأول: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾، أي لن يعطيك الله وليًا ولا نصيرًا، فليس لك منه ولي ولا نصير، وتقدم الكلام في الآية «١٠٧» التي تقدمت، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾ [البقرة: ١٠٧]، هذه تقدمت، وقلنا: بأن الولي هو ما يُحّصل لك المنفعة والنصير هو ما يدفع عنك الضر، الولي هو الذي يقوم بشأنك، وليك هو من يقوم بشأنك، ففلان ولي فلان يقوم بشأنه يرعاه، والنصير هو الذي يدفع عنه الباطل، والمرء بين هذين الحدين بين جلب المنفعة ودفع المضرة، المرء بين هذين الحدين، إما جلب منفعةٍ، وإما دفع مضرةٍ، سواء في الدنيا أو في الآخرة، سواء في كل أحواله في الدنيا وقد يجتمع في الفعل الواحد جلب منفعة ودفع مضرة، فالإنسان يحتاج إليهما، فإذا الله عز وجل عاده فلن يستطع أحد أن يجلب له منفعة ولا يدفع عنه مضرة، لا يستطيع أحد إذا أراد الله عز وجل به شرًا، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾ [البقرة: ١٠٧]، أي لن يستطيع أن يحميكم من الله عز وجل ولي ولا نصير هذا وجه.

والوجه الآخر في قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٢٠]، أي لن يعطيك الله عز وجل إن طلبت منه وليًا ولا نصيرًا، وهذا المعنى الأغلب في كلام المفسرين، يقولون: بأنك إذا اتبعتهم ارتفعت ولاية الله عنك وارتفع نصر الله عنك، والآية ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٧] أي لن يحصل لكم من غير الله عز وجل، لن يأتيكم من غير الله عز وجل، لم يحصل لكم من غير الله عز وجل ولي ولا نصير.

وهذه الآية هنا تدلنا على شيءٍ عظيم، تدلنا على قضية العطاء الإلهي والنصر الالهي متعلق ببراءة المسلمين من مشابهة اليهود والنصارى، وهو متعلق بعدم اتباعهم، كيف نفهم هذا في واقع الحياة؟ ابن خلدون له الكلمة المشهورة التي هي تتردد الآن ومبذولة على كل الطرقات: «إن المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب» المغلوب مولع، عادةً الاتباع ينشأ بسبب النقص، الاتباع ينشأ بسبب النقص في النفس والتعظيم للمتبوع، لا يمكن أن يحصل الاتباع إلا بهذا المعنى، لو كان في نفس المرء عزة لما عنده لما اتبع غيره، يكفيه الذي عنده، ولو كان عنده تحقيرٌ للمتبوع وعدم تعظيمٍ له فلن يتبعه، فإذن هاتان قضيتان مهمتان في قضية الاتباع، ولذلك المسلم تحصل له العزة في نفسه بشعوره أن ما عنده خير من الآخرين فإذا ذهب هذا المعنى من نفسه وهو أنه لا يرى نفسه شيئًا أمام هذا بل هو ضعيفٌ أمامه سار وراءه، فحينئذٍ تحصل الذُلة.

فاتباع النبي صلى الله عليه وسلم مصدر عزة المسلم، أولاً لأنه من أنفُسنا ومن أنفَسِنا، ثانيًا: لأننا نتبع النبي صلى الله عليه وسلم لعلمنا أنه لا يأتي بأمرٍ إلا من جهة الله عز وجل، فإذن اتباعنا للنبي صلى الله عليه وسلم مصدره ثقتنا بالله عز وجل وارتباطنا به جل في علاه.

والآن ترى الناس لماذا يتبعون الغرب؟ لعزة الغرب وهوان التابع في نفسه، ففي نفسه يرى أن الغرب هم أهل الفكر، هم أهل النظر، هم أهل الإبداع، وأن اختياراتهم في الحياة هي الاختيارات الجميلة والاختيارات الطيبة والاختيارات الحسنة، ويحسنون اختيارات عقولهم، وبالتالي يتبعونهم، فحينئذٍ ماذا يبقى من العزة التي تستوجب النصر؟ كيف يقاتله؟! كيف ينازعه وهو يرى أنه ذليل أمامه؟! وانظر إلى هذه الآية كيف أنه بمجرد متابعة اليهود والنصارى يحصل فقدان العزة أي الذلة بالنسبة للمؤمنين، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾ [النور: ٥٤].

ولذلك الآن إذا نظرتم إلى العالم الإسلامي ترون أن من أسباب خذلان الله عز وجل لهم، هو شعورهم الذلة أمام أعدائهم، هذا الشعور هو الذي يورثهم التقليد والسير وراءهم، التقليد يمشون ورائهم في المسلك، حتى في حركة الأيدي، حتى في حركة الأفواه، الآن يقلدونهم في كلماتهم، ترى أن المسلم مولع اليوم بأن يقلد وأن يردد كلمات اليهود والنصارى كما يقولونها، ثم هو مولعٌ بألبستهم بالهدي الظاهر الذي يُستهزأ به الآن، يقول لك ما هي القضية؟ والغرب يعرفون هذا، أنا ذكرت لكم مرة أن الصحفي توماس فريدمان قال: مما يدل على عظمة أمريكا أن الناس إذا كانوا في بلدانهم لبسوا ألبستهم الخاصة التقليدية التراثية، لكن حين يصعدون إلى العالم إذا أرادوا أن يكونوا في اجتماع عالمي، لا يلبسون إلا اللباس الأمريكي، إلا التقليد الأمريكي، فإذن أمريكا هي العالم، هو يريد أن يقول هذا، بل هو قالها، هذه في مقالة له شهيرة، هم يعتبرون أنهم بمجرد أن تسلك في مسلكهم حتى في اللباس، أنت مُتبع لهم، يتركونك في بيتك، يتركونك في حياتك أن تختار ما تشاء، وإن كان هذا ينازعونك فيه، هذه الثقافة ثقافة التغريب التي غزت بلاد المسلمين ولا يراها بعض الناس شيئًا، وبعض المسلمين يرون أن هذا تعلق بالقشور، هذا ليس تعلقًا بالقشور! هذا حوله الصراع الكبير، فالنساء حين يقلدن نساء الغرب هذا دلالة على الهزيمة، وحينئذٍ ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾، خلاص، وهذا هو الواقع، إذا قلدناهم؛ ارتفعت من قلوبنا العزة.

ومصدر الجهاد ونشر الدين هو شعور العزة، إذا فقدت أمة الإسلام العزة وشعور الاستعلاء الإيماني لم تذهب إلى مقاصدها، ما الذي أخرج الصحابة رضي الله عنهم من الجزيرة العربية؟ شعورهم أنهم يملكون قيمةً عظيمة يجب أن يبثوها في العالم، ولماذا قضوا على الممالك الأخرى؟ لشعورهم أنهم هم أسياد العالم، لا ينبغي أن يكون هناك في العالم سادة إلا هم، لا ينبغي، لماذا؟ لأن القرآن رباهم على هذه العزة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾ [آل عمران: ١٣٩]، شعور العزة الإيمانية هذا فرض يجب أن يتعلمه الصغار، أنتم أعظم الناس، الآن المعارك الكبرى تدور عليه.

الآن هذا الذي يسمى محاربة الفكر المتطرف كله يقوم على هذه القضية، هم يريدون أن ينزعوا من المسلم التميز الإيماني، لان مصدر التميز هو الاستعلاء الإيماني وما دام في استعلاء إيماني فيوجد رفض لهيمنتهم وسلطانهم وحضارتهم وقواتهم، ورفض للواقع أن المسلمين يسعى كل السعي من اجل تغيير واقعه، يسعى المسلم من أجل أن يغير واقعه ولا يرضى به مهما بلغت قوة الكفر ومهما استعلى الكفر ومهما صار له السلطان في الأرض ومهما صارت له القوى، المسلم في داخله يشعر باحتقارٍ لهم وأنه مؤمن، ويكفي أن تقول نحن أعزة هذه الدنيا بضعفنا ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾ [آل عمران: ١٣٩]، الهزيمة العسكرية تقع، ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، يمكن أن يقع للكافر نصيبٌ في هذه الدنيا، كما وقع في أُحد، ولكن إياكم أن تشعروا بالهوان أمام هذه الهزيمة، ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فهذا الامتلاء الإيماني في قلب المسلم هذا يبغضه الكافر، يحنقه، يجعله يتفتت ويمتلئ قلبه غيظًا وهذا يُشعل النار في قلبه، أنك أنت أعز منه، لا ترضاه، لا تتبع ملته، لا تتابعه، لا تمشي على هديه ولا على تقليده، فلذلك هو يسعى في هذه الأيام إلى تدمير هذا الجدار.

واليوم عندما يقولون: التساوي، أي تساوي؟! لماذا يكرهون المسلم أن يعيش دينه ويسمحوا لليهودي أن يعيش دينه، فقبل أيام مجموعة من الحاخامات المجرمين من اليهود أصدروا فتوى بجواز قتل المدنيين العرب، بجواز السطو على نسائهم، بجواز سرقة أموالهم، حوالي أكثر من «٣٦» حاخام، ما تكلم أحد!! ولا صدرت كلمة تستنكر هذه الكلمة اليهودية المجرمة، ما في أحد!! لماذا يعطون هذا لليهود؟ لأنهم يريدون

أن يستعلي اليهودي على غيره، لا بأس أن يستعلي اليهودي!! هم يستعلون نعم، لا يعتذرون من تاريخهم الإجرامي الذي ذبحوا فيه الناس، لكن الآن القيامة تكاد تقوم في نفوسهم بسبب استعلاء المؤمن وسعيه من أجل تغير الواقع، من أجل أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ومن أجل أن تعود السيادة للمؤمنين، لا يريدون هذا، هذه قضية يجب أن نربي عليها أبناءنا، يجب علينا أن تبقى حاضرة في نفوسنا، يجب علينا أن ننظر إلى الآخر أنه كافر.

انظر هذا الاستعلاء الإيماني، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، بعض أهل العلم قال: نجاسة مادية، والأغلب على أنها نجاسة معنوية لدينهم لأنهم يدخلون المسجد وهكذا لا بأس من المصافحة والمسلم يتزوج المشركة من اليهودية والنصرانية ولا ينجس بمصافحتها ... إلخ، لا يغسل يده لأنه لو عرق الكافر فعرق الكافر الأغلب على أنها نجاسة معنوية، لكن هذا الاستخدام القرآني بهذا اللفظ على ماذا يدل؟ عندما يقول ربنا جل في علاه: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، هذا الاستخدام القرآني لهذه الكلمة المنفرة، على ماذا يدل؟ هذه الكلمة ماذا تبني في نفس المؤمن؟

يريدون أن يجردوا الوسائل التعليمية ويجردوا وسائل الإعلام مما يسمى بالتطرف وإلغاء الآخر، ماذا يبقوا؟! هل يجردون القرآن من سورة الفاتحة؟! ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ [الفاتحة: ٧]، هل يجردون القرآن من سورة «البقرة» وكل ما فيها، وسورة «آل عمران» وكل ما فيها من حديث عن النصارى وعن عيسى عليه السلام وقول الله عز وجل فيهم؟! وهكذا كل السور وكل آيةٍ تنطق بهذا المعنى العظيم وهو العزة الإيمانية، الترفع الإيماني عن دنايا الآخرين، الآخرين أصحاب أهواء، يعني هذا شيءٌ مما يستقذر والأهواء من الهوى والهوى شيءٌ مذمومٌ في القرآن كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «لم يرد الهوى في القرآن إلا على جهة الذم»، فهذه أهواء.

فكيف أنت تترك هدي القرآن إلى أهواء البشر؟! وهذه الأهواء لا تنتهي وكلها متعارضة، وكل إنسان عنده هوى، هؤلاء أحبار ناس لا يتقنون غسل فروجهم ولا يتقنون الطهارة ولا يترفعون عن النجس، ثم ما يقولونه يريدون منا أن نجعله دينًا ونتبعه!! ثم نترك هدي النبي صلى الله عليه وسلم، مرت على الامة أزمان كانوا يعظمون «ماو تسي تونغ»، ويرونه عظيمًا، وثبت بعد ذلك عندما مات وإذا هو من أقذر خلق الله،

يعظمون القادة الشيوعيين هؤلاء من أقذر خلق الله، هذا «نيتشه» الذي عظم في وقت من الأوقات، تقرأ لبعض المفكرين العرب كيف كانوا يعظمونه «نيتشه»، مات بالسفلس، والبقية عندكم ماذا يعني أن يموت بالسفلس، مرض لا ينتج إلا من القاذورات التي يقترفها، هؤلاء الذين يتخذهم بعض الناس آلهة وأنبياء يتبعونهم من الممثلين، انظر إليهم ينتحرون!! ما من واحد منهم إلا وهو مدمن مخدرات، فأي شيءٍ فيهم من الخيرات؟

ويتركون العظماء كما سماهم الإمام الذهبي النبلاء، هؤلاء النبلاء من النبل، ماذا سمى كتابه؟ «سير أعلام النبلاء»، هؤلاء هم الذين يقتدى بهم، فبهؤلاء تقتدي، أنت تقتدي بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومحمد صلى الله عليه وسلم اقتدى بالأنبياء بأعظم الناس الذين تحقق على أيديهم الخير في العالم، تترك هذا ثم تتبع هؤلاء؟!! ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، هذا هو العلم، الحق، الذي جاءك هو الحق من الله عز وجل، هو العلم وغيره الجهل، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾، لا تطلب منه النصرة ولا تطلب منه أن يحميك ولا تطلب منه أن يعطيك سبحانه وتعالى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾ [البقرة: ١٢١]. هذه الآية كما تقدم الكثير من معناها عندما رأينا بعد أن تكلم الله عز وجل عن اليهود قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ﴾ [البقرة: ٦٢]، فيأتي القرآن ليقول: إن هناك من اتبع الحق ولم يأخذ سبيل الهوى وإنما أخذ سبيل الهدى، فالله عز وجل بيّن أن من هؤلاء من يتبع الحق فقال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، يوجد أناس من أهل الكتاب على معنى ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾ [آل عمران: ١١٣]، فالله عز وجل يقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ﴾ [البقرة: ١٢١]، ﴿يَتْلُونَهُ﴾ يعني هو المعنى الظاهر الأول يعني يقرؤونه، ولكن المقصود ليس فقط القراءة، لو أن امرءًا فقط قرأ القراءة لمجرد القراءة فلا يكون في ذلك مدح، ولكنه مدح ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، فالقراءة لابد أن يكون لها حق، وحق التلاوة:

أولاً: أن يقرأ كما هو.

وحق التلاوة ثانيًا: أن تعرف معانيه.

وحق التلاوة ثالثًا: أن يُتّبع ما فيه.

فهذه هي مراتبه ولذلك بعضهم فسرها بالتلاوة التي يتبعها ما ذكرنا، وبعضهم فسر التلاوة بمعنى تلا الشيء أي تبعه، تلاه أي مشى وراءه، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ﴾، أي يتبعونه؛ لأن هذه المرتبة الثالثة من مراتب القراءة الحق، ولذلك ينبغي على المرء أن يقرأه حق قراءته، أن يقرأه:

أولاً: كما أنزل.

ثانيًا: يقرأه ليتعلم وليتدبر آياته.

ثالثًا: أن يقرأه من أجل أن يعمل ما فيه.

قال سبحانه وتعالى عن هؤلاء أي الذين من أهل الكتاب: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، أي كما أراد الله عز وجل، ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، لأن هناك من يلوون ألسنتهم بالكتاب، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، فهؤلاء يتلونه ويلوون ألسنتهم كما تقدم يحرفون معانيه، يحرفون ألفاظه على مراتب متعددة، ولكن هؤلاء الله عز وجل قال عنهم: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، تلوه حق التلاوة فوصفهم بالإيمان به مدحًا لهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾، المقابل لهؤلاء ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾ [البقرة: ١٢١]، هذه هي المقابلة القرآنية بين طرفين الذين يأخذون ما يأتيهم من السماء على وجهٍ صحيح وعلى حق ما يؤتى به أو الذين لا يأخذون به، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾، أول شيء جعل مقابل التلاوة حق تلاوته الكفر، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾، فالذي لا يتبعه، قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وهذا تأكيدٌ لقوله: خاسرون في الدنيا والآخرة، أما خاسرون في الدنيا ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، هذا خسران، وأما في الآخرة فيكفي أنهم خسروا رضى الله عز وجل وكانوا من أهل النار، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس والثمانون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس السادس والثمانون من دروس التفسير، وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾ [البقرة: ١٢١]، هذه الآية تذكير بأن الذين أعرضوا عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لم يتبعوا الدين الصحيح؛ لأن الله عز وجل قال عنهم: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فهم ظنوا أنهم على ما هم عليه هي الملة التي نزل بها الأنبياء، وأن ما هم عليه اليهود إنما هو اتباع التوراة، أو أن ما هو عليه النصارى يزعمون يتبعون الإنجيل، فالقرآن كذبهم في هذا، وجعل معيار اتباعهم للكتب التي يتبنونها ويؤمنون بها، إنما هو الاتباع الحقيقي، والإيمان بما أمرت به هذه الكتب ومن ذلك أنها أمرتهم باتباع هذا النبي الأمي بما ذكر من صفاته بل بما ذكر من اسمه، اسمه أحمد.

فهذه الآية جاءت كذلك لتؤكد بأن الذي عليه اليهود والنصارى ليس في أعمالهم، ليسوا على شيء لأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، فالله يقول لهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، هذا الخطاب إما أن يكون خطاباً لأهل الكتاب المقصود بهم أهل الكتاب الاصطلاحي أي اليهود والنصارى، وإما أن يقصد به المسلمون، وإذا قصد به اليهود والنصارى فحينئذٍ يكون الكتاب هو ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، يعني التوراة والإنجيل، وإذا قصد به المسلمون فيكون الكتاب هنا يكون القرآن.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ أي الذين أعطيناهم هذا الكتاب، فإذا تلوه حق تلاوته، الله عز وجل يقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، فإذا تلوه حق تلاوته قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، ما المقصود ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾؟ حق التلاوة الحق هي ما تضاد الباطل، هناك تلاوة حقة وهناك تلاوة باطلة، ما هي التلاوة الحقة؟ هذه مراتب، والعلماء يدخلون فيها كل ما يمت إلى التلاوة كما جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، إما بتلاوة ألفاظها على وجهٍ الصحيح، وإما بالتدبر في معانيها لأن الله عز وجل أمرنا أن نقرأ الكتاب تدبراً، وإما أن يكون حق التلاوة المقصود به الاتباع، أن يتبعونه، وبهذا اختلفت كلمات أهل العلم على هذه المراتب، بعضهم جعل المقصود بها كل ما ذكرناه من أنهم يتلونه تلاوةً صحيحة كما أنزل من إقامة حروفه وإقامة ألفاظه والوقوف عندما يجب الوقوف والمخارج كما ينبغي أن يقرأ القرآن ترتيلا، وكذلك حين القراءة وإجراء الكلمات على ما نزل، كذلك التدبر في المعاني، لأن من حق القراءة أن يقرأ المرء القرآن متدبراً إياه، لتحصل له المعاني، القرآن نزل من أجل أن نقرأه فنأخذ الأجر على حروفه فيرتقي المرء، لمجرد القراءة حتى لو قرأه العجمي فإنه بقراءة هذا القرآن له الأجر العظيم ولو لم يفهم معناه، فإذا فهم معناه ترقى في درجة العبودية، والأخذ عن الله عز وجل، فعليه أن يقرأه القراءة التي تستدعي معرفة ما فيه، يتدبر هذا القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

فإذن حق القراءة أولاً: تقيم حروفه قراءةً صحيحة، والعلماء يتكلمون ويستدلون بهذه الآية على وجوب التجويد وعلى وجوب قراءة الحروف، والقراءة بالنطق الصحيح وكذلك يُستدل بها على وجوب تدبر المعاني، المعنى الثالث أو الدرجة الثالثة من حق القراءة هو أن تعمل به، وأجمل هذا المعنى الحسن البصري رحمة الله عليه قال: بالعمل بمحكمه والإيمان بالمتشابه وأن يَكِل ما جهله إلى عالمه، إذن هذه مراتب الناس مع القرآن، ومراتب كذلك القرآن، مراتب القرآن في الحقيقة ومراتب الناس مع هذه الحقيقة، القرآن فيه محكم وفيه متشابه، فإذا قصد بالمتشابه معرفة كون الشيء على ما هو عليه فهناك أشياء كثيرة لا نعرف حقيقتها، نجهل حقيقتها، لكن أن نجهل معناها لا يوجد في القرآن على الصحيح شيءٌ نجهل معناه، لا يجوز اعتقاد أن هناك شيءٌ في القرآن لا يعرفه أحدٌ من أهل العلم، لا يوجد، وهذا قاله جمع من الأئمة، جمع من الأئمة صرحوا بأن كل ما في القرآن يُعرف معانيه، فلا يجوز أن نكل المعنى إلى الله عز وجل دون أن نبحث في

معناه فإذا جهلت معناه حينئذٍ ينبغي أن تسأل من فتح عليه معناه، وكل القرآن معانيه بينة، ولكن هناك من القرآن ما لا نعرف كيفيته، مما يخبرنا عن الجنة، يخبرنا عن الملائكة، يخبرنا عن الجن يخبرنا عن عالم الغيب، يخبرنا عن مغيبات عن دابة قال تعالى: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ [النمل: ٨٢]، فهذه مغيبات لا نعرف حقيقتها، كيف هي؟ لا نعرفها، ولكن نعرف أسمائها، ﴿دَابَّةً﴾ نعرف ما معنى الدابة، والجنة فيها رمان فنعرف الرمان ونعرف معناه، إذن القرآن على هذين الأمرين.

أما الناس مع هذه الحقيقة القرآنية فإنهم على مراتب سواء كان في أنفسهم الواحد قد يكون عالماً في شيء، جاهلاً في أشياء، وقد يكون الناس كذلك على مراتب في معرفة المعاني والاستنباط والذهاب إلى المعاني العميقة فيه، فلذلك أولاً: عليك إن تعمل بمحكمه، وكلمة الحسن البصري في العمل في محكمه دل على أنه لا يوجد من الفرائض ما يدخل في المتشابه، هذه حقيقة قرآنية وحقيقة شرعية يجب أن نفهمها، الأحكام الشرعية التكليفية الحلال والحرام، الواجب المستحب، المباح، المكروه، فهذه لا يوجد فيها متشابه، لأن الشارع جاء بها وجاء بأوصافها وهيئتها وكيفيتها، لا يوجد في الزكاة متشابه، فإذن هذه كلها تدخل في المحكم، ولا يجوز أن ندخلها في المتشابه لا من جهة معناها ولا من جهة كيفيتها على أي معنى أردنا في المتشابه، سواء كان أردنا فيه الجهل بالمعاني عند من يقول به مع ضعفه أو المتشابه وما لا نعرف حقيقته، عند الأكثرين، ولذلك يجب الوقوف عنده ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، على الصحيح، وهذه قراءة السلف.

فإذن يجب العمل بمحكمه، ومن العمل بمحكمه كذلك الإيمان بمحكمه من القضايا التي أخبر عنها على جهة اليقين كتوحيد الله عز وجل والرسالة والمعاد وغير ذلك، فهذا أولاً، ثانياً: والمتشابه أن تؤمن به، ولو جهلت كيفيته، فإذا جهلت شيئاً من المحكم، يعني يمكن أن تجهل شيئاً يأمر القرآن أمراً فلا تعرف كيفيته من السنة، أو من كلام أهل العلم، فحينئذٍ عليك إن تكله إلى عالمه، وهذا هو تمام التسليم لله عز وجل، وهذا يضاد من لم يفهم شيء كفر به، ويضاد من جهل شيئاً لم يؤمن به، هذا يضاد، الإيمان حتى لو جهلت أن تؤمن بأنه حق، وهذا منتهى التسليم، بل لو عرض عندك العارض في قلبك على شيءٍ من الشُبه، الواجب أن تؤمن بما فيه لأنه الحق من الله عز وجل وأن تدع هذه الشبهة حتى يأتي وقتها في إزالتها، بأن تسأل غيرك، أن يفتح الله عز وجل عليك.

فإذن المرتبة الثالثة من حق التلاوة ما هي؟ المرتبة الثالثة من حق التلاوة: هو أن تعمل بهذا القرآن، أن تصدق خبره وأن تعمل بأوامره، والصدق والعدل أن تعمل بالعدل وأن تصدق الخبر، فهذه حق التلاوة، وهذا تنبيه على أن هؤلاء هم الذين يؤمنون بالقرآن ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، على هذا المعنى هم الذين يؤمنون به، وليس مجرد الادعاء، وهذا تنبيه لأن السياق هو سياق حول بني إسرائيل وسياق حول ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾، فهذا تنبيه على أن هؤلاء في نسبتهم إلى كتبهم نسبةٌ كاذبة لأنهم على الضد منها، وأكبر دليل على الضد منها يقول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، وهنا ﴿يَتْلُونَهُ﴾ هذا الذي ذكرناه، وكل ما قيل يدخل في هذه المراتب التي ذكرناها، منهم من يقول: التلاوة بمعنى تلا بمعنى قرأ، وإما معنى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢)﴾ [الشمس: ٢]، يعني تبعها، يتلونه أي يتبعونه، يمشون وراءه، يسيرون على هديه.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هذا الضمير ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ اختلف أهل العلم في المراد بهذا الضمير ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، الكثيرون قال: المقصود ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، من أهل الكتاب أو من المسلمين، فيقرؤونه حق القراءة فيما ذكرناه، ويتبعونه حق الاتباع؛ يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، يؤمنون بمن؟ بمحمد صلى الله عليه وسلم، يعني الخبر الذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، على الصفة التي ذكرت فيما أعطاهم الله عز وجل الكتاب الذين يتلونه فيؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون بهذا النبي العظيم صلى الله عليه وسلم الذي أخبرت به الكتب، هذا نزعٌ منهم صفة الاتباع من اليهود والنصارى، وكذلك مدحٌ لمن أمن به من الصحابة رضي الله عنهم، فهؤلاء قرأوا القرآن حق قراءته، إذا جعلناهم على هذا المعنى، قرأوا القرآن حق قراءته فآمنوا به، وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، وهذا القول الأول أن الضمير ﴿بِهِ﴾ يعود لنبي صلى الله عليه وسلم.

القول الثاني: يعود إلى الكتاب ذلك لأنهم قرأوه حق القراءة فهؤلاء يستحقون صفة الإيمان به، فدل هذا على أنه من لم يقرأ هذا القرآن حق القراءة لم يؤمن به، فهذان القولان:

المعنى الأول: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

والمعنى الثاني: يؤمنون بهذا الكتاب.

وبعضهم قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بما تقدم من الهدى ماذا قال الله في الآية التي قبلها؟ ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾، يؤمنون بهذا الهدى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، يؤمنون بأن الهدى من الله عز وجل، هذا الهدى القرآن، وهي معاني متقربة في أن المقصود به الكتاب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾، القرآن هنا لم يذكر السياق ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، كأن السياق يقوم فأولئك هم المفلحون، فهذا المعنى فأولئك هم المفلحون متضمن ومن يكفر به ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾، فجاء بلفظ المضاد لها ليبيّن حقيقة من اتبعه ومشى على هذا المعنى، ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾، نحن الآن تكلمنا عن مسألة وهي أن حق التلاوة ليست مرتبة واحدة، لا في رقيها في مراتبها، ولا في الحكم عليها، نحن أدخلنا في حق التلاوة هو أن تقرأها بطريقة صحيحة، بنطقٍ صحيح، وبلفظٍ صحيح، هل ما يضاد هذه المرتبة هو الكفر، نحن قلنا: أن تقرأ القرآن بتدبر، لأنها من حق القراءة، فهل ترك القراءة بالتدبر هو كفرٌ بها؟ أم أن ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾، فقط في الثالثة الذي يقرأه فيكفر بمعانيه، لا يعمل بمحكمه، ولا يؤمن بمتشابهة ولا يَكِل معناه، كما قال الحسن: لا يكل معناه فيما اختلف فيه إلى عالمه؟ ولا شك أن من لم يقرأ القرآن ولم يقرأه القراءة الصحيحة ليس كافراً وإن دخل في معناه، ومن هنا فأحكام القرآن غائية، الكلام هنا ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾، الغائية وليس المقصود لا الوسطية ولا الابتدائية، الوسطية هي أن يجمع بين القراءة الصحيحة مع التدبر، والابتدائية هو أن يقرأه القراءة الصحيحة، النهائية هي التي ذكرناها وهو قضية العمل به وتصديق ما أخبر به ومتابعة وقبول ما أمر به وشرعه.

فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ إنما هو حكمٌ غائي، هل يدخل فيه الحكم الجزئي؟ بلا شك، ولكن لا ينبغي تسمية الشيء كفراً إلا بتسمية الشارع له، يعني الذي يقرأ القرآن بغير قراءةٍ صحيحة لم يؤمن به

الإيمان التام، لكن لا يعني أنه نقض أصل الإيمان، فإنما يخرج من الإيمان بمقدار خروجه من الفعل الايماني الذي أمر الله عز وجل به، وحينئذٍ لابد من معرفة حكم هذه المرتبة، لابد من النظر الشرعي في معرفة حكمها لنعرف ما هي مرتبتها، وهل ترك واجباً؟ هل ترك مستحباً؟ وهكذا فلابد أن نعرف مرتبتها، حتى ترك الواجب ليس مرتبة واحدة الواجبات تتفاوت، هناك واجبٌ تركه يؤدي إلى كبيرة، وهناك واجب لا يسمى كبيرة، الشارع فرق بينها، مع أن المعاصي التي هي حرام، فعل الحرام كذلك ليس مرتبة واحدة بل مراتب، ولا يجوز أن نسمي الشيء إلا بتسمية الشارع له، يعني أن نسمي الأشياء كبيرة لابد من تسمية الشارع له، وأن لا نسمي الشيء كفراً ولو بمعنى كفر أصغر إلا بتسمية الشارع له، مع فهمنا أنه يناقض جزءاً من الإيمان، فهناك أفعال لم يسميها الشارع من الكفر، فلا يجوز أن نسميها كفراً، مع أننا نعلم أنها نقضٌ لبعض الإيمان، لجزءٍ من الإيمان الذي لا ينقض أصل الإيمان.

فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾، تنبيهٌ على منزلة من أتى به، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾، هذا حكم الله عز وجل، الخسارة هو النقص، فإذن ما يضادها في القرآن، دائماً ما هي أعظم صفة في القرآن وصف بها المؤمنين؟ الفلاح وهي متضمنة للسعادة وللنجاح والفوز والتمكن، فلاح، فهذه صفةٌ أكثر ما وصف الله عز وجل بها المؤمنين، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾ [المؤمنون: ١]، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨)﴾ [الأعراف: ٨]، أكثر صفة ذكرها الله عز وجل على المؤمنين هي الفلاح، ومع أن الناس يتكلمون عن السعادة كثيراً، لم تذكر في القرآن إلا مرتين وفي سياقٍ واحد، ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ [هود: ١٠٥-١٠٦] ثم قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ [هود: ١٠٨]، فقط هذا السياق والناس يتحدثون عنها، وهي أدنى مرتبة من الفلاح، لأن الفلاح يتضمن السعادة لا يمكن للمرء أن يتحصل الفلاح إلا ويكون سعيداً، ولكن السعادة شعورٌ نفسي، هل يتم فيها الملك أم لا؟ قد يتم بها الملك وقد لا يتم بها الملك.

الله عز وجل قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، هذه كلمة حق التلاوة صارت شعار لأهل الإسلام وشعار لأعمال كثيرة، فالناس يدعون إلى علم التجويد تحت هذا الشعار حق التلاوة، هذا اللفظ القرآني المحبب صار شعاراً لأي عمل يتم به التقوى والعبادة في حق القرآن، فصار تدبر القرآن، تعال لنحقق حق التلاوة، تعال لنعمل لنحقق حق التلاوة، فصارت هي بهذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، قال: لماذا جاء باسم الإشارة، قال: ليدل على القصر الذي تدل عليه الآية، ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، كقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فدل على قصر الإيمان على هؤلاء فغيرهم لا يكون مؤمناً، ولم يأت بالضمير لم يقل هم يؤمنون به، بل قال: ﴿أُولَئِكَ﴾، ليدل على القصر في هذا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾.

قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)﴾ [البقرة: ١٢٢-١٢٣]، هذه الآية تقدم الحديث عنها، وحديثٌ أطلنا، وأول شيء هذه الآية وردت من أجل التأكيد، التكرار من أجل التأكيد، ومن أجل بيان النعمة في ختام الحديث، هنا ليختتم الحديث عن بني إسرائيل في هذا السياق الطويل في الحديث عنهم، يذكرهم بما ذكرهم فيه في الابتداء، هذه في أول الخطاب لهم بعد أن قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة: ٤٠]، فهي في أول الخطاب ثم قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾ [البقرة: ٤٧]، تذكير.

فبدأ الله عز وجل بها وختم بها، بدأ بها من أجل أن ينبههم لقبول النعمة، فإن الله عز وجل من سنته في القرآن أن ينبه إلى نعمه على العبد من أجل أن يُلزمه بالطاعة، ويلزمه بالتصديق ويلزمه بالاتباع، الله عز وجل يتحدث عن نعمه على الخلق ثم يبيّن حقه عليهم، أولاً: يبيّن نعمته، يبيّن كرامته يبيّن عطاءه، يبيّن كرمه، وبعد ذلك يبيّن ما هو الواجب عليهم اتجاه هذه النعم العظيمة، فلذلك الله عز وجل قدم هذا الذكر: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)﴾، فهذا من أجل أن يبيّن لهم نعمته عليهم، ثم بعد ذلك بين كيف تلقوا هذه النعم، وماذا كان حالهم ثم جاءت الخاتمة بذكر هذه الآية، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا تذكير في ختام الحديث من أجل أن يؤكد عليهم، وأن يلزمهم بما أعطاهم الله عز وجل به.

وتكلمنا هناك في الحقيقة كلاماً تاماً فيها، لا نريد أن نعيد، وبيّنا لماذا جاء قوله هناك في بداية السورة، في بداية الحديث مع بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا

شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة: ٤٨]، وهنا ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، بيّنا هناك لماذا جاء بما لا نزيد عليه ولا نريد أن نطيل في هذا الباب.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة: ١٢٤]، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا الحبيب هل يجوز لطالب العلم أن يصلي وراء رجل لا يتقن قراءته من القرآن.

الشيخ: هذا يسمونه العامي، والعامي لا يؤم، عند جمهور أهل العلم الذي لا يتقن الفاتحة لأنها على الصحيح ركن، قراءة الفاتحة على الصحيح عند الأئمة الثلاثة ركن من أركان الصلاة، ومن لا يتقن الفاتحة هذا لقبه في كتب الفقه العامي، ويقولون: العامي لا يؤم إلا بمثله، أي برجلٍ لا يتقن مثله، أما أن يؤم بمن يتقن الفاتحة فلا يجوز، يبطلون الصلاة في هذا، لكن نريد أن ننبه أننا لا نتقعر في هذا، يعني أنا أعلق على كلمة لا يتقن بأم القرآن، يعني شيخ الإسلام رحمه الله يقول: كل ما نراه من قراءة العوام يحتمله الصواب، يتوسع ابن تيمية رحمه الله في هذا الباب وهو من أكثر الأئمة توسعاً في هذا الباب، الشافعي يشدد في كتابه «الأم» قال: هناك شدات في الفاتحة من لم يأت بها بطلت صلاته، الإمام ابن تيمية يقول: أنا لا أعرف عاميًا يقرأ الفاتحة على أي وجهٍ كان إلا ويصيب منها قراءة ويصيب منها وجهًا من وجوه الصواب، انظر إلى الحالة، ولا شك أن المرء عليه أن لا يتقعر، فبعض الناس ربما لو خالف مثلاً قراءة من قراءات التجويد يعدوا الصلاة باطلة، لا، ولكن لا شك أن هناك من القراءات ما لا تنفع مع توسعة ابن تيمية عليه رحمة الله، بلا شك أن هناك توسع في هذا الكلام، العوام يأتي منهم عجائب في هذا الباب، فعلى الأخ السائل أن يتأكد هل هذا مما يبطل قراءة الفاتحة ويدخله في زمرة العوام، أم أن هذا مما يمكن أن يحتمل فلا يدخله في زمرة العوام، هذا الجواب بارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع والثمانون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس السابع والثمانون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة: ١٢٤]، مناسبة السياق لورود هذه الآية هنا، الإمام ابن القيم رحمه الله تقدم ذكر ما احتج به وما أتى به من فوائد في قضية التمهيد للأحكام الكبرى في القرآن، وذكر أن القرآن من سنته ومن آدابه في التربية، أنه يمهد للقضايا الكبرى بممهدات ليكون الأمر أكثر قبولاً، فمنذ أن ذكر ربنا سبحانه وتعالى النسخ وذكر ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، هنا جاء لذكر عظمة البيت الذي بناه هذا النبي، وذلك كله توطئةً لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

وهذا لا بأس أن أذكر طريقته فيقول عليه رحمة الله: بأننا نرى دائماً التلازم بين قصة عيسى عليه السلام وولادته المعجزة، وبين قصة زكريا عليه السلام، توطئةً لذكر هذا الحدث الجلل، الحدث العظيم، فإنه ليس من الحكمة في التربية أن يجابه السامع بالأمور العظيمة، حتى يمهد لها بما يمكن أن تقبل به من أدلة، فاليهود والنصارى عابوا على الناس، على المسلمين المقصود، عابوا عليهم بأنهم تركوا بيت المقدس إلى المسجد الحرام، فالله عز وجل وطأ بالنسبة للحكم وقال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وطأ أن النسخ طريقة القرآن وطريقة النبوة، وليس في ذلك شيءٌ عجب، فوطأ بالحكم، ثم وطأ بأن المقصود هو الطاعة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وهنا توطئةٌ أعظم مما تقدم، هذه التوطئة وهي في بيان عظمة البيت الذي توجهوا إليه، وذلك بالنظر إلى بانيه، مع النظر إلى مكان بنايته، هذا المكان عظيم، ولذلك إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة لأنه بنى بيته العظيم الذي هو أول بيتٍ وضع للناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران: ٩٦]، فأول بيت وضع في الأرض هو بيت الله عز وجل الحرام في مكة، والبيت الثاني كما في الحديث في الصحيح، البيت الثاني هو بيت المقدس، قالوا: كم بينهما؟ قال صلى الله عليه وسلم: أربعون عامًا، والذي في التوراة أن الذي بنى بيت المقدس هو يعقوب عليه السلام، وهذا كما يقول ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» يناسب، أي هذا القول يناسب أن إبراهيم عليه السلام بنى البيت الحرام وابنه المقارب له بنى بيت المقدس، وما فعله سليمان عليه السلام هو تجديد هذا البيت، وليس بناؤه في الابتداء.

إذن الله عز وجل يريد أن يبيّن لنا عظمة هذا البيت، فبين لنا عظمة بانيه، وبانيه هو إبراهيم عليه السلام كما سيأتي بمساعدة ابنه إسماعيل عليه السلام، إذن المناسبة هي توطئة، هذا المقصود أن هذه الآيات توطئة لذكر قضية تحويل القبلة، وتحويل القبلة أمرٌ جلل، فهناك من ارتد من الناس بعد أن تحولت كما جاء في السير، فدل على أنه أمرٌ عظيم، ومن بداية تحويل القبلة هو بداية مخالفة اليهود والنصارى، فصار من علل الشريعة الإسلامية هو مخالفة اليهود والنصارى، في بداية الأمر كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب موافقة اليهود والنصارى رجاء إسلامهم، وبعد أن حُسم الأمر فكان هذا البيان وصار من علل الأحكام الشرعية مخالفة اليهود والنصارى، حتى ما كتبه ابن تيمية عليه رحمة الله «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، يعني الموجب لأن تمشي على الصراط المستقيم موجب ذلك لتصيبه أن تخالف أصحاب الجحيم، وعلى رأسهم اليهود والنصارى، فقال الله عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾، وهذا الذي عليه الأكثرون في سبب ورود هذه الآية، وهناك من قال بغير ذلك.

وذلك لأن الله عز وجل علم أن اليهود والنصارى يحتجون بإبراهيم، واليهود والنصارى زعموا أنهم يمشون على سننه، فأراد ربنا سبحانه أن يبيّن لأن السياق الذي تقدم في أغلبه عن اليهود، ثم جاء ذكر النصارى معهم تبعًا لهم، فأراد أن يبيّن ربنا سبحانه وتعالى أن إبراهيم لم يكن على ما تزعمون، كما قال في سورة «آل عمران»: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ [آل

عمران: ٦٧]، ثم قال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ [آل عمران: ٦٨]، وجردهم تاريخياً قبل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ٦٥]، فجردهم من جهة الفعل وجردهم من جهة التاريخ والنسبة، فهذا كله يقوله أهل العلم في سبب ورود هذه الآية.

والآية تبيّن عظمة هذا النبي العظيم إبراهيم عليه السلام وهو اسمٌ سرياني، المهم هو عجمي وليس بعربي، والأنبياء العرب أربعة فقط، المذكورين في القرآن، وأما إبراهيم عليه السلام فليس بالعربي، وكيف صار محمد صلى الله عليه وسلم عربيًا؟ عندما وضع إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل عليه السلام في مكة في البيت عند الأرض ليست ذات زرع، فجاءت «جرهم» وسكنت عنده فتزوج منها، ثم فتق لسانه بإشراف اللغات، كان قبل إسماعيل عليه السلام الناس من العرب يتكلمون لغة تسمى اصطلاحياً بالعروبة اللغة العروبية، وكانت مختلطة لم تكن بمثل هذا الاستواء والكمال الذي عليه هذه اللغة في شرفها كما أُنزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم بها، فإسماعيل عليه السلام تكلم لغة «جرهم» ثم رقى هذه اللغة، الله عز وجل رقى هذه اللغة على لسانه ففتق لسانه بالعربية، فصار ابنه النبي محمد صلى الله عليه وسلم من العرب.

الله عز وجل هنا يذكر شرف إبراهيم، ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾، الابتلاء هو الامتحان، وهذه الكلمة تهدينا إلى خطأ من قال -وأقصد به ابن تيمية رحمة الله عليه ونفع به- عندما أنكر كلمة التكليف، ونقلها بعض المعاصرين أن كلمة التكليف الموجودة في كتب الفقه وكتب الأصول أنها كلمة لم ترد في الكتاب والسنة، وإنما ورد النور وورد الهداية وورد الروح، فكلمة التكليف فيها شيء من الكلفة والمشقة، والقرآن لم يصف شرعه ولا السنة وصفت الشرع المنزل بأنه تكليف، فيه كلفة، وقلت أنا في شرحي للموافقات: بأن هذا الاعتراض غير صحيح، ومما يدل على عدم صحته هذه الآية، على وجهٍ من وجوه تفسيرها، فالله عز وجل سمى التكاليف الأوامر والنواهي لإبراهيم عليه السلام سماها ابتلاءً، وكلمة الابتلاء أشد من كلمة التكليف، التكليف فيه كلفة فيه مشقة، لكن الابتلاء فيه امتحان، ويكون شديداً وشاقاً، فلذلك لو سمي الشرع بالابتلاء لهذه الآية لما كان لأحدٍ أن ينكر عليهم، فتسمية الشرع بالتكليف أن فيه كلفة وفيه مشقة ليس مخالفاً للشرع، بل كما في الحديث الصحيح (حفت الجنة بالمكاره)، فإذن الشرع يمكن أن يطلق عليه هذا على معنى من المعاني.

والله عز وجل يقول: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، قلنا: إبراهيم العرب تنطقها على صيغ كثيرة، أوصلوها إلى ستة، مثل إبرام، ويقولون أبراهم، ويقولون: إبرهيم دون الألف وهكذا، فلهم وجوه في نطقها والقرآن لم يذكر إلا هذه الصيغة إبراهيم عليه السلام، طبعًا التوراة تقول: أنه كان اسمه إبرام ثم ترقى إلى إبراهيم، ولا ندري ما معنى الترقية هنا في الاسم.

الله عز وجل ابتلاه امتحنه، الابتلاء هو الامتحان هو التكليف بالشيء من أجل أدائه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾، وهنا قدم اسم إبراهيم، وهناك قراءة لا أريد أن أعرج عليها، ولا أذكر ما يترتب عليها من معاني، وهي مذكورة في كتبه التفسير، قرأها ابن عباس وقالوا: هي اختيار الإمام أبي حنيفة، وذلك في رفع إبراهيم ونصب ربه يعني أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه فاستجاب الله له دعاءه، هذا هو المعنى، ولا أريد أن أعرج عليها، لأنه شيء لم يذكر كثيراً ولم يهتم له أهل التفسير، المهم أن الله عز وجل قدم هنا اسم إبراهيم عليه السلام وهو الذي وقع عليه التكليف على من أوقع التكليف وهو الله عز وجل، فقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾، لماذا؟ لأن الحديث يدور حول إبراهيم عليه السلام لا حول التكليف، ويدور حول شرف إبراهيم عليه السلام لا حول شيءٍ آخر.

فإذن الحديث هو يدور حول إبراهيم عليه السلام فتقدم ذكره ليكون هو الذي عليه الذهن وينصب عليه الحديث، لأن الحديث عنه، عن إبراهيم عليه السلام فتقدم ذكر اسمه، والله عز وجل شرفه بقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾، انظر هنا الرب ليس فقط على المعنى العام وهو رب العالمين، رب العالمين يعني خلقهم، رزقهم، أمدهم، أوجدهم، لكن كذلك ربهم يعني رباهم، فإذن هو رب العالمين من جهة التكوين، وهذا شاملٌ لكل موجود، الله عز وجل رب السماوات ورب الأرض، وهو رب الكفار رب العالمين، حتى الكافر من الذي خلقه؟ الله عز وجل، من الذي يطعمه ويسقيه؟ الله عز وجل، من الذي أحياه؟ الله عز وجل، من الذي يميته؟ الله عز وجل، فالله رب العالمين بهذا المعنى، ولكن حين تكون التربية على المعنى الخاص فهو ربه بمعني رباه، وهذا مقام تشريف لا مقام إخبارٍ فقط، رب العالمين هو مقام ذكر إخبار للموجودات، وإن كانت فيها تعظيم الرب، ولكن هنا ربه كأنه يقول: إن إبراهيم هو عبد الله وهو أشرف الأسماء، أشرف ما يتسمى به أن يكون عبداً لله عز وجل، فقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾،

فإذن لما قال: ﴿رَبِّهِ﴾، أي الذي رباه، وحينئذٍ ما الذي تتوقعه من رباه الله عز وجل على عينه، ماذا تتوقع؟ رباه الله على عينه.

ومن هنا لهذا المعنى من التربية التي نراها خاصة في إبراهيم عليه السلام، أننا نرى ذكره متصلاً في القرآن من صغره إلى شيبته، وجاءت الأحاديث تبيّن الكثير مما اختص به هذا النبي، قال تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾ [الأنبياء: ٦٠]، الله عز وجل ذكر أمره وهو فتى، وذكر أمره بعد ذلك في كل مسيرة حياته، وجعل أمره لأنه هو أول من أتى بهذه الشرائع لكرامة الله عز وجل له جعل هذه الشرائع التي أتى بها فطرةً للخلق وعبادةً لهم، فالله عز وجل رباه فذكر شأنه من صغره وفي فتوته وفي شبابه وفي هجرته وفي زواجه وفي ابتلاءه وهكذا حتى ذكر وفاته، وذكر شأنه والكثير من أخباره.

ونحن نرى في القرآن الكريم أن أكثر الأنبياء ذكراً لمسيرتهم في شأنهم مع أقوامهم هو موسى عليه السلام، انتبهوا لهذا التفريق، نرى أن أكثر الأنبياء ذِكراً مع قومهم هو موسى عليه السلام، ولكننا نرى أن أكثر الأنبياء ذِكراً لحال شخصه هو إبراهيم عليه السلام، الحديث عن شخص هذا النبي يتخلل القرآن، ولذلك كان أمةً لله، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]، ما معنى أمة؟ يعني اجتمعت فيه خصال الخير التي لا تجتمع إلا في أمة، وبهذا صار أمة أي صار إماماً، فأمة جامعة لخصلتين، الخصلة الأولى: أنها جامعة لكل خصال الخير، وثانياً: أن هذه أمة بمعنى صارت قدوة، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾ [النحل: ١٢٣]، أوحى الله عز وجل إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملة إبراهيم، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير على هدي إبراهيم عليه السلام، ومن ذلك لو قال: أين كسر الأصنام؟ انظر إلى اقتدائه حتى في كسر الأصنام، فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسندٍ صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم وعليًا رضي الله عنه انطلقا ليلةً إلى الكعبة، فارتقى عليٌ كتف النبي صلى الله عليه وسلم حتى كسر صنماً ثم خرجا يتعاديان، تفكر لماذا أراد النبي هذا؟ اقتداءً بطريقة إبراهيم عليه السلام، اقتداءً بفعل إبراهيم عليه السلام حتى في هذا، ونراه قد هاجر.

فلذلك إبراهيم عليه السلام في الحقيقة لو تفكر المرء في أخباره في القرآن لكان له أن يجمع جزءاً كبيراً وفضائل عظيمة جمة، ولذلك استحق لما نودي النبي صلى الله عليه وسلم بهذا النداء كما في صحيح مسلم، «يا خير البرية»، ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم؟ واحد نادى النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «يا خير البرية»، قال صلى الله عليه وسلم: (ذاك إبراهيم)، هذا غمطٌ للنفس، ولكنه انظر لما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس؟ قال: (أتقاهم)، قال: ليس عن هذا نسألك، قال: (أكرم الناس الكريم، ابن الكريم ابن الكريم) من؟ يوسف ابن يعقوب ابن اسحاق ابن إبراهيم سماه الكريم، فلذلك هذه خصاله صلى الله عليه وسلم، وسنأتي إلى هذا الأمر الذي حصل منه حتى استحق هذه الإمامة.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾، ابتلاه امتحنه، قال: ﴿بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، أي أتى بهن على الكمال، السُنة تخبرنا أنه أول من أتى بها هو، هذه الجوامع التي حصلت له من الأفعال حتى صار إمامًا هو أول من أتى بها، وهذه الكلمات مع اختلاف العلماء في شأنها كلها تدل على الأولية والقرآن ينبه على النهاية والخاتمة، فقال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، ماذا قال العلماء عن هذه الكلمات، ما هي؟ قالوا: هي الشرائع، ومن ذلك العلماء قالوا: لو نظرنا لوجدنا صفات هؤلاء الذين تحصل بهم الإمامة، قالوا: وجدناها في سورة «التوبة» في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ [التوبة: ١١٢]، ووجدناها كذلك في سورة «الأحزاب» عندما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فعشر صفات في سورة «التوبة» وعشر صفات في سورة «الأحزاب»، قالوا هذه من الكلمات التي أتمهن وهذا تفسير وارد عن ابن عباس رضي الله عنه، قالوا: ومن ذلك ما ورد في سورة «المؤمنون»، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)﴾ [المؤمنون: ١-٩]، وقالوا: وبقية هذه الكلمات

في سورة «المعارج»، قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢)﴾ [المعارج: ١-٢]، إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤)﴾ [المعارج: ٣٤]، قالوا: هذه الكلمات، فهي كلمات الشرائع، هذا قول.

القول الثاني: وهو قريبٌ منه، قالوا: هي الفطرة التي أُمر بها، ولذلك هناك أوامرٌ في الرأس وهناك أوامرٌ في البدن، في الرأس مثل ماذا؟ مثل قص الشارب، مثل الفرق ورد وإن كان في حديثٍ آخر، مثل المضمضة، مثل الاستنشاق، قالوا هذه كلها أوامر التي أتمها، قالوا: وفي البدن مثل حلق العانة ونتف الإبط وقص الأظافر إلى غير ذلك وهذه وردت في أحاديث بأنها الفطرة، ما معنى الفطرة؟ الفطرة تكلمنا عنها كثيراً واتفقت عليها العقول أنها حسنةً وجميلة، لكن لماذا سماها فطرة؟ سماها فطرة لأن الناس يغفلون عنها بحجة بقاء الأصل، الشارب لماذا لا يتركونه فلئلا يظن أحد أن بقاء الشارب من الفطرة، كما بقاء الحواجب من الفطرة، فلا يجوز لأحد أن يلمس حاجبيه، فحتى لا يظن أحد بأن قص الشارب تدخلٌ في الفطرة كان هو الفطرة، ومن ذلك الاستنجاء وانتقاص الماء وإلى غير ذلك مما ورد في (الفطرة عشر) و(الفطرة خمس)، هذا قولٌ ثاني وهو قريب من الأول وهو متعلقٌ بالشرائع، يعني الله عز وجل ابتلاه بالشرائع، وهذا رجحه ابن كثير في تفسيره.

والقول الثالث: وهو أن الكلمات هي ما أتت عقب هذا الخبر، قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، ما هي الكلمات؟ قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وهنا ملحظٌ جميل، وهذا رجحه ابن جرير عليه رحمة الله، وهو قول مجاهد، الأول منسوب لابن عباس رضي الله عنهما ولغيره، وهذا منسوبٌ لمجاهد، هذا القول عجيب! للذي يتفكر فيه عجيب هذا القول! وهو أنه رأى أن الله عز وجل جعله إمامًا هذا ابتلاء، قلنا: أكثر من مرة أن العزة للمؤمنين هو تكليف، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، هذا تكليف، أكثر من مرة قلنا: أن الوعود الإلهية تكاليفٌ شرعية للعبد أن يأتي بأسبابها، يعني عندما الله عز وجل قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨]، يعني ما المطلوب؟ المطلوب من العبد أن يسعى لتحصيل أسباب العزة ليكون عزيزاً، فهي وعد من الله، لمن أخذ بأسبابها فالأسباب تحصيل أسبابها هو تكليف، فالوعود هذا أكثر من مرة ذكرناه، الوعود الإلهية هذا الناس يفهمون الوعود الإلهية عطايا، كما يعتقد اليهود أنهم شعب الله المختار، عطايا لله من غير تكليف حتى لو أنهم فسدوا وضلوا وكذبوا وو ...

فعطية إلهية خلاص ثابتة عليهم تكوينًا وقدراً لا تنفك عنهن، بعض المسلمين يظن هكذا، ولا يعلم أن الوعود الالهية تكاليف شرعية.

وهذا قول لمجاهد ورجحه ابن جرير الطبري في تفسيره، وإن لم يرضه ابن كثير لكنه الحقيقة فيه ملمحٌ جميل، سأتكلم عن القول الثالث: وهو الذي يميل إليه القلب، لكن انظر قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فأن يكون إمامًا، ماذا يعني أن يكون إمامًا؟ أن يسبقهم، ولذلك لما الله عز وجل ختم أوصاف المتقين والمفلحين والصالحين في سورة «الفرقان» بقوله ماذا يدعونه: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾ [الفرقان: ٧٤]، ماذا تعني ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾؟ تعني أن تتقي الله عز وجل تقوى حتى تسبق به كل الناس، أو تسبق أبناء عصرك أو تسبق أترابك، فهذا دعاءٌ بأن يرفع الله الشأن في الابتلاء وشأن مقامك في الجهاد وشأن مقامك في قيام الليل وشأن مقامك في قراءة القرآن وشأن مقامك في اجتناب المحرمات، فلذلك قال مجاهد ابن جبر عليه رحمة الله: ابتلاء الله لإبراهيم أن جعله إمامًا، كيف تحصل؟ هنا يأتي القول الذي يميل إلى القلب وهو أن إبراهيم عليه السلام هو إمامٌ بالشرائع الأولى لأن إبراهيم عليه السلام هناك شرائع هو أول من أتى بها، فأول من اختتن هو إبراهيم عليه السلام، اختتن في الحديث في الصحيح أنه اختتن وهو ابن ثمانين، أول من اختتن في البشرية هو إبراهيم عليه السلام بقدوم، هناك في قرية في فلسطين اسمها كفر قدوم، الناس يقولوا: قدوم، الورد قدوم بالتسهيل وليس بالتشديد وهو ابن ثمانين، الله عز وجل أمره أن يقطع قلفة بدنه بأن يزيلها بالقدوم، وضعها وامتثل أمر الله، فهذا معنى جيد، ولكن انظر إلى هذه الإمامة العظيمة التي استحقها ليس فقط في تطبيق الشرائع، مع أنه أتى بشرائع جديدة التي ذكرنا الفطرة، الله عز وجل كلفه بشرائع لم يكلف بها نبيًا من قبل ولا أمةً من قبل، فصار إمامًا لمن جاء بعده في هذه الأوامر التي أتى بها.

لكن لو تفكرنا في حال إبراهيم عليه السلام لوجدناه أنه جمع خصالاً من الإمامة لم تكن لغيره، الله عز وجل ابتلاه بكل ما يُبتلى به البشر، إبراهيم عليه السلام أُبتلي بكل ما يُبتلى به الإنسان، يعني انظر هذا الموقف، قال تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وأنا ذكرت هذا في تفسير سورة «الأنبياء» ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾، هل هي على معنى التحقير أم أنهم لا يعرفونه على الحقيقة؟ احتمالان موجودان، يعني ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ﴾، هل أرادوا تحقيره مع عن أباه كما تقول بعض

كتب التواريخ أنه مقدمٌ في قومه، فأرادوا تحقيره؟ أم أنه في الحقيقة ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾ يعني ليس مشهوراً بين قومه؟ أنا أميل إلى القول الثاني مع أن القول الأول معتبر، أراودا تحقيره، لكن أنا أعتقد بأن القول الثاني أقوى يعني هو لم يكن له شأن، وأن يقوم رجلٌ ليس له شأن في وسط قومه بهذا المعنى تكون عين قومه ضده أكبر، يعني لو أن رجلاً عظيماً تلكئوا في كيفية قتله، ولكن كونه مستضعفاً هذا أسهل، ولذلك ﴿قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، وأنا قلت مرةً: ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، تخالف قول إخوة يوسف عليه السلام، إخوة يوسف قالوا: اقتلوه في الأول اختاروا الأكثر ثم نزلوا إلى الأدنى، ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: ٩]، طيبون يبدؤون في الأول بالقتل، عندهم غضب شديد، بعدها يقول له: اتق الله خفف، الأتقياء يبدؤون حتى لو أرادوا الشر ولكن عندما يكون في قلوبهم الخوف من الله والطاعة يبدؤون بالشدة، ولكن بعد ذلك يتنازلون، بخلاف المجرمين في الأول بدؤوا ﴿اقْتُلُوهُ﴾ قالوا: لا، زيدوا، كيف؟ ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

القصد من هذا: أن هذا النبي أول شيء افتتن بهذه الفتنة العظيمة التي لا يكاد أحد يعني وقفها هذا الموقف أن يقف من قبله من الأنبياء، أن يقف أمام النار العظيمة التي جمعوا لها الخشب فصارت عظيمة، وحتى ألقوه، وهو لم يقل إلا كلمة واحدة حسبنا الله ونعم الوكيل، موقف يكفي أن يتخيله المرء فيعلم عظمة هذا الفتى، وبعد ذلك هاجر، فارق الوالد والوالدة والأرض التي نشأ عليها والهجرة عظيمة وترك الموطن ليس بالأمر السهل، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، جعلوا الإخراج سبيلاً من سبل العذاب، الهجرة، وبعد ذلك ما حصل له من فتنته في قضية الولد، عندما أمره الله عز وجل مع زوجته هاجر المصرية أن يرميها في واد غير ذي زرع، ثقةً بالله عز وجل، (آلله أمرك يا إبراهيم؟ قال: الله أمرني)، وبعد أن بلغ معه السعي أمره الله أن يذبحه، انظر هذه الفتن، هذه فتن لم تكن، لم تحصل لأحد، ولذلك لما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، الأقوى أن إبراهيم فتن وابتلي بمثل هذه الأوامر الشرعية العظيمة، والتكاليف التي تدل على أنه ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧)﴾ [النجم: ٣٧]، لما ذكر الله الأنبياء ماذا قال عنهم؟ ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦)﴾ [ص: ٤٦]، الله أخلصه، ولذلك هو خليل الله، خليل يعني تخلل حب الله قلب إبراهيم حتى ملأه عليه ولم يبق

غيره، لا أب ولا أم، لا زوجة ولا ولد، لا أرض لا مال ولا شيء، لم يبق شيء، فالله رفع شأنه وأكرمه وجعله للمتقين إمامًا.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، هذا هو الأقوى أن هذه الكلمات وهي كلماتٌ تشريعية كما يقول العلماء على هذا المعنى، وإذا قال المرء هذه كلها في حقه موجودة، هذا نعم، يعني هذه كلها موجودة في حق إبراهيم عليه السلام، فهذا نعم.

هذا ماذا يفيد؟ يفيد أشياءً كثيرة ولكن أهم هذه الأشياء التي يفديها هذا المقام وهو عظمة الفرادة، ما معنى عظمة الفرادة؟ في مرات إذا المرء ارتقى في مقام العبودية وليس السوقة وليس عامة الناس، ولكن المرء إذا ارتقى في مقام العبودية يقف موقفاً يُمتحن فيه، هو يكون الوحيد، يصبح الوحيد في هذا المقام، فإما أن يدخل في مقام الإمامة وإما أن لا يدخل في مقامها، يصبح هو وحيد، نحن رأينا هذا المقام أول الناس دخولاً به في هذه الأمة هو الصديق رضي الله عنه، أول الناس دخولاً في مقام هذه الخلة العظيمة، ومقام الابتلاء هو الصديق رضي الله عنه، ولذلك الصديقية هو دخول العبد في مقام العبودية من كل باب، تذكرون حديث أبي بكر رضي الله عنه لما النبي صلى الله عليه وسلم سأل في الصباح: (من أصبح منكم صائماً؟ من تصدق؟ من عاد مريضاً؟ من صلى على جنازة؟) لم تجتمع إلا فيه، هذا مقام الصديقية، ولذلك امتحن أبو بكر رضي الله عنه امتحانًا عظيمًا في أي شيء؟ في أحب الناس إليه، من هو أحب الناس إليه؟ فاطمة، أيطيعها، أم يطيع أباها، عندما غضبت عليه، فقال: «والله أنكم لأحب إلي من نفسي وأحب الناس إلي»، الناس يقولون: الموضوع سهل جدًا، لا ليس سهل أن يعصي المرء حبيبه في طاعة الله، وأعظم بابٍ دخل فيه هذا المقام وهو مقام الإمامة الذي لا يمكن أن يسبق به، فصح قول عمر رضي الله عنه: «وأينا تقطع له الأعناق مثل أبي بكر»، ما أحد يصل لأبي بكر لم أقامه الله في حرب الردة، ما أحد يسبقه، هذا مقام انظر الترقي كيف يكون، فإذا جاء مقام كسباق الاحصنة تتنافس الناس، عمر ينافس أبا بكر لا يستطيع، يسلم، فلذلك ابتلي في حرب الردة حتى صار إماماً.

انظر إلى مقام الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، في خلق القرآن حتى سمي بالصديق الثاني، صار الناس يطلقون عليه الصديق الثاني، كما قام أبو بكر رضي الله عنه في حرب الردة صديقا أولاً لا يجارى، صار

أحمد، كل الناس خلاص، إما أنهم نشأوا في الركاب خوفاً من السيف والقتل وإما أنهم ماتوا، بعضهم مات في الطريق، مات انتهى، ولم يبقى إلا أحمد رحمه الله في هذا الباب نصره الله، هذه الإمامة على المرء أن ينتبه لهذا، عند تبقى لوحدك مع الحق انتبه هذه مجرد خطوة يسيرة، يعني بين الأول والثاني لا يشترط أن يكون مئة كيلو ولا مئة متر، يكفي أن تزلف أمامه بمسافة صغيرة جداً، الإمامة، فهذا يعلم المرء.

وإذا أخذنا هذه المعاني التي تقدم ذكرها من وصف الكلمات، نراها كما ترون متدرجة، ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، ابن كثير رحمه الله في تفسيره قال عن هذه الآيات -وانتبهوا إلى الآية التي قبلها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١]- قال: هذه الصفات جاءت لذكر خصال من اشترى الله أنفسهم، يعني الله عز وجل لا يشتري بضاعة هاملة، خربانة بائرة، واحد ليس تائباً وسخ بسبب الذنوب والمعاصي لماذا يشتريه، إنما يشتري هذه الصفات التي ذكرت بعد هذه الآية ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ [التوبة: ١١٢]، هذه هي الخصال، ثم بعد ذلك تأتي هذه الخصال التي مع النفس ومع الذات في قضية السبق بها، الله يقيم على ألسنتك من المعاني ما تكون فريدًا بها.

انظر لبعض الكلمات الآن تنسب للإمام الشافعي رحمه الله، وكلمات تنسب للإمام أحمد رحمه الله، وتبقى السمة لهم، يعني الآن لو رجل قال: هناك بعض النقد، أي العملة، خلاص تعرف أن هذا النقد منسوب لفلان، هذا البناء بناه هذا الرجل، فأنت تبقى معظماً لهذا الرجل بهذا البناء، أنا لو قلت لكم الآن: ماذا ينقم أعداء مني، إن قتلي سياحة وسجني خلوة، فورًا هذه كلمة لمن؟ لابن تيمية رحمه الله، خلاص موضوعة لهذا، يعني هذه كلمة قرآنية، فخلاص تصبح طابعاً مميزاً لهذا الإمام، وهكذا أئمتنا، كل أئمتنا الله رفع شأنهم في مثل هذا، هذا إمام، هذا تفتق.

والآن أنت عندما تقول: من أول من استدل بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾ [النساء: ١١٥]، على الإجماع من أول؟ تقول: الشافعي رحمه الله، أهل العلم ينسبون هذه الفرادة لهذا الإمام وهكذا، ما من إمامٍ إلا وحصل له الإمامة بهذه الفرادة، هذه فرادة في زمن بموقف إيماني، بكلمة إيمانية، برد على المجرمين ...

إلخ، فتصبح فرادة، هذا من العطاء الإلهي، وهذه من الدخول في ملة إبراهيم، حتى تكون أنت من ملة إبراهيم هذا، حتى تكون أنت من أتباع ملة ابراهيم بمعنى الإمامة، وأما التابع فكثير، كل أمة محمد صلى الله عليه وسلم أنت في الصباح تقول: أصبحت على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وملة أبينا إبراهيم.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾، أي اذكر يا محمد، أو قيل اذكروا يا أهل الكتاب، ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، أتى بهن على التمام، فقال الله عز وجل: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧)﴾ [النجم: ٣٧]، وعد فأوفى، باع البيع وصدق في العطاء، فالله عز وجل وصفه فقال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، الكلمات كلها، وهذا أيها الإخوة الأحبة شيءٌ عظيم، النفوس لها أمراضها في الابتداء، ولها أمراضها في الانتهاء، ما هو المرض الأكبر في الابتداء؟ هو التسويف، التسويف يمنعك من السلوك الابتدائي، يمنعك، تسوف هذا مرض كبير جداً، والمرض عند الانتهاء هو ماذا؟ اليأس والقنوط، بالانتهاء، والأشياء جميلة بابتدائها ولكن لا يتم جمالها إلا بتمامها، بأن تتمها، وآخر لبنة في التمام هي أجملها، أخر لبنة هي كل شيء، اللبنة الأولى مهمة، لولاها لم يكن رقم ألف، ولكن بعد تسع مئة وتسعة وتسعين ليس ألف لم تتم، بقي واحد، هذا الواحد يساوي كل ما أتيت به، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف نفسه قال: (إِنَّ مَثَلِي ومَثَلَ الأَنْبِياءِ مِن قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فأحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ، إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِن زاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ به، ويَعْجَبُونَ له، ويقولونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قالَ: فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتِمُ النَّبِيِّينَ)، هو أجملها لأنه يعادل كل اللبنات التي سبقت، قال تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، نتابع إن شاء الله في الدرس القادم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والثمانون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس الثامن والثمانون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة: ١٢٤].

تقدم بعض الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وما هي هذه الكلمات على ما ذكره أهل التفسير واخترنا بأنها كلمات الابتلاء والامتحان، انظر إلى أن الله عز وجل في هذه الآية قدم الابتلاء على جعله إماماً، وهذا هو المعنى الذي يدور حوله أهل العلم في أن الإمامة لا تكون إلا بعد الابتلاء، كما قال الإمام الشافعي رحمة الله عليه: «لا يُمكن المرء حتى يبتلى»، فهنا قدم قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، هذا على وجه بأن الإمامة حصلت بعد الابتلاء، وهذا قولٌ اختاره صاحب «روح المعاني» الآلوسي، بأن هذه كلمات الابتلاء كانت قبل النبوة، والذي نعرفه من الابتلاءات إنما كانت بعد النبوة كذلك، فليس معنى خروج المرء من الابتلاء ليكون إماماً، أن يخرج من الابتلاء كلياً وإنما المرء يخرج من ابتلاءٍ إلى ابتلاء، ومن قدر الله عز وجل إلى قدر الله.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وهذا دليل على أن الإمامة اصطفاء سواء كانت في أصلها أو في فرعها، والمقصود بأصلها يعني النبوة أصل الإمامة وأعظم الإمامة وهي النبوة، هو أن يكون المرء نبياً، والأنبياء هم أئمة الأئمة جميعًا، وما كان الناس أئمة إلا باتباعهم لأئمتهم العظماء الأوائل وهم الأنبياء، فالنبوة اصطفاء وليست اختيارًا من البشر وليست كما يقول الفلاسفة وبعض الصوفية بأنها

ترقي في منازل العبودية، لا هذه اصطفاء من الله عز وجل، لكن هذا الاصطفاء يكون لمعنى ولا شك، هذا الاصطفاء لا يكون هكذا، وإنما يكون لمعنى في نفس هذا المصطفى، ولذلك الله عز وجل لم يصطفي نبياً إلا وكان على مقدار ما علمه الله عز وجل فيه من الخير، فهذه الإمامة العظمى التي حصلت من خلال النبوة.

وكذلك الإمامة الجزئية أي الإمامة لمن تبع الأنبياء كذلك هي اصطفاء من الله، الله عز وجل هو الذي يأذن له أن يطيعه، هو الذي يأذن له أن يُخلص له، هو الذي يأذن له أن يقوم الليل، ولذلك الله سبحانه وتعالى يختار كذلك ويصطفي، هؤلاء الأولياء يصطفيهم، أناس كثير يسعون على وجهٍ من الوجوه فلا يحصلونها إن لم يكونوا أهلاً لها، لهذه الطاعة، ولذلك يجب الإخلاص لله عز وجل حق الإخلاص حتى يستحق العبد اختيار الله عز وجل له إمامًا، وهنا كما قلنا: قدم الابتلاء على الإمامة.

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ﴾، تقدم الكلام حول كلمة الناس فإنها تأتي على معاني متعددة، ذكرناها عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣]، وهذا رد لقرأت بعض أهل العلم، وهذا كلام غير صحيح، بأن كلمة الناس في القرآن لا تطلق إلا على الكفرة، هذا غير صحيح، وإنما على المعاني التي تقدم ذكرها عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، وكأنهم هم الناس على وجه المدح من أنهم الناس وكأن غيرهم على غير هذا المعنى.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ما المقصود بها؟ الذي نراه أن حتى المشركين ينتسبون إلى إبراهيم عليه السلام، يعني اليهود والنصارى مشركون وينتسبون للنبي إبراهيم عليه السلام، قريش مع شركها كانت تنتسب لإبراهيم عليه السلام، يكذبون عليه، كما ذُكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما دخل الكعبة وجد صورة إبراهيم وإسماعيل يتقاسمان بالأزلام، فقال: كذب ومسحها ومحى هذه الصور من داخل الكعبة، ومع ذلك كان يقولون: نحن أحق بإبراهيم منك، والله عز وجل جردهم من هذه النسبة، ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وجرد هذه النسبة من اليهود بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ٦٥]، وجرد المشركين من هذه النسبة، وهذه

إحدى معارك الحق مع الباطل، في لمن تنتسب؟ فتجد أن الباطل مع فسقه وفجوره ينتسب إلى من يحب الناس، فمن دعوتك ومن جهادك هو أن تجرد هذا الكذاب من هذه النسبة.

وما سيأتي من الآيات في عدم إعطاء الولاية للظالمين والإمامة للظالمين من هذا المعنى، يعني هناك من يقول: نحن ذرية إبراهيم، نقول لهم: نعم أنتم من ذريته النسبية، ذرية النسل والنسب، ولكن لستم على هديه وعلى دينه، والقرآن جردهم من هذا.

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾، إذن هو اختيارٌ رباني، وعلى المرء أن يخلص لله عز وجل ليختاره، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ﴿إِمَامًا﴾ هنا بمعنى النبوة، هنا لا تكون إلا بمعنى النبوة، والتي من مقتضاها أن يكون إمامًا لغيره، وهكذا إبراهيم عليه السلام صار إمامًا لمن بعده، وصار أبو الأنبياء عليه السلام، ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، هذا هو شأن الأواه الحليم المنيب، الله وصف إبراهيم عليه السلام بأنه أواهٌ منيبٌ حليم، ولذلك لما مرت عليه الملائكة فأخبروه أنهم في طريقهم إلى تدمير قوم لوط، ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢]، ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥)﴾ [هود: ٧٤-٧٥]، الله عز وجل مدحه في أنه يريد أن يمنع العذاب عن هؤلاء بحجة وجود لوط، فأخبروه أنهم سينجون اللوط، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت: ٣٢]، فأخبروه أنهم سينجون لوط عليه السلام.

ولكن انظر إلى رقة هذا النبي العظيم وإلى رأفته بالخلق، ومحاولته أن يمنع العذاب، وهنا تظهر هذه الرقة وتظهر هذه الرأفة ويظهر هذا القلب العظيم أنه أواه وحليم ومنيب في أنه أراد كحال جميع الأنبياء أراد الخير لأمته وأراد الخير لذريته، ونحن نعلم أن أعظم الناس مِنّةً من البشر على البشر موسى عليه السلام، أعظم مِنّة رجلٍ على رجل، إنسان على إنسان، وأوصل له أعظم الخير، هو ما فعله موسى عليه السلام بهارون، فإنه سأل الله عز وجل أخاه هارون ليكون نبيًا، شفع عند الله عز وجل بالدعاء أن يجعل هارون نبياً، فدخل هارون مقام النبوة بشفاعة موسى عليه السلام، فهو أمنّ الناس عليه، لا أحد يعطي أحدًا من البشر فوق هذه النعمة وفوق هذا العطاء وفوق هذا الكرم، يعني انظر إلى هذه القلوب العظيمة، ودخل على هذا

الباب من أبواب متعددة، ليس من أبواب المِنّة على هارون وليس من أبواب أنه أخي يعني ليكن، بل دخل عليه من أبواب الخير التي يحبها الله، ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾ [طه: ٣٣-٣٥]، أي يا رب يريد أن يعينني، ثم ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، فانظر إلى هذه الآيات التي تجمع هذا القلب وتجمع هذا الصدق في كلامه وتجمع هذه الرحمة، وحتى أظهر ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤]، يعني مع أن قوة نفس موسى عليه السلام أعظم بكثير من قوة نفس هارون السلام، ولا شك أن موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، والله يحبه وله من القدرات ما لا يبلغها هارون عليه السلام، فمع ذلك قدمه في هذا الباب من أجل أن يحصل له القبول في دخول النبوة.

فانظر إلى هذا الأدب مع الله عز وجل، وهذه الوسائل التي يقدمونها من كلمات الحب لله والكلمات التي يحبها الله، ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤)﴾ [طه: ٢٩-٣٤]، فهذه صفة النبوة الرحمة على الخلق، هذه الطريق طريق العبودية لا ينفع فيها الانفراد، فطريق الجهاد وطريق الدعوة إلى الله والسلوك إلى الله هذه لا ينفع معها الانفراد هذه الإنسان يضعف، فلذلك بحاجة إلى أخيه.

وانظر إلى إبراهيم عليه السلام أنه طلب إمامة ذريته، فالله عز وجل أخبره أن هذا الطلب ممنوع، لأنه سيكون من ذريتك من هو ظالمٌ لنفسه، ﴿مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾، سيكون من ذريتك من هو محسن، وسيكون من ذريتك من هو ظالم، ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾ [الصافات: ١١٣]، ولذلك الله عز وجل لم يعطيه هذا الطلب.

وانظر إلى هذا التقدير الإلهي، فالتقدير الإلهي هو الذي يغلب، لأن العدل هو الذي يجري، فالله عز وجل منع الذي يظلم، فالذي يظلم ليس له حق، بعض أهل العلم قال هنا عن الظلم: إنما هو الشرك، لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)﴾ [البقرة: ٢٥٤]، فقالوا: إن بعضهم هو هذا، ولكن كذلك اختصاص الكفر بالظلم هنا له معنى، حتى على معنى أنه كفر، اختصاص الكفر بالظلم على أن الظلم يمنع الإمامة، الإمامة تقتضي العدل وتقتضي الإنصاف وتقتضي النصفة من النفس، الظلم هو الذي يفسد كل

إمامة، ولا شك أنه ليس المقصود هنا إمامة الدنيا والسلطان، المقصود به إمامة الهدى والتقى والإيمان، فمن كان ظالماً لا يصلح له أن يدخل هذا الباب في أن يكون إماما فالله عز وجل منعه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، ذريتي أي نسلي، يعني اجعل منهم أئمةً كما جعلتني إمامًا، فالله عز وجل لم يقبل دعائه هذا، ولا سؤاله، ونحن نرى أن الله سبحانه وتعالى يقبل من الأدعية ما كانت متسقة مع العدل الإلهي، فإذا خرجت عن هذا المعنى الله عز وجل ردها، فهنا ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، أراد لرحمته على ذريته أن يكونوا كلهم أئمة، والله عز وجل منعه، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾، والعهد هنا هو الميثاق، العهد هنا ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي﴾، أي إمامتي، ميثاقي لا يناله من كان ظالماً، وهذا دليلٌ على عظم الظلم وعلى أنه مانعٌ من الدخول في باب الإمامة والتقوى وعلى المرء أن يتقي هذه الجريمة، هذه خاصة لمن كان ممكنًا في شيءٍ من الأشياء وعامة لكل أحد.

فالنبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه الصحابي ليسأله أن يشهد على عطائه لأبنه قال: (لا أشهد على ظلم)، جاءه السمعان فأراد أن يشهده على عطيةٍ للنواس، النبي صلى الله عليه وسلم رفض أن يشهد عليها، لأنها خاصة، هذا الأب ظلم فلم يعطي بقية أبنائه ولم يخصه بهذا العطاء لمعنى خاص فيه من فقرٍ أو عجزٍ أو حاجةٍ، فالأب يكون ظالماً، والمعلم في المدرسة يكون ظالماً، كل من كان في يده مقادير الناس أو كان في يده بعض مقادير الناس فلم يضعها الموضع الصحيح كان ظالماً، وأعظم الظلم هو ظلم السلاطين والحكام والملوك، هذا أعظم الظلم وهذا ظلمٌ يتعدى لأنه إذا فشى كان مؤذناً بالهلاك والدمار، الظلم سبب خراب البشرية، خراب الأمم خراب الدول، فالله قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾، العهد وهو أن يكون هؤلاء الذرية أئمة.

وقبل أن أنتقل إلى قوله تعالى، انظر إلى الوصف ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾، فانظر إلى عظم ما كلف به فسماها كلمات، أنا أريد أن أنبه على عظم الكلمة، يعني الله عز وجل ابتلى إبراهيم بكلمات فسمى ما ابتلى الله به هذا النبي ليكون إماماً وليدخل في باب إمامة البشرية فيمن بعده، وملة إبراهيم تنسب إليه، صارت ملة إبراهيم ملة تنسب إليه عليه السلام، وذلك بأنها كلمات، الكلمات ميثاق، الكلمة التزام، الكلمة الصدق، الكلمة عدل، الكلمة إما إخبار وإما أمر، فإذا كانت أمراً يجب أن تكون عادلة وإن

كانت إخبارًا أن تكون صادقة، الكلمات ليست مجرد ألفاظ تخرج من المرء بلا قيمة ولا وزن، فالله عز وجل سمى أعظم ما كلف به إبراهيم ليكون إمامًا سماها كلمات، فمن باب أولى أن تحترم هذه الكلمات هذه لها موازين الناس يموتون عليها، إذا التزم المرء بكلمة عليه أن يؤديها مهما بلغ ثمنها في نفسه، «لا إله إلا الله» كلمة يموت المرء من أجل الثبات عليها، فعلينا أن نفهم هذه الكلمات وقيمتها، والله عز وجل علمنا ما في نفسه بكلمات، والناس تثور نفوسهم بكلمات، ويقتلون غيرهم لكلمات، ويلتزمون لكلمات، فهذه الكلمات عظيمة، ولذلك قال سبحان وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن: ١-٤]، البيان ليس فقط هكذا إبانة، هي التزام الكلمات التزام.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾، هنا شرحنا من سمع تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، لماذا قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾؟ الخلق هو إيجادٌ من العدم، الجعل هو تحول الشيء مع وجوده من صفةٍ إلى صفة، ما الفرق بين الخلق والجعل؟ الخلق: إيجاد من العدم، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، لكن في صفة هذا الوجود كيف هو فيه نور وظلمة فهو صفة، النور والظلمة صفة للشيء، السماوات والأرض حقيقة لشيء، إما أن يكون أو لا يكون، لكن كيف تكون السماوات والأرض؟ إما مظلمة وإما مضيئة، فكونها صفة أطلق عليها الجعل، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، وهكذا كلمة جعل في القرآن كلها تدور تحول الشيء باعتبار صفته، وليس بإيجاد الشيء، فقال سبحانه وتعالى هنا: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فصار شيءٌ فيه صفة، لم يخلقه ولكن هي صفةٌ قائمةٌ فيه في كونه إمامًا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، هذا تقدمة لحال إبراهيم عليه السلام، فالآن هذا الكلام عن إبراهيم عليه السلام في أي سياق؟ في سياق الحديث عن البيت، ومثل هذا الإمام العظيم ومثل هذا النبي الجليل الكريم العظيم، الكريم ابن الكريم سماه النبي صلى الله عليه وسلم: (الكريم)، وهذا الشيخ الجليل بنى بيتًا وهذا البيت بناه بأمر الله عز وجل، فلذلك كان عظيماً لأنه هو إحدى صور الابتلاء التي ابتلي بها عند من قال بذلك، يعني الله عز وجل كلفه أن يبني هذا البيت على هذا المعنى، وكان في بناءه لهذا البيت قائماً بهذا المعنى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، والبيت هو الذي نعرفه بيت الله المحرم، فوصفه الله عز وجل بصفتين: بصفةٍ قدرية وصفةٍ شرعية، ﴿وَإِذْ

جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾، الجعل هنا، الله عز وجل ألبسه من الصفات ما ليست في غيره، وأقام فيه من المعاني ما ليست في غيره.

هذا البيت العظيم ما هي صفاته؟ هناك صفات قدرية يحسها الناس وهي لازمةٌ لقلوبهم رغم أنوفهم، لأن الله عز وجل قد حكم عليها بذلك، ثم أمرهم بشرائع تلائم معنى تعظيم هذا البيت، الله عز وجل أقام في قلوبهم من المعاني ما هي حاكمةٌ عليهم فيها بيان أن هذا البيت عظيم، وأمرهم بالشرائع ما تقيم لهذا المعنى وتزيده تكليفًا لهم.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، ﴿مَثَابَةً﴾ هو على المعنى الذي تقدم، ما هو؟ المعنى القدري، وهو قلنا: ﴿مَثَابَةً﴾، الثوب الذي ترتديه مرةً بعد مرة فلا أحد يقضي منه أمره وإربه، لا يمكن، كل من زار هذا البيت وهو يخرج منه وهو مشتاق أن يعود إليه، فقال: ﴿مَثَابَةً﴾ وهذا إحدى المعاني، وهذا من أجل المعاني، أن يثوب الناس إليه مرةً بعد مرة، وقال بعضهم: يعني يطلبون الثواب، وهذا كله من معنى أنهم يعودون إليه، وقال بعضهم: أنه مأوى يجتمعون فيه، وكل هذا من المعنى الذي ذكرناه أنهم يعودون إليه مرةً بعد مرة، قال بعضهم: ﴿مَثَابَةً﴾ أي لطلب الثواب، وبعضهم قال: تجمعاً ومآبًا يجتمع الناس فيه، لكن لماذا؟ لأنهم يثوبون إليه مرةً بعد مرة، ومن هنا أخذت كلمة الثواب، الثواب يعني رد الشيء، والثوب لماذا سمي بالثوب لأنه يطوى ترد الطبقة على طبقة فيسمى الثوب، لماذا سمي الجزاء ثواباً لأنه أداءٌ لشيءٍ فعله الإنسان يؤدى إليه مقابله فهو ثواب، ولماذا سمي البيت ﴿مَثَابَةً﴾؟ لأن الناس يثوبون إليه، يعودون إليه مرةً بعد مرة، هذا هو الأمر القدري.

أما الأمر الشرعي ما هو؟ قال: ﴿وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، حتى قريش مع شركها كانت لا تنفر من أوى إليه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، الله جعله آمنا، والعلماء لهم كلام في من فعل جريمةً خارج الحرم ثم أوى إليه على خلافٍ بينهم، ليس هذا وقته، وترجع إلى الكتب في تفصيلات متعددة، ولكن هذا البيت لا ينفر فيه، حتى الدابة فيه لا تنفر، لو أحتمت به دابة لا تنفر، لو أوى إليه طير لا ينفر، بل جاءت الشريعة بعدم قطع شجرها، شجر هذا البيت، قالَ

العَبَّاسُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إلَّا الإذْخِرَ؛ فإنَّه لِقَيْنِهِمْ ولِبُيُوتِهِمْ، قالَ: قالَ: (إلَّا الإذْخِرَ)، ذلك لأن الناس يحتاجون إليه في طعامهم يعني من أجل طبخ طعامهم.

فالله عز وجل جعله ﴿مَثَابَةً﴾ وجعله كذلك آمنا فلا يجوز، والنبي صلى الله عليه وسلم منع الناس أن يقاتلوا فيه، فقالوا: وإن قيل لكم فعل رسول الله كذا، وقال: (أحلت له ساعة)، هذا البيت أحل للنبي صلى الله عليه وسلم ساعة من الزمن ثم عاد حرمًا آمنا إلى يوم القيامة، لا يجوز لأحد أن يقاتل فيه، ولا يجوز لأحد أن يحمل السلاح فيه، ولا أن ينفر آمنًا فيه، بعضهم قال: لو واحد عمل جريمة في الحرم، كثير من أهل العلم يضيق عليه حتى يخرج ثم يقام عليه الحد، خارج الحرم، ولا تقام الحدود في الحرم، ولذلك مسرف بن عقبة الذي يسمى بمسلم بن عقبة، وأهل التواريخ من أهل الإسلام يسمونه مسرف بن عقبة، الذي غزى الكعبة وقذفها بالمنجنيق، قالوا له: النبي صلى الله عليه وسلم لم يحل هذا، قال: البيت لا يحمي الظالم، هذا من فلسفته وإلا في الأصل ما فعلوه من رمي البيت بالمنجنيق هذا من الإجرام والظلم، لا يجوز، يضيق عليهم يمنعوا لو كان هذا وصفهم الظلم، فيضيق عليهم حتى يخرجوا ثم يقام عليهم الحدود.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾، هذا تعظيم لهذا البيت، لأن الله سبحانه وتعالى سيذكر أمر هذا البيت، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧]، هو يقدم عظمة البيت بماذا؟ بذكر أمره وشأنه وما فعله، في الأول ذكر من؟ من بناه ومن هو، وذكر أن هذا من إكرام الله له، ومن امتحانه وابتلائه ببنائه، ثم ذكر البيت بعد أن ذكر الباني ذكر البيت فقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، كل الناس وبعد أن ذكر شأنه كله جاء إلى ذكر ما فيه واختلفوا في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، ماذا هو مقام إبراهيم؟ قال بعضهم: هو البيت كله، وقال بعضهم: هي البلدة كلها يعني مكة، وبعضهم قال: كل أماكن مناسك الحج، والأكثرون على أن مقام إبراهيم هو المقام، للحديث الذي فيه حين طلب عمر رضي الله عنه قال: وافقت ربي في ثلاث، يعني هذه المطالب في ثلاثة، فذكر فيها أنه طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ مقام إبراهيم، المقام هو المكان الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام ويبني البيت، وهذا كان قبل عمر رضي الله عنه كان ملتصقًا بالكعبة، ولكن لما شق على الناس فأبعده عمر رضي الله عنه في مكانه الذي نراه الآن، فلذلك لم يعد ملتصقا لتسهيل على الناس

لتسهيل الصلاة لأنه لو التصق لصلى الناس فصار شاقاً على الطواف، الآن أبعدوه فيمكن للناس أن يطوفوا بينه وبين البيت، هذا هو مقام إبراهيم.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾، هذا لتعظيم، هذا مكان بنى فيه البيت ووقف عليه، وكان ينتقل لبناء البيت حوله ومع ذلك عظمه الله، جعل له الأثر، هكذا هي قيمة طاعة الله عز وجل يبقي الأثر والقيمة لها، قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾، وهذه من موافقات هذا الفاروق العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فهو مكانٌ من العطاء الإلهي ومكان من الامتثال للأمر الإلهي، ومن ذكريات هذا النبي العظيم، نعلم أن كل من الحج من الذي شرعها وأتى بها ليس كلها على وجه وجوه التعبد، يعني الآن السعي بين الصفا والمروة كيف شرع؟ شرع ببحث هاجر رضي الله تعالى عنها عن الماء من أجل ابنها إسماعيل عليه السلام، فهذا الفعل جعله الله عز وجل شريعة، رمي الجمرات هذا فعله إبراهيم عليه السلام لما أخذ ابنه ليذبحه فرمى إبليس وهو يناديه ويفزع فيه، وانظر هذا مقام إبراهيم جعله مصلى، هناك ما لم تقم على أساس أنها شريعة ثم جعلها الله شريعة إكرامًا لهذا النبي، إكرامًا لما قام به من تضحيات، إكرامًا لما قام به من امتثال أمر الله عز وجل.

فأمرنا سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، ﴿مُصَلًّى﴾ أي مكان للصلاة، ولذلك يسن للمعتمر والحاج في طواف القدوم بعد أن ينتهي من الطواف أن يأتي مقام إبراهيم ويصلي عنده إن قدر، خلفه أو في أي مكان في الحرم، والأولى أن يكون إن قدر وبلا مشقة أن يصلي عند مقام إبراهيم، فيكون مقتديًا بأمر هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، هو أمرٌ بالصلاة في هذا المكان العظيم.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾، انظر إلى هذا الترتيب الإلهي في هذه الآية، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، ثم جعل أوامر، هذه كلها أوامر لمن بعده، ثم جاء الأمر بماذا؟ بأمر الله عز وجل لهذا النبي بأن يطهر البيت، والعلماء على خلاف، لأن بعض أهل العلم كابن جرير قال: يعني هل كانت الأصنام موجودة في البيت ليطهرها؟ قال: لا، وإنما المطلوب أن يطهرها بألا تكون فيه.

وابن كثير رحمه الله اعترض على هذا المعنى، قال: ما الذي أدرانا أن أصل الأصنام كانت في زمن قبل إبراهيم عليه السلام، على أساس أن الأصنام جاءت من الشام كما تعلمون، أحضرها من أحضرها من الشام ونصبها في الكعبة، على هذا المعنى، قال: من أين الأصنام كانت موجودة في مكة قبل إبراهيم عليه السلام؟ والأغلب على أن المقصود ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾، سواءً من الأصنام أو من القاذورات المادية وكذلك عندما تبنيه، ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨]، والمقصود طهره حين تبنيه من أي شيءٍ يصيب فعلك أن يكون فيه دنس فيه، بمعنى لما تبني البيت إياك –نقولها للمعنى حتى يفهم الناس هذا– إياك أن تكذب حين تبني البيت إياك أن تسرق المال فتبني البيت فيه، انظر إلى قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، حين يعمل المرء شيئاً من الأمور ويشارك فيها في المعصية يكون قد أثر في هذا الأمر فساداً.

فلو أن رجلاً بنى بيتاً بنيةٍ فاسدة، هل هذه النية تؤثر في هذا البناء؟ تؤثر في هذا البناء، لو أن رجلاً خلال بنائه لبيت قام بمعصية من المعاصي تؤثر في هذا البيت، ولذلك قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾، بمعنى أنك لا تأتي من المعاصي من الشرك إلى ما دونه خلال بنائك للبيت، وليس المقصود طهر هذا المعنى الثاني، ولا شك أن تطهير البيت عمل جليل، إن بعض أهل العلم قال: إن أول من اشتغل خادماً للمسجد تطهيراً له هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، مقامٌ عظيم، تطهير بيت الله من كل دنس سواء كان ظاهر أو باطن هذا من الأمور العظيمة التي أمر الله عز وجل بها أعظم الخلق في زمانهم، أعظم الخلق وهو أمام المرسلين، ووالد الأنبياء وهو إبراهيم عليه السلام فأمره أن يطهر البيت، التطهير من الطهر وهو الذي يقابل الدنس والنجس.

قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾، ﴿وَعَهِدْنَا﴾ أي أمرنا وقالوا عديت بإلى إنما عهدنا لفلان، عهدنا له لكن يقال عهدنا إليه أي قدمنا إليه هذا الأمر الإلهي، ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾، وإسماعيل عليه السلام هو ابنه الكبير، وهو الذبيح على الصحيح، وللأسف إن كثيراً من كتب التواريخ الإسلامية، للأسف تقول بأن الذبيح الذي أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بذبحه من أبنائه هو إسحاق عليه السلام، وهذا ضد ما في القرآن، الصواب أن القرآن يقرر أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وذلك في سورة «الصافات» واضحة، الله بشره بابن حليم، ثم لما فرغ من ذكر قضية الذبح، ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا

وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٥]، بعد ذلك جاء التبشير بمن؟ بإسحاق قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)﴾ [الصافات: ١١٢].

ثم ثانياً: أن الله عز وجل بشر إبراهيم بإسحاق ومن وراءه يعقوب، فإذن هو بشره بأن سيكبر إسحاق ويكون له ابن وهو يعقوب، فكيف يذبحه، يعني الله عز وجل أصلاً أخبره، ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾ [الصافات: ١٠١]، فوصفه بالحلم، مع أن إسحاق وصف في كل القرآن بالعلم، وإسماعيل وصف بالحلم في هذه السورة في سورة «الصافات»، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٥]، ثم بعد ذلك قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)﴾ [الصافات: ١١٢]، فهذا التبشير بإسحاق بغير من ذكر سابقاً وهو إسماعيل، والتوراة تقرر أن الذي ذبح هو الابن الأكبر، من هو الابن الأكبر؟ إسماعيل بالإجماع هم يقولون، التوراة تقول: أنه الابن الأكبر، ولكنه يعدونه ابن أمة، ولا يرون له فضيلة، كعادتهم في الكذب للأسف هذا الأمر دخل على بعض المفسرين أو على بعض المتكلمين في التاريخ.

فالذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل عليه السلام هو الابن الأكبر، وهو ابن هاجر القبطية التي أهداها الملك له، تعرفون لما دخل إبراهيم عليه السلام مع زوجته سارة مصر ففتن في ابتلاء عظيم فلما حمى الله عز وجل سارة من مراد هذا الملك وهب له هاجر، فهاجر ولدت له ابنه الأول وهو إسماعيل عليه السلام فهو أكبر أبنائه.

قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾، أمره ببنائه ثم أمره بماذا؟ بتطهيره أو أمره بتطهيره خلال بنائه على المعنى الذي ذكرناه، ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، تقدم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ ما نسب لنفسه، ولكن هنا أول ما يذكر هنا أنه نسب البيت له، وذلك تشريفاً وتعظيماً لهذا البيت، فقال تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، لماذا جاء النسبة إلى الله عز وجل؟ تنويها به وأمرًا آخر لما يكون نسبته إلى الله عز وجل

فيكون فيه الداعي الأشد والأكبر بأن يطهره، لماذا قال هناك ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾، لماذا؟ لم يُنسب البيت إلى الله عز وجل، لكن لماذا هنا ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، لماذا؟ لأن نسبة البيت إلى الله عز وجل أدعى بأن يطهر، فيكون في نسبته تنشيط لهذا المأمور بأن يقوم بأمره تطهيره، وهذا بيت الله، وهو أول بيت وضع، أول مسجد، فأين كان الناس يصلون؟ ليس شرطاً أن يكون لهم مساجد، هذا أول بيت بني، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران: ٩٦]، قال بعضهم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ المقصود لكل الناس، وإنما كانت الأمم لهم بيوت خاصة، وقال بعضهم: لا، هو أول بيتٍ كان الناس يجتمعون فيه للعبادة.

قال تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وفي سورة «الحج» قال سبحانه وتعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، لماذا؟ لأن العاكف قد تقدم ذكره في سورة «الحج» قال تعالى: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥]، ففي سورة «الحاج» تقدم ذكر العاكف، فليس هناك من الضرورة أن يذكر مرةً ثانية أي العاكفين، وهنا لما لم يذكر فذكر العاكف وهو المقيم، قال تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾، وهو من العكوف، العكوف هو الإقامة، وهذا شأن الذي من أهل البلدة من أهل مكة الذي هو عاكف أو الذي يعتكف فيه ويقيم فيه عابداً متبتلاً ومنقطعًا، كما كان يسمونه العلماء جار الله، لماذا سمي بعض العلماء كزمخشري جار الله؟ لأنه جاور في البيت وأقام فيه، فيعتكفون فيه للطاعة، والطائف من الطواف والطواف هو ركن من أركان الحج وهو عبادة، وأختلف أهل العلم ما هو الأفضل بالبيت الطواف أم الصلاة؟ فمالك رحمه الله قال: بالنسبة للأفّاق الأفضل هو الطواف، وبالنسبة للمقيم الصلاة، وقال بعضهم: لا، على كل حالٍ، سواء كان للقادم أو للأفّاق أم للمقيم الأفضل هو الصلاة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾، بعد أن ذكر العام ذكر الخاص، إذا دل العاكف على القائم على أي وجهٍ من الوجوه فقال: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾، وهذا أعظم ما تذكر فيه الصلاة، أنهم ركع وأنهم سجود، والركوع معروف والسجود معروف لأهل الإسلام، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وإن شاء الله نتابع في الدرس القادم بارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: هل مقام إبراهيم عليه السلام الآن هو نفسه الذي كان يقف عليه عندما بنى البيت، أم هو صورة له؟

الشيخ: نعم هذا المقام الذي ترونه، طبعاً هو الآن مغطى، مغطى بمواد معدنية، ولكن هذا الذي داخل الغلاف الذي غلف بالزجاج وغيره، في داخله هذا الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام ويطوف حول البيت باني إياه، فحتى أثرت قدماه في الحجر، هذه العلامة الحقيقية وبقي الناس يتوارثونه إلى يومنا هذا.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع والثمانون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة مع الدرس التاسع والثمانون من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ [البقرة: ١٢٥-١٢٦].

تقدم أن هذا التنوع بين هذه الآية التي تقدم ذكرها وهي قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾ [البقرة: ١٢٥]، وما وقع في سورة الحج من قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وقلنا: بأن ذكر العاكفين قد تقدم في قوله تعالى في سورة «الحج»: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥]، فذكر العاكفين هناك، لكن يبقى سؤال لماذا ذُكر هنا في هذه السورة ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾، وذكر في سورة «الحج» ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾؟ من تأمل في سورة «البقرة» هنا نجد الحديث عن أهل مكة، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾، وقال بعض العلم: يعني الطائف هو كل طائف، وإن كان بعضهم قال: المقصود هو التنوع العاكف هو أهل البلد والطائف هو من كان من خارجها، والحديث هنا ليس عن أحوالهم من مكان صدورهم، ولكن الحديث هنا يدور حول أعمال عباداتهم، استغرقت هذه الآية أعمال العبادة في مكة، استغرقت من هو عاكف مقيمٌ فيها واستغرقت من هو طائف متعبد فيها، واستغرقت كذلك أعمال الصلاة.

ولكننا نرى في هذه السورة الحديث يدور حول أهل مكة فناسبهم الاعتكاف فيه والإقامة فيه، بخلاف الحديث في سورة «الحج»، فإن الحديث يدور حول القادمين إليها، قال تعالى: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج: ٢٧]، فالحديث عن الزائرين، والزائرون الذين يأتون إليها من أجل التعبد ثم يعودون لا يقيمون، فلذلك جاء ذكر ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، فهذا ذكر عبادتهم، والقليل منهم من يعكف فيطيل فيه المقام إن كان زائرًا، إن كان آفاقيًا، بخلاف أهلها فإنهم يقيمون فيها، هذا من بعض ما يمكن التأمل به في الفرق بين السياقين في السورتين، فإن السياق هنا يدور حول أهل مكة ما الذي يعيشون فيها، والتي في سورة «الحج» يدور الحديث حول الزائرين لمكة من الحجاج والعمار.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾، نرى هنا تنوع الصيغ في هذه الآية، فذكر سبحانه وتعالى: الطائفين والعاكفين، وهذا جمعٌ سالم، وثم ذكر جمع التكسير، ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ جمعٌ سالم، وقوله تعالى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جمع تكسير وليس سالماً، وهذا عند كثير من أهل العلم من التنوع الذي يحصل فيه الانتباه ويترك فيه المِلال، أي الملل لا يعتري المرء وهو يقرأ هذا التنوع، لكن لو سلمنا بهذا القول في أن هذا التنوع يأتي من أجل ترك المِلال، ومن أجل تنبيه الناظر إلى هذا التنوع في صيغة الخطاب، فلماذا ذكر هنا قوله تعالى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾؟ بلا شك أولاً نرى في قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ ذكر حرف العطف، ثم ذكر حرف العطف ﴿وَالرُّكَّعِ﴾، لكن لم يذكر حرف العطف بين الركع والسجود، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾، والسبب بيّن وواضح وهو أن الطواف غير الاعتكاف ولكن الركوع والسجود هما عملان لعملٍ واحد وهو الصلاة، فقوله تعالى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، أي هؤلاء يقومون بعملٍ واحد وهو الصلاة، وذكر الركوع والسجود نيابةً عن الصلاة وإشارةً للصلاة تنويهًا لعظمة هذين الفعلين الركوع والسجود لما فيهما من تمام التذلل والخضوع لله عز وجل.

ولكن كذلك ما ينتبه هنا أن الله عز وجل غاير هنا بين والركع والسجود مع أنهما جمع تكسير، إلا أن هناك المغايرة فقال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، ولم يقل الركوع السجود ولم يقل الركع السجد، الركع صيغة مبالغة أي لكثرة ما يركعون، لكن السجود إنما لحال سجودهم، الركع لكثرة السجود فإنهم لكثرة صلاتهم فيركعون في كل صلاةٍ فهي تكثر أعمال الركوع لكثرة الصلاة، ولكن جاء ذكر السجود على صفة تدل على دوام

هذا الفعل وذلك لكثرته وطوله، ولا شك أن السجود قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإطالته، وفيه من الأعمال ما لا يوجد في الركوع، الركوع فيه الذكر والسجود فيه الذكر، فأما الركوع فيه تعظيم الله عز وجل، والسجود فيه تعظيم الله عز وجل، وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (فأما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فأكثروا فيه من الدعاء)، فلذلك يكون السجود عادةً أطول مع أنه في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد بمقدار ركوعه، والعلماء لهم كلام في هذا ولكن السجود لكثرة الدعاء والإنابة فيه والبكاء بين يدي الله والاستغفار وهو مكان الدعاء، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا في الركوع.

والقول في هذا هو ما قاله الإمام ابن دقيق العيد عليه رحمة الله: بأن الأصل في الركوع الذكر والتعظيم، وأن الأصل في السجود هو الدعاء بعد الذكر والتعظيم، الأصل فيه كثرة الدعاء، لكن لو دعا المرء في الركوع لما ضره ولكن هو الأصل في الركوع موضوعٌ لتعظيم الله عز وجل والسجود موضوعٌ لطلب الدعاء، قال صلى الله عليه وسلم: (فأمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فيه الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، وأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا في الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ)، فإنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولذلك إطالته.

ثم نرى أن الركوع في الصلاة بالنسبة للمسلمين هم أكثر من عبدوا الله عز وجل في هذا البيت، هذا البيت لم يعبد ربنا عز وجل فيه كما عبد من قبل أهل الإسلام في تاريخ البشرية كلها وقع فيه عُباد وجاء إليه مخبتون وصالحون ولكن لم تقع عبادةٌ عظيمة بمثل هذا الذي وقع من قبل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ثم من بعدهم من هذه الأمة، ولذلك في الصلاة عندنا نرى أن الركوع فعلٌ واحد في الركعة، والسجود في كل ركعة يوجد فيها سجودان، حتى لو قلنا: بأن مقدار السجود في الواحدة هو مقدار الركوع، فنجد أننا نسجد مرتين، فكأن حال المرء في هذه العبادة في البيت الحرام أن حاله وهو ساجد؛ فجاء ذكر الركوع بالمبالغة التي تدل على التكرار ولكن السجود جاء بصيغةٍ تدل على الدوام، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾.

وهنا مسألة ولا شك أن العلماء تكلموا عن قيمة البيت لحظة إنشائه، البعض نفى وجود مساجد الضرار بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهذا كلام يعني جهل، ومما ينتبه إليه عندما تحدث علماؤنا كثيرًا عن مساجد الضرار جعلوا من مساجد الضرار هي المساجد التي تكثر من غير حاجة، وهذا ينتشر أن بعض

الناس يظن أن كثرة المساجد في المكان الواحد يظنون أن هذا من أعمال التعبد التي يتقرب بها إلى الله عز وجل، والصواب: أن المكان الواحد لا ينبغي أن تتعدد فيه المساجد، لا اقصد فقط الجمعة، أقصد حتى المساجد لأن المقصود من المسجد اجتماع المسلمين، فكثرة المساجد لغير حاجة، إن كان لحاجة لا يدخله هذا الكلام أبدًا ولا يعرض عليه، لكن إن كان لغير حاجة فإنه يكون تفريقًا للمسلمين، ولذلك مما قاله بعض أهل العلم وهذا قول قرأته لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: بأنه يندب الصلاة في المساجد القديمة، وما استطاع المرء ترك المساجد المحدثة، وذكر السيوطي عليه رحمة الله من تعليل ذلك بأن المساجد القديمة يكثر عند بنائها الإخلاص ويقل الإخلاص في مساجد الحادثة.

ويقول السيوطي عن مساجد أهل مصر: بأن كثيرًا من المساجد بنيت من أجل المباهاة ومن أجل الرياء، فهذا المعنى الذي يدور حوله كلام أهل العلم بأن المساجد حين تبنى على الإخلاص تكون الصلاة فيها خير وأقرب ولذلك يحبون الصلاة في المساجد العتيقة وسمي بيت الله الحرام بالبيت العتيق، وكأن هذا الوصف وهو عتيق من القدم، هو وصفٌ ممدوح عند الله عز وجل، ولذلك من الجهل هدم المساجد، حتى لو أراد الناس توسعتها يبقونها كما هي ويزيدون عليها، أما أن يهدموها ويبنون بدلاً منها فهذا من الخطأ، والأصل هو إبقاء المساجد على ما هي عليه، فإن أرادوا أن تتسع، تتسع، والحجة في ذلك ما فعله عثمان رضي الله تعالى عنه من توسعة المسجد النبوي.

فالله عز وجل عندما مدح هذا المسجد مدح بانيه؛ فدل على أن الباني له أثر، وأن دين الباني له أثر على البيت، وأن مقصد الباني له أثر على البيت، ومن هنا فلما كانت مساجد الضرار المقصود منها تفريق المؤمنين، والمقصود منها إثارة العداوة، والله عز وجل مدح المسجد النبوي ومسجد قباء، قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وردت هذه الآية أن المقصود بها المسجد النبوي ومسجد قباء كذلك، فدل على أن المساجد ينبغي أن يراعى فيها تقوى الله، ولذلك حتى قريش لما أرادت أن تعيد بناء البيت رفضت أن تأخذ مال الربا أو مال القوادة أو مال العهر الذي تأخذه الغانيات من جريمة الزنا، وهكذا ينبغي للناس أن يتحرزوا في هذا، ولا يوصلهم إلى هذا السبيل إلا تقليل الزخرفة.

فالناس يضطرون إلى أخذ الأموال من أهل الفجور وعدم التوثق من المال لأنهم يميلون إلى الزخرفة وتزين المساجد فيضطرون إلى المال، ولو بنوها كما أراد النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال: (عريش كعريش موسى)، لما اضطروا إلى هذا المعنى.

القصد: أن الله عز وجل قال: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، والعلماء ذكروا أي ابنيا هذا المسجد على الطهر من التقوى، وبعد البناء يطهر ألا يدخل فيه الدنس من الشرك إلى ما دونه من القاذورات وغيره ... إلخ.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، انتبهوا إلى الدعاء الذي وافق القدر، هنا أول ما يأتي على ذهن الناظر أن دعاء إبراهيم وافق القدر المقرر عندما بُني البيت وعندما أراد الله من إبراهيم أن يبني البيت لأن الله عز وجل قال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، فالله عز وجل جعله قدرًا وشرعًا، يقول: وقع من الناس أن أساؤوا كما وقع من الحجاج، كما وقع من مسرف بن عقبة، ولكن هذا قليل لا يخدش القاعدة الكلية التي جعلها الله عز وجل لهذا البيت، ثم جاء الشرع مؤيدًا هذا المعنى القدري.

وهنا لا بأس– ما من أمرٍ شرعي إلا وهو يوافق أمرًا قدريًا، فلا يقول أحد: أن هذا البيت مبارك بسبب الشريعة أنها باركته، لا، هو مبارك عندما خلقه الله عز وجل ومن هنا فتربة هذا البيت مباركة بخلاف التربة الأخرى، الله عز وجل يأتي بالشرائع ما توافق القدر كما خلقه الله عز وجل، وهذه نقطة بينّة وشرحت في غير هذا الموطن، فلا يقولن أحد مثلاً: أن جسد النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه بشر هو جسد كبقية البشر، لا، جسده مبارك، ولذلك الله عز وجل أعطى من الشرائع ما يوافق هذا القدر، ومن ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبركون بأثار بدنه عليه الصلاة والسلام، فهذا شرعٌ بجواز التبرك بأثار بدنه مبنيٌ على ما بارك الله عز وجل هذا البدن عندما خلقه قدرًا.

ولكن هنا رأينا أن التوافق في الدعاء مع القدر، الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، ثم يقول جل في علاه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، فماذا نفهم من هذا؟ هل نفهم أن الله عز وجل جعله أمنًا بدعاء إبراهيم عليه السلام؟ أم أن الله عز وجل قدر فيه الأمن فوفق إبراهيم للدعاء فتلاقى ما قدره الله مع دعائه؟ هذا هو الأقرب، أن الله عز وجل خلقه أمنا، وقدر فيه شرعه أن

يكون أمنا، فجاء توفيق الله عز وجل بدعاء إبراهيم عليه السلام بما يوافق هذا القدر، فما الفائدة؟ الفائدة: رِفعة الداعي وهو إبراهيم عليه السلام، عندما يجعلك الله عز وجل سببًا مع أن الله عز وجل قدر في الأزل أن يكون كذا وكذا، فيأتي أحدٌ فيكون مفتاحًا لهذا الخير، فالله عز وجل يرفع درجته بهذا الخير الذي فتح على يديه، أو الله عز وجل قدر شرًا يقع فأجراه على يد أحد البشر فله وزره ووزر من تبعه إلى يوم القيامة.

ولذلك الله عز وجل هنا في هذه الآية جل في علاه أراد أن يعظم شأن إبراهيم عليه السلام، بأن ذكر أن دعاءه وافق قدر الله عز وجل الذي قدره من الخير، فلذلك نحن نرى أن أعمال التعبد النسكية في الحج توافق فعل إبراهيم عليه السلام أو توافق فعل زوجته هاجر، هذا تقديرٌ إلهي للشرع، لكن هذه فضيلة الأول، الأول ما هو فضله؟ هذا الذي يفتح الخير ويكون سببًا للخير، وهذا ذكرناه سابقًا، ذكرنا فضيلة من الذي يُفتح على يديه خيرًا من الأعمال الصالحة، إبراهيم عليه السلام أول من كذا، أول من كذا، ذكرنا هذا في ذكره عليه السلام سابقًا، وهكذا نجد أن الصالحين يتسابقون في هذه الأولية، نجد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من فعل كذا وأول من فعل كذا، هذه أوليةٌ مباركة.

وأعظم أولية حدثت في هذا التاريخ الإسلامي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم هي أولية ابي بكر رضي الله عنه في قتاله للمرتدين، هذه أوليةٌ ولجها الصديق رضي الله عنه، فكان له السبق الذي لا يسبقه أحد فيه، هذا أمر الأولية، ولذلك من نعمة الله عز وجل على العبد أن يقيمه في الأقدار التي قدر الله عز وجل فيها الخير للعالم، ومن ذلك ما وقع من هنا الدعاء، الله عز وجل جعل البيت مثابة للناس وأمنا، ليكون هذا الأمن في هذا البيت، الله عز وجل يجعل له مفتاحًا لذلك من هو؟ هو دعاء إبراهيم عليه السلام، فالله عز وجل أراد أن يرفع شأن إبراهيم عليه السلام بهذا الدعاء ليتوافق مع قدره وليعرف الناس فضل هذا النبي عليه السلام، الذي كان له هذا المكان العظيم.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، ﴿هَذَا﴾ يعود لماذا؟ يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، دل على أن هذا المكان لم يكن بلدًا عندما دعا، ماذا يقول إبراهيم عليه السلام هنا؟ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾، ما هو هذا؟ ليس بلد؛ لأنه يقول: ﴿اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا﴾، ونحن قلنا: كلمة ﴿اجْعَلْ﴾ هي صيرورة، تحول من شيء إلى شيء، تحول صفة، وليس إيجادًا من العدم، الإيجاد

من العدم هو الخلق، أما الجعل هو تحول وصيرورة الأشياء من شيء إلى شيء، من صفة إلى صفة، من حال إلى حال، من مقام إلى مقام، ولذلك هذه الأرض موجودة، ما هي؟ ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ماذا كانت؟ ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، إذن هو هذا الدعاء الذي يذكره إبراهيم عليه السلام هنا، حاله عندما كان البيت لا وجود لحياة بلدٍ فيه، فليس فيه بلد، فدعا الله عز وجل أن يجعله بلدًا، وانظر هذه العظمة، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا﴾، وليس أي بلد، بل ﴿آمِنًا﴾.

وهذا البلد الذي حصل بتقدير الله عز وجل وحصل الفضل بدعاء إبراهيم هذا البلد أقسم الله عز وجل به، والله عز وجل لا يقسم إلا بعظيم، بيانًا لشأنه تنويهًا لعظمته وقيمته، فقال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١)﴾ [البلد: ١]، هنا ﴿لَا﴾ تأكيدية، ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١)﴾، ثم ذكر فضل من أقام فيه، ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢)﴾ [البلد: ٢]، فهذا بلدٌ عظيم.

إذن هذه الآية وهذا الدعاء وقع بأن يجعل الله عز وجل هذا المكان بلدًا، وليس أي بلد، بل يكون آمنًا على ما تقدم ذكره، وهذا يعرض لنا الآية التي في سورة «إبراهيم»، قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)﴾ [إبراهيم: ٣٥]، انظر هنا يقول: ﴿اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، ما هذا الوادي؟ ليس فيه زرع وليس فيه طعام، ليس فيه شراب وليس فيه ماء، لكن اجعله بلدا امنا، ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وإنما دعى بالأمن فإنه أعظم منن الله عز وجل على الخلق، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢]، آمنة في الحقيقة، مطمئنة عالمة بالأمن؛ لأنه قد يكون المرء آمنًا ولكن في قلبه الخوف والاضطراب، وقد يكون مطمئنًا وليس هناك الأمن الحقيقي، فهناك الكثير ممن يعيشون اطمئنانًا زائفًا والخطوب عليهم والبلاء والأعداء تحيط بهم من كل جانب.

والله عز وجل مدحها ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾، فإبراهيم دعا ربه أن يجعل هذا بلدًا آمنًا، هذا أعظم وصف ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش: ٤]، هذا وصفٌ عظيم، في سورة «إبراهيم» ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وفي هنا الآية ﴿هَذَا بَلَدًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، إذن دل على أن دعاء إبراهيم عليه السلام وقع في سورة «إبراهيم» والبلد قد أقيم، وإبراهيم عليه السلام ذهب إلى المكان بعد أن

صار بلدًا، وذلك بأن وضع ابنه الوحيد إسماعيل فيه وتركه لله عز وجل، فجاءت «جرهم» وأقامت هذا البلد، وصار إسماعيل ابنه سيد هذه القبيلة وتزوج منهم وصار هناك حياة جديدة، فجاء إبراهيم عليه السلام مرات زاره، ففي الأحاديث المعروفة أنه زاره وأمره أن يحول عتبة بيته ثم جاءه مرةً أخرى ثم لما بلغ معه السعي حدث أن جاء إليه ولما صار يمشي معه وأمره أن يذبحه ثم لما كبر إسماعيل وصار قوي أعانه كما سيأتي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. فإبراهيم عليه السلام كان يأتي يزور هذا البيت، ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام أن يكون هذا المكان بلدًا فلما صار بلدًا، دعا أن يكون آمنًا، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

على ماذا يفيد هذا؟ فإبراهيم عليه السلام دعا بأن يكون هذا الوادي بلدًا آمنًا، فلما صار، دعا أن يكون هذا البلد الذي أقيم في هذا الوادي آمنًا، على ماذا يدل؟ يدل على شيءٍ مهم، وهو أن العبد ينبغي أن يبقى داعيًا ربه مخافة انفلات الشروط منه فلا تقع، أي فلا تقع الوعود، هذا المعنى ذكرناه كثيرًا والعلماء يذكرونه كثيرًا، المرء ربما يدعو فيأتيه البشارة ان قبل الله دعاءه، ولكن الله عز وجل يقبل الدعاء بشروط، فالعبد يخاف أن تتخلف الشروط فيتخلف الوعد، ولذلك هو على خوفٍ من عدم وقوع الوعد، فهو مقيمٌ في الدعاء في كل حال، يعني هو دعا أن يكون بلدًا آمنًا، فلما رأى البلد دعا أن يكون آمنًا، حصل الشق الأول هو مازال خائفًا، ولم يحصل لديه الأمن والاطمئنان ولا الركون ولا ادعى بأنه قد استجيب دعائه فسكت، بل بقي مقيمًا على حال الدعاء، وهذا ينبغي علينا أن تعلمه.

مثلاً: رجلٌ دعا ربه أن يرزق الولد الصالح، فرزق الولد؛ فيقول: الحمد لله استجاب الله دعائي بالولد وأنا دعوت أن يرزقني الله ولدًا صالحًا فقد حصل نصفه الأول، دل على أن الدعاء قد قبل، فيسكت عن الدعاء الذي ينبغي أن يدعو فيه كل يوم ربه أن يجعل ابنه صالحًا، وهذا غلط، هذا ليس من سيرة الصالحين ولا سيرة الأنبياء ولا إمام الأنبياء صلى الله عليه وسلم ولا والد الأنبياء إبراهيم عليه السلام، المرء دعا ربه أن يرزق بالولد الصالح، فرزق بالولد، فعليه أن يبقى دائمًا يدعو أن يجعل الله عز وجل هذا الولد صالحًا، ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾ [الفرقان: ٧٤].

دعا عبدٌ ربه أن يرزق بالمال، وهذا المال أن يعينه على طاعة الله، فرزق المال، فلا يطمئن أن هذا المال قد أجاب الله دعاءه كله، هو أجاب النصف الأول، فالمطلوب الآن أن ي يبقى على خوفٍ ووجل وبقاء الدعاء لئلا يفوت الشرط الذي تقدم، لماذا؟ لأن هذا الوصف لهذا الفعل له شروط، فيخاف المرء أن يقصر فتفوت.

ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام أن يكون هذا الوادي بلدًا آمنًا، فلما أقيم البلد، دعا الله عز وجل أن يكون آمنًا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ﴾ [البقرة: ١٢٦]، نرى هنا ونرى كذلك في سورة «إبراهيم» أن دعاء الأنبياء دائمًا ربي، لماذا؟ لماذا نرى هنا دائمًا عندما يستغيث المرء بربه لحاجات ليحصل بها النفع أنه يدعوه ربنا أو ربي، إما أن يدعو دعاء الجماعة ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾، وإما أن يدعو باسمه ﴿رَبِّ﴾ فلماذا؟ لأن صفة الرب هي الأليق بالرحمة والعطاء، ما هو أصل كلمة الرب؟ هو المربي، والمربي هو الذي يعطي وهو الذي يرعى وهو الذي يديم النعمة وهو الذي يقوم على شأن المربوب، ولذلك المرء يدعو بهذا الدعاء لأن فيه المدخل إلى مطالبه وإلى حاجاته، ولذلك المرء عليه أن يدعو بهذا الدعاء ويكثر منه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، العلماء لهم ملحظان في هذا الدعاء وكلاهما جميل، وهذان الملحظان نعيد عليهما ذكر ما تقدم كثيرًا في التفسير أنه لا يوجد آية لها تفسيرٌ واحد، بعض الناس قال: تنوع يعني التناقض، لا، تنوع التفسير تنوع الفوائد، فكل وجهٍ يفيدك تعبدًا لله، يزيدك علمًا بهذه الآية، يزيدك علما بنفس الله عز وجل وبأحكامه وبشرعه وبأخباره، فهنا طلب الأمان وطلب الرزق، فهو رأى أن هذا الوادي غير دين زرع فالبلدة إذا قامت فيه مآلها الجوع والتعب ومآل أهلها التعب والرهق، فدعا الله عز وجل أن يرزق هذه البلدة الثمرات، يجبى إليها ثمرات كل شيء، كما قال الله عز وجل ووصفها: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢]، هذه مكة، من كل مكان يأتيها النعيم، هي جرداء لا ينبت فيها زرع ومع ذلك يأتيها النعيم من كل مكان استجابةً لدعاء إبراهيم عليه

السلام، هكذا قدر الله عز وجل هذا الأمر فأجرى هذا التقدير على لسان إبراهيم بالدعاء عليه السلام، فكان له الفضل.

قوله: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ﴾، للعلماء ملحظان:

الملحظ الأول: أن هذا من إبراهيم عليه السلام جرى على معنى ما تعلمه مما تقدم، ماذا تقدم؟ لما قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، ماذا قال الله عز وجل؟ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فأطلقها من غير تقييد ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، صالحين غير الصالحين لم يقيدها، فقال الله عز وجل: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، يعني هل ستكون إمامة؟ إي النبوة، الذي خلا فيك الصالحين ولن ينالها الظالم.

وللذكر هنا فقط في الآية أنبه صاحب «البحر المحيط» أبو حيان الأندلسي، عندما جاء إلى هذه الآية: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾، فإنه جعل يتكلم عن شروط الإمامة اتباعًا لما يتكلمه أهل الأصول، وقال: وهو ليس من أبواب التفسير، ولكنه صار يجري عليه، نحن إذا رأينا هذا الفعل وتذكرنا ما قاله سابقًا، قلت: بأنه قال: بأن إدخال العلوم في بعضها البعض ليس من العلم، ليس من طريقة العلماء، قال هذه الكلمة، وفي «البحر المحيط» قال: إن كلام أهل العلم في غير الفن الذي هم فيه يعني التفسير يتكلم فيه الفقيه، المفسر في القرآن يتكلم في الأصول، قال: هذا ليس من سبيل أهل العلم، وذكر كلام شيخه في هذا وأيده، ولكنه لما أتى إلى هذه الآية، أفاض في ذكر ما ليس داخلاً في التفسير وهو الكلام عن شروط الإمامة، فقط هنا ننبه لهذا الأمر من هذا الإمام العظيم، فلا بد أن الناس يقولون ويقع منهم ما يخالفهم وهذا ليس مما يعاب، يعني لا أحد يحتج بها كآية وحديث أن هذا الأمر يجري على هذا المعنى فليس صحيحًا.

إذن الملحظ الأول عند العلماء: في أن الله عز وجل أخبرنا بأن إبراهيم عليه السلام عندما تعلم تقيد العطاء بالصلاح، فقيد هنا العطاء المادي بالصلاح، الأول العطاء أين؟ ليس في المال، الأول عطاء إمامة، نبوة، تقوى، صلاح، فهو عطاءٌ في موضوع إمامة الدين، فجاء الشرط، فإبراهيم هنا فهم أن شرط الإيمان لكل شيء تأدبًا وخوفًا، تأدبا واعتبارًا، تأدبًا ألا يقع الطعام في يد من لا يحبه الله، فقال: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فرد الله عز وجل عليه وقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، أي العطاء المادي والدنيوي ليس من شرطه أن يكون المرء مؤمنًا بالله واليوم الآخر، ولا أن يكون تقيًا صالحًا، بل الكافر يرزق كما يرزق المؤمن، بل الله عز وجل يقول: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥]، فالدنيا يعطيها الله عز وجل، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، فلذلك هذا القيد بالطعام والشراب والرزق والمتعة وتمتع المرء في هذه الدنيا، ليس من شرط تمتعه في النعيم بهذه الدنيا أن يكون مؤمنًا، هذا الملحظ الأول.

الملحظ الثاني: بعض أهل العلم لم يقولوا: لا، ولكن لهم وجهةٌ أخرى، الوجهة الأخرى أن إبراهيم عليه السلام لم يرد أن يدعو للكافر أن يرزقه الله، أن يجري هذا الرزق من الله عز وجل للكافر جريًا على قدره فيما قدر أن يطعم الكافر والمسلم فهذا شيء، ولكن أن يدعو هو أن يرزق الله الكافر، لا، ولذلك لما قال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، هذا دعائي، فالله عز وجل يقول: والبقية ليس من دعائك، أنا أعطيهم لما أجريته من أقداري.

وقالوا: بأن المؤمن لا يدعو للكافر بكثرة العطاء، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على قريش سنين كسنين يوسف سبع سنوات حتى أكلوا الجيف، وفسر ابن مسعود رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢)﴾ [الدخان: ١٢]، وبدخان يغشى الناس، فسره بشدة الجوع الذي أصابهم فصاروا يرون من الجوع السراب حقيقة، هذه فسرها في سورة «الدخان» لما ترجعوا إليها مع أن العلماء لم يقبلوا هذا التفسير من ابن مسعود رضي الله عنه، لكن من شدة جوعهم صاروا يرون سراب حقيقة، «بطلوا يشوفوا الفضا ذي ما يقولوا في العوام عندنا».

فالقصد: بأن المؤمن لا يدعو للكافرين بالطعام والشراب والمتعة، بل يدعو بدعاء موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس: ٨٨].

لماذا لا تدعو للكافر بالعطاء؟ لأنه بهذا العطاء يعصي الله عز وجل، يعني أنت إذا دعوت لفاسق ودعوت لكافر بأن يرزقه الله المال، فما الذي سيفعله بهذا المال؟ هل يطيع الله بهذا المال؟! لا، لن يطيعه، ولذلك في الحديث قال صلى الله عليه وسام: (لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي)، فالدعاء كأنك تقدم له، فلا تقدمه إلا لتقي.

فقال سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، أي أهل هذا البلد يعني المقيمين فيه ومن انتسب إليه، قال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، والإيمان بالله واليوم الآخر يتبعه كل أعمال الشريعة وكل الأوامر العقدية هي أساس كل شيء الإيمان بالله واليوم الآخر، قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، الله عز وجل رد عليه، أي الله عز وجل قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، ماذا يفعل؟ قال: يعني أعطيه أرزقه من الثمرات، والكافر أرزقه من الثمرات ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾، أي بهذه الثمرات يتمتع بها، يذوقها على معنى المتعة ويذوقها على معنى المتاع وهو الملك ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾، أي هذه الثمرة تصبح عنده متاعًا يعني مالاً وعلى معنى المتعة التي يتلذذ بها، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان: ٤٩]، ثم قال: ﴿قَلِيلًا﴾، ذلك لأن الحياة الدنيا هذا شأنها أن يمتعه قليلاً بعد ذلك يأتي العذاب، قال: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾، أي يدخله جهنم رغم أنفه، فالاضطرار لا يأتيه المرء مختارًا، بل الاضطرار هو الجبر، لا يقع الاضطرار إلا على معنى الجبر، فالناس لا يدخلون جهنم مختارين وانما يدخلونها اضطرارًا.

انظر في الدنيا يرزقه قال: قابلت أُمتعه، فيها المتعة، وهذا مما يبيّن لك في صورتك الذهنية أنه يأتي إليها راغبًا، أُمتعه، فلما واحد يُدعى إلى شيءٍ يمتع ماذا يأتي إليه؟ ما هي الصورة الذهنية التي تعطيك كلمة أمتعه؟ يعني يفعلها مختارًا، يفعلها راكضًا، يفعلها راغبًا، يفعلها فرحًا، هو في الدنيا هذه صورته، انظر الصورة الأخرى ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾، انظر هذا الأخذ الشديد من المتعة القليلة ليأخذه رغمًا ﴿أَضْطَرُّهُ﴾، هنا اختيار وهنا اضطرار، هاتان الكلمتان تصنعان صورةً ذهنيةً عجيبة لكل واحدة، وهي مناقضة وفيها الألم الشديد.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾، وهذا تقدم ذكره كثيرًا، قال سبحانه وتعالى تأكيدا للقليل أن هذا زائل يعني هذا النعيم زائل فهناك شيءٌ باقي، ماذا قال؟ ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾، ما هو المصير؟

المصير هو الشيء الذي يصير المرء إليه فيقيم فيه، فبيّن سبحانه وتعالى حال ما يُعذب به من جهة نوع العذاب ومن جهة مدته، بيّن نوع العذاب وهو عذاب النار، وبيّن طول مدته ومكثه، فقال: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾، وتقدم الكلام عن بئس وهي ضد نعمة وهي دالةٌ على الشقاء والعذاب، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم والحمد لله رب العالمين، نتابع إن شاء الله في الدرس القادم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس التسعون

إن الحمد لله نحمده وتعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلاً وسهلاً بالإخوة الأحبة بعد طول انقطاع عن دروس تفسير نعود إليها مع الدرس «التسعون»، فقد تقدم الكلام عن بعض سورة «البقرة» إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

أكرر هذا هو الدرس «التسعون» من دروس التفسير وما زلنا مع سورة «البقرة» ومع الآيات المتقدمات الجليلات، نعيد فقط تذكيراً كل هذا الحديث في تقدمة فضل البيت وبانيه، وفضل قيمته توطئةً لما سيقع بعد ذلك من تغيير القبلة، وقد تقدم بعض الكلام لمن تابع، بأن الله سبحانه وتعالى لا يُفاجئ العبيد مفاجأةً تصدمهم إلى النكران، أو إلى عدم الفهم والدهشة، ولكن سبحانه وتعالى وهو الحكيم بعبيده يُوطئ لهم الأحكام والأقدار توطئةً من أجل أن يقع معنى الحكمة من الفعل ومن الأمر، وكل ما تقدم، وقد تقدم كثيرٌ من الأمور التي تبيّن توطئة الأمر العظيم، الذي سيسميه الله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٣].

فالقرآن يبين لنا أن أمر تحويل القبلة هو أمرٌ عظيمٌ جليل، ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾، أي الذين يلتزمون بأوامره ويتبعون أحكامه حيث ما توجهت، لعلمهم بأنهم عبيد وأنه سبحانه وتعالى

هو الآمر الناهي وأنه الرب الذي له الحق أن يأمر فيطاع، فهذه كلها توطئة لشأن عظم البيت وكيف بني وتاريخ هذا البيت ومن بناه، وعلى أي حالٍ من البناء بني، تعلمون هنا أنبه إلى أن الأحكام الشرعية والعطات الإلهية لا تقع إلا مقرونةٌ بالبلاء، كما أن القرآن نزل بحزن؛ فاقرأه بحزن، هذا القرآن نزل ليس في أماكن الراحة واللهو واللعب والغفلة، هذا القرآن نزل في مواطن البلاء، الآيات العظيمة نزلت في مواطن البلاء والدم والجهد والعرق، وكانت الآيات تنزل كذلك في مواطنها من هذه المقامات العظيمة ومنها مقام العبادة، الله عز وجل نادى زكريا وهو قائم يصلي في المحراب، زكريا دخل على مريم وهي تُعطى من العطاء الإلهي من الطعام وهي قائمةٌ تصلي في المحراب، فهذا الكرم الإلهي يعطى في البلاء، وهذا البيت أساس معرفة الناس لعظمته وقع على معنى البلاء، حين أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام أن يحمل ابنه وزوجته ويضعهما في هذا الوادي المقدس، حيث لا كلأ ولا طعام ولا ماء ولا أنيس، فهذا البيت بُني على معنى التضحية، وعلى معنى البلاء، وهذا هو قرين العظمة الإلهية والتكريم الإلهي والبركة الإلهية مع البلاء.

والله سبحانه وتعالى هيأ لهذا البناء أسبابه العظيمة في ذلك، وادخره إلى أبي الأنبياء وإمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام وإلى ابنه إسماعيل الأكبر الذبيح والصحيح أنه هو الذبيح إسماعيل عليه السلام.

القصد: هذه الآيات كلها كما نرى هي توطئة لما تقدم ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾، هذا التعظيم الإلهي، كيف بُني؟ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، حيث أن هذا البيت يكون في بلد أمن والله عز وجل جعله مثابةً للناس يثوبون إليه مرة بعد مرة، وجعله آمنًا من دخل فيه فهو آمن.

وهنا الله سبحانه وتعالى بيّن لنا من أكرم من عبيده في بناء هذا البيت، يبيّن لنا من أكرمهم، وهذا البناء العظيم لابد أن يبنيه رجلٌ عظيم، وهو كذلك إمام الموحدين عليه السلام وأبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، ومعه ابنه البكر الأول إسماعيل عليه السلام أبو العرب، فالله عز وجل يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، هنا فقط كلمات سريعة نرى أن الله سبحانه وتعالى فصل بين ذكر إبراهيم وبين ذكر إسماعيل، لم يجعلهما في مقامٍ واحد، وهذا من الأمور المهمة التي علينا أن ندركها في كلام البلغاء، فكيف في كلام رب العالمين، الحكيم، فلم يقل سبحانه وتعالى: وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد،

بل قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾، فالكرامة الأولى موجهة والفضل الأول موجه إلى الأب إلى إبراهيم عليه السلام،

هذا النبي الذي لم يتحدث القرآن عن أحد من الأنبياء كما تحدث عنه من جهةٍ شخصية، هو تحدث عن موسى عليه السلام في حديثه مع قومه في حديثه مع فرعون، ولكن الحديث عنه كشخص لم يتحدث القرآن عن أحدٍ قط كما تحدث عن إبراهيم الخليل عليه السلام، تحدث عنه وبيّن مواطن حركته وبيّن كلامه وبيّن أفعاله بتفصيل لأنه خليل الله، وهذه الخلة لم تنشأ إلا بسبب أنه أتم كلماته، ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ كما تقدم، أي أتى بهن على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، وهي كلمات ابتلاءٍ خُلصت فيها كل هذه الأفعال خُلصت إلى أنه لا يحب إلا الله ولا يطيع إلا الله، وليس في قلبه إلا الله ولذلك هو خليل الله، تخللت محبة الله عز وجل قلبه، تخللتها حتى لم يبق في القلب سوى الله سبحانه وتعالى.

فالله عز وجل يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾، فالفعل والفضل والتعظيم إنما هو لإبراهيم عليه السلام، وإسماعيل في هذا الباب لاحقٌ له، وليس في مقامه ولا هو مشاركٌ له مشاركة النصفة، لا، بل هو يشاركه مشاركة المساعد ولذلك أبعد الله ذكره بعد أن سمع السامع لهذا الكلام أن الفعل أولاً وآخراً هو منسوبٌ إلى إبراهيم عليه السلام، وأن هذا الفضل هو ملتحقٌ أصلاً وأساساً بهذا النبي العظيم، ثم يلتحق بالمشاركة والتبع ابنه إسماعيل عليه السلام.

ونحن نتحدث هنا عن مقامات الأنبياء، وإبراهيم عليه السلام هو من أولى العزم من الرسل، الذين ذكر شأنهم في سورة «الأحزاب»، وذكروا في سورة «الشورى» أولو العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء هم أولى العزم من الرسل، فالفضل يعود إليه، وإسماعيل عليه السلام تبع له، وهذا لا يقلل من شأن إسماعيل عليه السلام فهو نبيٌ عظيم، ولكن المسألة هي منافسة أنبياء ومقامات أنبياء، وليس بين الأنبياء وغيرهم، وهذا نبي وهذا نبي، وأبناء إبراهيم عليه السلام من الأنبياء إسماعيل عليه السلام نبي وهو الذبيح، وإسحاق عليه السلام والله عز وجل رزقه إسحاق يعقوب وهكذا، فهو أبو الأنبياء.

فالله عز وجل يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾، اختلف أهل العلم هنا بحسب الروايات وكلها لا يصح منها شيء مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ليُقطع في هذا الباب؛ لأنه من أمور الغيب، وإنما الذي يقال من كلام غير النبي صلى الله عليه وسلم وهنا يقع الاختلاف في كلام الناس في تاريخية بناء البيت، مع اتفاقهم على القدر المشترك المذكور نصاً في كتاب ربنا سبحانه وتعالى وصراحةً، وهو ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران: ٩٦]، والبيت وضع لله عز وجل، يعني سمي بيت الله هو الذي في مكة وهو بيت الله الحرام، البيت العتيق، فهذا أول بيتٍ وضع للناس، وقبله لم يكن هناك موضعٌ يسمى بيت الله للناس يجتمعون فيه ويؤدون عبادتهم وصلاتهم.

فالله عز وجل أمر إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت، وسنأتي إلى الروايات في كيفية تطبيق إبراهيم عليه السلام لهذا وما ورد في هذا الباب كما ورد في كتب التفسير، ولكن أولاً هل إبراهيم عليه السلام بنى القواعد أم أن إبراهيم عليه السلام رفع القواعد، هذا خلاف، والذين قالوا: بأن القواعد موجودة قبل إبراهيم عليه السلام، اختلفوا من وضعها، فالذين قالوا: بأن إبراهيم عليه السلام هو الذي وضع القواعد، وهذا القول تميل إليه ظواهر بعض ألفاظ الأحاديث الصحيحة، مثل قول عائشة رضي الله عنها في حديثها عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لولا أن قومك حديث عهدي بكفر لانقضت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم)، فهي قواعدٌ له، أي هو الذي بنى القواعد.

وكذلك ذِكرهم لما بنيت هذه القواعد لما هدمت الكعبة وسنأتي إلى بعض تاريخيتها مما يسمح به المقام، وإلا هناك كتب اختصت بذكر تاريخ مكة وتاريخ هذا البيت الحرام، أجلها وأكثر من كتب فيها من الأقدمين هو الأزرقي في كتابه «تاريخ مكة»، وهو كتابٌ مطبوع ومشهور محقق وفيه أخبارٌ عجيبة في هذا الباب، مما تناقله الناس والرواة والمؤرخون، فالأقرب بأن الذي وضع القواعد هو إبراهيم عليه السلام.

وهناك من لا يرى ذلك، ويرى أن القواعد أعظم من أن يحملها رجلان، حيث ذُكر بأنه لما نقضوا الكعبة من أجل أن أجل تُبنى كما سيأتيه في زمن ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما أنهم رأوا حجارةً لها أسنمة كأسنمة الجمال البُخت، لا يقدر ثلاثون رجلاً أن يحملوا حجراً واحداً، فلهذا قالوا: هذه القواعد أصل هذا البيت بنيت قبل إبراهيم عليه السلام وإنما إبراهيم عليه السلام جاء ورفع القواعد، فمن الذي

بناها إن لم يكن إبراهيم عليه السلام وقبله؟ فاختلفوا وقالوا: أن آدم هو الذي بناه، وبعضهم قال: الملائكة نزلت وهي التي وضعت أساس هذا البيت، وهذه تواريخ لا ندري مدى صحتها، ولكن الأقرب بأن الذي بنى هذه القواعد هو إبراهيم عليه السلام مع إسماعيل، ظاهر هذه الألفاظ.

وهذه القواعد بقيت مستقرة ولا تزول حتى يخرج ذو السويقتين فينقض الكعبة حجراً، حجرا، ينقضها ويستخرج كنوزها، وهذا دليل على أن تحت الكعبة من الكنوز ما لا يعلمه إلا الله، والله منعها حتى يأتي هذا الحبشي، رجلٌ أسود من الحبشة يأتي كافرًا وينقض هذه الكعبة.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾، يعني هو الذي بنى القواعد، من أين أتى بالحجارة؟ أتى بالحجارة من جبال مكة، وكان الذي يحضرها له هو ابنه إسماعيل عليه السلام، فهو الذي يبني ويرسل ابنه إسماعيل عليه السلام لقطع الحجارة، ويذهب معه تارةً فيقطعان الحجارة ويحملانها من الجبال إلى الوادي، فيبنيان هذه القواعد ثم يرفعان هذه القواعد، حتى اكتملت بيتاً، اكتمل هذا البيت بيت الله عز وجل وهو كما نرى، إلا ما سيأتي من ذكره بأنها الآن ليست مبنية على قواعد إبراهيم الآن ليست مبنية، وسبب عدم بنائها أنه لما جاء سيلٌ عظيم أمطرت وأنتم تعلمون أن مكة في وادٍ، كما وصفها الله عز وجل في وادي، فكان إذا نزلت الأمطار يمر هذا الماء الوادي فيطم هذه الكعبة، حتى أن ابن الزبير روي عنه أنه كان يطوف سباحةً عندما تكثر هذه المياه وتتجمع في الوادي، فكان ابن زبير من شدة شغفه وحبه للعبادة كما هو مشهور عنه رضي الله عنهما هو ووالده الزبير، عبد الله ابن الزبير كان يطوف سباحة.

فمرةً في الحادثة المشهورة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم حي وكان فتى، فجاء سيلٌ عظيم فهدم الكعبة، وقريش تعظم هذا البيت وتعلم ما الفرق بين المال النجس والمال الطاهر الحلال، فتمالؤا فيما بينهم وتناصروا أن لا يُبنى هذا البيت إلا بمالٍ طاهر، فتجنبوا أموال الربا وأموال لصوصية وأموال البغاء، التي تأتي عن طريق البغاء، فوجدوا أن أطهر أموالهم هو حُلي النساء، هذا أطهر أموالهم، بحثوا ونظروا في عقولهم فوجدوا أن أطهر مالٍ في مكة هو مال حُلي نسائهم، فدعوا إلى التبرع وتجميعه فجمعوا فقصرا المال عن بناء البيت، الحجارة هي الحجارة بقيت الحجارة هذه الحجارة التي بُنيت الآن هي نفس الحجارة بنيت في زمن إسماعيل عليه السلام، كانوا يجمعون الحجارة بعد تفرقها بسبب

السيل، فيجمعون الحجارة ويبنونها من جديد، المال قصر لم يكن كافياً لبناء البيت كاملاً، فقصروا في ارتفاعه وأخرجوا الحِجر الذي يسمى حِجر إسماعيل اليوم أخرجوه من البيت تقصيراً، ووضعوا هناك إشارات من خشب لتمنع الناس من الطواف، لئلا يطوف المرء داخل البيت وليطوف خارجه والطواف داخل البيت لا يجوز ولا يسقط الطواف الواجب، فقصرت أموال قريش، فكان هذا البيت في قصره وبطوله.

وبقي كذلك إلى أن قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: (يا عائشة لولا أن قومك حديثوا عهدٍ بكفر لنقضت الكعبة وبنيتها على أصول إبراهيم، على قواعده)، وبقي هذا جارياً حتى غزيت مكة من قبل بني أمية فاحرقوا الكعبة ورمي عليها بالمنجنيق فحرقت، فأراد ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما وكان فقيهاً عالماً شجاعاً عابداً، فاستغل هذا الظرف لبنائها على أصول إبراهيم، وتذكر حديث خالته التي تكنت به، عائشة رضي الله عنها خالته كانت تُكنى به بأم عبد الله، كان يقال لها أم عبد الله تكنيةً لها هذا الرجل الصحابي الجليل، ولعن الله من مبغضيه، وهو خليفةٌ راشد، الخلفاء الراشدون هو منهم فكان خليفة عبد الله ابن الزبير رضي الله عنهما، لكن لم تطل مدة حكمه وإن كان قد غلب على أكثر البلاد إلا الشام ومصر.

فاستغل ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما استغل أن تحرق الكعبة من أجل أن يبني على أصول إبراهيم، وتذكر حديث خالته له وما أخبرها النبي صلى الله عليه وسلم به، فرفع طولها ومدها حتى غطت الحِجر وبهذا تم الفضل له، وبقيت كذلك، واستعان بحجارةٍ من مكة، لأنها ستزداد فيحتاج إلى حجارة، فقطعت هذه الحجارة من مكة ووضعت، فزادها طولاً، وكذلك مدها على أصول قواعد إبراهيم عليه السلام، وبقي الأمر كذلك حتى قُتل رضي الله عنه.

فلما قتله الحجاج ودخل الكعبة فأرسل الحجاج إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يخبره بما فعل ابن الزبير، فغضب عبد الملك وقال: لا حاجة لنا، ولم يكن يعلم أن ابن الزبير –وهذه من الأمانة التاريخية حتى لو كره الناس عبد الملك بن مروان لصراعه على الملك وما شابه ذلك– إلا أنه لم يكنني يعلم أن ابن الزبير قام بهذا الفعل من أجل تطبيق الحديث، قال: ما لنا ولما فعل ابن الزبير أو لطخات ابن الزبير أو ما شابه ذلك، وأمر الحجاج بأن يبقيها على ارتفاعها ولكن يعيد إخراج الحِجر منها، وهكذا فعل الحجاج، وفعل

ابن الزبير هو الأصوب، وما فعله الحجاج بإمرة عبد الملك هو الخطأ، وبعد ذلك علم عبد الملك بن مروان بأنه قد نقض فعلاً فعله غريمه على وجه الديانة وليس على وجه التنافس ولا المباهاة وإنما على وجه امتثال النص النبوي الشريف، فندم وتمنى أنه لو أبقاها على ما بناها عبد الله بن الزبير.

وبقي الأمر كذلك حتى جاء هارون الرشيد أو والده المهدي، فلما سمع بالخبر أراد أن يعيدها على ما كان عليه بناؤها في الأصل وما فعله ابن الزبير رضي الله عنهما، فاستأذن في ذلك الإمام مالك عليه رحمة الله، وهذا من فقه المصالح عند مالك والإمام مالك هو إمام هذا الباب، يقول الذهبي بأنه لا يوجد فقيه أجرى معنى المصالح الشرعية على ما أجراها عليه مالك بن أنس عليه رحمة الله إمام أهل المدينة، فاستأذنه في أن ينقض الكعبة -وهناك طرفة سأذكرها لما زالت الحجارة في زمن الحجاج نعود إليها لكننا نتابع- فلما استفتى مالكًا رفض مالك رحمه الله وهذا من فقهه، ومنع أن تتخذ الكعبة مطيةً للملوك وأفعالهم ومنافسةً فيما بينهم، كل ما جاء ملك لا يعجبه فعل الذي مضى؛ فيقتدي بعبد الملك بن مروان فيهدمها ويقتدي بفعل الحجاج فيهدمها، واحد يأتي يهدمها وآخر يبنيها على فعل ابن الزبير وهكذا تصبح الكعبة لعبةً بأيدي الملوك، فمنعه، وهذا من فقهه رحمه الله، مع أن الأصل هو الأصل وهو الصواب.

وهنا تأتي هذه القاعدة: بأنه قد يكون الفعل في ذاته أصوب، ليس خطأً بل أصوب، فهناك صواب وهناك أصوب، وهناك صواب وهناك خطأ، ففعل ابن الزبير هو الأصوب، وإبقاء النبي صلى الله عليه وسلم، فالنبي صلى الله عليه وسلم أبقاها، لماذا؟ خوفًا من ردة قريش، لأنهم حديثوا عهدٍ بكفر فخاف أن يُبتلى إيمانهم بهذه الحادثة فيكفرون، وهذا الذي أخذه مالك، خاف أن تصبح الكعبة مطيةً ولعبةً للملوك، حتى ولو كان الفعل هو الأصوب والأصلح، لكنه مع المآل يؤدي إلى الفساد.

وهناك رواية عجيبة أنه لما الحجاج هدم الكعبة وأعادها على أصول ما بنتها قريش وغير ما فعله عبد الله بن الزبير فزادت عنده الحجارة، أين يذهب بها؟ هذه حجارة مسجد، بيت الله، فأرسل إلى أسماء أم عبد الله بن الزبير، أخت عائشة رضي الله عنها من أمها وأبيها شقيقتها، وهذه امرأةٌ عجيبة في التاريخ! أحب أن تقرؤوا سيرتها وأخبارها، وقد عميت في آخر عمرها وضرت رضي الله عنها، فأرسل إليها الحجاج رسولاً يسألها ماذا يفعل بهذه الحجارة؟ فقالت: ليجعلها في فيه، فظاهر الكلام أنها مسبةٌ عليه أي يضعها في فمه،

يأكلها، لكن الحجاج رجلٌ من أذكياء التاريخ، فيه رهق ومُبير مفسد لكنه ذكي، هذا معروف عنه، فخاف حامل الرسالة أن يبلغه حتى أجبره أن يخبره ماذا قالت له أسماء، فقال قالت لي: اجعلها في فيه، قال: صدقت، اجعلوها في فم الكعبة، في فم البيت، فأخذ الكلام على معنى من الصواب. وهكذا بقي البيت وفيه تغيرات إلا الحجر الأسود، فإن جميع حجارة البيت من مكة وجبالها ووديانها إلا الحجر الأسود فإنه نزل من السماء حجرًا أبيضًا صافي لا شية فيه، سودته ذنوب بني آدم.

وهناك قصص كيف نزل إلا أن إسماعيل عليه السلام أرسله أبوه ليحضر حجارة، فرجع وقد وجد حجرًا بين يدي أبيه فسأله، فقال: من أين لك هذا؟ من الذي أحضر لك هذا الحجر؟ وكان إبراهيم قد أسن لا ينزل عن مقامه، لماذا اتخذ ابراهيم عليه السلام المقام –مقام إبراهيم– أي هو المكان الذي يقف عليه من أجل أن يبني؟ اتخذه لأنه تَعِب، فأحضر هذا ووقف عليه وهذا الذي هو مقام إبراهيم عليه السلام، فجاء إسماعيل عليه السلام فوجده بين يديه، كيف نزل عن المقام وهو شيبة؟ فسأله عنه؟ فقال: هذا أعطاني إياه من لا يرد أمره وأشار إلى أن الله عز وجل هو الذي أنزله عليه، الملائكة حملته من السماء ومن الجنة، فالحجر الأسود من السماء من الجنة، وسودته ذنوب ابن آدم، لكن هذا الحجر اليوم غير مجتمع مفتت، من ذهب إلى الكعبة يراه مفتتًا، لأنه كسر مرات، لأسبابٍ كثيرة، منها:

ما فعله القرامطة، أجداد هؤلاء القرامطة من الحشاشين والغلاة في بغض صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، أجدادهم، القرامطة الذين هم الإسماعيلية، وهي فرقة من فرق الرافضة، فغزوا الكعبة وحرقوها، حرقوا ستائرها، وذهبوا إلى الحجر فقلعوه من مكانه وحملوه على جمل ورحلوا به إلى البحرين، مجمع ما يسمى بالخليج العربي وبحر العرب هنا أقاموا فيه وبقي سنين طويلة حتى استنقذه خلفاء المسلمين بدفع المال بالفدية، لم يستطيعوا استخلاصه بالقوة حاولوا ولم يستطيعوا، فدفعوا لهم الأموال حتى أعاده هؤلاء المشركون إلى مكة، وضربه أحدهم بدبوسٍ له فكسر، فبدأ تفتته بسبب عوامل كذلك أخرى، وحتى الآن هو مغروسٌ في الفضة السوداء لتشاكله في اللون.

القصد: أن هذا البيت أول من بناه هو أبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وما هو من هو البيت الثاني؟ هو المسجد الأقصى، ومن بناه؟ الذي يذكرونه إسحاق، بينهما أربعون عامًا، بين بناء المسجد الحرام

والمسجد الأقصى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران: ٩٦]. وهذا زيارته بعد إبراهيم عليه السلام كان جميع الأنبياء يحجون بالمؤمنين بهم إليه، بعد إبراهيم عليه السلام كل الأنبياء حجوا إلى البيت الحرام، والنبي صلى الله عليه وسلم مر على وادٍ وهو أتٍ في حجة الوداع وقال: (إني رأيت موسى بين مهرودتين ملبيًا في هذا الوادي)، فموسى عليه السلام حج إلى هذا البيت، فكل الأنبياء عليهم السلام حجوا مع أتباعهم المؤمنين إلى البيت، والله عز وجل جعل هذا البيت للصلاة والمثابة وجعله كذلك -كما سيأتي إن شاء الله- أنه جعل فيه المناسك ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨]، كما سيأتي، وكيف حصلت هذه المناسك على المعنى الذي بني عليه البيت، ما هو المعنى الذي بني عليه البيت؟ البلاء والصبر وكذلك المناسك أقيمت على هذه المعاني من البلاء الذي وقع، كما سيأتي.

فالله عز وجل يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾، أي يرفع بنيانه أو يرفع قواعده يقيمها ويبنيها، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾، القواعد جمع القاعدة، والقاعدة هي الأصل، يقال: قاعدة أو فرع، فالقاعدة هي الأصل والفرع هو الذي يُبنى عليها، فجمعها قواعد، لماذا يقال عن النساء قواعد؟ لأنهن يقعدن، وشأن القعود الثبات، ما هو شأن القاعدة؟ الثبات أنها ثابتة، وإذا جلس المرء ثبت سمي قاعدة، فتسمى النساء القواعد.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، ما هو شأن حركة قلوبهم مع هذا البناء؟ يظهر من خلاله كلام ألسنتهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، وقال تعالى: على لسانهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾، هذا شأن العبد التقي، ما هو شأنه؟ أن يمتثل أمر الله عز وجل ويخاف ألا يقبل منه مخافة الزلل والخطأ والتقصير في الفعل ومخافة حصول معاني لا يحبها الله عز وجل في القلب، وهي معاني كثيرة، ومنها الرياء ومنها الافتخار ومنها العُجب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)﴾ [المدثر: ٦]، ومنها المنّ، فيخاف فلذلك العبد يفعل الفعل ثم يستغفر، قال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات: ١٨]، يقومون الليل فإذا جاء السحر استغفروا أنهم قصروا أو مع خوفهم ألا يقبل منهم، فقالا: ﴿رَبَّنَا﴾، يدعوان.

ونحن نراقب كل أفعال الأنبياء وتحركاتهم نجد أن هذه الحركات دائماً مصحوبة بالدعاء، دائمًا في كل حركة، انظر إلى موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص: ٢١-٢٤]، هذا هو شأن الأنبياء، ليس هو شأن الفعل ولكن شأن القلب، ليس هو شأن العُجب أنهم أنبياء ولكن شأن العبادة والتواضع والإخبات والإنابة إلى الله والخوف من الله، (إني لأعبدكم لله وأخوفكم منه)، الأنبياء يخافون الله لأنهم أقرب إلى الله من خوف غيرهم، مع أنهم أقرب إلى الله وأحب إلى الله وأخبت إلى الله، وأعبد لله عز وجل، لكنهم مع ذلك كله يخافونهم وهذا هو شأن القرب من الله، فإن شأن القرب من الله أن يصنع الخوف كما يصنع الحب، كما يصنع الرجاء، كما يصنع الشكر.

فإذن انظر ﴿رَبَّنَا﴾، اثنان كلاهما يدعوان، يهزجان بهزيجٍ واحد وكلمة واحدة، ﴿رَبَّنَا﴾ وهذا إقرارٌ بأنهم عبيد، ودعاء الرجاء في المكرمات والعطايا هو ربنا، دائماً في كل القرآن نجد كلمة ﴿رَبَّنَا﴾، نجد هذا متكرراً من إبراهيم عليه السلام في سورة «إبراهيم»، تتكرر ﴿رَبَّنَا﴾، ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)﴾ [إبراهيم: ٣٧-٣٨]، وهكذا، يتكرر هذا؛ لأن في ذلك تعظيمٌ لله عز وجل يحبه الله، وإقرارٌ بالفقر والحاجة في الإنسان كما هي حقيقته ويحب ذلك الله عز وجل، فإذا أحب الله عز وجل أهزوجة عبدٍ يتعبد بها ويذكر بها ربه أعطاه الله عز وجل مراده، لأنه يحبه ويرضيه، أنت عليك إن ترضي الله عز وجل أولاً، عليك إن ترضيه من أجل أن يقبل منك سؤالك، ومن هنا فيفتتح الدعاء بتعظيم الله بالحمد والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحينئذٍ يرضى الله عز وجل، أنت ماذا تقول؟ «ربنا ولك الحمد»، ماذا في أولها، ماذا قبلها؟ «سمع الله لمن حمده»، فالله يسمع لمن يرضيه.

وانظر إلى هذا الشيب الشيخ العظيم إبراهيم عليه السلام معه ابنه وهذا البناء على الصحيح تم في آخر مرحلة، في كل القصص في علاقة إبراهيم مع إسماعيل التي في السنة، كانت قبل البناء، يعني حادثة الذبح

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، مازال صغير لا يستطيع معه البناء، وكذلك قصة (غير عتبة بيتك)، هذه قبل البناء، ثم كما في الصحيحين جاء أمر البناء بعد ذلك كله، وقال إبراهيم لإسماعيل أن الله أمرني أن أبني في هذا المكان بيتا، فقال أجب نداء ربك، فقال وأمرك أن تشاركني أن تساعدني فأطاع، فلما أسلما كما في قضية الذبح، كيف وقع البناء؟ كيف علم المكان؟ ورد هناك آثار كثيرة منها أنه جاءت غيمة فوق إبراهيم وإسماعيل غيمة لها وجه دابة فصاحت فيه اتبعني لتعرف أين تبني، فدلته على المكان، هذا خبر والله أعلم به، وهذا يقع الأمر هو أمر رباني وهؤلاء الأنبياء يقع معهم المعجزات والكرامات.

وهناك خبر بأنه لما بدأ يبني جاءت الريح فسفت المكان وأظهرت قواعداً للبيت يمشيان على بنائها قيل هذا وقيل هذا والله أعلم، هذا من أخبار التاريخ، الذي نذكره فقط للمعرفة وليس للاعتقاد؛ لأنه ليس فيها نصٌ معصوم نرجع إليه.

فإذن ما دعاؤهما وهما يبنيان هذا البيت المبارك العظيم، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، وهذا لو تأمله العبد لعلم أنه ينبغي عليه أن لا يمُن، يعني يبنيان في هذا المكان المقفر مع التعب والرهق والمشقة ومع ذلك يرجوان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]، وتقبل الله عز وجل، أتعرف معنى قبل الله؟ ليس فقط قبل العمل، لا، الله عز وجل لا يقبل العمل، الله عز وجل يقبل صاحب العمل، ليس المقصود أن يقبل العمل، لأن العمل في ذاته كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى﴾ [الحج: ٣٧]، الله لا يريد اللحوم ولا الدماء، الله ماذا يقبل؟ يقبل العامل، يقبلك أنت وإلا فالله غني، وحين ينسب شيئاً إليه إنما ينسبه تشريفاً له، كما يقال: بيت الله، هذا من أجل يشرف البيت بنسبته إلى الله عزو جل.

فقلا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، أي هذا العمل لماذا؟ لتقبلنا، والله عز وجل قال على لسان أحد ابني آدم: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾ [المائدة: ٢٧]، هذا قدم ما أمر به من الذبح، وهذا قدم ما أمر به من الزرع، فالمادة موجودة ولكن القلوب مختلفة، فقولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، هو طلب بأن تزكى القلوب لتكون مرضية عند الله ليقبل منها ما تقدم، فإذا لم يصح هذا الفعل أو وقع فيه الخطأ لم يقبله الله، إذا وقع الخطأ من الفاعل في أن أنقص الفعل على وجه الخيانة، أو لم يأتي به على وجه الإخلاص لم يقبله الله، كما كان سبحانه وتعالى يفعل مع الغنائم، ماذا كان شأن الغنائم في زمن موسى عليه السلام؟ أنه تجمع الغنائم في

مكان، فإذا لم يكن هناك الغلول نزلت نار من السماء فأحرقتها أي قبلها الله عز وجل، وأما إذا كانت الخيانة والغلول فلم تنزل النار، الخيانة تمنع القبول، الرياء يمنع القبول، فهما يدعوان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾، هذا إقرار من هذين العبدين العظيمين بذكر صفتين لربنا سبحانه وتعالى هما من الأسماء الحسنى، ﴿السَّمِيعُ﴾، أي يسمع كلامهما وما يدعوان به وما يذكران ربهما في هذه الحال، ﴿الْعَلِيمُ﴾ وهو يعلم حالهما ويعلم ما في قلوبهما من الطاعة، ويعلم كذلك ما يفعلان من امتثال الأمر في البناء، أنت تسمعنا ما نقول، وتعلم ما في قلوبنا وما في أعمالنا، أقول قولي هذا واستغفر الله إن شاء الله نتابع في الدرس القادم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات

مقدمة الناشر..... ٥
الدرس الواحد والخمسون..... ٧
الدرس الثاني والخمسون..... ٢٨
الدرس الثالث والخمسون..... ٤٢
الدرس الرابع والخمسون..... ٥٨
الأسئلة..... ٧٦
الدرس الخامس والخمسون..... ٧٧
الأسئلة..... ٩٢
الدرس السادس والخمسون..... ٩٩
الأسئلة..... ١١٧
الدرس السابع والخمسون..... ١٢٥
الأسئلة..... ١٤٠
الدرس الثامن والخمسون..... ١٤٥
الأسئلة..... ١٦٥
الدرس التاسع والخمسون..... ١٦٩
الأسئلة..... ١٨٦
الدرس الستون..... ١٩٥
الدرس الواحد والستون..... ٢١٠
الدرس الثاني والستون..... ٢٣٠
الدرس الثالث والستون..... ٢٤٨
الدرس الرابع والستون..... ٢٦٤
الأسئلة..... ٢٨١

الدرس الخامس والستون ٢٨٥
الدرس السادس والستون ٢٩٩
الأسئلة ٣١٩
الدرس السابع والستون ٣٢٢
الأسئلة ٣٤١
الدرس الثامن والستون ٣٤٣
الدرس التاسع والستون ٣٦١
الدرس السبعون ٣٧٨
الدرس الواحد والسبعون ٣٩٧
الدرس الثاني والسبعون ٤١٤
الدرس الثالث والسبعون ٤٢٨
الأسئلة: ٤٤٤
الدرس الرابع والسبعون ٤٤٧
الدرس الخامس والسبعون ٤٦٢
الدرس السادس والسبعون ٤٨٠
الدرس السابع والسبعون ٤٩٦
الأسئلة ٥١٣
الدرس الثامن والسبعون ٥١٤
الدرس التاسع والسبعون ٥٣١
الأسئلة ٥٥٠
الدرس الثمانون ٥٥١
الأسئلة ٥٦٨
الدرس الواحد والثمانون ٥٦٩

الدرس الثاني والثمانون..... ٥٨٧
الأسئلة..... ٥٩٩
الدرس الثالث والثمانون ٦٠١
الأسئلة..... ٦١٨
الدرس الرابع والثمانون..... ٦٢١
الدرس الخامس والثمانون ٦٣٧
الدرس السادس والثمانون..... ٦٤٩
الأسئلة..... ٦٥٧
الدرس السابع والثمانون ٦٥٨
الدرس الثامن والثمانون..... ٦٧٠
الأسئلة..... ٦٨٢
الدرس التاسع والثمانون ٦٨٣
الدرس التسعون..... ٦٩٦